وزارة التعـليـم العالــي والبحــث العــلـمي
المــدرســة العليــا للأساتــذة
- بــوزريعـــة -

التحـــولات المذهبيـة فـــي المغـرب الإسلامي والأنـدلس خـلال العصر المـوحدي
(6 هـ - 8هـ / 11 - 13م)

أطــروحة مــُـقدمــة لنيل شهادة دكتــوراه في التاريــخ الوسيط

إعــداد الطــالــب :
مغـــزاوي مــصــطــفى .

إشــراف الأستــاذ الدكتــور:
خــالــد كبـيــر عــلال

السنـــة الجامعيــة :

1432 - 1433 هـــ / 2011 - 2012 .

وزارة التعليـم العالـي والبحـث العلـمي
المـدرسـة العليـا للأسـاتـذة
- بـوزريعـة -

التحـولات المذهبيـة فـي المغـرب الإسلامي والأنـدلس خـلال العصـر المـوحـدي

(6 هـ - 8هـ / 11 - 13م)

أطـروحة مـُـقدمـة لنيل شهادة دكتـوراه في التاريـخ الوسيط

إعـداد الطـالـب :
مغـزاوي مـصـطـفى .

إشـراف الأسـتـاذ الدكتـور:
خـالـد كبـيـر عـلال

اللجنة المناقشـة

- أ.د عبد العزيز شهبـي.. رئـيـسـا.
- د. بـشـار قـويـدر.. عـضـوا.
- د. مبـارك بـوطـارن..عـضـوا.
- د. بـوعلام صـاحي..عـضـوا.
- أ.د خالد كبيـر عـلال..مـُشـرفـا.

السنـة الجامعيـة
1432 – 1433 هـ / 2011 – 2012م .

بســـم الله الرحمان الرحيـــــم

قال الله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

[المجادلة:11] .

قال رســـول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى" .

البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الطبعة 01، دار طوق النجاة، 1422هـ، ج:1، ص:6.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية " لهذا كان قوام الدين: بكتاب يهدي وسيف ينصر، وكفى بربك هاديا ونصيرا " .

أمراض القلب وشفاؤها، القاهرة، مصر، المطبعة السلفية، ص : 50 .

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

شــكـر و تــقـديـر

الحمد لله وحده و الصلاة والسلام على من لا نبي بعده :

الحمد لله أولا وأخيرا ...

قال النبي صلى الله عليه وسلم: " لا يشكر الله من لا يشكر النـــاس ".

حديث صحيح (سنن أبي داود، المكتبة العصرية، لبنان، ج:4، ص: 255).

انطلاقا من ذلك لا يفوتنني في هذه الفرصة الطيبة وفي فاتحة هذا العمل المبارك إن شاء الله تعالى أن أقدم جزيل شكري إلى كل من ساعدني من قريب أو بعيد في إنجاز هذا العمل، وأخص من بينهم الأستاذ المشرف الدكتور خالد كبير علال، ولا يسعني إلا أن أدعو له بظهر الغيب أن يجازيه الله عني خير الجزاء لما ورد في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من صنع إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه".

حديث صحيح (سنن أبي داود، المكتبة العصرية، لبنان، ج:2، ص: 128).

كما لا يفوتني أن أشكر كل الأساتذة الذين كان لي شرف لقائهم أو مجالستهم أو محادثتهم والاستفادة من خبرتهم في الجزائر والمغرب.

والتحية خالصة إلى كل العلماء العاملين المخلصين في كل مكان.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

إهداء

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده :

إلى القلبيــن الرحيميـــن اللـــذان رعـــاني بعطفهمـــا وحنانهمـــا منـــذ الصغر فبعثا بي إلى شاطئ الإيمـــان والعلـــم ثـــم ســـارا بـــي علـــى طريق الشهامة والكرامة ... إلى أبي و أمي حفظهما الله .....

إلى القلوب الرحيمة التـــي أعطتنـــي دون مقابـــل : العائلـــة الكريمـــة، وأخص منهم بالذكر جدتي وعمي .....

إلى أعز ما أهدت لي أمي : إخوتي الكرام ...

إلى أصدقاء الإخلاص والوفا وأشقاء المبادئ والصفا......

إلى زملاء الدراسة ورفقاء درب الحياة الجامعية الطويلة.....

إلى زملاء المهنة في جامعة الشلف .....

إلى كل من عرفتهم وجعلت لهم مكانة في قلبي ....

إلى هؤلاء جميعا أهدي هذا العمل .

مقـــدمـــة البــحــث

تمهيـد

يُعتبر التاريخ المذهبي والعقيدي لدى المسلمين بابا – من أهم الأبواب – التي يجب تدارسُها وتداركُها والعناية بها تحقيقا وتصحيحا ونشرا، فالاطلاع على التاريخ المذهبي للأفراد والأمم يساعدنا – بلا شك – على تفهُّم الأحداث، وتفسير المواقف، وتحليل الأفكار، كما أن التنقيب في التاريخ المذهبي يُجيبنا على الكثير من الإشكاليات التاريخية وحتى المعاصرة، لاسيما وأنَّ جُلّ الدول التي قامت خلال التاريخ الإسلامي قامت على أساس ديني مذهبي .

وخلال العصر الإسلامي شهد الغرب والأندلس تحولات سياسية ومذهبية متلاحقة، ففي مطلع القرن 2هـ/7م تحول المغرب الإسلامي من العقيدة السنية المأثورة عن الصحابة إلى مذاهب دخيلة وَفَدَتْ عليه من المشرق، وصار مجزءاً إلى ثلاث دويلات (الأغلبية، الرستمية، الإدريسية) متناقضة فكريا ومستقلة سياسيا ومنفصلة جغرافيا، وما إن حلَّ القرن الثالث الهجري حتى خيَّم على المغرب الإسلامي تحول عقيدي آخر يُعتبر أخطر مما سبقه من تحولات عقيدية، لِما كان له من انعكاسات سياسية وجغرافية وعقيدية .

حيث فُرض على المغرب الإسلامي – بأقطاره الثلاثة – المذهب الشيعي الإسماعيلي تحت سلطة الدولة الفاطمية، وكان مخاض التحول أشدّ، باعتباره مذهبا أكثر غلوّاً وانحرافاً من كل المذاهب التي عرفها المغرب الإسلامي، وقد ظهر هذا التحول جليا بفعل طول أمد الدولة الفاطمية وسعيها الحثيث لتعميم المذهب في جميع أقطار المغرب الإسلامي، بعد أن استطاع الفاطميون القضاء على الدويلات الثلاث والإطاحة بمذاهبها.

أما التحول العقيدي الثالث فقد تأخَّر إلى منتصف القرن الرابع الهجري عندما تحول المشهد العقيدي في المغرب الإسلامي برمته إلى المذهب السني قمة وقاعدة، بداية من العهد الزيري وجهود المعز بن باديس، وانتهاءًا بالدولة المرابطية التي رسَّمته وقنَّنته وتكفَّلت برعايته وتقريره والذود عنه.

وفي هذا البحث سنحاول –بتوفيق الله تعالى– البحث في حيثيات الحركة المذهبية في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي أصولاً وفروعًا وتصوفاً، ودور السلطة والفقهاء في صنع الخارطة المذهبية في المنطقة.

<u>**التعريف بالموضوع**</u>

يُقصد **بالتحولات:** ما شهدته المذاهب العقيدية والفقهية والتصوفية من تقدمٍ وانتشار أو تقهقرٍ وانحسار بفعل تبنِّي السلطة للمذهب أو التخلّي عنه من جهة، وتأييد الفقهاء للمذهب أو الرد عليه من جهة أخرى، وانعكاس ذلك على العامة من حيث الإقبال عليه أو الإعراض عنه.

والمقصود **بالمذهبية:** الأصول وما يرتبط بالعقائد والغيبيات، والفروع وما يتعلَّق بالعبادة والفقهيات، والتصوف وما يتعلق بالزهد والسلوكيات، وهذه العناصر الثلاثة هي عِماد كل من يريد فحص الحركة المذهبية لمجتمعات التاريخ الإسلامي.

والمقصود **بالمغرب الإسلامي:** المفهوم الواسع الذي يشمل المغرب الإسلامي بأقطاره الثلاث الأدنى، الأوسط، الأقصى، بالإضافة إلى الأندلس، فالمعروف أنَّ تأثير الأندلس الفقهي في المغرب أبين من تأثُّر الأندلس بالمغرب، بينما كان التأثير السياسي للمغرب في الأندلس أقوى من التأثير الأندلسي في المغرب.

ومع ذلك فهما يُعدَّانِ قطرا واحدا من حيث الامتداد الجغرافي والمناخ السياسي والانتماء الديني، وإن أمكن فصلهما سياسيا في بعض الفترات التاريخية إلا أنَّه من العسير فصلهما فكريا وعلميا لأن بين علمائهما من التداخل والترابط والتواصل ما يتعذر معه الفصل .

وانصبَّت الدراسة على الفترة الموحدية أساساً، وشملت أيضا نهاية العصر المرابطي وبداية عصر الدويلات (الحفصية، الزيانية، المرينية)، وكان اختياري هذا مُؤسسًا على ثلاثة اعتبارات رئيسيَّةٍ هي:

1 – الفترة الموحدية – في اعتقادي – هي من أكثر الفترات في تاريخ الغرب الإسلامي التي شهدت تحولات مذهبية.

2 – والأهم من ذلك أنَّ الأوضاع المذهبية التي انتهى إليها العصر الموحدي ورسَّمتها السلطة وانتصر لها الفقهاء هي نفسها الأوضاع المذهبية التي استقرَّت عليها الدويلات الإسلامية بالمغرب الإسلامي بعد سقوط الموحدين.

3 – بالإضافة إلى أنَّ الفترة الموحدية تُشكِّلُ واسطة عقد تاريخ الغرب الإسلامي سياسيا ومذهبيا.

وفي دراستنا للتطور المذهبي خلال العصر الموحدي مَّيزنا بين العصر الموحدي الأول (541 هـ - 595 هـ/1146م – 1198م) وبين العصر الموحدي الثاني (595 هـ - 688 هـ / 1198م – 1288م).

وحاولنا أثناء البحث رصد مواقف السلطة والفقهاء من تلك التحولات المذهبية، باعتبارهما – أي السلطة والفقهاء- المحور الذي تدور عليه الحركة المذهبية، فالنَّاس على دين ملوكهم وعلمائهم.

دوافـــع اختيار الموضوع

جاء اختياري لهذا الموضــوع نابعــا ابتــداءً مــن ميولاتنــا الشخصــية للبحث في المواضيع الفكرية والمذهبية على وجه الخصوص.

كما أن الأوضاع المذهبية في الفترة الموحدية التــي بــُــنيت علــى أســاس المــنهج التــومرتي تثيــر فضــول الباحــث بتركيبتهــا الغريبــة وعناصــرها المتناقضة.

بالإضافة إلى رغبتــي فــي تقديــم صــورة متكاملــة عــن الأوضــاع المذهبية في الغرب الإسلامي خلال العصــر الموحــدي ضــمن عمــل واحــد يشمل الأصــول والفــروع والتصــوف، وهو عمــل غيــر مسبــوق حســب ما انتهى إليه بحثنــا.

ولاشكَّ أن تخريج عمل يجمع الحياة المذهبيــة خــلال العصــر الموحــدي- بمظاهرهــا وخلفياتهــا وانعكاســاتها- مــن شــأنه أن يــُـوجهَ البــاحثين المهتمِّــين بهذا الميدان، ويفتح المجــال للمتخصصــين الــراغبين فــي تعميــق تصوراتهم وفق الخريطة المذهبية للعصر الموحــدي.

كمــا أن التجربــة السياســية والمذهبيــة الموحديــة تجربــة نموذجيــة لدراسة وتلمُّــس دور السلطــة والفقهاء في تقــدُّم المذاهب وتراجعها.

كما أن الإقبال على اختيار هذا الموضــوع كــان بــدافع إشــباع رغبــة قديمة في تلمُّس الفروق المذهبية بين التجربتين المرابطية والموحدية.

الإشكاليــة

وانطلاقــا ممــا ســبق تتــشكَّــلُ فــي مخيلــة الباحــث جملــة مــن الإشكاليات تتمحور أساسا حول طبيعــة وخصــائص الأوضــاع المذهبيــة فــي الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي، ودور الســلطة والفقهــاء فــي رســم المشهد المذهبي خلاله.

فهل استمــرَّ الغرب الإسلامي خلال العصــر الموحــدي متمســكا بســلفية الإمام مالك وفقهه كما كان عليــه الوضــع خــلال العصــر المرابطــي؟، ومــا

مواقف السلطة والفقهاء من المدّ الأشعري الذي كان يكتسح العالم الإسلامي خلال القرنين 6و7هـ؟، وكيف تعامل الموحدون والفقهاء مع العلوم الكلامية والفلسفية التي عُرف عن المغاربة منافرتُهم لها؟.

ثم ما حقيقة الصراع المالكي الظاهري الذي عرف ذروته خلال العصر الموحدي؟، وما هي العوامل والمؤشرات التي كانت تحكُم وتوجه العلاقة بين الفقهاء والسلطة الموحدية؟

وما هي الأسس التي بُنيت عليها العلاقة بين السلطة والمتصوفة من جهة، والفقهاء والمتصوفة من جهة أخرى؟، وهل كان سلوك متصوفة العصر الموحدي يساير التوجهات السياسية والاختيارات المذهبية للسلطة الموحدية؟

وما هو تأثير السلطة والفقهاء في توجيه الحركة المذهبية في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي؟.

<u>استعراض خطة البحث</u>

وللإجابة عن هذه الإشكاليات رسمت خطة موسَّعة لتغطية المشهد المذهبي في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي أصولا وفروعا وسلوكا، فارتأيت تخصيص باب لكل مشهد من مشاهد الحركة المذهبية، ويندرج تحت الباب فصلان، وفي كل فصل مبحثين، تندرج تحت كل مبحث مطالب وعناصر بحسب الإشكاليات المطروحة.

ولتلمُّس التحولات المذهبية خلال العصر الموحدي خصصتُ **الفصل التمهيدي** للحديث عن الحياة المذهبية في الغرب الإسلامي خلال العصر المرابطي، متَّبعا الطريقة نفسها في رصد الأوضاع العقيدية فالمذهبية فالصوفية، وموقف السلطة المرابطية والفقهاء المالكية منها،

لذا جاء معنوناً بـ: الأوضاع المذهبية في الغرب الإسلامي قبيل العصر الموحدي وموقف السلطة والفقهاء منها (منتصف القرن 5هـ/11م إلى منتصف القرن 6هـ/12 م)، فتناولتُ في **المبحث الأول:** الحالة العقيدية في الغرب الإسلامي خلال العصر المرابطي، من خلال مطلبين عالجا مظاهر سيادة معتقد أهل الحديث في الغرب الإسلامي خلال العصر المرابطي ودور السلطة والفقهاء في ترسيخه، أما **المبحث الثاني** فتناولتُ فيه الوضع الفقهي في الغرب الإسلامي خلال العصر المرابطي، أبرزتُ من خلاله سيادة المذهب المالكي، ثم دور السلطة والفقهاء في ترسيخ المذهب، أما **المبحث الثالث** المتعلّق بالتصوف في الغرب الإسلامي خلال العصر المرابطي، فتناول حياة الزهد والتصوف في العصر المرابطي، ثم موقف السلطة والفقهاء من ظاهرة التصوف.

بعد التمهيد الذي رأيناه ضروريا لاستكمال أهداف البحث، خصَّصنا **الباب الأول** لدراسة التحولات العقيدية في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي وموقف السلطة والفقهاء منها، مسلّطين الضوء في **الفصل الأول** على تراجع معتقد أهل الحديث في الغرب الإسلامي من خلال مبحثين، أحدهما يرصد عودة نزعات باطنية، شيعية، وخارجية في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي(المهدوية، الإمامة، العصمة، الغيبيات، الجفر، التكفير، التساهل في الدماء، التلقب بالخلافة).

والمبحث الثاني يرصد سيادة المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي، مبرزين دور السلطة الموحدية في ترسيم المذهب الأشعري، وأخيرا عرض مآل العقيدة التومرتية نهاية العصر الموحدي وموقف الفقهاء منها.

أما **الفصـــل الثـــاني** فتعلَّـــق بانتعـــاش العلـــوم الكلاميـــة والفلســـفية فـــي الغرب الإسلامي خـــلال العصـــر الموحـــدي، فـــأبرزتُ فـــي المبحـــث الأول : نهضة العلوم الكلاميـــة والفلســـفية فـــي الغـــرب الإســـلامي بدايـــة العصـــــر الموحدي وموقف الفقهاء منها، فأبـــان علـــى جهـــود الخلفـــاء الموحـــدين فـــي تنشيط علم الكلام والفلسفة من جهة، ومعارضة الفقهـــاء لتلـــك العـــلــــوم مـــن جهة أخرى، أما المبحث الثاني فســـلط الضـــوء علـــى نكبـــة المنصـــور لابـــن رشد والفلسفة في الغرب الإسلامي خلال العصـــــر الموحـــدي، متحـــدثا عـــن أسباب وآثار النكبة، وأخيرا عن مـــآل علـــم الكـــلام والفلســـفة نهايـــة العصـــر الموحـــدي.

وجـــاء **البــــاب الثــــانـــــي** ليـــدرس الأوضـــاع الفقهيـــة مُعَنونـــاً بــــــ: التحولات الفقهيـــة فـــي الغـــرب الإســـلامي خـــلال العصـــر المـــوحدــــدي ومـــوقف السلطة والفقهاء منها (6هـــــ – 8 هــ/12م – 13م) .

خـُـــــصص **الفصـــــل الأول** منـــه للحـــديث عـــن تراجـــع المـــذهب المالكي في الغرب الإســـلامي خـــلال العصـــر الموحـــدي، راصـــداً لمواقـــف السلطة الموحدية من المذهب، مبرزاً – من جهـــة – مظـــاهر تعـــايش الســـلطة الموحدية مع المذهب المالكي، ومن جهـــة أخـــرى مظـــاهر اضـــطهاد الســـلطة الموحدية للمذهب، ثم تحدثتُ فـــي المبحـــث الثـــاني مـــن هـــذا الفصـــل علـــى وضعيـــة المذهب المالكي في الغرب الإسلامي نهايـــة العصـــر الموحـــدي مـــن حيث مظاهر انتصار واستمرارية المذهب، ثم مـــن حيـــث أسبـــــاب وعوامـــل هذا الانتصـــار.

أما **الفـــصـــل الثـــانـــي** فجاء للحديث عـــن تـــعـــــزُّز الاتجـــاه الظـــاهري في الغرب الإسلامي خـــلال العصـــــر الموحـــدي، إذ تنـــاول المبحـــث الأول منه مظاهر انتعاش وتـــعـــزز الاتجـــاه الظـــاهري فـــي المنطقـــة مـــن خـــلال إبراز تأييـــد وانتصار السلطة الموحدية لهـــذا الاتجـــاه.

أما المبحث الثاني فتحدث عــن وضــعية المــذهب الظــاهري فــي الغــرب الإسلامي نهاية العصر الموحدي وموقف الفقهاء منــه، مبــرزاً صـــراع فقهــاء المالكية مع المذهب الظاهري، كــما تنــاول المبحــث التراجــع الــذي شــهدهُ المذهب الظاهري في الغـــرب الإســلامي نهايــة العصـــر الموحــدي، ومــا تــركهُ من آثار على سيــرورة الحركــة الفقهيــة في المنطقــة.

أمــا **البــاب الــثــالــث** فجاء معنونا بــــ: التحــولات التصوفيـــة فـــي الغـــرب الإسلامـــي خـــلال العـــصر المـــوحدي وموقــف السلطـــة والفقهاء منها (6هـــ - 8 هــ/ 12م - 14م).

تناول **الفــصـــل الأول** منــه تطــور التصــوف السنـــي فــي الغــرب الإسلامي خلال العصر الموحــدي، متحــدثاً مــن خـــلال المبحــث الأول عــن مظاهر انتعـــاشه، وخصائصـــه التـــي ميَّـــزتهُ عــن التصــوف المشــرقي والتصــوف الباطني.

وجاء المبحث الثــاني مــن هــذا الفصــل ليــدرس مواقــف السـلطة مــن التصوف كاشــفاً عــن مظــاهر وأســباب التعــايش بــين الجانبيـــن أحيانــاً ومظـــاهر التوتـــر أحياناً أخرى مع شـــرحٍ وتعليل.

أما **الفــصــل الثـــانــــي** فقد أفردتـــهُ للحــديث عــن ظهــور التصــوف الباطني في الغرب الإسلامي خلال العصــر الموحــدي، متنـــاولاً تطــورهُ فـــي المنطقة من حيث مظاهر الانتشار أولاً، وأسباب هذا الانتشار ثانيــاً.

كما تضمَّن هذا الفصــل مطلبــين خُصصــا لدراســة مظاهـــر تعــايش الفقهاء مع تيار التصــوف الســني، ومـــظاهر التــوتر بــين الفقهــاء وتيــار التصوف الباطني بإبراز المظاهــر والأسبـــاب دائمــًا.

وجاءت **خاتمة** البحث لعرض أهم ما يمكن أن نستخلصـــه مــن هــذا البحــث كإجابـــة على مـــا ورد في أوَّلِـــهِ مـــن إشكاليـــات.

كما تضمَّن البحث ثلاثة **ملاحق** رأيتها وظيفية وهادفة، وهي مواثيق موحدية مرتبطة بتحولات عقيدية هامة وحاسمة في التاريخ المذهبي للغرب الإسلامي الموحدي، يتعلَّق الملحق الأول بقرار أصدره المنصور الموحدي يُجرّمُ فيه العلوم الفلسفية وأهلها، والملحق الثاني خطاب متعلقُ بثورة الخليفة المأمون الموحدي على العقيدة التومرتية، أما المُلحق الثالث فهو نص هام يعكس مناظرة تاريخية جمعت الخليفة عبد المؤمن بن علي مع فقهاء المالكية.

وحاولت في الأخير تخريج **فهرس** شامل للأعلام والأماكن والمذاهب والفرق الواردة في البحث.

ثم أتبعتُ ذلك بجرد أهم **مصادر ومراجع** البحث مرتبةً بحسب طبيعتها بين مصادر، ومراجع عربية، واستشراقية، ومجلات، ودراسات غير منشورة.

وفي الأخير أوردت **فهرس لمحتوى** البحث مفصلاً مع ذكر الصفحات.

منهج البحث

بما أنني استهدفتُ من خلال هذا العمل وصف التطورات والتحولات المذهبية في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي ورصد مواقف السلطة والفقهاء منها، فإني لم ألتزم منهجا واحداً أثناء العمل بل اعتمدتُ منهجًا يجمع بين الاستقراء والتفسير، والمقارنة والاستنتاج، للوقوف على حيثيات المشهد المذهبي في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي، فالاستقراء وظفته في تتبع بعض جزئيات الموضوع وجمعها وإعادة ترتيبها وفق أهداف الموضوع، ثم التحليل الذي يُمكّننا من فهم وإدراك نصوص المؤرخين وآراء الدارسين، أما المقارنة فقد وظفتها عند الجمع بين النصوص والنصوص المخالفة لها للوقوف على أوجه الخلاف والوفاق.

نقــد المصادر والمراجــع

ولتحريــر العمل تتبعــتُ مــادة الموضــوع فــي مضانِّـــها، لاســيما المصادر الموحدية، وكتب المناقب، ومصادر التــاريخ العــام المشــرقية منهــا والمغربية، وكتب التراجم والطبقــات، بالإضــافة إلــى كتــب العقائــد والملــل والنحل وغيرها من المصادر، إلـــى جانــب جملــة مــن المراجــع العربيــة والاستشراقية، والدوريات والدراسات غير المنشــورة، وهــي فــي مجموعهــا تتطلــب تتبعـــًا واســتقراءاً واستنتاجـــًا لانتقــاء مــا يُـــمكن أن يخــدم الموضــوع.

ولم أجد بحوثاً ودراســات ســابقة تجمــع الحيــاة المذهبيــة فــي الغــرب الإسلامي خلال العصر الموحدي أصولا وفروعــا وســلوكا وترصــد مواقــف السلطة والفقهــاء منهــا، وأقــرب دراســة للموضــوع هــي دراســة الباحــث المغربــي محمــد المغــراوي فــي دراســته " العلمــاء والصــلحاء والســلطة بالمغرب والأندلس في عصر الموحــدين " التــي اقتربــت مــن تصــورنا، إلاَّ أنَّ الدراسة ركَّــزت علــى العلاقــة بــين الســلطة والصــلحاء والصــوفية، وجاءت دراسة هذه العلاقــة على حساب إبــراز أسـباب ومظــاهر التحــولات المذهبية في الغرب الإسلامي خــلال العصــر الموحــدي التــي عكفنــا نحــن على إبرازها، وركَّـــزت دراســة الباحــث أيضــا علــى المغــرب الأقصــى والأندلس دون المغربيــن الأدنى والأوســط.

ويليـــق بنــا بدايــةً أن نعتــرف بتــوفر المــادة المتعلقــة بالتــاريخ المذهبي للغرب الإسلامي في العصــر الموحــدي وســهولة الوصــول إليهــا، بــين مخطوطــات محققــة ومصــادر مخرّجــة ودراســات متجــددة عربيــة واستشراقية، إلاّ أنني حاولت الاقتصــار علــى مــا يخــدم الموضــوع ويفــي بالغرض المقصود، وكانت استفادتي متفاوتة مــن الأربــع مئــة مرجــع التــي وُظفت في البحث، بعضها كــان محوريــا والآخــر ثانويــا، وســاعدني علــى تحصيل المادة المطلوبة بحثــي الســابق (مرحلــة الماجســتير) فــي الحركــة

المذهبية، بالإضافة إلى رحلاتي إلى المملكـة المغربيـة، وكـذا تـوفر المـادة في أشكال إلكترونيـة متنوعـة بـين كتـب مصـورة ضـوئيا (مثـل مكتبـة الإسكندرية الضـخمة التـي تجمـع حـوالي مـئتي ألـف كتـاب)، وكتـب إلكترونية مـزودة بمحركات بحث (مثل المكتبة الشـاملة التـي تجمـع حـوالي ألف كتاب مطابق للأصل)، والمواقـع الإلكترونيـة (مثـل مكتبـة المصـطفى التي تجمع مئـات المصـادر والمراجـع)، وميـزة البحـث الإلكترونـي أنـه يُـقرِّبُ للباحث المصادر والمراجع في زمـنٍ أقصـر وكلفـةٍ أقـل، كمـا أنـه يُطلعنا على الدراسات الحديثة لاسـيما وأن أكبـر الجامعـات العالميـة تملـك على مواقعها مكتبات إلكترونية، كما أنه يُمكِّننا مـن اكتشـاف معلومـات خفيـة يُـمكن الوصـول إليها عن طريق اسـتخدام الكلمـات المفتاحيـة فـي البحـث الإلكتروني، بينمـا يـصعب اكتشافها بطرق البحث التقليدية.

بعد جـمع قدر معتبر من المادة التاريخية كـان مـن الطبيعـي أن ينصـبَّ اهتمامنا على المصادر الموحدية وفي مقدمتها "أخبـار المهـدي بـن تـومرت" لأبي بكـر الصنهاجي المُكنـى بالبيـذق (تـــ أواخـر القـرن 6هـــ/12م)، ورغم ما يتلمسه القارئ من سذاجة الكاتب إلا أنـه أفادنـا فـي كشـف بعـض جوانب شخصية ابن تومرت الغامضـة ومـا كـان يُسِـرُّ بـه للمقـربين مـن أتباعـه، وما كان يعتقده أتباع ابن تومرت فيه من خـوارق وكرامـات.

أما كتـاب "نظـم الجمـان" لابـن القطـان المراكشـي المتـوفى منتصـف القرن7هــ/13م رغم ولائه المطلـق للتوجـه الموحـدي سياسـيا ومـذهبيا إلاَّ أنه أمدّنا بمعلومات قيِّمة ونصوص ثمينة عـن سـير خلفـاء الدولـة الموحديـة وعلاقتهم بالفقهاء والصلحاء، ومثل ذلـك نجـده فـي كتـاب "المـنّ بالإمامـة على المستضـعفين" لعبـد الملـك بـن صـاحب الصـلاة (تـــ 578هـــ/ 1182م)، وكلا المؤلفين تمرسا في البلاط الموحدي طويلا.

أما عبد الواحد المراكشي(تـ 647هـ / 1249م) فقد عاصر الموحدين قبل رحلته إلى المشرق، وألّف كتابه "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" بعيدا عن البلاط الموحدي ما أضفى عليه – في نظرنا – مصداقية أكثر جعله أهم المصادر التي اعتمدنا عليها.

كما أنه لم يفتنا الاهتمام بما خلّفه ابن تومرت من كتابات والتي جُمعت في مجموع "أعز ما يُطلب"، لنتبيَّن من خلالها أسس المنهج التومرتي عقيدة وفقها وسلوكا، ذلك المنهج الذي التزمه خلفاؤه من بعده إلى أن انحلَّ عقدة عقدة.

كما أننا وجدنا مادة غزيرة في بعض المصادر المرينية المعادية للتوجُّه التومرتي "كالأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس" لابن أبي زرع (تـ 728 هـ/1328م)، الذي صنَّفهُ المؤلّف للتقرُّب من الأمراء المرينيين، كما عبر عن ذلك في مقدمة الكتاب بقوله: "أردت خدمة جمالها والتقرب إلى كمالها والتفيؤ بظلالها والورود من عذب زلالها"، وقريبٌ منه كتاب بيوتات فاس الكبرى لإسماعيل بن الأحمر(تـ807هـ/1405م) الذي عاش في البلاط المريني أيضًا.

كما انصبَّ اهتمامنا على الجزء السادس من تاريخ العلاَّمة ابن خلدون (تـ808 هـ/1406م) الذي ظفرنا منه بمادة لا غنى لنا عنها، مع أن ابن خلدون لم يلتزم تمام الالتزام بما أوصى به المؤرخين في مقدمته بتجنُّب التشيع للآراء والمذاهب والاستقلال عن السلطة والتزام الحياد في الكتابة التاريخية، وظهر منه شيئ من ذلك باعتباره رجل سياسة ودين قبل أن يكون مؤرخًا.

كما كانت استفادتنا من كتاب "المُغرب في حلى المغرب" الذي اعتمد فيه صاحبه الرحالة ابن سعيد المغربي (تـ685هـ/ 1286م) على أسلوب الحوليات مما يساعد الباحث على ربط وتتبُّع الأحداث،

يُضاف إلى ذلك أن المؤلّف كان قريبا من وزراء السلطة الموحدية قبل هجرته إلى المشرق.

وكان للمصادر المشرقية توظيفٌ أيضًا، منها كتب ابن تيمية (ت 728هـ/1328م) بأسلوبه النقدي خاصة في مجموع فتاويه، وكتابه "نقض المنطق"، ومنها أيضًا كتاب "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي(ت 505هـ/ 1111م) الذي اُعتُبر كتابه هذا المادة الأولى للثورة المذهبية التي أحدثها الموحدون عقيديًا (بدعوته إلى الأشعرية) وفقهيًا (بدعوته إلى الأصول ونبذ الفروع) وسلوكيًا (بدعوته إلى التصوف).

كما استعنَّا أيضًا بكتب الملل والنحل وأهمها : " الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية " لعبد القاهر البغدادي (ت 429هـ/ 1037م)، و"الملل والنحل" للشهرستاني (ت548هـ/1153م)، و" الفصل في الملل والأهواء والنحل" لابن حزم الأندلسي (ت456هـ/1063م) .

أما استفادتنا الكبرى وصيدنا الثمين من مادة هذا البحث فقد وجدناها في كتب التراجم، وأهمها: "الصلة في تاريخ أئمة الأندلس" لابن بشكوال (ت578هـ/1182م)، وكتاب : " التكملة لكتاب الصلة " لابن الأبار القضاعي البلنسي (ت 658هـ/1259م)، وكتابه الآخر "الحلة السيراء"، وكتابه الثالث: "تحفة القادم"، ثم كتاب " صلة الصلة " لابن الزبير(ت708هـ/ 1308م)، ثم كتاب " الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة " لابن عبد الملك المراكشي(ت703هـ/1303م)، وهذه المصادر الأربعة موسوعة تراجمية ضخمة ومتكاملة ظفرتُ منها بمعظم مادة البحث.

ومن كتب التراجم المغربية أيضًا كتاب " عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية "، لأبي العباس الغبريني

(تـ704هـ/ 1304م) الذي عاصر سقوط الموحدين، وتتبَّع في كتابه أخبار الفقهاء والصالحين في بجاية بالمغرب الأوسط ومن وَفَدَ عليها منهم مغاربةً وأندلسيين.

ومن أبرز كتب التراجم الأندلسية أيضا التي لا غنى للباحث عنها، كتاب: "تاريخ علماء الأندلس" لابن الفرضي(تـ 403هـ/ 1012م)، وكتاب "تاريخ قضاة الأندلس" (المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)، لأبي الحسن النباهي (المتوفى: نحو 792هـ/1389م)، وكتاب "جذوة الاقتباس" لابن القاضي (تـ 1025هـ/ 1615م)، ومنها أيضا موسوعة "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" لابن أبي أصيبعة (تـ 668هـ/1269م)، الذي أفادنا في تتبعنا لأخبار الفلاسفة في العصر الموحدي والذين عُرف عنهم الجمع بين الفلسفة والطب.

كما كانت إفادتنا من تراجم المؤرخيْن الأندلسيْين أبو العباس المقري(تـ758هـ/1357م) وابن الخطيب الأندلسي(تـ 776هـ/ 1374م)، وأهمها: "أعمال الأعلام"، و"رقم الحلل في نظم الدول"، و"الإحاطة في أخبار غرناطة" لابن الخطيب، أما أبو العباس المقري فمن خلال موسوعته الشهيرة "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب"، وكتابه الآخر "أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض".

ومن كتب التراجم المشرقية: موسوعتيْ الإمام الذهبي (تـ748هـ/1347م): "تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام"، و"سير أعلام النبلاء"، بالإضافة إلى كتاب "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" لابن خلكان(تـ681هـ/1283م).

وضمن كتب التراجم كانت استفادتنا أيضًا من كتب الطبقات وفي مقدمتها طبقات المالكية، نذكر منها: "ترتيب المدارك وتقريب المسالك"، للقاضي عياض اليحصبي (تـ 544هـ/ 1149م)، و"الديباج المذهَّب في معرفة أعيان علماء المذهب" لابن فرحون المالكي (تـ799هـ/1396م)، وذيل الكتاب : "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" لأحمد بابا التنبكتي(تـ 963 هـ/1036م).

أما كتب المناقب فرغم كونها مصادر مُعاصرة للفترة المدروسة، واحتوائها على تراجم الصلحاء والصوفية في العصر الموحدي، واستفادتنا الثمينة منها، إلا أنَّ تركيزها على الجانب المنقبي وإهمالها للجانب السياسي قلَّص مجال استفادتنا منها، ولنا أن نستثني منها كتاب: "التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي" لابن الزيات التادلي (تـ617هـ/1220م) الذي كان أكثر جرأة في الحديث عن العلاقة بين المتصوفة والسلطة الموحدية والتي شغلت حيِّزاً هامّاً في موضوع بحثنا.

ومن كتب المناقب الأخرى التي اعتمدتها كتاب: "المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد" لأبي عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي الفاسي، (تـ603هـ/1202م)، وكتاب "دعامة اليقين في زعامة المتقين" لأبي العباس العزفي (تـ633هـ/1235م)، و"المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف"، لعبد الحق بن إسماعيل البادسي (كان حيا سنة 722هـ/1321م)، وكتاب: "أنس الفقير وعزّ الحقير" لابن قنفد القسنطيني (تـ 810هـ/1407م).

كما استعنَّا بكتب الفهارس للتحقق من بعض المصنفات، نذكر منها كتاب: "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" لحاجي خليفة القسطنطيني (تـ1067هـ/1656م).

ومنـــها أيضًا كتـــــب فهـــارس المشـــيخة أو بـــرامج الشـــيوخ، ككتـــاب "فهرس شيوخ ابن عطية" لابـــن عطيـــة الإشـــبيلي (تـــــ 542هــــ/ 1147م)، وفهرســـت القاضـــي عيـــاض(تــــ 544هـــ/ 1149م) الموســـوم: "بالغنيـــة"، وفهرست ابـــن الفخـــار الرعينـــي (تــــ 666هـــ/ 1267م)، ولا يخفـــى مـــا تـــزودنا به هـــذه الكتـــب من تـــراجم ومعطيات ذات قيمـــة ولاشـــك.

أما المراجع فقـــد كانـــت اســـتفادتنا الكبـــرى مـــن دراســـات الباحـــث المغربـــي محمـــد المغـــــراوي، وفـــي مقـــدمتها دراســـته الكبـــرى حـــول : "الصلحاء والعلمـــاء والســـلطة فـــي المغـــرب"، بالإضـــافة إلـــى سلســـلة مـــن المقالات والدراسات التي أُستلَّـــت من هذه الدراســـــة مـــع بعـــض الإضـــافات نذكر منها: "الموحدون والمذهب الظـــاهري"، ومقـــال آخـــر بعنـــوان: " تطـــور علاقـــة الســـلطة الموحديـــة بفقهـــاء المـــذهب المـــالكي إلـــى عهـــد يعقـــوب المنصور"، وثالث بعنـــوان: "خطة القضاء"، وآخـــر أيضـــا بعنـــوان: "صـــمود المذهب المالكي".

كما اســـتفدنا مـــن دراســـة الـــدكتور توفيـــق الغلبـــزوري الموســـومة "بالمدرسة الظاهرية بـــالمغرب والأنـــدلس"، ودراســـة ملـــين محمـــد الرشـــيد، حـــــول "عصـــــر المنصـــــور الموحـــدي"، ومواطِنهمـــا المغربـــي الحسيســـن عبد الهادي من خـــلال كتـــابه: "مظاهر النهضة الحديثيـــة فـــي عهـــد يعقـــوب المنصور الموحدي"، بالإضافة إلى دراســـتيْ الـــدكتور عبـــد الحـــق الطـــاهري حول "ابن تومرت والمـــذهب المـــالكي"، ودراســـته المتعلقـــة "بــــبنية الحكـــم الموحدي ووسائله"، كما كانت استفادتنا كبيرة ودسمـــــة مـــن كتـــاب: "رســـائل موحدية (مجموعة جديدة)"، بتحقيق ودراسة الدكتور أحمد عـــزاوي.

كما استفدنا من دراســـات الـــدكتور محمـــد الشـــريف المتخصـــص فـــي الدراســـات المتعلِّـــقة بالتصوف المغربي من خـــلال كتابـــه: "تيـــار التصـــوف

في العصر الموحدي من خــلال قطعــة مــن كتــاب " المســتفاد فــي مناقــب العبــاد"، دون أن ننســى كتــاب: "حضــارة الموحــدين" لعميــد البــاحثين المغربييــن: محمد المنوني.

كما وجــدنا مادة غــزيرة فــي أعــــداد مجلــة دعــوة الحــق المغربيــة، لاسيما في الأعداد التــي كانــت تــُخــَّصص حــول موضــوع التصــوف أو المذهب المالكي في الغــرب الإسلامي.

ولا ضير مــــن الإشــــارة إلــــى الاستــــفادة الكبيــــرة مــن الأقــلام المغربيــة المتمرِّســة في التاريخ المــذهبي للغــرب الإســلامي، وكانــت لــي فرصة وشــرف اللقاء ببعضهم في زياراتــي إلى المملكة المغــربيــة.

كما كانت استفادتنا كبيرة مــن مؤلفــات الباحــث التونســي المتخصِّـــــص عبد المجيد النجار مــن خــلال دراســاته حـــول: "المهــدي ابــن تــومرت"، "فصول في الفكر الإسلامي بالمغــرب"، و"تجربــة إصــلاح".

ومن أهم الدراسات الحديثة التــي أفــادتني فــي البحــث دراســة الباحــث الجزائري: لخضــر محمــد بولطيــف، الموســـومة بـــ: "فقهــاء المالكيــة والتجربة السياســية الموحديــة فــي الغــرب الإســلامي"، التــي طبعــت فــي فرجينيا، بالولايات المتحدة الأمريكية، تحــت إشــراف المعهــد العــالمي للفكــر الإسلامي، ودراســة الدكتور الجزائري الطــاهر بونــابي حــول : "التصــوف في المغرب الأوســط".

ومن الموسوعات والتراجم التــي ظفــرت منهــا بمــادة غزيــرة موســوعة "الأعلام" لخير الدين الزركلي، و"موســوعة المــؤلّفين" لعمــر رضــا كحالــة، وكتاب "الإعلام بمن حــل بمــراكش وأغمــات مــن الأعــلام" لابــن ابــراهيم السملالي (تــ1378هــ / 1958م).

كما رأينــا الإستفـــادة مــن مــن الدراســات غيــر المنشــورة، والتــي تنــتـــظر الطبــع والنشــــر فــي الجزائــر والمغـــرب، نذكـــر منهـــا

"التصوف المغربي خلال القرن السادس الهجــري" لمبــارك رضــوان، والتــي لا تــزال مرقونة في جامعة محمد الخامــس بالربــاط.

كمــا اعتمـــدنا فــي جمــع مــادة البحــث وصــياغتها علــى بعــض الدراسات الاستشــراقيــة المعرَّبة رغــم تركيزهــا علــى الجانــب السياســي بالدرجة الأولى، نذكر منها : كتاب "الفرق الإسـلامية فــي الشــمال الإفريقــي" للمستشــرق الفرنســي ألفــرد بــل، و"تــاريخ الفكــر الأندلســي" للمســتعرب الإسباني آنجل جنثالث بالنثيا، وكتاب : "مجموع رســائل موحديــة مــن إنشــاء كتَّاب الدولة المؤمنية"، وكتــاب "الإســلام فــي المغــرب والأنــدلس" وكلاهمــا للمستشرق الفرنسي لافــي بروفانصــال، بالإضــافة إلــى بعــض الدراســات الإستشراقيــة التي جمعتها الدكتورة ســلمى خضــراء الجيوســي فــي كتابهــا: "الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس".

وما سبق ذكره أهم ما أفاد موضوع البحــث مــن مصــادر ومراجــع، أمــا البقية فيجدها القـــارئ الكريـــم مثبتــة فــي آخــر الرســالة ضــمن قائمــة المصـــادر والمراجـــع.

وأهم ما أعـــاقنـــي أثناء البحــث هــو صــعوبة الــتحكُّم فــي الموضـــوع والسيطرة عليه لِـسِعته وتشـعبه، فقــد تبيَّـــن لـــي أن أبحــث فـــي الحيــاة المذهبيــة في الغرب الإسلامي بكــلِّ أبعادهــا العقيديــة والفقهيــة والســلوكية وأن لا أقتصــر علــى جانــبٍ دون آخــر، وبعــد استشــارة بعــض الأســاتذة والمتخصصين تبيَّــن أنَّ البحــث يحتــاج إلــى لمســةٍ أخــرى غيــر وصــف الحياة المذهبيــة، فرأيــت تدعيـــم الموضـــوع بالبحـــث فـــي مـــواقف السلطة والفقهــاء من هذه التحــولات، وأثنــاء تقــدُّم البحــث اكتشــفت سِــعة الموضـــوع وتشعُب جوانبه وتنوُّع إشــكاليَّاته ممــا جعلنــي أتقــدم وأتأخَّـــر، وآتـــي وأذر، وأتردد أحياناً، وأرتبك أحياناً أخــرى.

وفي الأخير يسـَّـر الله تعالى لنا إخـراج هـذا العمـل بهـذه الصـورة مع الأمل فـي إخـــراج بحـوث أخـرى تكـون أحسـن تخريجـا وضـبطا بتوظيف ما اكتسبناه من قدرات وأفكار أثناء هـذه التـــجربة، باعتبـار هــذا البحث محطــة من محطات التكويــن ولــيس منتـــهى البحـــث ولا غايــة التكــويــن.

وأخيــراً لا يفــوتني أن أقف وقفة اعترافٍ وتقديــر لأخُـصَّ بالتحية والشكــر الجزيــل كل من أشــرف على هذا البحث متابعةً أو مناقشةً أو مساعدةً.

وأسأل الله تعالى كما مــنَّ عليَّ بإتمــام هــذا الــبحث أن يُــتمَّ النعمة بقبولــه. وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد. والحمد لله أولاً وأخيــراً .

➢ الفصـــل التمهيدي:

➢ الأوضاع المذهبيـــة في الغرب الإسلامي قبــيل العــصــر الموحــدي ومــوقف السلطــة والفقهــاء منهــا
(منتصف القرن 5هـ /11م إلى منتصف القرن 6هـ /12 م).

➢ **المبحث الأول : الأوضـــاع العقيديــة فــي الغــرب الإســلامي خــلال العصــر المرابطــي .**

- المطلب الأول: سيادة معتقـــد أهــل الحــديث فــي الغــرب الإســلامي خلال العصــر المرابطي.
- المطلب الثــاني: دور الســلطة المرابطيـــة والفقهــاء المالكـــية فـــي ترسيخ معتقــد أهل الحديث.

➢ **المبحث الثاني : الأوضـــاع الفقهيــة فــي الغــرب الإســلامي خــلال العصــر المرابطــي .**

- المطلب الأول : سيـــادة المــذهب المـــالكي فـــي الغـــرب الإســـلامي خلال العصر المرابطـــي.
- المطلب الثاني : دور السلطة المرابـــطية والفقهـــاء المالـــكية فـــي ترسيـــخ المذهب المالكـــي.

➢ **المبحث الثالـث : الــتــصـــــوف فــي الغـــرب الإسـلامي خــلال العصــر المرابــطي .**

- المطلب الأول : الزهـــد والتصـــوف في العصــــر المرابـــطـــي.
- المطلب الثاني : مـــوقف السلطـــة والفـــقهـــاء مـــن التصـــوف.

الفصل التمهيدي: الأوضاع المذهبية في الغرب الإسلامي قبيل العصر الموحدي وموقف السلطة والفقهاء منها.

إن البحث في التحولات المذهبية في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي ورصد مواقف السلطة والفقهاء منها يستدعي منّا ابتداءً تلمُّس الأوضاع المذهبية في الدولة المرابطية التي أقام الموحدون دولتهم على حسابها بعد الثورة عليها سياسيا وعسكريا ومذهبيا.

المبحث الأول : الأوضاع العقيدية في الغرب الإسلامي خلال العصر المرابطي.

إنَّ أوّل ما يستوقف الباحث في التأريخ المذهبي لفترة ما هو الجانب العقيدي الذي تجعله الحركات الإصلاحية الدينية في مقدمة أولوياتها، بالإضافة إلى ما للجانب العقيدي من تأثير على الجانبين الفقهي والسلوكي، فما هي المعالم العقيدية في العصر المرابطي وما هو دور السلطة والفقهاء في رسم تلك المعالم وتوجيهها؟ .

المطلب الأول : سيادة معتقد أهل الحديث في الغرب الإسلامي خلال العصر المرابطي.

قامت الدولة المرابطية (448هـ-542 هـ/1056م – 1147م) وفق منهجٍ عقيدي سُنّي بثوب سلفي على معتقد أهل الحديث[1] من السلف الصالح، وفي مقدمتهم إمام دار الهجرة مالك بن أنس

---

1 – يُعرِّف الشهرستاني أهل الحديث بقوله: " هم أصحاب مالك بن أنس، وأصحاب محمد بن إدريس الشافعي، وأصحاب سفيان الثوري، وأصحاب أحمد بن حنبل، وأصحاب داود بن علي بن محمد الأصفهاني، وإنما سُموا بأصحاب الحديث لأن عنايتهم بتحصيل الأحاديث ونقل الأخبار وبناء الأحكام على النصوص ولا يرجعون إلى القياس الجلي والخفي ما وجدوا خبرا أو أثرا ". الشهرستاني، **الملل والنحل**، مؤسسة الحلبي، سوريا، د.ت.ط، ج:2، ص:11.

تــ179 هــ/795م وقد برز ذلك من خلال مــواقفهم – أمــراء وفقهــاء – مــن الصفات الإلاهية والغيبيات، والمســائل الكلاميــة والفلســفية، بالإضــافة إلــى مواقفهم من الإمامة والخلافــة.

وقفَ المرابطون موقف الإمام مالــك مــن الصــفات الإلاهيــة بالإيمــان بها كما جاءت "على مــذهب أهــل الســنة والجماعــة مقلــدين للجمهــور مــن السلف رضي الله عنهم في الإيمان بالمتشــابه وعــدم التعــرض لــه بالتأويــل مع التنزيه عن الظــاهر"[1]، متمثلــين قــول الإمــام مالــك " الاســتواء معلــوم والكيــف مجهــول والســؤال عنــه بدعــة "[2]، فأثبتوهــا مــن غيــر تشــبيه ولا تمثيــل، ونزّهــوا مــن غيــر تأويــل ولا تعطيــل[3]، وهــو مــا اعتبرتــه الأقلام المُعادية للحركــة المرابطيــة تجســيماً لــذات الله تعــالى وتشــبيهاً لــه بخلقــه[4] .

---

1 – أبــو العبــاس الســلاوي الناصــري، **الإستقصــا لأخبــار دول المغــرب الأقصــا**، تحقيــق: جعفــر الناصري ومحمد الناصــري الطبعــة 01، دار الكتــاب، الــدار البيضــاء، 1418هـــ/1997 م، ج:1 ، ص:196 .

2 – الشاطبي، **الإعتصام**، تحقيق: سليم بــن عيــد الهلالــي، الطبعــة 01، دار ابــن عفــان، الســعودية، 1412هــ/ 1992م، ص: 173. وشمس الدين الذهبي، **العرش**، تحقيــق: محمــد بــن خليفــة بــن علــي التميمي، الطبعة 02، نشر: عمــادة البحــث العلمــي بالجامعــة الإســلامية، المدينــة المنــورة، المملكــة العربية السعودية، 1424هــ/2003م، ج:1، ص: 189.

3 – الذهبي، **العبر في خبر من غبر**، تحقيــق : صــلاح الــدين المنجــد، الطبعــة 02، مطبعــة حكومــة الكويــت، الكويــت، 1368هـــ / 1948 م، ج: 2، ص: 422 . و الــذهبي، **ســير أعــلام النــبلاء**، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشــراف الشــيخ شــعيب الأرنــاؤوط، الطبعــة 03، مؤسســة الرســالة، 1405 هــ / 1985م، ج : 19، ص: 550 .

4 – ذكر البيذق مناسبة هذه التسمية، فــي كتابــه : أخبــار المهــدي، فقــال إن المهــدي أطلقهــا علــى المرابطين أثناء غزوتــه التاســعة إلــى "ســدرم ان الغــز" : " ... فقــال (المهــدي) للموحــدين : مــا يقولون؟ (أي المرابطين)، قالوا له لقبونا، قال وكيف ؟ قالوا : يقولــون خــوارج ، قــال ســبقونا بــالقبيح ، لو كان خيرا أحجموا عنه وما سبقونا إليه، لقبوهم أنتم فإن الله ذكر فــي كتابــه " فمــن اعتــدى علــيكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم " ، قولوا لهم أنــتم أيضــا : المجســمون، ففعلنــا "، أنظــر: البيــذق، **أخبار المهدي بن تومرت** ، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الشــركة الوطنيــة للنشــر والتوزيــع، الجزائــر،

وهذا الزعم الخالي من أي حجةٍ أو دليل، حلقةٌ من سلسلةٍ مشوهة اصطنعها الناقمون على الحركة المرابطية قديما وحديثا اعتمادا على كتابات تاريخية قديمة، دُونت زمن خصومهم التقليديين –الموحدين- حتى "ساد في أفهام الناس وتكرس لديهم من خلال هؤلاء المؤرخين أن المرابطين كانوا على عقيدة التجسيم والتشبيه، كما أن مجتمعهم كان من طبيعة أمومية تسيطر فيه المرأة على الرجل" [1].

ولم يستبعد الباحث عبد المجيد النجار في بحثه عن الوضع العقيدي في العصر المرابطي " نمو تيار تجسيمي بين البدو الذين لم يَحظوْا بثقافة دينية متينة "[2]، وهو في الواقع تخمين بعيد عن الحقيقة، إذ استدلَّ الباحث بقول الرحالة ابن حوقل البغدادي النصيبي المتوفى أواخر القرن 4هـ/10م (قبل قيام الدولة المرابطية) في وصفه لأهل السوس إذ يقول : " والمالكيون من فظاظ الحشوية" [3] .

ومما يُبرز تمسُّك المرابطين بمنهج السلف تقهقر التيارات الشيعية والباطنية في دولتهم، فلم تسجل لنا المصادر المتقدمة والمتأخرة – رغم عداء بعضها للمرابطين – شيئاً من تقدم تلك التيارات العقيدية بالمغرب

1396هـ /1975م، ص: 71. وابن القطان المراكشي، **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، تحقيق: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1409هـ/ 1989م، ص: 131-132 . البيذق ص: 37 و 77 .

1-حسين مؤنس، سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين، **صحيفة المعهد المصري**، المجلد 2، العددين: 1و2، ص:56.

2 – عبد المجيد النجار، **المهدي بن تومرت حياته أراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1403هـ/ 1983م، ص: 57.

3 – ابن حوقل النصيبي، **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1412هـ/ 1992م، ص: 90 .

الإسلامي، فلا حديث -على المستوى الرسـمي- عـن مهدويـة أو عصـمة أو إمامة، فضُيِّـق على الطوائف المتشيعة وطُوردت في المغرب والأندلس[1].

وبالمقابل اعتبـرت السـلطة المرابطيـة بمعيـة الفقهـاء المالكيـة محاربـة التيار الشيعي جهادًا مؤكـداً، فقد سار أميـر المـرابطين يوسـف بـن تاشـفين تـ500 هـ/1106م إلى تارودنت قاعدة بـلاد السـوس وفتحهـا وكـان بهـا طائفة من الشيعة البجليين نسبة إلـى مؤسسـها علـي بـن عبـد الله البجلـي، وقَتَلَ المرابطونُ أولئك الشيعة وتحول من بقي مـنهم علـى قيـد الحيـاة إلـى السنة[2].

ومن أهم مـا يشـهد بـالتزام المـرابطين لمـذهب السـلف مـوقفهم التاريخي من الخلافة العباسية، وهي "مسألة تتفـق عليهـا معظـم الروايـات"[3]، فقد أقرَّ الأمراء بمعية الفقهـاء الـولاء والطاعـة للخلافـة العباسـية القرشـية الشرعية[4]، و"عدم منازعة الأمر أهلـه"[1].

---

1 – الفضل في تهيئة البيئة السنية للمرابطين هو جهود الـدولتين الزيريـة فـي المغـرب والأمويـة فـي الأندلس التي طاردت التشيُّع وضيقت عليـه، أنظـر: إبـراهيم التهـامي، **جهـود علمـاء المغـرب فـي الدفاع عن عقيدة أهل السنة**، دار الرسالة، الجزائر، 1422هـ/ 2002 م، ص: 436-439 .

2 – السلاوي، المصدر السابق، ج:2، ص:14. وعبد الله عنـان، **دولـة الإسـلام فـي الأنـدلس**، مكتبـة الخـانجي، القـاهرة، الطبعـة 02، 1411هــ/1990م، ج:2، ص:305. وعبـاس سـعدون نصـر الله، **دولـة المـرابطين فـي المغـرب والأنـدلس**، الطبعـة 01، دار النهضـة العربيـة، بيـروت، لبنـان، 1405هـ/1985م، ص:39.

3 – محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ج: 04، ص: 40 .

4 – جعلـت الكثيـر مـن المصـادر انتصـار الزلاقـة 479هــ/1086م بدايـة اتصـال المـرابطين بالخلافة العباسية، ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، تحقيق: عمر عبـد السـلام تـدمري، بيـروت، لبنـان، دار الكتاب العربي، 1417هـ / 1997م،ج :8،ص: 310. بينمـا يـرى بعـض البـاحثين اسـتنادا إلـى معطيات تاريخية وأخرى أثرية أن اتصال المرابطين بالخلافة العباسـية كـان قبـل ذلـك بكثيـر، حيـث وُجد أن نقود المرابطين قد نقش عليها أسماء الخلفـاء العبَّاسـيين منـذ عـام 450هــ/1058م، أي منـذ عهد الأمير أبى بكر بن عمر، وظلَّ اسم الخليفة العبَّاسى يذكر مقرونًا باسـم أبـى بكـر بـن عمـر إلـى

فاعترف المرابطون بالخلافة العباسية وهم في عنفوان دولتهم وعزِّ مجدهم والدولة العباسية في زمن عجزها وأيام احتضارها[2]، واتَّخذ المرابطون السواد شعارًا لهم[3]، ونقشوا اسم الخليفة العبَّاسي على نقودهم[4].

وبعد أن بسط الأمير يوسف بن تاشفين سيادته على الأنْدَلُس طلب منه الفقهاء أن تكون ولايته من الخليفة لتجب طاعته على الكافة، ونزولاً

أن توفى فى عام 480هـ/ 1087م، أنظر: حمدي عبد المنعم، **التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين**، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1997م، ص: 236-237.

1 – حتى لو "كان في نفسه فاسقا فاجرا وفي سياسته ظالما جائرا ما دام أنه في دائرة الإسلام لم يخرج منها بالكفر البواح وذلك لما ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ على أصحابه البيعة أن يسمعوا ويطيعوا لأولي الأمر في المنشط والمكره واليسر والعسر وعلى أثرة عليهم وأن لا ينازعوا الأمر أهله ما لم يروا كفروا بواحا". أنظر: ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (تـ 449هـ/ 1057م)، **شرح صحيح البخارى لابن بطال**، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، الطبعة: 02، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ، 1423هـ / 2003م، ج:10، ص:9.. وأنظر: أبي عثمان الصابوني، **عقيدة السلف وأصحاب الحديث**، الطبعة01، القاهرة، مصر، 1423هـ/2003م، ص: 100.

2 – حسن ابراهيم حسن، **تاريخ الإسلام السياسي والديني والإجتماعي والثقافي**، الطبعة 14، دار الجيل ومكتبة النهضة المصرية، بيروت والقاهرة، 1416هـ/1996م، ج:4، ص :289 . وممن سار على خطى يوسف، رحمه الله، في تعظيم الخلافة المركزية الشرعية في بغداد صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي، إذ حرص على الانضواء تحت راية بني العباس فبايع المستضيء بالله العباسي. أنظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج :21 ، ص: 71 .

3– روي أن المعتصم بن صمادح صاحب ألمرية أراد أن يتقرب من المرابطين فارتدى ثوبا مرابطيا أسودا فكان على حد قول بعض الرواة بين فرسانه البيض " كالغراب الأسود بين الحمام الأبيض". أنظر: يوسف أشباخ، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، ترجمه ووضع حواشيه: محمد عبد الله عنان،الطبعة 02، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،1377هـ/1958م، ج:1، ص: 91. وإبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، الطبعة 02، الدار البيضاء، المغرب، دار الرشاد الحديثة ،1404هـ/1984م، ج:1، ص:186 و187 . وحسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج:4، ص: 298.

4 – يوسف أشباخ، المرجع السابق، ج:1، ص: 115و116 .

عنــد رغبــتهم[1] اتصـــل بالخليفــة العبَّاســـى أحمـــد المســـتظهر بـــالله (487-512هــ/ 1093م-1118م) وأرسل إليه بعثة يتـــــزعمها عبــد الله بـــن مُحَمَّــد بن العربى[2]، " وزوَّدها بهدية ثمينة، وبكتاب يذكر فيه مــا فــتح الله علـــى يـــده من البلاد فى المغرب والأَنْدَلُس، ومـــا أحـــرزه مـــن نصـــر للمســـلمين، وعـــزٍّ للإسلام، ويطلب فى النهاية تقليدًا بولايـــة الـــبلاد التـــى بســـط نفـــوذه عليهـــا، وأدَّت البعثة مهمتها بنجاح، فتلطَّفت فـــى القـــول، و"أحســـنت الإبـــلاغ وعـــادت إلى المغرب بتقليد الخليفة وعهده للأمير يوسف بن تاشـــفين الـــذى سُـــرَّ بـــذلك سرورًا عظيمًا"[3].

وتبعاً لذلك تحاشا أمـــراء الدولـــة المرابطيـــة لقـــب الخلافـــة لأنهـــم كانوا يرونه من اختصاص الخليفة العباسي فأحجموا عـــن هـــذا اللقـــب واكتفـــى أمراؤهم بلقب "أمير المسلمين"، يقـــول صـــاحب الـــحُلَل الـــمَوْشِيّة: " ولمـــا ضخمت مملكة يوسف بن تاشـــفين واتســـعت عمالتـــه، اجتمعـــت إليـــه أشـــياع قبيلته، وأعيان دولته، وقالت له: أنت خليفة اللـــه فـــي أرضـــه، وحقـــك أكبـــر من أن تـــُدعى بالأمير، بل ندعوك بأمير المؤمنين، فقـــال لهـــم: حاشـــا للـــــه أن نتسمى بهذا الاسم، إنما يتسمى به خلفـــاء بنـــي العبـــاس لكـــونهم مـــن تلـــك السلالة الكريمة، ولأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينـــة، وأنـــا راجلهـــم والقـــائم بدعوتهم، فقالوا له: لا بد من اسم تمتاز بـــه، فأجـــاب إلـــى «أميـــر المســـلمين وناصر الدين» وخطب لهم بذلك في المنـــابر وخوطـــب بـــه مـــن العُـــدْوَتَيْن –

---

1 – ابن الأثير، المصدر السابق، ج :8، ص: 310.

2 – أبو محمد عبد الله بن محمد بن العربي الإشـبيلي والـد القاضـي أبـي بكـر، صـحب ابـن حـزم الظاهري وأكثر عنه، ثم ارتحل بولـده أبـي بكـر إلـى المشـرق، وتـوفي بمصـر بدايـة 493هـــ / 1099م، وكان مولده عام 435هــ / 1034م، ورجع ابنه إلـى الأنـدلس. أنظـر: الـذهبي، سـير أعـلام النبلاء، ج:14، ص: 163.

3 – ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تـاريخ العـرب والبربـر ومـن عاصـرهم مـن ذوي الشـأن الأكبر**، تحقيق: خليـل شـحادة، الطبعـة 02، دار الفكـر، بيـروت، 1408 هـــ / 1988 م، ج:06، ص: 249-250.

أي المغرب والأندلس" [1]، ومن المتفق عليه بين فقهاء الإسلام ومؤرخيه اختصاص الخليفة الشرعي بلقب أمير المؤمنين[2].

وانفرد المؤرخ ابن أبي دينار القيرواني تـ1110هـ/1698م بأن يوسف بن تاشفين كان يحمل لقب أمير المؤمنين قبل أن يحيد عنه إلى أمير المسلمين[3]، إلا أنّي وجدتها رواية شاذة ومخالفة للروايات الأخرى.

وأقام المرابطون دولة قوامها العلم والجهاد، بعيدا عن أبجديات التكفير والتقتيل، فالحركة المرابطية ثورة على بيئة غارقة في الانحرافات والضلال، أما الحركة الموحدية كانت انقلاباً على بيئة إسلامية سنية، وهذه من الفوارق التي يجب أن لا تغيب عن أذهاننا ونحن بصدد دراسة التحولات المذهبية في الغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري.

فأصل الحركة المرابطة ثورة فكرية عسكرية على القبائل الصحراوية التي كانت تعيش وضعا عقيديا أشبه بالكفر منه بالإسلام، فقد كانت تحكم المغرب أوائل القرن الخامس أربع طوائف تشبه الدول، ففي الشمال قبائل غمارة، وهي فرع من قبيلة مصمودة وقد انحرفت عن

---

1 – مؤلف مجهول، **<u>الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية</u>**، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الطبعة 01، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، 1399هـ/ 1979م، ص : 29. وأنظر: عباس سعدون نصر الله، المرجع السابق، ص:155 و156.

2 – يحي بن شرف الدين النووي، **<u>روضة الطالبين وعمدة المفتين</u>**، تحقيق: زهير الشاويش، الطبعة 03، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان، 1412هـ / 1991م ج: 10، ص:49. والسلاوي، الاستقصا ، ج:2، ص: 58. وأنظر : عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، **<u>الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة</u>**، دار طيبة، الرياض، ص: 32 – 35 .

3 –ابن أبي دينار القيرواني، **<u>المؤنس في أخبار إفريقية وتونس</u>**، الطبعة 01، مطبعة الدولة التونسية، 1286هـ/1869م، ص :99 وص: 105.

الإسلام وظهر فيها متنبؤون أتوا بتعاليم تنقض الإسلام عقيدة وشريعة[1] وبها توفي عبد الله بن ياسين شهيداً في قتال برغواطة سنة 451 هـ / 1059م ودفن هناك وبُنى عليه مسجد[2] .

وفي الساحل الغربي واجه المرابطون قبائل برغواطة[3]، وصفهم السلاوي بأنهم "مجوس أهل ضَلَالَة وكفر"[4]، تأسست لهم دولة منذ القرن الثاني للهجرة على أساس ديانة أمشاج من تعاليم إسلامية ومبادئ يهودية وعادات بربرية قديمة[5]، وفي الوسط قبائل زناتة التي كانت تمثل القوة الشرعية الحاكمة والإسلام الصحيح بعد دولة الأدارسة، وفي الجنوب أقليات مبعثرة من الشيعة الرافضة المعروفين بالجبليين ومن الوثنيين الذين كانوا يسكنون الجبال الوعرة بنواحي الأطلسي[6].

---

1 – عن ديانة غمارة أنظر: ابن خلدون، العبر، ج:6، ص :210. وألفرد بل، **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي**، ترجمه عن الفرنسية : عبد الرحمان بدوي، الطبعة 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1389 هـ/ 1969م، ص:173 وما بعدها .

2 – مبارك بن محمد الهلالي الميلي، **تاريخ الجزائر في القديم و الحديث**، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، د.ت.ط، ج:3، ص: 282.

3 – تـُنسب تعاليمها إلى المتنبئ صالح بن طريف تـ 253هـ / 868م، اتَّسمت تعاليمه بالكفر والخروج عن الإسلام، ولم تتمكن الدولة الإدريسية ولا الدول المتعاقبة على المغرب من القضاء عليهم حتى ظهر المرابطون، كانت مواطنهم خصوصاً بين المصامدة في بسائط تامسنا وريف البحر المحيط وسلا وآزمور وآنفي وآسفي (وكلها مناطق بالمغرب الأقصى)، فنجح المرابطون في القضاء على تلك الديانة المبتدعة التي كانت تشوبها الضلالات والبدع... ولم تنته هذه الحرب إلا بعد أن قضى المرابطون على هذه البدعة وشتتوا من بقي من أنصارها حياً، وقُتل ابن ياسين خلال المعارك الأولى مع برغواطة في يوم الأحد الرابع و العشرين من جمادى الأولى سنة 451هـ/ 1146م، و دُفن بموضع يعرف بكريفلة .أنظر : ابن خلدون، **العبر**، ج:6، ص:207، وألفرد بل، المرجع السابق، ص 234 .

4 – السلاوي، المصدر السابق، ج: 2، ص: 18 .

5 – عن ديانة برغواطة، أنظر : ألفرد بل، المرجع السابق، ص: 180 و ما بعدها .

6 – راجع تفصيل هذه الطوائف : مختار العبادي، **دراسات في تاريخ المغرب**، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية، مصر، 1982م ، ص:297 و ما بعدها .

وهو ما حدا بالمستشرق الفرنسي ألفرد بل إلى الإقرار بنجاح المرابطين نجاحا باهرا في القضاء على الضلالات بالمغرب الأقصى، وإقرار الإسلام ومبادئه الصحيحة في المنطقة، كما وُجهت حركة جهادية أخرى مماثلة إلى الجنوب لقتال كفار السودان[1] .

وعدَّد الباحث فتحي زغروت ببراعة سِمات التغيير في الحركة المرابطية، فهي شاملة لجميع المجالات، فشملت تغييرات عقدية لتصحيح عقول المريدين من المرابطين، كما شملت مجالات المعاملات وفق ما تمليه الشريعة على مذهب مالك[2]، فجاء تغييرا شاملا وليس تغييرا محدودا في جهة خاصة، وتغييرا مستقرا دائم وليس تغييرا ظرفيا مؤقتا[3] .

والذي يهمنا أنه تغيير جذري يعتمد على تغيير الشعوب والأفراد بالحجة والإقناع أولا قبل تغيير الحكام والقادة بالحديد والنار، فهو تغيرٌ هادئ يبدأ من قاعدة الهرم قبل قمته[4]، وتغييراً متدرجا وليس فوريا، مرَّ بمراحل متتابعة وفق ما تقتضيه طبيعة البشر حيث درجت النفوس على التغيير المتدرج الهادئ[5].

والحديث عن عقيدة المرابطين السنية المالكية يُلزم علينا البحث عن وضعية العلوم الكلامية والفلسفية في المغرب المرابطي، ولعرض ذلك، سنتحدث هنا عن المغرب والأندلس كعدوتين منفصلتين لاختلاف واقع تلك العلوم بين العدوتين في تلك الفترة.

---

1 – ألفردبل، المرجع السابق، ص: 233 و234.

2 – فتحي زغروت، **الجيوش الإسلامية وحركة التغيير في دولتي المرابطين والموحدين (المغرب والأندلس)**، الطبعة 01، الدار الإسلامية التوزيع والنشر، القاهرة، مصر، 1426هـ/2005م، ص:20.

3 – فتحي زغروت، المرجع السابق، ص:20.

4 – نفسه، ص: 21.

5 – نفسه.

ففي المغرب الإسلامي سعى المرابطون إلى تأسيس مجتمع إسلامي يُحاكي مجتمع الصحابة، لذا رأوا أن من نجاح مشروعهم ذلك نبذ العلوم المحدثة وعلى رأسها علم الكلام والفلسفة، ومطاردة أهلها وتقتيلهم إن هم جاهروا بآرائهم[1] .

ورغم ما شهدته العلوم الكلامية من ازدهار في المشرق خلال القرنين 5و6هـ/ 12م و13م[2] إلا أن المرابطين تبنَّوا موقف المعارضين لها وإمامهم في ذلك إمام دار الهجرة مالك بن أنس، فالدولة المرابطية دولة سنية في منهجها وأحكامها ولكن من منظور مالكي بحت، وانطلاقاً من هذه الزاوية وبناء على هذه الخلفية تعامل أمراؤها وعلماؤها مع تلك العلوم الكلام، هذا مع أن الإمام مالك – نفسه – كان يرى أن التقليد في العقيدة لا يُجزئ[3].

وكان الإمام مالك يقف موقفاً متشدداً من الكلام وأهله، ويتبين لنا ذلك مما نقله عنه الإمام ابن عبد البر المالكي 462هـ/ 1069م[4] في كتابه

---

1 – أنظر: دي بور، **تاريخ الفلسفة في الإسلام** ، ترجمة: محمد عبد الهاي أبو ريدة، الطبعة 05، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1401هـ/ 1981م، ص365 ، 366.

2 – أشار إلى ذلك أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية و الأندلس و المغرب**، خرَّجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للملكة المغربية، ودار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،1401 هـ/ 1981م ،ج:11، ص:230 .

3 – أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس المالكي الشهير بالقرافي، **الذخيرة**، تحقيق: محمد حجي، سعيد أعراب، محمد بوخبزة، الطبعة 01، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1994م، ج: 13،ص:213

4 – هو أبوعمر يوسف بن عبد البر النمري، توفي سنة 460 أو 463 هـ/ 1070م، و كان مولده سنة 362هـ/ 972م فقيه حافظ مكثر، عالم بالقراءات والفقه وعلوم الحديث والرجال، إمام عصره في الحديث والأثر وما يتعلق بهما، من مؤلفاته: التمهيد والاستيعاب والاستذكار، وغيرها، قال عنه أبو محمد ابن حزم: لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله، وكان مع تقدمه في علم الأثر وبصره بالفقه ومعاني الحديث، له بسطة كبيرة في علم النسب. أنظر : أبو العباس شمس الدين أحمد

" جامع بيان العلم وفضله " عن مصعب بن عبد الله الزبيري 157هـ/ 733م، قال: " كان مالك بن أنس يقول الكلام في دين الله أكرهه"[1].

وكان الإمام مالك لا يرى الخوض في علم الكلام ولو للدفاع عن العقائد، وكتب في هذا المعنى لعبد الله بن فروخ تـ172هـ/ 788م[2] أحد أبرز تلامذته في المغرب الذي " كتبَ إلى مالك يُخبره أن بلدنا كثير البدع وأنه ألف لهم كتابا في الرد عليهم فكتب إليه مالك يقول:" إن ظننت ذلك بنفسك خفت أن تزل و تهلك لا يرد عليهم إلا من كان ظابطا عارفا بما يقول لا يقدرون أن يعرجوا عليه فهذا لا بأس به وأما غير ذلك فإنني أخاف أن تكلمهم فتخطئ ويظفروا منه بشيء فيطفوا ويزدادوا تعاديا على ذلك"[3]، وهذا الذي خشيه مالك هو الذي وقع فيه ابن فروخ فقد كان يُتهم بالإعتزال ثم برَّأه الله منه[4]، وكان الإمام مالك" أبعد الناس من مذاهب المتكلمين وأشدهم بغضاً للعراقيين"[5]، ومن كلامه: " دعوا السنة تمضي لا تعرضوا لها بالرأي"[6]، وذكر جلال الدين السيوطي تـ

ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة 01، دار صادر، بيروت، لبنان، 1994م، ج: 7، ص: 66 – 70.

1 – ابن عبد البر، **بيان جامع العلم وفضله**، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الطبعة 01، دار ابن الجوزي، السعودية،1414هـ/1994م، ج:2، ص: 938.

2 – عبد الله أبو محمد بن فروخ الفارسي، كان من شيوخ أهل إفريقية، ممن رحل في طلب العلم، فلقي بالمشرق مالك بن أنس، وسفيان الثوري، وقد لقي أيضا أبا حنيفة، وكان يكاتب الإمام مالكا فيجيبه الإمام عن مسائله، وكان ثقة في حديثه، خرج حاجاً فمرّ في طريق عودته بمصر و توفي بها سنة 176هـ/ 792م . أنظر: أبو العرب التميمي، **طبقات علماء إفريقية**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، د.ت.ط.، ص: 34.القاضي عياض، ترتيب المدارك ، ج: 03، ص: 102 .

3 – القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج: 3، ص: 111.

4 – نفسه.

5 – نفسه، ج:2، ص: 39.

6 – محمد بن أبي نصر الحميدي، **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، 1385هـ/ 1966م، ص: 172 .

911هـ/1505م أن الإمام مالك قال: " إياكم والبدع، قيل يا أبا عبد الله وما البدع؟ قال أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعين لهم بإحسان"[1]، وقال"لو كان الكلام علما لتكلم فيه الصحابة والتابعون كما تكلموا في الأحكام ولكنه باطل يدل على باطل"[2]، وسار تلاميذه وأئمة مذهبه على ذلك[3] .

ويُنبِّهنا أبو زهرة إلى أن الإمام مالك: " كان على علمٍ بها (أي علوم الكلام)، وكان تأثيرها فيه سلبيا، علم الكثير منها، وتجافت عنها نفسه، كمن يعلم الشر ليجتنبه، لا كمن يعلم الخير ليتبعه "[4].

فالمالكية كانوا على درايةٍ بهذا العلم إلا أنَّهم وقفوا منه موقف المُتجاهل المُعادي، فقد عدَّد إمام المالكية القاضي عياض اليحصبي ت544هـ/1149م في فهرسة شيوخه الموسوم بالغنية عدداً من المتكلمين منهم شيخه أحمد بن محمد الجذامي المعروف بالزنقي ووصفه بـ " شيخ المتكلمين على مذهب أهل الحق في وقته"[1]، وأبو عبد الله محمد بن عمر بن قطر الزبيدي ت501هـ/1107م كان " له حظ من

---

1 – ابن مفلح محمد أبو عبد الله شمس الدين المقدسي، **الآداب الشرعية والمنح المرعية**، عالم الكتب، د.ت.ط، ج: 1، ص: 201 –202.

2 – البغوي أبو محمد الحسين بن الفراء، **شرح السنة**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط–محمد زهير الشاويش، الطبعة 02، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، 1403هـ/1983م، ج:1 ،ص :217.

3 – قال ابن عبد البر : " أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع أشعريا كان أو غير أشعري ولا تقبل له شهادة في الإسلام ويهجر ويؤدب على بدعته، فإن تمادى عليها استتيب منها"، ابن عبد البر النمري القرطبي، المصدر السابق، ج: 2، ص: 943.

4 – محمد أبو زهرة، **مالك حياته وعصره – آراؤه وفقهه**، الطبعة 02، دار الفكر العربي، دار الثقافة العربية للطباعة بيروت، القاهرة، 1373هـ/ 1954م، ص: 154.

العلم بالأصول والاعتقاد" [2]، وأبو علي الحسن بن عبد الأعلى الكلاعي ت505هـ/ 1111م "كان محققاً فهماً فقيهاً أصولياً متكلماً"[3]، وأبو محمد عبد الغالب بن يوسف السالمي ت516هـ/ 1122م "المتكلم على مذهب أهل السنة من الأشعرية"[4]، وأبو الحجاج يوسف بن موسى الكلبي ت520هـ /1125م " كان من المشتغلين بعلم الكلام على مذهب الأشعرية " [5] .

وفي اعتقادي أن العصر المرابطي يُعتبر من عصور النكبة في تاريخ العلوم الكلامية والفلسفية في المغرب الإسلامي، وهو ما ذهب إليه بعض الباحثين المتخصصين مثل عبد المجيد النجار الذي ألقى حكما في غاية الوثوقية – مع شيئ من المبالغة– حين قال " لم يكن للفلسفة وجود يذكر بالمغرب قبل عهد الموحدين"[6]، وقد فُسِّر هذا الضعف بالثقافة الفقهية القائمة هناك كانت شديدة العداء لهذا اللون من الفكر"[7].

وما ذُكر عن الواقع المتردي للعلوم الكلامية والفلسفية لا ينطبق تماما على كامل الغرب الإسلامي، لأن " الأندلس كانت أكثر انفتاحا على التيارات الفلسفية بما تهيأ فيها من مناخ جدلي فرضه الاحتكاك بين المذاهب والأديان المختلفة التي تعايشت هناك، فقامت بينها المناظرات

---

1 – القاضي عياض، **الغنية (فهرست شيوخ القاضي عياض)**، تحقيق: ماهر زهير جرار، الطبعة 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،1402 هـ / 1982 م، ص: 117و126.

2 – القاضي عياض، الغنية، ص: 76 – 79 .

3 – نفسه، ص: 140 و141 .

4 – نفسه، ص: 169 و170 .

5 – نفسه، ص: 226 و227 .

6 – عبد المجيد النجار، ابن تومرت، ص: 465 .

7 – نفسه، ص: 465 و466 .

التي اضطرت كل طرف للاقتباس من الفلسفة مـا يقـوي بـه الحجـاج والـرد فكان ذلك منفذ لعلـوم الأوائـل"[1].

فقد شهدت الأندلس تلـك العلـوم، إلا أن وجودهـا لـم يكـن بـالوزن الذي وُجدت فيه بالمشرق، وهو ما يـُـفهم من كـلام ابـن حـزم الأندلسـي إذ يقول :" وأما علم الكلام فإن بلادنا وإن كانت لـم تتجـاذب فيهـا الخصـوم ولا اختلفت فيها النحل فقلّ لذلك تصرفهم في هذا البـاب، فهـي علـى كـل حـال غير عريةٍ عنه" [2] .

فجلّ الأسماء التـي حفظتهـا لنـا المصـادر فـي العلـوم الكلاميـة والفلسفية خلال الفترة المرابطية من العدوة الأندلسـية تخطّـت رقابـة السـلطة والفقهاء وعملـت فـي سـرية تامـة، ومـن أشـهرهم وأسـبقهم الفيلسـوف المتصوف عبد الله بن مسرة تـ319هـ/931م (قبـل العصـر المرابطـي)، الذي حمل من المشـرق الفكـر الشـيعي الإسـماعيلي والنزعـات الإشـراقية الصوفية، إضافة إلى الفكـر اليونـاني البـاطني، واسـتطاع تأسـيس مدرسـة صوفية أندلسية خرَّجت أشهر صوفية وفلاسفة مـنهم: إسـماعيل بـن عبـد الله الرعيني الذي كان أهل بيته كلهـم مسـريين، وكـان بينهـم ابنـة لـه لقبهـا الناس بالمتكلّمـة[3]، وأبـو الحكـم الكرمـاني تـ458هـ / 1092م[4]، الـذي تـروي المصادر أنه أول من أدخل رسـائل إخـوان الصـفا إلـى الأنـدلس[5]،

---

1 – نفسه، ص: 465. يُـضاف إلى ذلك غياب جوّ الجدل والمناظرة الذي ينجم عن تعدد الفرق.

2 – أبو محمد علي بن حـزم الأنددلسـي، **رسـائل ابـن حـزم الأندلسـي**، المحقـق: إحسـان عبـاس، الطبعة 01، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان،1983م، ج: 2،ص: 25.

3 – أنخل جنثالث بالنثيا، **تاريخ الفكر الأندلسـي**، نقلـه عـن الإسـبانية: حسـين مـؤنس، الطبعـة 02، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، د.ت.ط، ص: 331 .

4 –القفطي جمال الدين، **أخبار العلماء بأخيار الحكمـاء**، تحقيـق: إبـراهيم شـمس الـدين، الطبعـة 01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1426 هـ / 2005 م، ص : 186 .

5 – نفسه.

فكانت مدرسة ابن مسرة بالأندلس النـواة والمدرسـة الأصـل التـي تفرعـت عنها الإتجاهات الفلسفية في الغرب الإسلامي والأندلس خاصة[1] .

ومن اشتغل بهذه العلوم خلال العصر المرابطـي ابـن السـيد البطليوسـي تـ521هـ/1126م[2] الـذي أعتبـر كتابـه: الحـدائق فـي المطالـب العاليـة الفلسفية العويصة[3] " أول محاولة للتوفيـق بـين الشـريعة الإسـلامية والفكـر الفلسفي اليوناني"[4]، والذي "أعـاد المستشـرق آسـين بلاثيـوس اكتشـاف هـذا الفيلسوف بعد أن ظلّ يـُـعتبر فـي عِـداد النُّحـاة واللغـويين زمنـا طـويلا بسبب هفـوة وقـع بهـا مؤرخـو السِّـير"[1]، ولعـل أول إشـارة إلـى مكانـة ابن السيد الفلسفية ما ذكره الفتح بـن خاقـان تـ 529هـــ / 1134م بقولـه

---

1 – جمال علال البختي، **الحضور الصوفي في الأندلس و المغرب إلـى حـدود القـرن 5هــ**، الطبعـة 01، القاهرة، مصر، مكتبة الثقافية الدينية، 1426هـ/2005م ، ص: 12 .

2 – أبو محمد عبد الله بن محمد بن السِّـيْد البَطَلْيَوْسـي النحـوي، مـن كبـار أئمـة اللغـة والأدب فـي الأندلس، أصله من مدينة شِلْب، ومولده في بطليوس، لـه تصـانيف شـهيرة، منهـا: كتـاب "الاقتضـاب في شرح أدب الكتاب" وكتاب "الحلل على أبيـات الجمـل" للزجـاجي، وكتـاب "التنبيـه علـى الأسـباب الموجبة للخلاف بين الناس في مـذاهبهم". ولـه "شـرح الموطـأ" وكتـاب "المثلـث" وكتـاب "المسـائل والأجوبة" وإثبات النبوات، وشرح سقط الزندي للمعري، ووضع للفـتح بـين خاقـان مصنفا فـي ذكـر فضائله. أنظر: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبـادى، **البلغـة فـي تـراجم أئمـة النحـو واللغة**، الطبعـة 01، دار سـعد الـدين للطباعـة والنشـر والتوزيـع، 1421هــ/ 2000م، ص: 174. وابن خلكان، المصدر السابق، ج:3 ،ص: 96. وأبو العباس المقـري التلمسـاني، **أزهـار الريـاض فـي أخبار القاضي عياض**، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الإبيـاري وعبـد العظـيم شـلبي، مطبعـة لجنـة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1358هـ / 1939م، ج: 3، ص: 102.

3 – أبو محمد عبد الله بن محمد بـن السـيد البطليوسـي، **الحـدائق فـي المطالـب العاليـة الفلسـفية العويصة**، تحقيـف: محمـد رضـوان الدايـة، الطبعـة 01، دمشـق، سـوريا، 1408هـــ / 1988م . وعمر بن رضا كحالة، **معجم المـؤلفين**، دار إحياء التـراث العربـي،د.ت.ط، بيـروت، مكتبـة المثنـى، ج:9، ص: 126.

4 – آنجل جنثالث بالنثيا، **تاريخ الفكر الأندلسي**، ترجمة: حسـين مـؤنس، الطبعـة: 02، مكتبـة الثقافـة الدينية، بور سعيد، مصر، د.ت.ط، ، ص: 335.

"وله تحقيق بالعلوم الحديثة والقديمة وتصرف في طرقها المستقيمة ما خرج بمعرفتها عن مضمار شرع ولا نكب عن أصل للسنة ولا فرع"[2].

وكتاب "الحدائق" يردُّ فيه ابن السيد على سبعة أسئلة فلسفية سُئل عنها وهي كما قال: "ضيقة المسالك وكثيرا ما تفضي بسالكها إلى المهالك"[3].

وممن اشتغل بهذه العلوم أيضا الفيلسوف ابن أبي الصلت أمية بن عبد العزيز الداني ت528هـ/1133م[4] الذي "كان عارفا بفن الحكمة" [5]، وأبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ التجيبي الأندلسي الشهير بابن باجة ت533هـ/1138م[6] الذي" كَانَ فِي الْعُلُوم الْحكمِيَّة عَلامَة وقته وأوحد زَمَانه"[7]، واُعتبر أول من أشاع الفلسفة في الأندلس[8]، وله شروح على بعض كتب أرسطو في الطبيعيات[9].

---

1 – هنري كوربان، **تاريخ الفلسفة الإسلامية**، ترجمة :نصيرة مروة وحسن قبيسي، الطبعة 02، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، 1198م، ص: 349 .

2 – المقري، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ج:3، ص: 106 .

3 – أنظر : البطليوسي، الحدائق في المطالب العالية الفلسفية العويصة، ص: 31 . ومقدمة صلاح مهدي الفرطوسي لكتاب ابن السيد البطليوسي، **المثلث**، دار الرشيد للنشر والتوزيع، العراق، 1401هـ/ 1981م، ص: 31 .

4 – ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي، **التكملة لكتاب الصلة**، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة، بيروت، لبنان، 1415هـ/1995م، ج:1، ص: 168.

5 – ابن خلكان، المصدر السابق،ج:1، ص: 243 .

6 – أبو العباس أحمد بن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق: نزار رضا، بيروت، دار مكتبة الحياة، ص: 515.عمر فروخ، **تاريخ الأدب العربي**، الطبعة 03، دار العلم للملايين، لبنان، 1405هـ/ 1985م، ص: 93.

7 – ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص: 515 .

8 – محمد لطفي جمعة، **تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب**، الطبعة 01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.ط، ص: 80 .

9 – نفسه، ص: 80 .

وكان الفيلسوف ابن باجة قد عانى من مضايقات السلطة الحاكمة التي حاربته بشتى الوسائل واتهمته بالزندقة[1]، وانتهت حياته بالاغتيال، وهو ما يُوضِّحُ الحصار الذي تعرض له الفكر الفلسفي القائم على النظر والعقل بدل النص والأثر الذي يقوم عليه المذهب المالكي، وهو ما أدركه قبله أبوالوليد الباجي ت474هـ/ 1081م الذي أوصى وليْه بقوله : " وإيَّاكما وقراءة شيئ من المنطق وكلام الفلاسفة فإن ذلك مبني على الكفر والإلحاد والبعد عن الشريعة " [2] .

أما مالك بن وهيب ت 5252هـ/1130م أحد الفقهاء والوزراء المرابطين، فقد كان يوصف بفيلسوف المغرب[3]، كان خبيرا بالعلوم القديمة وببعض كتب اليونان، يقول المراكشي: " ورأيت بخطه "كتاب الثمرة" لبطليموس وكتاب المجسطية" في علم الهيئة وله حواشي بتقييده أيام قراءته إيَّاه على رجل من أهل قرطبة اسمه أحمد"[4]، غير أن ابن وهيب هذا – الذي شارك في مناظرة المهدي الشهيرة أمام علي بن يوسف – كان لا يُظهر من العلوم إلا ما يُنفق في ذلك الزمان رغم أنه كانت

---

1 – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق:عمر عبد السلام ، الطبعة 02، بيروت، دار الكتاب العربي، 1413 هـ – 1993 م، ج: 36، ص: 331.

2 – أبو الوليد الباجي، **وصية الباجي لولديه**، نشرة جودة عبد الحق، بمجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، العدد:03، مجلد 1، سنة 1955م، ص: 53 .

3 – شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، الطبعة 01، تحقيق : إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، 1968م، ج: 3، ص: 479. وحسن أحمد محمود، **قيام دولة المرابطين**، مكتبة النهضة العربية، ص: 436.

4 – المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين**، تحقيق: محمد سعيد العريان، محمد العربي العلمي، الطبعة 01، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1368 هـ / 1949م، ص: 140.

لديه فنون من العلم كثيــرة[1]، فــأعرض عــن هــذه العلــوم ظاهريــا بعــد أن طولب بدمه[2]، "وبُلي بمحن كَثِيــرَة وشــناعات مــن الْعَــوام وقصــدوا هَلَاكــه مَرَّات وَسلمهُ الله مِنْهُم"[3].

ومع ذلك فقد أبدى فلاسفة العصــر المرابطــي مــن العــدوة الأندلســية تحسرهم على واقعها المتردي، ففي مقدمة كتابه الفلســفي " حــي بــن يقظــان " يصور لنا الفيلسوف أبو بكر بن طفيــل تـــ581هــ/1185م واقــع الفلســفة في عصره، واقع يعبر عنه الفيلســوف بأنَّــه " أعــدم مــن الكبريــت الأحمــر، ولاسيما في هذا الصقع الذي نحــن فيــه"[4]، وســبب صــعوبة الظفــر بشــيء من الفلسفة في الأندلس يعود إلى أن الملة "الحنيفيــة والشــريعة المحمديــة قــد منعت من الخوض فيه وحذرت منه" [5] .

وإلى جانب مضايقات الســلطة المرابطيــة لعلــوم الكــلام، ظهــرت ردود الفقهاء المالكية على مثل هــذه العلــوم، ففــي الأنــدلس المرابطيــة – دائمــا– تولى الرد على الفلسفة وأهلها أبو الوليد البــاجي تـــ474 هــ/ 1081م فــي "وصيته"[6]، والقاضي أبو بكر بن العربــي الإشــبيلي تـــ520 هــ/ 1126م[1]

---

1 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 140.

2 – ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص: 515. ومما قيل فيه :

ودولة لابــن تاشفين علي *** ظهرت بالكمال من كل عيب

غير أن الشيطان دس إليها *** من خباياه مالك بن وهيب

أنظر : المقري، نفح الطيب، ج: 3، ص: 479.

3 – ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص: 515.

4 – ابــن طفيــل، **حــي بــن يقظــان**، تحقيــق: البيــر نصــري نــادر، الطبعــة 02، دار المشــرق، بيروت،1968م،ص: 111.

5 – نفسه، ص: 111.

6 – يتضح ذلك في الوصية الرابع عشرة من وصــايا البــاجي لولديــه، أنظــر: أبــو الوليــد البــاجي ، وصية الشيخ أبي الوليد الباجي لولديه، تحقيق: جودة عبــد الرحمــان هــلال، **مجلــة المعهــد المصــري للدراســات الإســلامية فــي مدريــد**، المجلــد 01، العــدد 03، 1374هــ/1955م، مطبعــة المعهــد المصري، ص: 35 .

كانت لـــه ردود عنيفـــة على الفرابي، وابن ســينا، وأبـــو المعـــالي الجـــويني[2]، ومحمد بن خلف بن موســـى الأوســـي الأنصـــاري الألبيـــري تـــــ 537هـــــ / 1042 م، كان على مذهب الأشاعرة وله مؤلفات منهـــا "النكـــت الأمـــالي فـــي النقض (الرد) علـــى الغزالـــي"، و"رســـالة الانتصـــار علـــى مـــذهب الأئمـــة الأخيار" وله أيضا "رسالة البيان عن حقيقة الإيمان"[3] .

فلم تكن العلـــوم الفلســـفية الكلاميـــة بـــالغرب الإســـلامي مَـــــكينة فـــي دخولها ولا في انتشارها، وفي هذا المعنى يؤكـــد المستشـــرق الإســـباني آســـين بلاثيوس أن "الفلسفة لم تدخل الأندلس صـــريحة ظـــاهرة بوجـــه ســـافر، وإنمـــا وفدت عليه فـــي صـــحبة العلـــوم التطبيقيـــة –الفلـــك والرياضـــة والطـــب– أو تسربت إليه متسترة في ثنايا بدع الإعتـــزال وبعـــض مـــذاهب الباطنيـــة، كمـــا اجتهد أصحاب هذه المذاهب – التـــي كـــان النـــاس يتحاشـــونها – فـــي النجـــاة

---

1 – الإمام العالم القاضي محمد بن عبد الله بن محمد بن عبـــد الله بـــن أحمـــد المُكنـــى بـــأبي بكـــر بـــن العربي المعافري، قاضي قضاة كورة إشبيلية ، كان مولده ليلة يـــوم الخمـــيس لثمـــان بقـــين مـــن شـــعبان 468هــ / 1075 م رحل إلـــى المشـــرق مـــع أبيـــه مســـتهل ربيـــع الأول ســـنة 485هـــــ / 1092 م، ودخل الشام والعراق وبغداد، وسمع بها من كبار العلمـــاء، ثـــم حـــج فـــي 489هـــــ / 1096 م ، وعـــاد إلى بغداد ، ثم خرج إلى دمشق سنة 491 هـــــ/ 1098 م، ثـــم عـــاد إلـــى الأنـــدلس 493هـــــ/ 1100 م مرورا بمصر ، وقدم إشبيلية بعلم كثير، وكان موصـــوفاً بالفضـــل والكمـــال، وولـــي القضـــاء بإشـــبيلية، ثم صُرف عنه، وتوفي بمغيلة بمقربة من مدينة فاس، ودفن بفـــاس فـــي ربيـــع الآخـــر ســـنة 543هـــــ / 1148 م . أنظر عنه مثلا : المقري، **نفـــح الطيـــب مـــن غصـــن الأنـــدلس الرطيـــب** ، تحقيـــق إحســـان عباس ، دار صـــادر، بيـــروت،1388هـــــ / 1968 م ، ج : 2 ، ص : 26 ، 43 . و ابـــن أبـــي بكـــر القضاعي البلنسي، **التكملة لكتـــاب الصـــلة**، تحقيـــق : عبـــد الســـلام الهـــراس، دار الفكـــر ، بيـــروت، 1416 هــ / 1995م ، ص : 192. وابن العماد، المـــصـــدر الســـابـــق، ج : 2، ص : 141.

2 – أنظر: عمار طالبي، **آراء ابن العربـــي الكلاميـــة**، الشـــركة الوطنيـــة للنشـــر والتوزيـــع، الجزائـــر، د.ت.ط، ج:2، ص: 135 وما بعدها.

3 – أنظر: ابن الأبار القضاعي البلنســـي، **التكملـــة لكتـــاب الصـــلة** ، تحقيـــق: عبـــد الســـلام الهـــراس، بيروت، لبنان، دار الفكـــر للطباعـــة، 1415هـــــ/1995م، 1/439–440. ابـــن فرحـــون إبـــراهيم بـــن علي بن محمد برهان الدين اليعمري، **الديباج المذهب في معرفـــة أعيـــان علمـــاء المـــذهب**، دار الكتـــب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.ط، ص: 402.

بأنفسهم مـــن تعقـــب الفقهـــاء وأهـــل الدولـــة بـــالظهور فـــي مظهـــر التـــدين والنسك"[1].

والظاهر أن العلوم العقلية عموما ظلت علـــى درجـــة مـــن الضـــعف طيلـــة العصر المرابطي، وهو ما يـــُـفهم من شهادة المقـــري فـــي "الـــنفح" إذ يقـــول: "علم الأصول عندهم (أي المرابطين) متوسط الحال "[2] .

وفـــي رصـــد الوضـــع العقيـــدي للغـــرب الإســـلامي فـــي العصـــر المرابطي يطفو خلاف أشد بين الباحثين حـــول حجـــم الوجـــود الأشـــعري فـــي البنية المذهبية المرابطية، ولعل مـــا قـــدَّمنا لـــه مـــن واقـــع العلـــوم الكلاميـــة والفلسفية يـــُـفضي بنا إلى تصورٍ حـــول وضـــعية المـــذهب الأشـــعري الـــذي كان يتسرب ببطءٍ شديد إلى البيئة المغربيـــة رغـــم مـــا كـــان يـــُـــحققه مـــن انتصـــارات كبيرة في المشرق خـــلال الفتـــرة نفسهـــا.

والملاحـــظ أن جـــل البـــاحثين درســـوا المـــذهب الأشـــعري فـــي المغرب المرابطي من زاوية وجـــوده مـــن عدمـــه ولـــم يكـــن حـــديثهم عـــن ازدهار المذهب أو انتشاره إلا زمن الموحدين، فقد عمـــد كثيـــر مـــن البـــاحثين إلى نصـــب حركـــة ابـــن تـــومرت ودولتـــه معلمـــاً فـــي تـــأريخهم للمـــذهب الأشـــعري بـــالغرب الإســـلامي، إذ لا وجـــود معتبـــر للمـــذهب إلا بقيـــام الموحدين، وهو ترديـــد لمـــا أثبتتـــه المصـــادر، إذ قـــرر ذلـــك ابـــن خلـــدون تـــ808هـــ/1405م بقوله: " وانطوى هـــذا الإمـــام – ابـــن تـــومرت – راجعـــا إلى المغرب بحرا متفجرا من العلم وشهابا واريا مـــن الـــدين، وكـــان قـــد لقـــي بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل الســـنة، ...وذهـــب إلـــى رأيهـــم فـــي تأويـــل المتشابه من الآي والأحاديث بعد أن كان أهل المغـــرب بمعـــزل عـــن اتبـــاعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه والإعتقـــاد بمـــذهب الســـلف فـــي تـــرك التأويـــل

1 – بالنثيا، المرجـــع السابـــق، ص:325.

2 –المقري، نفح الطيب، ج: 1، ص: 221 .

وإقرار المتشابهات كما جاءت، فبصَّر المهدي أهل المغرب في ذلك وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد "[1]، وأكد ذلك المؤرخ المغربي الناصر السلاوي تـ 1319هـ /1901م في تأريخه لعقائد أهل المغرب[2]، وقبله مؤرخ مصر أبي العباس المقريزي تـ 845هـ/1401م عند تأريخه لانتشار عقائد أهل الإسلام منذ ابتداء الملة الإسلامية إلى انتشار الأشعرية[3].

فقد أكَّد الباحث المتخصص عبد المجيد النجار ضعف الوجود الأشعري في المغرب المرابطي وما قبله، وانتهى به البحث إلى أنَّ الإسهام المغربي الحقيقي في إنماء الأشعرية وإثرائها ونشرها كان على يد رجلين تتلمذا على يد الغزالي هما: أبو بكر بن العربي ومحمد بن تومرت[4] .

والمُلاحظ على بعض الدراسات المتأخرة سعيها الحثيث لإثبات الحضور الأشعري في مغرب المرابطين بتكلُّفها تأويل مختلف النصوص التي تُنبئ عن عداء السلطة للمذهب الأشعري ومعارضة الفقهاء ونفور العامة عن المذهب[5]، أو بتضخيم النصوص التي تشير إلى وجود

---

1 – ابن خلدون، تاريخ بن خلدون، ج : 6، ص : 300 .

2 – أبو العباس السلاوي الناصري، المرجع السابق، ج : 1، ص : 63 .

3 – المقريزي، **المواعظ والإعتبار في ذكر الخطط و الآثار**، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد ، القاهرة د.ت.ط ، ج :4، ص : 163.

4 – أنظر : عبد المجيد النجار، ابن تومرت، ص: 438 – 440. ومغزاوي مصطفى، **البعد السياسي في انتشار المذهب الأشعري في المشرق الإسلامي ومغربه**، دار كنوز الحكمة للطباعة والنشر، الجزائر، 1432هـ/ 2011م، ص: 101.

5 – أنظر يوسف احنانا، **تطور المذهب الأشعري في المغرب الإسلامي**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية، 1424 هـ/ 2003 م، ص : 71.

أثر أشعري ضئيل فردي ومعزول في مغرب المرابطين[1]، حيث يجزم الباحث يوسف أحنانا أن دولة المرابطين شاء لها مؤسسها والمنظرون لها أن تقوم على عقيدة الأشاعرة، لكن وجودها الفعلي قام على عقيدة أهل التسليم والتفويض التي كانت قد عرفت تجذرا في جل الغرب الإسلامي[2]، ويسترسل نفس الباحث ويرى أن تأسيس دولة المرابطين قام على شيء من الاعتقاد الأشعري لكن الظروف كانت أقوى من أن تجعل المرابطين يستعيضون بهذا المذهب الجديد عن مذهب عقدي كان قد ترسخ وعرف جذوره في جميع أوساط الغرب الإسلامي، فقد كان تأسيس دولة المرابطين يهدف بالأساس إلى القضاء على التشتت السياسي والاجتماعي الذي كانت تعرفه وقتها بلدان الغرب الإسلامي في كل من الأندلس والمغرب[3].

والحقيقة أنَّ هذا الكلام لا يَعْدُ أن يكون حكما غيبيا ظنيا على نوايا أناس جاءت أعمالهم خلاف ذلك، فالغرب الإسلامي لم يكن ولودا

---

1 – من ذلك ما أورده محمد بن تاويت الطنجي في تقديمه لكتاب (ترتيب المدارك) ، إذ يقول عن المدرسة الأشعرية المغربية أيام المرابطين: «هذه المدرسة المغربية كانت على علم تام بالجدل والمناظرة وأصول الدين والكلام على مذهب أبي الحسن الأشعري، وإن كتب الأشاعرة في علم الكلام كانت معروفة بين رجال المغرب يتدارسونها في كافة أنحاء المغرب...» ، مستدلا بما ذهب إليه الناصري بقوله: «... وإن كان (أي المذهب الأشعري) قد ظهر في المغرب قبل ابن تومرت ظهورا ما..» ، محمد بن تاويت الطنجي، مقدمة كتاب: <u>**ترتيب المدارك**</u>، طبعة وزارة الأوقاف والشؤن الإسلامية)، ج:1 ، ص:6 .

2 – يوسف احنانا، المرجع السابق، ،ص: 71 .

3 – نفسه.

للمذاهب[1] كماعُرف عن أهله أنهــم جـــُبلوا علـــى " تـــرك الجــدل والخــلاف والتشغيب"[2].

ولاشك أن الباحث يتلمَّس وجــودا أشــعريا خــلال العصــر المرابطــي لاسيما وقد أخذ كبار مالكية المشرق بأصــول الأشــعري، وأبــرز مــن أســهم في نشر الأشعرية في المغرب المرابطــي أبــو الحســن المــرادي الحضــرمي تــ489 هــ/1095م، يذكر ابن الأبار أنه كــان" رجــلا نبيهــا عالمــا وإمامــا في أصول الدين، وله نهوض فــي علــم الإعتقــادات والأصــول "[3]، وبســبب تبريزه فيها اعتبره ابــن الزيــات " أول مــن أدخــل علــوم الإعتقــادات إلــى المغرب الأقصى " [4] .

ومنهم الزاهد أبو الحجاج يوسف بن موســى الكلبــي الضــرير صــاحب منظومة "التنبيه والإرشاد في علــم الاعتقــاد" المؤلفــة مــن أكثــر مــن 1500 بيت عارضا للآراء الكلامية الأشعرية في أسلوب مبســط، وهــي تكــاد تكــون تلخيصا لكتاب الإرشاد لإمام الحرمين الجــويني، واســتقر بــالمغرب الأقصــى إلى وفاته ســنة 520هـــــ/ 1125م، واعتكــف علـــى تــدريس علــم الكــلام بأغمات، ووصفه تلميذه القاضي عياض: " كـــان مـــن المشـــتغلين بعلــم الكــلام

---

1 – عبد المجيد النجار، **تجربة الإصــلاح فــي حركــة المهــدي ابــن تــومرت**، الطبعــة 02، فرجينيــا، الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1415هـ/1995م، ص : 50 .

2 – لسان الدين بن الخطيب الغرناطي، **الإحاطــة فــي أخبــار غرناطــة**، الطبعــة01، بيــروت، لبنــان، دار الكتب العلمية، 1424 هـ/ 2003م، ج: 02، ص :58.

3 – العباس بن إبراهيم السملالي، **الإعلام بمــن حــل مــراكش وأغمــات مــن الأعــلام**، راجعــه: عبــد الوهــاب بــن منصــور، الطبعـــة 02، الربـــاط، المغـــرب، المطبعـــة الملكيـــة،1414هـــــ/1993م، ج:4،ص:12 .

4 – ابن الزيات التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبــار أبــي العبــاس الســبتي**، تحقيــق: أحمــد التوفيق، الطبعة 02، منشورات كلية الآداب، طبع مطبعـــة النجـــاح الجديـــدة بالـــدار البيضـــاء، المغـــرب، ص: 106 .

على مذهب الأشعرية ونظار أهل السنة"[1]، ومن تلاميذه أبو عبد الله محمد بن خلف الإلبيري تـ 537هـ/1142م الذي " كان حافظا لكتب الأصول والاعتقادات واقفا على مذهب أبي الحسن الأشعري وأصحابه"[2].

ونذكر منهم أبا بكر بن العربي المعافري تـ543هـ/ 1148م أكبر شخصية مالكية أشعرية بالغرب الإسلامي، والذي سيتطوَّر المذهب الأشعري على يديه تطوراً ملحوظاً، من خلال ما نقله من المشرق من كتب علم الكلام على طريقة الأشعرية، وأخذ عن الغزالي التحاجج في العقائد ثم عاد الى الأندلس مصطحبا معه جملة من كتبهم المساعدة على معرفة المذهب[3]. ولم يكتف بجلب مثل هذه الكتب فقط، بل ألّف هو بنفسه كتبا ورسائل ضمَّنها آراءه الكلامية الأشعرية كتكاب "العواصم من القواصم"، وكتاب "الوصول إلى معرفة الأصول"، وكتاب "المتوسط في معرفة صحة الاعتقاد في الرد على من خالف السنة من ذوي البدع والإلحاد"[4]، ومنهم أبو الوليد الباجي تـ474هـ/ 1081م صاحب كتاب "السراج في علم الحجاج" و"إحكام الفصول في أحكام الأصول"[5].

وشهد نهاية القرن الخامس الهجري ظهور أول عقيدة أو نص يلخص العقيدة الأشعرية في الغرب الإسلامي، ويتعلق الأمر بـ" العقيدة السنية أو عقيدة الصالحين أو العقيدة الأسفاقسية" لصاحبها أبي الطيب سعيد بن أحمد بن سعيد الأسفاقسي تـ501هـ/ 1107م، وهي في حكم

---

1 – القاضي عياض، الغنية، ص: 226، التادلي، المصدر السابق، ص: 105 .

2 – ابن الأبار التكملة، ج:1، ص: 358.

3 – أنظر لائحة هذه الكتب في الجزء الأول من دراسة عمار طالبي حول كتاب ابن العربي، **العواصم من القواصم**، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1401هـ/ 1981 م .

4 – علي الإدريسي، **الأشعرية والإستقرار المذهبي بالمغرب**، ضمن : المذاهب الإسلامية ببلاد المغرب من التعدد إلى الوحدة، تنسيق حافظ علوي ،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات رقم: 147، جامعة محمد الخامس أكدال، ص: 130 .

5 – خير الدين الزركلي، الأعلام، ج:3، ص: 125 .

المفقود ووصلنا شرحها الموسوم بمشارق المهتدين في شرح عقيدة الصالحين [1] .

والمُتتبع لتراجم فقهاء العصر المرابطي يتأكّد له وجود تيارين سنيين مالكيين متمايزين، التيار السني المالكي السلفي الذي يُشكل استمرارا لمدرسة عبد الله بن ياسين، وهو التيار الذي كان منحازا للسلطة المرابطية، وتيار سني مالكي أشعري متفتح على التصوف منبوذ من طرف السلطة[2] .

وقد استطاع فقهاء التيار الأول إقناع الأميرعلي بن يوسف برأيهم حتى تحول إلى موقف رسمي تتبنّاه الدولة، ولا تحدِّدُ المصادر تاريخا محددا لانطلاق الحملة المرابطية الرسمة على الأشعرية إلا أن الباحث محمد المغراوي يربطه ببدايات القرن السادس الهجري بإحراق الإحياء[3] الذي جمع بين الأشعرية والتصوف ومحاربة الفروع.

إن الملاحَظ على المتعاطفين مع الأشعرية كانوا من ذوي الميول إلى الزهد والتصوف، وهو ما دفع أحد الباحثين إلى تصوير ذلك بمقدمات تحالف صوفي أشعري لمواجهة المرابطين الذين وقفوا ضد التوجهين معا[4] .

ومما يُلاحظ أيضا أن الأشعرية ظلّت في عهد المرابطين حبيسة الأوساط العلمية لأنهم كانوا شديدي التحفظ مما يُمكن أن يزعزع الوحدة الدينية والمذهبية للمجتمع، وغاية ما يمكن تقريريه هو وجود أشعري

---

1 – يوسف احنانا، المرجع السابق، ص:69، وأثبت نفس الكاتب أشعريتها بعد دراسته للمخطوط.

2 – محمد المغراوي، تطور المذهب الأشعري بالمغرب الأقصى إلى حدود العصر المرابطي، ضمن كتاب : التاريخ والفقه، تنسيق : محمد حجي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات مناظرات رقم : 103، ص :143 .

3 – نفسه، ص: 144 .

4 – نفسه، ص: 142 .

فردي معزول وضعيف، جاء ضمن سياق تتلمذ بعض المغاربة في المشرق وعودتهم حاملين بعض أفكار الأشاعرة[1]، ووفود بعض المشارقة إلى المغرب[2]، وفي أحسن أحواله ظلَّ المذهب الأشعري – عصر المرابطين – فردي الطابع والانتشار أو " مذهب نخبة عالمة تسعى من جانبها إلى نشره بين الناس" [3]، بالإضافة إلى أنه تسرب متقنعا متخفيا متسترا غير سافر، إذ لم يكن في أغلبه إلا تأثرا متفاوت النسبة ببعض ما ذهب إليه الأشعري وأتباعه، ولم يتعد القبول والتلقي إلى الإسهام في تطوير وإثراء المذهب أو الانتصار له .

---

1 – كان أكثر فقهاء المشارقة تأثيرا الفقيه الأشعري المالكي أبو بكر الباقلاني الذي كان من أعيان المذهب المالكي بل" إليه انتهت رئاسة المالكيين في وقته" القاضي عياض، المصدر السابق،ج : 07، ص: 45. بالإضافة إلى أشعريته و" تصدره للإمامة في طريقتهم " ابن خلدون، **المقدمة**، تحقيق: خليل شحادة، الطبعة 02، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1408 هـ / 1988 م، ص : 589 . وكان تأثيره في المغاربة كبيرا، حيث أصبح الباقلاني محج طلبة المغرب يأخذون عنه المذهب المالكي والطريقة الأشعرية معا، وصار مرجعهم في المسائل والنوازل. أنظر: إبراهيم التهامي، **الأشعرية في المغرب**، مجلة الموافقات، العدد الرابع، السنة الرابعة، 1416هـ/جوان 1995 م، مجلة صادرة عن المعهد الوطني لأصول الدين بالخروبة، ص:29 وهي مطبوعة في كتاب بعنوان: **الأشعرية في المغرب دخولها، رجالها، تطورها، و موقف الناس منها**، الطبعة 01، دار قرطبة، 1427هـ / 2006 م ص : 13 ،14 . ويُنظر أيضا : **في علم الكلام، دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين، المعتزلة والأشاعرة** ، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1406 هـ / 1987م، ج : 01، ص : 428، وعبد المجيد النجار، فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب، ص : 25 و26 .

2 – كان الباقلاني قد أرسل إلى المغرب اثنين من أبرز تلامذته هما : أبو طاهر البغدادي والحسين حاتم الأذري، قال ابن عساكر أن الباقلاني أرسله إلى المغرب تلبية لرغبة أهلها. أنظر : ابن عساكر، **تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري**، الطبعة 03، بيروت، دار الكتاب العربي، 1404 هـ / 1984 م، ص :216 و217.

3 – يوسف احنانا، المرجع السابق، ص: 75.

المطلب الثاني: دور السلطة المرابطية والفقهاء المالكية في ترسيخ معتقد أهل الحديث:

نشأت الدولة المرابطيةٍ برعاية وتوجيهٍ من الفقيه المالكي عبد الله بن ياسين الذي أرسى قواعد وتقاليد تـُمجد العلم والعلماء، وسار حكام الدولة المرابطية على هذا المنهج الذي رسمه زعيمهم، وهو ما جعل بعض الباحثين يُسلِّمون بأن" الأثر الديني في قيام دولة المرابطين أقوى من الأثر السياسي"[1].

فقد كان من عادة أمراء الملثمين عدم القطع بموقفٍ سياسي كبير دون مشاورة الفقهاء، فهذا أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ت500 هـ/ 1106م يستصدر فتوى من إمام المغرب آنداك ابن رشد القرطبي (الجد) ت520هـ/1125م[2] عن الأشعرية وأئمتهم، وكان ابن رشد على مذهب مالك أصولا وفروعا، لذا كانت فتواه صريحة واضحة في منع تعلم المعتقد الأشعري وتدريسه، واعتباره مذهبا غامضا، بل أكد أن كل مُصرٍ على تعليم العامة من الناس المعتقد الأشعري يعتبر كافراً[3].

---

1 – حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج: 4، ص: 272.

2 – وليد مدينة قرطبة (قلعة المالكيين)، صار أكبر قضاتها أثناء حكم المرابطين، فقد كان فقيها عالما، حافظا للفقه، مقدما فيه على جميع أهل عصره عارفا بالفتوى، بصيرا بأقوال أئمة المالكية، نافذا في علم الفرائض والأصول، من تصانيفه كتاب " المقدمات " وكتاب " البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل "، واختصار " مشكل الآثار " للطحاوي، عاش سبعين سنة، ومات في ذي القعدة سنة 520هـ / 1126 م. أنظر : ابن أبي بكر القضاعي البلنسي، المصدر السابق، ج : 1، ص : 187 .

3 – ومع هذه الشدة والنكير الذي أبداه ابن رشد أتجاه الأشاعرة ومن أصرَّ على التمسك بمعتقدهم، إلا أنه أنصفهم من حيث اعتبر أئمتهم مجتهدين وأئمة خير وهدى، قاموا بنصرة الشريعة، وأبطلوا شبه أهل الزيغ والضلالة (يقصد أهل التشيع)، أنظر الفتوى كاملة في : **فتاوى بن رشد**، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي، الطبعة 01، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1407هـ / 1987م، ص: 802، 803، 804، 805.

ويُصور لنا عبد الواحد المراكشي ذلك حاكيا عن علي بن يوسف بن تاشفين فيقول:" واشتدَّ إيثاره لأهل الفقه والدين وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء، فكان إذا ولى أحداً من قضاته، كان فيما يعهد إليه: أن لا يقطع أمراً ولا يبت حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء، فبلغ الفقهاء المالكية في أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من الفتح الإسلامي، ولم يزل الفقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة إليهم، وأحكامهم – صغيرها وكبيرها – موقوفة عليهم طول مدته، فعظم أمرهم كما ذكرنا، وانصرفت وجوه الناس إليهم فكثرت لذلك مكاسبهم "...[1] .

وسار الفقهاء إلى جانب الأمراء في خط متواز جنبا إلى جنب، وتطابقت آراؤهم العقيدية وتوحدت مساعيهم وتشابهت أهدافهم في ذلك، فشكلوا قوة ضاربة في وجه العقائد الشيعية والباطنية[2]، وجدار صدٍ أمام العلوم الفلسفية والكلامية والآراء الأشعرية[3]، وعلى هذا الأساس قرر العلماء " تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه تعاطيه وأنه بدعة في الدين"[4] .

---

1 – عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص: 130 .

2 – محمد محمود عبد الله بن بيه، **<u>الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين</u>**، رسالة مجستير، جامعة أم القرى، قسم الدراسات التاريخية و الحضارية،1418هـ/1997م، ص: 99.

3 – والمعروف قبل ذلك أن فقهاء المغرب لم يكونوا يرون أهل الكلام من العلماء ولا يعدون خلافهم خلافا لذلك أسقطوهم من طبقاتهم التي ألفوها في الرجال، وهو نوع من أنواع المقاومة لهم وتجاهلهم رغم بروزهم في ميادين شتى ولكن ذلك لم يشفع لهم ما دام الأصل غير سليم. أنظر: التهامي، جهود علماء المغرب، ص:299، 648 .

4 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 131.

وكانت السلطة المرابطيــة أذُن صــاغية لفتــاوى العلمــاء "فأهينــت الفلسفة"[1] كما يــُـخبرنا الذهبي، ويــُـضيف المقــري أن " كــل العلــوم لهــا عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم"[2]، وما وقع لمحمــد بــن تــومرت دليــل على ذلك، فإنه لما دخل مدينة مراكش حــرَّك العلــوم العقليــة، "وكــانوا أهــل بادية لا يعرفون ذلك، فقالوا: هذا أدخــل علينــا علــوم الفلاســفة، ووَشــوا بــه إلى اللمتوني حتى كان من أمره ما كان "[3].

وشــملت هــذه الاســتراتيجية المعاديــة للعلــوم الكلاميــة والفلســفية ولايات الدولة المرابطية، فقد ذُكــر أن أبــا الفضــل النحــوي تــــ513هــــ/ 1119م دخل سجلماسة وانتصب لتدريس علــم أصــول الفقــه فمــرَّ بــه أحــد رؤساء البلد، فقال ما العلم الذي يُقــــرؤه هــذا، فأُخبــــر، فقــال هــذا يريــد إدخال علينا علوم لا نعرفها وأمــر بإخراجــه[4].

لهذا وجدنا أمير المسلمين علي بن يوســف يكتــب المــرة تلــو المــرة إلى عماله في البلاد بالتشدد في نبذ الخوض في شيء مــن علــم الكــلام[5]، أمــا المؤلفات الكلامية فوُضعت تحت تصرف الفقهــاء الــذين كــانوا ينتهــون إلــى إحراقها ومصادرتها "حفاظا على الوحــدة الفكريــة والعقديــة للمغاربــة"[6] كمــا سنرى في حادثة الإحــراق .

---

1 – انظر : الذهبي، ســير الأعــلام النــبلاء، ج:20، ص: 124. والناصــري، المصــدر الســابق، ج: 02، ص: 69.

2 – المقري، نفح الطيب، ج:11، ص: 220.

3 – الحسن اليوسي، **المحاضرات في اللغة والأدب**، تحقيــق: محمــد حــاجي، الطبعــة 01، دار الغــرب الإسلامي, بيروت، ص: 74 ، التادلي، التشوف، ص: 88– 89 .

4 – التادلي، المصدر السابــق، ص: 98. والحسن اليوسي، المحاضرات، ص: 74 .

5 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 131.

6 – سالم يفوت، **ابن حزم والفكــر الفلســفي بــالمغرب والأنــدلس**، المركــز الثقــافي العربــي للنشــر والتوزيع، 1986م، ص : 257 و258 . عرفت الأنــدلس وقــائع مشــابهة لواقعــة إحــراق المــرابطين لكتاب الغزالي. ويكفي أن نذكر هنا باســتجابة المنصــور بــن عــامر لضــغط الفقهــاء الــذين طــالبوه

وكان القتل مصير من أظهر التحدي والمجاهرة بتلك العلوم، كمصير الفيلسوف ابن باجة الذي قُتل مسموما عام 533هـ/1138م[1]، عكس غيره من الفلاسفة الذين آثروا السلامة وابتعدوا عن المجاهرة بالفلسفة والخوض فيها كمالك بن وهيب الإشبيلي الذي " أضرب ظاهرا عن هذه العلوم وعن التكلُّم فيها لما لحقه من المطالبات في دمه بسببها ... وأقبل على العلوم الشرعية فرأس فيها " [2] .

وأصبحت الفلسفة من العلوم المغضوب عليها لمعارضتها أصول مالك، أو ما يُفضل بعض الباحثين وصفه " بتغلب الجمهور بقيادة رجال الشريعة على رجال الفكر الحر كالفلاسفة والمتصوفة وعلماء الكلام"[3].

ولعل أبرز ما يعكس موقف الطبقة العالمة من الفلسفة في هذا العهد ما وجدناه – سابقاً– في وصية القاضي أبي الوليد الباجي ت474هـ/1081م لولديه بقوله: " وإياكما وقراءة شيء من المنطق وكلام الفلاسفة، فإن ذلك مبني على الكفر والإلحاد والبعد عن الشريعة "[4].

ولم يكتف فقهاء الدولة المرابطية في تهجمهم على أهل الكلام بالاستعانة بالسلطة فقط كما يقصر ذلك كثير من الباحثين، بل بدورهم

بإحراق كتب الفلسفة، حيث "أمر بإحراق كل ما كان في مكتبة القصر من كتب الفلسفة والفلك وغيرهما من العلوم، التي لا يرضى عنها الفقهاء. انظر: عبد الرحمان بدوي، **<u>الفلسفة والفلاسفة في الحضارة العربية "مطبوع ضمن موسوعة الحضارة العربية الإسلامية"</u>**، الطبعة 01، بيروت، لبنان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،1987م، ص: 144. وعبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج:1، ص: 509.

1 – ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص: 515 .

2 – نفسه، ص: 515.

3 – بلغيث محمد الأمين، **<u>دولة المرابطين بالأندلس من مدينة السياسة إلى مدينة العلم</u>**، دار الوعي، الجزائر، 2009م، ص : 257 .

4 – أبو الوليد الباجي، **<u>وصية الباجي لولديه</u>**، نشرة جودة عبد الحق، بمجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، العدد:03، مجلد 1، سنة 1955م، ص: 53 .

أعملوا فكرهم وحركوا أقلامهم مــن أجــل ذلــك، ومثــال ذلــك الفقيــه عبــد الرحمان بن عتاب تــ 520هــ/ 1125م الذي صــنَّف عقيدتــه الشــهيرة بــــ: شفاء الصــدور فــي الوصــايا والمــواعظ والتــذكير وجمــل مــن الفــرائض والفضائل والقرب إلى الله عز وجل والوسائل [1]، اســتدل فــي تقريــر عقيدتــه بالنصوص القرآنية والحديثية وكلام السلف الصــالح مــن الصــحابة والتــابعين وكبار أئمة المذهب المالكي[2] .

أما المذهب الأشعري فرغم وجوده الضئيل فــي الغــرب الإســلامي فقــد أصرت السلطة المرابطية بمعية الفقهاء على شن هجوم عنيف عليه .

وحاول يوسف بن تاشفين كعادته الحصول علــى الرخصــة الفقهيــة فــي حركته السياسية ضد المذهب الأشعري، وجاءتــه الفتــوى صــريحة فــي منــع تسرب الأشعرية بين العوام، مع الثناء على أئمــة الأشــعرية والاعتــذار لهــم، خلافا لما جاء في فتــوى الإحــراق[3].

وأصبح موقف العداء ومحاربــة الأشــعرية موقفــا رســميا صــدر مــن مراكش وعُمِّم على باقي الولايــات، فــطــُـــرد المتصــوف الأشــعري أبــي الفضل بن النحوي تــ 513هــ/1119م مــن سجلماســة مــن أحــد رؤســائها فاضطر لمغادرتها إلى مدينة فاس التــي مُنــع فيهــا أيضــا مــن إلقــاء دروس علم الكلام بجامع القروييــن من قاضي فاس أبي محمــد عبــد الله بــن دبــوس اليفري تــ511هــ/1117م وعلى إثــر ذلــك قــرر تــرك المغــرب الأقصــى والعودة إلى بلده بقلعة بني حماد[4].

---

1 – خير الدين الزركلي، **الأعــلام**، الطبعــة 15، بيــروت، لبنــان، دار العلــم للملايــين، أيــار / مــايو 1422هــ/ 2002 م، ج:3، ص: 327، وعمر كحالة، المرجع السابق، ج:5، ص: 184 .

2 – مخطوط بإحدى المكاتب الخاصة، أنظر : يوسف احنانا، المرجع السابق، ص: 81 .

3 – ابن رشد، فتاوى بن رشد، ص : 802، 803، 804، 805 .

4 – الحسن اليوسي، المحاضرات، ص: 74 .

ومن مدينة إشبيلية وجه الأمير أبو إسحاق بن علي بن يوسف إلى قاضي الجماعة ابن رشد " سائلا عن الأشعريين هل هم مالكيون أم لا؟ وهل ابن أبي زيد ونظراؤه من فقهاء المغرب أشعريون أم لا ؟ وهل أبوبكر الباقلاني مالكي أم لا؟ " [1].

ولعل أهم ما يبرز اجتماع السلطة الزمانية والمكانية على التزام منهج فكري واحدٍ خلال العصر المرابطي هو حادثة إحراق كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي في ولاية الأمير المرابطي علي بن يوسف 500 – 557 هـ / 1106م – 1113 م، فقد كان علي بن يوسف مثل أبيه وقافاً عند إشارة الفقهاء وأهل العلم راداً جميع الأحكام إليهم[2]، وهو ما لم يرُق لبعض المؤرخين[3]، فلما أفتوه بإحراق كتاب الإحياء لإمام الأشاعرة أبي حامد الغزالي تـ505هـ/ 1111م، كتب إلى أهل مملكته في سائر الأمصار والأقطار بالبحث عن نسخ الإحياء بحثا أكيدا[4]، فجُمِع من نسخها عددٌ كثيرٌ ببلاد الأندلس، ووُضِعت بصحن جامع قرطبة، وصُب عليها الزيت ثم أوقد عليها النار، وكذا فعل بما وُجد من نسخ بمراكش، وتوالى الإحراق عليها في سائر بلاد المغرب في محفل كبير، وقالوا "هذا كتاب إحياء علوم دينه وأما ديننا فإحياء علومه كتاب الله وسنة

---

1 – ابن رشد، المصدر السابق، ص: 1060.

2 – يقول المراكشي " اشتدَّ إيثاره لأهل الفقه والدين وكان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء "، عبد الواحد المراكشي ، المصدر السابق، ج: 1، ص : 171 .

3 – تولى كبر هذا خاصة المستشرقين منهم اليهودي جولدتسيهر والفرنسي ألفرد بل، انظر : الفرق الإسلامية، ص : 240 إلى 246 .

4 – انظر نص رسالة أمير المسلمين كاملة – منقولة عن مخطوط – في كتاب الفيومي إبراهيم، **تاريخ الفلسفة الإسلامية بالمغرب**، الطبعة 01، القاهرة، دار المعارف، 1412 هـ/ 1992 م، ص : 204 – 205 – 206 .

رسوله"[1]، وحجتهم في ذلك هي اشتماله على ضلالات عقيدية كلامية لا عهد لهم بها، وأحاديث ضعيفة مكذوبة على النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين، وما به من دعوة إلى العزلة والانزواء والخلوات والأذكار والجوع والعطش والهيام في البراري والقفار، والتطلع إلى انكشاف الحجب والأنوار[2]، وهناك رأي آخر في تعليل إحراق الإحياء يربطه بتلك الفترة التي كانت تتطلب إيقاظ الهمم للجهاد، وترك مثل تلك الكتب بين الناس تثبيط على شعيرة الجهاد في سبيل الله[3].

وتفسيرٌ آخر فسَّرهُ أصحابه بعداء فقهاء المرابطين للغزالي نفسه بعد أن اتهمهم بالسخف والسطحية والجهل بأصول الدين[4]، وأورد بعضهم تفسيراً آخر يبدو ضعيفا وغير وارد وهو الاتجاه الفقهي الشافعي للكتاب المخالف لمالكية المرابطين[5] .

وفسَّر بعض الباحثين المعاصرين الهبَّة المرابطية المعادية للأشعرية بأنها سلوك سياسي اتبعه المرابطون لشعورهم أن خطرا ما يهدد دولتهم بالزوال، فرأوا في الأشعرية شعارا إيديولوجيا مُعاديا لدولتهم

---

1 – ابن كثير، **البداية والنهاية**، تحقيق: علي شيري، الطبعة 01، دار إحياء التراث العربي، 1408هـ / 1988م، ج : 12، ص : 174 .

2 – أنظر : فتوى أبي عبد الله محمد بن الوليد الطرطوشي المالكي تـ521هـ / 1128 م، في : المعيار المعرب، لأبي العباس أحمد بن يحي الونشريسي، مصدر سابق،ج : 12، ص: 186 و187. والذهبي، السير، ج : 19، ص : 327، و ج : 20 ، ص : 124 منه. وأنظر: محمد بن عبد الرحمن المغراوي، **العقيدة السلفية في مسيرتها التاريخية وقدرتها على مواجهة التحديات القسم الخامس : الأسباب الحقيقية لحرق إحياء علوم الدين بأمر خليفة المسلمين ابن تاشفين**، الطبعة 01، دار المنار، الرياض، 1414 هـ / 1994م، ص : 12 .

3 – أنظر: التهامي، جهود علماء المغرب، ص: 632 و ما بعدها .

4 – محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، مرجع سابق، ص : 160 – 162، وألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص : 245 .

5 – حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، الطبعة: 13، دار الجيل، بيروت، 1411هـ /19991م، ج:4، ص : 432 .

حتى " صار اعتناق الأشعرية ضربا من ضروب المعارضة السياسية لدولة المرابطين " [1].

والصحيح على ما يبدو أن فقهاء المرابطين كان لهم نفس الموقف مع كل كتب الفلسفة وعلم الكلام أو التي كانت على شاكلة الإحياء والتي عمدوا إلى إهانتها لكراهية المالكية لهذه العلوم[2]، وبين أيدينا شهادة المراكشي الصريحة بأنَّ أهل المغرب في ذلك الزمان دانوا " بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام، وقرر الفقهاء عند أمير المؤمنين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه وأنه بدعة في الدين"[3].

وإذا ما اعتمدنا على رواية المراكشي دائما نلاحظ بأنه قدَّمَ خبر إحراق كتب الغزالي ضمن سياق حديثه عن موقف الحكم المرابطي من علم الكلام، مما قد يفيد بأن المناهضة والمطاردة تشمل اتجاها فكريا عاما وليس مصنفا بعينه[4].

ونجد في إحدى رسائل المرابطين ما يؤكد دعوتهم إلى إحراق " كتب البدعة" من مصنفات الأشاعرة، ومما جاء في إحداها قول الخليفة علي بن يوسف- مخاطبا أحد ولاته: ..."ومتى عثرتم على كتاب بدعة، أو

1 – ويُضيف قائلا : "وفعلا ستأتي الأيام بما كان يتخوف منه المرابطون فقد حمله خصومهم التاريخيين " الموحدون " شعارا إيديولوجيا لدولتهم". يوسف احنانا، المرجع السابق، ص:73 و74

2 – كنون عبد الله الحسني ، **النبوغ المغربي**، الطبعة 02 ،المغرب، مطبعة تطوان، 1380هـ / 1960م، ج:1، ص: 69، ومصطفى باحو، **علماء المغرب و مقاومتهم للبدع والتصوف والقبورية والمواسم**، الطبعة 02، طبع ونشر جريدة السبيل، 1427هـ/2004م، ص: 53.

3 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 131.

4 – لحمنات عبد الجليل، **التصوف المغربي في القرن السادس الهجري**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، تحت إشراف الأستاذ محمد زنيبر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب،1989م-1990م، ص: 244 .

صاحب بدعة وخاصة –وفقكم الله– كتب أبي حامد الغزالي، فليتبع أثرها، وليقطع بالحرق المتتابع خبرها، ويبحث عليها، وتغلظ الأيمان على من يتهم بكتمانها" [1].

واعتبر الباحث محمد المغراوي أنهم وقفوا في وجه الوحدة العقيدية للمغرب بحربهم على الأشعرية رغم اعترافه بأن المرابطين " كانوا ميَّالين إلى الوحدة الإسلامية وقدموا في ذلك أنصع المواقف وأغلى التضحيات " واعتبر ذلك تفسيراً للغز " سقوط الدولة المرابطية وهي في عز شبابها"[2] .

وفي نهاية هذا العرض السريع للوضع العقيدي في الغرب الإسلامي خلال العصر المرابطي يُمكن اختصار الحديث عن مغرب طُهر من عنفوان النزعة الخارجية وتطرُّف النزعة الشيعية وتأويلات الباطنية وتعقيدات المذاهب الكلامية والفلسفية، وبالتالي هو الحديث عن مغرب سني بثوب سلفي على معتقد السلف الصالح وعلى رأسهم الإمام مالك، أسهم في ترسيخه وترسيمه تحالف تاريخي وحميمي جمع بين السلطتين السياسية والدينية .

---

1 – عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، الطبعة 02، المركز الثقافي العربي، 1420هـ/2000م، ج:2، ص: 129.

2 – محمد المغراوي، تطور المذهب الأشعري بالمغرب الأقصى إلى حدود العصر المرابطي، ص: 147 .

المبحث الثـــانـــي: الأوضاع الفقهيــة فـــي الغـــرب الإســـلامي خـــلال العصـــر المرابطـــي:

إن الحديث عن الوضع الفقهـــي فـــي المغـــرب المرابطـــي هـــو –عنـــد كثير من الباحثين– حديثٌ باطمئنان عن الفترة الذهبيـــة للمـــذهب المـــالكي فـــي المغرب الوسيط، حيث حظي المذهب برعاية الســـلطة ومباركـــة الفقهـــاء، فمـــا حقيقة هذا الانتصار المالكي؟ وما هو دور الســـلطة والفقهـــاء فـــي ذلـــك؟ ومـــا هي وضعية المذهب الظاهري في الفترة نفسها؟ .

المطلب الأول: سيادة المذهب المالكي فـــي الغـــرب الإســـلامي خـــلال العصـــر المرابطي:

كان قيام الدولة المرابطيـــة نصـــرا للمالكيـــة فـــي المغـــرب، إذ قامـــت على أساس دعوة إصلاحية استمدت تقاليدها من مـــذهب الإمـــام مالـــك أصـــولا وفروعا[1]، فجعلوا المـــذهب محـــور حـــركتهم الإصـــلاحية وخطـــا إيـــديولوجيا أداروا نضالهم ودعوتهم عليه[2]، صـــادف ذلـــك ميـــولاً بـــين الأوســـاط الفقهيـــة والشعبية، وهو ما نلمسه من كـــلام الونشريســـي تـــــ914هـــ/1508م معلقـــا على تمسك المالكية بمذهبهم: "ولم يُحفظ عن أحـــد مـــن أهـــل العلـــم بـــالمغرب الخروج عن مذهب مالـــك ولا الأخـــذ بغيـــره مـــن المـــذاهب"[3]، لأنهـــم كـــانوا يرون فيه الإسلام الصحيح والمعتدل حتـــى لـــو جـــاءهم أحـــد " مـــن المشـــرق بعلم، دفعوه في صدره، وحقروا مـــن أمـــره، إلا أن يســـتتر عنـــدهم بالمالكيـــة،

1 – عبد المجيد النجار، تجربـــة الإصـــلاح، ص: 46 . الملاحـــظ رغـــم تمســـك المـــرابطين بالمـــذهب المالكي إلاّ أنهم اكتفوا بمناصرة المذهب دون التعـــرض للمـــذاهب الفقهيـــة الأخـــرى لمـــا عـــرف عـــن المرابطين من التسامح (المذهبي دون العقيدي)، بالإضافة إلـــى عـــدم وجـــود منـــافس للمـــذهب لمـــالكي في عصرهم .

2 – عباس الجراري، **وحدة المغرب المذهبيـــة خـــلال التـــاريخ**، دار الثقافـــة، بيـــروت، لبنـــان، 1976م، ص 17.

3– الونشريسي المصدر السابق، ج:2، ص:169.

ويجعل ما عنده من علوم على رسـم التبعيـة"[1]، وأكـد ذلـك المقـري بقولـه: "وللفقه رونقٌ ووجاهة، ولا مـذهب لهـم إلا مـذهب مالـك،....وسـمة الفقيـه عندهم جليلة، حتى إن الملثمين كـانوا يسـمون الأميـر العظـيم مـنهم الـذي يريدون تنويهه بالفقيـه"[2]، وفـي الأنـدلس منـذ العصـر الأمـوي لـم يكـن يـُسمح للفقيه بلبس القلنسـوة والتصـدي للفتـوى إلا إذا حفـظ الموطـأ، أو حفظ عشرة آلاف حـديث مـع المودنـة[3]، ويشـير المقدسـي تـ 387هـ/996م إلى التّعصّب المالكي في الأندلس بقولـه " يقولـون لا نعـرف إلاّ كتـاب الله وموطّأ مالك، فإذا ظهروا على حنفـيّ أو شـافعيّ نفـوه وإن عثـروا علـى معتزليّ أو شيعيّ أو نحوهما ربّما قتلوه" [4] .

خرج المذهب المالكي منتصـراً مـن كـل جـولات الصـراع مـع المذاهب الأخرى، فبعد محنـة المـذهب خـلال العصـر الفـاطمي[5] تعـززت مكانة المذهب المالكي بقيام الدولتين الزيريـة بـالمغرب الأوسـط والمرابطيـة بالمغرب الأقصى والأندلس على أسس مالكية[6] .

1 – ابن العربي، القواصم، ص: 490 – 491 .

2 – نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج :1، ص: 221.

3 – المقري، نفح الطيب، ج:1، ص: 458.

4 – المقدسي أبو عبد الله محمد، **أحمـد أحسـن التقاسـيم فـي معرفـة الأقـاليم**، الطبعـة 03، مكتبـة مدبولي، القاهرة، مصر،1411هـ/1991م، ص: 86.

5 – أبو بكر المالكي، **رياض النفـوس فـي طبقـات علمـاء القيـروان وإفريقيـة وزهـادهم ونسـاكهم وسـير مـن اخبـارهم وفضـائلهم وأوصـافه**م، تحقيـق: بشـير البكـوش، الطبعـة 02، دار الغـرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1414هـ/1994م، ج : 02، ص: 37، 43، 55 .

6 – ويقرر المالكية أن انتشار مذهبهم كان بسبب اعتمادهم على الكتـاب والسـنة أساسـا وعلـى قواعـد أخرى محكمة تجعل منه المنهج الاقرب إلى تطبيق الشـريعة الإسـلامية مـع مراعـاة مقاصـدها العليـا رغم انه مذهب يـُعرف بعدم مهادنة أهل البدع أنظـر : محمـد الكتـاني، **المـذهب المـالكي بـالمغرب والاندلس** : نظرات في النشأة والاستقرار، ضمن كتـاب : بحـوث الملتقـى الإسـباني المغربـي الثـاني للعلوم التاريخية : التاريخ،العلم،والمجتمع ، غرناطة 6 – 10 نوفمبر 1989م، ص: 124 ، 125.

أما الأندلس فظلت تأخذ بمذهب واحد في الفروع الفقهية وهو مذهب الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، فقد "وجد الأندلسيون (فيه) الحلول الملائمة لما اعترى حياتهم من مشكلات حضارية في جوانبها المتعددة السياسية والإجتماعية والإقتصادية"[1].

وقد تضايق – فيما يبدو– ابن حزم الظاهري من هذا الانتشار والاستقرار الذي حظي به المذهب المالكي بالأندلس فقال في عبارة لا تخلو من الغيظ: " وأما أهل بلادنا فليسوا ممن يتغنى بطلب دليل على مسائلهم وطالبه منهم، في الندرة، إنما يطلبه كما ذكرنا آنفا، فيعرضون كلام الله تعالى، وكلام الرسول عليه السلام على قول صاحبهم، وهو مخلوق مذنب يُخطئ ويُصيب، فإن وافق قول الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم قول صاحبهم أخذوا به، وإن خالفاه تركوا قول الله جانبا وقوله صلى الله عليه وسلم ظهريا، وثبتوا على قول صاحبهم، وما نعلم في المعاصي ولا في الكبائر، بعد الشرك المجرد، أعظم من هذه، وأنه لأشد من القتل والزنى، لأن فيما ذكرنا الاستخفاف بالله عز وجل، وبرسوله صلى الله عليه وسلم وبالدين"[2].

وقد اعتبر عدد من الباحثين صحوة المذهب المالكي في الغرب الإسلامي خلال العصر المرابطي ظاهرة القرن 5هـ/ 12م[3] رغم أن منحى انتشاره كان يسير باتجاهٍ تصاعدي حتى قبل العصر المرابطي[4].

---

1 – أحمد يوسف، **ما خالف الاندلسيون فيه مذهب مالك** ، دار القافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ص:05 .

2 – ابن حزم، **الإحكام في أصول الأحكام**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وقدم له إحسان عباس، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان د.ت.ط، ج: 6 ، ص : 118.

3 – أنظر : إبراهيم القادري بوتشيش، **حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي**، بيروت، لبنان، دار الطليعة،1426هـ/ 2006م، ص: 82.

4 – نجم الدين الهنتاتي، **المذهب المالكي بالغرب الإسلامي إلى منتصف القرن 5هـ/11م**، تبر الزمان تونس،1424هـ/ 2004م، ص: 230.

ويُـــرجع الباحـث المغربـي عبـد القـادر بوتشـيش أسـباب هـذه الصحوة إلى حصيلة التراكم التاريخي التـي سـبقت هاتـه الفتـرة، بالإضـافة إلى جهود أعلام المذهب الأوائـل، دون أن يتجـاوز التفسـير الخلـدوني الـذي يربط الإنتشـار بالعامـل البيئـي والحضـاري، وأخيـرا إعجـاب المغاربـة بشخصية الإمام مالك وتلاميذه، ثم يستطرد الباحـث فـي إبـراز دور السـلطة المرابطية الحاكمة في هذه الصحوة[1] .

ومما يعكس صحوة المذهب المالكي فـي المغـرب المرابطـي انتعـاش حركة التدريس[2] والتصنيـف في فقـه النـوازل علـى مـذهب مالـك، نـذكر منها: نـوازل ابن سهل الأسـدي الجيـاني تــ486هـ/ 1092م المعروفـة بالأحكام الكبرى، ونوازل ابن رشـد الجـد تــ520هـ/ 1125م، ونـوازل القاضي ابن الحاج تــ529هـ/ 1134م قاضـي الجماعـة بقرطبـة، ونـوازل أبي مطرف عبـد الرحمـان بـن القاسـم المـالقي تــ497هـ/ 1103م[3]، ونوازل القاضي ابن دبـوس الزنـاتي اليفـري تــ511هـ / 1117م التـي أسماها: "الإعلام بالمحاضر والأحكـام ومـا يتصـل بـذلك ممـا نـزل عنـد القضاة والحكام" في أربعة أسـفار، ونـوازل أحمـد بـن سـعيد بـن بشـتغير اللخمي اللورقي تــ 516هـ/ 1122م لا تـزال مخطوطـة أيضـا، ونـوازل ابن القاسم أحمد بـن محمـد بـن عمـر التميمـي المعـروف بـابن ورد تــ

---

1 – أنظر : إبراهيم القادري بوتشيش، حلقات مفقودة مـن تـاريخ الحضـارة فـي الغـرب الإسـلامي: ص: 82–100.

2 – منها : ما ذُكر في ترجمة محمد بن سعد بن مجاهـد الانصـاري أنـه " أنفـق عمـره فـي إسـماع الحديث وتدريس المذهب المالكي " ابـن عبـد الملـك، **<u>الـذيل والتكملـة لكتـابي الموصـول والصـلة</u>**، تحقيـق: إحسـان عبـاس، الطبعـة 01، دار الثقافـة، بيـروت، لبنـان، 1392هـ/ 1973م ، ج: 06، ص:204.

3 – عنها أنظر : محمد الأمين بلغيث، دولة المرابطين بالأندلس، ص : 142 و143 .

540هـ/ 1145م، ونوازل ابن زكون أبو علي حسن: " اعتماد الحكام في مسائل الأحكام وتبيين شرائع الإسلام من حلال وحرام"[1] .

وهذا الكم من النوازل الفقهية المالكية يعكس تمسك الفقهاء بالمذهب والفتوى على أسسه وقواعده، كما يعكس فزع عامة المغرب وخاصتهم إلى فقهاء المالكية في ما يطرأ عليهم من أمور دينهم ودنياهم.

ويبدوا أن انتشار المذهب المالكي كان على امتداد سيطرة المرابطين، ففي المغرب الأوسط يقول البكري تـ 487هـ/ 1093م عن تلمسان إنها: " لم تزل دارا للعلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب مالك"[2]، بل تجاوز انتشار المذهب حدود الغرب الإسلامي، إذ ساهم أهل المغرب في إعادة النشاط للمذهب المالكي في المشرق وفي الحجاز بالذات التي كانت نقطة انطلاقه، كما ساهموا في تطويره فقهيا وعقديا[3] .

فسيطرة المذهب المالكي على الحركة الفقهية في العصر المرابطي حقيقة تاريخية لا يرقى إليها الشك، ولم تكن لغيره من المذاهب القدرة على المنافسة، فلم يكن للحنبلية وجود في المغرب الأندلس و"إن درسها الكثير من الفقهاء ذوي الفكر المتفتح"[4]، أما المذهب الحنفي فقد أرَّخ أحد

---

1 – كلها مخطوطة : عنها أنظر : محمد الأمين بلغيث، دولة المرابطين بالأندلس، ص : 142 و143 .

2 – عبد الله بن محمد البكري، **المسالك والممالك**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان1992م، ج: 02، ص: 746. وقد عُرفت بذلك ثلاث مدن بالمغرب الأوسط أيضا أظهر أهلها عناية خاصة بالفقه المالكي خلال القرن 5هـ/11م وهي تلمسان ووهران وبنطيوس .أنظر : نجم الدين الهنتاتي، المرجع السابق، ص : 136 .

3 – راضي دغفوس، الصراع المذهبي في إفريقية في القرن 5هـ/11م و انتصار المالكية ، ضمن كتابه : **دراسات في التاريخ العربي الإسلامي الوسيط** ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة 01، 1425هـ/2005م ، ص: 278 .

4 –عبد المجيد تركي، **قضايا ثقافية من تاريخ الغرب الإسلامي، (نصوص ودراسات)**، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان، د.ت.ط، ص: 239 .

الباحثين بداية زواله في المغرب بالقرن 5هـ/ 11م[1]، لذا سنحاول – في رصدنا للحركة الفقهية– البحث عن حجم الوجود الظاهري في العصر المرابطي، هذا الاتجاه الفقهي الذي سيكون له شأن في دولة خلفائهم الموحدين.

ففي الغرب الإسلامي لم يكن للمذهب الظاهري وجودٌ يُذكر قبل ابن حزم كما يفيدنا بذلك القاضي عياض بقوله: "وأدخل قوم من الرّحّالين والغرباء شيئا من مذهب الشّافعي وأبي حنيفة ... وداود فلم يتمكّنوا من نشره فمات بموتهم على اختلاف أزمانهم إلّا من تديّن به لنفسه ممّا لا يؤبه لقوله"[2] .

أرسى ابن حزم المذهب الظاهري في الأندلس واستحقَّ إمامة المذهب في العالم الإسلامي بعد مؤسسه الأول داود بن علي البغدادي الظاهري تـ 270هـ/883م[3]، فكثر أنصاره وانتشرت أفكاره في الأندلس والمغرب، فكان لزاما على الدولة المرابطية الغيورة على المذهب المالكي التصدي للمذهب الظاهري، لاسيما وأن ابن حزم قد سلَّط قلمه طويلا على المالكية وأعلامها[4].

---

1 – إسماعيل سامعي، **دور المذهب الحنفي في الحياة الإجتماعية والثقافية في بلاد المغرب الإسلامي من القرن 2 هـ/ 8م إلى 5هـ/11م**، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر، 1426هـ/2006م، ص:249 .

2 – القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ج: 01، ص: 27.

3 – أبو الفرج بن محمد الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة 01، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1412 هـ / 1992 م، ج: 12، ص: 236. ويوسف بن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مصر، دار الكتب، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ج:03 ، ص: 47 . الذهبي، تاريخ الإسلام ، ج:20 ، ص:90.

4 – ابن حزم، **المحلى بالآثار**، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ت.ط، ج:1، ص: 78.

ومما أثار مخاوف المرابطين أن الظاهرية في الأندلس لم تكن مجرد مذهبٍ فقهي، فآراء ابن حزم رائد الظاهرية بالأندلس لم تنحصر في دائرة الفتيا والتشريع وأصول الفقه بل امتدت لمجال العقائد والكلام، وكان ظاهرياً في العقيدة كما كان ظاهرياً في الفقه والتشريع[1]، وقد أثبت عدد من الباحثين أن ابن حزم أول من طبَّق أصول المذهب الظاهري على العقيدة[2] .

ومما يثبت حركية المذهب الظاهري خلال العصر المرابطي في الغرب الإسلامي والأندلس خصوصا شهادة أبو بكر بن العربي بعد عودته من رحلته المشرقية إلى الأندلس والتي يقول فيها : " وكان أول بدعة لقيت في رحلتي القول بالباطن، فلما عدت وجدت القول بالظاهر قد ملأ به المغرب سخيف كان من بادية إشبيلية يعرف بابن حزم، نشأ وتعلق بمذهب الشافعي، ثم انتسب إلى داود، ثم خلع الكل، واستقل بنفسه، وزعم أنه إمام الأمة يضع ويرفع، ويحكم ويشرع، ينسب إلى دين الله ما ليس فيه" [3] .

ومما يؤكد الحضور الظاهري القوي في الأندلس أيضا فتوى الفقيه أبي الوليد بن رشد التي وردت من حضرة ألمرية وموضوعها : " في شاهد مشهور بالخير يعتقد مذهب أهل الظاهر هل ذلك جرحة في

---

1 – طه الحاجري، **ابن حزم صورة أندلسية**، دار الفكر العربي، القاهرة، ص:162.

2 – أحمد الخاطب، **التيارات الفكرية في المغرب والأندلس خلال العصر المرابطي**، رسالة دكتوراه تحت إشراف الدكتور محمد حمام، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، المغرب،2003/2004م، ص: 218 .

3 – ابن العربي، **العواصم من القواصم**، تحقيق: عمار طالبي، الطبعة 02، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص: 249 ، والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج: 18، ص: 188 و189.

شهادته"[1]، فكانت فتوى ابن رشد غير متصلبة مثل ابن العربي بل اتَّسمت بالمرونة وذلك من خلال تمييزه بين وجوه القياس الخفي منها والجلي، واستفساره عن أي الوجوه ينفي هذا الشخص الظاهري موضوع السؤال، بمعنى هل ينفي القياس جملة أم لا، حيث يقول : " وأما إن كان هذا المسؤول عنه لا ينكر القياس جملة وإنما ينكر بعض وجوهه، إذ من جلي وخفي، ويخالف فيما ينكر من وجوهه ما عليه جمهور الفقهاء وعامة العلماء فلايكون ذلك جرحة فيه إن كان من العلماء الراسخين في العلم الذين كملت لهم آلات الإجتهاد، وأما إن كان لم يلحق بهذه الدرجة، وكان فرضه التقليد فترك ما عليه الجمهور ومال إلى الشذوذ بغير علم أو معرفة إلا باتباع سواه في اتباع غير المستحسن من الأقوال فما هُدي لرشده ولا حصلت له البشرى من الله عز وجل على فعله ... " [2] .

وحفظت لنا المصادر بعض الأسماء التي مثلت امتداد التيار الظاهري في الفقه بالمغرب والأندلس بعد وفاة ابن حزم، منهم أبو جعفر أحمد بن صابر القيسي كان ظاهري المذهب غادر الأندلس وتوفي حاجا سنة 493هـ/1099م[3]، وكان "سبب خروجه من الأندلس أنّه كان يرفع يديه في الصلاة على ما صح في الحديث، فبلغ ذلك السلطان .. فتوعده بقطع يديه، فضجَّ من ذلك وقال: إن إقليماً تُمات فيه سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلّم حتى يتوعّد بقطع اليد من يقيمها لجدير أن يرحل منه"[4].

---

1 – أنظر الفتوى والجواب عليها : ابن رشد، فتاوى ابن رشد، ص: 802، 803، 804، 805.

2 – ابن رشد، الفتاوى، ص: 1435 ، 1436 .

3 – المقري، نفح الطيب، ج: 02 ، ص: 655.

4 – نفسه.

ومن الغريب ما تذكره المصادر عن ظاهرية أبي محمد عبد الله بن محمد بن أحمد بن العربي المعافري ت 493هـ/1099م بينما ابنه القاضي أبو بكر المالكي ت543هـ /1148م كان من ألد أعداء الظاهرية[1]، وكان أحمد بن العربي يعتز بملازمته لابن حزم بقوله "صحبت الشيخ الإمام أبا محمد علي بن حزم سبعة أعوام، وسمعت منه جميع مصنفاته ... ولم يفتني من تواليفه شيء سوى ما ذكرته (كتاب الفصل وكتاب الإيصال) ... "[2]، ولم يُخفي الذهبي استغرابه إذ يقول : " "وكان أبوه أبومحمد من كبار أصحاب أبي محمد بن حزم الظاهري بخلاف ابنه القاضي أبي بكر، فإنه منافر لابن حزم، محط عليه بنفس ثائرة "[3].

ومن أخذ بالمذهب الظاهري بصداقة ابن حزم سالم بن أحمد بن فتح أبو النجاة ت 461هـ/1068م الذي كتب كثيرا من مصنفات ابن حزم[4]، ومنهم أبو الحسن شريح بن محمد بن شريح ت 539هـ/1196م الذي أجاز له مروياته أبو محمد بن حزم الظاهري[5]، ومنهم سليل ابن حزم أبي رافع الفضل بن علي بن محمد بن حزم ت 479 هـ/1086م الذي أكمل كتاب المحلى[6]، يقول عنه ابن عبد الملك المراكشي ت

---

1 – ابن الزبير، الصلة، ج:1، ص: 277. والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج: 20، ص: 142 و143.

[2] – شهاب الدين ياقوت الحموي، **معجم الأدباء** (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1414 هـ / 1993 م، ج:4، ص: 1653.

3 – الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج: 20، ص: 142 و143 .

4 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج: 4، ص: 2.

5 – الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج: 20، ص: 142 و143 .

6 – إبراهيم الكتاني، صفحة مجهولة من تاريخ الفكر الإسلامي، **مجلة دعوة الحق**، السنة 01، العدد 06، ديسمبر1957م، ص: 21و22، وتوفيق الغلبزوري، **المدرسة الظاهرية بالمغرب**

703هـ/ 1303م "كان فقيهاً ظاهرياً، سرياً فاضلاً"[1] ، ومنهم تلميذ ابن حزم الحميدي أبو عبد الله محمد بن نصر الميورقي[2]، و منهم أبو بكر محمد بن الحسين بن بشر الأنصاري الميورقي ت 524 هـ/ 1129م[3] الذي طلبته السلطة المرابطية بتهمة الظاهرية فسُجن ثم أُطلق سراحه ففرَّ إلى بجاية وانتصب للتعليم وترك الفقه الظاهري جانبا حتى توفي بها[4] .

ونجد منهم ابن شبرين أحمد بن طاهر الأنصاري الخزرجي ت 532 هـ/1137م شيخ القاضي عياض، عُني بالحديث والرواية، له تصانيف في الحديث منها: أطراف الموطأ، ضاهى به أطراف الصحيحين لأبي مسعود إبراهيم بن محمد بن عبيد الدمشقي، وله أيضا كتاب: رجال

والأندلس،نشأتها –أعلامها–أصولها–أثرها، الطبعة 01، مكتبة ودار ابن حزم للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1427هـ/2006م، ص: 230.

1 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:5، ص:540 .

2 – هو محمد بن الحسين الشهير الميورقي تـ537 هـ/ 1142م لقبه أبو بكر، رحل إلى المشرق حاجاً، وكان ظاهرياً مع ميل إلى التصوف والصلاح مُتضلعاً في الحديث والأنساب، وصار أخيراً إلى بجاية ويبدو أنه هرب من صاحب المغرب الأمير علي بن يوسف بن تاشفين. أنظر:الذهبي، تذكرة الحفاظ ، وابن العماد العكري، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، حققه وخرج أحاديثه: محمود، الطبعة 01، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، 1406 هـ / 1986م،ج:3، ص:302. والمقري، نفح الطيب، ج:2،ص: 112 و113.

3 – محمد بن سعدون بن مرجا بن سعد بن مرجا أبو عامر القرشي العبدري الميورقي الأندلسي الحافظ قال الحافظ أبو القاسم كان فقيها على مذهب داود بن علي الظاهري. أنظر : ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، الطبعة 02، دار صادر، بيروت، 1415هـ/ 1995 م، ج:05، ص:246.

4 – يعني علي بن يوسف بن تاشفين، وقال ابن عبد الملك الذيل والتكملة (نسخة باريس) إن علياً ضربه بالسوط وسجنه وقتاً ثم سرحه إلى الأندلس، ج:06، ص: 63، أنظر:المقري، نفح الطيب،ج: 02 ، ص: 155

مسلم، قال عنه القاضي عياض : " كان علم الحديث أغلب عليه ويميل في فقهه إلى الظاهر"[1] .

ومنهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن مرزوق اليحصبي الظاهري الأندلسي السرقسطي المولد المصري المنشأ ت 576 هـ/ 1180م، " كان ظاهري المذهب ... له عناية عظيمة بتحصيل كتب أبي محمد بن حزم الظاهري ورسائله " [2].

ومنهم عبد الصمد بن أحمد المقبري الأمي الجياني ت 535هـ/1140م، قال فيه ابن الأبار : " كان من أهل المعرفة بالحديث مائلا إلى مذهب أهل الظاهر "[3].

ومنهم محمد بن الحسين بن بشر الأنصاري الميورقي ت537 هـ/1142م يُكنى أبا بكر، قال ابن الخطيب : " كان ظاهري المذهب داوديه " [4]، وقال عنه أبو طاهر السِّلفي : كان من أهل المعرفة بالحديث " [5].

ومنهم أحمد بن سعيد بن علي بن حزم بن غالب الفارسي ت540هـ/ 1145م يُكنَّى أبا عمر " كَانَ ظاهرياً كجده وَكَانَ دَاعِيَة إِلَى مَذْهَبهم صليباً فِيهِ مَعَ معرفة بالنحو وَالشعر توقّي فِي حُدُود الْأَرْبَعين

---

1 – أنظر ترجمته : القاضي عياض، الغنية ، ص:184، ابن الأبار،التكملة، ج:01، ص:44، وعمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج: 01 ، ص: 255.

2 – أبو طاهر السلفي، **معجم السفر**، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، المكتبة التجارية، المملكة العربية السعودية، د.ت.ط.، ص: 153.

3 – إبن الأبار، التكملة، ج: 03، ص: 114.

4 – ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج: 3 ص: 190 .

5 – أبو طاهر السِّلفي، المصدر السابق، ص: 360 . وابن الأبار، التكملة، ج:01، ص : 444. والمقري، نفح الطيب، ج:02، ص: 155.

وَالْخمس مائَة بعد محنة عَظِيمَة من ضربه وحبسه وَأخذ أَمْوَاله لما نسب إِلَيْهِ من الثورة على السُّلْطَان "[1] .

ومنهم أحمد بن محمد بن حزم الإشبيلي أبو عمر، من ذرية ابن حزم أيضا، من مصنفاته : الزوائغ و الدوائغ، تابع فيه ابن العربي على فصول كتابه : الدواهي و النواهي في الرد على ابن حزم، وحاذاه فيه كلاما بكلام وحديثا بحديث وفقها بفقه ونظما بنظم ونثرا بنثر وإقذاعا بإقذاع، وفي ذلك دليل على ظاهرية الرجل و صلابته في المذهب[2] .

ومنهم أبو الحسن مفرج بن سعادة "المحدث الظاهري"[3]، ومنهم الحافظ بن أبي مروان الأنصاري ت 549 هـ/1145م أحمد بن عبد الملك بن محمد أبو العباس،" كان فقيها ظاهري المذهب حزميه " كما يقول ابن عبد الملك، أو " على طريقة ابن حزم " كما يقول ابن الأبار[4]، كان بخاري زمانه، سعى لإحياء فقه الدليل بعد طغيان فقه الفروع والمسائل بالمغرب والأندلس وهي منقبة ومكرمة للمدرسة الظاهرية في الغرب الإسلامي[5]، ومهنم سعد السعود بن أحمد بن هشام بن عفير الأموي ت 588 هـ/ 1191م " كان ظاهري المذهب مصمما على القول به"[6] .

---

1 – الصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك، **<u>الوافي بالوفيات</u>**، تحقيق:أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، 2000م، ج:06، ص: 241. و ابن الأبار، التكملة، ج:01، ص: 51.

2– ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:01، ص: 597. وجلال الدين السيوطي، **<u>بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة</u>**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، صيدا، المكتبة العصرية، د.ت.ط.، ج:01، ص: 364.

3 – ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج:01، ص: 265، ابن الأبار، التكملة ، ج:02، ص: 721.

4 – ابن الأبار، التكملة، ج:01، ص: 58، وابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:01، ص: 265، الزركلي، الأعلام، ج:01، ص: 164 .

5 – توفيق الغلبزروي، المرجع السابق، ص:277 – 287 .

6 – ابن الأبار، التكملة، ج:01، ص:311.

كما أثبت الدكتور توفيق الغلبزوري[1] ظاهرية حافظ المغرب ابن عبر البر القرطبي تـ 463هـ/1070م، الذي كان مصاحبا لابن حزم ينبسط إله ويؤنسه ويأخذ عنه علم الحديث[2] وكان " أولا أثريا ظاهريا فيما قيل، ثم تحول مالكيا مع ميل بين إلى فقه الشافعي في مسائل " [3].

ومع ذلك يبدو أن ظاهرية العصر المرابطي كانوا في تعايش مع فقهاء المالكية، فلم تكن بينهم صراعات ومواجهات في الغالب إلاّ ما كان بين أشخاصٍ بعينهم، بدليل أن الطاقم الذي تحرك لعملية إحياء الحديث والأصول خلال العصر الموحدي كان جاهزًا، أي أن تكونهم كان خلال العصر المرابطي.

<u>المطلب الثاني: دور السلطة المرابطية والفقهاء المالكية في ترسيخ المذهب المالكي.</u>

كان الذي يجمع السياسي بالفقيه خلال العصر المرابطي أكثر من الذي يفرقهما، وفي مقدمتها وحدة الرؤية الفكرية العقيدية والفقهية، بالإضافة إلى عامل الجهاد الذي كان يحركهما إزاء العدو المشترك، ويرى أحد الباحثين أن التحالف المالكي المرابطي لا يمكن عزله "عن بواعث شخصية كانت تُمليها رغبة الفقهاء في الاحتفاظ بمكانتهم المرموقة التي حظوا بها في ظل الحاكم المرابطي"[4]، ويستدلُّ الباحث بكلام ابن خلدون عنهم بقوله : " يؤنسون من ملوك لمتونة تجلة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم " [5] .

---

1 – توفيق الغلبزوري، المرجع السابق، ص: 227 و228.

2 – الذهبي،سير أعلام النبلاء،ج: 18، ص: 60. وابن كثير،المصدر السابق، ج:12، ص: 113.

3 – سير أعلام النبلاء، ج:18، ص: 157.

4 – لخضر بولطيف، **<u>فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي</u>**، الطبعة 01 ، العهد العالمي للفكر الإسلامي، بيروت، لبنان، 1429هـ/2009م، ص: 133 .

5 – ابن خلدون، المقدمة، ص: 35 .

ونحن نعتقد أن الأمر أجلّ من حظوظ النفس التي أشار إليها الباحث، فقد وجدت السلطة في المذهب المالكي مذهبا متوازنا يقف في وجه التطرف والبدع والاتجاهات العقلانية المتطرفة[1]، لذا جعلته السلطة محور حركتها الإصلاحية، وأوكلت للفقهاء المالكية مهمة قيادة هذه الإيديولوجية وفق ما تُمليه قواعد المذهب المالكي، حتى أصبح المذهب مرتبطا أشدَّ الارتباط بالدولة، واحدى مقوماتها الأساسية والروحية التي تمنحها المشروعية السياسية.

فلم تقتصر مشورة السلطة للفقهاء على أمور الفقه والتعبد كما يبدو للوهلة الأولى، بل شمل ذلك أمور الدين والدنيا على السواء، فانطلقت السلطة المرابطية على فتاوى الفقهاء المالكية في كثير من قراراتها السياسية الحاسمة منها : تسوير مراكش[2]، والقضاء على ملوك الطوائف[3]،

---

1 – محمد الكتاني، **المذهب المالكي بالمغرب والأندلس ، نظرات في النشأة والإستقرار**، ضمن بحوث الملتقى الإسباني المغربي الثاني للعلوم التاريخية : التاريخ ، العلم ، المجتمع ، غرناطة : 6 – 10 نوفمبر 1989م، ص:142 .

2 – ابن المؤقت المراكشي، **السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية**، مراكش، المغرب، تحقيق أحمد متفكر وحسن جلاب، 2002م، ج: 01، ص: 14.

3 – وطلب القضاة والفقهاء من يوسف أن يرجع ويوحد البلاد بالقوة، لتدخل تحت الخلافة الإسلاميَّة فى بغداد. أنظر: ابن الكردبوس التوزري، **الاكتفاء في أخبار الخلفاء**، تحقيق : عبد القادر بوباية، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ص :106، عصمت دندش، **دور المرابطين في نشر الاسلام في غرب افريقيا 430–515هـ–1038–1121م مع نشر وتحقيق رسائل أبي بكر بن العربي**، الطبعة 01، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان، 1988م،ص:198. ومحمد بن بيّه، الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين، ص:155.

واضطهاد الأشعرية[1] وحـــرق الإحيــاء[2]، وإجــلاء النصــارى المعاهــدين مـــن غرناطـــة[3].

كمـــا كانـــت لهـــم الكلمـــة النافـــذة فـــي الأمـــور الإداريـــة والحربيـــة والسياسية والخارجية، وذكر أبو عبد الله محمد بـــن عبـــد المـــنعم الحميـــري أن يوسف بن تاشفين طلب من صـــاحب ســـبتة أن يُخلّـــي الجيـــوش تجـــوز إلـــى الأندلس لنجدة المسلمين، فلما لم يفعـــل، شـــكاه يوســـف إلـــى الفقهـــاء فـــأفتوا جميعا بما لا يسر صاحب سبتة[4].

فكان يوسف بن تاشفين " يواصل الفقهـــاء، ويعظـــم العلمـــاء، ويصـــرف الأمور إليهم، ويأخذ فيهـــا بـــآرائهم، ويقضـــي علـــى نفســـه وغيـــره بفتيـــاهم، ويحض على العدل ويصدع بـــالحق ويعضـــد الشـــرع"[5]، وســـار ســـيرته ابنـــه علي بن يوسف في تشجيع العلم والعلماء وإكبـــار الفقهـــاء وإجلالهـــم " واشـــتد إيثاره لأهل الفقه والـــدين، وكـــان لا يقطـــع أمـــرًا فـــي جميـــع مملكتـــه دون مشاورة الفقهاء ... فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغًا عظيمًـــا لـــم يبلغـــوا مثلـــه فـــي الصدر الأول من فتح الأندلس"[6]، وعنـــه يقـــول المستشـــرق يوســـف أشـــباخ : "وكان سلطان المرابطين الجديد، في الواقع فتى فـــي عنفوانـــه، ولـــم يكـــن قـــد جاوز الثانية والعشرين من عمره، ومع ذلك فقد أبدى فـــي حكمـــه كثيـــرا مـــن الحكمة والعدالة، وكان يعتاض في ذلك عمـــا يعـــوزه مـــن الخبـــرة والتجـــارب

---

1 – أنظر فتوى ابن رشد كاملـــة فـــي: فتـــاوى بـــن رشـــد، مصـــدر ســـابق، ص : 802، 803، 804، 805.

2 – أنظر المبحث الأل من الفصل التمهيدي.

3 – مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص: 90.

4 – عبد المنعم الحميري، **الروض المعطار في خبـــر الأقطـــار**، تحقيـــق: إحســـان عبـــاس، الطبعـــة 02، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، لبنان، مطابع دار السراج،1400هـــ/1980م، ص: 288 و289.

5 – ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج: 2 ، ص: 182 .

6 – عبد الواحد المراكشي، المصـــدر الســـابق، ص: 130.

بنصح أعقل رجال بطانتـــه وأكثـــرهم نضـــجا "[1]، والمؤكـــد أن الفقهـــاء هـــم المقصودين بالأعقل والأنضج.

وبلغ المذهب المالكي ذروة تمكنه وسيادته على عهـد علـي بـن يوسـف بن تاشفين الذي أحاط نفسه بفقهاء المالكية، كمـا وضـعهم علـى رأس الجهـاز الإداري والقضـائي، حيـث شـغلوا مناصـب الشـورى إلـى جانـب أميـر المسلمين في مراكش وفي نيابة الأندلس وقواعدها الكبـرى[2]، وهـو مـا عبَّـر عنه المؤرخ المراكشي بقوله: " فلم يكن يقرب مـن أميـر المسـلمين ويحظـى عنده إلا من علم الفروع، أعني فروع مذهب مالك "[3].

وكانت السياسة القضائية بيد الفقهـاء أيضـا فكـان الأميـر " إذا ولـى أحدًا من قضاته كان فيما يعهد إليـه ألا يقطـع أمـرًا ولا يبـت حكومـة فـي صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء" [4].

فقد فرض المرابطون على امتـداد سـلطانهم العمـل بمقتضـى مـذهب الإمام مالك، وصارت الفتاوى والأحكام المسـتمدة مـن مـذهب الإمـام مالـك حتى نهاية الدولة، ولا يـُلتفت إلى غيرها من الأحكام، و قـد أكـد ذلـك تلـك الرسالة الصادرة من تاشفين بن علـي بـن يوسـف سـنة 538هـــ/ 1143م إلى أهل بلنسية عام 495هــــ/1101م بعـد اسـترجاعها يحـثهم فيهـا علـى الالتزام بالمذهب المالكي نصا وروحا، يقـول فيهـا " واعلمـوا رحمكـم الله أن مدار الفتاوى ومجرى الأحكام والشورى في الحضـر والبـدو علـى مـا اِتفـق عليه السلف الصالح –رحمهـم الله– مـن الإقتصـار علـى مـذهب إمـام دار الهجرة ابن عبد الله مالك بن أنس –رضي الله عنـه– فـلا عـدول لقـاضٍ ولا

---

1 – يوسف أشباخ، المرجع السابق، ج:1، ص 116 .

2 – سعد زغلول عبـد الحميـد، **تـاريخ المغـرب العربـي "المرابطـون"** ، ج:04، منشـأة المعـارف، الإسكندرية، مصر، 1407هـ/ 2007م، ص: 406.

3 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 130.

4 – نفســه.

مفتٍ عن مذهبه ولا يأخذ في تحليل ولا تحريم به ومن حاد عن رأيه بفتواه ومال عن الأئمة إلى سواه فقد ركب رأسه و اِتبع هواه ..."[1] .

ولفقهاء المالكية في العصر المرابطي إسهامٌ كبير في الانتصار للمذهب المالكي، إذ منحهم أمراء المرابطين ثقتهم الكاملة، وحمَّلوهم أعباء مراقبة وتوجيه الحركة الفكرية، فقد " أصبحت أمور المسلمين راجعة إليهم وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم، فعظم أمرهم وانصرفت وجوه الناس إليهم"[2]، وأجروا عليهم الأرزاق من بيت المال طوال أيامه، مما أعطاهم مكانة اجتماعية ونفوذا قلَّ نظيره، حتى أن بعضهم صاروا يدخلون المدن دخولاً رسميا يشبه دخول الأمراء[3].

فقد برز في المغرب الإسلامي والأندلس خلال العصر المرابطي كبار علماء المالكية ومُنظّروها الذين وَقَفُوا أقلامهم وأوقاتهم خدمة للمذهب، ولعل أبرزهم الإمام أبو الوليد بن رشد الجد، والفقيه أبو بكر بن العربي، والقاضي عياض اليحصبي.

فالقاضي الفقيه أبو الوليد بن رشد ت520هـ/1125م شيخ المالكية، وأفقه أهل الأندلس، كان مَكينا لدى السلطان المرابطي علي بن يوسف، ومن أهل الرفعة والشأن لديه، وقد وفد عليه إلى مراكش فلقيه أكرم لقاء، وبقى عنده أبر بقاء[4].

---

1 – حسين مؤنس، **نصوص سياسية عن فترة الإنتقال من المرابطين إلى الموحدين، 520هـ – 540 هـ / 1126م–1145م** ،مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، مجلد: 1، العدد: 03، 1374م/1955م، ص 112 و113 .

2 – المراكشي، المصدر السابق، ص:171. وحسن علي حسن، المرجع السابق، ص: 432.

3 – إبراهيم القادري بوتشيش، **مباحث في التاريخ الإجتماعي للمغرب والأندلس**، دار الطليعة، بيروت، 1418هـ/1998م، ص : 144 و145 .

4 – انظر: أبو الحسن علي بن عبد الله النباهي المالقي الأندلسي، **تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)**، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، الطبعة 05، بيروت، لبنان، 1403هـ/1983م، ص: 99.

أسهم ابن رشد في تبسيط الفقه المالكي في المغرب[1]، تصنيفا وتدريسا، ومن تصانيفه في الفقه المالكي كتاب "المقدمات" لأوائل كتب المدونة، وكتاب "البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل" واختصار "المبسوطة" واختصار " مشكل الأثار" للطحاوي[2].

ومن أشهر فتاوى ابن رشد الجد ما أفتاه في شأن المعاهدين من النصارى في بلاد الأندلس بإبعادهم وتغريبهم لغدرهم بالمسلمين ومساعدتهم " لألفونسو" المحارب[3]، حيث تجسسوا لحسابه، قال ابن عذارى: " وبيَّن القاضي لأمير المسلمين أمر الأندلس، وما بُليت به من معاهدتها وماجرّوه إليها وجنوه عليها من استدعاء ابن ردمير، وما في ذلك من نقض العهد والخروج عن الذمة، فأصغى إليه الأمير علي، وتلقى قوله بالقبول"[4].

أما القاضي الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي الإشبيلي المالكي، عالم أهل الأندلس ومسندهم، قدِم إلى إشبيلية بعلمٍ كثير لم يدخل به أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق[5] .

أما القاضي أبي الفضل عياض بن موسى السبتي ت544هـ/ 1149م فهو " أحد عظماء المالكية " كما وصفه المقري في النفح[6]، ونظير أبو الوليد بن رشد عماد المذهب المالكي بالأندلس[7]، صنَّف كتابه الكبير عن المذهب المالكي وأعلامه الموسوم بترتيب المدارك، ضمَّنه الدعاية

---

1 – نجم الدين الهنتاني، المرجع السابق، ص: 223 .

2 – الذهبي، تاريخ الإسلام، ج:53، ص:56.

3 – مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص: 8 .

4– علي محمد الصلابي, المصدر السابق، ص: 224 .

5 – المقري، نفح الطيب، ج: 2، ص: 33 .

6 – ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج: 5، ص: 385 .

7 – عبد الله المرابط الترغي، **فهارس علماء المغرب**، ج: 2، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بتطوان، سلسلة أطروحات، ص: 267 .

للمذهب المالكي وإمامه وأعلامــه، وممــا ورد فــي مقدمتــه : " وقــد نظرنــا طويلا في أخبار الفقهاء وقرأنا ما صُنــِّف من أخبارهم إلــى يومنــا هــذا، فلــم نر مذهبا من المذاهب غيره أسلم منــه .... فالاستمســاك بــه نجــاة " [1] ، بــل عقد بابا في من كتابه لإبراز مكانة المــذهب والــدعوة للتمســك بــه وتفضــيله على كافة المذاهب الأخرى، ليخرج بقناعــة تامــة وجههــا للجمهــور بقولــه : " اعلموا وفقكم الله أن ترجيح مذهب مالــك علــى غيــره وإنافــة منزلتــه فــي العلم وسمو قدره عن طريق النقل والأثر لا ينكره إلا معاند أو قاصر" [2] .

وكان لمصنفات المالكية انتشار وذيوع فــي المغــرب المرابطــي، فقــد ارتفع شأن المدونة حتى إنها اقترنت أحيانا بتراجم بعــض الأعــلام، مــن ذلــك ما جاء في سيرة محمد بن عبــد الله الخشــني تــــ 540 هـــ/1145م الــذي كان " مبرزا في تدريسه قائمــا علــى المدونــة "[3]، وممــن اقترنــت تــرجمتهم بالقيام على المدونة : إسْحَاق بْن مُحَمَّــد بْــن عَلِــيّ الْعَبــدَرِي تــــ 585هـــ/ 1189م[4]، وإسْحَاق بْن إبْرَاهِيم بْن يَغْمُور المجــابري مــن ســكان فــاس يُكنــى أَبَا إبْرَاهِيم تـــ609هـــ/1212م[5]، ومحَــد بــن يُوسُــف مــن أهــل ميورقــة وَأصله من طرطوشة يعــرف بِــابْن خــتن تــــ 573 هـــ/1177م[6]، ويحيــى بــن مُحَمَّــد بــن عبــد الْعَزِيــز بْــن سَــعِيد بْــن عقــال الفِهــري تــــ 504 هــ/1110م[7].

---

1 – القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج: 01، ص: 22 .

2 – نفســه.

3 – ابن الأبار، التكملة، ج:1، ص: 365 .

4 – نفسه، ج:1، ص: 161 .

5 – نفسه.

6 – نفسه، ج:2، ص: 78 و79 .

7 – نفسه، ج:4، ص: 174 و175 .

وكذلك كتاب "الموطأ" أصبح من الكتب المرموقة، حتى أن ابن رشد وضع شروطا لتدريسه[1]، وقال عنه ابن المهدي المالكي: " لا أعلم من علم الناس بعد القرآن أصح من موطأ مالك"[2]، ثم أنشد لنفسه :

إذا ذكرت كتب العلوم فخيرها * كتاب الموطأ من تصانيف مالك[3].

ولم يكتفِ مالكية المرابطين بإحياء أمهات مصادر المالكية والعناية بها بل عَمدوا بدورهم إلى التصنيف على المذهب والانتصار له والدفاع عنه، ومن أبرز علماء المذهب المالكي الذين ألَّفوا في المذهب خلال العصر المرابطي : حسن بن إبراهيم بن زكون ت553هـ/1138م فقيه تلمساني نزل مدينة فاس له تآليف في الرأي[4]، ومحمد بن جعفر بن أحمد القيسي المعروف بابن الرمامة ت567هـ/1171م ألف كتاب "تسهيل المطلب في تحصيل المذهب" وكتاب "التبيين في شرح التلقين في الفقه المالكي " للقاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي، وكتاب آخر بعنوان: "التفصي عن فوائد التقصي"[5].

وصنَّف الفقهاء المالكية للدفاع عن المذهب المالكي من تهجمات وانتقادات المذاهب المخالفة له خاصة الحزمية، مثل كتاب العواصم وكتاب

---

1 – مما ورد في إحدى فتاويه : " الجواب عليه : لا يصح لمن لم يُعن بالعلم ولا سمعه ولا رواه أن يجلس لتعليمه في الموطأ ولا غيره من الأمهات المشهورة، وإذا قرأها وتفقه على الشيوخ فيها، وإن لم يحملها إجازةً، جاز له أن يعلّم ما عنده عن الشيوخ من معانيها وأن يقرئها إن صح كتابه على رواية شيخه فيها وبالله تعالى التوفيق". وأنظر : ابن رشد، فتاوى أبن رشد، ص:1276.

2 – القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج: 2، ص: 70.

3 – نفسه، ص: 78.

4 – ابن الأبار، التكملة، ج:01، ص: 269. وابن القاضي، جذوة المقتبس، ص: 183. وعادل نويهض، **<u>معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر</u>** ، مؤسسة نويهض للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، 1390هـ/ 1971م، ص: 61 .

5 – ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج:2، ص:158. وابن عبد الملك، المصدر السابق، ج: 08، ص: 325.

عارضة الأحوذي لأبي بكر بن العربي، حيث هدف هذا النموذج الطعن في المذاهب المخالفة، و مما جاء في عارضة الأحوذي تهجماً على ابن حزم "... وغرَّهم رجل كان عندنا يُقال له ابن حزم انتدب لإبطال النظر وسد سبيل العبر ونسب نفسه إلى الظاهر اقتداءا بداود وأشياعه فسود القراطيس وأفسد النفوس واعتمد الرد على الخلق نظما ونثرا فلم يعدم كيدا وعثرا " [1].

ومن شعر أبي بكر بن العربي في هذا الشأن :

قالوا الظواهر أصل لا يجوز لنا * عنه العدول إلى رأي ولا نظر

قلت اخسؤا فمقام الدين ليس لكم * هذي العظائم فاسيحوا من الوتر[2].

وكتاب " التنبيه على شذوذ ابن حزم" للقاضي أبي الأصبغ عيسى بن سهل الجياني تـ 486هـ/1093م[3].

وضمن مسعى المالكية في الدفاع عن مذهبهم يمكن إدراج المصنَّفات المالكية في الرد على التيار الغزالي في المغرب، منها كتاب "النكت والأمالي في الرد على الغزالي" لمحمد بن خلف بن موسى الأنصاري الإلبيري تـ 537هـ/1142م[4]، كما صنَّف القاضي ابن حمدين[5] كتاباً في الرد على الغزالي ذكره ابن عطية في فهرسته[1] .

---

1 – أبو بكر بن العربي، **عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج:10، ص: 112،109.

2 – أنظر : إبراهيم القادري بوتشيش، حلقات مفقودة، ص: 96.

3 – لا يزال مخطوطًا، أنظر: سمير قدوري، تحقيق بعض نصوص كتاب: التنبيه على شذوذ ابن حزم، للقاضي أبي الأصبغ بن سهل الجياني المالكي تـ486هـ/1092م، **مجلة الذخائر**، العددان 15 و 16، 1424هـ/2003م، ص: 102 – 103.

4 – ابن فرحون، الديباج المذهب، ص:313 .

5 – أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي قاضي الجماعة بقربة، ولي قضاء قرطبة سنة 490هـ/ 1096م، وتُفي عام 508هـ/ 1114م، ينقل ابن عطية أنه لقيه بقرطبة وقرأ عليه رسالته في الرد على الغزالي، وذكر ابن خاقان أن القاضي ابن حمدين كان مُحببا إلى

ومن جهةٍ أخرى سعت الدولة المرابطية إلى تشجيع الدراسات الفقهية المرتبطة بفروع المذهب المالكي، على حساب العلوم الأخرى، وهو ما يزكيه بيتان شعريان أنشدهما الشاعر الأعمى التطيلي ت 525هـ/ 1130م معبرًا عن هذا التوجه الذي اختارته الدولة بقوله :

فيا دولة الضيم احملي أو تحاملي * وقد أصبحت تلك العرى والعرائك

ويا قام زيد اعرضي أو تعارضي * فقد حال من دون امنى " قال مالك "[2]

وأعلنت السلطة المرابطية – بمعية الفقهاء دائما– حرباً شعواء على العلوم التي لاتنسجم مع مذهب مالك[3]، ولدينا في هذا الصدد بعض القرائن التي تدعم هذا الرأي، فقد ورد عن ابن الزيات في ترجمته لابن النحوي ما يفيد انتهاج الدولة طرق المصادرة الفكرية للتيارات المخالفة لمذهب مالك[4]، بل كانت تصل أحيانا إلى حد النفي والاعتقال لمعتنقي المذاهب المخالفة للمذهب المالكي، ولا غرو فقد أورد ابن عبد الملك في ترجمته للفقيه محمد بن خلف اللخمي (حي سنة 529هـ/ 1134م) أنه " كان فقيها ظاهري المذهب، وهو ممَّن غُرِّب عن الأندلس وأعتقل بمراكش أيام الأمير أبي الحسن علي بن يوسف اللمتوني"[5].

الناس وإلى المرابطين. أنظر : الفتح بن خاقان، **قلائد العقيان**، مصر، 1248هـ/1866م، ص: 191. وأبو محمد عبد الحق عطية الأندلسي، **فهرس ابن عطية**، المحقق: محمد أبو الأجفان، محمد الزاهي، الطبعة 02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983م، ص: 111.

1 – ابن عطية، الفهرس، ص: 112 .

2 – إحسان عباس، **تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)**، الطبعة 05، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1398م، 1978م، ص: 90 . وإبراهيم القادري بوتشيش، حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة، ص: 96.

3 – أنظر : إبراهيم القادري بوتشيش، حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة، ص : 94 .

4 – أنظر ترجمة ابن النحوي الذي طرده حاكم سجلماسة لما وجده يدرس أصول الفقه والكلام، أنظر: التادلي، المصدر السابق، ص: 98.

5 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:06، ص: 182 .

أفضى التمسك الشديد لفقهاء المغرب بالمذهب المالكي إلى الإكثار من الفروع وتعدد الأقاويل في المسائل، وفشا التقليد وأعتبر ذلك من عيوبهم، فلا اعتبار بأي عالمٍ لديهم "إلاَّ أن يستتر عندهم بالمالكية، ويجعل ما عنده من علوم على رسم التبعية "[1]، واستمرت سطوة الفروع والكتب الفروعية مدة بقاء المرابطين، ومن يرجع إلى تاريخ العلماء في هذه الفترة يجد أن عمل العلماء كان حول مدونة الإمام سحنون بن سعيد، اختصارا وتهذيبا، وشرحا وتعليقا.

ولا يليق بنا أن نختم الحديث على الوضع الفقهي في المغرب المرابطي قبل الحديث عن حادثة إحراق كتاب الإحياء من زاوية موضوعنا (الوضع الفقهي)، فالآراء الفقهية التي يحملها كتاب الإحياء تخالف السياسة الفقهية للدولة واختياراتها من جهة، وميولات الفقهاء المالكية وأسلوب تفكيرهم من جهة أخرى، فتقرر تبديع الكتاب وصاحبه رغم مباركة الغزالي لانتصارات يوسف بن تاشفين واستخدام نفوذه في بغداد ليفتي بأحقية يوسف بن تاشفين في أن يحل محل ملوك الطوائف في الأندلس ويتولى الحكم في ولايتهم[2].

فقد أعدم كتاب الإحياء حيث وُجد، وأخذت نسخ من أيدي أصحابها منها نسخة ميمون بن ياسين الصنهاجي تـ 530هـ/1135م ونسخة ابن العربي حمله ثم أمره بحله في الماء فضاع معظمه[3].

ويجزم عدد من الباحثين أن الإحراق قرار صنعه الفقهاء الأندلسيون الفروعيون الذين كانوا يكتفون من العلم باليسير الذي يحل

1 – ابن العربي، القواصم، ص: 490 و491 .

2 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج:6، ص: 249 و250.

3 – ابن القطان، نظم الجمان، ص: 14 و15 .

مشاكل كل يوم دون رجوع إلى الأصـــول[1]، واعتبـــر آخـــرون إحـــراق كتـــاب الإحياء رد فعل من طرف فقهاء المالكية على مـــا كـــان يحملـــه الكتـــاب مـــن دعوة إلى نبذ الفروع[2].

لكن هذا الكلام يرده ما يُعرف عـــن الاتجـــاه الســـني العـــام المغربـــي المعادي لكل ما يُشـــتمُّ منـــه رائحـــة مخالفـــة لســـلفية المـــرابطين أصـــولا أو فروعا أو سلوكا، ومثال ذلك إحـــراق القاضـــي بـــن زرب كتـــب ابـــن مســـرة خلال القرن 4هـ/10م[3]، وقد مـــرَّ بنا في المبحـــث الســـابق مـــا يســـتدل بـــه على تصنيف المرابطين لكتاب الإحياء ضمن كتب البدع العقائدية.

كما فُسر إحراق الإحياء باشتماله علـــى أحاديـــث موضـــوعة، وهـــو ما أشار إليه ابن الأحمر في قوله : " تكلَّـــم فيه فقهـــاء قرطبـــة لمـــا فيـــه مـــن الأحاديـــث الموضـــوعة التـــي لا أصـــل لهـــا، وقـــالوا هـــذا الكتـــاب يضـــر بالمسلمين، الصواب إحراقه، وأما قاضيها ابن حمـــدين فقـــال بكفـــر مؤلفـــه "[4] وهي حجة فقهاء قرطبة أيضـــاً[5] .

---

1 – عبد الواحد المراكشي (منسوب إليـــه)، **وثـــائق المـــرابطين والموحـــدين**، تحقيـــق حســـين مـــؤنس، الطبعة 01، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1997م، ص: 58.

2 – عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس :عصـــر المـــرابطين والموحـــدين**، الطبعـــة 02، القـــاهرة، مصـــر، مكتبـــة الخـــانجي، 1411هـــ/1990م، ص: 413-414 . ويحـــي هويـــدي، **تـــاريخ فلســـفة الإسلام فـــي القـــارة الإفريقيـــة**، دار النهضـــة العربيـــة، القـــاهرة، مصـــر، 1384هـــ/ 1965م، ص: 204.

3 – النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص: 78. وإبراهيم التهامي، المرجع السابق، ص: 604 .

4 – إسماعيل ابـــن الأحمـــر، **بيوتـــات فـــاس الكبـــرى**، دار المنصـــورة للطباعـــة والوراقـــة، الربـــاط، المغرب،1391هـ/ 1972م، ص: 33 و34. ومؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص: 104.

5 – محمد اليعقوبي البدراوي، **إحراق كتاب الإحياء في المغـــرب الإســـلامي**، مجلـــة المنهـــل المغربيـــة، عدد: 6، رجب 1397هـ/ جويلية 1977م، ص: 320 .

واستند الفقهاء في تبرير ذلك إلى احتوائه على علم الكلام والفلسفة وكراهية المالكية لهذه العلوم[1]، غير أن كثير من الباحثين اعتبروا السبب الحقيقي للإحراق ما قرره الغزالي في الإحياء في الباب السادس الذي أفرده للحديث عن علماء السوء المتزلفين إلى السلطان واعتبر ذلك من فساد الوقت وعلامات قرب الساعة[2] .

وقد ترآى للفقهاء المرابطين أنهم المعنيون بتلك المواصفات، وأن هذا النقد موجه إليهم نظرا للعلاقة الوطيدة التي كانت بينهم وبين أمرائهم، ويمكن إجمال هذه المؤاخذات في استخدام الفقهاء الجدل العقيم، والتباهي به في النوادر والغرائب، واتخاذ الفقه والعلم مطية لنيل حطام الدنيا ووسيلة للتوصل إلى طلب الولاية والقضاء، وتحقيق مصلحة دنيوية، والتقرب بهما إلى أهل السلطة ممَّن سماهم الغزالي "بفقهاء الدنيا" و"علماء السوء"[3] واللصوص[4]، وعرف الفقهاء بأنهم المعرضون عن الحكام وليس الفئة الطالبة لهم من أولئك "الذين أكبوا على علم الفتاوى، وعرضوا أنفسهم على الولاة وطلبوا الولايات والصلات منهم" [5]، فهؤلاء مسؤولون في رأيه عن فساد الرعية لأنه "إنما فسدت الرعية بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء" [6]، ويرى الغزالي أن الفقيه يجب أن يكون معلما للسلطان ومرشداً له، أي أن يكون متبوعا لا تابعا، ونجد في كتاب الإحياء

---

1 – كنون عبد الله الحسني، **النبوغ المغربي**، الطبعة 02، مطبعة تطوان، المغرب، 1380هـ/ 1960 م، ج:1، ص: 69. مصطفى باحو، **علماء المغرب و مقاومتهم للبدع و التصوف والقبورية والمواسم**، الطبعة 02، طبع ونشر جريدة السبيل، 1427هـ/2004م، ص: 53.

2 – أبو حامد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ت.ط، ج: 01، ص: 7،17، 42، ج: 02، ص: 150.

3 – نفسه، ص: 38.

4 – نفسه، ص: 61 .

5 – نفسه، ص: 42.

6 – نفسه، ص: 150.

عددا من الإشارات إلى ذلك كقوله: "إن الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك [1]"، وقوله أن الفقيه هو "معلم السلطان ومرشده إلى سياسة الخلق" [2] .

وبناء على آراء الغزالي أصدر ابن الزيات التادلي حكمه القاسي في حق الفقهاء المناهضين للإحياء بقوله "وما طعن عليه إلا علماء الدنيا الذين أظهر عوارهم"[3] .

لكن موقف فقهاء المالكية الموالين للنظام المرابطي لم يكن موحدا تجاه كتاب "الإحياء"، فإذا كان القاضي ابن حمدين يمثل الجناح المتشدد، فإننا نجد فقهاء آخرين كان لهم موقف مغاير تماما، منهم أبو محمد عبد الله الرجراجي 540 هـ/1145م[4]، وأبو الحسن علي بن محمد الجذامي من أهل المرية الذي أوجب تأديب محرقها "[5]، وابن النحوي التوزري تـ 513هـ/ 1119م الذي كان له اعتناء بالإحياء[6] ولما أفتى الفقهاء بإحراق الإحياء ووصل كتاب علي بن يوسف بن تاشفين بتحليف الناس بالأيمان المغلظة أن ليس عندهم الإحياء، كتب إلى السلطان وأفتى بعدم لزوم تلقي الأيمان، ونسخ بنفسه كتاب الأحياء في ثلاثين جزءا[7]،

---

1 – نفسه، ص: 07.

2 – نفسه، ص: 17.

3 – التادلي، المصدر السابق، ص: 36.

4 – نفسه، ص : 86.

5 – ابن الأبار البلنسي، **معجم أصحاب القاضي أبي علي الصدفي**، الطبعة 01، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 1420 هـ / 2000 م، ص: 272. والأزدي أبو عبد الله الحَميدي الميورقي، **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، مصر، 1966م، ترجمة رقم: 253، ص: 283.

6 – التادلي، المصدر السابق، ص : 95 و96 .

7 – وذكر أحد الباحثين المغاربة أن له كتابا مخطوطا منسوب إلى ابن النحوي يرد فيه على كتاب الإحياء موجود بمكتبة عبد الحي الكتاني بالرباط، أنظر : صالح أحمد الشامي، **الإمام الغزالي**

وأبو محمد عبد الله المليجي المتوفي قبل 540هـ/1145م كان شديد الورع والزهد والتقشف"ولما أفتى الفقهاء بمراكش بإحراق كتاب "الإحياء" للغزالي فأحرق بصحن جامع السلطان، سأل أبو محمد عن الذين أفتوا بإحراقه، فكان كلما سمي له واحد منهم دعا عليه، ثم قال: والله لا أفلح هؤلاء الأشقياء، فلما انقضى شهر حتى مات جميع أولئك الفقهاء"[1] .

وقال قائلهم :

أبو حامد أحيا من الدين علمه * وجدد منه ما تقادم من عهد.

ووفقه الرحمان فيما أتى به * وألهمه في ما أراد إلى الرشد.

فصلها تفصيلا فأتى بها * فجادت كأمثال النجوم التي تهدى[2] .

والملاحظ أن بقية الغرب الإسلامي (ما عدا الأندلس والمغرب الأقصى) قد عاملت كتاب الإحياء معاملتها لجميع النصوص المماثلة بشكل أو بآخر فلم تقاومه رسميا ولم تقم بإحراقه ولا بمطاردة ممتلكيه[3] .

أما القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي، فقد كان موقفه وسطاً من الإحياء إذ قال: "لو أختصر هذا الكتاب، وأقتصر على ما فيه من خالص العلم، لكان كتابا مفيدا" [4].

وانطلاقا من حادثة الإحراق اتخذ المناوؤن للدولة المرابطية –قديما وحديثا– مسألة الفروعية ديْدناً للتهجم على الدولة المرابطية، تلقف تلك

حجة الإسلام ومجدد المئة الخامسة، الطبعة 02، دار القلم، دمشق، سوريا، 1432هـ/2002م، ص: 71 ، 74. فهل هي ردة وانقلاب على الكتاب، أم مجرد وهم في نسبة الكتاب لصاحبه؟ .

1 – التادلي، المصدر السابق، ص: 145 .

2 – عماد الدين الأصبهاني، **خريدة القصر وجريدة العصر**، نقحه وزاد عليه: محمد المرزوقي، محمد العروسي المطوي، الجيلاني بن الحاج يحيى، الدار التونسية للنشر، د.ت.ط، ج:2، ص: 470.

3 – محمد الأمين بلغيث، دولة المرابطين بالأندلس، ص : 157.

4 – أبو عبد الله محمد بن القاضي عياض، **التعريف بالقاضي عياض**، تحقيق وتقديم: محمد بن شريفة، الطبعة 02، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1402هـ/ 1982م، ص: 106 و107 .

التهمة بعض من المستشرقين من أمثال دوزي وألفردبل الذي يقول :"في أيام حكم المرابطين لم يكن لسكان المغرب من مرشدين روحيين غير فقهاء ضيقي العقول، فقهاء كان كل علمهم مقصورا على المذهب المالكي ... استطاعوا بفضل تأييد الأمير المطلق لهم واحترام الشعب لأشخاصهم أن يفتوا بجواز أمور تتنافى مع الشرع"[1]. ولم يذكر لنا المستشرق شيئا عن هذه الأمور.

وهذا الكلام على إطلاقه غير صحيح، فقد ارتبط انتصار المالكية في الغرب الإسلامي في عصر المرابطين بكبار الفقهاء كما اِرتبط بكبار علماء الحديث ورجال التفسير، فنجد الإهتمام بالمحدثين والمفسرين كالإهتمام بالفقهاء[2]، بل حظي علم الحديث باهتمام البيت المرابطي نفسه[3].

إن إلقاء نظرة فاحصة على كتب التراجم في عهد المرابطين تجعل الباحث يصل إلى نتيجة معاكسة، فقد برز خلال العصر المرابطي علماء محدثون عدَّدتهم المصادر لعل أشهرهم المحدث الكبير الامام أبي

---

1 – ألفرد بل، المرجع السابق، ص: 246.

2 – محمد علي الصلابي، **فقه التمكين عند دولة المرابطين**، الطبعة 01، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1427هـ/ 2005م، ص: 224.

3 – مطبوع بعنون: **الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع**، الطبعة 01، تحقيق: السيد أحمد صقر، القاهرة، مصر، دار التراث، تونس المكتبة العتيقة، 1379هـ/ 1970م. فالأمير ميمون بن ياسين اللمتوني (تـ530هـ/ 1135م) كان ممن عُني بالرواية والسماع وله رحلة حج فيها عام 482هـ/1089م فسمع صحيح البخاري وصحيح مسلم ولما رجع من رحلته حدَّث بما رواه فسمع منه الناس بإشبيلية وغيرها، وقد أخذ عنه أعلام من أهل الأندلس(ابن الأبار ، التكملة، ج:2، ص: 197) . ونجد الأمير منصور بن الحاج داوود بن عمر أحد رؤساء لمتونة الذي سمع من أبي محمد بن عتاب وأبي علي الصدفي بمرسية وقد نبغ في معرفة الأخبار والسنن والآثار واجتمع له في الدواوين والأصول الشيء الكثير(ابن الأبار ، التكملة، ج:2، ص: 193 و194). وكان هذا الاعتناء بالحديث عاما في البيت الحاكم المرابطي(أنظر: محمد محمود عبد الله بن بيه، **الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين** ، رسالة مجستير، 1418هـ/1997م، جامعة أم القرى، قسم الدراسات التاريخية والحضارية، ص: 85) .

علي الصدفي تـ 514هـ/1120م الذي استوطن مرسية فرحل الناس من البلدان إليه وكثر سماعهم عليه[1].

ومنهم القاضي أبي بكر العربي المعافري تـ543هـ/1148م الذي كان يقول: " ولا تقبلوا رواية إلا عن أئمة الحديث .... وغير ذلك هو الموت الأحمر والداء الأكبر"[2].

ومنهم القاضي عياض 544هـ/1149م الذي صنَّف كتاب مشارق الأنوار على صحاح الآثار[3] وله كتاب الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع[4]، وهي آثار تقف شاهدة على تبحر القاضي في الحديث .

ومن محدثي العصر المرابطي عبد الله بن علي الرشاطي تـ542هـ/1147م صاحب كتاب الإعلام بما في كتاب "المؤتلف والمختلف للدارقطني من أوهام"[5]، وعلي بن النعمة الأنصاري المري تـ567هـ/1171م صاحب كتاب "الإمعان في شرح مصنف النسائي" قال عنه الفيرز آبادي" لم يسبق إلى مثله"[6]، وغيرهم من المحدثين والمفسرين والأصوليين[1] .

---

1 – ابن الأبار، **معجم أصحاب القاضي أبي علي الصدفي**، الطبعة 01، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1420 هـ / 2000 م، ص: 89، 232، 238، 308

2 – ابن العربي، العواصم، ج:01، ص: 248 .

3 – جمال الدين أبو الحسن القفطي، **إنباه الرواة على أنباء النحاة**، الطبعة 01، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1424هـ/ 2004م، ج:2، ص: 364 .

4 – مطبوع بعنون: **الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع**، الطبعة 01، تحقيق: السيد أحمد صقر ، القاهرة، مصر، دار التراث، تونس المكتبة العتيقة،1379هـ / 1970م. وسيتكرر ذكره لاحقا.

5 – أبو نصر علي بن هبة الله بن جعفر بن ماكولا، **الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب**، الطبعة 01، دار الكتب العلمية، بيروت،لبنان، 1411هـ–1990م، ج:1، ص:11

6 – أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى، **البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة**، الطبعة 01، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، 1421هـ/ 2000م، ص: 210.

يتضح مما تقدم أن السلطة المرابطية كان لها الدور البارز في الصحوة المالكية التي شهدها الغرب الإسلامي خلال القرن الخامس الهجري بتقريب فقهاء المالكية والاسترشاد بتوجيهاتهم في أمور الدين والدنيا، وإمضاء آرائهم وإسناد المناصب إليهم، وجعل المذهب المالكي مصدرًا للتشريع نصا وروحا، وملاحقة كل المخالفين للمذهب، ثم العمل على نشره في كل المناطق، بما في ذلك الأصقاع البعيدة كالسودان.

فقد دعمت السلطة المرابطية جهودها في التمكين للمذهب المالكي بنشره في السودان، فمنذ مرحلة عبد الله بن ياسين، بدأ المذهب يتسرب إلى هذه الآفاق البعيدة حيث تم إرسال الدعاة هناك، فأسلم بعض ملوك السودان، واعتنقوا المذهب المالكي، وعملوا على نشره بين قبائلهم[2] .

وكان لنشاط الفقهاء –في ظل رعاية السلطة المرابطية– ثماره الملموسة، فقد وضعوا باختيارهم للمذهب المالكي كمذهب رسمي لدولتهم إطار جديدا للانتماء سوف يشكل مع الزمن نوعا من الهوية لأهل المغرب[3] وجزءا من المكونات العميقة لشخصية أهل المنطقة، ويقرر أحد الباحثين أنه " بداية من القرن السادس الهجري أصبح الإنتماء الجغرافي لبلاد المغرب الإسلامي بمثابة المعيار الأساسي لتحديد مالكية ساكنه [4] .

كما يُمكننا القول دون مبالغة أن المذهب المالكي وجد في الدولة المرابطية سنداً قويا من طرف الفقهاء، ودعما مطلقاً من طرف

---

1 – محمد بن بيّه، الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين، ص: 85 – 90.

2 – حسن أحمد محمود، **الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا**، الطبعة 03، بيروت، دار الفكر العربي، 1986م، ص: 244 .

3 – محمد زنيبر، إتجاه عياض الفكري، **مجلة المناهل**، وزارة الثاقفة المغربية، العدد:19، 1401هـ/ 1981م، ص: 416.

4 – علاوة عمارة، **انتشار المذهب المالكي ببلاد المغرب الأوسط ، قراءة سوسيو–تاريخية** ، ضمن كتاب : دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجزائرية، 2008م، ص :127 .

السلطة، وإقبالاً شديدا من قبل العامة، وبالتالي عــرف انتعاشًــا أعــاد للمــذهب مجده في الغرب الإسلامي خصوصا والعالم الإســلامي عمومــاً، فــي اعتقادنــا أن البيئة السياسية والفقهية المرابطية زادت المذهب المــالكي قــوةَ إلــى قوتــه الذاتية في الغرب الإسلامــي.

<u>المبحــث الثالــث : التــصـــــوف فــي الغــرب الإســلامي خــلال العصــر المرابطي:</u>

استكمالاً للتصور المــذهبي فــي الغــرب الإســلامي قبيــل العصــر الموحدي نرصد وضعية التصوف باعتبــاره أحــد الســِــمات المــُـميِّــزة للشخصية الدينيــة فــي المغــرب الوســيط، وســنميز فــي دراســة الظــاهرة التصوفية بين وجودهــا فــي المغــرب الإســلامي وتطورهــا فــي الأنــدلس، ونــُـجلي الغموض عن مواقــف السلطة والفقهــاء مــن الظــاهرة التصــوفية في العــدوتيــن.

<u>المطلــب الأول : الزهــد والتصــوف فــي الغــرب الإســلامي خــلال العصــر المرابطي .</u>

يجد الباحث صعوبة فــي اختيــار المعلــم الــذي يجعلــه منطلقــا فــي دراسة الظاهرة التصوفية بالمغرب، وفي اعتقــاد بعــض البــاحثين أنــه مــن المبكر الحديث عن تيار التصوف في العصــر المرابطــي، إذ لا يعــدو–فــي نظرهم– زهدا ورياضة[1]، بينمــا يربطــه بعضــهم بالمرحلــة الأخيــرة مــن العصر المرابطي، وهــو ما يُفهم من كــلام أحــد البــاحثين المُتخصِّصــين إذ يقــول: " إنَّ ظهــور التصــوف المغربــي كفكــر وســلوك وممارســة

---

1 – رابــح بونــار، **<u>المغــرب العربــي تاريخــه و ثقافتــه</u>**، الشــركة الوطنيــة للنشــر والتوزيــع، الجزائر،1401هـ/ 1981م، ص :335.

وكطاقة مؤثرة في المجتمع رهين بتوفر شروط موضوعية لم تتح لها فرص النضج إلا منذ القرن السادس الهجري "[1] .

في حين أثبتت بعض الدراسات أن التصوف عُرف بالمغرب الإسلامي قبل العصر المرابطي وأثناءه، مثّله جملة من الصلحاء الذين وصفت لنا المصادر زهدهم وإعراضهم عن الدنيا [2]، وانتهى البحث بأحد المهتمين بالتصوف المغربي إلى "قِدم الظاهرة الصوفية بالمغرب وبالتالي قدم مؤسساتها المتمثلة خاصة في الرابطات والرباطات"[3]، مستندا إلى سلسلة من الرباطات التصوفية التي ذكرها التادلي في التشوف[4].

والثابت أن المغرب الإسلامي خلال العصر المرابطي كان بمعزل عن تيارات التصوف التي عُرفت في المشرق أو ظهرت في الأندلس[5]، فلم تتأسس للصوفية مدارس في المغرب الإسلامي وإنما ظهر تصوف

---

1 – لحمنات، المرجع السابق، ص: 153 و154 .

2 – أنظر مثلا : جمال علال البختي، المرجع السابق، ص: 46،50.

3 – الجيلالي كريم، الرابطات و الرباطات بالمغرب من خلال كتاب التشوف، **مجلة دعوة الحق**، السنة 52 ، ربيع الثاني 1431هـ/إبريل 2010م، المغرب، ص: 29 .

4 – أشهرها رباط شاكر الشهير الذي يعود تأسيسه إلى نهاية القرن الرابع الهجري، وأيضا رباط عقبة والمسمى رباط نفيس الذي تأسس خلال القرن 5هـ/11م. ورباط تانون طهير، ورباط حكم، وكلها يعود تأسيسها إلى القرن 5 هـ/ 11م. أنظر : الجيلالي كريم، المرجع السابق، من ص: 25 إلى ص: 28 .

5 – يذكر الدارسون أن اصطلاح الصوفية لم يُعرف في الأندلس إلا في أواخر القرن الثالث الهجري حين احتك الأندلسيون الريفيون الذين طُردوا من قرطبة أيام الحكم بن هشام أواخر القرن 2 هـ /8م بطائفة من العباد في الإسكندرية عرفوا باسم الصوفية و بذلك أُطلق الإسم على الجماعات التي انقطعت للعبادة و الزهد بالأندلس و كان أول من تلقب بهذا الاسم من الأندلسيين عبد الله بن نصر القرطبي تـ 315 هـ/ 927 م. أنظر: محمود علي مكي، **التصوف الأندلسي** مبادئه وأصوله، مجلة دعوة الحق، العدد: 8-9، السنة 05، ذوالحجة، محرم 1382هـ/ ماي، يونيو 1962م، ص: 8 .

مغاربة العصر المرابطي على شكلٍ فردي أقرب للزهد منه لمفهوم التصوف، وهو ما يحلو لبعض الباحثين تسميته بالتصوف السني[1].

ومنه يـُمكن القول أن البداية الحقيقية للتصوف في المغرب كتوجه فكري ومنظومة مذهبية لم يتحقق إلا في القرن 6هـ /12م[2] أي نهاية حكم المرابطين، وخلال هذه الفترة مثّل التيار الزهدي صلحاء وفقهاء حملوا سلوك الزهد في ثوب التصوف السني ذكرتهم بعض المصادر عرضاً، في حين طارت شهرة بعضهم مشرقا ومغربا، منهم واجاج بن زلو اللمطي السوسي تـ445هـ/1053م الذي بنى دار "سماها بدار المرابطين لطلبة العلم وقراءة القرآن وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه وإذا أصابهم قحط استسقوا به"[3].

ومنهم الفقيه أبو محمد عبد العزيز التونسي تـ476 هـ/1083م، كان "ورعاً تقياً متقللا من الدنيا هارباً عن أهلها"[4]، نـُسبت إليه العديد من الكرامات، إلى جانب أخت له يـُذكر أنها "انقطعت إلى عبادة الله تعالى إلى أن ماتت وهي بكر، وكان عبد العزيز السوسي إذا جاءه أحد يستوهب منه الدعاء يأمره أن يذهب إليها لتدعو له"[5]، ومن صوفية هذه الفترة أيضا ابن أخيه أبو محمد عبد السلام التونسي (المتوفى مطلع القرن 6هـ/13م)

---

1 – أنظر : الطاهر بونابي، **التصوف في الجزائر خلال القرنين 6و7هـ/12و13م نشأته تياراته،دوره الإجتماعي والثقافي والفكري والسياسي**، دار الهدى للطباعة النشر والتوزيع، عين مليلة، 2004م، ص:38 و39. وأحسن المصادر الصوفية لمعرفة التصوف السني كتاب : الرعاية لحقوق الله للحارث بن أسد المحاسبي البصري تـ 243هـ/857م.

2– جمال علال البختي، المرجع السابق، ص: 46-50

3 – التادلي، التشوف، ص:89. والسلاوي، الاستقصا، ج:2، ص:7 .

4– التادلي، المصدر السابق، ص:92.

5 – نفسه، ص:94.

الذي كان يلبس الصوف[1]، و" كساء خشنا على جلده، ويأكل الشعير الذي يحرثه بيده، فإذا اشتهى اللحم اصطاد السلاحف في البرية فأكل لحمها"[2].

وممَّن مثَّل هذا التيار بالمغرب الأوسط أبو الفضل بن النحوي التوزري تـ513هـ/1118م، كان ذا كرامات مُجاب الدعوة [3]، كما أشتهر بولعه الشديد بأسفار كتاب الإحياء ودفاعه المستميت عنها، ولما أفتى فقهاء أهل المغرب بإحراق كتب الغزالي وأمر السلطان بإحراقها انتصر لأبي حامد ... وكتب إلى السلطان بذلك"[4]، ولما وصل كتاب الأمير علي بن يوسف إلى فاس بالتحريج على كتاب الإحياء وأن يحلف الناس بالأيمان المغلظة أن الإحياء ليس عندهم، استفتى ابن حرزهم أبي الفضل ابن النحوي في تلك الأيمان" فأفتى بأنها لا تلزم، وكانت في محمله أسفار فقال لي: هذه الأسفار من كتاب الإحياء، وددتُ أنِّي لم أنظر في عمري سواها، وكان أبو الفضل قد نسخ الإحياء في ثلاثين جزءا، فإذا دخل شهر رمضان قرأ في كل يوم جزءا " [5] .

ومنهم أبو جبل يعلى من أهل فاس تـ503هـ/1109م "يـُقال إنه من الأبدال"[6]، أقام بأغمات وريكة سبعة أعوام متفرغا للعبادة ثم توجه إلى مكة فحج وجاورها تسعة أعوام[7].

ويـُمكن أن نـُلحق بهم الفقيه المحدث الزاهد الإمام أبو علي حسين بن محمد الصدفي تـ 514هـ/1120م، قضى حياته بين العلم

---

1 – ابن مريم التلمساني، **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، وقف على طبعه واعتنى بمراجعة أصله الشيخ محمد ابن شنب، الجزائر، المطبعة الثعالبية، 1326هـ/1908م، ص: 122.

2 – التادلي، المصدر السابق، ص: 111 .

3 – نفسه، ص: 98 و99 و100 .

4 – نفسه، ص: 96 .

5 – نفسه.

6 – نفسه، ص: 101 .

7 – نفسه، ص: 102 و103 .

والتعليم والجهاد، وكان عيشه " كسْب بضاعة "[1] صابراً على ذلك إلى أن أستشهد بموقعة قتندة[2] " فخُتمت مساعيه الصالحة بالشهادة فسعدت وفاته سعادة الولادة وجمعت له حدسة السنن بين الحسنى وزيادة"[3].

ومن الفقهاء المتصوفة تصوفا أخلاقيا زهديا سنيا القاضي عياض السبتي تـ 544هـ/1149م[4]، فقد نشأ على " عفة وصيانة مضرضِيٍّ الخِلال محمود الأقوال والأفعال " [5] كما أنه " كان ذاكرا لأخبار الصالحين وسيرهم وأخبار الصوفية ومذاهبهم ... كثير الصدقة والمساواة عاملا مجتهدا صواما، يقوم ثلث الليل الأخير لجزء من القرآن، لم يترك ذلك قط على أية حال حتى يغلب عليه، متدينا ورعا متواضعا متشرعا ... وكان يُلاطف الأمراء فإن امتنعوا من الحق تقوى عليهم، غير هيوبٍ لهم مقدامًا عليهم في صدهم عن الباطل واستقضاء حوائج الرعية عندهم محببا في قلوب الخاصة والعامة "[6].

فلم تجمع هذه الأسماء الزاهدة مراكز ولم توحدهم تقاليد ولم توجههم قيادة، بل كان زهدهم فرديا عفويا من غير تأملات أو تأويلات .

أما في العدوة الأندلسية المرابطية اختلف التصوف عن التصوف المغربي خلال الفترة نفسها شكلا ومضمونا، فمع انطلاقة القرن

1 – الذهبي، تاريخ الإسلام، ج: 35، ص: 369.

2 – ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج:4، ص: 310 .

3 – ابن الأبار، معجم أصحاب القاضي أبي علي الصدفي، ص: 6.

4 – رغم ما جاء في بعض أشعاره (مخطوطة) من الإعتقاد في الأولياء والتوسل بهم ، أنظر: جمال علال البختي، الحضور الصوفي في الأندلس والمغرب، من ص : 84 ، ص : 93 .

5 – أبو عبد الله عياض محمد الإبن، التعريف بالقاضي عياض، ص: 4 .

6 – نفسه، ص: 5 .

4هـ/10م تسارعت وتيرة تطوره من زهد وانقطاع[1] وتعبد[2] إلى فلسفة وباطنية مسايرا التطور الصوفي في المشرق، ليظهر بمظهره الجديد الذي طُبع بالتأمل العقلي والوجداني .

وتميَّز التصوف الأندلسي بمظهره الفلسفي بظاهرتين، أولهما اجتماع الصوفية في أماكن خاصة منعزلة للعبادة[3]، والمظهر الثاني اصطدامهم مع الفقهاء السلفيين الذين حاولوا الحفاظ على صفاء الدين والتحذير من طريق التصوف[4].

---

1 – ومما تميز به التصوف خلال هذه الفترة إنشاء الرباطات الصغيرة التي كان يجتمع بها بعض الأفراد من النساك أفرادا أو جماعات من أجل التأمل والجهاد و المرابطة. محمود علي مكي، المرجع السابق، ص: 11 و12

2 – ممن مثل التصوف الزهدي (السني) في الأندلس في أول ظهور : حسن بن دينار الطليطلي تـ 212هـ / 827م ظل أربعين سنة يصلي الصبح بوضوء العشاء وخلف بن سعيد القرطبي تـ305 هـ/ 917م الذي كان يختم القران كل ليلة، أنظر: ابن الفرضي، **تاريخ علماء الأندلس**، عنى بنشره، وصححه ووقف على طبعه: السيد عزت العطار الحسيني، الطبعة 02، القاهرة، مصر، مكتبة الخانجي، 1408هـ/1988م، ج:01، ص: 160.

3 – جمال علال البختي، الحضور الصوفي في المغرب والأندلس إلى حدود القرن السابع الهجري، ص:10.

4 – كالصدام الذي كان بين: يُمن بن الرزق التطيلي الصوفي وبين فقهاء عصره، و يُمْن بن رزْق الزّاهِد: من أهلِ تُطِيلة؛ يُكنّى: أبا بكر، رُوي أن له كرامات منها أنه كان لا يملك إلاّ مصحفاوكتابه الزّهْد، وكانَ لاشيء عنده، ولا في بيتِه شيء، إذا أراد شراء شيء، أو يَتصدّق بشيء أدخَل يدهُ تحتَ الحَصير فيخرج دَراهم صحاحاً كباراً، وذكر ابن الفرضي : " وَسَمِعْتُ بعضَ شُيوخنا يَذْكُر عن أحمد بن خالِد أنّه كان ينهى عن كتاب يُمْن بن رزق، قالَ لنا محمد بن عبد الملِك قالَ لي أبو محمد بن مَسرُور بن الحَجَّام بالقَيْروان: لا تَنْظُر في كِتاب يُمْن فإنّه كان صاحِب وساوِس أو كما قال " . أنظر : ابن الفرضي، **تاريخ علماء الأندلس**، تحقيق: السيد عزت العطار الحسيني، الطبعة 02، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1408هـ/1988م، ج:02، ص: 198.

مثـّـل هذا التيار الصوفي الفلسفي في الأنــدلس مدرســة ابــن مســرة القرطبي تــــ 319 هــــ/930م[1]، التــي أثمــرت اتجاهــات صــوفية فلســفية أخرى معلنة " عن الإنطلاقة المشتركة لكل من التصــوف والفلســفة علــى حــد سواء " [2] .

طوَّر تلاميذ ابن مسرة فلسفته الصوفية وصـــارت أكثــر تعقيــدا خـــلال القرنين 5و6هــ / 11م و12م، إذ جمعوا بــين الفلســفة والتصــوف، أبــرزهم ابن برجان تــ 536 هــ/1142م[3] وإســماعيل بــن الرعينـــي[4] الــذي عاصــر ابن حزم الأندلسي فترجم له وعدَّه ضمن المعتزلة [1].

1 – أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة، ولــد بقرطبــة عــام 269هـــ/882م، كــان يجمــع بــين العلم والتجارة فكثرت رحلاته إلى المشرق تتلمذ علــى بيــه الــذي كــان يميــل إلــى الإعتــزال، أتّهــم بالزَّنْدقة لما كان يــُـظهره من أقوال فخــرج فــاراً، وتــردد بالمشْــرق مــدة، فاشــتَغَل بملاقــاة أهــل الجَدَل، ثم انْصَرَف إلى الأنْدَلُس فأظهر نسكاً وَوَرعاً، واغتــر النَّــاس بظــاهره، فــاختلفوا إليــه وســمعوا منه، ثم ظهر النَّاس على سوء معتقده، وتَمَادى فــي صــحبته آخــرون فــدانوا بنحلتــه، وكانــت نحلتــه مزيجا من التصوف والإعتزال و الفلسفة الغنوصية : أنظر: الحميــدي، جــذوة المقتــبس فــي ذكــر ولاة الأندلس، ج :1 ، ص:62، وابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج :2، ص:41 .

2 – محمد العدلوني الإدريسي، **المرحلة الإبتدائية فــي تكــون التصــوف الفلســفي بــالغرب الإســلامي: ابن مسرة ومدرسته**، الطبعة 01، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1421هــ/2000م ، ص: 99 .

3 – أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن بــن محمــد بــن عبــد الــرحمن اللخمــي، المغربــي، ثــم الأندلسي الإشبيلي، المعروف بابن برجان مفسر، صوفي مقرئ، محــدث، مــتكلم، مشــارك فــي الهندســة الحساب، وله تفسير القرآن العظيم وأكثر كلامه فيه علــى طريــق أربــاب الأحــوال والمقامــات، تــوفي مغربا عن وطنه بمراكش بعــد ســنة 530هـــ/ 1135م وقيــل ســنة 563هــت/ 1141م.أنظــر: ابــن خلكان، وفيات الأعيان، ج:04، ص:236. وابن الأبار، التكملة، ج: 03، ص: 4.

4 – إسْمَاعِيل ابْن عبد الله الرعيني، كان من الْمُجْتَهدين فِــي الْعِبَــادَة المنقطعــين فِــي الزّهْــد، أحــدث أقوالاً سَبْعَة، أن الأجساد لا تُبعث أبدا وإنمــا تـــُبعث الأرواح، وأن العــالم لايفنــى، وأن العــرش هــو المدبر، وأن الله تعالى أجل من أن يُوصف بفعل شيء أصلا، والقول باكتســاب النبــوة لمــن بلــغ الغايــة في الصلاح وطهارة النفس، وكان عند فرقته إمام واجبــة طاعتــه يــؤدون إليــه زكــاة أمــوالهم، وكــان يذهب إلى أن الحرام قد عم الأرض وأنه لا فرق بــين مــا يكتســبه المــرء مــن صــناعة أو تجــارة او ميراث وبين ما يكتسبه من الرفاق، وأنــه كــان يــرى الــدار دار كفــر مباحــة دمــاؤهم وأمــوالهم إلا أصحابه فقط، وأنه" كان يقول بنكاح المتعة، ولم تذكر المصادر تحديدا ســنة وفاتــه ويُـــقدر أنــه مــات

وغدا لهذا التيار أنصاره وشعبيته، وأصبح بعضهم يتطلع إلى الرياسة والملك، مهددين الدولة المرابطية من خلال ثورة ابن قسي الأندلسي تـ 546 هـ/1151م[2] .

وبعد الرعيني برز صوفي آخر من صوفية الأندلس هو أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطا الله الصنهاجي المعروف بابن العريف تـ536هـ/1142م[3]، من مدينة ألمرية، وصاحب كتاب "محاسن المجالس"

في أواخر القرن 4هـ، ويبدوا أن هذا ناتج عن اختفاءه الدائم من الطلب وتفرغه للعمل السري، فقد ذكر ابن حزم أن أهل المريه كلهم كفروه وتبرؤا منه حتي أهله إلا اتباعه المخلصين. أنظر: ابن حزم، **<u>الفصل في الملل والأهواء والنحل</u>**، مكتبة الخانجي، د.ت.ط، القاهرة، مصر، ج:4، ص: 151.

1 – ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج:04، ص: 151.

1 – ابن قسي أبو القاسم الأندلسي، فلسفي التصوف، كان أول أمره يدعي الولاية، وكان ذا حيل وشعبذة ومعرفة بالبلاغة، قام بحصن مارتلة، ودعا إلى بيعته، ثم اختلف عليه أصحابه، ودسوا عليه من أخرجه من الحصن بحيلة حتى أسلموه إلى الموحدين، فأتوا به عبد المؤمن، فقال له: بلغني أنك دعيت إلى الهداية ، فكان من جوابه أن قال: أليس الفجر فجرين: كاذب وصادق؟ قال: بلى. قال: فأنا كنت الفجر الكاذب. فضحك عبد المؤمن ثم عفا عنه. ولم يزل بحضرة عبد المؤمن حتى قتل. قتله صاحب له. من أشهر تصانيفه : كتاب "خلع النعلين في الوصول إلى حضرة الجمعين" و هو كتاب مُعتبر عند الصوفية ومن أهم مراجعهم، واعتنوا به ونقلوا منه الكثير من الإشارات والحكم بزعمهم، حتى أن قطبهم ابن عربي أكثر النقل عنه في كتابه "الفتوحات المكية" ، قال عنه الإمام الذهبي: "كان سيء الاعتقاد، فلسفي التصوف، له في "خلع النعلين" أوابد ومصائب"، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج :38، ص: 338، والذهبي، **<u>لسان الميزان</u>**، تحقيق:دائرة المعارف النظامية،الطبعة 02، بيروت، لبنان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1390هـ /1971م، ج:01 ،ص: 247. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج:13 ، ص: 103.

3 – أبو العباس أحمد بن محمد المعروف بابن العريف من مدينة المرية، كان متعمقا في العبادة والزهد معتنيا بالقراءات و جمع الروايات، وله كتاب في التصوف: محاسن المجالس، قال عنه ابن ماكولا : كان العباد وأهل الزهد في الدنيا يقصدونه ويألفونه فيحمدون صحبته، وسعى به إلى السلطان فأمر بإشخاصه إلى حضرة مراكش فوصلها وتوفي بها ليلة الجمعة صدر الليل، ودفن يوم الجمعة الثالث والعشرين من صفر من سنة ستٍ وثلاثين وخمس مائة. واحتفل الناس لجنازته.أنظر: ابن الأبار القضاعي البلنسي، **<u>تحفة القادم</u>**، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1406 هـ/2006م، ص:26. ابن خلكان، وفيات الأعيان،

في التصوف، كانت طريقته جوهرها الزهد في كل شيء[1]، وقد سُعي به إلى السلطان فأمر بإشخاصه إلى مراكش، فوصلها وبها مات مسموما كما في بعض الروايات[2] .

ومن تلامذة ابن العريف عبد السلام بن عبد الرحمان بن أبي الرجال الإشبيلي تـ 536هـ/ 1141م، الذي تأثر بالسالمية[3] والإسماعيلية وأفكار الحلاج[4].

وعموما يُمكن أن نخرج بوصفٍ عام للظاهرة التصوفية بالغرب الإسلامي خلل العصر المرابطي، حيث عرفت العدوة المغربية تصوفا سنيا زهديا، بينما غلب على العدوة الأندلسية تصوفا تأمليا فلسفيا.

<u>المطلب الثاني: موقف السلطة المرابطية والفقهاء من التصوف .</u>

إن الحديث عن السلطة المرابطية هو حديثٌ عن جهاز سياسي يسير بروح دينية، وبالتالي سيكون تحرك السلطة قويا انطلاقا من هذين العاملين، العامل السياسي الذي توجهه المصلحة العليا للبلاد، والعامل الديني الذي توجهه الإختيارات الفقهية لعلماء المالكية .

ج:01 ، ص: 168. وابن إبراهيم السملالي، المصدر السابق، ج:02، ص: 05 وما بعدها، والتادلي، التشوف، ص: 118 .

1- حمدي عبد المنعم، التاريخ السياسي والحضاري للمغرب ، مرجع سابق، ص: 442.

2 - ابن خلكا، ج:1، ص: 168. وابن براهيم السملالي، الإعلام، ج:2،ص:5. والتادلي، التشوف، ص: 118 . والزركلي، الأعلام، ج:6، ص:5 .

3 - المدرسة السالمية تنسب إلى أبي عبد الله محمد بن محمد بن سالم البصري تـ 297هـ/ 909م، من معتقداتهم تعذير الشيطان لأن الله أمره بالسجود وأوراد منه المعصية، اُنظر: البغدادي، عبد القاهر البغدادي، **<u>الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية</u>**، الطبعة 02، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، 1977م، ص: 247، وابن الجوزي، **<u>تلبيس إبليس</u>**، الطبعة 01، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1421هـ/ 2001م، ص: 76 و79. وعلي سامي النشار، **<u>نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام</u>**، الطبعة: 09، القاهرة، مصر، دار المعارف، د.ت.ط، ص: 294.

4 - سالم يفوت، المرجع السابق، ص:284 .

وانطلاقا من هذين العاملين تباينت السياسة المرابطية اتجاه الصوفية والمتصوفة في المغرب والأندلس، إذ نلمس فيها الهدوء والرفق، والتأييد أحيانا في اتجاه متصوفة المغرب الإسلامي الذي طغى على سلوكياتهم الزهد والتعبد والإنقطاع، ومن سياسة السلطة المرابطية ذاتها نلمس المتابعة والتغريب والتنكيل بصوفية الأندلس ذوو الإتجاه الفلسفي الذين غلبت عليهم الإنحرافات العقيدية المخالفة لتوجهات الدولة والفقهاء المالكية، بالإضافة إلى انكشاف نزعة الملك والرياسة لدى بعضهم[1] .

لم يجد أمراء الدولة المرابطية في تزهد بعض صلحاء المغرب ما يثير قلقهم وارتيابهم رغم ما عُرف عن كثرة تجمع المريدين حول بعض الزهاد، فقد كان عبد الله بن ياسين مؤسس دعوتهم أحد تلاميذ المدرسة الجنيدية، تلقى تكوينه برباط واجاج بن زلو اللمطي ببلاد نفيس سبع سنين[2]، ثم انتقل إلى جنوب المغرب فأسس رباط صنهاجة الذي كان منطلق دولة المرابطين[3].

وقد أسهم أمراء الدولة المرابطية في نشر التصوف الأخلاقي الزهدي بترغيب الناس في الزهد والتقشف، اقتداءً بعبد الله بن ياسين مؤسس دعوتهم الذي تذكر المصادر أنه عاش بين قومه " متورّعا عن أكل لحمانهم وشرب ألبانهم لما كانت أموالهم غير طيّبة، وإنّما كان عيشه من صيد البرية " [4].

---

1 – المعروف أن طلب الرياسة والملك يتنافى وأصول التصوف الداعية إلى نبذ مباهج الدنيا، لكن عرف الغرب الإسلامي صوفية استغلوا أتباعهم ومريديهم للثورة وطلب السلطة، منهم ابن قسي وابن هود وابن تومرت.

2 – مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص: 20 .

3 – محمد علي الصلابي، فقه التمكين في دولة المرابطين، ص: 15 .

4 – البكري، المسالك والممالك، مصدر سابق، ج:2، ص: 859 .

وعلى هديه سار رجال الدولة المرابطية سالكين طريق الزهد والتقشف، فيوسف بن تاشفين كان معروفا "بالخوف الشديد من الله كتوما لسره كثير الدعاء والإستخارة مقبلا على الصلاة صادقا في استغفاره"[1]، "زاهدا يأكل من عمل يده "[2] ولبس الصوف واعتاد أكل الشعير وأحب الفقهاء والأولياء وكان يقربهم منه " [3] .

وكان ابنه علي " حسن السيرة جيد الطوية نزيه النفس بعيدا عن الظلم إلى أن يُعد في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك"[4]، يذكر صاحب كتاب "بهجة الناظرين"، أن الأمير علي بن يوسف أرسل في ربيع سنة 527هـ/1132م إلى شيخ المتصوفة في ذلك الوقت أبي عبد الله محمد بن الشيخ أمغار يستوهبه الدعاء وأن يخصه بحظ من الابتهالات، ومما جاء فيها " من أمير المسلمين و ناصر الدين علي بن يوسف بن تاشفين إلى أبي عبد الله محمد بن الشيخ أمغار وليه في الله أكرمك الله وإيانا بالتقوى ... من حضرة مراكش حرسها الله عقب ربيع الآخر سنة سبع وعشرين و خمس مئة، وقد علمنا ما عليه من الخير والدين، والجد في أحوالك على نهج الصالح المستبين فاعتقدناك في الأولياء ورتبناك في أهل الذكاء وخاطبناك نادبين لك إلى اختصاصنا بخالص الدعاء واقسم لنا في ذلك حظا من ابتهالك في الأوقات المرجوة...." [5] .

---

1 – ابن الخطيب، الإحاطة، ج:4 ، ص: 303.

2 – مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص: 81 ، 82 .

3 – نفسه. وابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص: 136 .

4 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 252.

5 – أنظر: عصمت عبد اللطيف دندش، دكالة من خلال كتاب التشوف، ضمن كتاب : **أضواء جديدة على المرابطين**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1991م.ص: 195 ، نقلا عن مخطوط بهجة الناظرين وأنس العارفين لمحمد بن عبد العظيم الزموري.

كما أرسل إليه أيضا يستشيره في أمر بناء سور مراكش ويطلب منه الدعاء، فكانت إجابة الولي مؤيدةً وموافقةً لرأي القاضي أبي الوليد بن رشد [1].

وكان من عادته زيارة الأولياء بمقر سكناهم، فعند مروره بتادلا أثناء تعقب الجيش الموحدي، يقوم بزيارة أبي زكرياء يحي بن محمد الجراوي[2]، ولما زار السلطان أغمات وريكة زار الصوفي أبو محمد عبد الله المليجي المتوفى قبل 540هـ/1145م فبعث إليه بألف دينار فرده عليه[3] .

واتصل بعض الصوفية بحكام الدولة المرابطية كما وقع مع أبي الحسن بن حرزهم الذي استدعاه بعضهم للقراءة عليه والأخذ عنه " فلازمه وأخذه بسلوك طريق الآخرة وأمره بالورع وضيق عليه في المكسب فلم تتسع حالته إلا لخبز الشعير"[4] .

أما الأمير تاشفين بن علي فكان يسلك طريق ناموس الشريعة ويميل إلى طريقة المستقيمين وقراءة كتب المريدين، وابتعاده عن شرب المسكرات وغيرها من ملذات الحياة" [5]، ورغم اشتغاله بالحروب الطويلة إلا أنه كان يهتم بزيارة المتصوفة ويتبرك بهم ويسألهم الدعاء[6]، وقد سلك

---

1 – عصمت عبد اللطيف دندش، دكالة من خلال كتاب التشوف، ص:195.

2 – التادلي، المصدر السابق، ص: 137 و138.

3 – نفسه، ص: 145 .

4 – نفسه، ص: 169 .

5 – ابن عذارى المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت ومحمد زنيبر وعبد القادر رزمامة، الطبعة 01، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1406هـ/1995م، ج:4 ، ص: 79 .

6 – ذكر ذلك التادلي في ترجمة أبي زكريا الجراوي المراسي، التشوف ص: 138 .

بعض أعوان الدولة نفس السلوك فكانوا أيضا يتبركون بالصالحين[1]، وكان دائم الاتصال بالصالحين يلتمس دعاءهم ونصحهم، ويُرسل لهم الصدقات لتوزيعها عن طريقهم[2] .

ومن الملاحظ في العصر المرابطي أن عددا من شيوخ صوفية المغرب كانوا أثرياء تصدقوا بجزء من مالهم أو كله، ولم يقتصر الانخراط في التصوف على بعض فئات المجتمع، بل إننا نجد بعضا من أمراء ومشايخ المرابطين ينضمون لهذه الفرق الصوفية[3]، كما حدث مع أبو زكريا بن يوغان الصنهاجي تـ 537هـ/1142م الذي اتبع طريقة الصوفية[4]، وتتلمذ على أبي محمد عبد السلام التونسي[5]، وأقبل على العبادة إلى أن لحق بالله عز وجل وكان أبو محمد عبد السلام التونسي يقول إذا أتاه من يستوهب منه الدعاء يقول له اذهب إلى ابن يوغان واستوهب منه الدعاء فإنه ملك زهد في الدنيا، وأما أنا فكنت فقيرا وبقيت فقيرا وما زدت شيئا و كان ينشد [6] :

وكان فؤادي خاليا من هواكم * وكان بذكر الحق يلهو ويمزح.

ومن الأمراء أيضا الأمير أبو إسحاق باران بن يحي المسوفي تـ570هـ/1174م الذي لحق بطريقة القوم[7]، حتى أن الشيخ طلب منه

---

1 – منهم والي تلمسان وغرناطة الأمير المرابطي الذي أرجع بلنسية المزدلي بن تلكان تـ508هـ/1141م، زار عبد السلام السنوسي طالبا منه البركة. التادلي، التشوف، ص: 110.

2 – نفسه، ص: 137 و 138 و152.

3 – التادلي، التشوف، 93 – 238 – 254. وابن الخطيب، الإحاطة ، ج:1، ص:448. وابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، ج:4، ص: 79.

4 – التادلي، المصدر السابق، ص: 101 – 102 – 241 – 242 .

5 – أنظر ترجمته في : التادلي، المصدر السابق، ص: 110 .

6 – نفسه، ص: 123. وبلغيث محمد الأمين، **دولة المرابطين بالأندلس من مدينة السياسة إلى مدينة العلم**، دار الوعي، الجزائر، 2009م، ص:226،225.

7 – التادلي، المصدر السابق، ص: 254 .

أن يُزيل اللثام ويذهب إلى السوق ويأتي وعلـــى رأســـه طبــق مـــن الطـــرف، حتى يتأكد من صدقه للانخراط في الجماعة فامتثـــل وعمـــل بمـــا قالـــه شـــيخ الصوفية [1] وقال له : قد لحقت بأهل الطريق وزال عنـــك الكبـــر، فـــنهض إلـــى سجلماسة .

وعمل والي المرابطين علـــى تلمســـان مزدلـــي بـــن تلكـــان علـــى زيـــارة الصوفي عبد السلام التونسي ومشاركته في طعامه الـــذي لا يزيـــد عـــن خبـــز الشعير ولحم السلحفاة[2].

وحظي الصوفية ببعض المناصب في الدولـــة، وأُرغـــم آخــــــرون عليهـــا، فقد ذُكـــر أنَّ أبا مروان عبد الملـــك بـــن مســـرة اليحصـــبي تـــــ 552 هــــ/ 1127م قد أُرغم على تقلد خطة القضـــاء والأحكـــام عنـــد زيارتـــه للعاصـــمة مراكش تحت التهديد والوعيـــد فيقـــول : "... وأعـــاده إلـــى بـــلاده وقـــد ولاَّهُ القضايا والاحكام وأنفذ أمره على كافة الأنام، بعـــد أن أبـــى وامتنـــع، فتوعـــده وهدده، فتولى ذلك مكرها مجبرا، وباشره مظطهدا متحسرا"[3].

ويحدثنا نفس المصدر عن تخلي أحـــد القضـــاة عـــن منصـــبه ويتعلـــق الأمر بـــ " أبي عبد الله بن ناهض اللخمي " والذي يقول عنـــه أنـــه قـــام بنـــزع " لباس القضاء ولبس شعار الفقراء وتصـــدق بجميـــع مـــا يملـــك مـــن عـــرض الدنيا و ثرائها ... " [4] .

1 – التادلي، المصدر السابـــق، ص: 254 . وأنظر أيضا : عصـــمت عبـــد اللطيـــف دنـــدش، **الأنـــدلس في نهايـــة المـــرابطين ومســـتهل الموحـــدين – عصـــر الطوائـــف الثـــاني**، الطبعـــة 01، دار الغـــرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1408هــ/ 1988م، ص: 290 هامش: 92 .

2 – التادلي، المصدر السابـــق، ص:110 و111.

3 –الطاهر الصدفي، **سر المصون في مـــا أكـــرم بـــه المخلصـــون**، دار الغـــرب الإســـلامي، بيـــروت، لبنان،1998م، ص:57

4 – نفســـه.

فمن الناحية المبدئية كان الصوفية يعزفون عن شغل خطة من الخطط إذ "النازل عنها هو العالي، والعاطل فيها هو التالي، والمعزول عنها هو الوالي"[1]، لذلك أقرنوا التوبة بالتخلي عنها[2]، وتكررت حالات عزوف بعض القضاة الذين وُصفوا بالزهد وحسن الحال عن استمرارهم في خطة القضاء، مثال ذلك أبي عبد الله محمد بن عيسى التميمي المتوفى سنة 505هـ/ 1111م الذي: " التزم القضاء بمدينة فاس بعد أن سجن على إبايته من ذلك، وذلك سنة ثلاث وخمسمائة فنهض إليها ثم انصرف زائراً إلى سبتة وتمدد بها رجاء تخلصه من الخطة فتوفي بها"[3]، وهذا أبو إسحاق إبراهيم اللواتي "طـُلب لقضاء سبتة وولاية خطابتها فامتنع"[4]، ونفس الموقف اتخذه عبد الله بن أحمد بن وشون الهذلي الذي امتنع عن قضاء فاس[5]، ومنهم من أجبر على القضاء كالشيخ أبي محمد عبد العزيز الباغاني من أهل أغمات، فاستعفى ورفض طلبه، فأقسم في نوع من التحدي قائلا: "والله لو نشرت بالمنشار من قرني إلى قدمي ما قبلت هذه الولاية"[6].

وقراءة في مواقف السلطة نجدها تراوحت بين التخلق بأخلاق الزهاد، والتقرب منهم وتقريبهم، واستشارتهم وطلب الدعاء منهم .

والمصادر التي حفظت لنا هذه المواقف الإيجابية للسلطة المرابطية إزاء متصوفة المغرب نفسها المصادر التي نقلت المواقف

---

1 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:8، ص: 229 و230.

2 – أنظر ترجمة أبي زكريا بن يوغان الصنهاجي الذي كان أميرا فتاب ولحق بالأولياء، وترجمة أبي محمد عبد الله البياني الذي كان من العمال ثم تاب إلى الله تعالى. التادلي، المصدر السابق، ص: 124، و ص: 236،237.

3 – القاضي عياض، الغنية، ص: 28 و29.

4 – نفسه، ص: 113.

5 – ابن القاضي، جذوة الإقتباس، ص: 419.

6 – التادلي، المصدر السابق، ص :205.

العدائية المتصلبة للسلطة المرابطية إزاء التصوف الأندلسي الذي طغى عليه الطابع الفلسفي.

وتمثلت مقاومة السلطة المرابطية للتصوف الفلسفي من خلال الإشخاص والمتابعة وقطع الشرايين التي يتغذى منها (حرق الإحياء)، الإستعانة بالفقهاء لمحاصرة التصوف الفلسفي فكريا، و هذه الوسائل الثلاث كان لها الأثر البالغ في التضييق على التصوف الفلسفي[1] .

فمع تكاثر أتباع مدرسة ابن مسرة الباطنية والحاملين لأفكارها اِرتابت الحكومة المرابطية منهم وخشيت على سلطانها واستقرارها ووحدتها السياسية والفكرية[2]، وانطلقت في حربها ضد التصوف في جبهة أخرى موازية للجبهة التي تواجه فيها العلوم الكلامية والفلسفية.

ومارست الحكومة المرابطية سياسة الإشخاص والتغريب التي تنتهي بالتصفية غالبا، بحيث لا يُستبعد أن يكون ابن العريف تـ530هـ/1135م وابن برجان تـ 536 هـ/1141م قد قُتلا بأمرٍ من علي بن تاشفين بعد إشخاصهما إلى مراكش[3].

وكانت حركة المرابطية العنيفة تلك تشحذها فتاوى فقهاء المالكية، فقرار السلطة المرابطية إشخاص ابن برجان مرجعه إلى أن "فقهاء العصر انتقدوا عليه مسائل، قال أبو الحكم : والله لا عشت ولاعاش الذي أشخصني بعد موتي، يعني أمير المسلمين علي بن يوسف، فمات أبوالحكم، فأمر أمير المسلمين أن يُطرح على المزبلة ولايُصلى عليه، وقلد

---

1 – إبراهيم التهامي، جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة والجماعة، ص: 558 و559 .

2 – يبدو أن أول تمرد على السلطة المرابطية القائمة بالأندلس هو تمرد أبو الحكم بن برجان، إذ أنَّ " البلاد قد خطبت لابن برجان في نحو مائة بلد وثلاثين " محمد الأمين بلغيث، دولة المرابطين بالأندلس، من مدينة السياسة إلى مدينة العلم، ص : 228 .

3 – التادلي، المصدر السابق، ص: 120، 170 .

فيه من تكلم فيه من الفقهاء"[1]، ويذكر ابن الأبار أنَّ الصوفي المتفلسف أبو الحكم بن برجان تـ536هـ/1142م لمَّا بَعُدَ صيْتُه " في الزهادة والعبادة وكثُر أتباعه على الطريقة الصوفية نمي ذلك إلى أمير الملثمين علي بن يوسف بن تاشفين، ويُقال إن فقهاء بلده اتفقوا على إنكار مذاهبه فسعوا به إلى السلطان فأمر بإشخاصه إليه من ألمرية مع أبي بكر محمد بن الحسين الميورقي[2] من غرناطة وأبي الحكم بن برجان من إشبيلية وكانوا نمطا واحدة، فسيِّروا إلى مراكش، ولم يقم بها ابن العريف إلا قليلا وتوفي في صفر عام : 536هـ/ 1141م"[3] .

فالمصادر تُجمع على استدعاء الأمير علي بن يوسف لابن العريف إلى مراكش بضغط من قاضي ألمرية الفقيه ابن الأسود، فأُرسل مقيداً إلى العاصمة المرابطية ليتمَّ التحقيق معه، لكن الأمر انتهى بتبرئة ساحته وهو في سبتة[4].

وكان المتصوف أبو القاسم أحمد ابن قسي تـ 546 هـ/1151م ممن تعرَّضوا للتغريب أيضا وأحضره الأمير المرابطي بسبب آرائه إلى الحضرة بصحبة ابن العريف، قال عنه ابن حجر العسقلاني : " كان – ابن قسي – في بدء أمره على سنن الجمهور ثم نزع عن ذلك وأقبل على التصوف واقتفى سبيلهم في تحريف النصوص وتأويل الظاهر، ثم رحل

---

1 – السلاوي، الاستقصا، ج:1، ص: 129،130.

2 – أبي بكر محمد بن الحسين بن احمد بن يحي بن بشر الأنصاري الخزرجي الميورقي الأصل الغرناطي النشأة ، روى عن لأبي علي الصدفي، رحل الى المشرق عام 537 هـ/ 1142م حاجا فسمع بمكة والإسكندرية وعاد الى الاندلس فحدث . لم أجد تاريخ وفاته. أنظر ترجمته في: المقري، نفح الطيب، ج:2 ، ص: 155.

3 – ابن الأبار، المعجم، ص: 18، 22. ويحي هويدي، **تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية**، مكتبة النهضة المصرية، 1965م ص: 299 .

4 – ابن بشكوال، الصلة، ج:1، ص:83. وابن خلكان، وفيات الأعيان،ج:1، ص:169.

إلى ابن العريف بألميرية وأقام عنده وكثر أتباعه، فنمي الأمـر إلـى علـي بـن يوسف بن تاشفين فأرسل إلى ابن العريف ونظيره ابـن برجـان مـن إشـبيلية فأسكنهما مراكش، وعاد ابن قسي إلى شلب"[1] .

ومن الصوفية الـذين غـرَّبتهم السـلطة المرابطيـة بالإضـافة إلـى ابـن العريف وابن برجان نـذكر أبـي عبـد الله الأصـم[2] وأبـي عبـد الله الـدقاق وجماعتهما بسلجماسة، مما أدى إلى نفيهم إلى فاس مـدة مـن الـزمن إلـى أن تبين للسلطان تاشفين بن علي براءتهما فسرَّحهما[3].

وقـُوبل تطرف أنصار المدرسـة المسـرية بـالتكفير والإضـطهاد مـن طرف الفقهاء والحكام، وحتَّى قطـاع عـريض مـن فئـات العامـة فاضـطر أقطابها إلى الهجرة كابن عربـي وابـن سـبعين وإشـخاص الآخـرين كـابن قسي وابن العريف وابن بـرجان[4] .

لم تكتف المؤسسة الحاكمة بـالتتبع والمراقبـة، بـل لجـأت إلـى منـع بعض المتصوفة مـن التـدريس، تحسـبا لأي تـرويج لأفكـارهم، فقـد مُنـع المتصوف أبو الفضل بـن النحـوي مـن إلقـاء دروسـه فـي أحـد مسـاجد سجلماسة[5]، بل إنه تعرض بعد ذلك للملاحقـة، فاضطـرَّ إلـى الاختفـاء فـي جنة كانت في ملكه، وبقي مختفيا بها " إلى أن أشرف علـى المـوت مـن شـدة الجـوع"[6].

---

1 – ابن حجر العسقلاني، **<u>لسان الميـزان</u>**، تحقيـق: دائـرة المعـرف النظاميـة بالهنـد، الطبعـة 02، بيروت، لبنان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1390هـ /1971م، ج:1، ص: 247 .

2 – التادلي، المصدر السابق، ص: 115 .

3 – نفسه، ص: 255 .

4 – جمال علال بختي، المرجع السابق، ص : 43 .

5 – ابن مريم، المصدر السـابق، ص:301 .

6 – التادلي، المصدر السابق، ص: 154 .

كما ذهبت السلطة المرابطية إلى الزج ببعض صوفية التيار الفلسفي في السجون وتعريضهم للضرب والتعذيب، ومن النماذج التي يمكن أن نسوقها في هذا الصدد المتصوف الشهير أبو الحسن علي بن حرزهم الذي تمَّ سجنه في مدينة فاس[1]، وأبو عبد الله الدقاق الذي سجن مع مجموعة من المريدين في فاس أيضا[2].

ومن أبرز المتصوفة الذين اُمتحنوا بالسجن أيضا ابن برجان السالف الذكر وذلك بسبب أفكاره التصوفية وتأويلاته للنصوص القرآنية، حتى أنه لقي حتفه نتيجة هذا الأسر[3].

وشملت عمليات الاعتقال كذلك المتصوف الذي عرف في المصادر التاريخية باسم الميورقي، ويورد ابن الأبار خبر اعتقاله وسجنه بقوله "وامتحن بالقبض عليه مع أبي الحكم بن برجان وأبي العباس بن العريف، وتخلص دونهما، فقصد المشرق ثانية وأقام بمدينة بجاية برهة في هربه من المغرب"[4]، فضلا عن متصوف آخر يُدعى محمد بن أحمد بن وشون تـ529هـ/1134م الذي كُـبِّل وسُجن في بيته[5].

وبالمثل سجلت لنا المصادر لائحة من المتصوفة الذين ألقيَ بهم في غياهب السجن نذكر من بينهم محمد بن أحمد نمارة الحجري[6]، وأبو عبد الله الشبوقي الذي تم إبعاده من الأندلس وأعتقل بحضرة مراكش[7]، ومن غير المستبعد أن يكون هؤلاء السجناء قد تعرضوا أثناء فترة اعتقالهم

---

1 – نفسه، ص: 172.

2 – نفسه، ص: 155 .

3 – ابن الزبير، المصدر السابق، ص:32و33 .

4 – ابن الأبار، المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي، ص: 139.

5 – علي الجزنائي، **جني زهرة الآس في أخبار مدينة فاس**، الطبعة 02، المطبعة الملكية، الرباط، 1411هـ/ 1991م، ص:97 .

6 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:6، ص17 .

7 – نفسه.

لشتى أنواع التنكيل والتعـذيب، ممـا يقـوم دلـيلا أن الاعتقـالات لـم تكـن فردية أو متعلقة بشخص بعينه، بقدر مـا كانـت موجهـة ضـد تيـار اعتبـر آنذاك من أخطر التيارات المناوئة للسلطة.

ومن جملة من سجنه علي بن يوسف: محمد بـن خلـف اللخمـي بعـد أن غرَّبـه من الأندلس وقد كتب اللخمي فـي سـجنه بمـراكش مجموعـاً فـي التصوف فرغ منه آخر رمضان عام 529هـ/ 1134م[1].

بالإضافة إلى الخلفية المذهبيـة، يُمكـن إرجـاع تـوتر العلاقـات بـين المتصوفة والسلطة المرابطية فـي غضـون القـرن السـادس الهجري/الثـاني عشـر المـيلادي إلـى الأوضـاع الاجتماعيـة والاقتصـادية والسياسـية المتدهورة، فالصوفية مـا كـان لهـم أن ينتقـدوا السـلطة إلاّ لأنَّ الأوضـاع بلغت حداً لا يُطاق، ومن جانبهم أصـبح المرابطـون متوجسـين الخطـر مـن الصوفية، خاصة وأنهم عايشوا عن قرب ثورة المريـدين فـي الأنـدلس بقيـادة الصوفي أحمد بـين الحسـين بـن القسـي، التـي انـدلعت سـنة 539هـ/ 1144م، ولم تنطفئ إلا في العهد الموحدي[2]، والتي جـاءت فـي الواقـع كـرد فعل على تدهور الأوضاع العامة للأندلس تحـت حكـم المـرابطين، وبالتـالي باتوا يتخوفون من احتمـالات قيـام ثـورات مماثلـة فـي المغـرب الأوسـط يتزعمها الصوفية، وارتابت الحكومة المرابطية فـي المريـدين وخشـيت علـى سلطانها، لذلك أمعنت فـي مـراقبتهم وملاحقـتهم، حتـى لجـأ بعضـهم إلـى أماكن منعزلة عن عيون السلطة القائمة[3] .

ويـُمكن تفسير امتحان السلطة المرابطية لـبعض أهـل التصـوف إلـى تخوفهـا من أن يكون هؤلاء أدعياءَ مغرضـين، واقتصـار هـذه الامتحانـات

---

1 – ابن عبد الملك، المصدر السابـق، ج:06، ص: 182 .

2 – ابن الأبار، الحلة السيراء، ج:2، ص: 198.

3 – عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، **تاريخ المغرب والأندلس**، الطبعـة 01، مكتبـة نهضـة الشـرق، القاهرة، مصر، 1990م، ص: 262.

على الصوفية الخارجين عن حدود المغرب الأقصى – مركز السلطة – يدلنا على حسن نية الأمراء المرابطين الذين لم يكونوا يمتحنون إلا من لم يكونوا على بينة من حاله، على أن التصوف المغربي كان لا يزال إذ ذاك سنيا و كان أهله بعيدين عن روح التفلسف[1].

ويلاحظ أن السلطة المرابطية استهدفت صوفية الأندلس لاعتبارين أساسيين:

أحدهما: أنهم شكَّلوا في العقود الأولى من القرن السادس الهجري قوة حقيقية مهيكلة ومنظمة، كانت تقف على النقيض من توجهات الدولة المرابطية على المستوى الفكري والعقائدي.

ثانيًا: الأثر الفلسفي الإشراقي الذي ميَّز بعض أعلامه مثل: أبي الحكم بن برجان الذي كان يُشكل استمرارًا لمدرسة ابن مسرة المعروفة بنزعتها الإشراقية وإن كانت بشكلٍ أخف، فقد رأى أمراء وفقهاء العصر المرابطي في هذا الاتجاه تهديدا مباشرا لوحدة الأندلس التي لم تعد تحتمل تمزقا فكريا أو منهجيا.

ولم تكتف السلطة المرابطية بسياسة التغريب والمطاردة، فعَمدت إلى وسيلة ثانية تمثلت في قطع الشرايين التي تُغذي هذا الصوفي، يدل على ذلك حرقهم كتاب "إحياء علوم الدين" لامتصاص الشحنة الصوفية التي حملها الإحياء إلى المغرب.

ويُشكلُ إحراق كتاب الإحياء للغزالي معلماً جوهريا في العلاقات بين الدولة والمتصوفة، وهو حدث يطرح المشكل في إطاره السياسي والديني، فقد حصل الإحراق في عهد أميرين هما علي بن يوسف وابنه تاشفين وقد اُشتهرا بورعهما وسلوكهما الصالح ، وبرِّهما

---

1 – عبد العزيز بنعبد الله، **معلمة التصوف الإسلامي**، الطبعة 01، دار المعرفة، الرباط، المغرب، 2001م، ص:80.

بالأولياء وزيارة مقاماتهم وسعيهم في ذلك والاعتناء بأحوالهم[1] وهو ما استدلَّ به من جعل إحراق الإحياء قراراً سياسياً قبل كل شيء ويخضع لمنطق المصالح العليا للدولة[2].

ومن المؤكد تعدُّد العوامل التي أدَّت إلى إحراق هذا الكتاب، حيث أنها متداخلة ومتنوعة إلا أنه يبقى البُعد الصوفي الأهم والأقوى في تعجيل عملية الإحراق على رأي كثير من الباحثين[3].

فالإحياء تضمَّن الدعوة إلى الانعزال في وقتٍ كان المسلمون في حاجة إلى من يحمسهم للجهاد ضد الصلبيين الذين كانوا يتربصون بالمسلمين في الشرق والغرب، وما تضمنه الكتاب من التعلق بالروحانيات المثالية يضرب ثوابت الحكام والأمراء مما دفعهم إلى إصدار قرار الحرق[4].

وبالتالي تطابقت آراء الفقهاء مع توجهات الدولة إزاء كتاب الإحياء كما يدل عليه كلام الفقيه القاضي ابن حمدين الذي " كان يحط على الإمام أبي الغزالي في طريقة التصوف وألف في الرد عليه "[5]، أما القاضي عياض بن موسى" تـ 544هـ/1149م فكان له رد على الإحياء أيضا إذ

---

1 – التادلي، المصدر السابق، 145 – 152 – 138 .

2 – محمد فتحة، **النوازل الفقهية والمجتمع : أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن 6 – 9 هـ / 12 – 15 م)**، منشورات كلية الأداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، 1999م، ص : 174 .

3 – صالح الشامي، الإمام الغزالي، مرجع سابق، ص: 71 ، 74. وجمال علال البختي، الحضور الصوفي، ص: 59 مشاطرًا لرأي عبد المجيد الصغير، في دراسته : **البعد السياسي في نقد القاضي ابن العربي لتصوف الغزالي**، ضمن كتاب: أبو حامد الغزالي: دراسات في فكره وعصره، نشرة كلية الآداب في الرباط، ص: 173 و184.

4 – محمد اليعقوبي البدراوي، إحراق كتاب الإحياء في المغرب الإسلامي، **مجلة المنهل المغربية**، العدد: 06، السنة 401، رجب 1397هـ/ جويلية 1977م، ص: 314 . وجمال علال البختي ، الحضور الصوفي، ص: 58 .

5 – الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج: 19 ، ص: 422.

يقول: "والشيخ أبو حامد ذو الأنباء الشنيعة، والتصانيف الفظيعة، غلا في طريقةِ التصوُّفِ، وتجرَّد لنصر مذهبهم، وصار داعيةً في ذلك، وألَّف فيه تواليفه المشهورة -(أي: الإحياء)- أُخذ عليه فيها مواضعُ، وساءتْ به ظنونُ أمَّةٍ، والله أعلم بسرِّه، ونَفَذ أمرُ السلطان عندنا وفتوى الفقهاء بإحراقها والبعد عنها فامتُثِل لذلك"[1] .

وكان لأبي بكر الطرطوشي ت525هـ/1130م مواقف عملية وقولية في الرد على الصوفية[2]، وله في هذا السياق رسالة تعكس موقف الفقهاء المرابطين من كتاب الإحياء، بعث بها الطرطوشي إلى " ابن المظفر" في هذا الموضوع، ومنها قوله متحدثاً عن الغزالي: " فلما عمل كتابه سماه إحياء علوم الدين كمن يتكلم في علوم الأحوال ومرامز الصوفية، وكان غير أنيس بها، ولا خبير بمعرفتها، فسقط على أم رأسه، فلا في علماء المسلمين قر، ولا في أحوال الزاهدين استقر، ثم شحن كتابه بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا أعلم كتابا على وجه بسيط الأرض أكثر كذبا على الرسول منه، ثم شبكه بمذاهب الفلاسفة، ورموز الحلاج، ومعاني رسائل إخوان الصفا " [3] .

ويتضح هذا أكثر في قوله مخاطبا ابن المظفر: " فأما ما ذكرت من أمر الغزالي، فرأيت الرجل، وكلمته، فرأيته رجلا من أهل العلم قد نهضت به فضائله، واجتمع فيه العقل والفهم وممارسة العلوم طول زمانه،

---

1 – الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج:19، ص: 327 .

2 - محمد الجوير، **جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري في الرد على الصوفية**، الطبعة 01، مكتبة الرشيد، الرياض، السعودية، 1424هـ/ 2003م، ص:585 – 590.

3 – انظر: عبد الوهاب السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي، الطبعة: 02، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الجيزة، مصر، 1413هـ/1992 م، ج:6، ص:252، القاهرة، 1324هـ/1906م، ووردت الرسالة أيضا في : الونشريسي، المعيار، ج:12، ص: 186و187.

ثم بدا له الانصراف عن طريــق العلمــاء، ودخــل فــي غمــار العمــال، ثــم تصوف فهجر العلوم وأهلها، ودخل فــي علــوم الخــواطر وأربــاب القلــوب، ووساوس الشيطان..." [1] .

فهذا تنكبٌ واضح –فــي رأي الطرطوشــي– عــن طريــق العلمــاء ومسالكهم، وأما الأمر الثاني فيتعلق باتهام الغزالــي بالكــذب علــى رســول الله صلى الله عليه وسلم، بسبب ما تضمنه كتابه مــن أحاديــث موضــوعية، وقــد عزا ذلك إلى قلة بضاعة الغزالي في ميدان الحــديث النبــوي، حيــث يقــول : "إلا أن الرجل لم يتعمد منهــا كلمــة إن شــاء الله، وإنمــا نقــل مــن كتــب لا معرفة له بها " [2] .

وانتقد الفقيه المالكي أبو بكر بن العربــي الإشــبيلي تــــ543هـــــ/1148م الفكر الصوفي لشيخه وأستاذه أبو حامد الغزالــي، حيــث عبَّــر ابــن العربــي إدانته الصريحة لفكرة الأستاذ واتهمه بالسقوط فــي أحضــان الفكــر البــاطني[3] المتعارض مع مقتضيــات التصوف السني ولا شـــك إن موقفــه هــذا يمثــل الموقف الــرسمي لدولة المرابطيــن[4].

فآراء علماء المغرب في الإمام الغزالي وكتابــه الإحيــاء هــي آراء تتفــق جميعها في أن دخول الإمام الغزالي ميــدان التصــوف وضــعه فــي موضــع مُحــرج[5] .

---

1 – الونشريسي، المعيار ، ج:6، ص: 252.

2 – انظر مقال : محمد المنوني، إحياء علوم الــدين فــي منظــور الغــرب الإســلامي أيــام المــرابطين والموحدين، **حوليات كليــة الآداب**، عــين الشــق، الــدار البيضــاء، العــدد: 03 الســنة : 1986. ص : 156 نقلا عن كتاب "الأسرار والعبر" للطرطوشي، وهو فــي حكــم الكتــب المفقــودة، ولــم يــورد منــه الأستاذ المنوني سوى بعض فقرات المدخل.

3 – ابن تيمية، عن درء تعارض العقل والنقل، ج:1، ص:5 .

4 – البختي جمال علال، مرجع سابق، ص، ص ،56،57،58،60.

5 – إبراهيم التهامي، جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة والجماعة، ص:611.

وتتدرج ردود الفقهاء على كتاب الإحياء ضمن إطار السياسة المرابطية المنتهجة لمواجهة المدّ الصوفي الفلسفي، حيث رأت التحالف مع علماء المالكية في محاصرة التصوف الفلسفي فكريًا وتسفيه أقطابه وتفويت الفرصة عليهم، وهو ما عبَّر عنه أحد الباحثين بنشر السنة وتشجيع من اشتغل بها[1]، باعتبار أن التصوف المُواجَه يحمل إنحرافا عقيديا.

وكان الفقهاء عند ظنّ السلطة، بل يمكن القول أن السلطة كانت أسبق للاستجابة إلى عزيمة الفقهاء، وكان التعويل في ذلك على فقهاء الأندلس المالكية، فقد ذكر ابن بشكوال أن فقهاء ألمرية هم من تولى الإنكار على ابن العريف، وسفهوا آراءهُ وأنكروا مذهبه، وسعوا به إلى الأمير المرابطي وحذروه منه ومن رجاله، فما كان من الأمير علي ابن تاشفين إلا أن أمر بإشخاصه إليه مع محمد بن الحسين الميورقي من غرناطة وابن برجان من إشبيلية وكانوا نمطا واحدا في الإنتحال فسُيروا جميعا الى مراكش ليُراقبوا عن كثب وحتى يكونوا بعيدين عن مريديهم[2] .

أما أبو بكر بن العربي فلم تشفع عنده علاقته المميزة مع الغزالي، فهي علاقة تلمذة زادتها توثقا السفارة السياسية التي صاحب فيه أبو بكر ابن العربي والده لبلاد الشرق سنة 485هـ/1092م[3]، رغم هذه العلاقة العلمية والأخوية فإن ابن العربي في كتابه العواصم من القواصم تهجم على الغزالي وتصوفه فقال " كان أبو حامد تاجا في هامة الليالي، وعقد في علية المعالي، حتى أوغل في التصوف، وأكثر معهم التصرف، فخرج

---

1 – إبراهيم التهامي، جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة والجماعة، ص : 558 .

2– ابن الأبار، المعجم، ص: 18، 22 .

3 – طاهر المعموري، **الغزالي وعلماء المغرب**، الدار التونسية للنشر، تونس، 1990م، ص: 63 و64.

عن الحقيقة وحاد في أكثر أحوالــه عــن الطريقــة، وجــاء بألفــاظ لا تطــاق ومعان ليس لها مع الشــريعة انتظــام ولا اتســاق، فــوا حســرتي عليــه، أي شخص أفسد من ذاته وأي علم خلط منــه مفرداتــه[1]، واعتبــر أن الغزالــي قــد خلط تصوفه بأقوال الفلاسفة وغــلاة الباطنيــة والمبتدعــة، "واعتمــد منــاهج الصوفية في التأويل، فدعا إلــى الــذوق والخلــوة، فتــرك التأويــل الشــرعي المقبول إلى التأويل الذي يتنافى مع أصول الشريعة ومعانيها" [2].

بالإضافة إلى ابن العربي والقاضي عيــاض وأبــو بكــر الطرطوشــي، أغلظ – بعدهم– الفقيه أبــو عبــد الله الحفــار الغرناطـــي الــذي قــال عــن المتصوفة : " إنَّ فسدتهم فشت في الحصــون والقــرى، واســتخلفهم الشــيطان لحل عرى الإسلام" [3] .

ويــرى الباحــث الطــاهر بونــابي أن الفقهــاء هــم مــن اســتنجدوا بالسلطة، فلم يتــورع الفقهــاء فــي الاســتنجاد بالســلطة فــي مواجهــة تيــار الغزاليين، وبغض النظر عن الخلفيات التي انطلق منهــا الفقهــاء فــإن جــوهر الصراع أعمق إذ يتعلق بالاختلاف مــن حيــث الاختصــاص، فبينمــا اخــتص الفقهاء بالفتاوى والأحكام العامة فــي العبــادات والمعــاملات، تميــز الصــوفية بالمجاهدات ومحاسبة النفس والكلام في الأذواق[4].

ونقل لنا التادلي صورة تعكس تــذمر الــرأي العــام الفقهــي والسياســي على التصوف وأهله، من خلال الطريقة التي عُومــل بهــا ابــن برجــان مــن

---

1 – ابن العربي، **العواصم من القواصم**، تحقيق محمد جميــل غــازي، الطبعــة: 02، بيــروت، لبنــان، دار الجيل، 1405هـ/، ج:2،ص:101، ومصطفى باحو، المرجع السابق، ص: 60-61 .

2 – انظر : مقال "لماذا أحرق كتاب الإحيــاء"، عبــد القــادر العافيــة، **مجلــة دعــوة الحــق**، الســنة : 1974، العدد: 7، ص:175-177.

3 – الونشريسي، المعيــار، ج:11، ص: 41 و42 و 162 و 163 . وعصــمت عبــد اللطيــف دنــدش، المرجع السابق، ص:48 .

4 – الطاهر بونابي، المرجع السابق، ص: 212.

طرف السلطة، إذ يقول : " ولما أشخص أبو الحكم ابن برجان من قرطبة إلى حضرة مراكش سُئل عن مسائل عيبت عليه فأخرجها على ما تحتمله من التأويل، فانفصل على ما ألزم من النقد، وقال أبو الحكم: والله لا عشت ولا عاش الذي أشخصني بعد موتي، يعني السلطان، فمات أبو الحكم، فأمر السلطان أن يُطرح على المزبلة ولا يُصلى عليه، وقلد فيه من تكلم فيه من الفقهاء[1].

إنَّ مما يُلاحظ أن الفكر الصوفي – لاسيما الباطني منه – تولى مقاومته في الغرب الإسلامي المرابطي الفقهاء بالتحالف مع السلطة بخلاف مناطق أخرى وفترات أخرى في تاريخ العالم الإسلامي حيث تولى ذلك الفقهاء فقط، لذا كانت قوة المقاومة أشد بخلاف مقاومة الفقهاء المقتصرة فقط على الردود والمصنفات.

يُمكن القول أن التصوف المغربي قبل العصر الموحدي كان زهدًا وتعبداً وتقشفًا أكثر من كونه تفلسفاً وتأملاً، في حين اغترفت المدرسة الصوفية الأندلسية من مَعين الفكر الإشراقي الغنوصي وسلكت طريق التأويل الباطني وغرقت في بحر الرموز والإشارات، وعليه تباينت مواقف السلطة المرابطية والفقهاء المالكية إزاء التصوف في العدوتين، ففي الوقت الذي سجلنا فيه ارتياحا للسلطة السياسية والفقهية إزاء التصوف المغربي وتأييدا وانخراطا فيه أحيانا أخرى، سجلنا في نفس الوقت مواقف المعارضة والإشخاص والمطاردة للتصوف الفلسفي الذي شاع في الأندلس .

1 – التادلي، المصدر السابق، ص: 170 .

وفي نهاية هذا الفصل التمهيدي يُمكن القول في جملة واحدة أن الوضع المذهبي خلال العصر المرابطي كان معتقد مالك وفقهه وسلوكه، فهي دولة الإمام مالك التي قيَّضها الله تعالى لنشر علم هذا الرجل في هذه المنطقة من العالم الإسلامي، وعليه قام فقهاء المالكية – بتفويضٍ من السلطة المرابطية – بتأطير المجتمع المرابطي تأطيراً عقائدياً وفقهياً وسلوكياً.

الباب الأول:

التحولات العقيدية في الغرب الإسلامي وموقف السلطة والفقهاء منها(6هـ – 8 هـ / 12 م – 14 م):

- **الفصل الأول : تراجع معتقد أهل الحديث في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي (6هـ – 8 هـ/ 12م – 14م):**

- **المبحث الأول:** عودة نزعات باطنية، شيعية، وخارجية في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي .
- المطلب الأول: تقرير العقيدة التومرتية لأفكار شيعة وباطنية (المهدوية،الإمامة،العصمة،الغيبيات، الجفر).
- المطلب الثاني : تبني العقيدة التومرتية لأفكار خارجية (التكفير، التساهل في الدماء، التلقب بالخلافة).
- **المبحث الثاني:** سيادة المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي .
- المطلب الأول: دور السلطة الموحدية في ترسيم المذهب الأشعري.
- المطلب الثاني: العقيدة التومرتية نهاية العصر الموحدي وموقف الفقهاء منها.

الفصـــــــل الأول:

تراجع معتقد أهل الحديث في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي

(6هـــ – 8 هــ/ 12م – 14م).

لم يشهد المغرب الإسلامي في عصـــر المـــرابطين تنوعـــاً مـــذهبياً كالذي كان في المشرق الإسلامي، فالفكر العقدي المغربـــي – كمـــا مـــرَّ بنـــا– كان يتمثَّل في معتقد أهل السنة في صورته السلفية، القـــائم علـــى الإيمـــان بمـــا ثبت لله تعالى من صفات دون تشـــبيه أو تعطيـــل أو تكييـــف، ومنـــافرة علـــوم الكلام والتأويل والفلسفة، وحـــب آل البيـــت ومـــوالاتهم دون مغـــالاة أو تشـــيع، والولاء للخلافة العباسية وعدم منازعة الأمر أهله[1].

ولم تسلم هذه القواعد الأساسية مـــن الـــنقض فـــي عصـــر الموحـــدين الذين رفعوا رايـــة إيديولوجيـــة استهـــــدفوا مـــن خلالهـــا الإطاحـــة بالدولـــة المرابطية، وأتوا على كثيـــر مـــن أصـــولها العقيديـــة، ممـــا جعـــل الدارســـين والبـــاحثين يُوسِـــمون الحركـــة الموحديـــة بالنَّزعـــة الخارجيـــة، ولا يبرِّؤهـــا آخرون من النَّزعة الشيعية والباطنية، في حـــين أثبتـــوا لهـــا النَّزعـــة الكلاميـــة الفلسفية والعقيدة الأشعرية .

1 – أنظر هذه الأصول (أصول عقيدة أهل الحديث) : عبـــد الوهـــاب بـــن علـــي بـــن نصـــر البغـــدادي، **شرح عقيدة الإمام مالك الصغير أبي محمد عبد الله بن أبـــي زيـــد القيروانـــي**، الطبعـــة 01، دار الكتـــب العلمية، بيـــروت، لبنـــان، 1423هـــــ/2002م، ص:20، 24، 30. وأبـــو عثمـــان الصـــابوني، عقيـــدة السلف وأصحاب الحديث، مصدر سابق، ص:16، 22، 65، 78 ،80، 100.

<u>المبحث الأول</u> : عودة نزعات باطنية، شيعية، وخارجية في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي.

أشارت بعض المصادر القديمة والدراسات الحديثة إلى عودة بعض الأفكار الشيعية والباطنية والخارجية -بداية العصر الموحدي- إلى المشهد العقيدي في الغرب الإسلامي مجتمعةً في شكل عقيدة انتقائية اصطلح عليها عدد من الباحثين بالعقيدة التومرتية[1]، وهو ما أشار إليه السلاوي ت 1319 هـ/1901م في قوله " فبعد أن طهَّرهُ الله -أي المغرب- من فرقة الخارجية والرافضة ثانياً، أقاموا على مذهب أهل السنة والجماعة مقلّدين للجمهور من السلف في الإيمان بالمتشابه وعدم التعرُّض له بالتأويل مع التنزيه عن الظاهر، وهو والله أحسن المذاهب وأفضلها، واستمر الحال على ذلك مدة إلى أن ظهر ابن تومرت مهدي الموحدين"[2].

---

1 - المغراوي محمد، **<u>العلماء والصلحاء والسلطة بالمغرب والأندلس في عصر الموحدين</u>**، رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط، تحت إشراف الأستاذين: عز الدين عمر موسى، وأحمد توفيق، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1423هـ/ 2002م، ص : 40. ويقول عبد الله علام: إن دعوة بن تومرت قد تأثرت بآراء كثير من الفرق والمذاهب فهي ليست أشعرية بحتة، وليست معتزلية تقوم على الأدلة العقلية وحدها، وليست خارجية كما ظنها علماء المرابطين، وهي أيضاً ليست رافضية في كل اتجاهاتها، بل هي مزيج مضطرب من أغلب الفرق والمذاهب الإسلامية ولهذا فإنه يبدو من المقبول أن يطلق عليها العقيدة التومرتية، وذلك لتميزها عن كل المذاهب السابقة بمنهج مستقل.أنظر: عبدالله علي علام،**<u>الدّعوة الموحّديّة بالمغرب</u>**، دار المعرفة، القاهرة، مصر، 1964م، ص: 151.

2 - السلاوي، المصدر السابق، ج : 1، ص: 63 .

المطلـــب الأول: تقرير العقيدة التومرتية لأفكـــار شيعيـــة وبـاطنيـــة:

في دراستـــنا للتحول العقيدي الذي شهده الغـــرب الإســـلامي مـــع بدايـــة العصر الموحـــدي، ســـننطلق مـــن النزعـــة الباطنيـــة التـــي ميـــزت حركـــة ابن تومرت.

فقد تناقلت المصادر أن المهدي كان قد اطّلع علـــى كتـــاب يُســـمَّى "الجفـــر"[1] من علوم أهل البيت عثر عليه عند الإمـــام أبـــي حامـــد الغزالـــي تـــــ505هـــــ/ 1111م[2]، وأنه رأى فيه صفة رجـــلٍ مـــن ذريـــة رســـول الله صـــلى الله عليـــه وسلم يظهـــر بـــالمغرب الأقصـــى بمكـــــانٍ يُســـمى الســـوس، يـــدعو إلـــى الله ويكون مقامه ومـــدفـــنه بموضـــع مـــن المغـــرب يســـمى باســـم هجـــاء حروفـــه "ت ي ن م ل ل"[3]، كنايـــة على نفســـه أنه المُهـــــيَّأ مـــن قِبـــلِ الله تعـــالى لهـــذه المهمة[4]، ورأى فيه أيضا أن استقامة ذلك الأمر وتمكنـــه يكـــون علـــى يـــد رجـــل

---

1 – الجفر علم من علوم أهل الباطن يُبحث فيه عن الحروف من حيـــث دلالاتهـــا علـــى أحـــداث العـــالم، أنظر: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، **المعجم الوســـيط**، إشـــراف: إبـــراهيم مصـــطفى،أحمد الزيات،حامـــد عبد القادر، محمـــد النجـــار، دار الـــدعوة، القـــاهرة، مصـــر، د.ت.ط، ج:1، ص: 126. وقـــد أصـــطلح الجفر على كتاب يزعم الإمامية أن جعفر الصادق رحمه الله كتـــب فيـــه علـــم مـــا ســـيقع لأهـــل البيـــت على العموم ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص كل ما يحتـــاجون إليـــه، وكـــل مـــا ســـيقع ويكـــون إلى يوم القيامة، وكان مكتوبا عنده فـــي جلـــد مـــاعز، فكتبـــه عنـــه هـــارون بـــن ســـعيد العجلـــي رأس الزيدية، وسماه الجفر باسم الجلد الذي كُتب فيـــه، أنظـــر: الصـــفدي، الـــوافي بالوفيـــات، ج:4، ص:28، الذهبي، سير أعلام النبلاء للذهبي، ج: 19، ص: 542. وابن خلدون، المقدمة، ص: 312.

2 – أشار ابن أبي زرع وغيره إلى أنه وجد الجفـــر عنـــد الغزالـــي، أنظـــر: ابـــن أبـــي زرع، **الأنـــيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغـــرب وتـــاريخ مدينـــة فـــاس**، صـــور للطباعـــة والنشـــر، الرباط، المغرب، 1972م، ص: 172. بينما يقول المراكشـــي أنـــه فـــي " بعـــض خـــزائن خلفـــاء بنـــي العباس "، المراكشي، المعجب، ص:137.

3 – ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج:6، ص: 204.

4 – ابن خلكان، المصدر السابق، ج: 5 ص : 48. والسبكي، طبقات الشافعية، ج: 4 ص: 71 .

من أصحابه هجاء اسمـــــه "ع ب د م و م ن"[1]، و يجــاوز وقتــه المئــة الخامســة للهجرة، " فأوقع الله سبحانه في نفسه أنه القائم بهــذا الأمــر وأن أوانــه قــد أزف، فما كان محمد يمر بموضـــع إلا ويســأل عنـــه، ولا يـــرى أحـــدا إلا أخـــذ اســـمه وتفقَّد حليته"[2]، وذكر ابن أبي زرع أن ابـــن تـــومرت لمـــا أيقـــن بـــالموت دعـــا عبد المؤمن فأوصاه بمـــا أحـــب وأوصـــاه بإخوانـــه خيـــرا، وأعطـــاه كتـــاب الجفر[3].

هذه النصوص توحي لنا بمكانة كتـــاب الجفـــر فـــي نفســـية ابـــن تـــومرت وأتباعه، وكيف به يؤسس لحركته في المغرب ويصـــطنع رجالـــه علـــى هَـــدْي هذا الكتـــاب[4].

وعلم الجفـــر كمـــا يـــُـعرِّفـــــه أهلـــه " علـــم مكاشـــفة القلـــوب بأسرار علاَّم الغيوب"[5]، ولا يحظى به عندهم إلا من كـــان " فـــي حـــال تجـــرده من القيود الكونية، وغيبته عن نفسه وحسه، غيبـــة هـــي عـــين الحضـــور فـــي حضرة السر والنور، فترجم به لســـانه بيانـــه، كاشـــفا الأســـتار عـــن غيـــوب

---

1 – اليافعي، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفـــة مـــا يعتبـــر مـــن حـــوادث الزمـــان**، الطبعـــة 01، وضـــع حواشـــيه: خليـــل المنصـــور، بيـــروت، لبنـــان،1417 هـــ / 1997 م، ج:3 ،ص:179. وابـــن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج:3، ص:179 .

2 – السلاوي، الاستقصا، ج2، ص : 74 . وأنظر: إقرار ابن القطان بـــورود إســـم عبـــد المـــؤمن فـــي الجفر قبل أن يولد، نظم الجمان: ص: 180 ، وابـــن القطـــان مـــن مـــؤرخي الـــبلاط الموحـــدي، تـــوفي منتصف القرن 7هـ/ 13م. أنظر عنه تقـــديم محمـــود علـــي مكـــي محقـــق كتـــب نظـــم الجمـــان لابـــن القطان، ص:26.

3 – ابن أبي زرع الفاسي، روض القرطاس، ص : 180 .

4 – أنظـــــر : الســـــلاوي، المـصـــــدر الســـابـــــق، ج: 01، ص: 81. و ابـــــن ابـــــي زرع، المـصـــــدر الســـابـــــق، ص: 180 . و ابـــن تيميـــة، **بغيـــة المرتـــاد فـــي الـــرد علـــى المتفلســـفة والقرامطة والباطنية**، تحقيق موسى سليمان الدويش، الطبعـــة 01، مكتبـــة العلـــوم والحكـــم، 1408هـــ/ 1987م، ص : 321 .

5– السيد محمد ماضي أبو العزم، **الجفرهو علـــم الغيـــب الـــذي يكشـــف للأنبيـــاء معجـــزة وللأوليـــاء كرامة**، دار الكتاب الصوفي، الطبعة الثالثة، 1411هـ/1990م، ص:09 .

الأسرار، بالإشارة إلى قالب العبارة، لتطمئن قلوب أهل الإيمان بما سيؤول إليه أمر القرآن"[1].

ومن علوم الباطنية ورموزها التي نُسبت إلى ابن تومرت في المصادر"خط الرمل" الذي برع فيه ابن تومرت حتى وُصف بأنه "أوحد عصره في خط الرمل"[2] "حاذقاً في ضرب الرمل" [3] "بارعا فيه" [4]، وقد عزا المؤرخون ذلك إلى اطّلاعه على كتاب الجفر[5] إبَّان تواجده بالمشرق[6] ووقوفه على ما تضمَّنته حروفه ومعانيه من رموز[7].

وخط الرمل الذي كان ابن تومرت أوحد عصره فيه صناعةٌ استنبطها أصحابها من التنجيم يزعمون أنهم يستبطنون فيها أخبار الغيب ومستقبل الأحداث[8]، وفي هذا الصدد تُورد المصادر أن المهدي تنبَّأ بموعد وفاته لرؤيا أخبر بها[9]، فصدقت نبوؤته في ذلك[10].

---

1 – نفسه، ص: 4.

2 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 265 .

3 – الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج:2، ص: 422.

4 – الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج: 19 ، ص: 547.

5 – ابن خلدون، العبر، ج:3، ص: 179.

6 – الملزوزي عبد العزيز، **نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك**، المطبعة الملكية، المغرب، 1963م، ص: 53 . و يقول في أرجوزته بصدد كتاب الجفر الذي يكون قد حصل عليه ابن تومرت :

وقد حاز كتاب الجفر * من الفقيه ذي العلوم الجبر

7 – ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج:5 ، ص: 47 و 48 .

8 –ابن خلدون، المقدمة، ج:1، ص:411. ابن بية، أثر العلماء في سياسة الدولة المرابطية، ص:209، وأحمد إسماعيل المقدم، **المهدي**، الطبعة 08، الدار العالمية للنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر، 1424هـ/ 2003م، ص: 416 .

9 – ابن أبي زرع الفاسي، روض القرطاس، ص: 180.

10 – البيذق، المصدر السابق، ص: 43 .

ومن علوم الباطنية التي نُسبت إلى ابن تومرت-أيضا- في المصادر علم الحِدثان[1]، وعلم الحدثان -بكسر الحاء- أو "حساب الجُمل" أو "علم الحرف" هو علم يجمع بين الأعداد والأرقام ويختصر الأرقام بالحروف وفق قواعد يُدركها أهل الكهانة والتنجيم[2].

ومن الغريب ما ينقله مؤرخ الدولة المرينية إسماعيل بن الأحمر من أن الغزالي "خلا بالمهدي وعلمه التوقيت والتعديل والهيأة والخواص والأعشاب والتدبير والمعادن والأشكال والخط والطب والحكمة وصناعة الجدول والطلاسم وسر الحروف وعلم الحدثان وسائر علوم السحر، فجمع عليه تلك الفنون وأمره بالمسير إلى المغرب والقيام به" [3]، ولعل عداء ابن الأحمر للدولة الموحدية جعله يتقوَّل ذلك رغم ما عُرف عن الغزالي من شدة عدائه للباطنية[4]، فمع كوننا نعتقد أن ابن تومرت كان له حظ من علوم الباطنية إلا أننا نستبعد تماما أن يكون قد اكتسبها على يد الغزالي.

ويُخبرنا لسان الدين بن الخطيب ت776هـ/1374م أن ابن تومرت كان "يزعمُ أنَّه مأمورٌ بنوعٍ من الوحي والإلهام ويُنكر كتب الرأي والتقليد

---

1 - إسماعيل ابن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، ص:34، والحسن اليوسي، المحاضرات في اللغة والأدب، ص:56، والمراكشي، المعجب، ص: 183، وابن القطان،المصدر السابق، ص:172.

2 - اعتبره ابن تيمية من العلوم التي انتقلت إلى المسلمين من اليهود، ابن تيمية تقي الدين أبو العباس، **مجموع الفتاوى**، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، 416هـ/1995م، ج:4 ،ص :82.

3 - ابن الأحمر، المصدر السابق، ص: 34 .

4 - أنظر كتابه الذي صنفه للرد على الباطنية: أبو حامد الغزالي، **فضائح الباطنية**، تحقيق: عبد الرحمان بدوي، مؤسسة دار الكتاب الثقافية، الكويت، د.ت.ط.

وله باع في علم الكلام ... وكــان ينتحــل القضـــايا الإســـتقبالية ويشـــير إلـــى الكوائن الآتية" [1].

فأساس العقيدة الباطنية وجوهرهــا التأويــل والاعتقــاد فـــي الغيبيـــات، فقد كان المهدي يقول لأتباعه " لـــو شـــئت لعـــددت خلفـــاءكم خليفـــة خليفـــة"[2]، وذكر ذلك البيذق بشيء من الفخر والإعتزاز والثقة المطلقـــة.

مما يُـــعزِّزُ هــذا الانطبـــاع أن ابـــن تـــومرت – مؤســـس المـــذهب الموحدي– تبنَّى التأويل المنكر علـــى رأي الباطنيـــة حيـــث، أخبـــر أتباعـــه أن المرابطين هم المقصودون في الحديث "صنفان من أهـــل النـــار لـــم أرهمـــا... قوم معهم سياط كأذناب البقر يضـــربون بهـــا النـــاس ..."[3]، والتأويـــل المنكـــر من أبرز سلاح الباطنيـــة، لـــدعواهم أن لظـــواهر القـــرآن والأخبـــار بـــواطن وغرضهم من ذلك تحريف العقائد والشرائع بما يخدم أهدافهم[4].

---

1 – ابن الخطيب في **رقم الحلل فـــي نظـــم الـــدول**، المطبعـــة العمومـــة، تـــونس، 1316هـــ/ 1898م، ص: 57.

2 – البيذق أبي بكر الصنهاجي، **أخبار المهدي بن تـــومرت** ، تحقيـــق عبـــد الحميـــد حاجيـــات، الشـــركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1396 هـ/ 1975م، ص : 17 .

3 – ابن تومرت، أعـــز مـــا يطلـــب، ص: 387. و ابـــن أبـــي زرع الفاســـي، روض القرطـــاس، ص: 182 .

4– أنظر: أبو حامد محمد بن محمـــد الغزالـــي الطوســـي، **فضـــائح الباطنيـــة**، تحقيـــق: عبـــد الـــرحمن بـــدوي، الكويـــت، مؤسســـة دار الكتـــب الثقافيـــة، ص: 53و54، و أبـــو الحســـن الأشـــعري، **مقـــالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، تحقيـــق: نعـــيم زرزور، الطبعـــة 01، المكتبـــة العصـــرية، 1426هـــــ / 2005م، ج:2، ص: 357. وأنظر : محمد حسن بخيت، **أثر التأويـــل فـــي ظهـــور الفـــرق**، بحـــث مقـــدم للمؤتمر العلمي الدولي :"النص بين التحليل والتأويل والتلقي" الـــذي تنظمـــه جامعـــة الأقصـــى – غـــزة – فلسطين،1427هـ/2006م، ص : 10 و11.

ولا يستبعد بعض الباحثين أن يكون ابن تومرت قد انخرط في إحدى التيارات الباطنية أثناء إقامته الطويلة في المشرق[1]، وقد تتأيّد هذه الدّعوى الأخيرة بما ذكره المؤرّخون المشارقة من أنّه في أيّام الخليفة العبّاسيّ المستظهر بالله (487-512هـ/ 1093م- 1118م) -وهو ما يوافق وجود ابن تومرت في المشرق- "غلت الأقطار بالباطنيّة"[2]، وتفاقم أمرهم حتّى "استولوا على المعاقل والحصون"[3]، وانتشر التنجيم حتى إن الخلفاء والسلاطين كانوا لا يحاربُون إلا بمشورة المنجمين[4].

ويبقى غياب المادة التاريخية المتعلّقة بإقامة ابن تومرت في المشرق يُؤجّل الإجابة عن كثيرٍ من الجوانب المجهولة في شخصية ابن تومرت، إلاّ أنّ المراكشي يُخبرنا في كتابه المعجب عن ابن تومرت أنه "وقع بالمشرق على ملاحم من عمل المنجمين وجُفُور من بعض خزائن خلفاء بني العباس،أوصله إلى ذلك كله فرط اعتنائه بهذا الشأن، وما كان يحدث به نفسه" [5] .

---

1 - ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، مرجع سابق، ص:267. وأنظر : لخضر محمد بولطيف، **فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي**، الطبعة 01، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، 1429هـ/2009م، ص: 122.

2 - الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج:19، ص: 403.

3 - ابن طباطبا محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، تحقيق: عبد القادر محمد مايو، الطبعة 01، دار القلم العربي، بيروت، لبنان، 1418هـ/1997م، ص: 288.

4 - الذهبي، تاريخ الإسلام، ج: 16، ص: 395. وضياء الدين بن الأثير، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق:أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، مصر، ج:3، ص: 103.

5 - المراكشي، المصدر السابق، ص: 244.

ولا يخفى على أذهاننا ونحن نتأمل هذا النص أن صاحبه مغربي عاصر الدولة الموحدية وصنَّف كتابه ذاك في المشرق الإسلامي مما يـُضفي عليه مصداقية أكثر .

ووجد ابن تومرت في أتباعه قلوباً متعلقةً بتلك الغيبيات، وكما شهد جماعة من المؤرخين والجغرافيين على سكان منطقة سوس بالغلظة والشدة فقد شهدوا لهم أيضا بالسذاجة والتعلُّق بالباطن وتصديق الغيبيات[1]، وتـُعرف السوس ومراكش في العالم الإسلامي بأنها " البلاد التي أختيرت للسحرة والمشعوذين ... بربر جفاة خشون في مظهرهم، كما يعتبر أهل الجنوب أساتذة علم العرافة والتنجيم والقوى الخفية"[2].

وتناهى لدى المستشرق ألفرد بل أن أتباع ابن تومرت لم يفهموا من دعوته إلا أن ابن تومرت هو الوريث المستحق للمعارف المستورة التي أورثها النبي صلى الله عليه سلم نفسه لعلي بن أبي طالب –أول الأئمة عند الشيعة– والمنسوب إليه الجفر[3] .

ونتلمَّس وجود الأثر الباطني بوضوح في البلاط الموحدي بعد ابن تومرت في القصيدة التي مدح بها الشاعر أبي حفص الأغماتي السُلمي

---

1 – روى أبو عبيد البكري الأندلسي ثم القرطبي في كتابه الموسوم بـ "المسالك والممالك" قال: أهديت إلى الإسكندر فرس ببعض بلاد الغرب لم تلد الخيل أسبق منها، لم يكن فيها عيب إلا أنها لم يسمع لها صهيل قط، فلما حل الإسكندر في تطوافه بجبال دَرَن، وهي بلاد المصامدة، وشربت تلك الفرس من مياهها، صهلت صهلة اصطكت منها الجبال، فكتب الإسكندر إلى الحكيم يخبره بذلك، فكتب إليه: إنها بلاد شر وقسوة، فعجِّل الخروج منها، المراكشي، المعجب، ص: 255.

2 – ليفي بروفنسال، **الإسلام في المغرب والأندلس**، ترجمة: السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 1990م، ص : 256 .

3 – ألفرد بل، المرجع السابق، ص: 267 .

تــ604هـ/ 1207م[1] الخليفة أبا يعقوب يوسـف ابـن عبـد المـومن، والتـي افتتحها بقوله:

الله حسبك والسبع الحواميـم * تحـوي بها سبعة وهـي الأقاليم

سبع المثاني التي لله قمت بهـا * عليك من سـرها معنـى وتقديـم

وأنت بالسور السبع الطوال على * كل الـورى حـاكم بالله محكـوم

وسبعة الشهب لم تحفل بها ثقة * بوعـد ربـك هيـهات التناجيـم

نسمو بنفس على السبع الشـداد * سمت فينا وثـم لها زلفى وتحكيـم[2].

وقد وقف الأستاذ عبد الله كنـون عنـد هـذه "السـبعيات"، وأكـد أن لهـا خصوصية الباطنية لاسيما عنـد الشـيعة الإسـماعيلية بالخصـوص، إذ العـدد "السبعة" يعتمد عليه هذا المذهب اعتمـادا كليـا ويعتبـره سـرا مـن أسـراره الباطنية، إذ عليه يبتون مـذهبهم القائـل بـأن هنـاك سـبع فتـرات للأنبيـاء والرسل: آدم، نوح، إبراهيم، موسى، عيسـى، محمـد(عليهم الصـلاة وسـلام) ومحمد بن إسماعيل (المنسوب إليه المذهب) كمـا يزعمـون، وبـين كـل نبـي فترة، يملؤها سبعة من الأئمة [3].

ويعتقد الباطنية فـي ذلـك "السـبعية" ظـاهرا وباطنـا، وفرعـوا عليهـا فروعا، وكانت أسئلتهم: لم خلق الله السموات والأرض فـي سـبعة أيـام؟، لـم جعل الله السموات سبعا طباقا؟، لم جعل الله الأرض مـثلهن سـبعا؟، لـم جعـل

---

1 – ابن عمر أبو حفص عمرو بن عبد الله بن محمد بن عبـد الله بـن عمـرو السـلمي الأغمـاتي(530 – 604هـ / 1135 – 1207 م) ، وولد بأغمات وسكن مدينـة فـاس ولـذلك نُـسب إليهـا أحيانـا، توفي بإشبيلية وهو يتولى قضاءها .أنظر : الذهبي، تاريخ الإسلام، ج:43 ، ص: 125.

2 – أبو العباس المقري، **أزهـار الريـاض فـي أخبـار القاضـي عيـاض**، تحقيـق: مصـطفى السـقا، إبراهيم، عبد العظيم شلبي، مطبعة لجنـة التـأليف والترجمـة والنشـر، القـاهرة، مصـر، 1358هــ/ 1939م، ج:2، ص: 362.

3 – محمد بن تاويت، مبـادئ التشـيع فـي الأدب الموحـدي، **دعـوة الحـق**، السـنة 08، العـدد 04، مارس، 1965، ص:91.

لجنهم سبعة أبواب؟، لم جعل الله المثاني من القرآن سبعا؟ لم جعل في عنق الإنسان سبع فقرات؟ [1].

ثم يضيف الباحث تأكيداً آخر إذ يقول وقصة المهدوية و«السبعية» عرفها المغرب قبل الموحدين بنيف وأربعة قرون من خلال الدعوة البرغواطية الباطنية، حينما فارق صالح بن طريف المغرب عام 128هـ/745م، كان فيما وعد به أنه يرجع إلى المغرب في دولة "السابع" من أبنائه، وأنه المهدي الذي يقاتل الدجال، وأن عيسى سيكون من جنده، ويصلي خلفه، فلما كانت دولة السابع منهم وهو اليسع بن إسماعيل، في منتصف القرن 5هـ/ 11م جعل ينتظر ظهور جده صالح في حماس وإيمانٍ بالغ[2].

فالسبعية والغيبيات والتأويل الباطني بالإضافة إلى الجفر وخط الرمل والحِدثان كلها تقوم شواهد عل الحضور الباطني في المعتقد التومرتي الذي تبنته الدولة الموحدية –في بداية أمرها – كبديل عن معتقد أهل الحديث.

وغير بعيد عن النزعة الباطنية التي تلمسناها في الحركة الموحدية، فإننا نتلمس نزعة أخرى تأتي على قواعد مذهب أهل الحديث، وتُناقضه في أهم أُسسه، وهي النزعة الشيعية التي تبرز –جليا– من خلال الثالوث الموحدي المتمثل في : المهدوية، الإمامة، العصمة، وهي ثلاثية تطرح العديد من التساؤلات .

بتتبع سيرة ابن تومرت يتبيَّن للباحث أن فكرة المهدوية راودت ابن تومرت قبل أن تتقوى شوكته، وبدأ يلوح في أذهان أصحابه فكرة المهدي

---

1 – ويجزم الباحث أن «السبعية» في شعر أبي حفص السلمي تقوم على فكرةٍ شيعيةٍ باطنيةٍ محضة . أنظر: محمد بن تاويت، مبادئ التشيع في الأدب الموحدي، ص:91.

2 – نفسه.

منذ بواكير دعوته ويقول لهم"إنما الله إله واحد والرسول حق والمهدي حق والخليفة حق، فاقرؤا حديث أبوداود[1] تعرفوا الأمر"[2]، و"جعل يذكر المهدي ويشوّق إليه، وجمع الأحاديث التي جاءت فيه من المصنّفات، فلمّا قرّر في نفوسهم فضيلة المهدي ونسبه ونعته، ادّعى ذلك لنفسه " [3].

قال ابن تومرت في فصلٍ يتعلق بكيفية معرفة المهدي: " يُعرف المهدي رضي الله عنه بستة أشياء: الحسب، والنسب، والزمان، والمكان، والقول، والفعل، فأما الحسب فحسب حزب الموحدي، وأما النسب فإنه من ذرية فاطمة، وأما الزمان فيأتي في آخر الزمان، وأما المكان فالمكان الذي قام منه، وأما القول فإنه قال: أنا المهدي، قال عبد المؤمن: وهو صادق في قوله، وأما الفعل فإنه يفتح الدنيا شرقها وغربها "[4] .

والملاحظ أن فقه ابن تومرت في شأن المهدية خليط من الآيات والأحاديث الضعيفة جمعها الرجل لتحقيق حاجةٍ في نفسه، مما خلق خلافا بين الباحثين في طبيعتها وصبغتها وانتشارها.

فقد أثارت المهدويّة التومرتيّة من الجدل بين المؤرّخين قديما والباحثين حول ما إذا كانت تنهل من معين الفكر الشّيعي، أم أنها لا تخرج

---

1 –حديث : " المهدي من عترتي، من ولد فاطمة" حديث صحيح، من رواية علي رضي الله تعالى عنه. أنظر: أبو داود، **سنن أبي داود**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ج:4، ص: 107 . وعبد المحسن بن العباد البدر، عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر، المدينة المنورة، السعودية، **مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة**، السنة 01، العدد 03، ذو القعدة 388هـ/شباط 1969م، ص: 137.وأنظر سعي ابن القطان لتقرير أن ابن تومرت المقصود بالحديث، نظم الجمان، ص: 111 و112.

2 – البيذق، أخبار المهدي، ص : 42 .

3 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 254.

4 – ابن تومرت، **أعز ما يطلب**، تحقيق: عبد الغني أبو العزم، مؤسسة الغني للنشر، المغرب، د.ت.ط، ص:400. ومجموع "أعز ما يُطلب" كان بإملاءٍ من الخلفية عبد المؤمن عن ابن تومرت.

عن دائرة المقرّرات السنيّة، وهل هي عقيدة لا تنفك عن المعتقد التومرتي الموحدي، أم أنها إجراء سياسي مؤقت.

إن المهدي في معتقد أهل الحديث لا يعدو أن يكون رجلا من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم، واسمه مثل اسمه[1]، و هو ما سعى إلى تقريره ابن تومرت وأتباعه، لكن ابن تومرت قرن مهدويته بالعصمة، وهو عين معتقد الشيعة الإمامية[2]، فجدَّد ابن تومرت هذه المفاهيم العقيدية الشيعية في المفكرة العقيدية المغربية.

فنجد أن ابن تومرت قد جدَّد – بطرحه هذا – تلك المفاهيم العقيدية الشيعية في المفكرة العقيدية المغربية بعد أن خفت صوتها بزوال دولة العبيديين.

ولا يجد الباحث غير هذه القراءات للإجابة عن كثير من الإشكاليات التي تُثار حول ابن تومرت ومُعتقده، لأننا لا نجد في أمهات المصادر إلا خلافاً أشدّ، فقد ذهب عبد الواحد المرّاكشي إلى أنَّ ابن تومرت "كان يُبطن شيئا من التّشيّع، غير أنّه لم يُظهر منه إلى العامّة شيئا" [3]، وابن خلدون برَّأه من التشيع لولا أنه "كان من رأيه القول بعصمة الإمام على رأي الإماميّة من الشّيعة"[4]، وبعد المراكشي وقبل ابن خلدون كان

---

1 – ابن تيمية، **جامع المسائل لابن تيمية**، تحقيق ودراسة: محمد عزير شمس، الطبعة 01، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، 1422هـ/ 2001م، ج:3، ص: 99. ومنهاج السنة النبوية، تحقيق : محمد رشاد سالم، الطبعة:01، مؤسسة قرطبة، 1406هـ/ 1985م .ج:1، ص:80.

2 – أبو المظفر طاهر بن محمد الأسفراييني، **التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين**، تحقيق:كمال يوسف الحوت، الطبعة 01، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1403هـ / 1983م، ص: 31، 37، 38. والبغدادي، الفرق بين الفرق، ص: 17. وابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج:4، ص: 138. وأحمد إسماعيل المقدم، المرجع السابق، ص: 409.

3 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 141.

4 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج:6، ص: 302.

الإمام الشاطبي تــ790هــ/1387م قد جعــل مهدويـــة ابـــن تـــومرت شـــيعية عقيدية محضة لأنها "ثالثـــة الشهادة، فمن لم يُـــؤمن بهـــا أو شـــكَّ فيهـــا، فهـــو كافر كسائر الكفار، وشرع القتل في مواضع لـــم يضـــعه الشـــرع فيهـــا، وهـــي نحو من ثمانية عشر موضعا"[1].

ويرى عبد المجيد النجار – في رؤية توفيقيـــة – أن مهدويـــة ابـــن تـــومرت سياسية وليست بالعقيدية إذ " كـــان الوجـــه السياســـي أغلـــب فيهـــا وأظهـــر"، إلاَّ أنها لم تلبث أن " حلَّت في نفوس الأتباع محلَّ الاعتقاد "[2].

وفي محاولة للتوفيق بـــين مهدويـــة أهـــل الســـنة ومهدويـــة الشيعـــــة – أيضا– جعل أحد الباحثين مهدوية ابـــن تـــومرت شـــيعيةً تقتـــرب كثيـــرا مـــن الزيدية[3] باعتباره يُقرُّ بخلافـــة الشـــيخين ويأخـــذ بالأحاديـــث المرويـــة عـــن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها[4].

وتبقى مهدوية ابن تومرت مهدويـــة خاصـــة لا يُمكـــن إســـقاطها علـــى المهدوية الشيعية لافتقارها إلى عنصر الرجعة بعد الغيبـــة والتـــي تعنـــي عنـــد الشيعة الإمامية شخص بعينه يختفي زمناً مع بقائه علـــى قيـــد الحيـــاة بمعجـــزة إلاهية ثم يعود ليكون المهدي المخلص، كما تختلف عـــن المهدويـــة عنـــد أهـــل السنة والجماعة في كونه معصوما والإيمان بـــه واجـــب عقيـــدي يترتـــب عـــن نـــُكرانه خلل عقيدي قد يكون مُخرجاً مـــن الملـــــَّة بـــل الشـــكَّ فيـــه سبيـــــلٌ إلـــى الكفـــر.

---

1 – الشاطبي، الاعتصام، ص: 326 .

2 – عبد المجيد النجار، ابن تومرت، ص: 402 .

3 – أنظر مقدمة كتاب: **لباب العقول في الرد على الفلاسفة فـــي علـــم الأصـــول**، أبـــي الحجـــاج يوســـف بن محمد المكلاتي، تحقيق وتقديم: فوقية حسين محمـــود، الطبعـــة 01، دار الأنصـــار، القـــاهرة، مصـــر، 1977م، ص: 40 .

4 – أنظر : ناصر بن عبد الله بن علي القفاري، **مسألة التقريـــب بـــين أهـــل الســـنة والشـــيعة**، الطبعـــة 03، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1428هــ/2006م، ج:2، ص: 53.

ومهما اعتقدنا براءة الحركة التومرتية من النزعة الشيعية فإنه من الخطأ ما اعتقده بعض الباحثين من أن ابن تومرت "رجل مُصلح ثوري، أراد أن يُعيد للإسلام جدته وقوته عن طريق المهدوية والإمامة"[1] .

وعموما أكانت مهدوية ابن تومرت من صميم المذهب الشيعي أو قريب منها فإنها في الأخير أخلَّت ببساطة وسلامة المعتقد السنِّي في المغرب الإسلامي، أسهم في ذلك حب المغاربة القوي وتعلقهم الشديد بآل البيت.

وقد ساعدت ذهنية سكان المغرب الإسلامي المتعلقة بالخوارق والغيبيات على نجاح فكرة المهدوية والعصمة التي أشاعها ابن تومرت، فقد عدَّ ابن خلدون –الذي خَبَرَ ذهنية أهل المغرب– أن من خصائصهم "وقوع الخوارق فيهم وظهور الكاملين في النّوع الإنساني من أشخاصهم" [2] ولعلّه كان من أقوى الأسباب الباعثة على اكتسابهم الاستعداد للالتفاف حول مُدَّعي المهدويّة.

وأشار الباحث شوقي ضيف إلى مظهرٍ آخر يعكس الأثر الشيعي في فكر ابن تومرت، فإلى جانب المهدية والإمامة والعصمة اقتبس المهدي ابن تومرت من الفاطميين أساسًا تنظيميًا، وهو أساس غير عقيدي استضاء فيه بما وضعه الفاطميون في مصر لدولتهم الشيعية، حيث كان نظامهم قائم على رأسه الإمام الخليفة، وتحته الحجج، وهم اثنا عشر، ويتبعهم النقباء وهم أربعة وعشرون، والدعاة وهم يُعدون بالعشرات، ولم يأخذ ابن

---

1 – انظر: عبد الهادي الحسيسن، **مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور الموحدي**، طبع اللجنة المشتركة المغربية الإمارتية، 1982م،ج:1، ص:173. يقول الدكتور أحمد إسماعيل المقدم في نهاية بحثه عن المهدي ما نصُّه: " والحاصل أن حركة ابن تومرت لا يمكن وصفها بالحركة الإصلاحية، لأنَّها كانت حركة غلب عليها الإفساد والتدمير، وكانت أبعد ما تكون عن معالم المنهاج النبوي"، أنظر: المقدم، المهدي، ص:426.

2 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج:6، ص: 138.

تومرت النظام الفاطمي بطبقاته، بل نقّحه ونظمه بصورة أدق، فجعل الإمام المهدي أو خلفاؤه على رأس النظام، ويتبعه مجلس استشاري يُعرف بالجماعة يتكون من مريديه العشرة السابقين إلى اعتناق دعوته، وأضاف إليهم جماعة الطلبة أو ما يُعرفون بالدعاة[1].

واجتهد عبد المؤمن في توريث هذا المعتقد بين عامة الموحدين وخاصتهم، فكان يبعث للولاة نُسخاً من تآليف المهدي وخاصة كتاب أعز ما يطلب يأمرهم باتباعه والتقيُّد به، ففيه " الملاذ والمعاذ وعليه الاعتماد والاستناد وإليه المرجع والمفزع ....فمن عانده أو خالفه أو ضاده...فقد حاق به الردى، فالانقياد به لما يقضي به واجب والاستمساك بأمره حتم والرجوع إليه في أمر الدين والدنيا فرض لأن قضاءه وأمره هو قضاء ربه وإرادته وحكمه"[2].

وأصبحت علوم المهدي هي علوم الخلافة والبلاط[3] التي تهدف إلى إنتاج وإعادة إنتاج الرعية المطيعة " للخلافة المهدية القويمة " [1] .

ورغم اشتغاله بالحروب فإن عبد المؤمن لم يدَّخر جهداً في تكريس المنهج العقدي التومرتي، فكان يقوم بنفسه بإملاء علوم المهدي، ويستدعي العلماء ويُملي عليهم سياسة الدولة الفكرية ويُجري عليهم الأرزاق ويُعظّم من شأنهم، وجعل عبد المؤمن مهمة الطلبة التفرغ لتقرير سلامة وصحة معتقد المهدي، فقد استقدم النجباء من صغار المغرب

---

1 – شوقي ضيف، **من المشرق والمغرب: بحوث في الأدب**، الطبعة 01، الدار المصرية اللبنانية لكتاب، القاهرة، مصر، 1419هـ/ 1998م، ص: 138 و139.

2 – من رسالة عبد المؤمن لأهل بجاية، أنظر: **مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية**، تحقيق: لافي بروفانصال، الرباط، المغرب،المطبعة الإقتصادية لصاحبها مصطفى بن عبد الله، 1941، ص: 135 .

3 – عبد الملك ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، تحقيق: عبد الهادي التازي، الطبعة 03، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1987م، ص: 160 و 161 .

والأندلس لحفظ القرآن وكتب التوحيد وكتاب أعز مـا يطلـب وصـحيح مسـلم وغيرها وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف حافظ[2] .

ومجموع النصوص القريبة من عهد المهـدي تعكـس الإيمـان العميـق بهذه العقيدة، من ذلك ما تتصدر به الرسـائل الموحديـة مـن الترضـي علـى "الإمـام المعصـوم مـن المـَـبنات والـزلاَّت المهـدي المعلـوم بصـحيح الدلالاتت وثبوت العلامات"[3] .

ودأبت الرسائل السلطانية الموحديـة فـي افتتاحياتهـا علـى التصـريح بعصمة المهدي وإمامتـه والترضـي عليـه بـذلك، فممـا جـاء فـي رسـالة الفصول المؤمنية[4] الموجَّهـة إلـى دعـاة الموحـدين وطلبـتهم التأكيـد علـى الإيمان بهذه العقيدة والعمل على نشـرها وترسـيخها بـين النـاس، جـاء فـي مطلعها بعد الثناء على الله تعـالى والصـلاة والسـلام علـى نبيـه" ونواصـل الرضا عن الإمام المعصـوم، المهـدي المعلـوم، القـائم بـأمر الله تعـالى"[5]، والذي جاء –حسب نـص الرسـالة– " فـي حـين الفتـرة، وشـمول الحيـرة، وارتفاع العلم، وحلول الجهـل، وانبسـاط الجَـوْر، وانقبـاض العـدل، وتملـك الهمَج الرَّعاع، واتباع الهوى المُضل"[6].

---

1 – ابن القطان المراكشي، نظم الجمان، ص : 221 .

2 – وكان من إشبيلية وحدها خمسون صبيا. أنظـر: ابن القطان، نظم الجمان، ص: 178 و179.

3 – **رسائل موحدية – مجموعة جديـدة**، تحقيـق ودراسـة: أحمـد عـزاوي، المغـرب، الطبعـة 01، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، 1416هـ/1995م، ج:1، ص:179 .

4 – وهي رسالة طويلة جامعة لأنواع من المبادئ والأوامر والـنظم الموحديـة: كتبهـا أبـو جعفـر بـن عطية عن أمير المؤمنين عبد المومن بن علـي إلـى أهـل (بجايـة) يوصـيهم بإقامـة الحـدود، وحفـظ الشرائع، وإظهار الحق، مؤرخة في الثالـث مـن شـهر ربيـع الأول سـنة 556 هــ.أنظـر: لايفـي بروفانصال، رسائل موحدية، ص: 126، الرسالة رقم: 23.

5 – لايفي بروفانصال، رسائل موحدية، ص: 126.

6 – نفســه، ص: 126. وأنظر مطلع رسالة الفصول المؤمنية، ص: 126.

وبـتتبـّعنا للتَّـرضي علـى المهـدي فـي الرسـائل الموحديـة نجدها تُـظهر بقاء تقديس المهدي وعلومـه حتـى زمـن المنصـور الـذي عُرف عنه إنكاره أمر المهدوية سـرّاً[1]، كمـا تكشـف لنـا تلـك الرسـائل تواصل الرضى على المهـدي المعصـوم فـي عهـد الخليفـة الموحـدي الرابع الناصر بن يعقـوب تـ600هـ/1203م[2].

وعكف فقهـاء ومؤرِّخـو الدولـة الموحديـة علـى تقريـر فضـائل المهدي ووجوب الاعتقاد فيه، منها كتاب "فضائل المهـدي" الـذي حُفـظ اسـمه وغاب رسمه، نقل عنه كل من البيـذق[3] وابـن القطـان المراكشـي المتوفـى منتصف القرن7هـ/13م[4] .

كما نقل ابن القطـان أن الروايـات التـي تُبشِّـر بالمهـدي ابـن تـومرت وخليفته عبد المؤمن موجودة في كتب أخرى شـيعية مثـل : يحـي بـن زيـد، وكتاب القاسم الأكبر وكتاب النصر لإدريس بن إدريس[5].

وتفنَّـن أبو بكر الصـنهاجي المكنـى بالبيـذق المتـوفى أواخـر القـرن 6هـ/12م وابن القطان المراكشي فـي إحصـاء كرامـات المهـدي[6]، وحـرَّر أحد فقهاء الموحدين رسالة "الكافية فـي بـراهين الإمـام المهـدي رضـي الله

---

1 – أحمد عـزاوي، رسـائل موحديـة، ج:2، ص:173. والرسـالة رقـم: 40 ص : 191 وص:193 . وجاء الترضـي والتقـديس فـي ملحـق الرسـالة : ص : 196 و 197 . ج:2 ص : 201، والرسـالة رقم:47 .

2 – أحمد عزاوي، رسائل موحدية، ج:2ص : 229 ، ص: 324، وص : 268.

3 – البيذق، **المقتبس من كتاب الأنساب**، الرباط ، دار المنصور، 1971 م، ص : 28 – 29 .

4 – ابن القطان، نظم الجمان، ص:62 – ص:180 .

5 – نفسه، ص: 180 و 181 . وهذه الكتب مفقودة على حد علمنا.

6 – أنظر مثلاً: ابن القطان، نظم الجمان، ص: 180 وما بعدها.

تعالى عنه عقلا ونقلا " أوردها ابـن القطـان كاملـة[1]، كمـا كـان للفيلسـوف ابن رشد الحفيد تــ 595هــ/1198م شرح على عقيدة المهدي[2].

فـالملاحظ أن المهدويـة مثلـت حجـر الزاويـة فـي العقيـدة الموحدية، إذ أن "قوة الموحدين كلهـا وُلـدت سـنة 515هــ/1198م عنـدما بايع الموحدون بن تـومرت مهـديا .... ثـم لعبـت المشـيخة دورهـا الهـام وتقاسم الدور معهم الطلبة فقـد أُحيطـوا بهالـة مـن التقـديس جعلـت النـاس يؤمنون حقا بالمذهب التومرتي"[3] .

أما الإمامة في العقيـدة الموحديـة فإنهـا تبتعـد مـرة أخـرى عـن أصول أهل الحديث التي كانـت راسـخة فـي المغـرب المرابطـي، إذ يعتبـر ابن تومرت الإمامة أحد أركـان الـدين لأنهـا " عُمـدةٌ مـن عُمَـدِ الشـريعة ولا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بوجوب الاعتقـاد فـي الإمامـة [4] وكـل مـن لا يـؤمن بالإمامـة فهـو " كـافر أو جاحـد أو منـافق أو زائـغ أو مبتـدع أو مارق"[5]، فارتقى بالإمامة من الفـرع إلـى الأصـل بخـلاف المعتـاد مـن الكلام السُنِّي، إذ أنَّ " النظر في الإمامة عند أهل السـنة لـيس مـن المهمَّـات، وليس أيضا " من فن المعقولات (بمعنـى أنـه لـيس مـن العقائـد) بـل مـن

1 – ابن القطان، نظم الجمان، ص: 101 – 122 .

2 – هذا الكتاب :شرح عقيدة المهدي: يُوجد منه مخطوط في مكتبـة الأسـكوريال بأسـبانيا تحـت رقـم: 879. أنظر: محي الدين عطية، ابن رشد: قائمـة ورقيـة ممـا كتبـه وكـُتب عنـه، **مجلـة إسـلامية المعرفة** ، السنة 05، العـدد 17 ، 1420هــ/1999م، ص: 179. وأنـظر: إرنسـت رينـان، **ابـن رشد و الرشدية**، نقله إلـى العربيـة: عـادل زعيتـر، القـاهرة، مصـر، دار إحيـاء الكتـب العربيـة، 1957م، ص : 87.

3 – عبد الواحد المراكشي (منسوب إليـه)، **وثـائق المـرابطين والموحـدين**، تحقيـق حسـين مـؤنس، الطبعة 01، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1997م، ص: 210.

4 – ابن تـومرت، أعز ما يُطلب، ص: 297.

5 – نفسه، ص: 236.

الفقهيات، بل إنَّها مثار للتعصبات، والمُعرض عن الخوض فيها أسلم من الخائض فيها وإن أصاب، فكيف إذا أخطأ ؟"[1].

ونلحظ هنا اقتراب العقيدة التومرتية الشديد إلى حد التطابق مع العقيدة الإمامية التي تنصُّ على أنَّ " الإمامة أصل من أصول الدين لا يتمُّ الإيمان إلا بالاعتقاد بها ... بل يجب النظر فيه كما يجب النظر في التوحيد والنبوة [2]، والمعروف أن الإمامية يجعلونها من أركان الإسلام فهم ينسبون إلى الإمام جعفر الصادق قوله: "بني الإسلام على خمس: الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية" [3]، وهو ما راح يُقرِّره ابن تومرت في خُطبه ورسائله.

بينما الإمامة عند أهل السنة في أسمى معانيها الخلافة، وبذلك كان الإمام رجل من المسلمين يُختار ليُدير الأمور الدينية والدنيوية[4]، أما عند الشيعة فهي ركن من أركان الدين حتى نُعتوا بالشيعة الإمامية[5] لفرط اعتنائهم بهذه القضية الفروعية.

ويقترب أكثر مفهوم الإمامة عند ابن تومرت بما هي عند الشيعة حين يقرن وجوبها وركنيتها مع عصمة الإمام، إذ يقول ابن تومرت: "ولا يصحُّ قيام الحق في الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمامة في كل زمان من الأزمان إلى أن تقوم الساعة ... ولا يكون الإمام إلا معصوماً[6] من الباطل

---

1 – أبو حامد الغزالي، **الإقتصاد في الاعتقاد**، تحقيق: عبد الله محمد الخليلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424 هـ/ 2004 م، ص: 127.

2 – محمد رضا المظفر، **عقائد الإمامية**، مؤسسة البعثة، طهران، ص: 65 .

3 – محمد جواد مغنية، **الشيعة والتشيع**، مكتبة المدرسة، ودار لكتاب اللبناني، بيروت، د.ت.ط، ص :26 .

4 – ابن خلدون، المقدمة، ص: 82 .

5 – ابن ابى الحديد، **شرح نهج البلاغة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ج:2، ص: 486.

6 – المُلاحظ أن ابن تومرت ينسب العصمة أحيانا إلى المهدي و أحيانا أخرى إلى الإمام .

ليهدم الباطل...لأن الجائر لا يهدم الجور، بل يثبته، وأن يكون معصوماً من البدع، لأن المبتدع لا يهدم البدع بل يثبتها، وأن يكون معصوما من الكذب، لأن الكذاب لا يهدم الكذب بل يثبته، وأن يكون معصوماً من العمل بالجهل لأن الجاهل لا يهدم الجهل، وأن يكون معصوماً من الباطل لأن المبطل لا يهدم الباطل[1].

ولم يُحدد ابن تومرت معنى العصمة كما فعل في الإمامة بل اكتفى بضرورة توافرها في الإمام كمرادف للعلم المقابل للجهل، وكمرادف للعدل المقابل للظلم، مما فتح الجدال مرة أخرى حول طبيعة الإمامة المقرونة بالعصمة التي شكلت أحد أركان المذهب الموحدي، وهل تمثل في الفكر الموحدي ركن عقيدي أم لا تعدو أن تكون توظيفا سياسيا مؤقتا؟، وفي دراسة الإمامة والعصمة التومرتية يجد الباحث نفسه يعود إلى ما أشكل عليه إزاء المهدوية من حيث كونها عقيدية أم سياسية ظرفية .

وقد اعتبر ابن تومرت نفسه إماماً من موكب الأئمة من لدن آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام بتفويض واختيارٍ من الله عز وجل[2]، لذا كان شعاره – أي ابن تومرت – : الواحد الله، محمد رسول الله، المهدي خليفة الله[3].

ويُعدُّ الشيعة الإمامية أساتذة في فلسفة عصمة الزعماء حيث أحاطوا الإمام بقدسية خاصة، إذ لايجوز الخروج عليه والتعقيب على رأي من آرائه لأنَّ " التعقيب في شئ من أحكامه كالمُعقِّب على الله ورسوله

---

1 – ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص: 297 .

2 – نفسه، ص: 297 – 299 .

3 – أنظر: عزالدين عمر موسى، **الموحدون في الغرب الإسلامي** ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص : 130 و141.

والرد عليه في صغيرة أو كبيرة علــى حــد الشــرك"[1]، وابــن تــومرت جمــع بين قدسية " المهدي المعلوم والإمام المعصوم"، وهـــي الصيغـــــة التـــي بقيــت مُـــتداولة بـــين الموحـــدين ودواليـــب الدولـــة حتـــى أيـــام إدريـــس المـــأمون (627هــ-630هــ/ 1229م-1232م)، وفســـر العصــمة بــأن الإمــام يكــون " معصوماً فيما دعا إليه مـــن الحـــق لا يجـــوز الخطـــأ فيـــه وأنـــه لا يُكَـــابَرْ ولا يُضَادْ ولا يُدَافعْ ولايُعَاندْ ولايُخالفْ ولا يُنازعْ "[2].

فالإيمان بالمهدي المعلوم والإمام المعصـــوم كـــان مـــن أركـــان العقيـــدة الموحدية وهو أبعد – على ما يبدو– مـــن أن يكـــون توظيفـــا سياســـياً مؤقتـــاً[3]، فابن خلدون تـــ 808هــ/1405م الذي دافع عـــن ُســـنِّية ابـــن تـــومرت ونفـــى عنه التشيُّع نجده يتحسَّر على زلَّه ابن تومرت بقولـــه " لـــم تُحفـــظ عليـــه فلتـــة إلا القول بالعصمة"[4]، ويعلّل ابن خلدون ذلـــك بقولـــه أنَّ ابـــن تـــومرت سُـــمِّي بالإمام لما في مذهب الشيعة من "ألقـــاب خلفـــائهم، وردف بالمعصـــوم إشـــارة إلى مذهبه فـــي عصـــمة الإمـــام وتنزهـــه عنـــد أتباعـــه ... أخـــذاً بمـــذاهب المتقدّمين من الشّيعة"[5].

ومع ذلك فيجب التنبُّه إلى أن العصـــمة عنـــد الشـــيعة مطلقـــةٌ كعصـــمة الأنبياء أو أكثر[6]، وبالعودة إلى كـــلام ابـــن تـــومرت نفســـه يـــُــــمكن الحكـــم بتطابق العصمة في مفهومه مع العصمة لـــدى الشـــيعة، إلاَّ أنـــه يُمكـــن حملهـــا

---

1 – الكليني أبو جعفر محمد بن يعقوب الرازي، **الكـافي فـي أصـول الـدين**، الطبعــة 03، دار الكتــب الاسلامية مرتضى آخوندى تهران – بازار ســلطاني، البــاب الرابــع: "أن الائمــة هــم أركــان الارض"، ج:1، ص: 169 .

2 – أعز ما يطلب، ص: 297 – 299.

3 – أحمد العزاوي، ج:1، ص: 62.

4 – ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون، ج:6، ص:302.

5– ابن خلدون، المقدمة ص: 286.

6 – ابن تيمية، **جــامع الرســائل**، تحقيق:محمـــد رشـــاد ســـالم، الطبعـــة 01، دار العطـــاء، الريـــاض، السعودية، هــ 1421هــ/ 2001م، ص: 260 . ومنهاج السنة، مصدر سابق، ج:4، ص: 521 .

– بناء على كلامه دائما – العصمة من "الضلال والفساد والظلم والبدع والكذب والعمل بالجهل والباطل"[1] .

ومن كلام ابن تومرت حول الإمامة يُفهمُ أنَّ " معناها الاتّباع والاقتداء، والسّمع والطّاعة، والتّسليم وامتثال الأمر، واجتناب النّهي، والأخذ بسنّة الإمام في القليل والكثير"[2] مما يُعطي لها الصبغة العلمية التي تعني ضرورة الاقتداء والاهتداء به.

ومما يُعلّل رأي من ذهب إلى أنَّ عصمة ابن تومرت سياسية أو لغوية لا علاقة لها بالمعتقد ما أورده الفقيه والمؤرخ الموحدي ابن القطان من أنَّ المقصود بالعصمة هو الحفظ والحماية من الأذى الذي كان الحكام والناس يريدون إلحاقه به بسبب أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر[3]، منها عصمته من الغرق لما رمى به أهل المركب في البحر، ونجاته من شر علي بن يحي بن تميم صاحب المهدية لما همَّ به[4]، وبناءً على ذلك اجتهد الباحث سعد زغلول في تقسيم العصمة التومرتية إلى قسمين عصمة من الخطر ثم عصمة من الخطأ : مرحلة العصمة من الخطر كما فسره ابن صاحب الصلاة والثانية العصمة من الخطأ[5].

ويرى النجار أن العصمة عند ابن تومرت " ليست إلا تعبيراً عن الشروط التي اشترطها أهل السنة والمعتزلة في الإمام ولكنَّه تعبيرٌ اكتسى

---

1 – ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص: 297 .

2 – نفسه، ص: 304.

3 – ابن القطان، نظم الجمان، ص:91 ،92 .

4 – نفسه.

5 – سعد زغلول عبد الحميد، **تاريخ المغرب العربي**، الإسكندرية، مصر، منشأة المعارف، 1990م، ج:5، ص:215.

صبغة الغلو بفعل القسوة فـي الأحــداث التــي أحاطــت بــابن تــومرت فــي دعوته" [1].

ولعلَّ ابــن تــومرت وهــو يطمــح لتحقيــق أهدافــه أضــفى الصــبغة السياسية ليُقــيم الســلطة علــى العصــمة ويضــمن بــذلك نجــاح مشــروعه الإصلاحي، وجــزم آخرون أن ابن تــومرت ذو موهبــة سياســية أكثــر مــن من كونها موهبــة علمية، وقد وضع كل مــا حصَّــله مــن علــمٍ فــي خدمــة غاياته السياســية[2]، خلافاً للدولــة المرابطيــة التــي كــان الأثــر الــديني فــي قيامها أقــوى من الأثــر السياســي[3].

ومما سبق يــُـمكن أن نضــيف – عــن اقتنــاع – النزعــة الشــيعية مــع النزعة الباطنية إلى التركيبة العقيديــة الموحديــة التــي رُفعــت كإيديولوجيــة للإطاحة بالمرابطين سياسيا ومذهبيا في الغرب الإســلامي.

المطلــب الثاني: تبني العقيــدة التومــرتية لأفكــار خــارجية .

في دراستنا للأسُس العقيديــة للدولــة الموحديــة الأوْلَــــى بنــا مساءلة المادة التاريخية عن طبيعة حركة محمــد ابــن تــومرت التــي أثمــرت قيام الدولة الموحديــة، وبالتــالي معالجتُنــا للطــرح الــذي يُبديــه كثيــر مــن الباحثين انطــلاقاً مــن اعتقــادهم بــأنَّ ابــن تــومرت طبــقَّ فــي حركتــه التغييريَّة منهجــاً يقترب إلى حد التطــابق مــع مــنهج الخــوارج القــائم علــى الثورة والعنف والتغير بــالقوة، والتكفيــر والتشــهير، والتســاهل فــي الــدماء، وعدم الاعتراف بالخلافــة الشرعيــــة القائمــة والتلقــب بلقــــب الخلافــــة ومنازعة الأمر أهلــه.

---

1 – عبد المجيد النجار، ابن تومرت، ص: 250 .

2 – حسين مؤنس، **معالم تاريخ المغرب والأندلس**، مكتبة الأسرة، القاهرة، مصر، ص:203 .

3 – حسن علي حسن، تاريخ الإسلام، ج:4، ص: 272.

إن المُـتتبع لحركة ابن تـومرت يجـده قـد انـتهج التغييـر بـالقوة والسيف[1]، وهو ما عبَّر عنه عبد المجيد النجـار فـي كتابـه" تجربـة إصـلاح" بأسلوب "الهـدم والبنـاء"[2].

فأسَّس ابن تومرت الجيـوش وجنَّـد الجنـود وقـاد الحـروب، وأسـس دولته على السيوف وبرك الدماء، ولـم يكـن هنـاك مجـال للعمـل الـدعوي بمفهوم الدعوة، وكل ما كان مـن شـأن ابـن تـومرت أن راسـل المـرابطين برسائل غلب عليها التهديد أكثر مـن النُصـح[3]، ففـي سـنة 517هـ/1123م جهَّز جيشًا عظيمًا من المصامدة، وقـال لهـم: " اقصـدوا هـؤلاء المارقيـن المبدلين الذين تسـموا بـالمرابطين، فـادعوهم إلـى إماتـة المنكـر، وإحيـاء المعروف، وإزالة البدع، والإقرار بالإمام المهـدي المعصـوم، فـإن أجـابوكم فهم إخوانكم، لهم ما لكم وعليهم مـا علـيكم، وإن لـم يفعلـوا فقـاتلوهم، فقـد أباحت لكم السنة قتالهم"[4].

واحترف ابن تـومرت التشـهير بـالمرابطين، ولـم يَسْـتثنِ عقيـدتهم ولا حكمهم ولا إدارتهم وحتى طريقـة لباسـهم[5]، وإذا كـان فـي كتـب أهـل الحديث أن مناصحة ولي الأمر بلا تحريض ولا تشـهير[6]، فـإن ابـن تـومرت

---

1 – أحمد إسماعيل المقدم، المرجع السابق، ص: 413. وعبد الحلـيم عـويس، **دراسـة لسـقوط ثلاثـين دولة إسلامية**، الطبعة 03، دار الوفاء، 1410هـ / 1989م، ص: 83.

2 – عبد المجيد النجار، **تجربة إصلاح في حركة المهدي بـن تـومرت**، الطبعـة 02، المعهـد العـالمي للفكـر الإسـلامي، فرجينيـا، الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، 1415هـ / 1995م، ص: 110. وهـو خلاف منهج التصفية والتربية الذي يؤمن به أهل الحديث، محمد ناصـر الـدين الألبـاني، **فقـه الواقـع**، الطبعة 01، دار الجلالين للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، 1412هـ/ 1992م، ص: 15.

3 – أحمد العزاوي، ج:1، ص: 43. وابن تومرت أعز ما يطلب، ص: 384 – 395 .

115 – المراكشي، المصدر السابق، ص:257.

5 – أنظر: ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص: 384 – 395 .

6 – قال القرطبي : "يعني إن الله تعالى كلف الـولاة العـدل وحسـن الرعايـة وكلـف المُـولى علـيهم الطاعة وحسن النصيحة فأراد انه إذا عصى الأمراء الله فـيكم ولـم يقومـوا بحقـوقكم، فـلا تعصـوا الله

لم يدَّخر جهداً في المجاهرة والمشـاهرة "مفسـقاً لأمـراء وقتـه"[1]، فقـد أنكـر على الأمير علي بن يوسف حين جمعـتهم صـلاة الجمعـة بمسـجد مـراكش، وكان من عادة المرابطين أن يتمثَّـلوا للأميـر وقوفـاً عنـد دخولـه المسـجد يوم الجمعة، إلا أن ابن تـومرت لازم مكانـه وخـالف مـن بالمسـجد، وبعـد الصلاة وعظ ابنُ تومرت الأميـرَ وأغلـظ لـه فـي القـول أمـام الحضـور وطالبه بتغيير المنكرات بـبلاده، فلـم يـُجبه وأمـر أن تـُقضى حاجتـه إن كانت له حاجة، فأجاب بأنه ليست له حاجة وما قصـد إلا تغييـر المنكـر[2]، وفـي رواية البيذق أنه خاطب الأمير بقوله "الخلافـة لله وليسـت لـك يـا علـي بـن يوسف" وأنه وصفه بالجـارية المنقبة (لأنه كـان يضـم اللثـام علـى وجهـه على عادة المرابطين)[3]، ولا نستبعد المبالغـة فـي هـذه الروايـة حالهـا حـال كثير من روايات البيذق.

أنتم فيهم وقوموا بحقوقهم فإن الله مجاز كل واحد مـن الفـريقين بمـا عمـل"، شـمس الـدين القرطبـي، **المفهم لما أشكل من كتاب تلخيص مسلم**، تحقيق: محي الـدين ديـب مسـتو – أحمـد محمـد السـيد – يوسف علي بـديوي – محمـود إبـراهيم بـزال، الطبعـة 01، دار ابـن كثيـر – دار الكلـم الطيـب، 1417هـ/1996م، ج:4، ص:55 . وقال الطحاوي: " ولا نـرى الخـروج علـى أئمتنـا وولاة أمورنـا وإن جاروا ولا ندعوا عليهم ولا ننزع يداً من طاعة ونرى طاعتهم فـي طاعـة الله عـز وجـل فريضـة ما لم يأمروا بمعصية ، و ندعوا لهم بالصلاح والمعافاة "، أنظر: صدر الـدين محمـد بـن عـلاء الـدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، **شرح العقيـدة الطحاويـة**، تحقيـق: شـعيب الأرنـؤوط – عبـد الله بن المحسـن التركـي، الطبعـة 10، دار الرسـالة، بيـروت، لبنـان، 1417هـ / 1997م، ج:2، ص: 540، وعـُمدة من قال بهذا استدلالهم بالحديث الصحيح الـذي يرويـه عيـاض بـن غـنم رضـي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مـن أراد أن ينصـح لـذي سـلطان فـلا يُبـده علانيـة وليأخذ بيده فيخلو به فإن قبل منه فذاك وإلا فقد أدى الذي عليـه " . الشـيباني أبـو بكـر بـن الضـحاك، **السنة**، تحقيـق: محمـد ناصـر الـدين الألبـاني، الطبعـة 01، المكتـب الإسـلامي، بيـروت، لبنـان، 1400هـ/ 1979م، ج: 2، ص: 521.

1 – ابن الخطيب في **رقم الحلل فـي نظـم الـدول**، المطبعـة العموميـة، 1316هـ ،1898م، تـونس، ص: 57.

2 – مجهول، الحلل الموشية، ص : 73.

3 – البيذق، أخبار المهدي، ص : 56 .

ونظرياً نجد أن ابن تومرت عَقَدَ عشرة أبواب في كتابه "أعز ما يُطلب" تناول فيها مثالب المرابطين ليسوِّغ بذلك الخروج عليهم فمنها باب فيما أحدثوه من المناكير والمغارم، وتقلبهم في السحت والحرام يأكلون فيه ويشربون، وفيه يغدون ويروحون، وتجسيمهم وكفرهم أكبر، وباب في تحريم معونتهم على ظلمهم، وتصديقهم على كذبهم، وباب في معرفة أتباعهم الذين أعانوهم على ظلمهم، وصدقوهم على كذبهم وبيان أفعالهم، وباب في وجوب مخالفتهم وتحريم الاقتداء بهم والتشبه بهم وتكثير سوادهم وحبهم...الخ[1]، فأخذ يُشنِّع على المرابطين ويدعوا لقتالهم، وألف رسائل لأجل ذلك منها رسالة في بيان طوائف من المبطلين من الملثمين والمجسمين ووجوب جهادهم، وردت في مجموع أعز ما يطلب[2]، ورسالة في غربة الإسلام والبشارة بانتصار الحق على الباطل، تشتمل على مجموعة أحاديث في هذا المعنى وردت ضمن مجموع أعز ما يُطلب أيضاً[3]، ورسالة أخرى مماثلة ذكرها بنصها صاحب الحلل الموشية[4] .

وقد يُفهم من كتابات ابن تومرت هذه وما تضمَّنته من لهجةٍ حادَّة أنَّه يقصد بكلامه أكفر أهل الأرض؟!، فقد كفَّر ابن تومرت في كتبه ورسائله تلك كل من لم يؤمن بما يقول ويعتنق ما يدعو إليه، واستباح دمه فقال بكفر دولة المرابطين ووجوب جهادها كجهاد الروم والمجوس[5]، فكان يؤكد ذلك ويكرره في مؤلفاته بهدف تأصيل هذا المبدأ في نفوس أصحابه، ومما جاء في إحدى رسائله إلى أصحابه "اجتهدوا في جهاد الكفرة الملثمين، فجهادهم أعظم من جهاد الروم وسائر الكفرة بأضعاف

---

1 – ابن تومرت أعز ما يطلب، ص: 384 – 395 .

2 – نفسه ، ص : 255 – 266 .

3 – نفسه، ص : 266، 270 .

4 – مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص : 81 – 82 .

5 – البيذق، أخبار المهدي، ص : 65 و ما بعدها، و ملحقه ص : 177 .

كثيرة، لأنهم جسَّموا الخالق سبحانه، وأنكروا التوحيد وعاندوا الحق"[1].

واجتهد ابن تومرت في توظيف النّصوص الدّينيّة، قصد تجريد السّلطة القائمة من مشروعيّتها، وإيجاد المبرّرات الشّرعيّة للقيام عليها[2]، فأقنع أتباعه في أغمات بخلع بيعة علي بن يوسف من أعناقهم[3]، وفي نظره وجوب خلع الأمير والثورة عليه متى خالف شرع الله والخروج عليه اعتقادا وعملا، و"ضرورة اللجوء إلى الثورة والعنف المسلَّح (السيف) كسبيلٍ شرعيّ لإزالة الظلم والجور والفساد، وبناء المجتمع الذي يوفر للمسلمين العدل والفضيلة والأمان" [4]، حتى لو تعلَّق الأمر بخليفته عبد المؤمن بن علي، فقد خاطب ابن تومرت أصحابه بعد تزكيته لعبد المؤمن خليفة من بعده بقوله لهم " فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعًا مطيعًا لربه، فإن بدل أو نَكَص على عقبه أو ارتاب في أمره، ففي

---

1 – نفس المصدر، ص : 9. وألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص: 258 و259.

2 – خلافا لما استقر عليه أهل الحديث "من الصبر على أئمة الجور الخروج عليهم بالسيف، وجاء عن الإمام مالك قوله: " سلطان جائر سبعين سنة خير من أمة سائبة ساعة من نهار".أنظر: القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج :2 ،ص: 493 . قال عمرو بن العاص لابنه: " يا بني احفظ عني ما أوصيك به: إمامٌ عدلٌ خيرٌ من مطرٍ وابلٍ، وأسدٌ حطوم خيرٌ من إمام ظلوم، وإمام ظلومٌ غشوم خيرٌ من فتنةٍ تدوم "، محمد بن مفلح الحنبلي، **<u>الآداب الشرعية والمنح المرعية</u>**، ، عالم الكتب، بيروت، لبنان، د.ت.ط، ج:1، ص:178.و محمد إسماعيل المقدم، المرجع السابق، ص : 415.

3 – ابن القطان، نظم الجمان، ص: 83.

4 – هذا أحد الأصول التي تتفق عليها فرق الخوارج، يقول الشاطبي في الاعتصام" إنَّ الْخَوَارِجَ اخْتَلَفُوا فِي الِاسْمِ، وَاجْتَمَعُوا عَلَى السَّيْفِ " ص: 113. وأنظر: محمد عمارة مصطفى عمارة، **<u>نظرية الخلافة، السلفية، الثورة، الفرق الإسلامية "مطبوع ضمن موسوعة الحضارة العربية والإسلامية"</u>**، الطبعة 01، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1986م، ص: 196، ص: 233، وهو ما عبر عنه ابن خلدون بـ "دين الخوارج" ، المقدمة، ص: 206.

الموحدين – أعزهم الله- بركة وخيـر كثيـر، والأمـر أمـر الله يقلّده مـن شاء من عباده " [1] .

ومن أهم ما تلتقي فيه الحركة الموحدية مـع منهج الخـوارج، التساهل في التكفير واستباحة الـدماء والأمـوال، فقـد وزَّع ابـن تـومرت وأتباعـه صفات الكفر والنفـاق والشـرك والتجسـيم جُزافـاً علـى حكـام المـرابطين وفقهائهم وجنودهم ورجالهـم ونسائهم، بل وكل مـن رضي بحكمهم[2] .

ورغم اعتزاز الموحدين بأشـعريتهم وغـزاليتهم إلا أن ابـن تـومرت قـد تجاوز الأشاعرة أنفسهم في مسألة تكفير أهـل القبلـة[3]، كمـا تجـاوزهم فيمـا تعلق به من نزعات شيعية وباطنية، ولتلميـذ الغـزالي –الحـق- أبـي بكـر بن العربي الأشعري كلمة حـق فـي شـأن المـرابطين إذ يقـول" المرابطـون قـاموا بـدعوة الحـق، ونُصـرة الـدين، وهـم حمـاة المسـلمين، الـذابون والمجاهدون دونهم، ولو لم يكـن للمـرابطين فضـيلة ولا تقـدم ولا وسـيلة إلاّ وقعة الزلاقة لكان ذلك من أعظم فخرهم" [4].

ومن الفتاوى الغريبـة لابـن تـومرت والتـي تكشـف عـن ذهنيتـه التكفيرية المتطرفة أمـره للموحـدين ألا يـدخلوا مـراكش حتـى يطهروهـا، وفـُسرت فتواه بأن تطهيرها يكون بهدم مسـاجد المـرابطين وبنـاء مسـاجد جـديدة [5] .

1 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 147.

2 – ابن القطان، نظـم الجمـان، ص: 94 -98. وأنظـر: إسـماعيل المقـدم، المرجـع السـابق، ص: 412.

3 – الغزالي، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، قرأه وخرج أحاديثـه وعلـق عليـه: محمـود بيجـو، الطبعة 01، دمشق، سوريا، 1413هـ/ 1993م، ص : 150 .

4 – مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص: 140 .

5 – البيذق، أخبار المهدي، ص: 66. وابن عـذارى المراكشـي، البيـان المغـرب (قسـم الموحـدين)، ص: 29 .

فخاض ابن تومرت انطلاقاً من ذلك حروبًا شعواء ضد المرابطين وأميرهم علي بن يوسف تـ557هـ/ 1161م خلَّدت كتب التاريخ بعضها، ففي إحدى وقعات ابن تومرت مع المرابطين يقول ابن كثير أنه قتل منهم نحوا من سبعين ألفا[1] .

وقد فصَّل في سرد تلك الوقائع مؤرخ ابن تومرت ورفيقه أبو بكر الصنهاجي المكنى بالبيذق الذي اعتزَّ بالمشاركة في تلك المعارك، وأرَّخ لها بـ " غزوات وفتوحات المعصوم" [2]، لأن ابن تومرت كان يؤكد لأتباعه مرارا أن ذلك هو الجهاد بعينه...وفرض من فروض الدين"[3].

ويتَّضح لنا من النصوص التي خلَّدت تلك الوقائع أنَّ ابن تومرت أثناءها كان يُقاتل المرابطين قتال الكفرة ويُجري عليهم أحكام القتال مع الكفار من سبي وغنم وغيرها[4]، وحُجته دائماً أنهم مجسِّمة، والمجسمة في نظره مارقون عن الدين يشبِّهون الله بالإنسان وهو كفرٌ غليظ يجب مقاومته بالقول والقلم والسيف[5] .

---

1 – ابن كثير، المصدر السابق، ج : 12، ص : 186 .

2 – البيذق، المصدر السابق، ص : 65 و ما بعدها، و ملحقه ص : 177 .

3 – نفس المصدر، ص : 9 . وألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص : 258 و 259 .

4 – نلمس ذلك أيضا في مواضع عدة من كتاب "أخبار المهدي" للبيذق الذي عاين تلك الوقائع وساهم فيها فنجده يسمى تلك الحروب غزوات ومكاسبها غنائم، أنظر: ص: 35 ومابعدها وقد شهد مصدر قديم بذلك، إذ يقول ابن غازي، في روض الهتون، "وكان الموحدون يسمَون حينئذ الناس المجسمين ويقاتلونهم قتال كفر، وكان الناس يسمونهم خوارج، ولم تزل الغارات تُشن عليهم فيُقتل الرجال ويُسبى النساء والذرية وتُستباح الأموال، والتضييق يتوالى والمكائد تُدبر والحيل تُدار حتى ضاق ذرع الناس بكثرة الوقائع عليهم"، ص: 6.

5 – ألفرد بل، المرجع السابق، ص : 252 .

وبتصفُّح المصادر القريبة والبعيد، الموالية والمعادية للدولة الموحدية لا يجد الباحث صعوبةً في كشف إسراف الموحدين في التقتيل الجماعي واستباحت دماء المسلمين وأموالهم، ومقاتلة المخالفين – من المرابطين – مقاتلة الكفار، ومَنْع الصلاة على أمواتهم[1].

فكلُ من أرَّخ لسيرة ابن تومرت من مؤيِّديه أو معارضيه أثبت له خوضه في الدماء بلا ظابط[2]، دونما مُسوِّغ شرعي حيث كان لايتردد في ذلك[3]، وطالت هذه السياسة الدموية المرابطين وحتى أتباع الموحدين الذين ارتدوا أو حامت الشكوك حول عقيدتهم، فكانت ولايته "كما يقول الوَرى لحماً عَلَى وَضَمِ"[4].

فقد وجَّه المهدي حملةً ضدَّ "عجدامة" إحدى بطون هسكورة[5] لقتلهم أحد الدعاة الموحدين[6]، وعندما " ارتدّ " بنو واوزكيت من أهل تيمنلل إلى المرابطين أرسل المهدي إليهم حملة عسكرية أيضًا[7]، ولما انتقد

---

1 – فتحي زغروت، **الجيوش الإسلامية وحركة التغيير في دولتي المرابطين والموحدين (المغرب والأندلس)**، الطبعة 01، الدار الإسلامية التوزيع والنشر، 1426هـ القاهرة ، مصر،/2005م، ص:53.

2 – الشاطبي، الإعتصام، ج 02 ص : 90 .

3 – محمد الأمين بلغيث، دولة المرابطين بالأندلس، من مدينة السياسة إلى مدينة العلم، ص: 56 .

4 – بيت للشاعر عمارة اليمني الزبيدي تـ 569هـ/ 1173م:

هذا ابن تومرت قد كانت ولايته *** كما يقول الورى لحمًا على وضم.

أنظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج:4، ص: 105 .

5 – ابن حيان، المقتبس، ص: 53 . قال ابن خلدون عن قبائل هسكورة أنَّهم "في عداد المصامدة وينسبون إلى دعوة الموحّدين". ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج:6، ص: 271.

6 – هو الشيخ أبو محمد عطية عام 520 هـ/ 1125م. أنظر: البيذق، المصدر السابق، ص: 94 .

7 – البيذق، أخبار المهدي ص: 32، وابن القطان، نظم الجمان، ص: 91 و92 .

أحد "الجماعة" من أتباع ابن تومرت هــذا العمــل كــان مصــيرهُ القتــل علــى أساس أنه شكَّ في عصمة المهدي[1].

وعندما اســتقرَّ ابــن تــومرت بتيمنلــل عــام 518هـــ/1124م لــم يطمئنْ إلى توحيد هزميــرة الجبل وهم هزميــرة تيمنلــل فقتــل مــنهم حــوالي خمسة عشرة ألف شخص في يومٍ واحد وسبى حــريمهم وغــنم أمــوالهم وقســم أرضيــهم ومساكنهــم بين أصحــابــه، واعتذر ابن القطــان لــذلك بــأن مــن عادتهم عدم ترك سلاحهم حتى ولو في اجتمــاعٍ مــع المهــدي[2]، وفــي العــام الموالي – 519 هــ/1125م– كانت حادثــة التمييــز بهــدف تمييــز " الخبيــث مـــن الطيـــب والمـــؤمن مـــن الفاســـق"[3]، التـــي صـــحَّ عنـــد الـــذهبي تـــ748هــ/1347م في آخر ســـــرده لتفاصيــــل حادثــة التمييــز أنَّــه قتــل منهم سبعيــن ألفاً في هذه الحادثــة فــــي أربعــين يومــا[4]، وقــد يكــون فــي العدد شيءٌ من المبالغة، لكن أصل الحادثــة يُصــوِّر لنــا وجهــاً مــن أوجــه السياسة التومرتية في المغرب الإسلامي .

وهو ما جعل ابــن القــيم تــــ751هـــ/1350م يصــف ابــن تــومرت – بلغةٍ عنيفةٍ – أنــه " رجــلٌ كــذابٌ ظــالمٌ متغلــبٌ بالباطــل، ملــكَ بــالظلم والتغلُّب والتحيُّل، فقتل النفوس، وأبــاح حــريم المســلمين، وســبى ذراريهــم،

---

1 – نفســه، ص : 93 .

2 – مؤلف مجهول، الحلل الموشــية، ص 112، وابــن عــذارى، البيــان المغــرب، قســم الموحــدين، ص:69، وابن القطان، نظم الجمان، ص: 93 – 94، وابن الأثير، الكامل، ج:08، ص:296 .

3 – ابن القطان، نظــم الجمــان، ص: 102 – 104 ، وابــن عــذارى، البيــان المغــرب، ج: 04، ص: 68 ، والبيــذق، المصــدر الســابق، ص: 39 ، وابــن الأثيــر، المصــدر الســابق، ج: 8 ، ص: 297 و298، وشهاب الدين النــويري، **نهايــة الأرب فــي فنــون الأدب**، الطبعــة 01، دار الكتــب والوثــائق القومية، القاهرة، مصــر1423هـــ/ 2002م، ج:24، ص: 285 و286. ابــن القطــان، نظــم الجمــان، ص: 146 – 147.

4 – الذهبي، تاريخ الإسلام، ج:36، ص: 111 و116.

وأخذ أموالهم، وكان شراً على الملة من الحجاج بن يوسف بكثير"[1]، وقد وصف ابن أبي زرع الفاسي ت728هـ/1327م المهدي بالعلم والورع والصلاح وفي الوقت نفسه كان " ذا سياسةٍ ودهاءٍ ومكرٍ وناموسٍ عظيم ... سفّاكاً للدماء غير متورعٍ فيها ولا متوقفٍ عنها يهون عليه سفك دم عالمٍ من الناس في هوى نفسه وبلوغ غرضه"[2]، وإذا جمعنا بين هذا وذاك فلا يُفسر هذا التناقض إلا بكون ابن تومرت كان يتعبَّد الله تعالى بهذا التصرف.

لذا رأى شيخ الإسلام ابن تيمية ت 728هـ/1327م أن ابن تومرت شابَ تفكيره " نوع من رأي الخوارج الذين يرون السيف ويكفرون بالذنب" [3].

ولم يكن الموحدون في غفلة من هذه المحظورات فقد ذكر ابن القطان التكفير والتساهل بالدماء واكتفى بذكرها ونفيها بردٍ ضعيف[4] لايُفهم منه إلا أن فعلهم هو عين الصواب .

وقبله البيذق وغيرهم من مؤرخي الدعوة الموحدية لم يكلّفوا أنفسهم عناء تبرير تلك المجازر والهمجية لانخراطهم في الدعوة، بل كان حدوثها بالنسبة لهم مجرد تحقُق لنبوؤة المهدي وتحقُق الغلبة للموحدين على المجسمين وبالتالي انتصارُ حقٍ على الباطل.

ولعل ابن تومرت ومن معه كانوا يرون رأي الخوارج في أن عملهم ذلك جهادٌ يحتسبونهم عند ربه، لذا أوصى ابن تومرت أتباعه قبل

---

1 – ابن قيم الجوزية، **المنار المنيف في الصحيح والضعيف**، تحقيق، عبد الفتاح أبو غدة، الطبعة 01، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، سوريا، 1390هـ/1970م، ص: 153.

2 – ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص: 182.

3 – ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج: 35، ص: 143 .

4 – ابن القطان، نظم الجمان، ص:67 .

موته بأيامٍ يسيرة "عليكم في جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة، واللين بالعنف"[1]، ويقول المقريزي ت845هـ/ 1441م و"صارتّ دولة الموحدين ببلاد المغرب تستبيح دماء من خالف عقيدة ابن تومرت، إذ هو عندهم الإمام المعلوم المهديّ المعصوم، فكم أراقوا بسبب ذلك من دماء خلائق لا يُحصيها إلاّ اللّه خالقها سبحانه وتعالى"[2].

ولعلَّ ابن تومرت استمدَّ من بيئته القبلية المصمودية هذه القسوة والعنفوان فقد ذكر ابن حوقل أنه يغلب عليهم الجفاء والغلظة في العشرة وقلة رقة الطبع[3]، كما عُرف عنهم التطلُّع إلى عالم الخفيات والاشتغال بالتنجيم[4]، كما عُرف عنهم قوة الخطابة المؤثرة والساحرة[5]، وهي كلها صفات من محيط بيئته استثمرها ابن تومرت .

وهو تفسير المراكشي ت647هـ/1249م الذي فسَّر قسوة ابن تومرت ببيئته المصمودية الجبلية[6]، فقد شهد المراكشي لأهل المنطقة بخفة سفك الدماء عليهم فيقول:" فقد شهدتُ أنا منه أيام كوني بسوس ما قضيت منه العجب"[7].

أما بن تومرت نفسه فله تفسير آخر إذ يقول: "إن مراعاة القيام بأمر الله أولى من مراعاة إراقة الدماء وذهاب النفوس والأموال،...وإن الفساد لايُدفع بالتخاذل بل يُدفع بالتناصر[8].

---

1 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 147 .

2 – المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج: 4، ص: 192 .

3 – ابن حوقل، صورة الأرض، مصدر سابق، ص: 90 .

4 – ليفي بروفنصال، الإسلام في المغرب والأندلس، ص : 256 .

5 – نفسه.

6 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 281. وابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ص: 464 .

7 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 257.

8 – ابن تومرت، أعز ما يُطلب، ص: 294 .

وفسَّر الباحث حسين مؤنس الحركة التومرتية بعنفوانها وعُنفها بأنه مظهرٌ لنزوع المصامدة إلى إنشاء دولة خاصةٍ بهم يسودون بها المغرب[1]، لأن القبائل الصنهاجية التي أقامت دولة المرابطين كانت بطوناً من صنهاجة الصحراء[2] .

وأمام هذه التفسيرات لانجد إلا النَّزعة الخارجية قد طبعَت الحركة الموحدية، فمن بين المذاهب العقيدية لا نجد من يستبيح دماء المسلمين بهذه السهولة ويُوجبُ سلَّ السيوف في الاحتساب على الحكام إلاَّ " المعتزلة والزيدية والخوارج"[3].

فقد اقترب الموحدون في خارجيَّتهم المتطرفة من فرقة الأزارقة، إذ عُرف عن أصحاب النِّحلة الأزرقية الجُنوح إلى تكفير خصومهم وإباحة أعراضهم"[4] .

لذا حكم أغلب المؤرخين والدارسين على سياسة ابن تومرت بالوحشية والقساوة، وشاع بينهم ذلك، واعتبرهُ بعضهم طاغية من

1 – مما يُعزز هذا الطرح أن الدول الإسلامية الثلاث التي كانت تتقاسم بلاد المغرب عند وصول ابن تومرت إلى المغرب قادما إليه من المشرق كلها صنهاجية مما يعزز نظرية النزعة المصمودية لدى ابن تومرت.

2 – حسين مؤنس، وثائق المرابطين، ص: 103 . وحسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس ، ص: 210 .

3 – ابن حزم ، الفصل، ج: 4، ص: 171. واعتبر الإمام الذهبي في "عبره" سلوك ابن تومرت خروجـًا عن الإمام الحق علي بن يوسف بن تاشفين، الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج:2، ص: 381. وقد تقرر في أمهات كتب الملل و النحل أن " كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيا سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين أو كان بعدهم على التابعين بإحسان و الأئمة في كل زمان " أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني، **الملل والنحل**، سوريا، مؤسسة الحلبي، د.ت.ط، ج:1،ص: 114. ويقول في موضع آخر من كتابه : "فإن كان صدر خروجه: عن تأول وإجتهاد، سمي باغياً مخطئاً "، ج: 2، ص:8 .

4 – البغدادي، الملل والنحل، ص: 63 و64 .

طُغــاة العصور الوسطى وأن دعـــوته الأشعـــرية تحولــت بفعــل ممارســاته إلى دعــوة قــرمطية باطنيــة دمــوية[1] .

فالحاصل أن ابن تومرت اعتمد علــى ممارســة ذات طــابع خــارجيٍ فــي استحلال تكفير الناس وقتالهم[2]، وعلى هديه سار خلفــاؤه مــن بعــده " فأخــذوا بهذا المبدأ الطائش"[3].

فقد تمثَّــل الخليفة عبد المؤمن بــن علــي ســلوك ابــن تــومرت، وكمــا أشتهر ابن تــومرت بمذبحــة "التمييــز "[4]، أشــتهر عبــد المــؤمن بــن علــي بالمذبحة التي يُسميها البيذق بــالاعتراف والتــي ذهــب ضــحيتها الآلاف مــن القبائل سنة 544هـ/1149م[5]، ذلك أن عبد المؤمن بــن علــي لمــا رأى كثــرة

---

1 – أنظر : الذهبي، السير، ج : 19 ،ص : 540-541 . والذهبي، العبــر فــي خبــر مــن غبــر، ص : 247. وابن كثير، المــصــدر الســابـــق، ج : 12، ص : 187. ابــن تيميــة، مجمــوع الفتــاوى ، ج: 11، ص : 478. وابــن القــيم، **المنــار المنيــف فــي الصــحيح و الضــعيف**، الطبعــة 02، دار العاصــمة، الريــاض، 1419 هــــ / 1998 م، ص : 153 . المقريـــزي، الخطـــط، ج : 4 ، ص : 151 – 167 . وابن ابــي زرع، المــصــــدر الســابـــق، ص : 181 . و مــنهم القاضــي عيــاض الذي قُتل بالرماح لكونه أنكر عصــمة ابــن تــومرت أنظــر : الــذهبي، الســير، ج : 20، ص : 217 . ومن المعاصرين المستشرق يوسف أشــباخ، تــاريخ الأنــدلس، ج:1، ص : 195. و حمــد بــن صــالح السحيباني، حقيقة دعوة ابن تــومرت، **مجلــة البيــان**، العــدد 17، شــعبان 1409هـــ، مــارس 1989، ص : 78 . الصلابي، الدولة الموحدية، ص : 290 . وعبــد الحلــيم عــويس، المرجــع الســابق، ص : 83 . وخـــالفهم فــي ذلــك الســبكي أنظــر : طبقــات الشــافعية، ج : 08، ص : 185. و ج : 06، ص : 109، وابن خلدون، المقدمة، ص : 26، تاريخ ابن خلدون، ج : 6، ص 300 .

2 – محمد المغراوي، **الموحدون والمذهب الظاهري**، مقال ضــمن الصــراع المــذهبي بــبلاد المغــرب، تنسيق حافظ حكمي، منشــورات كليــة الآداب والعلــوم الإنســانية جامعــة محمــد الخــامس – أكــدال، سلسلة مناظرات وندوات رقم: 157، ص: 193 .

3 – فوقية حسن محمود، مقدمة محقق كتاب : لباب العقول للمكلاتي، ص : 40 .

4 – ابن الأثير، المصــدر الســابق، ج: 8، ص: 659، والــذهبي، تــاريخ الإســلام، ج:36، ص: 111 و116.

5 – أنظر عنها: البيذق، أخبار ابن تومرت، ص: 69 .

من خرجوا عليه عقد للموحدين مجلساً ووزّع عليهم جرائد فيها أسماء من سماهم " أهل التخليط "[1] وأمر بإعمال السيف في كل من ورد اسمُه، وهكذا قتل من قبيلة هزميرة خمس مائة ومن رجراجة ثمان مئة، ومن حاحة ثمان مئة، وأعدم من أهل السوس ست مئة، ومن أهل إنجيست ستمائة، ومن أهل تادلة خمس مئة، وقتل من صنهاجة وجراوة ألف في موقع يسمى العمري، وقتل من زناتة نحو ستة آلاف، وقتل من صاربو وبني ماكود اثنا عشرة ألفاً، وقتل من غمارة في تاطوين ثمان مئة، وقتل في مكناسة مائتين، وفي فاس ثمانين، ومن أهل برغواطة ست مئة، ومن هيلانة ثمان مئة، ومن وريكة وهزرجة مائتين وخمسين، ومن لجاعة مائة وخمسين ومن درعة ستمائة[2]، ومن دكالة ست مئة ويُعقب البيذق بعد ذلك بقوله: "وكان بهم شفيقا"[3]، ثم قال: " وتمَّ الاعتراف بحمد الله، فهدأ الله البلاد للموحدين وأعانهم على الحق نصرهم وأقاموا الدين، ولم يتفرقوا فيه وتمهدت الدنيا وأزال الله ما كان من تخليط"[4].

وتعكس لنا أخبار سقوط "مراكش" في أيدي الموحدين، ظهور الوجه الخارجي الدموي المتطرف القبيح للدعوة الموحدية، إذ قرر الموحدون استباحة "دماء كل من اشتملت عليه من الذكور البالغين إلاّ من تستَّر بالاختفاء في سرب أو غرفة أو مخبأ"[5]، واستمرَّ بها القتل الذريع ثلاثة أيام، " ثم نودي في سككها بالعفو عمن أسأرته[6] تلك الفتكة

1 – نفسه، ص: 72 .

2 – نفسه، ص: 70 – 73 وأحصاها أيضًا الأستاذ عبد الله عنان، تاريخ دولة الإسلام في الأندلس، ج:4، ص: 277 و278.

3 – البيذق، أخبار ابن تومرت، ص: 72 .

4 – نفسه، ص: 72 .

5 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:1، ص: 228 .

6 – هكذا وردت.

الشنعاء والبطشة الكبرى فظهر منهم عدد ليس بالكثير يقال إنهم نحو سبعين رجلا وبيعوا بيع الأسارى المشاركين هم ونساؤهم وذراريهم"[1]، ويُفيدنا ابن كثير بتفاصيل أخرى عن دخول الموحدين لعاصمة المرابطين مراكش فيقول: "فقتل منهم خلقا كثيرا، وجما غفيرا، وسبى ذراريهم وغنم أموالهم حتى إنه بيعت الجارية الحسناء بدراهم معدودة"[2]، ونقلت إحدى الروايات القريبة من الحادثة زمانا ومكانا أنه قتل في ذلك اليوم – يوم دخول الموحدين إلى مراكش – " ما ينيف عن سبعين ألف رجل"[3] وصارت "أنهار الدم تجري على سكك المدينة " [4].

وفي وصف الشريف الإدريسي تـ560هـ/1164م لدخول الموحدين إلى مدينة مراكش إشارة غاية في الأهمية إذ يقول : " نهبوا الأموال وسفكوا الدماء وباعوا الحُرم" ثم يُعلِّلُ ذلك بقوله: " كل ذلك بمذهبٍ لهم يرون ذلك فيه حلال " [5] .

وعلى غرار مراكش أعْمَل جيش الموحدين السيف في أهل تلمسان "فقتل أهلها وسبى حريمها ... وأخذ فيها من الأموال ما لا يحصى"[6]، وتكرر المشهد في مكناسة حيث " سفك الموحدون –

---

1 – نفسه.

2 – ابن كثير، البداية والنهاية، ج:12، ص: 232.

3 – رواية اليسع ابن حزم تـ 575هـ/1180م فيما نقله عنه صاحب الحلل، الحلل الموشية ص:139 . وابن عذارى، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص: 28 . وابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص:393 . والنويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج:24 ، ص:298.

4 – ابن دحية، <u>**المطرب في أشعار أهل المغرب**</u>، تحقيق إبراهيم الأبياري وآخرون، دار العلم للجميع، بيروت، لبنان، 1955 م، ص: 27 .

5 – الشريف الإدريسي، <u>**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**</u>، الطبعة 01، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1409هـ/ 1998م، ج:1، ص: 243.

6 – مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص: 135 . والنويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج:24، ص: 295. وابن عذارى،البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص: 22 و23 .

عند دخولها – الدماء، وسبوا النســاء والذريــة، واســتباحوا الأمــوال"[1] وباتــت المدينة "خالية إلا من فل(هكذا وردت) من الموت قتلا وجوعا"[2].

ويذكر ابن القطان أن عبــد المــؤمن دخــل مدينــة جشــجال وأحــرق وقتل من فيها ثم أرسل سرية إلى "هزرجة" وهم غــافلون فقــتلهم قــتلا ذريعــا، ثم تحرك إلى "غجدامة الجبل" الذين قتلوا داعية الموحــدي أبــي محمــد عطيــة من أصحاب الإمام المهـــدي فجمعهــم الخليفــة عبــد المــؤمن وقتــل مــنهم ثلاثمئة رجــل[3] .

ولما دخــل الموحدون مدينــة لبلــة بقيــادة يحيــى بــن يومــر بعــد حصارٍ شديد، وقع الاتفاق على أنهــم قتلــوا ثمانيــة آلاف رجــل مــنهم الفقيــه أبو الحكم بن البطال المُحدِّث والفقيه الصالح الفاضــل أبــو عــامر بــن الجــد، ثم بيعت نساؤهم وأبناؤهم جميعــا وســلبهم أمــوالهم وأمتعــتهم ... فلمــا رُفــع الخبر إلى أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علــي أنكــر ذلــك وبعــث إليــه مــن قبض عليه مكبلا وأحضره إلى مراكش فسجن فــي مــراكش مــدة ثــم ســرحه وعفا عنه ولم يصرف على أهل لبلة شيئا من جميع ما أخذ لهم[4].

وتذكر إحدى المصادر أن عبد المؤمن لما فــتح وهــران دخلهــا "بالســيف وقتل من فيها"[5] ويؤكد ذلك مصــدر مشــرقي آخــر بقولــه: " قتــل فيهــا مــا لايُحصى"[6] ويُــضيف آخر أن عبد المــؤمن ألحــق نفــس المصــير بالنــاجين منهم "فاستؤصِلوا عن آخرهم كبارًا وصغــارًا"[7].

---

1 – ابن غازي، الروض الهتون، ص: 26 .

2 – نفسه، ص: 27.

3 – ابن القطان، نظم الجمان، ص : 220.

4 – ابن أبي زرع الفاسي، روض القرطاس، ص : 194 .

5 – النويري، نهاية الأرب، مصدر سابق، ج:24، ص: 293.

6 – أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج: 2، ص: 243 .

7 – ابن عذارى، البيان المغرب(قسم الموحدين)، ص: 22 .

ونُورد شهادتين لشخصيتين عايشتا دموية الموحدين، الأولى لأبي محرز الوهراني ت 575هـ/1179م الذي عبَّر عن كرهه الشديد للموحدين من خلال جواب على سؤال حول رأيه في عبدالمؤمن بن علي الموحدي وأولاده وسيرته ببلاده فقال: (مؤيد من السماء خواض للدماء مسلط على من فوق الماء حكم سيفه في المعمم واعمله في رقاب الأمم... ولو أن للعلم لساناً والورقة إنساناً لتألمت وتظلَّمت ... ولكن السكوت على هذا الحال أرجح ومسالمة الأفاعي أنجح"[1] .

والشهادة الثانية لأبي الوليد محمد بن عبدالله القرطبي ت551هـ/1156م[2]، الذي خرج من بلده قرطبة هروبًا من الموحدين، يصف المقري أحواله بقوله: " وأقام بالإسكندرية، خوفا من بني عبد المؤمن بن علي، ثم قال: كأني والله بمراكبهم قد وصلت إلى الإسكندرية، فسافر إلى مصر بعد ما روى عنه السلفي، وأقام بها مدة، ثم قال: والله ما مصر والإسكندرية بمتباعدتين، فسافر إلى الصعيد، وحدث في قوص بالموطأ، ثم قال: والله ما يصلون إلى مصر ويتأخرون عن هذه البلاد! فمضى إلى مكة وأقام بها، ثم قال: وتصل إلى هذه البلاد ولا تحج؟

1- ابن محرز الوهراني، **الوهراني مناماته و مقاماته و رسائله**، تحقيق إبراهيم شعلان و محمد نغش ، القاهرة، دار الكتاب العربي، 1968م، ص: 11 و12 . و يراجع أيضا : النويري، نهاية الأرب، مصدر سابق، ج: 22 ص: 427 . وعلي أحمد، **الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق**، الطبعة 01، دار شمأل، سوريا، 1995م، ص:86.

2 – أبو الوليد محمد بن عبد الله ابن محمد بن خيرة القرطبي، المالكي الحافظ، ولد سنة 479 هـ/ 1086م كان من جلّة العلماء متقناً متفنناً في المعارف كلها جامعاً لها، كثير الرواية، واسع المعرفة، حافل الأدب، أخذ الفقه عن القاضي أبي الوليد ابن رشد، والحديث عن ابن عتاب، وروى الموطأ عن أبي بحر سفيان بن العاص بن سفيان، خرج من قرطبة إلى المشرق وتوفي بزبيد من مدن اليمن سنة 551هـ/1156م ، أنظر: المقري، نفح الطيب، ج:2، ص: 240 .

ما أنا إلا هربت منه إليه! ثـم دخـل الـيمن، فلمـا رآهـا قـال: هـذه أرض لا يتركها بنو عبد المؤمن، فتوجه إلى الهند، فأدركتـه وفاته بها"[1].

وفي تخمينٍ له يرى ليفي بروفنسـال أن عبـد المـؤمن كـان "بربـري مـن الطراز الثاني"، ولعله يقصد أنه أقل جفـوة مـن ابـن تـومرت كمـا يُوضـحه سياق كلامه فهو" ليس بالحضري ولا بالبدوي وإنما هـو بـين وبـين ... كمـا أنَّه أقرب إلى التحضُّـر وأدنى إلى الأخـذ بأسـباب الحيـاة " [2]، بينمـا يـذكر المستشرق الألماني يوسف أشـباخ أنَّ عبـد المـؤمن اقتصـر علـى " اتبـاع سياسة الشدة في المدن والولايات الثائرة" [3].

وعـُرف عن الموحدين الشدة والغلظة حتـى فـي تطبيـق أحكـام الشرع، حتى قـُـتل عنـد بعـض الخلفـاء شـارب الخمـر[4] وقـُـتل مـن رؤي وقت الصـلاة غيـر مصـلٍ[5]، ولـم تنعقـد عنـدهم ذمـةٌ ليهـوديٍ أو نصراني إنما هو الإسلام أو القتل[6]، ولما اسـتولى عبـد المـؤمن علـى إفريقيـة وحـرر المهدية من النورمانديين، "عرض الإسلام علـى مـن بهـا مـن اليهـود والنصـارى فمـن " أَسْـلَمَ سَـلِمَ، وَمَـنِ امْتَنَـعَ قـُتِلَ" علـى حـد تعبيـر ابـن الأثيـر[7].

---

1 – المقري، نفح الطيب، ج: 2، ص: 240.

2 – ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب و الأندلس، ص : 258 – 259 .

3 – يوسف أشباخ، دولة الإسلام في المغرب والأندلس، ص:304 .

4 – ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج: 02، ص: 423. والمقري، نفح الطيب، ج:1، ص: 100.

5 – أبو الفداء عماد الدين بن شاهنشاه، **المختصر في أخبار البشر**، الطبعة01، المطبعة الحسينية المصرية، مصر، د.ت.ط، ج:3، ص: 40.

6 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 203،204.

7 – ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مصدرلسابق، ج: 9، ص: 63. والمبالغة في التعبد من أبرز سمات الخوارج كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك"يحقر أحدكم صلاته في صلاته، وصيامه في صيامه، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرَّمِيَّةِ»، أنظر:أبو بكر الطرطوشي المالكي، **الحوادث والبدع**، تحقيق: علي بن حسن الحلبي، الطبعة 03،

وكانت لمجازر الموحدين صدًى واسعاً حتى في المشرق، فيذكر أحد المؤرخين المشارقة ما بلغه عن بعض أهل المغرب فيقول " وشرع عبد المؤمن في سفك الدماء وافتتاح البلاد المغربية بالسيف والقتل لمن بها من الرجال والحرم والأطفال ما شاعت به الأخبار وانتشر ذكره في سائر الأقطار"[1]، ولاتبتعد شهادة ابن الأثير عن ذلك إذ يقول عن عبد المؤمن أنه " كان شديد السفك للدماء ولو على الذنب الصغير"[2]، ووصفت إحدى المصادر المشرقية –أيضا– عبد المؤمن بأنه كان كثير السفك لدماء المسلمين[3]، أما ابن العماد الحنبلي ت1089هـ/ 1678م في "شذراته" فيصفه بأنه: " كان ملكا عادلا عظيم الهيبة عالي الهمة كثير المحاسن متين الديانة... سفّاكا لدماء من خالفه" [4]، واعتبر المؤرخ المشرقي الآخر ابن كثير الدمشقي ت774هـ/1372م ما قام به عبد المؤمن " تَوُهم أنها أحوال بـرَّة، وهي محالات[5] لا تصدُر إلاّ عن فجرة، وما قتل من الناس وأزهق من الأنفس"[6] .

دار ابن الجوزي، 1419 هـ / 1998 م، ص: 149. وفي مناظرة ابن عباس للخوارج، إذ يقول: "وأتيتُ قوماً لم أرَ قوماً قطُّ أشدَّ اجتهاداً منهم، مسهمة وجوههم من السَّهر، كأنَّ أيديهم وركبهم تثنى عليهم " . أنظر: ابن الحكم الضبي، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة 01، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ج:2، ص: 150و152.

1 – أبو يعلى التميمي، المعروف بابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، تحقيق: سهيل زكار، الطبعة 01،، دار حسان عبد الهادي حرصوني للطباعة والنشر، دمشق،سوريا، 1403 هـ / 1983 م، ص: 457.

2 – ابن الأثير، المصدر السابق، ج:11، ص: 115.

3 – النويري، نهاية الأرب، ج:24، ص:318 .

4 – ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مصدر سابق، ج:6، ص: 306 .

5 – هكذا وردت.

6 – ابن كثير، المصدر السابق، ج:12، ص: 232.

وإذا كان لِفقهاء المشرق والمغرب حُجَّتهم في الـتهجُّم علـى ابـن تـومرت ومنهجه في التغييـر، فما حُجَّة الإمام السبكي الذي دافـع عـن ابـن تـومرت ومنهجـه بحرارة إذ يقول عنه : " كانَ أشعريا صَـحِيح العقيـدة أَمِيـرا عـادلا دَاعيا إِلَى طَرِيـق الْحــق"[1].

وبعد نجاح الموحدين في تأسيس دولتهم وفـق المـنهج السـالف الـذكر، استقلُّوا تمام الإستقلال عن الخلافة الإسـلامية الشـرعية فـي بغـداد، وقطعـوا الدعاء وكل أشكال الولاء، يقـول المراكشـي: "وانقطعـت الـدعوة بـالمغرب لبني العباس بموت أمير المسلمين وابنه، فلم يُذكروا علـى منبـر مـن منابرهـا إلى الآن" [2].

وأكثر من ذلك تلقب ابـن تـومرت بالإمـام المعصـوم، وخلفـاؤه مـن بعـده بلقـب" أميـر المـؤمنين"[3]، مـع وجـود الخليفـة القرشـي الشـرعي للمسلمين[4]، ودأبت الرسائل السـلطانية الموحديـة علـى ذكـر خلفـاء الدولـة بالخلفاء الراشدين وأمراء المؤمنين[5].

---

1 – السبكي، المصدر السابق، ج: 8، ص: 185.

2 – المراكشي، المصدر السابق، ص:271.

3 – وأمَّـر على الجيش عبـد المؤمن بن علـي، وقـال: أنـتم المؤمنـون وهـذا أميركـم. فاسـتحقَّ عبد المؤمن من يومئذ اسم إمرة المؤمنين، المراكشي، المصدر السابق، ص: 157.

4 – الخلافة : هي نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الـدين و سياسـة الـدنيا، أنظـر: ابـن خلـدون، المقدمة، ص:178، وهي عند الماوردي: "حِرَاسَـةِ الـدِّين وَسِيَاسَـةِ الـدُّنْيَا"، أبـو الحسـن المـاوردي، **<u>الأحكام السلطانية</u>**، دار الحديث، القاهرة، مصر، ص: 15 .

5 – ليفي بروفنصال، ومحمـد العـزاوي، الرسـالة 40، ص : 191، و ص: 193 . وجـاء الترضـي والتقديس في ملحق الرسالة : ص : 196 و 197 .

واعتبر السلاوي ذلك سابقة في تاريخ المسلمين[1]، باعتبار أن الموحدين لا حظَّ لهم في النسب النبوي خلافا للعبيديين والأمويين الذين ادَّعوا هذا اللقب[2].

ولعل ذلك ما اضطرَّ عبد المؤمن لاصطناع نسب عربي[3] إذ كان يقول:" لست منهم –أي كومية– إنما نحن لقيس بن عيلان...ولكومية علينا حق الولادة والمنشأ فيهم وهم الأخوال"[4] .

ويبقى الغموض يكتنف موقف أبو بكر ابن العربي ومبايعته لعبد المؤمن وهو الذي يرى "أن الخلافة لا تخرج عن قريش " [5] .

ومرةً أخرى يُخالف الموحدون رأي إمامهم الغزالي إذ يرى الغزالي أن الخلافة " منعقدة للمتكفل بها من بني العباس رضي الله عنهم"[6]، ومع ذلك فهو يعترف بسلطة الحكام الآخرين شريطة الدعاء للخليفة العباسي على منابرهم وينقشوا اسمه على سكتهم، حيث يقول " ومن استبدَّ بالشوكة وهو مطيع للخليفة في أصل الخطبة والسكة فهو سلطان نافذ الإسم" [7] .

وصار لقب أمير المؤمنين تقليد في الدولة الموحدية اتخذه حكامها لتأكيد شرعية حكمهم، وفي عهد أبي يعقوب أُضيف إلى لقبه لقب أبيه عبد المؤمن فأصبح يلقَّبُ في الوثائق الرسمية بـ : أمير المؤمنين أبي يعقوب

---

1 – ولم تتخذ الإمارات الخارجية التي أقيمت في المغرب لقب الخلافة لأنها كانت – على رأي أحد لباحثين – إمامات أو سلطنات لا خلافات وهي في حقيقتها رياسات دينية لا سياسية. حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، ج:1، ص: 364 .

2 – السلاوي، المصدر السابق، ج:2، ص: 110.

3 – ذُكره على نحوين، أنظر: ابن حيان، المقتبس، ص: 21 – 22 .

4 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 148.

5 – ابن العربي، عارضة الاحوذي لشرح صحيح الترمذي، مصدر سابق، ج:9، ص: 71.

6 – أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج:2، ص:98.

7 – نفسه، ج:2، ص:98.

ابن أمير المؤمنين[1]، وذلك تأكيداً على أنَّ نظام الحكم في الدولة وراثي في عقِبِ عبد المؤمن، كما أمر أبو يعقوب أن يُكتب في سيفه "أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين"[2]، واستمرَّ هذا التقليد حتَّى خلافة المنصور بـ : "أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين"[3]، وقد اعتنى الخلفاء بتفخيم ألقابهم الرسمية والفخرية[4] والكنى غاية الإهتمام[5] .

وبجانب لقب أمير المؤمنين[6] تلقَّب خلفاء الدولة الموحدية بلقب الخلفاء، حيث أطلق عبد المؤمن بن علي هذا اللقب على نفسه حين توافد عليه الشعراء يمدحونه في جبل الفتح سنة 555هـ/1159م فلما أتمَّ أحد الشعراء الوافدين قصيدته قال عبد المؤمن : بمثل هذا تُمدح الخلفاء فسمى نفسه خليفة[7] ويعني بلقب الخليفة الخلافة عن الإمام المهدي ابن تومرت[8] .

---

1 – البيذق، أخبار المهدي، ص: 65، ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص: 241 و 242 و243 . وابن أبي زرع، روض القرطاس، ص: 130 ، مؤلف مجهول، الحلل الموشية ص: 157، أحمد عزاوي، مجموع رسائل موحدية ، ص: 138 – 141 و149.

2 – ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص: 352، وابن عذارى، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص: 98 .

3 – أحمد عزاوي، مجموع رسائل موحدية ص: 158 ، 164 ،168 . وابن عذرى، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص: 170 ، وابن أبي زرع، روض القرطاس، ص: 137 .

4 – مثل ألقاب: الإمام الأعدل، الخليفة الصالح، المنصور بالله عز و جل، الخليفة الرضى، وغيرها أنظر : عميروش نعيمة، **نظام الخلافة والتشريفات عند الموحدين من خلال كتاب المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة: دراسة تحليلية نقدية**، رسالة مجستير، إشراف: صالح بن قربة، جامعة الجزائر، 2002م، ص: 45 .

5 – أنظر : عميروش نعيمة، المرجع السابق، ص : 40 و ما بعده .

6 – أنظر أيضا : المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج: 4، ص: 192 .

7 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 158.

8 – أحمد عزاوي، مجموع رسائل موحدية، ص : 145 ، 151 ، 161 ، 219، المن بالإممة ص 207 ، 264 ، 355 .

وقد عــُـوقب الكاتب القاضي أبو القاســم أخيــل بــن إدريــس الرنــدي تــ651هــ/1253م[1] بالسجن في مكناسة بسبب ما نُقـل عنــه مــن أنــه قــال في حق عبد المؤمن " كيف تصحُّ له الخلافة وليس بقرشيّ " [2] .

وكشفت بعض الدراسات أن انفصال الدولــة الموحديــة عــن الخلافــة المركزية في بغداد سبَّب إحراجــا لمفكــري الأشــاعرة الــذين راحــوا يقللــون من الأهمية العقدية لموضوع الإمامــة ومخالفــة مــا كــان ثابتــا مــن ثوابــت المعتقد الأشعري :"الأئمة من قــريش"[3]، حتــى أن بعضــهم جوَّزهــا فــي كــل من قام بالكتاب والسنة مطلقــًا[4].

وظهــر في المســكوكات الموحديــة إســم عبــد المــؤمن وكنيتــه ولقبــه الخليفي "أمير المؤمنين" الذي يكشف عن شخصــيته الطموحــة المتطلعــة إلــى حكــم العالم الإسلامي[5].

ولم يكتفِ الموحدون بافتكاك لقب الخلافــة مــن العباســيين بــل ناصــبوا العــداء للإمارات والممالك التي لا زالــت علــى ولائهــا للعباســيين كالســلطة الأيوبية في مصــر[6].

---

1 – ابن الأبار، **الحلة السيراء**، تحقيق: حسين مــؤنس، الطبعــة 02، دار المعــارف، القــاهرة، مصــر، 1985م ، ج: 2، ص: 241 – 244 .

2 – المقري، نفح الطيب، ج: 4، ص: 203 .

3 – مفقود، أنظر: يوسف احنانا، تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي، ص: 169 .

4 – مؤلف مغربي مجهول، **الرسالة الوجيزة إلى الحضــرة العزيــزة**، تقــديم: محمــد الــدرفني، مطبعــة المعارف الجدديدة، الرباط، المغرب، 1987م، ص: 34 .

5 – أنظر: صالح يوسف بن قربة، مقال: شخصية عبد المــؤمن بــن علــي مــن خــلال نقــوده، **مجلــة التاريخ العربي**، مجلة علمية محكمــة تصــدرها جمعيــة المــؤرخين المغاربــة، المغــرب، العــدد: 25، ص: 165.

6 – أنظر: أحمد العزاوي، مجموع رسائل موحدية، ج:2، ص: 250 .

واستمرَّ الموحدون حتى أيام ضعفهم مُتشبِّثين بمبدأ شرعية سيادتهم على جميع المسلمين والدعوى بأن الله كلَّفهم بالقيام بحقِّه في جميع بلاد الإسلام[1] .

ويجزم بعض المؤرخين والدارسين أن ابن تومرت بيَّت نية تأسيس دولته منذ رحلته المشرقية إذ " كان يُحدِّث نفسه بالدولة، و لقي أبا حامد الغزالي وفاوضه بذات صدره في ذلك فأراده عليه"[2]، وفي الكتاب المنسوب للغزالي نجد على لسانه " وقرأ عليَّ بالمدرسة النظامية سرا من الناس في النوبة الثانية بعد رجوعي من السفر رجل من المغرب يُقال له محمد بن تومرت ... توسمت منه الملك" [3] .

فيبدو أن الموحدين عزموا عزماً تاماً على سحق أي خلافة، وربما شعر الأيوبيون بالخطر الموحدي أكثر من غيرهم وهو ما تُفيدهُ رسالة صلاح الدين الأيوبي إلى المستضيء العباسي " إن بني عبد المؤمن قد اشتهر أن أمرهم قد أمر وملكهم قد عمر وجيوشهم لا تطاق وأوامرهم لا تشاق ..." [4]، وذكر المراكشي أن المنصور صرَّح بنيته في الرحلة إلى المشرق وتطهير البلاد المصرية من المنكرات[5].

ويذكر ابن جبير614هـ/1217م في رحلته أن أهل مصر والحجاز لهم اعتقادٌ بقرب وصول الموحدين إلى بلادهم[6]، وجاء في كتاب "المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب" أنه كان للمهدي بالبلاد المصرية

---

1 – نفسه، ص:200.

2 – السلاوي، المصدر السابق، ج2، ص: 71 .

3 – الغزالي (منسوب له)، سر العالمين و كشف ما في الدارين ، تحقيق: محمد مصطفى أبوالعلا، مكتبة الجندي، القاهرة، 1968م ، ج: 1 ، ص: 5 – 8 .

4 – القلقشندي، المصدر السابق، ج:13، ص:92.

5 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 207.

6 – ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص: 26 و 49 .

جمعية من أنصاره ينشرون دعوة الدولـة الموحديـة فـي الـبلاد المشـرقية[1]، وفي أواخر أيام يعقوب المنصور أراد أن يُحقق هذه الفكـرة فقـال عـن الـبلاد المصرية "نحن إن شاء الله مُطهروها"[2].

ومن العجيب ما جاء في ترجمة أبـي الوليـد القرطبـي تـ 551هـ/1156م –السابقة– أنه قدِمَ مصـر هاربًا من عبد المـؤمن ودولتـه ثـم خـاف من استيلائه على مصر فقدم الحجاز فخاف أن يحُـج فـدخل الـيمن ثـم خـاف أن يظهر على اليمن فأراد ان يتوجه إلى الهنـد فمـات بزبيـد[3]، ممـا يُـوحي برواج فكرة توسُّـع الموحدين نـحو المشـرق.

ويبدوا أن وَسْم الموحدين بالخوارج لـيس وليـد الدراسـات الحديثـة والإستنتاجات المتأخرة فقد ذكر البيـذق تـ555هـ/1159م أن أهـل فـاس لمـا عـاينوا طلائـع جـيش الموحـدين تتقـدم مـن مـدينتهم تصـايحوا: " الخارجيون في زالاغ[4]" [5]، ولم يكن للموحدين تسـمية حينهـا لـدى العامـة إلا

---

1 – البيذق، **المقتبس من كتاب الأنسـاب فـي معرفـة الأصـحاب**، دار المنصـور للطباعـة والـورق، الرباط، المغرب، 1971م، ص: 28 و29 و30.

2 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 207.

3 – المقري، نفح الطيب، ج: 2، ص: 240.

4 – زلاغ جبل يبتدئ عند نهر سبو و يمتد من الغرب إلـى الشـرق علـى مسـافة نحـو أربعـة عشـر ميلا وتشرف قمته على فاس من جهة الشمال ، إذ ينتهي علـى بعـد نحـو ثلاثـة أميـال منهـا يراجـع حسن الوزان، **وصف إفريقيا** ، ترجمـة : محمـد حجـي ، و محمـد الأخضـر ،الجـزء 01 ، الطبعـة 02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983 م، ص: 293 و294.

5 – البيذق، أخبار ابن تومرت، ص: 89 .

" الخوارج " [1]، وقد أجمعت كثير مـن المصـادر علـى ذكـر ابـن تـومرت وحركته ضمن حركات الخوارج[2].

ولعل من الطبيعي جـدا أن يكـون فقهـاء المـرابطين أول مـن وسـم الموحدين بالخوارج المنشـقـيـن عن طاعة الإمـام الحـق المتغلـب بمفهـوم أهل الحديث[3]، لتكفيره الناس بالذنب ومنعه الصلاة علـى أهـل القبلـة، فكانـت هذه التهمة "الأكثر حضورا فيما دمغ به الفقهـاء حركـة ابـن تـومرت وعُبـر عنها أحيانا بـــ تهمة الخلاف" [4] .

فقد ذكر البيذق أن المهدي سألهم عـن المـرابطين مـا يقولـون عـنهم؟، قالوا له لقبونا، قال وكيف؟ قالوا: يقولون خـوارج، قـال سـبقونا بـالقبيح، لـو كان خيرا أحجموا عنه وما سبقونا إليه، لقبوهم أنتم فـإن الله ذكـر فـي كتابـه "فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مـا اعتـدى علـيكم"، قولـوا لهـم أنـتم أيضا : المجسمون، "ففعلنا " [5].

ويبدو أن صفة "الخوارج" لازمت الموحدين طيلـة عهـدهم إلـى درجـة أن تاجرا يهودياً نزل بفاس واستعمل هـذه الصـفة فـي إحـدى مراسـلاته إذ

---

1 – ابـن غـازي المكناسـي، __الـروض الهتـون فـي أخبـار مكناسـة الزيتـون__، الربـاط، المغرب،1371هـ/1952م، ص:6.

2 – الشـاطبي، الإعتصـام، ص: 326 و327 و328. وابـن الخطيـب أعمـال الأعـلام، ج:3 ص: 267 . وابـن الخطيـب، رقـم الحـل، ص: 57 و197 . وابـن أبـي زرع، البيـان المغـرب(قسـم الموحدين)، ص: 175، وابـن غـازي، الـروض الهتـون، ص: 6 15 و 23. والـذهبي، سـير أعـلام النبلاء، ج :19 ، ص: 541. والسلاوي ، الاستقصا، ج 02، ص: 94 .

3 – البيذق ، أخبار المهدي، ص : 77 . ومؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص : 81 .

4 – ابن أبـي زرع الفاسـي، رؤوض القرطـاس، ص: 175، وليفـي بروفنسـال، رسـائل موحديـة، ص:4 .

5 – البيذق، المصدر السابق، ص: 71 .

يقول:"ومنذ ان احتلَّ الخارجي (يقصد عبد المؤمن) السوس ساد الركود"[1] .

واستكمالاً في رصد مواقف الفقهاء من النزعة الخارجية لدى الموحدين، نستقرئ موقف القاضي عياض الذي كان يرى في حركة الموحدين حركة خارجية، وأن لا حقَّ لهم في الإمامة، فامتنع في أول أمره عن مبايعة عبد المؤمن[2] وأبقى بيعته للأمير تاشفين بن علي الذي يُعتبر أمير الوقت وله عليهم حق الطاعة في المعروف، ولما قُتل تاشفين بن علي وفُتحت تلمسان وفاس وقويت شوكة عبد المؤمن بايعه القاضي عياض حينئذ وقَبلَ صِلته، لأن من قويت شوكته وجبت طاعته[3] وإن لم يقع الرضى به تجنبا للفتنة وإراقة الدماء، ثم لما ضعف أمر الموحدين مرة أخرى بسبب قيام ثورة الماسي رجع القاضي بأهل سبتة عن بيعته إلى طاعة المرابطين[4] الذين لهم الحق في الإمامة عن طريق الأصالة[5]، فقد أدرج البيذق القاضي عياض ضمن لائحة "الثائرين المنافقين على الأمر العزيز"[6] مما يجعلنا لا نقف كثيرا عند محاولات ابنه (محمد بن عياض) تبرئة والده من العداء للموحدين[7].

---

1 – أنظر: أمين توفيق الطيبي، **جوانب من الحياة الإقتصادية في المغرب في القرن السادس الهجري من خلال رسائل جنيزة "** ، بحث مقدم ضمن : أعمال المؤتمر الثالث حول تاريخ المغرب و حضارته وهران 26 – 28 11 – 1983، ديوان المطبوعات الجامعية، 1987 م، ج: 1، ص : 79 .

2 – السلاوي، المصدر السابق، ج: 2، ص: 115.

3 – نفسه، ج: 2، ص: 115.

4 – ابن عذارى، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص : 32 .

5 – السلاوي، المصدر السابق، ج: 2، ص: 115.

6 – البيذق، أخبار المهدي، ص: 123 – 126 .

7 – ابن عياض، التعريف بالقاضي عياض، ص: 12 و ما بعدها، والمقري، أزهار الرياض، ج: 3، ص: 11 .

ونـــذكر أنَّ ابـــن تومــــــرت يُخـــالف الخـــوارج حـــين يـــرى بوجـــوب الخلافة وأنها شرط من شــروط الــدين[1]، بينمــا الخــوارج لا يــرون وجــوب الخلافة شرعا ولا عقلا[2]، كما ذهب خلفاء ابن تــومرت إلــى ادعــاء القرشــية وأنها شرط في الخلافة لاعتقادهم أنهــا شــرط فــي الخلافــة[3]، فالخــــــوارج لا يشترطون النسب القرشي في الخليفة وابن تــومرت وخلفــاؤه ادعــوا نســباً قرشيا لأجل ذلك[4]، وهو إحــدى المتناقضات التي تميــز مــذهب ابــن تــومرت الذي سعـــى إلى " جمع ابــن تــومرت الأفكــار الناجحــة سياســيا مــن كــل مذهب " [5] .

ويـــُـمكن القول في الأخيــر أن الباحــث فــي الــدعوة التومرتيــة يجد اللمسة الخارجيــة بعنفوانهــا وتطرفهــا، تبــرز متســترةً أحيانًــا وســافرةً أحيانًا أخــرى .

---

1 – ابن تومرت، أعز ما يــُـطلب، ص:257.

2 –عبد القاهر البغدادي، **الفرق بـين الفــرق**، الطبعــة 02، دار الآفــاق الجديــدة، بيــروت، 1977م، ص: 340.

3 – البيذق، أخبار المهدي ابن تومرت، 12 و13، وأنظــر: مؤلــف مجهــول، **مفــاخر البربــر**، دراســة وتحقيق: عبد القــادر بوبايــة، الطبعــة 01، دار أبــي رقــراق للطباعــة والنشــر، الربــاط، المغــرب، 2005م، ص : 199 .

4 – عزالدين عمر موسى، الموحدون في الغرب الإسلامي، ص: 81.

5 – فيلتشر، الأندلس وشمال إفريقيا في عقيدة الموحــدين ضــمن كتــاب: **الحضــارة العربيــة الإســلامية في الأندلس** ، تحرير:ســلمى الخضــراء الجيوســي، الطبعــة 01، مركــز دراســات الوحــدة العربيــة، بيروت، 1998م،ج: 01، ص: 365.

المبحث الثاني: سيادة المذهب الأشعـري في الغرب الإسلامي خـلال العصـر الموحـدي :

المطلـب الأول : دور السلطـة الموحديـة فـي ترسـيم المـذهب الأشعـري.

كان أهم تحول عقيـدي عرفـه الغـرب الإسـلامي واستقـر عليـه فـي العصر الموحدي هو التحول إلـى المـذهب الأشـعري الكلامـي، فهـو أبـرز التحولات وضـوحا واسـتمراراً، وقبـل العصـر الموحـدي مـا كـان أهـل المغرب يدينون إلاّ بتنزيه الله تعالى، مع ترك الخـوض فيمـا تقصـر العقـول عنه.

وقد تحدث المـؤرخ المغربـي ناصـر الـدين السـلاوي عـن هـذا التحول حاكياً عن أهل المغرب: "...وأمـا حـالهم فـي الأصـول والاعتقـادات فبعد أن طهَّرهم الله تعالى من نزعة الخارجيـة أولا والرافضـية ثانيـا أقـاموا على مذهب أهل السنة والجماعة مقلـدين للجمهـور مـن السـلف رضـي الله عنهم في الإيمان بالمتشابه وعـدم التعـرض لـه بالتأويـل مـع التنزيـه عـن الظاهر- وهو والله أحسـن المـذاهب وأسـلمها -...[1] واسـتمر الحـال علـى ذلك مدة إلى أن ظهر محمد بن تومرت مهـدي الموحـدين فـي صـدر المائـة السادسة، فرحل إلـى المشـرق وأخـذ عـن علمائـه مـذهب أبـي الحسـن

---

1 - السلاوي، المصـدر السـابـق، ج : 1، ص: 63، وأردف ذلـك بأبيـات للشـيخ سـيدي بـاب الشنقيطي رحمه الله تعالى، نقلها عنه تلميذه الشيخ محمد ابـن أبـي مـدين فـي كتابـه : شَـنُّ الغَـارَات على أهلِ وحدَةِ الوجُودِ وأهلِ المعيَّةِ بالذَّات-لايزال مخطوطاً- تعكـس استحسـان مالكيـة المغـرب فـي عصره عقيدة السلف في الأسماء والصفات .

عقيدتنا أن ليس مثل صفاته **** ولا ذاته شيء عقيدة صـائب.

سلم آيات الصفات بأسرها **** وأخبارهـا للظاهر المتقـارب.

ونؤيس عنها كنه فهم عقولنا **** وتأويلنا فعل اللبيب المراقـب.

ونركب للتسليم سفناً فإنها **** لتسليم دين المرء خير المراكب.

الأشعــري ومتأخري أصحابه"[1].

إن الحديث عن نجاح العقيدة الأشعرية في المغــرب الإســلامي هــو حــديث عن نجاح شخصية سياسية دينية مغربية هي شخصية محمــد بــن تــومرت الــذي تتلمذ في المشرق على كبار أئمـــة الأشـــعرية [2]، إلاّ أنّ إقامتـــه المشـــرقية جعلـــت عقيدته انتقائية من مذاهب إسلامية مختلفــــة ومتناقضـــــة أحيانـــا، فنجـــد بينهـــا آراءً أشعرية، إعتزالية[3]، وبجانبها أفكار شيعية[4] وخارجية[5] وحتى باطنية[6] .

---

1 – السلاوي، المــصــدر الســابــق ، ج : 1، ص: 63 .

2 – تتلمذ ابن تومرت مسيرته العلمية على أيدي شـيوخ كبـار أمثـال القاضـي عيـاض المـالكي تــ 544هـ/ 1149م الذي قرأ عليه في قرطبـة، والإمـام المـازري تـ 536 هـ/ 1141م الـذي أخـذ عنه في المهدية قبل أن ينتقل إلى بغداد ليلتقي بكوكبة أخـرى مـن الفقهـاء أمثـال أبـي حامـد الغزالـي تـ505هـ/ 1111م والكيا الهراسي تـ567 هـ / 1171م وأبـي بكـر الطرطوشـي تـ521هـ / 1126م وأبي بكر الشاشي تـ528هـ/ 1133م الذي أخذ عليـه شـيئا مـن الأصـول، وفـي المشـرق سكن النظامية ببغداد أين التقى بأئمـة الأشـعرية وكبـار علمائهـا وفحـول نظارهـا، واشـتغل بـالعلم وتبحر في علم الكلام، وعاد إلى المغرب لينشر العلـم الـذي جـاء بـه مـن المشـرق، أنـظر: ابـن خلكـان، وفيـات الأعيـان، ج : 5، ص : 46 . والصـفدي، المـصـدر السـابـق، ص : 482 . والمراكشي، المعجب، ص : 178. القلقشـندي، صـبح الأعشـى فـي صـناعة الإنشـا، ج : 5، ص : 132. وابن خلدون، تاريخ بـن خلـدون، ج : 6، ص : 300، وابـن كثيـر، المـصـدر السـابـق، ج : 12، ص : 186، الذهبي، العبر في خبـر مـن غبـر، ص : 246 ،247. والسـبكي، المـصـدر السـابـق، ج: 06، ص: 219. وابن أبي زرع، روض القرطاس، ص: 172.

3 – تحدث بن تيمية عن ذلك في بعض كتبه أنظر: ابـن تيميـة، **درء تعـارض العقـل والنقـل**، تحقيـق: محمد رشاد سالم، الطبعة 02، جامعة الإمام محمد بـن سـعود الإسـلامية، المملكـة العربيـة السـعودية، الريـاض، السـعودية، 1411 هـ / 1991 م، ج:3، ص: 438. و**شـرح العقيـدة الأصـفهانية** ، تحقيق: إبراهيم سعيداي، الطبعـة 01، مكتبـة الرشـد، الريـاض، 1415هـ / 1994 م، ج :1، ص: 41. وبيان تلبيس الجهمية، ج : 1، ص : 470، مجموع الفتاوى، ج : 6، ص : 617 .

4 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج : 6، ص : 300 .

5 – قال ابن الخطيب في رقم الحلل في نظم الدول: " له باع فـي علـم الكـلام، وغلبـت عليـه نزعـة خارجية "، ابن الخطيب، رقم الحلل، ص: 57 .

6 – يعكس تأثر بن تومرت بالفرق الباطنيـة بالمشـرق فـي اعتمـاده علـى كتـاب الجفـر المكـذوب، والمعلـوم أن الباطنيـة تهـتم اهتمامـاً كبيـراً بهـذه الطلاسـم و الخـزعبلات. أنظـر : السـلاوي،

لكن يبقى أهم ما طبع معتقد ابـن تـومرت هـو الصـبغة الأشـعرية فـي التوحيـد[1]، لِحملـهِ – أي بـن تـومرت – الآيـات والأحاديـث التـي يـُـظنّ أنـها تـُوهم التشبيه على التنزيه المطلـق[2]، ومـن جهـةٍ أخـرى لاعتبـاره أول من فتـح الباب عُـنوة في بلاد المغرب لـدخول التأويـل الكلامـي[3]، ومـا كـان قبله إنما هو من قبيل المحاولات الأولـى[4] .

نسب ابن خلدون ابن تومرت إلـى الأشـعرية[5]، وقبلـه يقـول المـؤرخ الموحدي عبد الواحد المركشي في شيئ من الثقـة والحسـم والقطـع : " كـان –ابن تومرت– على مذهب أبي الحسن الأشعري فـي أكثـر المسـائل، إلا فـي إثبات الصفات فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها" [6].

المـصــدر السـابــق، ج : 01، ص : 81. و بـن ابـي زرع، المـصــدر السـابــق، ص : 180 . وابن تيمية، **بغية المرتاد فـي الـرد علـى المتفلسـفة والقرامطـة والباطنيـة**، تحقيـق موسـى سليمان الدويش، الطبعة 01، مكتبة العلـوم والحكـم، 1408، ص : 321 . وأنظـر تفاصـيل أكثـر فـي المبحث السابق.

1– أنظر: ابن خلدون، تـاريخ ابـن خلـدون، ج:6، ص:302. ومحمـود صـبحي، **فـي علـم الكـلام دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسـلامية فـي أصـول الـدين ، المعتزلـة و الأشاعـرة** ، الإسـكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعيـة، 1406 هــ / 1987م ، ص : 671 . وعبـد الله كنـون، النبـوغ المغربـي، ص : 102 .

2 – عبد المجيد النجار، ابن تومرت، ص : 430 .

3– الصـلابي محممـد علـي، **الدولـة الموحديـة**، دار البيـارق، الأردن، الطبعـة01، 1419 هــ / 1998م، ص : 4. واعتبر سلطة بن تومرت السبب في انحسـار مـذهب أهـل السـنة، وفشـوا مـذاهب المتكلمين.

4 – عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ص: 121 .

5 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج:6، ص:302

6 – المراكشي، المصدر السابق، ص : 188 . ويبـدو أنّ ابـن تـومرت قـد اسـتعار عبـارة التوحيـد تلك من المعتزلة فهم الذين يعطون اسـم التوحيـد فـي تعـريفهم لفكـرة الله، يقـول الشهرسـتاني عـن المعتزلة : " واتفقوا على نفي رؤية الله تعالى بالأبصار في دار القـرار، ونفـي التشـبيه عنـه مـن كـل وجه، جهة ومكانا وصورة، وجسـما وتحيـزا وانتقـالا وزوالا وتغيـرا و تـأثرا، وسـموا هـذا الـنمط توحيدا ". ص: 209 .

وقد دافع السُبكي عن ابن تومرت ونفى كل التـــُهم المُوجهـــة إليـــه، ومـــن ذلك قوله في رد تهمة الاعتزال عنه بأن ذلك " لم يصـــح عنـــدنا ذلـــك، والأغلـــب أنه كان أشعرياً صحيح العقيدة أميرا عادلا داعيا إلى طريق الحق " [1].

بينما يرى المفكر المغربـــي عابـــد الجـــابري أنـــه مـــن الخاطـــأ اعتبـــار المذهب الأشعري هو مذهب الدولة الموحديـــة إذ كانـــت الدولـــة فـــي الحقيقـــة ذات مذهب خاص، مذهب يعتمـــد علـــى الكتـــاب والســـنة مـــع انفتـــاح علـــى الفلسفة والعلوم، ويستدلُّ الباحث بأن ابن رشـــد الفيلســـوف الـــذي عـــاش فـــي كنف الدولة الموحدية وفي بلاطها قد تصدى لنقـــد المـــذهب الأشـــعري بلهجـــةٍ حادةٍ أحيانًا[2] .

ولعلَّ إقامة ابن تومرت في المشرق وتنقلـــه بـــين حواضـــره قـــد أكســـبته ذهنية نقدية، مما جعله متحررا من الإلتـــزام المـــذهبي الكامـــل الـــذي يتقيـــد فيـــه أتبـــاع المـــذهب بكـــل قواعـــده وأصـــوله وأحكامـــه، فعنـــدما نـــتمعنُ فـــي آراء ابن تومرت في مختلف المسائل يتبـــين لنـــا أن هـــذه الآراء لاتقـــوم علـــى وحـــدة مذهبية وإنما هي آخذة من مختلف المذاهب مســـتفيدة مـــن شـــتى الأفهـــام العقديـــة والأصولية التي توصَّـــل إليهـــا الفكـــر الإســـلامي إلـــى أوائـــل القـــرن الســـادس الهجري، حيث اطلع على تلك المـــذاهب عـــن قـــرب فـــي البيئـــة المشـــرقية ثـــم اقتبس من كل منها مـــا رآه أقـــرب إلـــى الحـــق مـــن جهـــة، أو أنفـــع لتحقيـــق مشروعه الثوري من جهة أخرى، ولهذا كانت الصـــبغة الإنتقائيـــة واضـــحة فـــي فكره ومذهبه .

وعمومًا عاد ابن تومرت بأشعـــريتـــه إلى المغـــرب، وهـــو يمتلـــك نظـــرةً ويحمل قناعةً بأن الإسلام فـــي المغـــرب لـــم يـــُـــــفهم كمـــا ينبغـــي، ورأى أن

1- السبكي، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي، ج: 8، ص: 185.

2 – محمد عابد الجابري مقدمة كتاب: **الكشف عن منـــاهج الأدلـــة فـــي عقائـــد الملـــة**، لابـــن رشـــد، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة 01، بيروت، لبنان، 1998م، ص : 45 .

السلطة المرابطية التي تُـمسك زمام السلطة في المغرب قـد أغرقـت أهلـه فـي التجسيم والضلال، كمـا رأى أنـه مـن الضـروري أن يُـحدث انقلابـا فـي الوضع، وأن لا يدخر جهدا في سبيل ذلك[1] .

ولم يكن هدف ابـن تـومرت مـن هـذه الآراء أن يقررهـا للنـاس فـي مؤلفات يتداولونها كما تتـداول سـائر الكتـب، بـل كـان هدفـه أن يتحـول محتواها عقيدة وأصولا وسياسة إلى واقع في حيـاة النـاس تصـورا وسـلوكا، ولهذا الغرض اضطلع بالدعوة إليها والعمـل علـى إنفاذهـا فـي حيـاة أهـل المغرب في ثورة شاملة أسس هو أركانهـا ونهـض باسـتكمالها أتباعُـه مـن بعـده[2].

لقد تكوَّنت لدى ابن تومرت قناعـة بأنـه لـن تقـوم للأشـعرية قائمـة بالمغرب ما دام بالمغرب سلطة قائمـة تقـف بالمرصـاد للمـذهب الأشعـري، وأن جهوده الدعويـة مهما كانت لن تُـؤتـي ثمارها[3].

ونجح ابـن تـومرت فـي إقامـة دولتـه علـى أسـس عقيدية بحتـة، ولا يـُمكن تفسير مجهوده الكبير في إقامـة دولتـه تفسـيراً سياسـيا كمـا قـد يـُفهم، بل كان لها " رنين ديني" [4] فـإن تسـمية دولتـه بالموحديـة وأنصـاره بالموحدين تحمل دلالات ومعـانٍ تؤكد الصـبغة العقيديـة لحركتـه ودولتـه، فلـم ينسـبها إليـه وإنمـا أعطاهـا الصبغـة العقيديـة التـي كانـت لُحـمـتـها

---

1 – وعند عبد الله كنون أن بن تومرت كانت تراوده فكرة الثـورة علـى الواقـع المغربـي قبـل رحلتـه إلى المشرق . أنظر : عبد الله كنون : المرجـع السابـق، ص : 99 .

2 – عبد المجيد النجار، ابن تومرت، ص: 145 و177.

3 – مغزاوي مصطفى، المرجع السابق، ص:36.

4 – أنظر مقدمة كتاب: **لباب العقول في الرد على الفلاسفة فـي علـم الأصـول**، أبـي الحجـاج يوسـف بن محمد المكلاتي، تحقيق وتقديم: فوقية حسين محمـود، الطبعـة 01، دار الأنصـار، القـاهرة، مصـر، 1977م، ص: 31.

وسَــداهــا[1]، ويــُــمكن الجزم بأنه ما من دولة قامــت فـــي المغــرب الإســلامي طيلة الحقبة الإسلامية إلا على أساس مذهبٍ ديني، بــل لا يمكــن التــأريخ لكثيــر من هذه الدول دون البدأ بتســجيل الآراء الدينيــة أو الأفكـــار المذهبيــة لداعيــةٍ أو فقيهٍ قامت الدولة على هديٍ من أقوالـــه أو اجتهاداتـــه، وكيــف يُمكــن التــأريخ لدولة المــرابطين دون ذكــر الفقيــه عبــد الله بــن ياســين الجزولـــي أو دولـــة الموحدين دون ذكرٍ للمهدي ابن تومرت[2] .

أردف ابن تومرت مجهوده الحربي بمجهود علمي، فــذكر ابــن خلــدون أنـــه –أي ابن تومرت– لما نزل علــى قومــه ســنة 515هــــ/1121م " بنــى رابطـــة للعبادة فاجتمعت إليه الطلبة والقبائــل يُـــعلمهم المرشــدة فــي التوحيــد باللســان البربــري " [3] .

ويعكس لنا النص حــرص ابــن تــومرت الشــديد علــى تبليــغ أفكـــاره تدريســاً وتصنيفاً، من خلال بنائه للربــاط واجتمــاع الطلبــة عليــه مــن جهــة، واستعماله –من جهة أخرى– للسان البربري نــزولاً عنــد حاجــة مــن لا يحــذق اللسان العربي منهم، كما يفيــد كـــلام ابــن خلــدون أنَّ ابــن تــومرت اعتنـــى بالتصنيف، من خلال ذكره لرسالة المرشــدة في التوحيــد.

صنَّف ابــن تــومرت فـــي العقيــدة والفقـــه والمــواعظ، وحظـــي الجانـــب العقيدي الأشعــري منها بمصنفين هما كتاب التوحيــد باللســان البربــري والـــذي

---

1 – انظر: عبد المجيد النجــار، ابــن تــومرت، ص : 401. وعــز الــدين موســى، الموحــدون فـــي المغرب الإسلامي، ص: 86. وأيضا ألفــرد بــل، المرجـــع السابـــق، ص : 249. ويوســف احنانـــا، تطور المذهب الأشعري، ص : 80، 81 .

2 – أنظر : محمود صــبحي، فـــي علــم الكــلام، ص : 641، محمــد رينــر، حــول بعــض الوقـــائع الموحدية، **مجلة البحث العلمي**، يناير – إبريل 1967م / شوال – محرم 1387هـ، ص : 47 .

3 – ابن خلدون، المــصــدر الســابــق، ج : 6، ص : 300 .

تُسميه المصادر بكتاب التوحيد أو كتاب السبعة أحزاب[1]، وقد ألزم ابن تومرت أصحابه بتقسيم كتاب التوحيد إلى أحزاب وأن يقرأ الموحدون حزباً منه كل يوم بعد قراءة حزب القرآن[2]، وكان يشتمل على معرفة الله تعالى والعلم بحقيقة القضاء والقدر، والإيمان بما يجب لله تعالى وما يستحيل عليه، وغير ذلك من الموضوعات التي كان فيها على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل[3].

والنص العقيدي الأشعري الآخر الذي نجده ضمن آثار ابن تومرت هو نص العقيدة المرشدة، والمرشدة رسالة محضة في العقيدة الأشعرية ضمن جامع " أعز ما يطلب "، افتتحها ابن تومرت بقوله " اعلم أرشدنا الله وإياك ..."[4]، فعُرفت لذلك بالمرشدة، ولا يُستبعد أن يكون أنصارها والمعتقدين لها قد طبعوا عليها هذه التسمية ليُوهموا التطابق بين اسمها وصفتها خاصة أنها لم تُعرف بهذا الإسم إلاّ في عهدٍ متأخر[5] .

---

1 – ابن الخطيب، رقم الحلل، ص : 80، و ابن الأثير، المصدر السابق، ج : 8، ص : 296 . وابن أبي زرع، روض القرطاس، ص : 123 . وابن خلدون، المصدر السابق، ج: 4 ، ص : 466 . والمراكشي، المصدر السابق، ص : 254 .

2 – مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص:80 .

3 – يقول حسن علي حسن عن العقيدة التومرتية أنها " ليست أشعرية بحتة كما ذكر المراكشي وابن خلدون، ولاخارجية كما أدركها علماء المرابطين، كما أنها ليست معتزلية تقوم على الأدلة العقلية وحدها ولا سلفية تنأى عن الرأي والتأويل، وليست غزالية كما توهمها أندري جوليان بل هي مزيج من أغلب المذاهب المذكورة " ثم يضيف الباحث عنصرا مهما في المعتقد التومرتي أغفله المؤرخون وهو الحزمية. أنظر: حسن علي حسن، تاريخ الإسلام، ج:4، ص:442 .

4 – ابن تومرت، عقيدة المرشدة ضمن مجموعه أعز ما يطلب، ص:224 .

5 – يدل على ذلك أن الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي لما أصدر مرسوما يأمر بالاعتناء بالمرشدة جاء فيه " يلزم العامة و من في الديار بقراءة العقيدة التي أولها (اعلم أرشدك الله) وحفظها و تفهمها " فلم تُسمى حينها بالمرشدة. أنظر نص المرسوم ضمن رسالة مخطوطة بباريس نقله منها عبد المجيد النجار في كتابه ابن تومرت، ص : 404 .

وقد خصصها ابن تومرت للكلام في المسائل المتعلقة بذات الله تعالى ذاتا وصفاتا دون غيرها من مسائل العقيدة كالإيمان بالرسل أو اليوم الآخر أو مسائل القدر والصحابة كما هو شائع في المتون العقيدية، وجاءت هذه المسائل مرتبة على النحو التالي: وحدانية الله تعالى، خالقيته المطلقة، خضوع الخلائق له، أزلية وجوده، تنزهه عن الزمان والمكان، تنزهه عن الشبيه والمثيل، سمعه وبصره .

كان ابن تومرت نفسه يولّيها عناية متزايدة بالتبليغ والتدريس، وهو ما يفيد به كلام ابن خلدون حين قال "وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد وأعلن بإمامتهم ووجوب تقليدهم وألّف العقائد على رأيهم مثل المرشدة في التوحيد"[1]، وقوله أيضا أنَّ ابن تومرت لما نزل بقومه سنة 515هـ/1121م " بنى رابطة للعبادة فاجتمعت إليه الطلبة والقبائل يعلمهم المرشدة في التوحيد باللسان البربري"[2]، فاستغلَّ ابن تومرت سلطانه بين المصامدة لإنفاذ مرشدته ونشرها بينهم وتقريبها لهم بلسانهم البربري المحلّي[1] .

وقد تهيّأ لهذا المتن العقيدي جملة من الأسباب جعلته ينتشر في المغرب والمشرق، وبتتبع هذه الظروف نستخلص ثلاثة عوامل رئيسة متفاوتة الأهمية ساهمت في نشره :

أما العامل الأول فيتعلق ببساطتها ووجازتها وبلاغتها، فهي في حجمها تسعها الصفحة أو الصفحتين، بالإضافة إلى أنها غير مثقلة بالأدلة والتعاليق، يدل على ذلك أن أبا القاسم بن أحمد بن محمد البرزلي ت844هـ/ 1440م، ذكرها في نوازله، وأوردها نصا كاملا، وقال فيها " تواتر الخبر عن الإمام

---

1 – ابن خلدون، المصدر السابق، ج :6، ص : 300 .

2 – نفسه.

المهدي الشريف رئيس الموحدين وأولهم في ذلك عقيدته المشهورة بالمرشدة ... وقد كثر حفظ هذه العقيدة لقلتها وبلاغتها "[2]، ووصفها أبو عبد الله محمد بن علي المعروف بابن النقاش ت 819 هـ/1416م الذي تولى شرحها – " بالعقيدة المختصرة المنتظمة الكلام، الحسنة النظام، المرتبطة المعاني " [3] .

ومن أسباب انتشار " المرشدة " وشيوعها – أيضًا –: خلوُّها من دعوى المهدوية والعصمة إذ طبعتها الصبغة الأشعرية المحضة، ومما يؤكد أشعريتها الخالصة أنها لقيت استحسانا وإقبالا من أشاعرة المشرق، فقد ذكر السبكي أن فخر الدين بن عساكر ت 620هـ/1223م كان يدرسها بالقدس بمدرسة قريبة من الحرم[4]، كما ذكر السبكي أيضا أن خليل بن كيكلدي العلائي الأشعري ت 761هـ/1359م أطال في تعظيم المرشدة والإزراء بمن نقدها أو اعتقد فسادها[5]، ونقل السبكي من خطه قوله " هذه العقيدة المرشدة جرى قائلها على المنهاج القويم والعقد المستقيم، وأصاب فيما نزه به العلي العظيم"[6]، فمدح ما تضمنته من أصول أشعرية رغم أنه كان يشكك في نسبتها إلى ابن تومرت[7] .

أما العامل الثالث – والأهم – في ذيوع المرشدة وانتشارها هو سياسة الخليفة عبد المؤمن بن علي الذي أقرَّها وعمل على ترسيمها وتشجيعها

---

1 – أهم ما ساعد على انتشار المرشدة هو سياسة عبد المؤمن كما سنرى.

2 – عبد المجيد النجار، المرجع السابق، ص : 456 نقلا عن نوازل البرزلي مخطوط بالدار التونسية .

3 – نفسه، ص: 454 نقلاً عن ابن النقاش، الدرة المفردة، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط.

4 – السبكي، المصدر السابق، ج: 5، ص: 70 .

5 – نفسه.

6 – نفسه.

7 – نفسه.

كما سيتبيَّن لنا عند الحديث عن مجهودات عبد المؤمن في دعم المذهب الأشعري في دولته.

وعموماً عكس الخطاب العقيدي في مصنفات ابن تومرت أفكاره العقيدية التي غذَّتها أفكار الفرق الإسلامية في المشرق، وغلبت عليها النزعة الأشعرية، كما يتضح من خلالها حرصُ ابن تومرت على تبليغ المضمون العقيدي الأشعري لدعوته علميًا وعمليًا عن طريق التدريس والتصنيف، كما أنها كانت باللسانين العربي والبربري (المصمودي المغربي)، وتوجيهه تلك المصنفات لخدمة مشروعه ودعوته الأشعرية في المغرب، فتعمَد البساطة واستهداف الجماهير وعدم إثقالها بالأدلة، وأكد الباحث عبد المجيد النجار أن ابن تومرت من خلال مصنفاته تلك " لم يكن يهدف إلى وضع علم في الكتب يستفيد منه الخاصة من العلماء، ولكنه كان يهدف إلى أن يجعل أفكاره واقعا مُعاشاً في حياة الناس فهيأها في نسقٍ تغلب عليه الصبغة الخطابية التي يكثر فيها التداعي والإستطراد، وتخلو أحيانا من الإستدلال اقتصارًا على العرض المجرد الذي يحفل بالتكرار في العبارات والمعاني"[1].

وقد جزم أحد الباحثين بأن المذهب الأشعري وُجد قبل ابن تومرت ولكن ابن تومرت فقط عمل على تعميمه بعد تبسيطه ليلائم إدراك العوام[2].

ولكن هذا الكلام لا يتوافق مع ما أجمع عليه من أرَّخ للوجود الأشعري بالمغرب الإسلامي من التمييز بين مرحلتين، الحضور الفردي البطيئ

---

1 – عبد المجيد النجار، المرجع السابق، ص : 158 .

2 – محمد المغراوي، تطور علاقة السلطة الموحدية بفقهاء المذهب المالكي إلى عهد يعقوب المنصور، <u>**مجلة آفاق الثقافة والتراث**</u>، الأردن،2000م، العدد: 31، ص: 25، ونفس الرأي نجده عند المؤرخ المغربي يوسف احنانا والمستشرق الفرنسي أدم متز.

للمذهب، وتبدأ بظهوره في المشرق خــلال ق4هـــ/10م إلـــى مطلـــع القـــرن 6هــ/ 12م، لتبدأ بعدها المرحلة الثانية وهي مرحلة التغلغل والترسيم[1].

ولئن لم يـُـنسأ في أجل ابن تومرت حتى يشـــهد ثمـــار جهـــوده " إلا أنـــه حدَّد لأتباعـــه أسس هـــذه الدولـــة، ووصـــف لهـــم السياســـة التـــي ينبغـــي أن تقـــوم عليها "[2].

فكـــان الانتصـــار الأكبـــر للمـــذهب الأشـــعري فـــي عهـــد الخليفـــة عبد المؤمن بن علي، الذي كان عهـــده امتـــداداً واســـتمراراً للتنديـــد بأســـس النظام المرابطي ومذهبه بنفس التطـــرف واللهجـــة التـــي كانـــت علـــى عهـــد زعامة ابن تومرت للموحدين.

فقد كان من أهم أســـباب نجـــاح المعتقـــد التـــومرتي – والأشـــعري علـــى وجه الخصوص– ولاء وإخلاص عبد المـــؤمن لأفكـــار شـــيخه ابـــن تـــومرت، إذ كان شديد الحرص على نشر كل آراء ابـــن تـــومرت[3]، زوَّاراً لقبـــره حتـــى غدا من المراسيم السلطانية الرسمية[4].

ويتجلى استمرار الوفاء لأسلوب الـــزعيم الروحـــي بكيفيـــة مُعبـــرة فـــي حرص الخليفة عبد المـــؤمن علـــى إدراج بعـــض رســـائل المهـــدي الدعائيـــة ضمن رسالة إلى قبائل "كزولة" سعياً منه إلـــى اســـتمالتهم لصـــف الموحـــدين

---

1 – انظر مثلا ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص:300. والسلاوي، الاستقصاء، ص:63.

2 – النجار عبد المجيد، الدولة والسياسة في فكـــر المهـــدي ابـــن تـــومرت، **مجلـــة الثقافـــة**، عـــدد: 81، 1984م، ص: 82.

3 – أنظر المطلب الأول من المبحث السابق .

4 – يدل على ذلـــك تكـــرر الزيـــارة فـــي عهـــد المنصـــور، و رغـــم الـــولاء الروحـــي الشـــديد لـــدى عبد المؤمن بن علي لشيخه محمد ابن تومرت إلا أنه لم يتـــردد عـــن قتـــل أخويـــه أبـــو موســـى عيســـى وأبو محمد عبد العزيز الذين ثارا على عبد المؤمن و انتهـــى الأمـــر بقتلهمـــا البيـــذق، أخبـــار المهـــدي، ص : 141 والمراكشي، المصدر السابق، ص : 303 .

وتنفيرهم مـن المـرابطين[1]، ولا نسـتغرب إخـلاص عبـد المـؤمن الشـديد لابن تـومرت واسـتمراريته علـى نهجـه، فقـد كـان عبـد المـؤمن تلميـذ ابن تومرت في طلب العلـم قبـل أن يكـون خليفتـه علـى منصـب الحكـم والسياسة[2]، والغريب ما أقـره أحـد المستشـرقين مـن أنَّ عبـد المـؤمن لـم يكـن وفـيّاً لتعالـيم المهـدي بن تومـرت إطلاقاً[3].

فقد كان عبد المؤمن من العشرة الذين آمنو بالمهـدي ابـن تـومرت فـي "سـاعة العسـرة"، ويـُـفسَرُ حمـاس عبـد المـؤمن بأحـد الاحتمـالين: فيـُحتمل أن عبد المؤمن اقتنـع حتـى النخـاع بالمبـادئ التومرتيـة التـي تلقاها مباشرة عن المهدي، أو أنَّـه وجـد فـي دعـوة ابـن تـومرت سـبيلاً لتحقيق أمانيه في الوصول إلى الحكـم، فقـد وصـفه المراكشـي بأنـه " كـان سري الهمة، نزيه النفس، شديد الملوكية، وكأنـه ورثهـا كـابر عـن كابـر، لا يرضى إلاّ بمعالي الأمور"[4]، ولأنـه كـان مـن أسـرة بسـيطة مـن قبيلـة بسيطة أيضا فكان الإيمان بالمهدي أفضـل وأقصـر سـبيلٍ للوصـول إلـى الحكـم[5].

وقد تحقق أمل المهدي في خليفته فتولّى شـؤون الدولـة بحـزمٍ منـذ ولايته سنة 524هـ/1129م وحمل لواء الـدعوة صـامدا فـي وجـه الأعـداء عاملا على نشر عقيدة الموحدين في المغرب كله وفي الأندلس.

---

1 – أحمد العزاوي، مجموع رسائل موحدية، الرسالة الرابعة، ج: 1، ص: 53 .

2– مبارك رضوان، **المذهب المالكي بـالمغرب فـي عهـد المـرابطين والموحـدين**، المغـرب، رسـالة لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة ،كلية الاداب والعلوم الانسانية بالرباط ،1987م، ص: 162 .

3 – روجي لوتورنو، **حركة الموحدين في المغرب في القـرنين الثـاني عشـر والثالـث عشـر**، الـدار العربية للكتاب،1982م، ص:67.

4 – عبد الواحـد المراكشـي، المعجـب، ص:150 ، والسـلاوي، الاستقصـا، ج:2، ص: 157. وابـن خلكان، وفيات الأعيان، ج:7، ص: 134.

5 – واعظ نويوة، المرجع السابق، ص : 39 .

ووجدتُ لسياسة عبد المؤمن الدعائية الإسهام الأكبر في انتشار المرشدة، تجسد ذلك في اعتناء عبد المؤمن بمؤلفات ابن تومرت، فرتبها في سفر جامع عُرف بـ"أعز ما يُطلب"، بل كان عبد المؤمن نفسه يتولى تدريس مسائل من هذه المؤلفات في مجالس يعقدها بغرض التدريس، كما كان يأمر بأن يُقرأ بعضٌ منها للتبرك عند العزم على القيام بمهمات الأمور وخاصة عند الحرب، حتى صار ذلك سنة سار عليها بنوه من بعده[1].

وكان عبد المؤمن يأمر الحفاظ " بالتزام أشياخ البلاد من الفقهاء والطلبة والكتاب والشعراء، ومذاكرتهم وملازمة الخير وقراءة القرآن وعقائد الإمام المهدي رضي الله تعالى عنه وحفظها، وحفظ التوحيد العربي والغربي، والعدل والإحسان وإماتة الباطل" [2] .

ومن بين الوسائل التي اعتمدها الموحدون لنشر عقائد المهدي المتشبعة بالأشعرية، تحفيظها للطلبة وترديدها في المناسبات المختلفة ترديداً جماعيًا جهريًا بالعربية والأمازيغية فكان من رسوم الخلفاء إذا ركبوا وقف (الخليفة) وبسط يديه ودعا فإذا فرغ الدعاء افتتح القراءة طلبة الموحدين خلفه، فيقرؤون حزباً من القرآن في نهاية الترتيل وهم سائرون سيرا رقيقا ثم شيئا من الحديث ثم يقرؤون تآليف ابن تومرت في العقائد بلسانهم وباللسان العربي[3].

ومما يعكس حرص الموحدين على نشر العقيدة التومرتية والأشعرية منها على وجه الخصوص تِلكم الرسائل التي كان يوجهها الخليفة عبد المؤمن بن علي إلى القبائل والولاّة يحثُّ فيها على ضرورة الحفاظ على المكاسب العقيدية التي تحققت جراء الثورة الموحدية، وعلى

1 – المراكشي، المصدر السابق، ص:247 .

2 – ابن القطان، نظم الجمان، ص: 173 .

3 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 426 و427 .

الوجه الأخص منها رسالة "الفصول" التي أصدرها عبد المؤمن بن علي تتضمن صراحة ضرورة التمسك بالمذهب الأشعري، وجهها إلى أهل بجاية في الثالث من ربيع الأول سنة 556هـ/1160م، وفيها يشرح جملة من مبادئ الموحدين التنظيمية، ويدعو إلى تطبيقها تطبيقا صارما لا هوادة فيه ولا مراجعة، وفيها أيضا حث على قراءة العقائد الموحدية وحفظها، وأخذ الناس بعلم التوحيد، ولو باللسان البربري[1].

كما أصدر عبد المؤمن – من خلال الرسالة- أوامره إلى كافة الموحدين بمتابعة نشر تعاليم المهدي بلسانهم البربري واللغة العربية معاً وإلزام السكان بحفظ مبادئه، ومن لم يتمثل لذلك كان دمه مباحاً، فقد جاء في رسالته: " ويؤمر الذين يفهمون اللسان الغَربي (يقصد اللسان البربري) ويتكلمون به أن يقرؤوا التوحيد بذلك اللسان من أوله إلى آخر القول في المعجزات ويحفظوه ويّقصُّوه، ويُلازموا قراءته ويتعهدوه ... إذ لا يصحُّ لهم عملٌ ولا يُقبل منهم قول دون معرفة التوحيد، فمن لم يعرف المُرسَل لم يصدق بالمُرسِل ولا بالرسالة، ومن حصَل على هذه الحالة فقد تعثَّر في أذيال الضلالة، فإن لم يبادر إلى التخلص منها، والانفصال بالعلم عنها فقد وجب عليه حكمُ الكتاب، ولا عنَت في إراقة دمِه لا محالة " [2] .

وأهم ما خدم به عبد المؤمن "المرشدة" إصداره مرسومًا يأمر فيه عامة الناس بأن يشتغلوا بقراءة مؤلفات المهدي ابن تومرت في العقيدة، وظبط لهم في ذلك أقدارًا معينة وتراتيب خاصة يتَّبعونها، ومما يلفتُ الانتباه في هذا المرسوم ما جاء فيه من أنه " يُؤمر طلبة الحضر ومن في معناهم بقراءة العقائد وحفظها وتعاهدها على سبيل التفهم

1 – لافي بروفنصال، **مجموع رسائل موحدية**، المطبعة الإقتصادية، الرباط، المغرب، 1941م، ص: 129.

2 – نفسه، الرسالة الثالثة والعشرون، ص : 132 .

والتبين والتنبه والتبصر، ويلزم العامة ومـن فـي الـديار بقـراءة العقيـدة التـي أولـها (اعـلم أرشـدك الله) وحفظها وتفهمهـا، وأشمـل فـي هـذا الإلـزام الرجال والنساء والأحرار والعبيـد وكل من توجب عليه التكليف" [1].

ونتيجة للعناية السياسـية المركـزة انتشـرت المرشـدة وشـاعت وكثـر شـارحـوهـا ودارسوها، وأخـذت الأشـعرية فـي المغـرب تلـتحم بأشـعرية المشرق بعد ابن تومرت[2] .

ويبدوا أن العناية حظيت بها جميع مصنفات ابن تـومرت ولـم تكـن حكـراً على المرشدة، وهو ما يـُـفيده قول ابن الخطيـب أن ابـن تـومرت " ألّـف لهـم – أي لأتباعه – كتاباً سـماه بالقواعـد وآخـر سـماه بالإمامـة، همـا موجـودان بأيدي الناس لهذا العهد"[3]، أي في زمن ابـن الخطيـب المتـوفى سـنة 776هـــ/ 1374م وكانت وفاة ابن تومرت في العام 541هـ/ 1146م.

أما يوسف بن عبد المؤمن فقد برع في العلـوم منقولهـا ومعقولهـا، فيـذكر ابن صاحب الصلاة في ترجمته لأبي يعقوب يوسف أنـه كـان فاضـلا عـادلا مستظهرا لكتاب الله تعالى بشرحه عالمـا بحـديث الرسـول صـلى الله عليـه وسلم ومتضلعا في العلوم الشرعية والأصولية متقدما في علم المهـدي[4].

وفي رسـالةٍ بعـث بهـا الخليفـة أبـو يعقـوب يوسـف إلـى الطلبـة والموحدين الذين بجزيرة الأندلس مؤرخة فـي ربيـع الآخـر سـنة 564هـــ/

---

1 – أنظر نص المرسوم ضمن رسالة مخطوطة بباريس نقله منهـا عبـد المجيـد النجـار فـي كتابـه ابن تومـرت، ص: 404.

2 – السبكي، المصـدر السـابـق، ج : 5، ص : 70. ومغـزاوي مصـطفى، المرجـع السـابق، ص: 101.

3 – مؤلف مجهول، رقم الحلل، ص : 80 .

4 – ابن صاحب الصلاة، ص: 233 . و ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص : 135 .

1168م[1]، يُطلع فيها كافــة الموحــدين والطلبــة الــذين بالأنــدلس علــى أمــر اهتمامه بأحوال الجزيرة الأندلسية، والانشغال بهــا، والعمــل علــى نصــرتها، والحرص على قيام شأن الموحدين بها على كــل قــدم وســاق، بــالوقوف فــي وجه كل الأعداء، من بقايا المــرابطين (المجســمين)، وكــل الناهضــين فــي وجه الدعــوة الموحدية من النصارى الطــامعين وكــل الثــائرين والمشــاغبين بأرض العــدوتين.

وفــي هــذه الرســالة اعتبــر المتربِّصــين بجزيــرة الأنــدلس الــروم والمجســِّمين، جاء فيها " وما زلنا ــ وفقكم الله ــ علــى إتمــام العنايــة بــتلكم الجزيــرة ــ مهــدها الله ــ والحــرص علــى عونهــا، والانتِــواء لنُصــرتها، والعمل على قصد ذلك بالمباشرة والمشاهدة، إشفاقا علــى مــا استضــام منهــا جيرتُها الأعداءُ، وأبناؤها الأعقاءُ، مُجسِّــمين ورومًــا، ومــا كادوهــا بــه مــن التكلف والتحيــف، والتــنقص وفغْــــر الأفــواه، وكشــر النيــوب والإرصــاد لغَيْض ما فاض فيها من نــور التوحيد "[2].

والقارئ للرسالة يُلاحظ تشابه الخــط الفكــري والتوجــه المــذهبي بــين هذه الرسالة والرسالتين السابقتين وبقية الرسائل الموحدية.

وكان "علم المهدي" حاضرًا بقوة في مجالس الخلفــاء، فهــذا عبــد المــؤمن يتذاكره مع طلبة الحضر[3]، واستمر ابنه يوسف فــي قــراءة أعــز مــا يطلــب في مجالسه بقراءة الكاتب أبي عبــد الله بــن عميــرة[4] فــإذا قــرأ فصــلاً بــه غموض تولى أبو الحسن بن الإشبيلي[1] شرح غامضها وفتح أقفالها[2].

---

1 – ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، ص: 292 وما بعدها.

2 – نفســـــه.

3 – نفســـــه، ص : 160 و ما بعدها .

4 – هوأحمد بن عبد الله بن الحسين بن عميرة المخزومــي خــدم عــدد كبيــر مــن الأمــراء والخلفــاء الموحدين، وصفه مــُعاصرهُ ابن سعيد المغربــي بأنَّــــه " عظــيم الأنــدلس فــي الكتابــة وفــي فنــون العلم"، بينما وصفه ابن عبد الملك المراكشي بانَّــــه: " شــديد التطــارح علــى خدمــة الرؤســاء، كثيــر

ومن مظاهر استقواء الدعوة الموحدية الكلامية الأشعرية إكرام الخلفاء الموحدين للعلماء والفقهاء القائمين على أمر هذه الدعوة، ولأنَّ نجاح المذهب واستمراريته مُرتبطٌ بنشاط فقهائه، وبهم نجاح البرامج والمبادئ الفكرية لأيِّ دولة، فقد كان عبد المؤمن يُنزلهم المنزلة التي تليق بهم مؤثراً لهم[3]، وكان يستدعي العلماء إلى حاضرته، يقول المراكشي: "وكان عبد المؤمن مؤثرًا لأهل العلم محبا لهم محسنا إليهم يستدعيهم من البلاد إلى السكون عنده والجوار بحضرته"[4]، فقد استقدم يعقوب المنصور الفقيه محمد بن أحمد بن محمد اللخمي[5] حيث نال منزلة كريمة لديه وعند أبنائه من بعده[6] .

وكان عبد المؤمن يُجري المرتبات والأرزاق على طلبة الحضر شهريا من بيت المال، وإلى جانب ذلك كان يمنح الهبات والمنح للعلماء،

الحرص والربة في ضمِّ حُطام الدنيا"، توفي سنة 658هـ/ 1259م، أنظر: ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج:2، ص: 263. وابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:1، ص: 176.

1 – علي بن محمد بن خليل المكنى بأبي الحسن المعروف بابن الإشبيلي من أهل المرية توفي بمراكش عام 567 هـ/ 1171م، أنظر : ابن الأبار، التكملة، ص : 668 – 669 .

2 – ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق، ص : 160 . وابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:5، ص: 304 .

3 – ابن الخطيب، الحلل الموشية، ص: 113. وعبد الله عنان، عصر المرابطين، ص : 403.

4 – عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص : 200 .

5 – محمد بن أحمد بن محمد اللخمي (أبو عبد الله ابن اللحام) الواعظ، وُلد بتلمسان، واستقدمه المنصور يعقوب ابن يوسف إلى مراكش، فاستوطنها، وحظي عنده وعند مليكها الناصر والمستنصر وكف بصره، وتوفي بمراكش. من آثاره : حجة الحافظين ومحجة الواعظين. أنظر: عمر كحالة، معجم المؤلفين، مرجع سابق، ج:9، ص:13. وخير الدين الزركلي، الأعلام، ج:6، ص:214.

6 – أبو زكريا يحي ابن خلدون، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، مطبعة بيير بونطانا الشرفية، الجزائر، 1321هـ/1903م،ج: 01، ص : 27 .

فالعالم أحمد بن عبد الرحمان المعروف بـــابن أبـــي الصـــقر، كـــان إذا وفـــد على الخليفة عبد المؤمن وصله في المرة الواحدة خمسمائة دينار[1] .

وعندما لاحظ الخليفـــة عبـــد المـــؤمن ضـــعف حالـــة العلمـــاء بمـــراكش أقرضهم مالاً يتاجرون به لتحسين وضعيتهم ولم يسترده منهم أبداً[2] .

وتحوّل حال كثيرٍ منهم من الفقر والضـــنك إلـــى اليســـر والرخـــاء نتيجـــة اتصالهم بالخلفاء والأمراء، فالعـــالم أبـــو القاســـم الســـهيلي المتـــوفى بمـــراكش عام 581هـ/1185م نال دنيا عريضة بعد اتّصـــاله بالخلفـــاء[3]، والعـــالم أحمـــد بن عتيق بن الحسن تـــ601هـــ/1204م نال بخدمـــة الســـلطان دنيـــا عريضـــة أيضا[4]، كذلك العالم أبو بكر بـــن خلـــف الأنصـــاري الفقيـــه المتـــوفى بمدينـــة فاس عام 599 هـــ/1202م جمع أموالاً جليلة نتيجـــة اتصـــاله بـــولاة الأمـــــر بمـــراكش[5].

وكان الطلبة هم حملـــة الـــدعوة الموحديـــة والمبشّـــرين بهـــا، وبالمقابـــل كانت الدولة الموحدية تتعهدهم منذو أن يكونـــوا حفاظـــا (صـــغار الطلبـــة)[6]، وذكر لنا صاحب الحلل أن الطلبة الذين كـــانوا تحـــت إشـــراف عبـــد المـــؤمن في التعليم كانت نفقتهم وخيلهم وسائر مؤنتهـــم من عنـــده[7].

وسار الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على نفـــس سياســـة أبيـــــه فـــي تكريم العلمـــاء والعنايـــة بهـــم فقـــد كـــان حريصـــاً علـــى مجالســـة الفقهـــاء

---

1 – ابن إبراهيم، المصدر السابق ، ج: 1، ص : 232 .

2 – ابن القطان، نظم الجمان، ص : 137 .

3 – ابن دحية، المطرب، مصدر سابق، ص : 208 – 212 .

4 – ابن الأبار، التكملة، ص : 117 .

5 – نفســه، ص : 261 و 262 .

6 – أنظر: مقدمة نظم الجمان، ص : 19 .

7 – مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص : 126 .

ومحادثتهم[1]، وكان مهتما بجلب العلماء إلى عاصمته والاستفادة من علمهم، يقول المراكشي عنه : " ويبحث عن العلماء خاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله من ملك المغرب"[2]، ومن مظاهر تقديره للعلماء واحترامه لهم أنه حين قصد الأندلس عام: 580هـ/1184م وقصد إشبيلية فخرج الناس لاستقباله ورؤيته فما أن أبصر الخليفة العالم ابن الجد[3] حتى ترجَّل عن فرسه وأقبل عليه وتعانقا[4].

وحظي العلماء في عصر المنصور بالإكرام والتبجيل أيضًا، يُصور المراكشي ذلك بقوله : "ونال عنده طلبة العلم ما لم ينالو في أيام أبيه وجدِّه ...."[5]، حيث كان مُكرماً لهم[6] محباً لهم " صادرا عن رأيهم ... يشهد جنائز الفقهاء والعلماء ويزورهم ويتبرك بهم ...أكرم الفقهاء وراعى العلماء والفضلاء "[7].

فقد أضفى خلفاء الدولة الموحدية الرعاية والعناية والإكرام على طبقة الطلبة، إلى درجة أن خلقت لهم هذه العناية السلطانية حساداً وناقمين

---

1 – ابن أبي زرع، المصدر السابق، ج: 2، ص : 181 و182 .

2 – المراكشي، المصدر السابق، ص : 239 .

3 – الإمام الحافظ أبو بكر بن الجدّ، فقيه الأندلس، وحافظها، انتهت إليه رئاسة الفقه أزيد من ستين سنة، كان في غزارة الحفظ، ومتانة مادّة العلم، عبرة من العبر، وآية من الآيات، وذكره ابن رشد فقال: "بحر الفقه وحبره، وفقيه الأندلس في وقته، وحافظ المذهب، لا يدانيه أحد، مع الذهن الثاقب وسرعة الجواب، والبراعة في العربية"، وقد حلف أبو بكر محمد بن علي التجيبي أنَّ ابن الجدّ أحفظ من ابن القاسم، أنظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج:12، ص:178 و179، والذهبي، تاريخ الإسلام، ج:44، ص: 425.

4 – ابن عذارى، المصدر السابق، ج 4، ص : 60 .

5 – المراكشي، المصدر السابق، ص : 279 و280 .

6 – ابن الأثير المصدر السابق، ج :09 ص : 165. والميلي، تاريخ الجزائر، ج:2، ص : 230. ويوسف أشباخ، المرجع السابق، ج:2، ص : 77

7 – ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص : 256 و257 .

ومتذمرين، مما جعل المنصور الموحدي يُدافع عنهم، ويوصي بهم قبيل وفاته حين قال في مرض وفاته مُوجها حديثه إلى الموحدين: " وهؤلاء الطلبة إن أمكنكم ألا تصرفوا أحدا منهم فهو الأحق لهم ولكم "[1].

إن المعاملة الحسنة التي عامل بها الخلفاء الموحدين العلماء والفقهاء لم يحظ بها كل الفقهاء من كل المذاهب، بل اقتصرت على الفقهاء السائرين على نهج الموحدين، والباحثين في عقيدتهم، وعومل غيرهم بقسوة "حتى أنهم خرجوا من البلاد خوفا من بطش الخلفاء"[2].

وحقّق الموحدون نجاحاً في سعيهم لنشر المذهب الأشعري، وتمَّ ذلك بالخصوص خلال عهدي عبد المؤمن بن علي ويوسف بن علي، أما المنصور فكان حماسه متوجهًا نحو الجانب الفقهي.

إلى جانب العامل السياسي فإنني سجلتُ عوامل أخرى – أقل درجة– ساعدت على سيادة المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي، وكان للحكومة الموحدية استثمار هذه العوامل في ترسيم المذهب الأشعري والانتصار له، نذكر من تلك العوامل نجاح المذهب في المشرق، فقد كان نجاح العقيدة الأشعرية في المغرب امتداداً لنجاحها الكبير في المشرق منذ وزارة نظام الملك السلجوقي[3] ونشاط

---

1 – ابن عذارى، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ج :04، ص : 185 – 186 .

2 – علي أحمد، **<u>الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس حتى نهاية القرن التاسع الهجري</u>**، الطبعة 01، دار طلاس للدراسات و الترجمة و النشر، دمشق، سوريا، 1989م، ص : 88 .

3 – الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي، أشهر وزراء الدولة السلجوقية، عينه السلطان ألب أرسلان وزيرًا له، اغتالته أيدي الباطنية سنة 485هـ /1092م ، انظر عنه مثلا: السبكي، المصدر السابق، ج : 04، ص : 309. والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج : 19، ص : 94 .

المدارس النظامية[1] والتي يـُـعدُّ ابن تومرت نفسه مـن خرِّيجيها، ويصـوِّر لنا المقريزي في "المواعظ" حجم هـذا الانتصـار فيقول:"...واتفـق مـع ذلـك توجه أبي عبد الله محمد بن تـومرت أحـد رجـالات المغـرب إلـى العـراق، وأخذ عن أبي حامد الغزاليّ مذهب الأشعريّ، فلمـا عـاد إلـى بـلاد المغـرب وقّام في المصامدة يفقههـم ويعلمهم، وضع لهم عقيـدة لقفهـا عنـه عـامّتهم"[2]، وقد بالغ أحد الباحثين لمـا اعتبـر الدولـة الموحديـة ثمـرة لتوجيهـات فقيـه نظامية بغـداد"[3] قاصداً الإمام الغزالـي الـذي تـولّى التـدريس فـي نظاميـة بغـداد .

أضف إلى ذلك أن اتصـال المغاربـة المـالكيين بنظـرائهم الأشـاعرة في المشـرق منـذ زمـن مبكـر جعلهـم يتـأثرون بشـكل أو بـآخر بـالفكر الأشعـري، فقد كانـت مجموعـة مـن كبـار المفكـرين بـالغرب الإسـلامي يتجهون في بداية حياتهم العلميـة إلـى المشـرق فيتلقـون دراسـتهم الفقهيـة والعقدية على يد كبار علماء المالكية مـن الأشـاعرة هنـاك، وعنـد عـودتهم إلى بلدانهم يعودون متشبعين بأفكارهم الأشعرية، نذكر مـنهم الفقيـه أبـو بكـر بن العربي الأشعري المالكي الذي عـاد مـن المشـرق بفقـه مـالكي ومعتقـدٍ أشعري، حيث جاء مُـبايعاً لعبد المؤمن بـن علـي خلافـا للقاضـي عيـاض السبتي الذي نشأ نشأةً مالكية في المغـرب[4].

---

1 – يقول السبكي عن نظام الملك أنـه بنـى مدرسـة ببغـداد ومدرسـة بـبلخ، ومدرسـة بنيسـابور، ومدرسـة بهـراة، ومدرسـة بأصـبهان، ومدرسـة بالبصـرة ، ومدرسـة بمـرو، ومدرسـة بآمـل طبرستان، ومدرسة بالموصل، ويُـقال إن له في كل مدينـة بـالعراق و خرسـان مدرسـة، السـبكي، المـصـدر السـابـق، ج :4، ص : 180.

2 – المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، ج:4، ص:160 .

3 – شرف محمد جـلال، **نشـأة الفكـر السياسـي وتطـوره فـي الإسـلام**، الطبعـة02، دار النهضـة العربية، بيروت، لبنان، 1990م، ص: 261 .

4 – ابن عذارى، البيان المغـرب (قسـم الموحـدين)، ص : 33. وابـن أبـي زرع، روض القرطـاس، ص : 190 .

ويرى الدكتور محمد المغراوي أن التلازم بـين الفقـه المـالكي والعقيـدة الأشعرية سِمة من سِمات المالكية بـالغرب الإسـلامي تـدريجياً منـذ العصـر الموحدي فقد تشبث المغاربة منذ زمـن الموحـدين بالعقيـدة الأشـعرية حتـى أضحت ثابتا من ثوابتهم الدينية ومقوماً مـن مقومـاتهم الفكريـة[1]، وقـد عبَّـر الفقيه عبد الواحد بن عاشر تـ1040 هـ/1631م عـن هـذا المعنـى فـي منظومته (المرشد المعين) بقوله شعـرا:

في عقد الأشعري وفقه مالك *** وفي طريقة الجنيد السالك[2].

وعلى العموم فإن من نتائج هذه التطـورات أنْ أصـبح الـتلازم بـين الفقه المالكي والعقيدة الأشعرية سِمةً من سـمات المالكيـة بـالغرب الإسـلامي تدريجياً منذ العصر الموحدي[3] .

ولعل من أسباب انتشار العقيدة الأشـعرية بـالغرب الإسـلامي خلـوُّه مـن التيار الحنبلي، ومـن المعـروف أن المـذهب الحنبلـي شـكَّل حـاجزاً أعـاق انتشار المذهب الأشعري في المشـرق، وكـان ابـن تيميـة يقـول: "والنـاس يعلمون أنه كان بين الحنبلية والأشـعرية وحشـةٌ ومنـافرة، وأنـا كنـت مـن أعظم الناس تأليفاً لقلوب المسلمين، وطلباً لاتفاق كلمـتهم، واتباعـاً لمـا أُمرنـا به من الاعتصـام بحبـل الله، وأزلـت عامـة مـا كـان فـي النفـوس مـن الوحشـة"[4].

---

1 – المغراوي، الصلحاء، ص: 193 .

2 – ابن عاشر، متن ابن عاشر في مذهب مالك: **المرشد المعين على الضروري من علوم الدين**، المطبعة الثعالبية، الجزائـر، 1343هـ/ 1924م، البيت الخامس من المنظوم، ص: 2.

3 – المغراوي، الصلحاء، ص: 193 واستدل بالبيت الشعري لابن عاشر الـذي سبق ذكـره.

4 – ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج:3، ص: 227.

وعموما سجَّــل المذهب الأشعري – مع الموحـــدين– دخولـــه بقـــوةٍ فـــي المغرب الأقصى بعد أن فشل في ذلك بـــالمغرب الأدنـــى[1]، وممـــا يـــدل علـــى انتعاش المذهب الأشعري زمـــن الموحـــدين انتشـــار ظـــاهرة الشـــروح علـــى العقائد الأشـــعرية، منهـــا شـــروح علـــى عقيـــدة "الإرشـــاد" لإمـــام الحـــرمين أبي المعالي الجويني الأشعري تـــ 478هـــ/1085 م، كالشـــرح الموســـوم بـــ "النكت على شرح الإرشاد" لأبي إسحاق إبـــراهيم بـــن يوســـف بـــن محمـــد بن دهاق المعروف بـــابن المـــرأة الأندلســـي تـــ 611هـــ/ 1214م[2]، وقبلـــه شرح أبي الحسن علي بن محمد بن ابراهيم الشـــهير بـــابن البقـــري الغرنـــاطي تـــ 552هـــ/1157م المعنون بـــ : "منـــاهج الســـداد فـــي شـــرح الإرشـــاد" [3]، وشرح أبي يحي زكرياء بـــن يحـــي الإدريســـي الحســـني الموســـوم بـــــ: " كفاية طالب الكلام فـــي شـــرح الإرشـــاد"[4] ، وشـــرح الإرشـــاد لعبـــد العزيـــز بن بزيزة تـــ 622هـــ/1224م وعنوانـــه : "الإســـعاد فـــي شـــرح الإرشـــاد"[5]، وشرح آخـــر لأبـــي بكـــر الخفـــاف عـــُـــرف بــــ: "اقتطـــاف الأزهـــار واســـتخراج نتـــائج الأفكـــار لتحصـــيل البغيـــة والمـــراد مـــن شـــرح كتـــاب الإرشاد"[6]، وشرح الإرشاد –أيضاً– لأبي بكر بن ميمون القرطبي[1].

ولم تقتصر الشروح على " الإرشاد " فقـــط بـــل أيضـــاً ظهـــر الاهتمـــام بعقيدة "المرشدة"، فهـــذا أبو عمـــرو عثمـــان بـــن عبـــد الله القيســـي القرشـــي

---

1 – عبد المجيد النجار، **فصول في الفكـــر الإســـلامي بـــالمغرب**، الطبعـــة 01 ، دار الغـــرب الإســـلامي، بيروت، 1413هــ/ 1992 م، ص : 33 وما بعدها.

2 – يوسف احنانا، المرجع السابق، ص: 137 .

3 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:5، ص: 282 .

4 – مخطوطة بخزانة القرويين، أنظر : يوسف احنانا، المرجع السابق، ص: 139 .

5 – مخطوط أيضا، أنظر : يوسف احنانا، المرجع السابق، ص: 141 .

6 – وهو شرح لم يصلنا إلا عنوانه فـــلا زال فـــي حـــودد المفقـــود أنظـــر : يوســـف احنانـــا، المرجـــع السابق، ص: 142 .

المعروف بالسلالجي تـ564هـ/1168م كان له اعتناء بمرشدة ابن تومرت، وشبّهه بعض المؤرخين بأبي المعالي الجويني في المشرق[2]، لاطلاعه الواسع في علم الكلام و لدوره الكبير في نشر وتعليم المذهب الأشعري بالغرب الإسلامي، حتى لـقُب – في مبالغة أشعرية واضحةٍ – بمنقذ أهل فاس من التجسيم[3]، والأصحّ من ذلك ما قاله عبد الله كنون إنه " هو الذي على يده وقع تحول أهل فاس من المذهب السلفي في العقيدة إلى المذهب الأشعري تبعا للتيار العام الذي اكتسح المغرب بأكمله في هذا الأمر نتيجة لدعوة ابن تومرت" [4] واُشتهر بعقيدته الصغيرة المسماة " العقيدة البرهانية في علم الألوهية " المعروفة بالبرهانية أو السلالجية[5].

كما اعتنى العلماء بدراسة وشرح كتب أئمة الأشاعرة وتدريسها للطلبة ومن تلك الكتب: الإبانة في أصول الديانة، والردّ على المجسِّمة، واللّمع في الردّ على أهل الزيغ والبدع لإمام المذهب أبي الحسن الأشعري، وجامع الحلى في أصول الدين، والردّ على الملحدين للباقلاني، والشامل في أصول الدّين، والإرشاد للجوني[6]، والإحياء للغزالي[7].

---

1 – مطبوع، أنظر : يوسف احنانا، المرجع السابق، ص: 142 .

2 – نفسه، ص : 112 .

3 –عبد الله علي علام، **<u>الدعوة الموحدية بالمغرب</u>**، الطبعة 01، القاهرة، دار المعرفة، 1964م، ص : 305 .

4 –عبد الله كنون، **<u>النبوغ المغربي</u>**، ج : 1، ص : 121 .

5 – حققها يوسف احنانا و أوردها كاملة مع دراسة تفصيلية في ملحق كتابه : **<u>تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي</u>**، منشورات وارة الاوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، 1414هـ/2003م، ص : 237 – 252 .

6 – ابن عساكر، المصدر السابق، ص 34 وما يليها.

7 – حاجي خليفة، كشف الظنون، ج1، ص 23و24، وأنظر: إبراهيم القادري بوتشيش، **<u>إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي و تاريخه الاقتصادي والاجتماعي</u>**، دار الطليعة، بيروت، 2002، ص: 131.

ومن هذا كله يمكن الجزم أن الــدور السياســي للموحــدين كــان الحســم في توطيد المــذهب الأشــعري فــي شتـــَّى أنحــاء إمبراطــوريتهم المترامية الأطراف[1] تحت شــعار الأمــر بــالمعروف والنهــي عــن المنكــر، فحـُـــسم بصورة شبه كاملة فرض الأشعرية كمذهب عقيــدي علــى المســتوى الرســمي والهيئات والمؤسسات العلمية و"بقيت قلة من الفقهاء وفية لمذهب السلف"[2].

وقــدَّم لنا السلاوي تــ1319هــــ/1901م نتيجــة جهـــود ابــن تــومرت ودولته في تقرير مذهبــه، قــائلا : " ... إلــى أن ظهــر ابــن تــومرت مهــدي الموحدين، فرحل إلى المشرق وأخذ عــن علمائــه مــذهب الشــيخ أبــي الحســن الأشعري ومتأخري أصحابه، ثم عاد ابن تــومرت إلــى المغــرب ودعــا النــاس إلى سلوك هذه الطريقة، وجزم بتضليل من خالفها، بــل بتكفيــره، وســمَّى أتباعــه بالموحدين تعريضاً بأنَّ من خالف طريقته ليس بموحد، ومــن ذلــك الوقــت أقبــل علماء المغرب علــى اعتنــاق المــذهب الأشــعري وتقريــره وتحريــره درســا وتأليفا، وإن كان قد ظهر بالمغرب فظهورًا ما"[3].

وســبقه فــي تقريــر ذلــك ابــن خلــدون تـــ808هـــ/1405م فــي أنَّ ابن تومرت أخذ بــرأي الأشاعرة " فــي تأويــل المتشــابه مــن الآي والحــديث، بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن اتباعهم فــي التأويــل والأخــد بــرأيهم فيــه، اقتداء بالسلف في ترك التأويل وإمرار المتشــابهات كمــا جــاءت، فطعــن علــى

1 – و هو ما يتفق مع رأي جملة من البــاحثين، مــنهم المستشــرق ألفــرد بــل، المرجـــع السابـــق، ص: 287، ومحمود صبحي، في علم الكــلام، ج : 1، ص : 428 . و حمــد بــن صــالح الســحيباني، المـــرجع الســـابــق، ص : 62 .

2 – محمد المغراوي، تطور علاقة السلطة الموحدية بفقهاء المذهب المالكي، ص: 26 .

3 – السلاوي، المــصــدر الســابــق، ج : 1، ص : 63 .

أهل المغرب في ذلك، وحملهم على القول بالتأويل، والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد وأعلن إمامتهم ووجوب تقليدهم "[1] .

وقال الحسن الوزان (ليون الإفريقي) ت873 هـ/ 1468م " والواقع أنه لا يوجد في عصرنا غير مذهبين لهذه الديانة (الشريعة الإسلامية) أحدهما المذهب الأشعري المنتشر في كل إفريقيا ومصر والشام والجزيرة العربية وتركيا كلها، والثاني مذهب الإمامية المنتشر في جميع بلاد فارس وبعض مدن خرسان "[2] .

المطلب الثاني : العقيدة التومرتية نهاية العصر الموحدي وموقف الفقهاء منها :

إن المتفحص لعقيدة ابن تومرت التي قامت على أساسها الدولة الموحدية يجدها عقيدة انتقائية يغلب عليها الغموض، إلا أنها مركَّبة أساساً من ثلاث عناصر تبتعد عن دائرة أهل الحديث متمثلةً في الأثر الشيعي الباطني، والأثر الخارجي، والأثر الأشعري الكلامي.

وقد أصبحت هذه العقيدة بتناقضاتها مذهباً واقعاً ترعاه السلطة ويدافع عنه الفقهاء وتتحمس له العامة خلال المرحلة الأولى من عمر الدولة الموحدية (515هـ -595هـ / 1121م – 1198م)[3]، وفي رأي

---

1 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج : 6، ص : 300 .

2 – الحسن بن محمد الوزان (ليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، ص : 273 . ومع ذلك يُلاحظ بوضوح المبالغة في كلامه، إلا أن الأشاعرة كانوا يتمعون بسلطات سياسية واسعة في تلك المناطق.

3 – تبتدأ من بيعة المهدي محمد ابن تومرت 515 هـ/1121م (بويع بالمهدوية) وتشمل خلافة عبد المؤمن بن علي(526 هـ- 560 هـ/1131م-1164م)، وخلافة يوسف بن عبد المؤمن(560 هـ- 580 هـ/1164م- 1184م)، وخلافة المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن(580 هـ – 595 هـ / 1184م – 1198م) . وهي تمثل مرحلة التمكين للدولة الموحدية سياسيا ومذهبيا.

المستشرق ألفرد بل أن مذهب الموحدين في العقيدة والشريعة لم يُفرض في كامل الإمبراطورية إلا في عهد الخليفة الثالث أبي يوسف يعقوب المنصور (580 – 595 هـ/ 1184م- 1198م)[1].

والدارس لبنية العقيدة التومرتية يجد أنّها كانت تحمل عناصر فنائها بتناقضاتها وانتقائيتها، فما هي العناصر العقيدية التي رسخت واستمرت، وما هي العناصر التي زالت واندثرت؟ .

شهدت العقيدة التومرتية أيامها الذهبية في المرحلة الأولى من عمر الدولة الموحدية، والتي شملت عبد المؤمن بن علي وابنه أبا يعقوب يوسف وحفيده المنصور.

فالخليفة عبد المؤمن بن علي كان أكثرهم اعتقادا لها ومنافحة عنها وسعيا لنشرها، وعمل على إنزال العقيدة التومرتية إلى العامة وشجعها بين الفقهاء ورسَّمها بين الخلفاء، فقد كان شديد التعلق بالمهدي دائم التقدير والاحترام له، وكثيرا ما كان يقصد قبره بتيمنلل لإطفاء شوقه إليه، كما ذكر في إحدى رسائله : " وكان مقصودنا من هذه الوجهة المباركة زيارة قبر المكرم المهدي رضي الله تعالى عنه لتجديد عهد به تقادم، وشفاء شوق إليه لزم ولازم، والنظر في بناء مسجده المكرم، تمتعاً ببركاته"[2]، كما كانت الزيارة تهدف إلى استلهام القوة وشدة العزم عند إقدامه على عظام المهمات، كالجهاد وإخماد الفتن، وهو ما جاء ذكره في نظم الجمان حيث قال صاحبه : " ذكر حركة أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه من مراكش إلى زيارة قبر المهدي رضي الله تعالى عنه بتيمنل، ووداعه لما يؤمله من زعامة على غزو النصارى أهلكهم الله" [3].

---

1 – ألفرد بل، المرجع السابق، ص: 278 .

2 – ابن القطان، نظم الجمان، ص: 189 و190 .

3 – ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، تحقيق: عبدج الهادي التازي، الطبعة 03، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1987م، ص: 149.

أما أبو يعقوب يوسف فقد أجرى الأمـور علـى عادتهـا مـن تعظـيم المهدي ولا تذكر المصارد له بوادر في هذا الشأن.

فقد جاء في إحدى رسائله إلى أميـر شـرق الأنـدلس أبـي عبـد الله محمد بن سعد قوله : " وقد كان سيدنا أمير المـؤمنين –أيـد الله أمـرهم– فـي القديم ومنذ زمن طويل خـاطبكم بهـذه الـدعوة وحملكـم فيهـا علـى مـنهج النصيحة ، ولم يكن بلـغ الكتـاب أجلـه، ونحـن لأوامـره العليـة مراعـون، وللمدعاة إلى دعائكم إليها داعون، ولرأيه الجميل فـي هدايـة الخلـق مشـيعون ومشايعون"[1].

لذا فيمكن اعتبار فترة الخليفة عبـد المـؤمن بـن علـي وابنـه يوسـف المرحلة الذهبية للعقيدة التومرتية.

واستمرت هذه العقيدة حتى زمن المنصـور، إلا أنهـا أحيطـت بهالـة مـن الشـكوك، فـإن المتتبـع للنصـوص التـي ترصـد مواقـف المنصـور مـن المهدوية، تجعل الباحث يضطرب في شـأن موقـف المنصـور مـن المهدويـة التومرتية.

وخلافاً لما اعتقـده بعـض البـاحثين مـن ثـورة المنصـور العقيديـة، فالنصوص تثبت أن العقيدة التومرتية استمرت علـى عهـد المنصـور مبجّلـة على المستوى الرسمي، فقد حـافظ علـى مراسـيم تقـديس المهـدي كزيـارة قبره، يقول ابن عـذارى أن المنصـور – فـي حركتـه إلـى ققصـة لإخمـاد ثورتها – قَصَدَ " تيمنل لزيارة قبر المهـدي علـى جـري عوائـد سـلفه فـي تيمنهم بتقديمه، وشرع فـي أثنـاء زيـارة قبـر إمامـه فـي نظـر مصـالح البـلاد"[2].

---

1 – لافي بروفنصال، مجموع رسائل موحدية، الرسالة الخامسة والعشرون، ص: 148.

2 – ابن عذارى ، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص: 157 .

ونجـد القصـائد المُعظمـة لأمـر المهدويـة والتومرتيـة فـي حضـرة المنصور والتي كان يـُنشدها أبو العبـاس الجـراوي تـ609 هـ/ 1212م الذي خدم طويلاً بشعره الـدعوة الموحديـة، والمتتبـع لقصـائده يجـد أنهـا لا تخلو من تعظيم المهدوية والعصـمة والإمامـة مـن ذلـك قولـه فـي يعقـوب المنصور :

يهدي و يهدي منعما و معلمـا * لا زال منه الهـدى والإهـداء

أوفي بمـا ترك النبي محمـد * القائـم المهـدي والخـلفـاء [1]

والأميـر الشـاعر الموحـدي أبـو الربيـع سـليمان بـن عبـد الله بن عبد المؤمن بـن علـي الكـومي تـ 604 هـ/1207م يقـول فـي حضرة المنصور:

فليطلبـوا الآمن من إمـامٍ * في كفـه الصفـح والعقـاب[2].

فلا نجد في عصر المنصور – مع إنكـاره لأمـر المهدويـة– مـا يـدلُّ على تغييرٍ ملموسٍ على المستوى الرسمي أو الشعبي.

وبالمقابـل أورد المراكشـي ثـلاث روايـات تـُفيد بـراءة المنصـور الموحدي من أفكار ابن تومرت، فقد جـاء فـي "المعجـب فـي تلخـيص أخبـار المغرب" عن "المراكشي" قوله: "أخبرنـي الشـيخ الصـالح أبـو العبـاس أحمـد بن إبراهيم بن مطرف المـري ونحـن بحجـر الكعبـة، قـال: قـال لـي أميـر المؤمنين أبو يوسف يا أبا العبـاس اشـهد لـي بـين يـدي الله عـز وجـل أنـي لا أقول بالعصمة – يعني عصمة ابن تـومرت – قـال: وقـال: لـي يومـاً وقـد

---

1 – في قصيدة : ضربت عليكَ لواءَهـا العليـاءُ، أنظـر: الجيلالـي سـلطاني، **الشـعر الـديني خـلال العصر الموحدي**، رسالة دكتوراه، 2002 م، كلية الآداب جامعة وهران، ص: 221 .

2 – نفسـه.

استأذنته في فعل شيء يفتقر إلى وجود الإمام: يا أبا العباس أين الإمام؟ أين الإمام؟ " [1] .

والرواية الثانية ينقلها المراكشي عن شيخ لقيهُ من أهل مدينة جيان من جزيرة الأندلس، "يسمى أبا بكر بن هانئ، مشهور البيت هناك، لقيته وقد علت سِنُّه فرويت عنه، قال لي: لما رجع أمير المؤمنين من غزوة الأرك -وهي التي أوقع فيها بالأدفنش وأصحابه- خرجنا نتلقاه، فقدمني أهل البلد لتكليمه، فرفعت إليه، فسألني عن أحوال البلد وأحوال قضاته وولاته وعماله -على ما جرت عادته- فلما فرغت من جوابه، سألني كيف حالي في نفسي فتشكرت له ودعوت بطول بقائه ثم قال: لي ما قرأت من العلم قلت: قرأت تواليف الإمام أعني ابن تومرت فنظر إلي نظرة المغضب وقال: ما هكذا يقول: الطالب إنما حكمك أن تقول قرأت كتاب الله وقرأت شيئاً من السنة ثم بعد هذا قل ما شئت..." [2].

وفي الرواية الثالثة يذكر المراكشي يعقوب أنَّ المنصور خرج إلى تينمل للزيارة، فقعد ومن معه تحت شجرة خروب مقابلة للمسجد، "وقد كان ابن تومرت قال لأصحابه فيما قال لهم ووعدهم به: لِيُبصرن منكم من طالت حياته أمراء أهل مصر مستظلين بهذه الشجرة قاعدين تحتها! فلما جلس الغزّ على الصفة المتقدمة تحتها كان ذلك اليوم فيص ... تينمل يومًا عظيمًا، اتصل التكبير من كل جهة، وجاء النساء يُوَلْوِلْنَ ويضربْنَ بالدفوف، ويقلْنَ ما معناه بلسانهم: صدق مولانا المهدي! نشهد أنه الإمام حقًا!، فأخبرني من رأى أمير المؤمنين أبا يوسف حين رأى ذلك يتبسم

---

1 - المراكشي، المصدر السابق، ص: 212.

2 - نفسه.

استخفافًا لعقولهن، لأنه لا يرى شيئًا من هذا كله، وكـان لا يـرى رأيهـم فـي ابن تومرت"[1].

لا نتلمس في هـذه الروايـات أنَّ المنصـور غيَّـر شـيئاً مـن العقيـدة التومرتية على المستوى الرسـمي أو الشـعبي، فالمنصـور يواصـل مراسـيم زيارة قبر المهدي، ويكتفي بالتبسم علـى مـن صـدَّق المهـدي فـي ادعائـه الغيب، فغاية ما تدلُّ عليه الروايات الـثلاث أنَّ المنصـور لـم يكـن يعتقـد – في قرارة نفسه – صحَّـة الإمامة والمهدوية لا أكـثر.

وتـُؤكـد رسائل الموحـدين أن يعقـوب المنصـور كـان علـى وشـك التصريح بأنها بدعة لولا وفاته، ولعله لم يفعل ذلك أيضـا بسـبب رغبتـه فـي الحفاظ علـى كلمـة الموحـدين وخوفـه علـى دولتـه مـن أخطـار الفتنـة والتمزق[2].

وبالرجوع إلى نص خطاب المـأمون بـن يعقـوب المنصـور[3] يـذكر أن من أسباب توجهـه للقضاء على رسـوم المهـدى تـأثُره بوالـده الـذى كـان يدعو الناس إلى المنهج الظاهري الأصيـل، وإلى حفظ السنـن.

نحن إذن أمام رجل يعتقد بطـلان الإمامـة فـي قـرارة نفسـه ولا يُغيـر شيئا على أرض الواقع مع أنه أمير المؤمنين الـذي تـدين لـه بـلاد المغـرب الكبـير والأندلس، هذا بخلاف المأمون الذي صرَّح وأنكر وغيَّـر.

وبتتبعنا للترضـي علـى المهـدي فـي الرسـائل الموحديـة فـي عهـد المنصور ومن بعده يتبيَّن استمـرار تقـديس المهـدي وعلومـه حتـى زمـن

---

1 – نفسـه، ص: 212.

2 – لعل هذا ما ظهر في رسائل يعقوب المنصور التي حافظـت علـى العبـارة النمطيـة المألوفـة لـدى الموحدين وهي: "الرضى عـن الإمـام المعصـوم، المهـدي المعلـوم". (انظـر : لايفـي بروفنصـال، مجموع رسائل موحدية، الرسائل رقم: 27 – 28 – 29 – 30 –31– 32 – 33 – 34 – 35.

3 – مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص: 164 و165 .

المنصور الذي عرف عنه إنكاره أمـر المهدويـة[1]، وحتـى الرسـائل الوافـدة إليه من الولايات كانت تتضمن معنى التقـديس علـى المهـدي المعصـوم كمـا في رسالة أهل القرطبة التي بايعوا فيها إبنه للخلافة من بـعده.....[2].

وفي رسالة أخرى وافدة مـن مـراكش تهنِّـئه بانتصـار الأرك تترضـى عن " الإمام المعصوم المهدي المعلـوم بحسـبه ونسـبه ومكانـه وزمانـه " [3]. ونجد الصيغ نفسها تتكـرر فـي الرسـائل السـلطانية الموجهـة إلـى جهـات خارجية أو الرسائل الداخلية بين ولاة الأقاليـم[4].

وتواصلَ الرضى على المعصوم في عهـد الناصـر بـن يعقـوب (595 – 610 هـ/ 1198م – 1213م)[5] على نمـط رسـائل العصـر المـؤمني فـي الترضي على الإمام المعصوم[6].

لكن مع ذلك يمكن القول أن يعقوب المنصـور اسـتطاع أن يـرفض فـي هدوء الاعتراف بالإمامـة والعصـمة، وحصـرها لتـُـمارس فـي خطـب الجمعة ومناسبة الأعياد مداراةً للجمهور الساذج[7].

وتحـدَّد مصير العقيـدة التومرتيـة في عهـد الخليفـة أبـي العـلاء إدريـس المـأمون بـن الخليفـة يعقـوب المنصـور(624 هــ– 629

1 – ابن عذارى، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص :173.

2 – أحمـد العـزاوي ، مجمـوع رسـائل موحديـة، ج:1. الرسـالة: 40 ، ص : 191 و ص: 193 . وجاء الترضي والتقديس في ملحق الرسالة : ص : 196 و197 .

3 – نفسـه، ج:1، ص: 201.

4 – أنظر : أحمد العزاوي، مجموع رسائل موحديـة، ج:1، الرسـالة رقـم: 47 إلـى حكومـة بيتشـه، ص: 215.

5 – نفســه، ج:1، ص : 229 الرسالة الجوابية بعد فتح ميورقة آخر معقل للمرابطين .

6 – مجموع رسائل موحدية، ج:1، ص: 268 ، و324.

7 – داود سلامة عبيـدات، **المغـرب والأنـدلس مـا بـين سـنتي (541/667هــ – 1146/1368م)** ، دار الكتاب الثقافي، عمان، الأردن، 2006م، ص: 241 .

هـ/1226م– 1231م) الذي كان واليا على مالقة ثم قرطبة وإشبيلية، وشاهد تلاعب المشايخ الموحدين الخطير بالخلفاء حيث قتلوا الخليفة المستنصر عام 620هـ/1223م وعيَّنوا مكانه أحد أحفاد عبد المؤمن بن علي وكان شيخا مسنا وهو عبد الواحد بن الخليفة يوسف ثم خلعوه وقتلوه فاشتهر بالمخلوع وبايعوا أحد أبناء المنصور وهو عبد الله (العادل) عام 621 هـ/1224م واستمرَّ حتى سنة 624 هـ/1226م وكان مصيره القتل على يد المشايخ الموحدين في هذا العام، وأرسلوا بيعتهم إلى أخيه إدريس (المأمون) والي إشبيلية حينها، ثم تراجعوا سريعا عن بيعته إلى بيعة ابن أخيه الطفل أبي زكريا يحي (المعتصم) بن الناصر(624هـ– 633 هـ/1226م – 1235م) فعزم المأمون إدريس على الانتقام من الأشياخ باعتبارهم السبب في انهيار السلطة الموحدية[1] .

فقرر أولاً الحسم في أمر المهدوية، وهدم آراء ابن تومرت مُوجهاً أشنع الصفات لابن تومرت تحطيماً لسلطة الأشياخ الروحية المستوحاة من العقيدة التومرتية، فحين دخل العاصمة أوائل 621 هـ/1223م وبايعه الموحدون دخل المسجد الجامع وصعد المنبر وخاطبهم قائلا : " لا تدعوه بالمهدي المعصوم وادعوه بالغوي المذموم، ألا لا مهدي إلا عيسى وأنه قد نبذنا أمره النحس ..."[2]، فأسقط في عهده الترضي على المهدي من الرسائل السلطانية وحتى رسائل البيعة لا بنه الرشيد لم يذكر اسم المهدي[3].

---

1 – ابن عذارى، البيان المغرب، ص: 269 – 274. وأحمد عزاوي، الغرب الإسلامي من الوحدة إلى الإنقسام، **مجلة الآداب والعلوم الإنسانية** ، العدد: 8، عام 2008، ص: 34 و35.

2 – ابن عذارى البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص:317 . والشاطبي، الإعتصام، ص: 327 .

3 – أحمد العزاوي، مجموع رسائل موحدية، ج:1، ص : 389 ، الرسالة : 121 .

فالمعلوم أن طبقة الشيوخ كانت تتمتع بسلطة روحية، فقد كان الخليفة عبد المؤمن بن علي يطلب موافقة شيوخ الموحدين ليمنح قرضا ماليا لجماعة من الطلبة جاؤا لزيارته[1]، وكان الخلفاء الوحدون يستعينون بهيئة الأشياخ حول الأمور الهامة، ومن ذلك ما حدث بالنسبة لتنظيم ولاية العهد وفي مسألة إقرار السلم والحرب والتحركات العسكرية الكبرى، وقد استطاع الخلفاء الأوائل الموازنة بين نفوذ الأمراء السادة والأشياخ الموحدين إلاَّ أنَّ نفوذ هؤلاء منذ عهد المستنصر وخاصة بعد وفاته حيث أصبحوا يولون ويعزلون الخلفاء مما سيدفع الخليفة المأمون إلى الانتقام منهم بالتقتيل وإلغاء سندهم الروحي المتمثل في الرسوم المهدوية، أما الطلبة فقد كانوا أعلى من مكانة الحفاظ (الطلبة الصغار)، بل إن الوالي كان يُعدُّ أحد الطلبة[2].

ويُشير إلى ذلك نظما صاحب "رقم الحلل" بقوله :

وأظهر الحجة لما ملك * فبادر جمع للشيوخ وهلك

ولعن المهدي لما غيرا * ما ذاع من ألقابهم وشهرا [3]

ومن الملاحظ أن رسالة المأمون التي ذكرها القلقشندي تـ821هـ/1418م في "صبح الأعشى" لا تتضمن ذكراً للإمام المهدي حسب عادة الرسائل الموحدية الرسمية وإنما وردت عبارة (الرضى على الأئمة المُطهرين للدين المتين...)[4] مما يُبيِّن أنها مقدمة لما سيقوم به المأمون من انقلاب مذهبي بعد انتقاله إلى المغرب وأنها جسٌ للنبض لمعرفة ردود الفعل .

---

1 – ابن عذارى، البيان المغرب، ج:3، ص: 57.

2– أحمد العزاوي، مجموع رسائل موحدية، ج:2، ص: 248.

3 – ابن الخطيب، رقم الحلل، ص: 56.

4 – القلقشندي، صبح الأعشى، ج:4، ص: 13 .

وأعلن المأمون بعدهـــا حربــه علــى المعتقــد التــومرتي فــي مرســومٍ ملكيّ، أوردت المصادر نص هــذا المــرسوم الــذي يُعــد منعـــرجاً خطيــراً أحدث ثــورة فــي التركيبــة العقيديــة الموحديــة علــى المســتويين الرســمي والشعبــي.

والمـُـلاحظ خلوّ خطاب المأمون مــن الثنــاء علــى المهــدي المعصــوم المعلوم، كما تميَّز الخطــاب بقِصــره وكأنــه منشــور يهــدف للوصــول إلــى الجميع، يخرج عن نمــط الرســائل الســابقة الطويلــة، لتأخــذ شــكل بعــض المناشير السياسية العامة قصد الترويج وتعميم الخطــاب، بعيــدا عــن أســاليب الإطناب والحشو والتفخيم والتنميق وتشقيق ضــروب الكــلام، كمــا مــر معنــا في الرسائل السابقــة.

ومما جاء فيــه: " ولتعلمــوا أنــا نبــذنا الباطــل وأظهرنــا الحــق، وأن لا مهدي إلا عيسى بن مريم، روح الله، وما سمي: مهــديا إلا لأنــه تكلــم فــي المهد، فتلك بدعة قد أزلناها، والله يعيننــا علــى هــذه القــلادة التــي تقلّــدناها، وقد أزلنا لفظ العصمة عمن لا تثبت له عصــمة، فلــذلك أزلنــا عنــه رســمه، فيُمحى ويسقط ولا يُــثبت "[1].

ولم يفــُت المأمون أن يُنبه في هــذا الخطــاب إلــى أنَّ أبــاه المنصــور كان قد عزم على هذا الأمر أيضا، ولكن الأجــل لــم يمهلــه، أو الظــروف لــم تساعده، إذ يقــول " وقــد كــان ســيدنا المنصــور رضــي الله عنــه هــمَّ أن يصدع بما به الآن صــدعنا، وأن يرقــع للأمــة الخــرق الــذي رقعنــا، فلــم يُساعده لذلك أملُه، ولا أجَّله إليه أجلُه، فقدم على رأيــه بصــدق نيــة وخــالص طِوِيَّــة "[2].

---

1 – مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص: 164 و165 .

2 – نفسه، ص: 165 .

ثم أخذ يسرد الحجج التي تؤيد موقفه فيقول: "وإذا كانت العصمة لا تثبت عند العلماء للصحابة، فما الظنُّ بمن لم يدرِ بأي يدٍ يأخذ كتابَه أفٍّ لهم قد ضلُّوا وأضلُّوا، ولذلك َولُّوا وذُلُّوا، ما تكون لهم الحجة على تلك المَحَجَّة " [1].

ثم ختم الرسالة بقوله : اللهم اشهد أنَّا قد تبرأنا منهم تبرؤ أهل الجنة من أهل النار، ونعوذ بك ياجبارُ من فِعْلِهم الرَّثِيثِ، ولأمرِهم الخبيث[2].

وشكَّك المستشرق الفرنسي ألفردبل في صحة خطاب إدريس المأمون هذا، ويرى أنه من المستبعد أن يصدر مثل هذا الكلام الحاسم والصريح والخطير من المأمون وهو في بدء ولايته وفي وسط القبائل الموحدية، فيستعمل هذه اللهجة الخشنة المنافية للمشاعر الدينية عند الجمهور[3].

وبالموازاة مع إلغاء المذهب التومرتي وفي مراكش أقدم المأمون على محاكمة أشياخ الموحدين المصامدة وإعدامهم بسبب تلاعبهم بسلطة الخلافة، فقتل مائة منهم وأكره الآخرين على الفرار إلى جبال الأطلس حيث سينتظرون موته بقلوب مليئة بالحقد[4].

وانعكس الإنقلاب في عهد المؤمن على الكتابات النقدية (المسكوكية) الموحدية، ففي حين كان مكتوبا على النقود قبل عهده (الله ربنا، محمد رسولنا، المهدي إمامنا) أضحت تحمل على عهده العبارات الآتية : (الله ربنا، محمد رسولنا، القرآن إمامنا) وعلى أخرى (الله ربنا، محمد رسولنا، القرآن كلام الله)[5]، وأتبع ذلك بإزالة اسم

---

1 – نفسه.

2 – نفسه.

3 – ألفردبل، الفرق الإسلامية، ص: 281 .

4 – ابن عذارى، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص: 444.

5 – لخضر بولطيف، المرجع السابق، ص: 380 .

المهدي من الخطبة وأزال كـل الشعائر التـي كـان يقيمهـا الموحـدون تبعـا لتعاليم المهدي[1] .

ويـُـمكن إرجاع هذا الانقلاب العقيـدي إلـى تـأثير البيئـة المالكيـة وضغطها[2]، فلايمكن التهوين بـدور المالكيـة مـن قريـب أو بعيـد فـي هـذا الانقـلاب السياسـي العقيـدي[3]، فقـد صـدع فقهـاء المالكيـة بـالمغرب أن لا مهدي إلا عيسى[4]، وأعرض بعضـهم عـن حضـور صـلاة الجمعـة لمـا يتداوله الخطباء فيها من ذكـر ابـن تـومرت بتحـالي العصـمة والمهدويـة[5]، وخاطر آخرون بحياتهم حين جاهـروا بتكذيب الخطيـب حـين " فـاه بعصـمة المهدي "[6] .

ومن أسباب هذه الثورة ما ذكرته المصـادر مـن حقـد المـأمون علـى أشياخ الموحدين، فقـرر الانتقام من شـيوخ الموحـدين الـذين نكثـوا عهـود بيعته[7]، ولا يخفى علينا أن مكانـة أشـياخ الموحـدين كانـت مكانـة روحيـة متلبسة بالعقيدة التومرتية.

---

1 – الذهبي، تـاريخ الإسـلام، ج: 45، ص: 338. وابـن خلـدون، تـاريخ ابـن خلـدون، ج:6، ص: 343. والصفدي، الوافي بالوفيات، ج:8، ص: 209 .

2 – غراب سعيد، مرشدة ابن تـومرت وأثرهـا فـي التفكيـر المغربـي، **الكراسـات التونسـية**، عـدد 103– 104 ، 1978م، ص: 117 .

3 – أنظر: لخصر بولطيف، المرجع السابق، ص: 380 .

4 – ابن العربي، عارضة الأحوذي، ج: 9، ص: 76 – 79 .

5 – منهم رجلٌ يُـدعى :ابن عبيد الله الحجري، أنظر: ابن رشيد، **إفـادة النصـيح فـي التعريـف بسـند الجامع الصحيح**، تحقيق : محمد الحبيب بـن الخوجـة، الـدار التونسـية للنشـر تـونس، د.ت.ط ، ص: 91 .

6 – ابن عذارى، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص: 445 و446.

7 – نفسه، ص: 269 – 274. وأحمد عزاوي، الغـرب الإسـلامي مـن الوحـدة إلـى الإنقسـام، ص: 34 و35.

ويـُـمكن أن نـُـعدِّد من أسباب هذه الثـورة قـوة شخصـية المـأمون، فقد كان – كما وصفه ابن أبي زرع– " إماما في الحديث عالما بأمور الدين والدنيا " إلا أنه كان سفَّاكاً للدماء لا يتوقف فيها طرفة عين"[1]، وذكر صاحب "المعجب" أن المأمون تشبَّه بأخلاق الحجاج[2].

بينما يُرجع المستشرق ألفرد بل هذا الانقلاب إلى عقيدة ابن تومرت نفسها غير المتلائمة مع المدارك العقلية والمشاعر الذاتية والأماني الدينية لبربر المغرب الإسلامي[3] ورغم مرور السنين وما شهدته الدولة من قوة إلا أنَّ العامة لم تتشرَّب الدعوة الموحدية[4]، ويـُضيف أن إصلاحات إدريس المأمون بن يعقوب المنصور أرضت الشعور العميق في الجماهير المغاربية، فإذا كان بعض المتعلمين قابلين لفهم دقائق توحيد ابن تومرت فإن الكثيرين كانوا عاجزين على ذلك[5] .

ويبقى أهم سبب أدَّى إلى تقهقر المذهب التومرتي – في اعتقادنا – هو عدم قيامه على أسس دينية متينة واضحة، يـُضاف إلى ذلك تجدُّد الحركة الحديثيَّة خاصة في عهد يعقوب المنصور والتي كشفت عيوب المذهب التومرتي الذي استند إلى جملة من الأحاديث المكذوبة والمؤوَّلة[6].

وترتَّب على حركة المأمون ظهور الطامعين في الحكم على الساحة سواء في المغرب الأقصى (المعتصم وأنصاره في الجنوب وأخو

---

1 – ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص : 250 .

2 – السلاوي، الاستقصا، ج:2 ، ص:233.

3 – ألفردبل، المرجع السابق، ص: 286 .

4 – نفسه.

5 – نفسه.

6 – وهـو ما ذهب إليه عبد الله علي علام، المرجع السابق، ص: 301 – 304.

المـــأمون فـــي ســـبتة والمرينيـــون فـــي منطقـــة الغـــرب)، أو فـــي الأنـــدلس (بالخروج على السيادة الموحديـــة تحـــت زعامـــات مختلفـــة) وإفريقيـــة التـــي أخذت تسير نحو الاستقلال سياسيا ومذهبيا في ظـــل بنـــي حفـــص الهنتـــاتيين والمغرب الأوسط (منطقة تلمسان) بزعامة بني عبـــد الـــواد[1]، وهـــو مـــا جعـــل خلفاء المأمون يسعون إلى إعادة التومرتية ولو صوريا.

وبعد وفاة المـــأمون سنـــــة 629هـــ/ 1231م خلفـــه علـــى الحكـــم ابنـــه الرشيد وكان في سن الرابعة عشر مـــن عمـــره، وأمـــه نصـــرانية مـــن ســـبي النصارى، مما ولّد له الحاجة الشديدة فـــي الحصـــول علـــى التأييـــد الروحـــي للمشايخ الموحدين[2]، فقد عمل على تجديـــد الترضـــي علـــى الإمـــام المعصـــوم المهدي المعلوم في الرسائل الرسمية[3]، واضطرَّ إلى إعـــادة العمـــل بمـــا أزيـــل من رسوم المهدية[4] تحت إلحاح وضغط زعماء القبائل المصمودية .

ويبدو أن الرشيد تـــ640 هـــ/1242م أراد أن يـــُبقي علـــى مـــا أزالـــه أبوه المأمون لولا شعوره بأهمية مؤازرة أشياخ الموحديـــة فـــي دعـــم خلافتـــه، فقد ذكر ابن عذاري أن الرشيد بعـــث بكتبـــه إلـــى الموحـــدين بالوفـــادة عليـــه ولما وصلوا إلى حضرته كانت لهم شروط قبـــل دخـــولهم وهـــي إعـــادة ذكـــر اسم المهدي في الخطبـــة والمخاطبـــات، ونقشـــــه فـــي الســـكة مـــن الـــذهب والفضة وإعادة الدعاء بعد الصلاة والنـــداء عليهـــا[5]، ويوضـــح ابـــن عـــذارى

1 – أنظـــر: أحمد عزاوي، الغرب الإسلامي من الوحدة إلى الإنقسام، ص: 37 .

2 – ألفردبل، المرجع السابق، ص: 282 .

3 – الرسالة رقم: 124 الموجهة إلى أهل سلا إلى الخليفـــة الرشـــيد حـــول بيعـــة أهـــل تلمســـان، ص : 396 .

4 – ابـــن خلـــدون، تـــاريخ ابـــن خلـــدون، ج:6، ص: 301و302. والســـلاوي، الإستقصـــا، ج: 2، ص:243 .

5 – ابن عذارى، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص: 317. الشاطبي، الاعتصام ، ص: 328 .

ذلك فيضيف " واستمر الرشيد على رسم أبيه وجرى على قانونه فلما كان من الموحدين انتداب الطاعة اشترطوا إعادة ما وقع النص عليه فأسعفوا فيه وسُمعت موجبات وصولهم وانتظامهم"[1].

والظاهر من النصوص أن الرشيد تماطل في تنفيذ ما وعد به من رسوم المهدي فتحسس شيوخ الموحدين الأمر فساءت ظنونهم ونما الأمر إلى الخليفة فأدرك قلقهم واستشعر توجسهم وبادر إلى تطبيق ما وعده بهم، فاطمأنت نفوسهم وظهر عليهم سرورهم وانطلقت ألسنتهم بالدعاء إلى الله تعالى في نصر خليفتهم [2]، " وشملت الأفراح فيهم الكبير والصغير"[3]، فقد كان الرشيد أكثر مسالمة فرغب في استرجاعهم واسترضائهم بمنحهم النفوذ من جديد الذي كانوا يتمتعون به[4].

لاسيما وأنَّ الرشيد يكون قد عاين فشل هذه السياسة فعاد إلى تبني مذهب ابن تومرت[5] ليكتسب تأييد المشايخ المصامدة من جديد فتمكن من القضاء على خصمه المعتصم عام 633هـ/1235م ومن الحدّ نِسبياً من تحركات بني مرين، ورجعت سبتة إلى طاعته، وامتدَّ نفوذه المعنوي إلى الأندلس حيث وصلته بيعة إشبيلية سنة 635 هـ/1237م[6] وبيعة ابن الأحمر في غرناطة في السنة اللاحقة[7] وبيعة شرق الأندلس عام

---

1 – ابن عذارى، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص: 445 و446. والشاطبي، الاعتصام، ص: 257.

2 – ابن عذارى، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص: 445 و446.

3 – الشاطبي، المصدر السابق، ص: 328 .

4 – ابن عذارى، المصدر السابق، ص: 305.

5 – قارن بين الرسالتين 121 و 124 في الرسائل الموحدية حول ذكر اسم المهدي (أحمد العزاوي، رسائل موحدية، ج:1، ص: 389 و ص: 396) .

6– ابن عذارى، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص: 337 و338.

7 – نفسه، ص: 445 و446. وابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج:6 ،ص:537

636 هـ/1238م بعد سقوط بلنسـية بيـد الأركـونيين فـي السـنة نفسـها[1]، وكذلك راجع يغمراسن أمير تلمسان طاعته سنة 638 هـ/1240م[2].

وهكذا أعيدت رسوم الـدعوة الموحديـة مثلمـا كانـت عليـه، إلا أنهـا دعوة صورية وإجراء شكلي إذ لم تلبـث الـدعوة الموحديـة أن دخلـت طـور انحلالها الأخير ونهاية مصيرها المحتوم[3]، وأشـبهت محاولـة الرشـيد لتـرميم ما فات انتعاشة المحتظـر التي حدثت بعد فوات الأوان[4].

إذ أنّ التّملّص مـن فحـوى الإيديولوجيـة التّومرتيّـة، بـات الطّـابع المميّز لسياسة مَن تولّى مِن الخلفاء بعـد الرّشـيد، ونكـاد نلمـس ذلـك مـن خلال ما أضفاه ابن القطّـان – مـؤرّخ الـبلاط الموحّـدي لعهـد المرتضـى تـ665هـ/1266م – على مفهـوم العصـمة التّومرتيّـة مـن دلالات تقصـر بها على معنى امتناع صـاحبها مـن أذى الخصـوم والمتربّصـين بـه[5] بعيـداً عن العصمة من الخطأ التي فـُسِّرت بها عصمة ابـن تـومرت بدايـة العصـر الموحدي.

أما الخليفة محمـد عبـد الله العـادل (630 هـ- 640هـ/ 1224-1226م) فإنه استمرَّ في العمل علـى إعـادة الاعتبـار إلـى العقيـدة المهديـة بعدما جدَّ المأمون في إزالتها، لكن يبدو أن هـذا العمـل كـان عمـلا سياسـيا لاسترضاء الموحدين الذين كسرهم المأمون، سـعياً منـه إلـى تـدعيم الحكـم الموحدي وتوحيد الصف، فكان يُكرم العلماء المتبحـرين فيمـا تركـه المهـدي

---

1 – أحمد عزاوي، الغرب الإسلامي من الوحدة إلـى الإنقسـام، مجلـة الآداب و العلـوم الإنسـانية ص: 37 .

2 – نفسه.

3 – الجيلالي سلطاني، المرجع السابق، ص: 113 .

4 – أحمد عزاوي، الغرب الإسلامي من الوحدة إلى الإنقسام، ص: 37 .

5 – ابن القطان، نظم الجمان، ص:38 ، 39 ، 40.

من المؤلفات، وذلك مثل أبي عبد الله يوسف بن وانـدين، فقد كـان يُحضـره في مجلسه بمحضر علية الناس ليعرض علومه خاصة الموطأ"[1].

ويبـدو أنَّ جعفـر المرتضـي (646 هــ- 665هــ/1248م- 1266م) كان من أكثـر الأمراء الموحدين سـعياً إلـى إعـادة الأمـور إلـى نصـابها بتبني التومرتية من جديد، وهـو مـا يتبـيَّن مما رواه ابـن عـذارى مـن أن شخصاً يُدعى ولد الصقر رد على الخطيب يوم الجمعـة فـي خطبتـه، وكذَّبـه وذلك حين فاه بعصمة المهدي، فأودعـه المرتضـي السـجن بـذلك، ثـم قتلـه بتحريضٍ من الأشياخ والوزراء من الموحـدين[2] .

ومع ذلك وجدنا المرتضى -نفسه- لجأ -علـى سـبيل المـداراة والمجاملـة لأهل سبتة- إلى إسـقاط عبـارة "المهـدي المعصـوم" مـن رسـالة ديوانيّـة صادرة عنه بتاريخ 14 رجب 648هـ / 12 أكتوبر 1250 م[3].

أما الحفصيون بإفريقية فقد كانوا فـي مبـدأ أمـرهم يُجـرون عـاداتهم في الأختـام والمراسـلة والخطـب علـى رسـوم المهـدي، وخاصـة مـنهم أبو زكريا الحفصي الذي أعلن انفصـاله عـن الدولـة الموحديـة فيمـا يُشـبه الاحتجاج على دعوة المأمون التخلّـي عـن الـدعاء للمهـدي، لكـون جـدِّهم الأعـلى هـو أبـو حفـص عمـر الهنتـاني أحـد الأصـحاب العشـرة لابن تومـرت، ومما يؤكـد اسـتمرار الـدعوة الموحديـة فـي كـل أقطـار المغرب أن كـلا الـدولتين الزيانيـة والمرينيـة بايعتـا فـي بدايـة أمرهمـا الحفصيين وذلك " تأليفا لأهل المغرب واستجلابا لمرضـاتهم وإتيانـا لهـم مـن

1 – ابن عذارى، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص: 157.

2 – نفســه، ص: 445 .

3 – أحمد العزاوي، مجموع رسائل موحدية، ج:1، ص:401.

ناحية أهوائهم، إذ كانت صبغة الدعوة الموحديـة قـد رسـخت فـي قلـوبهم " على حد تعبير الناصري[1] .

إلا أنَّ الباحث التونسي عبد المجيد النجـار يـرى بـأن الحفصـيين لـم "يكونوا يلتزمون المهدية موقفاً عقدياً، مما جعل اعتبارهـا يخـفّ شـيئا فشـيئا حتى جاء ابن اللحياني[2] وأبطل اسم المهدي من الرسوم"[3] .

وعلى المستوى الشـعبي انحسـر أنصـار المهدويّـة التّومرتيّـة فـي صورتها الأولى بين ما عُرف بـ "طائفة العكاكزة" بالمغرب الأقصى[4].

وجاء في "المعيـار المعـرب" أنـه ورد فـي العكازييـن ظهيـر مـن السلطان يأمر بأن يبحث عن أمرهم(العكـازيين)، فـاجتمع النـاس علـيهم فـي المسجد، وبحثوا فلم يوجد عندهم شيـئ مـن العلـم، فاتَّـفق النـاس يومئـذ على أنهم قوم جهلة، وأنهم يـُستتابون، فـإن تـابوا وإلا قـُـتـلوا، فتـابوا وانصرفوا، وما أفلتهم من القتل يومئذ إلا تـوبتهم[5]، وفـي القـرن السـابع أثـر عن أبي يعقوب يوسف بن موسـى المحسـاني السـبتي تـ (بعـد 686هـ/ 1287م) قوله : "كان بغربنا اثنان العكـازون والسـلمانيون يتقـدم إلـيهم فـإن تابوا وإلا قتلوا" [6].

---

1 – الناصري، الإستقصا، ج :4 ، ص: 28 .

2 – تولى من سنة 711هـ/311م إلى 717هـ/317م وتـوفي بمصـر سـنة 726هـ/1325م، أنظـر سيرته في : الزركشـي، <u>**الروضـتين فـي أخبـار الـدولتين الموحديـة والحفصـية**</u>، المكتبـة العتيقـة، تونس، د.ت.ط، ص: 60. و أبو الفداء عمـاد الـدين ن شاهنشاهالمختصـر فـي أخبـار البشـر، ج:4، ص: 84 .

3 – عبد المجيد النجار، ابن تومرت، ص: 379 .

4 – نفسه، ص :418 .

5 – الونشريسي، المعيار، ج:2، ص: 358 .

6 – أنـظر: المجاصي فـي نوازلـه (مخطـوط ص: 91-95) جمـع سلسـلة مـن الفتـاوى التـي تـُجمع كلها على استتابتهم أو قتلهم، أنظر: عبد المجيد النجار، ابن تـومرت، ص: 418.

وفي المعيار –أيضا– ذُكر عن طائفة جزنايه من أخماس تازا من أشياع ابن تومرت يعتقدون تفضيل المهدي ابن تومرت على أبي بكر الصديق كما جاء في إحدى الفتاوى الموجهة إلى أبي الوليد بن رشد يسيتفتونه حول قوم " يقولون من لم يؤمن بالمهدي ابن تومرت فهو كافر ويفضلونه على أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما " [1].

ونظفر من كلام الإمام الشاطبي في الإعتصام ما يُفيد استمرار الأثر التومرتي إلى زمنه (نهاية القرن 8هـ/14م) إذ يقول عن عقائد التومرتية: " وبقي أكثرها بعدما انقرضت دولتهم حتى إني أدركت بنفسي في جامع غرناطة الأعظم الرضى عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم، إلى أن أزيلت وبقيت أشياء مثيرة غفل عنها أو أغفلت "[2] .

ومن المؤكد –على المستوى الفقهي – أن فقهاء العصر الموحدي ظاهرية ومالكية وقفوا موقف المُعارض للنزعة الشيعية في المعتقد التومرتي، رغم أن كثيراً منهم كان ضمن البلاط الموحدي، ويُفسر ذلك بتحالف العلماء مع السلطة ضد العدو الصليبي المشترك المتربص بالأندلس، ومن هذا المنطلق سلك بعض الفقهاء مسلك المقاومة الصامتة، في حين رأى بعضهم المجاهرة بالمقاومة متحملاً تبِعات ذلك، والظاهر أن أغلب فقهاء العصر الموحدي فضَّلوا التعبير عن رفضهم للعقيدة التومرتية بمقاومة سلبية تمثلت في اللامبالاة والإعراض سواء على المستوى السياسي أو المستوى العلمي أو ما يُعبِر عنه أحد الباحثين بالرفض الصامت أو المقاومة السلبية[3] أو التجاهل المقصود[4] .

1 – ابن رشد، المصدر السابق، ج: 2، ص: 453.

2 – الشاطبي، المصدر السابق، ص: 327 .

3 – المغراوي، الصلحاء، ص: 246 .

4 – نفسه، ص: 249 .

وممن سلك مسلك المقاومة الصامتة القاضي عياض إذ لم يرد في كتابه "الشفا" ذكرٌ ولا إشارة إلى ابن تومرت ومذهبه، وإن كان الكتاب كله يقوم كما نصَّ على ذلك مؤلّفه في مقدمته على إثبات العصمة للنبي صلى الله عليه وسلم ونفيها عن مطلق البشر من غير الرسل، وفي ذلك رد غير مباشر على مزاعم ابن تومرت بخصوص ادعائه العصمة، وقد أثبتت الدراسة المتأنية لكتاب " الشفا " أن تأليفه كان إبان حياة ابن تومرت وفي الفترة التي أخذ يحشد الناس ويدعوهم إلى مذهبه وإلى محاربة مخالفيهم من المرابطين وأتباعهم[1].

ومن أمثلة الرفض الصامت تصنيف ابن الزيات التادلي تـ627هـ/1229م كتابه التشوف دون أن يذكر فيه أحدا من خلفاء الدولة الموحدية واكتفى باستعمال صيغة البناء للمجهول رغم أنه كان يشتغل قاضيًا برجراجة مدة أيام الموحدين، لذا استنتج الباحث محمد القبلي أن ابن الزيات ألف كتابه لتبرئة المصامدة من نِسبة بدع ابن تومرت إليهم خاصة وأنَّ الإدريسي في موسوعته الجغرافية هو الآخر لم يذكر لفظة الموحدين مكتفيا بتسميتهم بالمصاميد والمصامدة، وفي نظر الباحث دائما أن ابن الزيات سعى من خلال كتابه ليثبت شيوع الصلاح فيهم (المصامدة) والتزامهم بالمذهب المالكي وارتباطهم في شؤون الفقه والفتوى بعلماء مستقلين عن السلطة ومذهبها التومرتي[2].

1 – عبد السلام شقور، **جهود المالكية في مواجهة الفرق المخالفة في الغرب الاسلامي**، مجلة التاريخ العربي، العدد: 41، جوان 2007م، ص: 272.

2 – محمد القبلي، حول مضمرات "التشوف ضمن :**التاريخ وأدب المناقب**، دار عكاظ،198 م، ص: 65. والتادلي، التشوف ص: 115 و267 .

ونفـس الموقف نجده في كتاب المسـتفاد للتميمـي تـ604هـ/1207م الذي عزل بدهاء الحركة الصـوفية عـن أي أثـرٍ رسـمي موحـدي، وحـررَّ خطابه من الأثـر الموحدي بشكل لافت للانتبـاه[1].

كما عبَّـر علماء آخرون عن رفضـهم للعقيـدة التومرتيـة مـن خـلال التمسك ببيعة المرابطين كحركة القاضي عيـاض عنـد ضـعف الموحـدين[2] أو عند ظهور أمر بني غانية في بجاية عـام 580هـ/1184م[3].

وإن كانت أسباب ثورة القاضي عياض علـى الموحـدين بعـد مبايعتـه لهم مجهولة، فمـن المؤكـد أن السـبب الرئيسـي نظريـة المهدويـة، ولا أدل على ذلك من اتصاله بالوالي المرابطـي فـي الأنـدلس لأن المـرابطين كـانوا مالكيـة شديـدي التمسك بالمالكيـة[4].

ومن الفقهاء الذين ثاروا ضد الموحدين، أبو محمد عبـد الحـق بـن عبـد الرحمان الأزدي الإشبيلي الذي كان يسـتوطن بجايـة، وكـان الموحـدون قـد عرضوا عليه القضاء فأبى، ولما غـزا بنو غانيـة بجايـة فـي محاولـة مـنهم لإحياء الدولة المرابطية بهـا فـي 06شـعبان 580هـ/10 ديسـمبر 1184م سارع إلى تأييدهم وتولى القضاء لهم، فحنق عليـه الموحـدون ورامـوا سـفك دمه فعصم الله دمه وتوفي قبل أن يستعيد الموحدون بجاية[5] .

ومن العلماء الذين انضمُّوا إلى بني غانيـة أبـو محمـد عبـد الحـق بن الخراط الإشبيلي تـ582هـ/1186م الـذي نفـر مـن الموحـدين منـذ البداية والتحق ببجاية وتفرَّغ لتدريس العلم، ورغم مـرور أربعـين سـنة علـى

---

1 – المغراوي، الصلحاء، ص: 247 .

2 – السلاوي، المصدر السابق، ج:2 ، ص: 115.

3 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 195 و198.

4 – واعظ نويوة، مدى رسوخ مهدوية ابن تومرت فـي مختلـف طبقـات المجتمـع الموحـدي، **دوريـة كان التاريخية**، العدد: 11، مارس 2011م، ص : 40 .

5 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 140، وابن أبي زرع، روض القرطاس، ص: 95 .

انتصار الموحدين وسقوط المرابطين فإنه ظلَّ وفياً لهم، لذلك انحاز إلى بني غانية عند دخولهم بجاية ودعا إلى بيعتهم وخطب للعباسيين ودعا لخليفتهم أحمد الناصر لدين الله[1].

وتحمَّس للدخول في بيعة بني غانية أيضا الفقيه أبو الطاهر عمارة بن يحي بن عكارة الشريف الحسني، الذي خطب بجامع بجاية يوم دخولهم إليها، وكان واضحا في انحيازه لبني غانية من منطلقات شرعية فابتدأ خطبته بقوله : " الحمد لله الذي أعاد الأمر إلى نصابه وأزاله عن غُصَّابه"[2]، وعرَّضه موقفه هذا للاعتقال من طرف الموحدين بعد استعادة المدينة، وظلَّ في السجن مع جماعة من أصحابه ولم يُفرج عنه إلا بعد أن اعتذر إلى والي بجاية[3] .

وبعد استرجاع الموحدين للمدينة تتبعوا سكانها " بما ظهر منهم من مقال أو فِعال ... واشتدَّت وطأتهم على أهل العلم واعتقلوا أناساً منهم " [4].

هذه الدلائل تجتمع لتكشف لنا حركة رفض صامتة كانت تدبُّ في أوساط المصامدة وفي أوساط أهل الفقه والتصوف وحتى بين العامة .

فعندما غزا بنو غانية بجاية لإحياء سلطان المرابطين تُحدثنا المصادر عن تأييد الناس لهم[1] .

---

1 – قال ابن الأثير : و لما استولى الملثم على إفريقية (عام 580هـ/1184م) قطع خطبة أولاد عبد المؤمن وخطب للإمام الناصر لدين الله الخليفة العباسي وأرسل إليه بطلب الخلع و الأعلام السود " الكامل، ج: 9، ص: 172 .

2 – أبو العباس الغبريني، **<u>عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية</u>**، تحقيق وتعليق: عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، د.ت.ط، ص : 76 و77 .

3 – الغبريني، عنوان الدراية، ص : 45 – 48، وعمر كحالة، معجم المؤلفين، ج: 7، ص: 269، عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 124 .

4 – الغبريني، عنوان الدراية، ص : 46 .

وعندما أعلن المأمون ردته عن العقيدة التومرتية لم تحدثنا المصادر عن هبةٍ شعبية مناهضة غضبا لما يفترض أن يكون مقدساً لديهم[2]، بل إن ابن عذارى يحدثنا عن شعراء مدحوا المأمون بما " يتنسم ندا ومسكا " منها قول أبو الحسن الرعيني قصيدة مطلعها :

تتيه بك الدنيا ويزهو بك الملك * و يُعزى إليك الفضل والدين.

إلى أن يقول :

وما ذاك إلاّ أن سبقت وقصروا * وأدلجت إذا باتوا وحققت إذا شكوا

أنال بك الإسلام أقصى مراده * وقد سعد التوحدي إذ شقي الشرك

وقال محمد بن إبراهيم الذرة أيضا :

ألا وضح التحقيق و ارتفع الشك * بأنك ملك لا يقاس بك ملك

وبعد سردهِ لهذه النماذج الشعرية وغيرها قال ابن عذارى : "وإن أمداحه لكثيرة جدا لا أحصي لها عددا والكفاية منها ذكرته، ... " [3].

ويُستثنى من موقف العامة قبائل مصمودة التي ينتمي إليها المهدي والتي ناصرته من أول وهلة، والباعث على هذا التأييد –بالتأكيد– هو العصبية القبلية وليس الإيمان القلبي لأن العصبية القبلية ميزة عُرف بها المجتمع المغربي الإسلامي[4].

وما جاء في المصادر الموحدية وغيرها من الإقبال على الدولة الموحدية لا يعدو أن يكون انتماءً سياسياً لا أكثر، وجغرافيا حصر النجار

---

1 – ابن عذارى، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص: 181. وابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج:6، ص: 288.

2 – وأكثر من اعتقد المهدية من العامة كانوا بالمغرب الأقصى في بلاد السوس وحول العاصمة مراكش وأما المغرب الأوس وإفريقية فعلى الرغم من امتداد السلطان الموحدي إليهما فإن المد العقدي المتعلق بالمهدية لم يصل إليهما على مستوى العامة إلا أن تكون حالات فردية ضيقة لم يبق لها من أثر بعد اندثار السلطان الموحدي. عبد المجيد النجار، المهدي، ص: 415 .

3 – ابن عذارى، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص: 288.

4 – واعظ نويوة، المرجع السابق، ص : 41 .

من آمن بالدعوة التومرتية بالمغرب الأقصى من بلاد السوس، وحول العاصمة مراكش، وفي منطقة مكناس، وكاد ينعدم في المغربين الأوسط والأدنى[1].

وحفظت لنا المصادر التاريخية حالات فردية قليلة من العلماء الذين جهروا برفضهم للتومرتية فاختاروا المواجهة المباشرة، فقد اختار بعض المعارضين للتومرتية يوم الجمعة للتعبير عن مواقفهم ليكون لها صدى أوسع في المجتمع، فيذكر صاحب كتاب أعلام مالقة أنَّ عبد الله بن محمد بن عبد الله تـ580هـ/1184م المعروف بابن ذمام والذي كان من أهل الأدب والذكاء والفطنة أديبا ذكيا وخطاطا بارعا وكان يشغل منصب الكتابة عند بعض السادة من بني عبد المؤمن مثل الرشيد وأبي يحي ابني الخليفة يوسف بن عبد المؤمن[2].

ورغم قربه من السلطة فإنه ظلَّ يحتفظ بعواطفه المعادية لابن تومرت ومهدويته "ويُنحي على المهدي رضي الله تعالى عنه"[3]، بل إنه في جمعة من الجمع حين استوى الخطيب على المنبر وأخذ يُعظِّم الإمام المهدي " قال له: كذبت لعنك"[4]، فأُخذ من حينه وأوثق وبقي مكبلاً في سجن مالقة مدة، ثم نُقل إلى مركش[5]، والمصدر نفسه نسب الجنون لابن ذمام وأنه يخرج عن حد التكليف بنوبات جنونية تُصيبه[6]، ومن

---

1 – عبد المجيد النجار، ابن تومرت، ص: 415 .

2 – أبي عبد الله بن عسكر وأبي بكر بن خميس، **أعلام مالقة**، تقديم وتخريج وتعليق: عبد الله المرابط الترغي، الطبعة 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1420هـ/1999م، ص: 232 .

3 – نفسه، ص: 233 .

4 – نفسه، ص: 234 .

5 – نفسه، ص: 234 – 235 .

6 – نفسه، ص: 233.

الصعب التسـليم بهـذا التعليـل خاصـة وأن المصـدر نفسـه يـضيف أن ابن ذمام هذا لما سُجن نَظمَ أشـعارا للخليفـة المنصـور فعفـى عنـه وأطلـق سراحه[1] فضلا عما عـُرف به ابن ذمـام من فطنـة وذكـاء.

ويُفهم من هذه الحادثة وجود تيار معادٍ حتى مـن داخـل دواليـب السـلطة، كما نتلمس منه سعي الموحدين للمحافظـة علـى قداسـة المهـدي مـا يعكسـه اعتقال ابن ذمام وسـجنه، أمـا عفـو المنصـور عنـه رغـم عِظـم جرمـه فيـُمكن اعتباره دليـلاً على عدم اكتراثهم بـأمر التومرتيـة كعقيـدة وإنمـا سعو للمحافظة عليها كرمز وثقل سياسي، ولعـل اقتـراب ابـن الـذمام مـن الأمراء الموحدين كشف له عدم اكتراثهم بـأمر التومرتيـة ممـا شـجَّعه علـى الإعلان بموقفـه .

والحالة الثانية التي حفظتها لنـا كتـب التـاريخ فتتعلـق برجـل عُـرف بولد ابن الصقر، لا تذكر المصادر شيئا عن ولد بن الصـقر هـذا سـوى أنـه شاب من طلبة العلم بمراكش، وقـد اختـار ابـن الصـقر مثـل ابـن الـذمام المالقي مناسبة خطبة الجمعة ليُعلن عن موقفـه فـي أواخـر الدولـة وبالتحديـد فـي عصـر المرتضـي (647–665هـ/ 1249م– 1267م)، فحينمـا فـاه الخطيب بجامع مراكش بعصمة المهدي ردَّ عليه ولد بـن الصـقر هـذا مكـذبا إياه " فأراد الخليفة المرتضي أن يسجنه ولا يقتله علـى قولـه، فـأبي الأشـياخ والوزراء إلا وقوع قتله إلى أن غلبوا عليه فآل أمـره إلـى القتـل خوفـا مـن أن يقول ذلك غيره فأمروا عليه فقتلوه ظلما قبحهم الله "[2] .

ويعكس هذا النص عدم تحمُّس الخلفـاء للتومرتيـة كمـا يعكـس عـودة تأثير سلطة الأشياخ الموحدين على الخلفاء بعد أن نكبهم المأمون.

---

1 – نفسه.

2 – ابن عذارى، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص: 445 .

كانــت التومرتيــة والمهدويــة علــى وجــه الخصــوص محــل نقــد واستنكار من طرف فقهاء المالكية[1]، فقــد حظــي المــأمون –حــين تبــرّأ مــن المهدي وأنكر ما كان عليه أسلافه مــن تعظــيم أمــره وتفخــيم شــأنه– بتأييــد الفقهاء وتقريظهم، من ذلك قول الفقيه الأديب أبي عمــرو بــن خبــازة الفاســي تــ637هــ/ 1240م مُنحيا على ابن تومرت :

وجــد النبوة حلــة مطويــة * لا يستطيع الخلق نسج مثالها

فأسر حسوا في ارتغاء يبتغي * بمحاله نسجا على منوالهــا[2].

وأزجى قصائد المدح للمأمون –أيضا– كــل مــن الفقيهــين: أبــي عبــد الله بن عسكر المالقي تــ636هــ/ 1239م وأبــي الحســن بــن الفخــار الإشــبيلي تــ666هــ/ 1268م[3].

ويــُنبهنا الباحث يوســف العرينــي أن علــوم المهــدي كانــت تــُــلقن ولا تــُــدرَّس، ولا تــُــطرح للنقاش لإدراكهم بأنها لــن تصــمد أمــام أبســط نقد علمي[4] .

أما النجار فلاحظ على من انتصــر للعقيــدة التومرتيــة مــن الفقهــاء أنهم فقهاء من الدرجة الثانية فما دونهــا ولا نجــد علمــاء فــُحول انتصــروا لها بالأدلة، ولو قدر لفقهاء العصر الموحــدي مثــل ابــن طفيــل وابــن رشــد اعتناق المهدية لكان لها شأن في تكوين مدرسة فكريــة تــنهض بتكــوين تيــار

---

1 – اعتبــر الفقهاء المالكيون هــذه العقيــدة الموحديــة بدعــة أو مجموعــة بــدع محرمــة، وأن أهلهــا خوارج . انظر: ابن إبــراهيم المراكشــي، المصــدر الســابق، ج:4، ص: 73، وانظــر أيضــا: محمــد القبلي، **حول تاريخ المجتمع المغربي في العصــر الوســيط**، نشــر الفنــك، الــدار البيضــاء، المغــرب، 1998م، ص: 43.

2 – المقري، أزهار الرياض، ج:2 ص: 379 – 380 .

3 – ابن عذارى، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص:287، وابــن عبــد الملــك، الــذيل والتكملــة، ج: 6، ص:451 .

4 – يوسف علي العريني، الحياة العلمية في الأندلس عصر الموحدين، ص : 263 .

عام مناصر للمهدية، يضمن لها الرسوخ رغم الجـو المحـيط العـام المنـاهض لها[1].

وبمـرور الوقت لم يبق مـن أثـر ابـن تـومرت إلاّ الأثـر الأشـعري بدليل أنه وفي فترة جدُّ متأخرة نجد أحد كبـار أشـاعرة المغـرب يحكـم علـى ابن تومرت بالضلال في قوله بالعصمة والمهدوية[2] .

ولم تـُعدم عقيدة المهدي – رغـم غموضـها – أنصـارا مـن العلمـاء والفقهاء تبـنَّـوا العقيدة التومرتية وتصدوا لشـرحها والـدفاع عنهـا، وألفـوا في ذلك الكتب والرسائل المنفردة، أو أثبتـوه فـي مؤلفـات عامـة، لكـن مـن الصعـب التمييز بين من كان صادقاً في اعتقـاده ودفاعـه، وبـين مـن كـان يتخذ ذلك ذريعةً للتقرب مـن الحكـام الموحـدين قضـاءً للمـآرب، واقتناصـاً للمناصب[3].

ومـنهم مؤرخـيْ الـبلاط الموحـدي الفقيهـين ابـن صـاحب الصـلاة المراكشـي تـ596هـ/1200م وعبـد الملـك بـن القطـان تـ628هـ/1231م، ومنهم أبـو عبـد الرحمـان طـاهر تـ597هـ/1201م الذي ألّف رسالة في البرهان علـى ثبـوت إمامـة المهـدي ومهديتـه، وهـي المعروفـة بـ" الرسـالة الكافيـة فـي البرهـان علـى المهـدي"، أوردهـا ابن القطان مقدما لها بقوله: "رسالة يثبت فيهـا أمـر الإمـام المهـدي رضـي الله تعالى عنه بالدليل والبرهان على طريقة المنازعـة بـين الـنفس المطمئنـة والنفس الأمَّارة بالسوء عقلا ونقلا" [4].

---

1 – عبد المجيد النجار، ابن تومرت، ص: 413.

2 –القادري أبو الحسن اليوسـي، **نشـر المثـاني**، تحقيـق محمـد حجـي، مكتبـة الطالـب، الربـاط، المغرب، ج:1، ص: 374.

3 – عبد المجيد النجار، ابن تومرت، ص: 407 .

4 – أنظر نص الرسالة: ابن القطان، نظم الجمان، ص: 50 .

وقد رجَّح النجار أنَّ أبا طاهر صاحب الرسالة تكلَّفَ عملَهُ هذا تقربا للموحدين مستدلا بما ذيَّله صاحب الرسالة من تعظيمٍ وتوقيرٍ لعبد المؤمن بن علي من جهة، ونيله لرياسة مرسية من جهة أخرى[1].

ومنهم المجهول الذي شرح أعز ما يطلب، ويبدو من تأليفه أنه "متبحرٌ في العلم واسع الإطلاع على المذاهب الكلامية، وقد كتب مجلدا ضخما في شرح أعز ما يطلب دون أن ينهيه"[2]، وقد بدا في هذا الشرح متحمسا للمهدي، قوي الإيمان بمهديته وعصمته إلى حد الإفراط، ومن أقواله عن المهدي: "لم يكن في زمانه من يقابله ويماثله، بل كل أهل زمانه في حكم الافتقار إلى التعلم منه، والأخذ عنه، وهم قد عرفوا ذلك، لكن أخذتهم العزة بالإثم، فكان حسبهم جهنم ولبئس المهاد، وهذا بينٌ لا خفاء به، لكونه رضي الله عنه مبعوثا لتجديد الدين وإحياء العلم و إقامة الشرع"[3]، واصفا علم المهدي بالعلم اللدني المعصوم[4].

ومنهم عبد الله بن محمد بن حماد بن زغبوش المكناسي ت594هـ/1194م، فقد ذكر عنه ابن غازي المكناسي ت 919هـ/1513م أنه كانت له عناية بتآليف المهدي، وبما أملاه خليفته عبد المؤمن وله في إثبات هذه الهداية موضوعاً استخرجه بالاستقراء من الكتاب العزيز، وكان شيوخ طلبة الموحدين يسألون أبدا عن هذا الكتاب ويثنون عليه وعلى واضعه إلى أن ولي الشيخ أبو إبراهيم إسماعيل بن محمد بن أيوب المصالي عمل مكناس وكان متشيعا للمهدي حافظا لتآليفه قائما على

---

1 – ابن القطان، نظم الجمان، ص: 50. وعبد المجيد النجار، ابن تومرت ، ص: 410 .

2 – نفسه.

3 – مجهول، شرح أعز ما يطلب، نقلا عن النجار، المهدي، ص: 411 .

4 – نفسه.

مذهبه، من طلبة الموحدين وزهادهم، وكـان ناقـدا علـيهم غيـر راض عمـا ابتدعوه، فألح في طلب هذا الكتاب حتى ظفر به، فكان آخر العهد به[1].

وظهر من انتصر للعقيدة التومرتية شعراً، منهم رجـل مـن أهـل بجايـة وفد على الخليفة يوسف بن عبد المـؤمن وهـو بتينمـل فقـام علـى قبـر ابن تومرت بمحضر من الموحـدين وأنشـد قصـيدة يمجـد فيهـا المهـدي ابن تومرت مطلعـها:

سلام على قبر الإمام الممجد * سلالة خير العالمين محمدِ[2].

وقال آخر :

سلام على المهدي أما قضاؤه * فحـتـم، وأما أمـره فمـؤكـد

بصير رأى الدنيا بعين جليـة * فلم يغنـه إلا المقام الممـجد[3]

وقال آخر :

سل دعوة المهـدي عن آثـاره * تنبيك أن ظباها قُمنَ إزاءهـا

فغزا عداها واستـرق رقابهـا * وحمى حماها واسترد بهاءها

قبضت يداه على البسيطة قبضة * قادت لـه في قده أمراءهـا [4].

وتـُحدثنا المصادر عـن ثـورة قـام بهـا أحـد الفقهـاء لإعـادة مجـد التومرتية، وهي ما عـُـرفت بثورة الجزيري بزعامـة أبـو عبـد الله محمـد بن عبد الله الجزيري[5]، ونجد فـي المصـادر التـي تخبـر عـن هـذا الثـائر روايتين متناقضتين، فابن عـذارى ذكـر أنـه "كـان علـى مـذهب الخـوارج الأزارقة في تكفير جميـع المسـلمين"[6]، أمـا الروايـة الثانيـة: هـي روايـة

---

1 – ابن غازي، الروض الهتون، ص: 29 و30 . ومحمد المنوني، حضارة الموحدين، ص: 60.

2 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 141.

3 – المقري، نفح الطيب، ج:1، ص: 609.

4 – نفسه، ج:2، ص: 482.

5 – ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج:1، ص: 323.

6 – ابن عذارى، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص:207 .

ابن سعيد المغربي فقدمت الثائر علـى أنـه شخصـية علميـة غيـورة علـى مبادئ التومرتية ثارت ناقمة على انحـراف بنـي عبـد المـؤمن علـى تعـاليم المهدي وطموح لإعادة إحيائها وبعثها مـن جديـد[1]، فاشـتهر أمـره، وعظـمُ في النفوس خبره، ووضعت عليه العيون في جميع بـلاد بنـي عبـد المـؤمن، وشاع عند الناس أنه يتصور في صورة قـط، وكلـب، وكانـت العامـة تـرجم الكلاب والسنانير بسبب ذلك، إلى أن قـُـبض عليـه فقـُتل وحُمـل رأسـه إلى مـراكش[2].

ونفس الطرح تقريبا لدى الصـفدي الـذي وافـق ابـن سـعيد فـي كـون الجزيري " برع في العلم وطاف وسـمت همتـه إلـى أن يُحيـي سـنة مهـدي المغرب وزعم أن عبد المؤمن وبنيه غَّـيروا سيرته " [3] .

ويبدو أن طرح ابن عـذارى غيـر مستصـاغ إذا المعـروف أن مـذهب الخوارج الأزارقة لم تقـم لـه قائمـة فـي المغـرب، و طـرحُ ابـن سـعيد والصفدي أقرب، فـلا يُسـتبعد أن يكـون الجزيـري مـن المتشـبعين بأفكـار ابن تومرت فثار لتجديد الحمـاس نحـو التومرتيـة بعـد أن خَفَـتَ الحمـاس أتجاهها مما أصاب أنصارها بالإحباط، و مـن الأمثلـة علـى هـذه الظـاهرة الشيخ أبو إبراهيم إسماعيل بـن محمـد بـن أيـوب المصـالي الـذي " كـان متشيعا للمهدي حافظا لتآليفه قائما علـى مذهبـه مـن طلبـة الموحـدين ومـن زهادهم وكان ناقدا عليهم غير راضٍ عما ابتدعوه " [4] .

وطغى على الجزيري الـنَفَسْ التـومرتي فأشـاع بـين النـاس مقدرتـه على اسـتخدام تناسـخ الأرواح، وأنـه يـتقمَّص صـور الحيوانـات كـالقطط

1 – أنظر: ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج:1، ص: 323 .

2 – نفسـه، ج: 1 ص: 233، والصـفدي، الـوافي فـي الوفيـات، ج :3 ص: 351 ، والمقـري، نفـح الطيب، ج: 4 ص: 65 و66 .

3 – ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ص: 323، والصفدي ج: 3، ص: 350 .

4 – ابن غازي، الروض الهتون، ص: 12 .

والكلاب والحمير وغيرها[1]، ولطبيعة سكان المنطقة انطلت عليهم الحيلة، وحتى على خصومه أيضا الذين شنوا حملة قتل واسعة على هذه الحيوانات أملا في التخلص منه، ومن الواضح أنه سلك مسلك ابن تومرت في استغلال عناصر باطنية مما يؤكد أن الجزيري حقا انكب على تراث ابن تومرت واستوعبه وتأثر به .

ويبقى السؤال هل حقا كان الجزيري غيورا على مبادئ ابن تومرت إلى درجة الثورة على بني عبد المؤمن لتهاونهم في تطبيقها؟ أم جعل ذلك مطية للدعوة إلى نفسه وتحقيق طموح سياسي وشخصي؟ .

ومن ثوَّار العصر الموحدي الذين نلمس في حركتهم النَفَسْ التومرتي، ثورة ابن الفرس الخزرجي المعروف بالمهر، كان مُتقدما في الفلسفة والعلوم القديمة والعقليات من أصدقاء الفيلسوف ابن رشد[2]، طموحا للملك " جاريا على أخلاق الملوك في مركبه وملبسه وزيِّه"[3] وكغيره من الثوَّار بحث عن مُبرِّر ديني لثورته فتسمَّى بالقحطاني الذي ورد ذكره في الحديث النبوي " لا تقوم الساعة حتى يخرج من قحطان يقود الناس ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا"[4]، استهوت دعوته خلقا كثيرا وأعلن ثورته على الموحدين عام 600هـ/1204م وتسمَّى بالخليفة وكان أتباعه

---

1 – ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج: 1، ص: 323. وابن عذارى، البيان المغرب، ج: 3، ص: 208 .

2 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج:2، ص: 25، وجلال الدبن السيوطي، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، د.ت.ط، ج: 2، ص: 93 .

3 – ابن الخطيب، الإحاطة، ج: 3، ص: 473 .

4 – حديث صحيح ، أنظر تخريج وشرح الحديث: حمود بن عبد الله بن حمود بن عبد الرحمن التويجري، **إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة**، الطبعة 02، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1414 هـ/ 1993م، ج:2، ص: 285 و314.

يُحيُّــونه بتحية الملك[1]، والقحطانية هــي صــيغة مــن صــيغ المهديــة، ممــا يُؤكِّد بقاء الأثــر التومرتي إلى مطلع القرن السابع الهجري.

وموقف عمــوم أهــل المغــرب فقهــاء وعامــة مــن المهديــة وعقيــدة ابن تومرت هو موقــف الــرافض المتــراوح بــين الــرفض الصــامت وبــين الرفض الصريــح بالقلم والسيف[2].

أما موقف الخلفاء الموحــدين المؤيِّــد ظاهريــاً للتومريــة لــم يعْــدُو أن كان حِفاظاً علــى الســلطة ورمزيتهــا، بينمــا موقــف الفقهــاء الســلبي إزاء التومرتية كان حفاظا على وحدة الدولة من تربُّــصات أعدائها.

– مصير النزعة الخارجية:

ويبدو أن النزعة الدموية التي طبعت سياســة المهــدي ابــن تــومرت وخليفته من بعده عبد المؤمن بــن علــي، قــد خَفَــتْ حِــدَّتها نهايــة العصــر الموحدي، لارتباطها بمرحلة الهــدم والبنــاء (هــدم الكيــان المرابطــي وبنــاء الكيان الموحدي)، وراح الخليفة يوسف بــن عبــد المــؤمن يهيــبُ بالموحــدين فــي رســائله " ألاَّ يُحكِّمــوا مبــادئ الــرأي وأن يتثبَّتــوا فــي الــدماء وأن لايــُـقضى بحكم الإعدام إلاَّ بعد أن تُرفــع القضــية إلــى الخليفــة مشــفوعةً بالشرح وأقــوال الشــهود والعــدول "[3]، إلاَّ أنَّ القســوة والجفــوة لا تنفــكّ أن تكون صفةً بيئية اكتسبها الموحــدون مــن البيئيــة السوســية وهــذبتها بمــرور الوقت الآداب الشرعية التي حرص الموحــدون علــى إقرارهــا فــي المجتمــع

---

1 – السيوطي، بغية الوعــاة، ج: 2 ص: 93 .

2 – عبد المجيد النجار، ابن تومرت، ص: 425 .

3 – عبد الله عنان، المرجع السابق، ج 02، ص : 133 .

الموحدي، فقد نكّل المأمون بشيوخ الموحدين وتتبّعهم تقتيلاً بين القبائل بعد توليه عرش الخلافة[1] .

فقد شهد عصر الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (558 – 580هـ/1163م– 1184م) ضروب العدل والإنصاف والتوقف في الدماء[2]، حتى شُبِّهت أيامه بأيام الخليفة عمر بن عبد العزيز، ما حمل الفقيه أبا القاسم بن حبيش تـ 584هـ/1188م– وقد سُئل عنه – على القول : "هو عمر بن عبد العزيز عدلا وعلما وزهدا وفضلا "[3].

وخفت كذلك النزعة التكفيرية بخفوت الحماس نحو المعتقد التومرتي، وقد مرَّ بنا أن المعتقد التومرتي أصبح منبوذا بعد أن كان معْلماً للتفريق بين "المؤمن والكافر" في معتقد الموحدين.

ومن جهةٍ أخرى استمرَّ خلفاء الدولة الموحدية في تمسُّكهم بأحقّيَّتهم في الخلافة، نابذين الخلافة العباسية القرشية[4]، وإن كنَّا لا نتجاوز مذهب بعض الفقهاء المُجيزين لتعدد الأئمة إذا بعُدت المسافة، **وقال** العلامة محمد بن إسماعيل الصنعاني رحمه الله تعالى تـ 1182هـ/1850م في شرح حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: "من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة ومات فميتته ميتة جاهلية" قوله: "عن الطاعة"، أي طاعة الخليفة

---

1 – ابن عذارى، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص: 265، وأورد ابن عذار كتابا وجهه عبد المؤمن إلى الطلبة والأشياخ والحفاظ ينهاهم فيه عن سفك الدماء في 15 ربيع الأول من عام 543 هـ/ 1148م. أنظر: ابن عذارى، البيان المغرب (قسم الموحدين) ، ص : 37 .

2 – ابن الكردبوس، الإكتفاء في أخبار الخلفاء، ص: 119. وابن أبي زرع، روض القرطاس، ص:20.

3 – ابن الأزرق الغرناطي، **بدائع السلك في طبائع الملك**، تحقيق: علي سامي النشار، الطبعة01، العراق، وزارة الإعلام، ج:2، ص: 239.

4 – يرى الدكتور والمفكر محمود شاكر عدم صلاحية قيام خليفتين في وقت واحد، أنظر كتابه القيم: **مفاهيم حول الفكر الإسلامي**، ضمن سلسلته التاريخ الإسلامي، الطبعة 03، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان،1411هـ/1991م، ص: 275 و276.

الذي وقع الإجتماع عليه، وكأنَّ المُراد خليفة أي قطر من الأقطار، إذ لم يُجمِع الناس على خليفة في جميع البلاد الإسلامية من أثناء الدولة العباسية، بل استقلَّ أهل كل إقليم بقائم بأمورهم إذ لو حُمل الحديث على خليفة اجتمع عليه أهل الإسلام لقلَّت فائدته، وقوله: "وفارق الجماعة"، أي خرج عن الجماعة الذين اتفقوا على طاعة إمام انتظمَ به شملهم واجتمعتْ به كلمتهم وحاطهم عن عدوهم" [1].

ورأيٌ فقهي منع أصحابه تعدُّد الأئمة إلا في حالة وجود سبب مانع من الاجتماع على إمامٍ واحد، فيقتضي هذا السبب جواز تعدُّد الأئمة، وذكر إمام الحرمين الجويني تـ 478هـ/1085م أهم هذه الأسباب في قوله: "منها اتساع الخطة، وانسحاب الإسلام على أقطار متباينة، وجزائر في الحج متقاذفة، وقد يقع قوم من الناس نبذة من الدنيا لا ينتهي إليهم نظر الإمام، وقد يتولج خط من ديار الكفر بين خطة الإسلام، وينقطع بسبب ذلك نظر الإمام عن الذين وراءه من المسلمين... فإذا اتفق ما ذكرناه فقد صار صائرون عند ذلك إلى تجويز نصب إمام في القطر الذي لا يبلغه أثر نظر الإمام" [2].

وهو وجهٌ لبعض أصحاب الشافعي[3]، وإلى ذلك ذهب القرطبي تـ 671هـ/1272م في تفسيره فقال:" لكن إذا تباعدت الأقطار، وتباينت كالأندلس وخرسان، جاز ذلك" [1].

---

1 – محمد بن إسماعيل الصنعاني، **سبل السلام**، دار الحديث، القاهرة، مصر، د.ت.ط، ج:2، ص:374 .

2– أبو المعالي الجويني، **غياث الأمم في التياث الظلم**، تحقيق: عبد العظيم الديب، عبد العظيم الديب، مكتبة إمام الحرمين، 1401هـ/ 1981م، ص: 175.

3 – القلقشندي، **مآثر الإنافة في معالم الخلافة**،تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الطبعة 02، الكويت، 1985م، ج:1، ص: 46.

أما من ذهب إلى جواز تعدُّد الأئمة مطلقًا بدون شرط فهو مذهب الحمزية من الخوارج[2]، والزيدية من الشيعة حيث جوَّزوا لـ" كل فاطمي عالمٍ شجاعٍ سخيٍ خرج بالإمامة أن يكون إمامًا واجبَ الطاعة، وجوَّزوا خروج إمامين في قطرين يستجمعان هذه الخصال، ويكون كل واحدٍ منهما واجبَ الطاعة"[3].

مصير العقيدة الأشعرية:

رغم أن عقيدة ابن تومرت لم تكن أشعرية خالصة ولم تندمج في تيار الأشعرية العام إلاَّ لاحقاً فإنه مع ذلك تحقق -بهذه القوة السياسية الجديدة- التمكين رسميًا للاعتقاد على رأي الأشاعرة في المغرب، والعدول بأهالي المغرب الإسلامي من اعتقاد السلف إلى مذهب التأويل بعد أن حملهم على ذلك ابن تومرت رغبة ورهبة .

ولا شك أن أي سلطة سياسية تتوفر لها من وسائل النشر المادية والمعنوية ما يُساعد على تبليغ العقائد والمذاهب في أسرع وقت وأوسع رقعة حتى كان لها الظهور والرسوخ .

---

1 – شمس الدين القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)**، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الطبعة 02، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، 1384هـ/ 1964م، ج:1، ص: 273.

2 – أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، **الملل والنحل**، مؤسسة الحلبي، ج:1، ص:130، وهم أتباع حمزة بن أدرك أو أكرك، أنظر: البغدادي، الفرق بين الفرق، ص:98.

3 – الشهرستاني، المصدر السابق، ج:1، ص: 155. وأنظر : عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، **الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة**، دار طيبة، الرياض، ص:551 وما بعدها.

استمرّ تأثير المرحلة الموحدية في الدولة الحفصية والمرينية والزيانية التي خلفتها[1]، لأن قيام تلك الدول لم يكن مُؤسساً على دعوة سياسية أو فكرية واضحة كسابقاتها، فاستعاضت عن ذلك بخطة سياسية تمنح لها الشرعية، ومن قوام تلك الخطة احتواء العلماء وتأسيس المدارس[2]، فاستفادت العقيدة السائدة (الأشعرية) من هذا الفراغ لتتمكّن وتسود فاستمرت هذه الدول في تبني العقيدة الأشعرية " تأليفاً لأهل المغرب واستجلاباً لمرضاتهم وإتياناً لهم من ناحية أهوائهم، إذ كانت صبغة الدعوة الموحدية قد رسخت في قلوبهم"[3] .

ويرى أحد الباحثين أن الفقهاء وجدوا في المذهب الأشعري سلاحاً لمواجهة المد الباطني مستلهمين ذلك من التجربة الأشعرية في المشرق، ويذهب الباحث إلى أنَّ تشبُّث ابن تومرت بالمذهب الأشعري كان ينطوي على بُعدٍ فكريٍ يُترجم هماً دفيناً لديه في ضرورة اندماج المغاربة في سياق سُنّي أوسع كان يخدم وحدة المذاهب السنية ويعزز ارتباطها بالمذهب الأشعري لمواجهة المذهب الباطني الشيعي المتسلح بالاعتزال في الجدل العقدي[4]، وهو الاعتقاد الذي كان سائداً في المشرق حيث شجَّع السلاجقة منذ منتصف القرن الخامس الهجري المذهب الأشعري لاعتقادهم الجازم أنه أجدر المذاهب لمواجهة المدّ الباطني فانتصر السلاجقة للمذهب

---

1 – علي الإدريسي، الأشعرية والاستقرار المذهبي بالمغرب، مقال ضمن **مجموع المذاهب الإسلامية ببلاد المغرب**، جمع وتنسيق: حسن حافظ علوي ، جامعة محمد الخامس أكدال، سلسلة وندوات، ص:140 .

2 – علي الإدريسي، الأشعرية والإستقرار المذهبي بالمغرب، ص: 139 .

3 – السلاوي، المصدر السابق، ج: 04 ،ص: 28 .

4 – محمد المغراوي، الصلحاء، ص : 56 .

على المستوى الرسمي مقابل بذل الأشاعـــرة للعـون العقلـي فـي مواجهـة المذهب الشيعي[1].

وبمجهـودات ابـن تـومرت وخليفتـه عبـد المـؤمن أخـذت مؤلّفـات ابن تومرت طريقها نحو الشيوع ولقيت رواجـا بـين طلبـة العلـم فـي المغـرب وحتى المشرق، لا سيما مرشـدة ابـن تـومرت التـي صـارت بحـق مصـدراً أشعريا فـي المغـرب يتـولاه الشـارحون والمُدرِّسـون بالتحليـل والتفصـيل، ونذكر من تلك الشـروح : شـرح أبـي عبـد الله محمـد بـن خليـل السـكوني الإشبيلي نزيل تونس تـ749هــ/ 1348م، وهـو شـرح صـغير اعتمـد فيـه صاحبه على شرح متن المرشـدة شـرحا أشـعريا مركـزاً، قَصَـدَ منـه تأكيـد أشعرية المرشدة، ومن خلالها تأكيد الفكر الأشـعري فـي أذهـان القـارئين لهـذا الشرح، وهي محققة ومطبوعة[2] .

وشـرح محمـد بـن يوسـف السنوسـي تـ 895هــ/ 1490م الـذي شرحها بطلب من بعض أهل تلمسـان كمـا يفيـد قولـه " ... وبعـد، كسـانا الله وإياك لباس التقوى، وزحزحنا بمنه عن نـار الشـهوات والهـوى، فإنـك سـألتني أن أقيّـد لك على كلام أبي عبد الله محمد المهـدوي رحمـه الله ونفـع بـه فـي المرشدة ما يحلو سماعه ويروق دليلـه ونصـوعه، فأجبـت إلـى ذلـك مسـتعينا

---

1 – أبو الفتوح بدوي ، **التاريخ السياسـي والفكـري للمـذهب السـني فـي المشـرق الإسـلامي**، دار الوفـاء، المنصـورة، الطبعـة 02، 1408هـ / 1988م، ص : 184 و185 . ومـوجز دائـرة المعـارف الإسلامية ، **مادة أشعرية** ، الجزء : 3 ، مركز الشـارقة للإبـداع الفكـري ، الطبعـة 01، 1418هـــ / 1998م، ص: 802 . وحسين أمين ، **تاريخ العراق فـي العصـر السـلجوقي**، المكتبـة الأهليـة، بغـداد، 1385هـ/ 1965م، ص: 223.

2 – أبو عبد الله محمد بن خليل السكوني، **شـرح مرشـدة بـن تـومرت**، تحقيـق يوسـف احنانـا، دار الغرب الإسلامي، 1414 هـ / 1993 م .

بالله ... " [1]، ثم أكمل بعض أصحاب السنوسي هذا الشرح وهـو مـا يفيـده قولـه "ولقد أحسن بعض أصحابنا بتكملة هذا المختصـر ...لسـفر شـغلني عـن تكملتـه في الحال" [2] .

ومن تلك الشروح أيضا التـي تـدل علـى شـيوع المرشـدة : شـرح محمد بن إبراهيم بن عباد التلمسـاني تـ 792هـ/ 1390م وعنوانـه " الـذرة المشيدة في شرح عقيدة المرشـدة " وهـي لا تـزال مخطوطـة بالخزانـة العامـة في الرباط [3] .

وشرح آخر لأبي عبد الله محمد بن أبـي العبـاس بـن إسـماعيل الأمـوي المعروف بابن النقاش وعنوانه " الـدرة المفـردة فـي شـرح العقيـدة المرشـدة " وشرح أبي زكريا يحي بن أبي حفص عمر التنسـي وعنوانـه " الأنـوار المبينـة المؤيدة لمعاني عقد عقيدة المرشدة " وكلاهما مخطوط [4] .

وجاء في شرح ابن النقاش ما يعكـس تـداول المرشـدة بـين النـاس وشيوعها فيهم، منها قوله " ولما كـان مـن جملـة مـا وضـع المهـدي لإفهـام العامة، وتيسيرا علـى الكافـة العقيـدة المختصـرة المنتظمـة الكـلام، الحسـنة النظام، المرتبطة المعاني، الموسـومة بالمرشـدة، بـادر إلـى حفظهـا وقراءتهـا جماعة الفقراء والعلماء والأخيار ..." [5] .

---

1 – عبد المجيد النجـار، المرجـع السـابق، ص : 452 نقـلا عـن شـرح المرشـدة للسنوسـي مخطوط بالدار .

2 – نفسـه.

3 – يوسف احنانا، المـرجع السابـق، ص : 92، وذكرها عبد المجيد النجـار بالـدال بـدلا مـن الـذال (الدرة المشيدة)، ابن تومرت، ص : 451 .

4 – نفـس المرجـع، ص 93، و يـعُد شـرح التنسـي " الأنـوار المبينـة " إكمـالاً و تتمـة لشـرح السنوسي. أنظر : عبد المجيد النجار، ابن تـومرت، ص : 453 .

5 – نفس المرجع، ص : 454 و455 .

ونجد من اعتنى بالمرشدة نُظماً تسهيلاً لحفظها وتداولها، وتقريباً لمضامينها العقيدية، فجاء[1] في مطلع هذا النظم :

الحمد لله العظيم الأحد * ثم صلاته على محمد .

وبعد فاعلم أرشد الله الجميع * من ناظري وقارئ ومستمع .

بأنه فرض على المكلفين * أن يعلموا أن إله العالمين .

عز وجل في ملكه * العالم كله يرى بأمره .

ومما يعكس شهرة مرشدة ابن تومرت وسرعة انتشارها أن أصبح لها أنصار يبلغونها ويدافعون عنها، كما كانت محل تدارس بين العلماء والطلبة، منهم أبو العباس أحمد بن عبد الرحمان بن الصغير الأنصاري ت 559هـ/ 1164م الذي اختاره عبد المؤمن بين طلبة الموحدين فتلقى مبادئهم وبرع في عقيدتهم وعلَّمها للناس، فولاّه عبد المؤمن قضاء غرناطة ثم قضاء أشبيلية[2] .

ومنهم أيضا أبو الحسن علي بن محمد بن خليل الإشبيلي ت567هـ/ 1172م الذي حضر المؤرخ ابن صاحب الصلاة المراكشي مجلسه في مراكش سنة 560هـ/1165م يشرح فيه كتاب أعز ما يطلب لابن تومرت [3] .

ولم تكن المرشدة شائعة في المغرب فحسب بل طار ذكرها إلى المشرق بين مؤيد ومعارض لها، مما يعكس مدى شيوعها، فقد ذكر السبكي أن فخر الدين بن عساكر ت 620هـ/1223م كان يُدرِّسُها في القدس

1 – النظم مخطوط بالخزانة الملكية بالمغرب لمؤلف مجهول . أنظر عنه: يوسف احنانا، المرجع السابق،ص: 93 .

2 – ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج : 1، ص : 67 وما بعدها .

3 – عبد المجيد النجار، المرجع السابق، ص : 444 و445 .

بمدرسة قريبة من الحـرم[1]، أمـا أهـل الحـديث هنالـك فأبـدوا إنكـارهم لهـا، وسارعوا للتحذير منها، من بينهم سيف الـدين أحمـد بـن مجـد الـدين المقدسـي الذي ذمها وقدح فيها ونسبها إلـى الشـؤم ووصـفها بأنهـا" المضـلة " [2]، ومـن الناقمين عنها في المشرق شيخ الإسلام بن تيميـة تـ 728هـ/1327م الـذي، سـُئل عن مرشدة ابن تـومرت، وهـل تجـوز قراءتهـا أم لا ؟، فكـان رأيـه الإعراض عنها وعدم الإشتغال بها لأن صـاحبها وافـق فيهـا أقـوال المتفلسـفة كابن سينا وابن سبعين وأشباههم من المعتزلة [3] .

وخـتامًا تبـيَّـنَ لنا أنَّ المعتقد الموحـدي جمـع بـين نزعـةٍ خارجيـة دمـوية إنفصالية، ونـزعةٍ شـيعيَّة باطنيـة متمثلـة فـي دعـوى المهدويـة والعصمة، بالإضافة إلى النزعة الكلاميـة الفلسـفية الأشـعرية، وبنهايـة العصـر الموحدي وجدنا أن الموحدين حافظوا علـى اسـتقلالهم الكـامل بالحكـم عـن الخلافة العباسية، وفي الوقت نفسه لازمـت الموحـدين صـفة الدمويـة والعنـف، أما النزعة الشيعية الباطنية فقـد أتـى عليهـا الخلفـاء والعلمـاء تـدريجياً حتـى نقضها تماما الخليفة المأمـون بإلغاء كل مـا يتعلـق بمعتقـد ومراسـيم المهدويـة والعصمة، وزال الأثـر المهـدوي رغـم محاولـة تهذيبـه وتسـويغه وإعـادة بعثه مـن جديـد .

فنقول اختصـاراً أن الميـزات العقيديـة الـثلاث التـي طـرأت علـى الغرب الإسلامي بداية العصر الموحدي تراجعـت إحـداها (الخارجيـة الدمويـة) واندثرت الثانيـة (الباطنية الشيعية) وانتعشت الثالثة (الأشعرية الكلاميـة).

---

1 – السبكي، المـصـدر السـابـق، ج : 5، ص : 70 .

2 – نفسـه.

3 – انظر نص السؤال والفتـوى فـي : مجمـوع الفتـاوى، ج :11، ص : 476 و مـا بعـدها . وقـد طبعت هذه الفتوى مُـفردة بعنوان رسالة في المرشدة لابن تومرت .

➢ الفصل الثانـــي :

➢ انتعـاش العلـوم الكلامية والفلسفية فـي الغـرب الإسلامـي خـلال العصر الموحدي (6هـــ – 8 هـ/ 12م – 14م) :

- ➢ المبحـــث الأول : نهضــــة العلـــوم الكلاميـــة والفلســـفية فــي الغــرب الإسلامي بدايـــة العصــــر الموحدي وموقف الفقهاء منها .
- ➢ المطلب الأول : جهود الخلفــاء الموحــدين فـــي تنشـيط علـم الكـلام والفلسفـــة.
- ➢ المطلب الثاني : معارضة الفقهاء لعلـم الكـلام والفلســفة فــي الغــرب الإســـلامي خلال العصــر المـــوحـــدي.
- ➢ المبحث الثاني : نكبة المنصور لابـــن رشـــد والفلسفـــة.
- ➢ المطلب الأول : أسباب وآثار النكــبة.
- ➢ المطلب الثاني: علـــم الكلام والفلسفة نهايـــة العصــر الموحـــدي.

الفصـــل الثانـي:

انتعاش العلوم الكلامية والفلسفية في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي

المبحث الأول : نهضة العلــوم الكلاميـــة والفلســفية فـــي الغــرب الإســلامي بدايـــة العصر الموحدي.

شغلت العلوم الكلامية والفلسفية حيزاً كبيراً مـــن الفكـــر العقيـــدي لـــدى المسلمين في العصور الوســطى، ترتــب عنــه ظهــور العديــد مــن الفــرق الكلامية الإسلامية مــُعتمدةً التأويل العقلي طريقا لتقريرعقائدها[1].

وأهم ما ميَّــز علــم الكـــلام فـــي القـــرن الخـــامس الهجـــري نفـــوذ الفلسفة إلى جميـــع مدارســـه فاســـتعملتها جميـــع أطـــراف المعـــارك الفكريـــة لتدعيم مواقفها مع تفاوت في درجة الأخذ منهـــا[2]، وإلـــى جانـــب مدرســـة علـــم الكلام المُطعَّم بالفلسفة ظهرت مدرسة فلسفية بحتة لهـــا مســـارها الخـــاص بهـــا في تناولها للقضايا الفكريـــة، هـــذه المدرســـة تُعبـِّــــــُر عـــن ثقافـــة اليونـــان وفلسفته أكثر مما تعبر عن ثقافة الاسلام وفكـــره[3].

---

1 – كانت معادات أهل الحديث أشد لمتكلمي اليونـــان وفلســـفتهم أظهـــر ومنـــافرتهم لهـــم أشـــد، أنظـــر: خالد كبير علال، **مقاومة أهـــل الســـنة للفلســـفة اليونانيـــة خـــلال العصـــر الإســـلامي، ق:2-13هـــ**، الطبعة01، دار المحتسب، الجزائر، 2008م، ص:59. يقول ابـــن تيميـــة – مـــن كبـــار أئمـــة الحـــديث – "أن المُعظـــِّمين للفلسفة والكلام المعتقدين لمضمونهما هم أبعد عن معرفـــة الحـــديث وأبعـــد عـــن اتباعـــه من هؤلاء، هذا أمر محسوس بل إذا كشفت أحوالهم وجدتهم من أجهـــل النـــاس بأقوالـــه صـــلى الله عليـــه وسلم وأحواله وبواطن أموره وظواهرها حتى لتجد كثيرا من العامة أعلـــم بـــذلك". أنظـــر : ابـــن تيميـــة، مجموع الفتاوى، ج:4، ص: 95.

2 – عبد المجيد بدوي، التاريخ السياسي والفكـــري للمـــذهب الســـني فـــي المشـــرق الإســـلامي، مرجـــع سابق، ص: 40.

3 – سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، مرجع سابق، ج:1، ص: 192.

المطلــب الأول : جهــود الخلفــاء الموحــدين فــي تنشــيط علــم الكــلام والفلسفــة في الغرب الإســلامي.

تشـــبَّع ابـــن تـــومرت مـــن علـــوم الكـــلام والفلســـفة خـــلال رحلتـــه المشرقية، وعاد إلـــى المغـــرب "غزاليًـــا" يـــدَّعي أنـــه يحمـــل علـــم الغزالـــي وأفكاره، وكان الغزالي قـــد أفتـــى فـــي مقدمـــة كتابـــه المستصـــفى بـــأن مـــن لا يعرف المنطق "فَـــلا ثِقَـــة لَهُ بِعُلُومِـــهِ أَصـــــلاً"[1]، فكـــان ابـــن تـــومرت – كما وصـــفه ابـــن أبـــي زرع– " أوحـــد عصـــره فـــي علـــم الكـــلام وعلـــوم الاعتقاد"[2].

وفي المغرب وجد ابـــن تـــومرت أهلـــه "صـــياماً عـــن هـــذه العلـــوم"[3]، فتبنَّى في ثورته الفكرية منهجـــاً يقـــوم علـــى أســـس نقديـــة كلاميـــة متحـــررة مـــُستخدماً سلاح الجدل والمناقشة ببراعـــةٍ ودهـــاء للـــتهجم علـــى المـــرابطين وكسب الأنصار تمهيداً لتحقيق مشروعه الكبير[4].

وأعلن حربه ضد علماء المـــرابطين ومـــنهجهم الفروعـــي، وقـــد صـــوَّر البيذق ذلك في شئ من المبالغة بقوله : " ثم خـــرج منهـــا – أي ابـــن تـــومرت

---

1 – أبو حامد الغزالي، **المستصفى فـــي علـــم الأصـــول**، تحقيـــق: محمـــد عبـــد الســـلام عبـــد الشـــافي، الطبعة 01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1413هـ/1993م، ص: 10.(مقدمة الكتاب).

2 – ابن أبي زرع الفاسي، روض القرطاس، ص : 173 .

3 – صوّر زهد الأندلسيين في المنطق أبو الحجـــاج بـــن طملـــوس بقولـــه: " إن أهـــل زماننـــا ينفـــرون عنها (صناعة المنطق) ويرمون العالم بها بالبـــدع و الزندقـــة، و قـــد اشـــترك فـــي هـــذا الأمـــر مـــنهم دهماؤهم وعلماؤهم، فلما رأيت هذه الصناعة غريبة وقع فـــي نفســـي أن أمـــتحن العلمـــاء الـــذين ألقـــاهم في عصري هذا و أباحثهم عما عندهم فيه ، فلقيت من مشايخ العلمـــاء عـــددا كثيـــرا ممـــن لا يـــُـــؤتمر لأمره و يوصق بقوله و معرفته، فسألتهم عنها، وبـــاحثتهم هـــل اطلعـــوا منهـــا علـــى شـــيء فلـــم اجـــد عندهم في أمرها إلا ما هند الدهماء و العوام ". ابن طملـــوس، **المـــدخل إلـــى صـــناعة المنطـــق**، وقـــف على طبعه: ميكائيل أسين بلاديوس السرقســـطي، طُبـــع بمطبعـــو الأبيرقـــة مجريـــة المســـيحية، 1916م، ص: 08 .

4 – "ظل ابن تومرت سنوات يطلب العلم بالمشرق ثم عـــاد إلـــى بـــلاده حـــاملا أفكـــارا جديـــدة وآمـــالا بعيدة"، أنظر: حسن علي حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ج:4، ص:281 .

من مراكش – لمســجد عرفـــة فمكـــث فيهـــا أيامـــا عديـــدة، وذلـــك أن علياً بن يوسف بعث إلى العلماء حتى وصلوا مـــن كـــل جانـــبٍ ومكـــان، فـــذاكرهم المعصوم فأفحمهم ... وقهرهـــم القهر الكلي ..." [1].

ولم يكن لابن تـــومرت أن يـــُهمل هـــذا الســـلاح فـــي ســـبيل إنجـــاح ثورته وهو الذي تسلح من علـــوم الســـلف والخلـــف والظـــاهر والبـــاطن[2] مـــا يضمن لحركته النصر والتمكـــين، فقـــد جـــزم الباحـــث يوســـف احنانـــا بـــأن ابن تومرت كان يطغى عليه هاجس سياسي شكل عنـــده الهـــدف الغـــائي ومـــا العقـــدي إلا وســـيلة اقتضـــتها الشـــروط الموضـــوعية والتاريخيـــة فقـــط، مـــُستدلاً بتوظيف ابن تومرت لأكثر من عقيـــدة وتلونـــه بـــأكثر مـــن مـــذهب كلامي[3]، خلافا لما قرَّره الباحث عبـــد المجيـــد النجـــار عنـــدما جعـــل الهـــدف العقيدي هدفا غائيا والهدف السياسي وسيلة[4].

ومضى ابن تومرت يُقرِّر علم الكـــلام والفلســـفة فـــي البيئـــة المغربيـــة، منتقلا من التنظير إلى التطبيق، إذ أُعتبر المهـــدي ابـــن تـــومرت بدعوتـــه أول من حمل المغاربة علـــى الأخـــذ بمـــذهب التوحيـــد الكلامـــي[5]، وحـــرَّك فـــيهم العلوم العقلية من جديد[6]، وقد صوَّر ابـــن طملـــوس تـــــ620هـــــ/1223م دور المهدي في هذه العناية التي بدأ أهـــل المغـــرب يولونهـــا للمنطـــق ضـــمن دوره في نشر فكر الغزالي ومؤلفاته بالمغرب عموما بقوله: "...ثـــم لـــم تكـــن الأيـــام إلا قليلا، وجاء الله بالإمام المهدي رضي الله تعالى عنه فبـــان بـــه للنـــاس مـــا كانوا قد تحيَّروا فيه، وندب النـــاس إلـــى قـــراءة كتـــب الغزالـــي رحمـــه الله،

---

1 – البيذق، أخبار المهدي، ص: 57.

2 – أنظر الفصل السابق.

3 – يوسف احنانا، المـــرجع الســـابق، ص: 69.

4 – أنظر: عبد المجيد النجار، المهدي ابن تومرت، ص: 354.

5 – عبد الله علي علام، المرجع السابق، ص: 303.

6 – داود سلامة عبيدات، الموحدون في الأندلس، ص: 264.

وعُرف عن مذهبه أنه يوافقه، فأخذ الناس فـــي قراءتهـــا وأعجبـــوا بهـــا وبمـــا رأوا فيها من جودة النظام والترتيب الذي لم يروا مثله قـــط فـــي تـــأليف، ولـــم يبق في هذه الجهات من لم يغلب عليـــه حـــب كتـــب الغزالـــي إلا مـــن غلـــب عليه إفراط الجمود من غلاة المقلدين"[1].

وجعل بعضُ الباحثين ابن تومرت نظيـــر ابـــن رشـــد تـــــ591 هـــــ/ 1194م في قيامهما بمحاولة جادة لتقريـــر العلاقـــة بـــين الحكمـــة والشـــريعة، تضعهما رائدين من رواد الفلسفة الإسلامية في عهد الموحدين[2].

فقد عاش أبـــو الوليـــد بـــن رشـــد أحـــداث الدولـــة الموحديـــة، وتحمَّـــل مسؤولياتها، وخَبر حُكامهـــا، واطّلـــع علـــى آثـــار المهـــدي إمـــام الموحـــدين، وشرح مؤلفا من مؤلفاته عـــُـرف بـــ: عقيدة المهـــدي[3]، واطلـــع علـــى أعـــز ما يطلب، ولا شك أنه وقف عند أول عبارات هذا الكتـــاب وهـــي: "أعـــز مـــا يطلب وأفضل ما يُكتسب وأنفس ما يـــذخر وأحســـن مـــا يعمـــل، العلـــم الـــذي جعله الله سبب الهداية إلى كل خير، هـــو أعـــز المطالـــب وأفضـــل المكاســـب وأنفس الذخائر وأحسن الأعمال[4]، فالمهدي يضـــع العلـــم فـــي مقدمـــة الدولـــة، وأفلاطون – الذي لخص ابـــن رشـــد جمهوريتـــه – أيضـــا يضـــع العلـــم فـــي مقدمتها[5].

---

1 – ابن طملوس، المدخل إلى صناعة المنطق، مصدر سابق، ص: 9.

2 – يحي هويدي، محمد بن تومرت وتوفيقه بين الحكمـــة والشـــريعة، **مجلـــة دراســـات ثقافيـــة وأدبيـــة**، العدد: 12، جانفي 1973م ، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، قسنطينة، الجزائر، ص: 23.

3 – هذا الكتاب : شرح عقيدة المهدي: يُوجد منـــه مخطـــوط فـــي مكتبـــة الأســـكوريال بأســـبانيا تحـــت رقم: 879. أنظر: محي الدين عطية، ابن رشد: قائمة ورقية مما كتبـــه وكـــُتب عنـــه، **مجلـــة إســـلامية المعرفة** ، السنة 05، العدد 17، 1420هــ/1999م، ص: 179.

4 – ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص: 33 .

5 – يحي هويدي، **تاريخ فلسفة الإسلام**، القاهرة، 1965م، ص:291 وص:274- 270 .

ويبدو أن ابن رشد تأثر تأثراً بالغا بمنهج ابن تومرت وظهر ذلك واضحا في التقريب بين العقل والشرع[1]، وبيَّن أن العهد الثقافي الذي أحدثه ابن تومرت ودعَّمه خلفاؤه من بعده عهدُ رفع الشرور والجهالات، إذ قال عنهم في كتابه فصل المقال : " وقد رفع الله كثيراً من هذه الشرور والجهالات والمسالك المضلات بهذا الأمر الغالب، وطرق به إلى كثير من الخيرات وبخاصة على الصنف الذين سلكوا مسلك النظر ورغِبوا في معرفة الحق"[2].

وكثُرت مؤلفات ابن رشد بهدف "خدمة الفلسفة الأرسطية المشائية خدمة شاملة بإحيائها والدفاع عنها، وبالانتصار لها والدعوة إليها ... وتقرير العلاقة بين الشريعة والفلسفة بطريقة تضمن للفلسفة مكانتها واعتراف الدين والمجتمع بها "[3] .

وعموماً جاء ابن تومرت بدعوته التي استمدَّت قواعدها من مذاهب عدة وامتزجت بالكثير من الأفكار والآراء، فدعت انطلاقا من ذلك إلى التحرر الفكري والعقلي، فانطلقت الفلسفة من عُقالها، إلا أن اشتغال ابن تومرت بمحاربة المرابطين فوَّت عليه تجسيد كثير من أفكاره تاركاً المهمة إلى خلفائه من بعده.

---

1 – يحي هويدي، تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية، ص:236 . وداود سلامة عبيدات، الموحدون في الأندلس، ص: 267 .

2 – أبو الوليد ابن رشد القرطبي، **فصل المقال**، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، دار المعارف، مصر، ص: 67.

3 – خالد كبير علال، **نقد فكر الفيلسوف ابن رشد الحفيد على ضوء الشرع والعقل والعلم**، الطبعة 01، دار المحتسب، الجزائر، 1429هـ/ 2000م، ص: 245 .

ورأى الموحدون في حركتهم ثورة سياسية وفكرية على كل ما هو مرابطي، فكان من الطبيعي أن يُطلق الموحدون العنان للعلوم الكلامية والفلسفية، التي نبذها المرابطون طيلة حكمهم واشتدوا في مطاردتها[1] .

والمعروف أنَّ العلوم الكلامية والفلسفية هي وليدة المجادلات والمناظرات، وفي وسطها تنمو وبين أحضانها تتطور، وهو ما سعى إلى تهيئته الموحدون في بداية عهدهم، وأهم ما يُشير إلى تشجيع الأسرة الموحدية للجدل والمناظرة تلك الحلقات والمجالس العلمية النقاشية التي كانت تُعقد في حضرتهم وعلى بلاطهم الملكي، فقد داوم الخلفاء على عقدها وإثرائها والإشراف عليها والمشاركة فيها، وهي عبارة عن حلقات تُعقد لمناقشة مسائل فكرية علمية وأدبية، تُعقد في بلاط الخلفاء والأمراء وبحضورهم[2]، جلبوا إليها أنبغ العلماء وأجلّ الفقهاء من شتى الأقطار والبلدان فيجزلون لهم العطاء، وفي هذا يقول المراكشي: " وقد جرت عادتهم بالكَتْب إلى البلاد واستجلاب العلماء إلى حضرتهم من أهل كل فن، وخاصة أهل علم النظر، وسموهم طلبة الحضر، فهم يكثرون في بعض الأوقات ويقلون" [3].

وكانت قصور الخلفاء والأمراء الموحدين مليئة بالعلماء والفقهاء من أهل كل فن، فتنوعت تبعاً لذلك موضوعات المجالس، وكان المنصور يُخصِّص لكل فنٍ من هذه الفنون يوماً من الأسبوع للخوض فيه والبحث في أغراضه، وكان من ضمن المجالس العلمية السلطانية مجلس مخصص

---

1 – يوسف أشباخ، المرجع السابق، ج:3، ص : 301، ولعل المبالغة ظاهرة في كلام المستشرق الألماني وزعم أن المرابطين قد ضيقوا على العلوم و المعارف جملة .

2 – ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص : 275 .

3– المراكشي، المصدر السابق، ص: 242.

لعلم الكــلام[1]، وكــان المنصــور نفســه يشــارك فــي المناقشــات فــي تلــك المجالس[2].

وصار لهذه المجالس نظام وتقليــد متبــع حتــى فــي كيفيــة الجلــوس، فكان الخليفة يتصدر المجلس وبجانبه قاضــي الجماعــة بمــراكش ثــم رئــيس الأطباء فأكبر علماء تلك الفترة ثم باقي الحضــور[3]، ويفتــتح الخليفــة المجلــس أو أحد العلماء، ويُختتم المجلس بالدعــاء للخليفة[4].

ونشَّط تلك المجالس عدد كبير من أهل العلم والفكــر مــنهم ابــن زهــر تــ 595 هــ/ 1198م[5] وابن طفيل تــــ581هــــ/1185م[6] وابــن رشــد تــــ 595هــ/ 1198م وأبو الحجاج المربيطي تـــ 560هــــ/1164م الــذي كــان يدخل المجلس للمذاكرة في العربية[7] وعبــد الله بــن علــي بــن أبــي العبــاس الذي كان جليس يوسف وأبيه عبد المؤمن[8].

ومممــا شــجَّع علــى بعــث حركــة الجــدل والمنــاظرات أيضــا – بالإضافة إلى تلك المجــالس العلميــة – ظهــور بعــض المجهــودات العلميــة الهادف للرد على معتقدات الصليبيين، فقد ألَّــف أبــو جعفــر أحمــد بــن عبــد الصمد الخزرجــي القرطبــي تـــ1125/519م "مقــام المــدرك فــي إفحــام

1 – ابن فرحون، الديباج المذهب، ج: 1، ص: 233 .

2 – محمد الرشيد ملين، **عصر المنصور الموحدي**، مطبعة الشمال الإفريقي، ص: 163 و164 .

3 – المنوني، المرجع السابق، ص : 88 .

4 – نفسه.

5 – المراكشي، المصدر السابق، ج: 01 ص : 134 .

6 – ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج: 02، ص : 85 .

7 – بن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج: 03 ، ص : 128 .

8 – المراكشي، المصدر الســابق، ج: 08 ، ص : 89 . وابــن عســكر، بــن خمــيس، أعــلام مالقــة، ص: 221.

المشـــرك"، و"مقامع الصلبان" يـــرد بهـــا علـــى بعـــض القسيســـين بطليطلـــة[1]، وفي نفس السياق عُقدت مجالس للمجادلة مع بعـــض المســـيحيين حـــول أحقيـــة الدين الإسلامي[2]، ونجد في المعيار مذاكرة من هذا النـــوع بمرســـية بـــين أبـــي الحسن على بن رشيق وبعض القسيسين[3].

ومن مظاهر شيوع الجدل والمنطق أيضـــا الكتـــب التـــي صُـــنِّفت فـــي الرد على إمام الظاهريـــة ابـــن حـــزم تــــ456هـــــ/1063م خـــلال العصـــر الموحدي، وممن تصدَّر لـــذلك أبـــو عبـــد الله محمـــد بـــن محمـــد بـــن ســـعيد الأنصاري الإشبيلي المالكي المعـــروف بـــابن زرقـــون تــــ586هـــــ/ 1190م ألَّـــف المُعلى في الرد على المحلى والمجلى لابن حزم [4].

ومن مظاهر تضـــامن بـــلاط الموحـــدين مـــع العلـــوم العقليـــة وأهلهـــا تشجيعهم على الخوض في أصول الفقه الـــذي كـــان يـُــــعد بـــالمغرب قبـــل العصر الموحدي من العلوم الدخيلة التي يجب محاربتها[5].

وشفيعنا في هذا الرأي ما ذكرتـــه المصـــادر مـــن الفقهـــاء والأصـــوليين الذين اهتمُّـــوا بأصول الفقه وعلـــم الكـــلام والجـــدل زمـــن الموحـــدين نـــذكر منهم : الإمام أبو عبد الله محمد الفندلاوي الفاســـي يُعـــرف بـــابن الكتـــاني تــــ 596هــ/ 1199م كان إماماً في أصول الفقـــه وعلـــم الكـــلام، ألَّـــف أرجـــوزة في علم أصول الفقه[6].

---

1 – ابن الأبار، التكملة لكتاب الصـــلة، ج:4، ص:219. ابـــن فرحـــون، الـــديباج المـــذهب، ج: 1، ص: 50و51. وعمر رضا كحالة، معجـــم المؤلفيـــن، ج:1، ص: 274.

2 – المنوني، المرجع السابق، ص: 84 .

3 – الونشريسي، المعيار، ج:11، ص: 155.

4 – ابـــن فرحـــون، الـــديباج المـــذهب، ج: 1، ص: 286. أنظـــر: المبحـــث المتعلـــق بالصـــراع بـــين المالكية والظاهرية في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي في الباب الموالي.

5 – أنظر الفصل التمهيـــدي (طـــرد رئـــيس سجلماســـة لابـــن النحـــوي مـــن المدينـــة لاشـــتغاله بعلـــم الأصول).

6 – ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج:2، ص: 161.

ومن شيـوخ المغرب في أصول الفقه وعلم الكـلام أبـو الحسـن علـي بن محمد بـن خليـد الأندلسـي المعـروف بـابن الإشـبيلي تـ567 هــ/ 1171م، الذي قرَّر علم الأصول وعلم الكلام بمدينة فاس[1].

ومنهم أبو الحسن علي بن محمـد الخزرجـي الإشـبيلي الفاسـي يُعـرف بابن الحصار تـ611هـ/1214م صنَّف فـي أصـول الفقـه كتابـه : " البيـان في تنقيح البرهان" وله عقيدة في أصول الـدين شـرحها فـي أربعـة أسـفار[2]، وأبو عبد الله محمد بـن إبـراهيم الفهـري الأصـولي تـ 612 هــ/1215م من أهل بجاية كان يحضر مجالس يوسف بن عبـد المـؤمن بمـراكش[3]، كـان له علم بالفقه والأصلين والخلافيـات والجـدل ولـه تقييـد علـى المستصـفى لأبي حامد الغزالي[4]، ومـنهم الفقيـه الأصـولي أبوالعبـاس أحمـد بـن خالـد المـالقي تـ660هـ/1261م الـذي درس بالأنـدلس " الإرشـاد " و"المستصفى" وكان مكينا فـي أصـول الفقـه وأصـول الـدين علـى طريقـة المتقدمين[5]، له كتاب "الناسخ والمنسوخ" وأرجوزة فـي علـم الكـلام وشـرحها في أربعة أسفار" [6]، ومنهم أبـو الحجـاج يوسـف بـن عبـد الصـمد الفاسـي يُعرف بابن نموي تـ 614 هـ/1217م كان إماماً فـي علـم الأصـول وعلـم الكلام[7].

---

1 – ابن الأبار، التكملة، ج:3، ص: 172. والذهبي، تاريخ الإسلام، ج:39، ص: 291.

2 – ابن الأبار، التكملة، ج:3، ص: 248.

3 – الغبريني، المصدر السابـق، ص: 208. والتنبكتي، نيل الابتهاج، ص: 228 .

4 – الغبريني، عنوان الدراية، ص: 210.

5 – نفسه، ص: 73.

6 – المنوني، حضارة الموحدين، ص: 42 .

7 – نفسه.

ومن الفقهاء أبو جعفر أحمد بن عتيق بـن جـرح الـذهبي البلنسـي تــ 601 هــ/ 1204م[1] كـان شـيخ طلبـة الحضـر اسـتدعاه المنصـور إلـى مراكـش وكان من المقربين لابنه الناصر[2] .

وأبو علي منصور بن أحمد بن عبـد الحـق المشـدالي تــ731هــ/ 1330م "له مشاركة في علم الفقه وأصـول الـدين، ولـه مشـاركة فـي علـم المنطق وعلم العربية"[3].

ووَفدَ على الـبلاط الموحـدي كبـار الفلاسـفة وخاصـة فـي عهـد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن[4]، فانتعش مع المـذهب الموحـدي الخـوض فـي العلوم الكلامية الفلسفية والبحث في المسـائل العقيديـة التـي يُسـلِّمُ بهـا أهـل الحـديث[5].

وعموما لم يكن خلفاء الموحدين مجـرد قـادة سياسـيين وعسـكريين، بـل جمعوا إلى ذلك العناية بالعلوم والمشـاركة والإسـهام فيهـا، قـال السرخسـي في رحلته : "وهؤلاء بنو عبد المـؤمن كلهـم فقهـاء علمـاء" [6]، واجتمـع فـي

---

1 – هو أبو جعفر أحمد بن جريج كان فاضلا عالما بصناعة الطـب جيـد المعرفـة لهـا حسـن التـأني في أعمالها، خدم المنصور بالطب وكـذلك أيضـا خـدم بعـده الناصـر ولـده وكـان يحضـر مجلـس المذاكرة في الأدب، وتوفي أبـو جعفـر الـذهبي بتلمسـان عنـد غـزوة الناصـر إلـى إفريقيـة سـنة 600هــ/1203م. أنظر: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص: 537.

2 – ابن سعيد المغربي، الغصـون اليانعـة فـي محاسـن شـعراء المئـة السـابعة، تحقيـق: إبـراهيم الأبياري، دار المعارف مصر، ص: 36 – 39 .

3 – الغبريني، عنوان الدراية، ص: 230.

4 – أنظر: حسن علي حسن، الحضارة العربيـة الإسـلامية فـي المغـرب والأندلس(عصـر المـرابطين والموحدين)، الطبعة 01، مكتبة الخانجي، مصر، 1980م ص: 507 و508.

5 – أهمها الغيبيات كالبحث في صفات الله تعالى.

6 – المنوني، حضارة الموحدين، ص: 42 .

عهدهم بحاضرة فاس – على حد تعبير المراكشي – "علم القيروان وعلم قرطبة" [1].

فقد كان عبد المؤمن عالماً بالجدل[2]، مُتلزما نهج ابن تومرت، فأضفى على الحركة الكلامية رعاية سلطانية خلافا لما كان عليه المرابطون في شأن كتب علم الكلام من التنكيل والتحريق.

أما ابنه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن فقد كان أعلم خلفاء بني عبد المؤمن، قال عنه المراكشي: " كان أحسن الناس ألفاظا بالقرآن، وأسرعهم نفوذاً، وأحفظهم للغة العربية ... صحَّ عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين... وكان له مشاركة في علم الأدب، واتِّساعٌ في حفظ اللغة وتبحرٌ في علم النحو"[3]، ويُحدثنا بعد ذلك أنه تعلم الطب والفلسفة.

وكان الخليفة يوسف بن عبد المؤمن يُنَوِّعُ الأساليب لإنهاض الهمم وصقل الأذهان[4] ومن تلك الأساليب المجالس التي كان يعقدها بقصره أمام عظماء الدولة، إذ كان يُخصص لكل نوع من العلماء يوما من أيام الأسبوع فكان مجلس للفقهاء وآخر للأدباء وثالث للأطباء وهكذا[5].

وشهد عهده الفترة الذهبية لعلم الكلام، فلم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب[6]، ويبحث عن العلماء، وخاصة أهل علم النظر، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب[7] .

---

1 – المراكشي، المصدر السابق، ص : 256 .

2 – ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص : 203 .

3– المراكشي، المصدر السابق، ص: 175.

4 – رشيد ملين، المرجع السابق، ص: 163 .

5 – ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج:2، ص : 78 و 81 .

6 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 155.

7 – نفسه، ص: 176 وما بعدها.

فقد كان يوسف بن عبد المـؤمن مـن أعلـم النـاس بـالكلام والفلسـفة، يصحبه الفيلسوف أبو بكر محمد بـن طفيـل الفيلسـوف، " فكـان – الخليفـة – لا يصبر عنه"[1]، ومما يشـهد بسـعة اطلاعـه وتبحـرهُ فـي العلـوم العقليـة محاورته لابن رشـد والتي يرويها ابن رشد نفسه، فقـال: " لمـا دخلـت علـى أمير المؤمنين أبي يعقوب، وجدته هو وابـن طفيـل فقـط، فأخـذ ابـن طفيـل يطريني، فكان أول ما فاتحني أن قال : مـا رأيهـم فـي السـماء ؟ أقديمـة أم حديثة، فخفت، وتعللت، وأنكرت الفلسـفة، ففهـم، فالتفـت إلـى ابـن طفيـل، وذكر قول أرسطو فيهـا، وأورد حجـج أهـل الإسـلام فرأيـت منـه غـزارة حفظ، لم أكن أظنها في عالم، ولم يزل يبسطني حتـى تكلمـت، ثـم أمـر لـي بخلعة ومال ومركـوب[2].

وكان الخليفة يوسف – مـع ذلـك – حافظـاً للقـرآن بشـرحه، عالمـا بحديث النبي صلى الله عليـه وسـلم حسـنه وصـحيحه، مُتفننـا فـي العلـوم الشرعية والأصولية[3]، فبعد تبحره فـي الأصـلين القـرآن والحـديث، واللغـة والنحو والأدب "طمح به شرف نفسه وعلو همتـه إلـى تعلـم الفلسـفة، فجمـع كثيرًا من أجزائها، وبدأ من ذلك بعلم الطب ... ثم تخطى ذلـك إلـى مـا هـو أشرف منه من أنـواع الفلسفـة، وأمـــر بجمـع كتبهـا، فـاجتمع لـه منهـا قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي[4]، وفي الجملـة، لـم يكـن فـي بني عبد المؤمن فيمن تقدم منهم أوتـأخر ملـك بالحقيقـة غيـر أبـي يعقـوب هـذا "[5].

---

1 – الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج:15، ص: 318 .

2 – المراكشي، المصدر السـابق، ص: 179.

3 – ابن عذارى، البيان المغرب، ص : 164 .

4 – المراكشي، المصدر السـابـق، ص : 175 .

5 – نفسه، ص : 179 و320 .

وعـُرف عن يوسف بن عبد المـؤمن تـأثُره بالأنـدلس لنشـأته بهـا[1]، فمنذ ولايتـه علـى إشـبيليا 549هـ/1154م انكـبَّ علـى دراسـة العلـوم المختلفة على أعلام الأندلس ومن بينها فلسفة أرسطو[2].

وكان يوسف حريصا على الجمع بـين علمـي الشـريعة والحكمـة ولـم يزل يجمع إليه العلماء من كل فـن مـن جميـع الأقطـار لأجـل ذلـك ومـن جملتهم القاضي أبو الوليد بن رشد[3].

وإلى الخليفة يوسف يرجع الفضـل فـي نشـر فلسـفة أرسـطو بـين الناس وشرحها شرحا وافياً بعد أن كانت غامضة إذْ هـو مـن أمـر الفيلسـوف ابن رشد بشرحها وتدريسها وتبسيطها والتعليق عليها[4].

وتـُعدُّ مكتبة يوسف بن عبد المـؤمن خيـر مـا يشـهد علـى شـديد عنايته بالعلوم النقليـة والعقليـة، والتـي قاربـت مكتبـة الحكـم المستنصـر الأموي[5]، وحظـي الجانـب الفلسـفي مـن مكتبـة يوسـف بعنايـة وثـراء، والمعروف على الخليفـة الأمـوي بالأنـدلس الحكـم المستنصـر (350- 366 هـ/961م- 976م)[6] وَلعهُ الشديد بالفلسفة التـي تكـوِّن غالـب مكتبتـه التـي

1- حسين مؤنس، وثائق المرابطين والموحدين، ص: 203 .

2 - محمد بن عبد العزيز الدباغ، ملوك ورسـائل(2)، **دعـوة الحـق**، السـنة 08، العـدد 04، فبرايـر 1995م، ص: 100.

3 - السلاوي، المصدر السابق، ج:2، ص: 157.

4 - نفسه.

5 - المراكشي، المصدر السـابق، ص : 155 .

6 - الحكم بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن عبد الـرحمن ابـن الحكـم بـن هشـام بـن عبد الرحمن الداخل، أبـو المطـرف الملقـب بالمستنصـر بـالله، حكـم مـن 350 هـ/ 961م إلـى 366هـ/ 976م، وهو ثاني خليفة أمـوي فـي الأنـدلس، كـان "جامعـاً للعلـوم، محبـاً لهـا، مكرمـا لأهلها"،"كان حسن السيرة جامعا للعلوم محبا لها مكرما لأهلها وجمع مـن الكتـب فـي أنواعهـا مـا لـم يجمعه أحدٌ من ملوك الأندلس قبله وذلك بإرساله فيها إلى الأقطار واشـترائه لهـا بـأعلى الأثمـان ونفـق عليه ذلك فحمل إليه" ابـن سـعيد المغربـي، المغـرب فـي حلـى المغـرب ج:1 ، ص:186. وأنظـر

على ما ذكر المقري حـــوت نحو أربع مئة ألف مجلــد مـــن مختلــف أصـــناف العلوم والفنون[1].

وإذا تتبعنا سيرة أبي يعقـــوب يوســـف بـــن عبـــد المـــومن نجـــده كثيـــر الشـــبه بالمـــأمون العباســـي تـــــ 218هـــــ/894م[2] فـــي المشـــرق وبـــالحَكم المستنصر تــ 366هــ/ 976م في الأنـــدلس.

وكلا هـــذين الخليفتيـــــن كـــان لهمـــا شـــأن كبيـــــر فـــي تـــاريخ العلـــوم وتشجيعها فالمأمون هو الذي كان قد أنشـــأ بيـــت الحكمـــة وجمـــع بـــين يديـــه المتـــرجمين والشـــارحين والـــواعين للعلـــوم التجريبيـــة والفلســـفية[3]، والحكـــم المستنصر تــ 366هــ/976م هو الـــذي أشـــتهر فـــي التـــاريخ بجمـــع الكتـــب وتأليف خزانة كبيرة تضم أربعمائة ألف مجلد كما كـــان يســـتميل إليـــه العلمـــاء من كل صقع ويمكنهم من العطايا الوافرة[4].

ترجمته في : الحميدي، جذوة المقتبس في ذكـــر ولاة الأنـــدلس، ص:13. والمقـــري، نفـــح الطيـــب مـــن غصن الاندلس الرطيب، ج:1، ص: 395. وأنظـــر عنـــه: الحميـــدي، جـــذوة المقتـــبس فـــي ذكـــر ولاة الأندلس، ص: 13 – 16.

1 – المقري، نفح الطيـــب، ج:1، ص: 395 . وعبـــد الله عنـــان، دولـــة الإســـلام فـــي الأنـــدلس، ج:1، ص: 70 .

2 – هو عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد بن أبـــي جعفـــر المنصـــور، لقـــب بالمـــأمون، ســـابع خلفـــا بني العباس (198 – 218 هـــ / 813–833م)، أنظـــر عنـــه مـــثلا: محمـــد بـــن علـــي بـــن محمـــد المعروف بابن العمراني، **الإنباء في تاريخ الخلفـــاء**، تحقيـــق: قاســـم الســـامرائي، القـــاهرة، مصـــر، دار الآفاق العربية،1421 هــ/ 2001 م، ص: 96.

3 – أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، **المعـــارف**، تحقيـــق: ثـــروت عكاشـــة، الطبعـــة 02، الهيئة المصـــرية العامـــة للكتـــاب، القـــاهرة، مصـــر، 1992م،ص : 33 و34. وابـــن ســـعد، **الطبقـــات الكبرى**، تحقيق: زياد محمد منصور، الطبعة 02، المدينة المنـــورة، الســـعودية، مكتبـــة العلـــوم والحكـــم، 1408هــ/ 1987م، ص: 28.

4 – المقري، نفح الطيب مـــن غصـــن الانـــدلس الرطيـــب، ج:1، ص: 395. وعبـــد الله عنـــان، دولـــة الإسلام في الأندلس، ج:1، ص: 70 .

وفي هذا الشأن يـــــروي أبــو محمــد عبــد الملــك الشــذوني، أحــد المتحققين بعلمي الطب وأحكام النجــوم أنــه كــان كثيــراً مــا يســتعير كتــب الأحكام من رجل مــن أهــل إشــبيلية، اســمه يوســف، يُكنَّــى: أبــا الحجــاج ويُعرف بــالمراني اجتمع له منها الكثيــر، وإذ بهــذا الرجــل يـُــــعدم تلــك الكتب بجملتها، فسأله الــراوي – أبــو محمــد عبــد الملــك الشــذوني – عــن السبب الموجب لذلك، فأخبره أن أميــر المــؤمنين يوســف بــن عبــد المــؤمن أرسل إلى داره جندا وأمرهم ألا يروعوا أحدًا مــن أهــل الــدار، وأن يأخــذوا ما بها من الكتب، وتوعدهم أشــد الوعيــد إن نقــص أهــل البيــت إبــرة فمــا فوقها[1].

وكما جمع يوسف بن عبد المؤمن الكتب جمــع إليــه العلمــاء أيضــا[2]، فكان يُجري عليهم المرتبات من خزانة الدولة[3]، وفــي بلاطــــه عــاش أشــهر فلاسفة المغرب، وفي مقدمتهم أبو بكــر بــن طفيــل تـــ 581هـــ / 1185م الذي سطع نجمه مع صعود عصــبية دولــة الموحــدين فاتصــل بهــم بــاكرا وتعاون مــع أصــحابها وارتقــى درجاتهــا السياســية وصــولا إلــى مرتبــة الوزير[4].

جاء فــي المعجــب للمراكشــي:" وكــان ممَّــن صــحبه – أي الخليفــة يوسف بن عبد المؤمن – من العلماء المتفننين أبو بكر محمــد بــن طفيــل أحــد فلاسفة المسلمين، كان متحققا بجميع أجــزاء الفلســفة ... ورأيــت لأبــي بكــر هذا تصانيف في أنــواع الفلسفة من الطبيعات والإلهيات وغير ذلك"[5].

1 – المراكشي، المعجب، ص: 176 .

2 – محمد المنوني، المرجع السابق، ص: 69.

3 – حسن علي حسن، المرجع السابق، ص:507.

4 – عبد الرحمان بدوي، الفلسفة والفلاسفة في الحضارة العربية، ص: 108 .

5 – المصــدر نفســه، ص:238.

ويُفسر لنا أحد الباحثين نجاح ابن طفيل فـي التغلغـل بفلسـفته فـي أعماق السلطة في الوقت الذي فشل مِنْ قبله ابن باجة ومـن بعْـده ابـن رشـد، فاختلفت تجربة ابن طفيل عن سـلفه ابـن باجـه فـي مسـألة اختبـار معنـى السلطة ومخاطرها في لحظة انقـلاب مـزاج سـلطانها، فهـو رجـل سياسـة وصاحب حنكة وخبـرة ومهنـة، لـذلك تميـزت منظومتـه الفلسـفية بالحـذر الشديد وعدم القطع مع اتجاه ضـد آخـر، فانصـرفت جهـوده للتوفيـق بـين مختلف المدارس من دون أن يلتزم برأي حاسم، وحـين يعطـي رأيـه بمسـألة معينة كان يترك البـاب مفتوحـا للاجتهـادات والتـأويلات حتـى لا ينضـبط صاحب القول في مكمن سياسي يطـيح بموقعـه فـي السـلطة[1]، ومـن خـلال إيراد الكلام من طريق أبطال قصته الفلسفية "حـي بـن يقظـان" اعتمـد مـنهج السرد في طرح مختلف وجهـات النظـر مـن دون أن يتـورط فـي موقـف نهائي لا يتزحزح، ومن طريق أسـلوبه الروائـي نجـح فـي تمريـر "أفكـار الفلسفة" في سيـاق بناء منهجية سردية حـذرة في منطلقاتها وأهدافهـا[2].

وقصته الفلسفية الشهيرة "حي بن يقظان" سـمحت لـه بعـرض معارفـه العلمية وبخاصة النظريات الإحيائية منها: كإمكانيـة التولـد التلقـائي، وأصـل الجنين الإنسان وتطوره[3]، في محاولة منه لإزالة الشـك مـن نفـوس المغاربـة

---

1 – أنظر: وليد نويهض، سلسلة صعود الفلسفة في زمـن دولـة الموحـدين : (02): ابـن طفيـل رجـل السياسة في عالم الفلسفة، **صحيفة الوسط البحرينية**، العـدد: 2548، الجمعـة 28 أغسـطس 2009م الموافق 07 رمضان 1430هـ/2008م، ص:23.

2 – نفسـه.

3 – سلمى الخضراء الجبوسي، **الحضـارة العباسـية العربيـة الإسـلامية فـي الأنـدلس**، الطبعـة 02، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1999م، ج:2، ص:1107.

فيما يخص علم الفلسفة[1]، وقد طُبعت هذه الرسالة بنصها العربي، وطُبعت ترجمتها اللاتينية والألمانية[2].

ولما توفي يوسف بن عبد المؤمن أُتهم الفيلسوف ابن طفيل – باعتباره طبيبه الخاص – بأنه دبر له مقتلا فدس له السم، فجرت عليه محن كثيرة جراء ذلك واعتزل الناس منزويا في بيته مسجونا لم يخالطه أحد[3]، وُذكر أن الخليفة المنصور بن يوسف حضر جنازة ابن طفيل لما أدركته الوفاة [4]، ولعل في ذلك دليل على ثبوت براءة ابن طفيل مما نُسب إليه.

وفي اعتقادنا أن أبرز ما قدمه أبو يعقوب يوسف لعلم الكلام والفلسفة في المغرب هو سعيه لإنزال الفلسفة إلى فهوم العامة، وهو ما يُفهم من رواية لقاء ابن رشد بالخليفة يوسف إذ يقول: استدعاني أبو بكر بن طفيل يومًا فقال لي: سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكى من قلق عبارة أرسطوطاليس، أو عبارة المترجمين عنه، ويذكر غموض أغراضه، ويقول: لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهمًا جيدًا لقرب مأخذها على الناس، فإن كان فيك فضل قوة لذلك فافعل، وإني لأرجو أن تفي به، لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعة، وما يمنعني من ذلك إلا ما تعلمه من كُبْرة سنى واشتغالي بالخدمة وصرف عنايتي إلى ما هو أهم عندي منه،

---

1 – عصمت عبد الرؤوف الفقي، **تاريخ المغرب والأندلس**، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، مصر د.ت.ط، ص:278.

2 – يوسف أشباخ، المرجع السابق، ج:3، ص: 500.

3 – ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج: 2، ص: 85 .

4 – محمد العمراني، محمد العمراني، **الموحدون في الأندلس الوجود العسكري وعلاقة السلطة بالمجتمع**، 541- 609 هـ/1147هـ- 1212م، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، تحت اشراف الدكتور محمد حمام، 2002- 2003م، جامعة محمد الخامس، أكدال، الرباط، ص: 443 .

قال أبو الولـيد: فكان هذا الذي حملني على تلخـيص مـا لخصـته مـن كتـب الحكيم أرسطـو طاليس"[1].

وشرع في تلخيص مؤلفـات المعلـم الأول (أرسـطو) فـأتمَّ ذلـك فـي جزء يشتمل على مئة وخمسون ورقـة لخَّـص فيهـا نظريـات أرسـوطاليس في الطبيعة ومظاهرها كالسماء والعالم والكون والفساد والآثار العلوية[2].

فالظاهر أن ابن رشد كان عند حسن ظن الخليفـة بـه، يقـول المراكشـي : "وقد رأيت أنا لأبي الوليد هذا تلخيص كتب الحكيم في جـزء واحـد فـي نحـو مائة وخمسون ورقة ترجمه بكتـاب الجوامـع، لخـص فيـه كتـاب الحكـيم، المعروف بسمع الكيـان السـماء والعـالم، ورسـالة الكـون والفسـاد، وكتـب الآثار العلوية وكتب الحصـن المحسـوس، ثـم لخصـها بعـد ذلـك وشـرح أغراضها فـي كتـاب مبسـوط فـي أربعـة أجـزاء" [3]، وتميَّـزت شـروحه واشتهرت وانتشرت حتى أُطلـق علـى ابـن رشـد لقـب الشـارح، وبفضـله استطاع العلماء فهم فلسفة أرسطوا وتقريبها إلـى الأذهـان، أمـا المستشـرق الفرنسي الشهير إرنيست رينان صاحب كتاب ابن رشـد والرشـدية قـرر فيـه سيرتـه ومؤلفاته وقال عنه: أنـه كـان أعظـم فلاسـفة القـرون الوسـطى[4]، واعتبر ابـن رشـد تلميـذا لأرسـطو إذ أنَّ " الطبيعـة تـُـفسر بأرسـطو، وأرسطو يـُـفسر بابن رشد"[5]، وُدرست شـروحه فـي كـل جامعـات فرنسـا

---

1 – المراكشـي، المصـدر السـابق، ص: 179 و180. والـذهبي، تـاريخ الإسـلام، ج:40، ص: 319 و320.

2 – المراكشي، المصدر السـابـق، ص : 175 .

3 – نفسه، ص : 180 .

4 – المنوني، المرجع السابق، ص:71.

5 –إرنيست رينان، **ابن رشد والرشـدية**، ترجمـة: عـادل زعيتـر، الطبعـة 01، القـاهرة، دار إحيـاء الكتب العربية،ص: 57 .

ونافار بأمر من الملك الفرنسي لــويس الحــادي عشــــر[1]، وقــد كـــان لتلـــك عموما الشروحات الأثر البالغ في الفكر الفلسفي[2].

كما كان الفيلسوف ابن رشــد مــن أشــد النـــاس دفاعــاً عــن الفلســفة وأكثرهم دعوة إلى قراءة كتب الفلاسفة اليونان حتـــى ذهــب إلـــى أن قراءتهـــا واجبٌ شرعي؟!، ففي كتابـــه فصـــل المقـــال يقـــول: " أن النظـــر فـــي كتـــب القدماء واجب بالشرع" [3].

ومن مؤلفات ابن رشد الفلسفية كتـــاب ســـماه "تهافـــت التهافـــت" يـــرد فيه على كتاب "التهافت" للغزالـــي[4]، وكتـــاب "الحيـــوان"، وكتـــاب "المقـــدمات"[5] وما كتبه ابن رشد من تلخيص لمؤلفات أرســـطوا وشـــرح لهـــا نتيجـــة حتميـــة لاهتمام الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالفلسفـــة[6].

وحظي فلاســـفة العصـــر الموحـــدي بتكـــريم المنصـــور، فقـــد كـــان الفيلسوف أبو جعفر أحمد بن عتيق بن جرج المعـــروف بـــابن الـــذهبي مقربـــا لدى المنصور وابنه الناصر، فأغـــدقا عليـــه العطايـــا الكثيـــرة، ومـــن ذلـــك أن المنصور تتلمذ له، وقد وصله مرة بألف دينـــار علـــى فهمـــه لمســـألة فلســـفية من إلقائه سُـــرَّ المنصور بتحصيلها، وقد شـــعر المنصـــور بـــأن مبالغتـــه فـــي إكرام الذهبي تثير حفيظة بعض أفراد حاشـــيته خاصـــة وأنـــه كـــان يـــدرك أن تقريبه لأهل العلم يشحن قلوب أهل السياسة وشـــيوخ الموحـــدين بالحســـد فقـــال

---

1 – محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ص:100 .

2 – عصام الدين محمد علـــي، **تـــاريخ الفلســـفة الإســـلامية عمومـــا**، منشـــأة المعـــارف، الإســـكندرية، مصر، 1415هـ/ 1994م، ص:63.

3 – ابن رشد، **فصل المقـــال**، دراسة وتحقيـــق: محمـــد عمـــارة، الطبعـــة 02، دار المعـــارف، بيـــروت، لبنان، ص: 28. وأنظر: عبد الفتاح أحمـــد فـــؤاد، **فلاســـفة الإســـلام والصـــوفية وموقـــف أهـــل الســـنة منهم**، الطبعة 01، الإسكندرية، مصر، دار الوفاء، 2005م، ص:77 .

4 – المنوني، المرجع السابق، ص:72.

5 – عصام الدين عبد الرؤوف الفقهي، المرجع السابق، ص:280.

6 – عبد المجيد نجار، ابن تومرت، ص:467.

للذهبي مرة " يا أبا جعفر ما صـدر منـا مـن إنعـام عليـك فلـيكن مسـتورا لا يطلع عليه أحد، فإن ببابنا قوما سـلفت لأسـلافهم خـدم لا يبعـد أن تـدركنا غفلة عن معاهدتهم لما يأملونه منا، فإن بلغهم الخبـر عـن إحسـاننا إلـى مـن لم تتقدم لأوليته خدمة لهذه الدولة أمكن أن يـؤثر ذلـك فـي نفوسـهم، فيكـون داعية إلى تغير بواطنهم وسببا في فسـاد ضـمائرهم ومنشـأ لحسـدك والبغـي عليك "[1]، وكان يصـفه المنصـور ويشـكره ويقـول إن أبـا جعفـر الـذهبي كالذهب الإبريز الذي لم يزدد في السبك إلا جودة[2] .

كما قرَّب والي الأندلس أبو العلاء إدريس بن المنصـور إليـه الطبيـب المتفلسف أحمد بن عتيق بـن فنتـرال تـ 627هـ/ 1229م " كـان أثيـر المحل عنده كثير الحظوة لديه " [3] .

بالإضافة إلى العامل السياسي اجتمعـت عوامـل أخـرى أسـهمت بدورها في نهضة علوم الكلام والفلسة فـي المغـرب الموحـدي، فقـد كانـت لأشعرية الموحدين أثرها الواضح في انتعـاش علـم الكـلام[4]، إذ كـان غالـب أعلام الأشعرية متكلّمين وذوي ميـول فلسـفية، أسـهموا فـي تطـور الجـدل والبحوث الكلامية[5]، منهم أبو الحسن علي بن محمد بـن خليـد الأندلسـي تـ 588 هـ/1191م الذي تصدى لشرح عقيـدة ابـن تـومرت بجـامع القـرويين بفاس، مُعلما لعلم الأصول والكلام وقد تخرَّج علـى يديـه أبـو عمـرو عثمـان بن عبد الله القيسي القرشي المعـروف بالسـلالجي تـ564هـ/1168م الـذي

1 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج: 1، ص: 281 .

2 – ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص: 532.

3 – ابن عبد الملك، المصدر السـابق، ج: 1 ص: 282، وابـن ابـراهيم، الممصـدر السابـق، ج: 2، ص: 136 .

4 – جمال أحمد طه، **مدينة فاس في عصري المـرابطين و الموحـدين، دراسـة سياسـية وحضـارية**، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، 2001م، ص:294 .

5 – وإن كان موقف كثير منهم معادي للفسلة والكلام والمنطق كعلوم مستقلة بذاتها.

كان له اعتناء بمرشدة ابن تـومرت، وشـبَّهه بعـض المـؤرخين بـأبي المعـالي الجويني في المشرق[1] ولـُقب بمنقذ أهل فاس من التجسيم[2].

ولعل ازدهار الحركة الثقافية فـي العصـر الموحـدي فـتح الشـهية للخوض في العلوم الكلامية والفلسفية والتبحُّـر فيهـا، فمهَّـد الطريـق لفقهـاء المغرب وفتح الأبوب لعوامهم[3]، وإذا كانت الحركة الفكريـة فـي المغـرب قـد نمت وترعرعت في عهد الدولـة المرابطيـة، فإنهـا قـد بلغـت أوج عظمتهـا وازدهارها في العصر الموحدي[4]، فقـد اعتنـى الموحـدون بـالمراكز الثقافيـة الكبرى مثـل فـاس ومـراكش وطنجـة وسـبتة والقصـر الصـغير وبجايـة والقيروان وباقي مـدن الأنـدلس، وأنفقـوا علـى علمائهـا وطلبتهـا بسـخاء، وحاربوا الأمية بأن كلَّفوا الطلبـة المصـامدة بالانتشـار فـي البـوادي ونشـر العلـم بهـا، وأسَّسـوا المـدارس واعتنـوا بالكتـب والخزانـا وتوفيرهـا للدارسين[5].

---

1 – يوسف احنانا، المرجـع السـابـق، ص : 112 .

2 –عبـد الله علـي عـلام، **الـدعوة الموحديـة بـالمغرب**، الطبعـة 01، دار المعرفـة، القاهـرة، 1964م، ص : 305 . جمال أحمد طـه ، مدينـة فـاس فـي عصـري المـرابطين و الموحـدين، ص 294 .

3 – رغم أن الطابع الصحراوي الذي مَّيز المـرابطين والطـابع العسـكري الـذي ميَّـز الموحـدين لـم يكن يدُل على أنهم من حماة العلم والحضارة، أنظـر: داود عمـر سـلامة، الموحـدون فـي الأنـدلس، ص : 209 .

4 – حسن جلاب، الفكر والأدب في عهـد الموحـدين، **مجلـة دعـوة الحـق المغربيـة**، العـدد: 249 ، ص : 80 .

5– أنظر: الحسن السـايح، **دفاعـا عـن الثقافـة المغربيـة**، دار الكتـاب، الـدار البيضـا، المغـرب، 1968م، ص: 136، وعبد الله علام، الدولة الموحدية بالمغرب، ص: 281 وما بعدها.

كما أسهـــم فـــي انتعـــاش العلـــوم الكلاميـــة والفلســـفية فـــي عاصـــمة الموحدين هجرة العلماء إلى المغــرب الأقصـــى فـــاجتمع فيـــه علـــم القيـــروان (حاضرة المغرب) وعلم قرطبة (حاضرة الأندلس)[1] .

ولعلَّ شيوع الأمن والاستقرار السياســي والرخـــاء المـــالي[2] الـــذي ميـــز العهد الموحدي شكَّـــل عوامل أخرى مـــن شـــأنها أن تـــدفع الأذهـــان والعقـــول للخوض في العلوم الكلامية والفلسفية.

ومن أســـباب انتشـــار العلـــوم الكلاميـــــة والفلسفيـــــة فـــي المغـــرب اضطهادها في المشرق، بعد انتعـــاش الحركة الفلســـفية علـــى يـــد ابـــن ســـينا في المشرق خفت نورها على يد الغزالي، فبحثـــت عـــن أرض جديـــدة تطلـــب فيها الحياة والنمـــو، فنزحـــت غـــرب العـــالم الإســـلامي فـــي بـــلاد المغـــرب والأندلس[3].

وقد جسَّد انتعاش العلوم الكلامية والفلســـفية فـــي الغـــرب الإســـلامي جملة مـــن المتكلمـــين الـــذيين ســـايروا متكلمـــي المشـــرق، مـــنهم القاضـــي الفيلسوف أبو عبد الله محمد بـــن إبـــراهيم الأصـــولي المهـــدي البجـــائي 612 هــ/1216 م كان أوحد عصره في العلوم الحكميـــة والفلســـفية[4]، وأصـــله مـــن إشبيلية رحل إلى المشرق وأخذ عن جمهرة من أقطـــاب المحـــدثين وبـــرز فـــي علم الكلام وأصول الفقه حتى أشتهر بالأصـــولي وكـــان عَلَـــمَ وقتـــه فـــي هـــذا

---

1 – المراكشي، المصدر السابق، ص:256 .

2 – " كانت الحالة الداخلية على غايـــة الإطمئنـــان، فكثـــرت الأمـــوال وتأمنـــت الطـــرق وصـــلح أمـــر الناس في البادية والحاضرة، وعم الأمن والرخاء وكانت الظعينة تخـــرج مـــن نـــول إلـــى برقـــة دون أن تضيع"، مبارك الميلي، المرجع السابق، ج: 02 ص : 308 .

3 – يوسف فرحـــات، **الفلســـفة الإســـلامية وأعلامهـــا**، الطبعـــة 01، الشـــركة الشـــرقية للمطبوعـــات، 1986م، ص: 141 .

4 – عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج 01، ص: 396 .

الميدان، ولما أُمتحن ابن رشد أُمتحن معه المهـدي و نُفـي مثلـه مـن قرطبـة إلى بعض الجهات ثم عُفي عنه، وكفَّ بصره في آخر حياته[1] .

ومن أشهر متكلمي هذا العصر أبـو العبـاس السـبتي تـ 595هـ/ 1198م الذي جاء في ترجمته أنـه أُعطي بسطة فـي اللسـان وقـدرة الكـلام لا يجادله أحد إلا أفحمه ولا يسـأله إلا أجابـه، كـأن القـرآن والحجـج علـى طرف لسانه حاضرة يأخذ بمجامع القلوب، ويسـحر العامـة والخاصـة بسـحر بيانه، يأتيه المنكرون للإنكار فما ينصرفون إلا مسلّمين منقادين[2] .

ومن الذين برزوا في المنطـق فـي العهـد الموحـدي واحتفظـت لنـا الأخبار بأسمائهم: أبو الحسن علي بـن أحمـد التجيبـي المعـروف بـالحرالي المراكشي الذي كـان أعلـم النـاس بهـذا الفـن ولـه فيـه تصـانيف منهـا: "المقـولات الأول[3]، سـبق أهـل وقتـه بعلـم الطبيعيـات والإلاهيـات[4] ولـه ملاحظات قيمة على فلسفة ابن سينا من شـرح وتحليـل ونقـد[5]، وأبـو محمـد عبد الله بن محمد بن يحي الأغماتي من رجال هذا العلم أيضا[6].

ومنهم الكاتب عبد الملك بن إياس أبـو الحسـن القرطبـي وضـع كتابـا يطعن فيه على حكومة الموحدين والمبـادئ التـي تقـوم عليهـا، وقـد انتـدب عبد المؤمن بعض الكتَّاب والأعـلام الـذين امتـازوا بقـوة الحجـة لكتابـة ردٍ عليه[7].

---

1 – ابن الأبار، التكملة، ج:2، ص: 163 .

2 – التنبكتي، نيل الابتهاج، ص : 59 .

3 – الغبريني، المصدر السـابق، ص: 84 .

4 – المقري، نفح الطيب، ج:2، ص: 391

5 – داود سلامة عبيدات، الموحدون في الأندلس، ص: 267 .

6 – نفسه.

7 – المنوني، حضارة الموحدين ص : 15، يوسف أشـباخ، دولـة الإسـلام فـي الأنـدلس، ج:3، ص: 305.

ومنهم أبو العباس أحمد بـن عبـد الرحمـان بـن الصـقر الأنصـاري الخزرجي تـ559هـ/1163م الذي كـان متقـدما فـي علـم الكـلام وغيـره، وانتظم في سلك الطلبة الحضر في عهد عبد المـؤمن " فتلقـى مبـادئهم وبـرع في عقيدتهم وعلّمها للناس"[1].

ونذكر منهم أيضا: أبو عمـرو عثمـان بـن عبـد الله القيسـي القرشـي المعروف بالسلالجي تـ547 هـ/1152م الـذي أرسـى الأصـول بمختلـف أنحاء الدولة الموحدية خاصة بمدينـة فـاس[2].

وكان أبو عبد الله محمد بن إبـراهيم المشـهور بالأصـولي مـن جلسـاء أمير المؤمنين يعقوب بـن يوسـف بـن عبـد المـؤمن ولـه معرفـة خاصـة بالحكمة والفلسفة وقد جمعته مع ابن رشد مودة وإخـاء وصـفاء، وهـو الـذي أقنع أمير المؤمنيـن يعقوب المنصـور بـالعفو عـن ابـن رشـد لمـا نكبـه الخليفـة[3] .

ومـنهم محمـد بـن عبـد الوهـاب بـن يوسـف بـن عبـد القـادر تـ680هـ/ 1281م الذي قـال فيـه الغبرينـي: " لـه علـم بأصـول الـدين وأصول الفقه ومعرفة الحكمة وبراعـة فـي علـم المنطـق وخصوصـا علـى طريقة المتأخرين، ولم يكـن في وقته أعلم منه بـ "كشـف الأسـرار"[4] الـذي وضعه الخونجي[5] الذي كان عالما بالحكمـة والمنطـق وهـو أعلـم بـه مـن واضعـه"[1].

---

1 – ابن الخطيب، الإحاطة، ج: 1، ص: 182 – 184 .

2 – أنظر: الزركلي، الأعلام، ج: 4، ص:209.

3 – الغبريني، المصدر السابق، ص: 208 و209 .

4 – هو كتاب : كشف الأسرار عن غوامض الأفكار أنظـر: حـاجي خليفـة، كشـف الظنـون، ج:2، ص:1486 .

5 – أفضل الدين أبو عبد الله محمد بن ناماوار الخـونجي تـ 646هـ/ 1248م، وصـفه ابـن أبـي أصيبعة بالإمام العالم الصدر الكامل سيد العلماء والحكمـاء أوحـد زمانـه وعلامـة أوانـه، تميـز فـي

ويـــُـضاف إليهم أبو محمد عبد الله بن محمــد بــن يحــي الأغمــاتي الذي نبغ في العربية وعلم المنطق[2]، ثم أبو الحســن علــي بــن عصــفور تــــ 657هـــــ/1171م الـــذي اســتخدم المنطـــق فـــي توضـــيح مســـائل النحــو وتبويبهـــا[3] .

ومن الفقهاء المتكلمين أبو العباس أحمد بن عبــد الرحمـــان بـــن الصـــقر السرقسطي تــــ 559هـــــ/1202م الـــذي نظمـــه عبـــد المـــؤمن بـــين طلبـــة الموحدين، فتلقى مبادئهم وبـــرع فـــي عقيـــدتهم وعلمهـــا للنـــاس، فـــولاه عبـــد المؤمن قضـــاء غرناطـــة ثم قضاء إشبيليـــة[4] .

ومنهم محمد بن عبد الكريم الفنـــدلاوي الفاســـي المعـــروف بـــابن الكتـــاني تــ 596 هــ/1199م كان إمامــاً في علم الكلام وأصـــول الفقـــه وقـــد عكـــف على تدريسهما طوال حياتـــه[5] .

ومنهم محمد بن إبراهيم الفهـــري تــــ 612 هـــــ/1216م مـــن بجايـــة تلقى علوم الكلام بالمشرق وعـــاد ليدرســـه بـــالمغرب، وتـــولى قضـــاء بجايـــة غير مـــرة[6] .

ومنهم عبد الله بـــن بـــاديس اليحصـــبي تــــ 622هـــــ/1224م مـــن أهل مدينة شقر بالأندلس طلب العلم بإشبيلية وارتحل إلـــى فـــاس وتبحـــر علـــى

العلوم الحكمية وأتقن الأمور الشرعية، من آثاره : كتـــاب الجمـــل فـــي علـــم المنطـــق، وكتـــاب المـــوجز في المنطق. أنظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص: 586.

1 – نفسه، ص: 233.

2 – نفسه، ص: 223.

3 – نفسه، ص: 317.

4 – ابن الخطيب، الإحاطة، ج: 3، ص :189 – 193 .

5 – ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج:2، ص: 161.

6 – نفســه.

علمائها في علم الكلام، وقام بتدريسه بالمغرب والأندلس، ولــه فيــه مؤلفــات لم تصل إلينا [1] .

ومن المتصوفة أبــو الحسن المسفر السبتي الــذي ذُكــر عرضــا فــي كتاب "محاضر الأبــرار ومســامرة الأخيــار"لابن عربــي الحــاتمي وأهملــت كتب التراجم والتاريخ والمناقب ذكره[2]، رغم أنه وصــل فــي علمــه الإشــراقي درجة جعلت مؤلفاته الفلســفية تخــتلط علــى أهــل الاختصــاص فعُــدَّت مــن مؤلفات الغزالي لولا تدخل محيي الــدين بــن عربــي بحســمه لظــل الاعتقــاد عند الكثيرين بأن تلك المؤلفات هي مــن تــأليف الغزالــي[3]، وربمــا نـــُسبت كتبه ليُضمن لها القبــول وليكـــون للفلســفة انتشــارا ومكانــة داخــل الحقــل السني بالمغــرب[4].

وصيّــرت مدرسة السلالجي الفاســية مدينــة فــاس إلــى قبلــة للبــاحثين والطلبة الذين يتوقون إلى استكمال دراســاتهم الأصــولية، وصــار الأندلســيون أنفسهم يرحلون إلى هذه المدينة لتلقي هــذا العلــم مــن رجالاتهــا أمثــال أبــي الحجاج بن نموي والفندلاوي وأبــي الحســن الحصــار تـــ611 هـــ/1214م صاحب كتاب " البيان فــي تنقيــح البرهــان "[5] وغيرهــم .

فنشطت لذلك الفلســفة وعلــوم الكــلام، وكثــر المشــتغلون بهــا وذاع صيتُ المغاربــة فــي ذلــك إلــى درجــة أن فريــديريك الثــاني ملــك إيطاليا(589هـــ – 647هـــ / 1194– 1250م) وجَّــه أســئلة فلســفية إلــى علماء سبتة للإجابة عنها، فأجاب عنهــا الفيلســوف عبــد الحــق بــن ســبعين

1 – نفســه، ج:2، ص: 293.

2 – كنون، أبو الحسن بن المسفر فيلسوف سبتي من عهــد الموحــدين، **<u>مجلــة المناهــل</u>**، وزارة الثقافــة المغربية، العدد:22، 1402هــ/ 1982م، ص: 424 وما بعدها.

3 – جمال علال البختي، المرجع السابق، ص: 94 .

4 – نفسه، ص: 95 .

5 – ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج:2، ص: 161.

تـ669هـ/1270م وضمنها كتابـه "المســائل العقليــة " فكتــب وهــو بســبتة رسالة من 49 صفحة سماها : المسائل الصقليــة[1].

ويــُـمكن القول أن منهج ابن تومرت الكلامـــي جـــدَّد للعلـــوم الفلســفية والكلاميـــة شبابها في المغـــرب بعـــدما شـــاخت وأهينـــت زمـــن المـــرابطين، وفي مقابل تشجيـــع السلطة الموحدية لهذه العلـــوم - فـــي أوَّل أمرهـــا- كـــان للفقهاء مواقف مماثلة وأخرى معاديـــة لهذه العلـــوم.

المطلب الثـــاني : مـــعــــارضة الفـــقهــــاء لعلــــم الكـــلام والفلســـفة فـــي الغـــرب الإسلامي خـــلال العصـــر المـــوحدي.

إن المـــُـتتبع لمواقــف الفقهـــاء مـــن الفلســـفة وعلـــم الكـــلام بـــالغرب الإسلامي يلحظ وجود حزب مـــنهم ينتصـــــر لهـــذه العلـــــوم، وحـــزب آخـــر منهم يمقتها ويكيد لها مـــُدعَـــــمًا بقاعـــدة شـــعبية عريضـــة تنبـــذ مثـــل هـــذه العلوم لأن " الشعب مطبوعٌ على بُغض الإمتيـــاز ســـواء كـــان ذلـــك الإمتيـــاز بالعلم أو المال، وفضلا عن هذا فإن الفلســـفة تُـــبعد الفيلســـوف عـــن بســـاطة الإسلام إلى عبادة روحية فلسفية يكتنفها الغموض ولا يفهمها الشعب"[2].

والواقع أن غالب الفقهاء ينظـــرون إلـــى الفلاســـفة نظـــرة ازدراء، ومردُّ ذلك إلى اختلافهما في المنهـــج، فالفقهـــاء ســـندهم النصـــوص الظـــاهرة، بينما يرى أهل الكلام والفلسفة ذلك جموداً وتحجـــرًا.

ورغـــم التقارب الفكـــري والمنهجـــي بـــين الأشـــعرية والفلســـفة، إلاَّ أنه برز خلال العصر الموحدي فقهـــاء أشـــاعرة شـــنوا هجومـــا لاذعًـــا علـــى

---

1 - المقري، نفح الطيب، ج:2، ص: 204.

2 - فرح أنطون، ابن رشد و فلسفته، ص: 10 .

العلوم الفلسفية، منهم ردود أبي بكر بـن العربـي علـى الفلسـفة وأصـحابها[1]، بمن فيهم شيخه أبي حامد الغزالي[2].

وممن تزعم الحملة ضد الفلسـفة مـن الفقهـاء الأشـاعرة القاضـي أبو عامر يحي بن أبـي عـامر بـن ربيـع الأشـعري تـ639هـ/1241م وبنوه[3]، وكان هذا الفقيـه قد ردَّ علـى كتـاب "الكشـف عـن منـاهج الأدلـة" لابن رشد تـ595هـ/1198م بكتـاب سـماه: " تحقيـق الأدلـة فـي عقائـد الملة ودفع الشـبه المضـلة والأقـوال المضـمحلة بالحكمـة البالغـة والحجـة الدامغـة"[4] .

ونجد في مطلع القرن 7هـ/13م فقيهاً أشـعريًا تصـدى لعلـوم الكـلام والفلسفة بشـكل ملفـتٍ وهـو أبـو الحجـاج يوسـف بـن محمـد المكلاتـي تـ626هـ/ 1228م مـن خـلال كتابـه: " لبـاب العقـول فـي الـرد علـى

---

1 – ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، ج:1، ص: 5.

2 – على الرغم من الانتقادات التي وجهها الغزالـي للفلسـفة والمنطـق اليونـاني إلا أنـه يُعتبـر فـي مقدمة المفكرين المسلمين المروِّجين لهما في ديار الإسـلام، يـري بعـض البـاحثين أن الغزالـي عنـدما وجه انتقاداته للفلسفة والمنطق اليوناني لم يكن ذلك موقفاً عـدائياً منـه اتجاههمـا بـل إنـه انتقـد بعـض الفلاسفة وبعض أطروحاتهم فحسب، بل الأكثر من ذلـك فـالغزالي–عنـد نفـر مـن البـاحثين– أعظـم فيلسوف أفرزه الإسلام، كان فيلسـوفاً ومنطقيـاً عنـدما انتقـد الفلسـفة والفلاسـفة.أنظر: زكريـا بشـير إمام، **الفلسفة النورانية القرآنية عنـد الغزالـي**، رؤيـة نقديـة لفكـر الغزالـي وفلسـفته، الطبعـة 01، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع ،الكويت، 1989م، ص: 177.

3 – النباهي، قضاة الأندلس، ص: 124 .

4 – الرعيني، البرنامج، ص: 73. وأنظر: يوسف احنانا، المرجع السابق، ص: 158 .

الفلاسفة في علم الأصول"[1] وقد استخدم سلاح الفلاسفة (المنطق) في الرد عليهم[2].

ولم يكن هذا التيار المعارض للفلسفة يشمل الفقهاء فحسب، بل كان يضم جملة من الشعراء سخَّروا أقلامهم للتحذير من علوم الكلام فيما تؤدي إليه من الفساد والبعد عن الشريعة، وأورد ابن حيان الأندلسي ت 745هـ / 1344م مقاطع شعرية تُعبِّرُ عن رفض الفقهاء الأندلسيين للفلسفة منها:

قد ظهرت في عصرنا فرقةٌ *** ظهورها شؤم على العصر

لا تقتدي في الدين إلا بما *** سنَّ ابن سينا وأبو نصر[3].

وقال أيضًا:

يا وحشة الإسلام من فرقة *** شاغلةٍ أنفسها بالسَّفَه

قد نبذت دين الهدى خلفها *** وادعت الحكمة والفلسفة[4]

وكان للشعراء الفقهاء إسهامٌ في ذم الفلسفة، وتحريض السلطة لكي تفتك بهذه الطائفة جراء ما تقول به من أقوال منافية للدين، أورد بن عبد الملك في الذيل والتكملة بعضا منها، كقولهم:

ألا قبح الرحمن شرَّ عصابة *** تدين بأقوال القواة وتقتدي

تصدق ما قال ابن سينا ضلة *** وتكذب قول الهاشمي محمد

أفك بل إفك ما لها من حقيقة *** تفيد سوى الكفر الصريح المجرد[1].

---

1 – أنظر: أبو الحجاج يوسف بن محمد المكلاتي، **لباب العقول في الرد على الفلاسفة في علم الأصول**، بتحقيق: فوقية حسين محمود، الطبعة 01، القاهرة، مصر، دار الأنصار، 1977 م.

2 – يوسف احنانا، المرجع السابق، ص: 158 و159 .

3 – أبو حيان، **البحر المحيط في التفسير**، تخقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1420هـ،ج:6، ص:47. والمقري، نفح الطيب، ج:2، ص: 385.

4 – ابن حيان، لبحر المحيط في التفسير، ج:6، ص: 47. والمقري، نفح الطيب، ج:2، ص: 385.

ومن بين هؤلاء الشاعر ابن حبــوس الفاســي شــاعر الــبلاط الموحــدي تـــ 570 هــ/ 1174م[2] الذي سجل موقفه المعادي للفلسفة في قوله :

الديــن ديــن الله لــم يعبأ * بمبتدع ولــم يحفل بضلــه ملحــد

قالوا بنور العقل يدرك ما وراء * الغيب قلت قدى من الدعــوى قــد

بالشرع يدرك كل شيء غــائب * والعــقــل ينكــر كل ما لم يشهــد

قالوا الفلاسفة قلت تلك عصابة * جاءت من الدعــوى بما لم يحمــد[3]

ومن هؤلاء أبو حفص الأغماتي الذي قال مُحذرًا من الفلاسفة:

"...إياكم و القدماء – أي الفلاسفة – وما أحدثوا، فإنهم عن عقولهم حــدَّثوا، أتــوا مــن الافتراء بكل أعجوبة، وقلوبهم عن الأسرار محجوبــة، الأنبيــاء ونــورهم لا الأغبيــاء وغرورهم..." [4] .

وقال في نفس المعنى شعـــــراً :

هذا كــلام للهــدى جامــع * فاصغ إليه أيها السامــع

الشرع للعقل هدى من يصل * بينهما برهانه قاطـــــــع

الشرع متبوع به يـــــهتدى * من ضل والعقل هو التابع .

لا يهتدي العاقل في قصده * إلا بمـــا ســن له الشارع[5].

وظهر التحذير من تلك العلوم حتى من الطبيب والفيلسوف ابن زهر الذي " أتـــى إليه من الطلبة اثنان ليشتغلا عليه بصناعة الطب فترددا إليه ولازماه مدة وقرآ عليه شيئا من كتب الطب، ثم أنهما أتياه يوما وبيد أحدهما كتاب صــغير فــي المنطــق... كــان

---

1 – ابن عبد الملك، المصدر السابــق، ج:6، ص:246.

2 – أنظر ترجمته : خير الدين الزركلي، الأعلام، ج:6، ص: 101.

3 – محمد ابن تاويت، <u>الــوافي بــالادب العربــي فــي المغــرب الاقصــي</u>، الطبعــة 01، المغــرب، دار الثقافة، 1982م،ج:1، ص: 107.

4 – محمد المنوني، حضارة الموحدين، ص: 136 و137. نقــلا عــن : رحلــة العبــدري (مخطــوط) .

5 – نفســه، ص: 155 و156.

غرضهم أن يشتغلوا فيه، فلما نظر ابن زهر إلى ذلك الكتاب قال ما هذا ثم أخذه ينظـــر فيه، فلما وجده في علم المنطق رمى به ناحية، ثم نهض إليهم حافيا ليضربهم، وانهزموا قدامه وتبعهم يعدو على حالته تلك وهو يبالغ في شتمهم وهم يتعادون قدامه إلى أن رجع عنهم عن مسافة بعيدة، فبقوا منقطعين عنه أياما لا يجسرون أن يأتوا إليه ثم أنهم توسلوا إلى أن حضروا عنده واعتذروا بأن ذلك الكتاب لم يكن لهم ولا لهم فيه غــرض أصـــلا وأنهم إنما رأوه مع حدث في الطريق وهم قاصدون إليه فهزؤا بصـــاحبه وعبثـــوا بـــه وأخذوا منه الكتاب قهرا وبقي معهم ودخلوا إليه وهم ساهمون عنه، فتخادع لهـــم وقبـــل معذرتهم واستمروا في قراءتهم عليه صناعة الطب، ولما كان بعـــد مديـــدة أمـــرهم أن يُجيدوا حفظ القرآن وأن يشتغلوا بقراءة التفسير والحديث والفقه وأن يواظبوا على مراعاة الأمور الشرعية والاقتداء بها ولا يخلوا بشيء من ذلك، فلما امتثلوا أمره وأتقنوا معرفـــة ما أشار به عليهم وصارت لهم مراعاة الأمور الشرعية سجية وعادة قد ألفوها كانوا يوما عنده وإذا به قد أخرج لهم الكتاب الذي كان رآه معهم في المنطق وقال لهم الآن صلحتم لأن تقرأوا هذا الكتاب وأمثاله علي وأشغلهم فيه فتعجبوا من فعله رحمه الله "[1] .

ومما سبق يُـــمكن القول أنه مـــن الطبيعـــي أن تنـــتعش العلـــوم الكلاميـــة والفلسفية وتتحرَّر خلال العصر الموحـــدي بفعـــل المـــنهج التـــومرتي الكلامـــي من جهة ورغبة الموحـــدين فـــي الظهـــور بمظهـــر يُخـــالف مـــا كـــان عليـــه المرابطون من جهة أخرى، فشجَّع خلفاء الدولة فـــي أول عهـــدها هـــذا النـــوع من العلوم، وأطلقوا لها العنان، وعملوا علـــى ترسـيمها والاعتـــراف بهـــا فـــي المنظومة الفكرية للمغرب الموحدي، في وقت اســـتمرَّ غالبيـــة علمـــاء المالكيـــة في معارضتها وتنفير العامة منهـــا.

1 – ابـــن أبي أصيبعة، المصدر الســـابـــق، ج: 2، ص : 523 و524.

المبحـث الثانـي : نكبـة المنصـور لابـن رشـد والـفلـسفـة.

شهد العصر الأول من تاريخ الدولة الموحديـة تشـجيع خلفائهـا للعلـوم العقلية والفلسفية من لدن ابن تومرت إلـى المنصـور الموحـدي، إلاَّ أنَّ الأمـر سينعكس بعد ذلك ويتحول من تشجيعٍ وتأييد إلى شكل مطاردةٍ وتهديـد.

فقد كان يعقـوب المنصـور يشـجع علـم الفلسـفة أول أمـره شـأنه شأن أبيه فيعقـد مجـالس خاصـة مـع أسـتاذه وطبيبـه الخـاص الفيلسـوف أبي بكر بن زهر تـ595هـ/1198م يُحدِّثـه فـي هـذا العلـم ويشـرحه لـه، وكان يُقيـُم معه الليالي الطِوال ولا يسـمح لـه بمغـادرة مـراكش إلـى بلـده الأندلس[1]، كما كانت له العلاقة الطيبـة مـع الفيلسـوف أبـي جعفـر الـذهبي الذي كان المنصور كثير المدح والشكر له ويصفه بالذهب الإبريـز[2].

ثم أخذ يُـقرِّب ابنَ رشد ويتودَّدُ إليـه أكثـر مـن أشـياخ الموحـدين، وأصبح ابن رشد في ذلـك الزمـان – علـى حـد قـول بعضـهم – "سـلطان العقول والأفكار، لا رأي إلا رأيه، ولا قول إلا قوله"[3].

وفي سنة 590هـ/1193م أعلـن الخليفـة يعقـوب المنصـور حربـاً العلوم القديمة (الفلسفة) وأعلامها وعلى رأسـهم الفيلسـوف ابـن رشـد الـذي أمر الخليفة بتنكيله ونفيه مُشـككاً فـي دينـه وإخلاصـه، فمـا هـي الأسـباب الحقيقية التي حدت بالأمير إلى معاملـة ابـن رشـد علـى هـذا النحـو؟ هـذا السؤال يكتسب دون شك إلحاحيةً أكبـر عنـدما نعـرف أن أبـا الوليـد كـان "مكينًا عند المنصور وجيهاً في دولته" [4] .

---

1 – السلاوي، المصدر السابق، ج:1، ص:417 .

2 – ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج: ص: 532.

3 – نايف بلوزة، ابن رشد بين الإيديولوجيا والعقلانية، **مجلـة التـراث العربـي**، مجلـة فصـلية تصـدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العـدد: 74، السـنة: 19، كـانون الثـاني "ينـاير" 1999 / رمضـان 1419م، ص : 48 .

4 – ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص: 531.

المطلب الأول : أسباب وآثار نكبة المنصور لابن رشد والفلسفة.

حاول كثير من المؤرخين والباحثين وأنصار الفلسفة والمناوئين لها تفسير نكبة المنصور لابن رشد والفلسفة في الغرب الإسلامي، كلٌّ حسب إدراكه ومنتهى بحثه أحيانا، وميولاته أحيانا أخرى، وغالبها كان مبنياً على الحدس والتخمين لا على وجه القطع واليقين، لتضارب الشواهد وتباينها، ومن بينها تلك التعليلات والتخمينات يمكن الوقوف على أربع منها نعتقد أنها الأقرب لتفسير النكبة المنصورية المفاجئة لابن رشد والفلسفة، وهي تفسير النكبة بالانحراف العقيدي الذي ظهر في كلام ابن رشد وكتاباته، وتفسير آخر يُرجع النكبة إلى مؤامرة دبَّرها له حُسَّاده من الفقهاء خاصة، وتفسيرٌ آخر يُرجع النكبة إلى ابن رشد نفسه الذي أساء الخطاب والتأدُّب مع الخليفة المنصور، وتفسيرٌ رابع يرد النكبة إلى اختصاص ابن رشد بشقيق المنصور حاكم قرطبة المعادي له، وقد أضافت بعض المصادر أسبابا غير ما ذُكر[1].

التفسير الأول: الإنحراف العقيدي:

نتأمل في البداية تهمة المروق عن الدين، هذه التهمة التي أوردها ابن عبد الملك المراكشي، وسلَّمَ بها أصحاب تفسير النكبة بالانحرافات العقيدية التي طالت ابن رشد جرَّاء اشتغاله بالعلوم القديمة (المنطق والفلسفة)[2].

---

1 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:6، ص: 21 –31، وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص: 530 وما بعدها.

2 – عصام عبد الحفيظ، ابن رشد، عصره، حياته، آثاره، شروحاته، ضمن كتاب: **شذرات فلسفية لفلاسفة من الغرب الإسلامي**، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، 2007م، ص: 125 .

فقد كان أبو الوليد بن رشد قاضياً على إشـبيلية ثـم قرطبـة مـن قِبـل الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حيث التف حوله طلبـة العلـم واعتمـدوا عليـه "إلى أن شاع عنه ما كان الغالب عليه من علومه مـن اختيـار العلـوم القديمـة والركون إليها فترك الناس الأخذ عنه وتكلموا" [1] .

والذي يـُـفهم من كلام شيخ الشـيوخ ابـن حمويـه[2] أن هـذه التهمـة هي ما كان معروفا ومـُـتداولاً، إذ يقـول: لمـا دخلـت الـبلاد، سـألت عـن ابن رشد، فقيل: إنه مهجورٌ في بيته من جهة الخليفـة يعقـوب، لا يـدخل إليـه أحد، لأنه رُفعت عنه أقوال رديـة، ونُسـبت إليـه العلـوم المهجـورة، ومـات محبوسًا بداره بمراكش[3].

فقد أفنى ابن رشد حياته فـي تلخـيص وتقريـر وشـرح مـذهب أرسـطو حتى استحق بدون منازع إسـم "الشـارح" وهـو اللقـب الـذي أطلقـه عليـه الأديب الإيطالي "دانتي" في كتابه "الكوميـديا الإلاهيـة"[4]، وكـان ابـن رشـد يرى أن أرسطو هو الإنسان الأكمـل والمفكـر الأعظـم الـذي وصـل إلـى الحق الذي لا يشوبه باطل[5]، فالذي يبـدو أن ابـن رشـد أصـابه مـا أصـاب

---

1 – النباهي، قضاة الأندلس، ص :111 .

2 – شيخ الشيوخ تاج الدين أبو محمد عبد الله – ويدعى عبد السـلام – ابـن الشـيخ القـدوة أبـي الفـتح عمر بن علي بن القدوة العـارف محمـد بـن حمويـه الجـويني، الخراسـاني ثـم الدمشـقي الصـوفي الشافعي، ولد بدمشق سنة 566هـ/1170م، دخل المغـرب سـنة 593هـ/ 1196م، فأقـام بـه سـبعة أعوام، وسكن مراكش وكان فاضلا مؤرخا أديبا عفيفا، تـوفي سـنة 642هـ/1244م. أنظـر: الـذهبي، سير أعـلام النـبلاء، ج:16، ص:336. وابـن تغـري بـردي، النجـوم الزاهـرة فـي ملـوك مصـر والقاهرة، ج:6، ص: 350.

3 – الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج: 21، ص: 309.

4 – دي بور، **تاريخ الفلسفة في الإسلام** ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، ص : 285 .

5 – نفسه.

الغزالي في المشرق حين " دخـل فـي بطـون الفلاسـفة، ثـم أراد أن يخـرج منهم فما قدر " [1] .

وجاءت النصوص القديمة والآراء الحديثـة لتعـزِّز هـذا الطـرح وتُشـكِّك في المنحى العقيدي لابن رشد، ثم إن رواية ابن عبد الملـك نفسـها تؤكـد لنـا الذي نذكره هنا، حيث يُنسب إلى الشـيخ ابـن حمويـه – وهـو يتحـدث عـن ابن رشد ويـُدافع عنه– : " ومـا كـدت آخـذ عليـه فلتـة إلا واحـدة وهـي عظمى الفلتات، وذلك حين شاع في المشرق والأنـدلس علـى ألسـنة المنجّمـة أن ريحا عاتية تهبّ في يوم كذا وكذا في تلك المـدة تهلـك النـاس، واسـتفاض ذلك حتى اشتد جزع الناس معـه واتخـذوا الغيـران والأنفـاق تحـت الأرض توقيا لهذه الريح، ولما انتشـر الحـديث بهـا وطبـق الـبلاد اسـتدعى والـى قرطبة إذ ذاك طلبتها وفاوضهم في ذلـك، وفـيهم ابـن رشـد وهـو القاضـي بقرطبة يومئذ وابن بندود، فلما انصرفوا مـن عنـد الـوالي تكلـم ابـن رشـد وابن بندود في شأن هذه الريح من جهـة الطبيعـة وتـأثيرات الكواكـب، قـال شيخنا أبو محمد عبد الكبير وكنت حاضـرا فقلـت فـي أثنـاء المفاوضـة : إن صحّ أمر هذه الريح فهي ثانية الريح التي أهلـك الله تعـالى بهـا قـوم عـاد إذ لم تعلـم ريـح بعدها يعُمّ إهـــلاكها، قـال فانبـــرى لـي ابـن رشـد ولـم يتمالك أن قال : والله وجود عاد ما كان حقـا فكيـف سـبب هلاكهـم ؟ فسـقط في أيدي الحاضرين وأكبروا هـذه الزلـة التـي لا تصـدر إلا عـن صـريح الكفر والتكذيب لما جاءت به آيات القـرآن الـذي لا يأتيـه الباطـل مـن بـين يديه ولا من خلفه " [2].

---

1 – من كلام ابن العربي أبو بكر، أنظر: ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، ج:1، ص:5.

2 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:6، ص:29. وفـرح أنطـون، ابـن رشـد وفلسـفته، ص: 16، وحنا فاخوري وخليـل الجـر، **تـاريخ الفلسـفة العربيـة**، الطبعـة 03، بيـروت، لبنـان، دار الجيـل، 1993م، ص: 285 وما بعدها .

والفلتة العقيدية الثانية التي نُسبت إلى ابن رشد أن " قومًا ممن يُناوؤه من أهل قرطبة ويدّعي معه الكفاءة في البيت وشرف السلف، سعوا به عند أبي يوسف، ووجدوا إلى ذلك طريقًا، بأن أخذوا بعض تلك التلاخيص التي كان يكتبها، فوجدوا فيها بخطه حاكيًا عن بعض قدماء الفلاسفة بعد كلام تقدم: فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة....، فأوقفوا أبا يوسف على هذه الكلمة، فاستدعاه بعد أن جمع له الرؤساء والأعيان من كل طبقة وهم بمدينة قرطبة، فلما حضر أبو الوليد –رحمه الله– قال له بعد أن نبذ إليه الأوراق: أخطّك هذا؟ فأنكر فقال أمير المؤمنين: لعن الله كاتب هذا الخط وأمر الحاضرين بلعنه، ثم أمر بإخراجه على حال سيئة وإبعاده وإبعاد من يتكلم في شيء من هذه العلوم"[1].

فما نُسب لابن رشد من إنكار ما ورد في القرآن، وما نُسب إليه من القول بأن الزهرة آلهة، هي ما ألصق به تهمة الخروج من الملة.

ونجد في دفاع الشيخ عبد الكبير بن محمد بن عيسى الغافقي ت616 هـ/ 1219م[2] عن ابن رشد أنه رد عنه تُهمة الكفر والزندقة

---

1 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 225. حنا فاخوري وخليل الجر، تاريخ الفلسفة العربية، ص: 285 .

2 – عبد الكبير بن محمد بن عيسى بن محمد بن بقي الغافقي من أهل مرسية وسكن إشبيلية، وكان فقيها حافظا حسن الهدي والسمت مشاركا في علم الحديث بصيرا بالشروط قائما علي مذهب مالك متقدما في الفتيا مع التفنن في غير ذلك من الطب وسواه وله مختصر في الحديث وألف تفسيرا نحا فيه إلى الجمع بين تفسير ابن عطية والزمخشري وولي خطة القضاء برندة والنيابة في الأحكام عن أبي الوليد بن رشد بقرطبة حدث وأخذ عنه وتوفي بإشبيلية سنة 616 هـ/ 1219م أو 617هـ/ 1220م. أنظر: ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج: 3، ص: 144. والصفدي، الوافي بالوفيات، ج:19، ص: 51. والسيوطي، طبقات المفسرين، ص: 70 .

بقوله "أن هذا الذي يُنسب إليه (ابن رشد) ما كــان يظهــر عليــه، ولقــد كنــت أراه يخرج إلى الصلاة وأثر ماء الوضوء على قدميــه"[1]، ولــم يـُــــبرِّؤه مــن "عظمى الفلتات"[2] وهي إنكاره لِما ورد في القرآن مــن شــأن قــوم عــاد بقولــه "والله وجود قوم عاد ما كان حقا فكيف سبب هلاكهم" [3].

وهذا يعني كما ذكرنا أن الشيخ عبــد الكبيــر بــن محمــد بــن عيســى الغافقي يدافع في ذات الوقت عــن ابــن رشــد مــن جهــة تأديتــه الصــلوات، ويشكك في إيمانه ببعض الروايات التي تضــمنها الــنص القرآنــي مــن جهــة ثانية، وهذا يعزز الرأي الذي يرى أن أبــا الوليــد كــان يســاير العامــة فــي معتقداتها وطقوسها، ولكن عندما يتعلــق الحــال بحــوار بــين الخاصــة حــول هذه المسألة أو تلــك فإنــه ينحــاز إلــى التفســيرات العقليــة البرهانيــة ولــو استدعى الأمر التشكيك في رواية قرآنيــة، مُســايرًا فقــط للعامــة فــي تأديــة الطقوس الدينية بينما هو في باطنه مناهض لعقيدتــــها، وهــو مــا أشــار إليــه منشور المنصــور "إنهــم يوافقــون الأمــة فــي ظــاهرهم وزيهــم ولســانهم، ويخالفونها بباطنهــم"[4].

وقد أصدر المنصور مرسوماً عدَّد فيــه "الانحرافــات العقيديــة" المنســوبة إلى أبي الوليد وصحبه، مما يدل على أن المنصــور قــد أخــذ المســألة مأخــذ قضية هامة وخطيرة، تستدعى توضيح معالمها للجمهور الواسع.

وهــذا لا يمكنــه إلاّ أن يكــون مــن بــين أســباب محنتــه، فــالمجتمع الأندلسي مجتمع مناهض للفلسفة منافرٌ عنها، يقــول المقــري فــي "الــنفح" مــا

1 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:6، ص: 29.

2 – نفسه.

3 – نفسه.

4 – أحمد العزاوي، مجموع رسائل موحدية، الرسالة الثالثة والأربعون، ج: 1، ص: 206 .

نصه: " وأما قواعد أهل الأندلس في ديـانتهم فإنهـا تختلـف بحسـب الأوقـات والنظر إلى السلاطين، ولكن الأغلب عنـدهم إقامـة الحـدود وإنكـار التهـاون بتعطيلها وقيام العامة في ذلك وإنكـاره إن تهـاون فيـه أصـحاب السـلطان"[1]، وقد يصل الأمر إلى التمرد على الأمراء أنفسهم إذا مـا أشـتم مـنهم مـا يفيـد ابتعادهم عن تعاليم الشريعة واشتغالهم بما يتنـافى معهـا "وقـد يلـج السـلطان في شيء من ذلك ولا ينكـره، فيـدخلون عليـه قصـره المشـيد ولا يعبـؤون بخيله ورَجله حتى يخرجوه من بلدهم، وهذا كثير في أخبارهم" [2].

ويـُــضيق المقــري المقــري مُـــحددا لنــا خصــائص المجتمــع الأندلسي الذي أنكر على ابن رشد فلسفته : "وكــل العلــوم لهــا عنــدهم حــظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجـيم فـإن لهمـا حظـا عظيمـا عنـد خواصـهم، ولا يُتظاهر بـها خوف العامّة فإنه كلمـا قيـل (فـلان يقـرأ الفلسـفة) أو(يشـتغل بالتنجيم) أطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيّـدت عليـه أنفاسـه، فـإن زلّ فـي شُبهة رجموه بالحجارة أو حرقـوه قبـل أن يصـل أمـره للسـلطان أو يقتلـه السلطان تقربا لقلوب العامة، وكثيرا مـا يـأمر ملـوكهم بـإحراق كتـب هـذا الشأن إذا وجدت"[3].

ومهما يكن مـن الأمـر فـإن الذريعـة الرسـمية التـي تـذرع بهـا المنصور في المنشور الذي أذاعه لتبرير عمله هي – كمـا يبـدو مـن روايـة ابن عبد الملك – ذات طبيعة تتصل بـالكفر والإلحـاد والمـروق عـن الـدين وكفر الرجل وزندقته، وقد جاء في هذا المنشور: "... وقـد كـان فـي سـالف الدهر قوم خاضوا في بحور الأوهام، وأقر لهم عـواقهم بشـفوف علـيهم فـي

---

1 – المقرى، نفح الطيب، ج:1، ص: 219 و220.

2 – نفسه، ج:1، ص: 220.

3 – نفســـه.

الأفهام ... فخلدوا في العـالم صـحفا مالهـا مـن خـلاق، مسـودة المعـاني والأوراق، بعـدها مـن الشـريعة بعـد المشـرقين، وتباينهـا تبـاين الثقلـين، يوهمون أن العقل ميزانهـا، والحـق برهانهـا، وهـم يتشـعبون فـي القضـية الواحدة فرقا، ويشيدون فيها شواكـل وطـرقا [1].

وإذ صحَّ هذا الطـرح فـإن المنصـور عَـدلَ عـن موقفـه المُناصـر للفلسفة بعدما تبيَّن له أنها تحمل مـن الأمـور المنكـرة المعيقـة للـدين التـي تحتـَّـم عليه محاربتها، وكذا منع تداولها بـين النـاس باعتبارهـا مـن البـدع المضللة لهم[2]، أو على الأقل ما تثيره من خـلاف بـين المسـلمين لمـا أثـاره من جدل ومسائل معقدة وغامضة[3].

وأصدر المنصور رسالة سـلطانية مـن إنشـاء كاتبـه أبـي عبـد الله ابن عياش[4] في التحذير من الفلسفة ومن تعليمات ابن رشـد وممـا جـاء فيهـا قوله واصفا بُعد الفلسفة عن الدين:" وقد كان في سـالف الـدهر قـوم خاضـوا في بحور الأوهام، وأقر لهم عواقهم بشفوف علـيهم فـي الأفهام...فخلـدوا فـي العلم صـحف مالهـا مـن خـلاق، مسـودة المعـاني والأوراق بعـدها مـن الشريعة، بعد المشرقين، وتباينها تبـاين الثقلـين، يوهمـون أن العقـل ميزانهـا

---

1 – ابن أبي أصيبعة، المصدر السابـق، ص:531.

2 – عبد المجيد النجار، ابن تومرت، ص:467.

3 – يرجع المنصور مواجهة الفلسفة إلى سبب أخر خوفـا مـن الخـلاف بـين المسـلمين فـي الـدين. أنظر: ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج:6، ص:27 .

4 – أبي عبد الله بن عياش محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمان بـن عبـد الله بـن عيـاش أبـو عبـد الله التيجيني الأندلسي الكاتب صـاحب دوان الإنشـاء بـالمغرب وكـان رئـيس فـي صـناعة الكتابـة، خطيب وشاعـر، ولد في ستة خمسين وخمس مائـة وتـوفي فـي جمـادى الأخيـرة بمـراكش. أنظـر: ابن الخطيب، الإحاطـة، ج:2، ص: 337. وآرثـور سـعد يـف و توفيـق سـلوم، **<u>الفلسـفة العربيـة الإسـلامية، الكـلام والمشـائية والتصـوف</u>**، الطبعـة 01، دار الفـارابي، بيـروت، لبنـان، 2000م، ص:133.

والحق برهانها وهم يتشــعبون فـــي القضـــية الواحـــدة فرقـــا ويشـــيدون فيهـــا شواكل وطرقا"[1].

على أن أهم حجة يقدمها المنصـــور لتأكيـــد موقفـــه الـــرافض للفلســـفة هي اعتراضه على الفلاسفة في ادعـــائهم امـــتلاك الحقيقـــة منهجـــا وبرهانـــا، من خلال اعتقادهم أن ما يقومون به هو عمل عقلـــي، وأن العقـــل هـــو وحـــده يكفي لتفسير الظواهر الكونية وفهما فهمـــا صـــحيحا، ولكـــن المنصـــور يـــرى أن هذا الادعاء مجرد وهم باطـــل لأن العقـــل لا يتجـــاوز المعقـــولات بـــدليل أنه كثيرا ما يتلاشى أمام تفسير عدد من الأمور الغيبية [2].

وبعد هذا التذكير بأثر الفلسفة السيِّئ على الـــدين تـــدرَّج المنصـــور فـــي رسالته إلى الأمر بمنع تدول كتب الفيلســـوف ابـــن رشـــد وقـــال: " فاحـــذروا- وفقكم الله- هذه الشرذمة على الإيمـــان حـــذركم مـــن الســـموم الســـارية فـــي الأبدان ومن عثر له على كتاب من كتـــبهم فجـــزاؤه النـــار التـــي بهـــا يعـــذب أربابه، إليها يكون مآل مؤلفـــه وقارئه ومثابـــة" [3] .

يتبين لنا تصـــعيد المنصـــور للهجـــة الخطـــاب التحذيريـــة والمواقـــف الصارمة للمنصور من كتب الفلسفة التي شـــبَّهها هنـــا بالســـموم الســـارية فـــي الأبدان، حيث لـــوَّح بالعقاب الشديد لمن يتداولهـــا.

إلا أنَّ هذا التفســـير يتنـــاقض والنصـــوص التـــي تـُــــخبرنا عـــن تلـــك الجلسات والمحاورات الفلسفية بين ابن رشـــد والمنصـــور نفســـه، فقـــد حظـــي ابن رشد بالمثول بين يدي الخليفة يوسف الموحدي وتـــذاكر معـــه فـــي مســـائل

---

1 – أنظر : ابن أبي صيبعة، المصدر السابق، ص:531. وعبـــد الـــرحمن بـــدوي، **الفلســـفة والفلاســـفة في الحضارة العربية** "مطبوع ضمن موسوعة الحضـــارة العربيـــة الإســـلامية3، الطبعـــة 01، المؤسســـة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1987م، ص: 111.

2 – أحمد عزاوي، رسائل موحدية، ج :1 ، ص : 206 و207 .

3 – نفسه.

فلسفية وبالأخص في قـدِم السماء وحدوثها، ولقد أعجـب ابـن رشـد بـاطلاع الخليفة علـى أراء أرسـطو وأفلاطـون وبـاقي الفلاسـفة القـدماء، ولخَّـص للخليفة يوسـف-والـد المنصـور- مؤلفـات فلاسـفة الإغريـق[1]، فقـد كـان المنصور على علم بمؤلفات ابن رشـد ومعتقـده، وربمـا كـان سـببه نفـور شخصي محض وما شمل المنصور من حميـة دينيـة بعـد الانتصـار العظـيم في الأرك، ولا يُـستبعدُ كذلك أن الفيلسوف غالى فـي الإفصـاح عـن آرائـه التي لم تكن تلتئم مع عقيدة المنصـور[2].

التفسير الثاني: المـؤامرة والوشايـة وإرضـاء طبقة الفقهـاء

أقدم مصدر يقدم لنا هذا الطرح ويدافع عنـه بحمـاس كتـاب الـذيل والتكملة لابن عبد الملك، فوفق رواية ابن عبد الملـك يتعلَّـق الأمـر بمحاكمـة أُعِدَّ لها بعناية، وقد أشار في البدايـة إلـى وجـود مجموعـة مـن الأشـخاص تألَّبوا على ابن رشد فأدلوا بإفاداتٍ ضـده، وذلـك علـى سـبيل الوشـاية بـه للأمير، وأنَّ تلك الإفادات قد تمت قراءتها أثناء المحاكمـة، يقـول فـي الـذيل والتكملة : " فلما كان التلوم من المنصـور بمدينـة قرطبـة وامتـد بهـا أمـد الإقامة، وانبسط الناس لمجالس المـذاكرة، تجـدّدت للطـالبين آمـالهم وقـوي تألبهم واسترسالهم فأدلوا بتلك الألقيات، وأوضحوا ما ارتقبـوا فيـه مـن شـنيع الهفوات الماحية لأبي الوليد كثيرا من الحسـنات، فقرئـت بـالمجلس، وتؤوّلـت أغراضها ومعانيها وقواعـدها ومبانيهـا، فخرجـت بمـا دلـت عليـه أسـوء مخرج" [3]، وهذا يعني أن هؤلاء الوشاة قـد سـعوا لـدى الأمير مـرّة أولـى

---

1 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 144.

2 – بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي، ص : 355 .

3 – ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابـق، ج:6، ص: 25.

للنيل من فيلسوفنا فلم يفلحوا، ثم أعــادوا الكــرة ثانيــة فنجحــوا فيمــا عقــدوا العزم عليه، إذ كانوا "لا يسأمون من الانتظار ويرقبون أوقات الضرار" [1].

ويذكر ابن عذاري أن محاولات الــدس كانــت قبــل غــزوة الأرك، وأنّ هؤلاء الحاسدين انتقلوا إلى العاصمة ليدسوا عند الخليفة ضــد ابــن رشــد عــام 590هــ/1193م[2]، غير أن انهماك الخليفــة فــي التجهيــز لحملتــه العســكرية المتجهة للأندلس منعته مــن الإنصــات إلــى قــولهم فلمــا اســتقر المنصــور بقرطبة بعد تحقيق نصرٍ مؤزر فــي معركــة الأرك، أعــاد الحاســدون الكــرة مرة أخرى ناسبين إليه بعض الأقــوال[3]، ولهــذا اســتجاب المنصــور لهــؤلاء العلماء واستجاب لمطالبهم حتى لا يظهر بمظهــر مــن لا يــدافع عــن الــدين في الشريعة[4] .

وتريَّــث الخليفة المنصـــور فــي التعامــل مــع القضيَّـــة التــي طرحت أمامه، " ثم آثر الخليفة فضيلة الإبقاء، وأغمــد الســيف التمــاس جميــل الجزاء"[5]، ثم عقد لذلك مجلســا اســتدعى إليــه فقهــاءه وقضــاته للبــتّ فــي الدعوى "وأمر طلبــة مجلســه وفقهــاء دولتــه بالحضــور بجــامع المســلمين وتعريف الملأ بأنه (ابن رشــد) مــرق مــن الــدين، وأنــه اســتوجب لعنــة الضاليــن"[6].

نحن إذاً إزاء محاكمة فعليــة فيهــا متَّهمــون وقضــاة، وعمــدتها كمــا يــُـفهم من رواية التكملة هم إلى جانــب المنصــور " طلبــة مجلســه وفقهــاء

---

1 – نفسه.

2 – نفسه، ص: 26 .

3 – ابن عذاري، البيان المغرب، ج:3، ص: 15،16.

4 – عبد الله علي علام، المرجع السابق، ص:360

5 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:6، ص: 25.

6 – نفسه، ص: 25 و26 .

دولته " [1]، ويُورد ابن عبد الملك فحوى تدخل أحدهم وهوالقاضي أبوعبد الله بن مروان الذي "ذكر ما معناه أن الأشياء لا بدّ في كثير منها أن تكون لها جهة نافعة وجهة ضارة كالنار وغيرها، فمتى غلب النافع على الضار عمل بحسبه ومتى كان الأمر بالضدّ فبالضدّ "[2]، وهذا يعني أنه قد تكلّم بلهجة غلبت عليها النزعة التصالحية، ولكن ما جاء بعد ذلك على لسان قاضٍ آخر سيضعُ ابن رشد في دائرة من مَرقَ عن الدين فوجب إنزال أقصى العقوبات به، حيث " ابتدر الكلام الخطيب أبوعلي بن حجاج وعرّف الناس بما أمر به من أنهم مرقوا من الدين، وخالفوا عقائد المؤمنين، فنالهم ما شاء الله من الجفاء، وتفرقوا على حكم من يعلم السرَّ وأخفى" [3].

والمغراوي في طرحه يؤكد أن السبب الرئيسي لنكبة الفلاسفة هو موقف ابن رشد من الأشعرية التي كانت قد أصبحت بالنسبة للفقهاء الغرب الإسلامي رمزاً للوحدة العقائدية، والتي حظيت بمباركة الدولة القائمة وتبنيها[4]، ولا شك أن المنصور تفطن هو أيضا لخطورة تهديد التماسك العقدي وانعكاسه على الوحدة السياسية فتبنى أطروحة الفقهاء والمتكلمين مع أنَّه كان يُكنُّ احتراماً خاصًا لابن رشد، ويرى المغراوي – أيضاً– أن المنصور خضع لإكراهات الواقع الأندلسي ورضخ لإلحاح الفقهاء[5] .

---

1 – نفسه، ج: 6 ، ص: 25 .

2 – نفسه، ص: 26.

3 – نفسه.

4 – المغراوي، الصلحاء، ص: 274 .

5 – نفسه، ص: 273 . كما شنَّ ابن رشد حملة على الغزالي وكتابه التهافت الذي كفَّر فيه ابن سينا والفارابي واشتد على الغزالي. أنظر كتابه الذي خصصه لذلك: أبي الوليد بن رشد، **تهافت التهافت**، تحقيق: سليمان دنيا، الطبعة 01، دار المعارف، مصر، 1964م.

وممن تزعم الحملة ضد ابن رشــد مــن الفقهــاء القاضــي أبــو عــامر يحي بن أبي الحسن بن ربيع الأشــعري تــــ 639هــــ/1293م[1] وكــان هــذا الفقيه قد رد على كتاب "الكشف عن مناهج الأدلــة" لابــن رشــد بكتــاب ســمَّاه "تحقيق الأدلة في عقائــد الملــة ودفــع الشــبه المضــلة والأقــوال المضــمحلة بالحكمة البالغة والحجة الدامغة" و كتب أخرى[2].

ومنهم الفقيه أبو زيد عبد الرحمان بــن زكريــا بــن محمــد الرجراجــي تــ605هــ/1208م الذي كان " شيخاً صالحاً متحققــاً بعلــم الكــلام"[3]، وحســب بعض الروايات جرت بين الفقيه الرجراجي وابن رشــد مجادلــة عنيفــة كانــت آخر أسباب نكبة الفيلسوف[4].

والملاحظ أن معظم الفقهاء الذين قــاموا علــى ابــن رشــد كــانوا مــن علماء الكلام على مذهب الأشــعرية لــذلك فــإنهم ركــزوا فــي نقــدهم علــى الجانب العقــدي[5].

انتقد ابن رشــد الأســس المنهجيــة للأشــعرية وحكــم عليهــا بــالإفلاس المنهجي والنظــري، وانتهــى بــه الأمــر إلــى أن حشــرها ضــمن الفــرق الضالة مع المعتزلة والباطنيــة والحشــوية معتبــراً أن منهجهــا فــي التحليــل ضعيف لأن طريقتهــا " ليســت برهانيــة صــناعية ولا شــرعية "[6]، ويضــيف ابن رشد في كتابه "الكشــف عــن منــاهج الأدلــة" : "إن الطــرق المشــهورة للأشعرية في السلــوك إلى معرفة الله ســبحانه ليســت طرقــا نظريــة يقينيــة

---

1 – النباهي، قضاة الأندلس، ص: 124 .

2 – الرعيني، البرنامج ، ص: 73 .

3 – ابن الأبار، التكملة، ج:3، ص: 53 .

4 – نفســـه.

5– فاروق حمادة، المذهبية في فكر أبي الوليــد بــن رشــد، **مجلــة التــاريخ العربــي**، العــدد:6 ربيــع 1998 ص:253– 278 .

6 – ابن رشــد، الكشف عن مناهــج الأدلــة، مصدر سابق، ص : 111 .

ولا طرقا شرعية يقينية وذلك ظاهر لمن تأمـل أجنـاس الأدلـة المنبهـة فـي الكتاب العزيز عن المعنى ..."[1].

ووصـف فـي كتابـه "فصـل المقـال" تصـنيفات الأشـعرية ومصطلحاتها بالبدعة التي لم تكن عنـد سـلف الملـة، ووصـل النقـد أعلـى درجاته عندما قال : " إن طرقهم التي سـلكوها فـي إثبـات تـأويلاتهم ليسـوا فيها لا مع الجمهور ولا مع الخواص ... بل كثيـر مـن الأصـول التـي بنـت عليهـا الأشـعرية معارفهـا هـي سوفسـطائية، فإنهـا تجحـد كثيـرا مـن الضروريات ... ولقد بلغ تعدي نظارهم في هـذا المعنـى علـى المسـلمين أن فرقة من الأشعرية كفرت من ليس يعـرف وجـود البـاري سـبحانه بـالطرق التي وضعوها لمعرفته في كتبهم، وهم الكافـرون والضالون بالحقيقـة"[2].

لقد عاش ابن رشد في كنف الدولة الموحدية في وقـت كـان فيـه المـذهب الأشعري مذهبا رسميا للبلاد، وعاصـر الفتـرة التـي كانـت فيهـا منظومـة الضـرير فـي العقيـدة الأشعريـة[3] ومرشـدة ابـن تـومرت[4] وبرهانيـة السلالجي[5].

---

1 – نفســه، ص : 59 .

2 – ابن رشد، فصل المقال، ص: 55 و56 .

3 – أبو الحجاج يوسـف بـن موسـى الكلبـي السرقسـطي المراكشـي الضـرير (تــ 520 هـــ / 1126م) .أنظر: القاضي عياض، **الغنية**، تحقيق علي عمر، بـور سـعيد، مكتبـة الثقافـة الدينيـة، ص: 226 .

4 – أنظر: المبحث الثاني من الفصل الأول (الباب الأول) .

5 – أشتهر بعقيدته الصغيرة المسماة " عقيدة البرهانيـة فـي علـم الألوهيـة " المعروفـة بالبرهانيـة أو السلالجية. أنظر: حققها يوسف احنانا وأوردها كاملة مع دراسـة تفصـيلية فـي ملحـق كتابـه : تطـور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي، مرجع سابق، ص : 237 – 252 .

فضلا عن عدائه للأشعرية فقد كان ابن رشد من ألدّ خصوم الغزالي وقد خصص كتابه "تهافت التهافت" لنقد آرائه والرد عليه، والغزالي وآراؤه رموز في الفكر الموحدي[1].

ويرى أحد الباحثين أن الذي حرّك الفقهاء هو تلك المكانة التي احتلها ابن رشد وغيره من الفلاسفة، فأغضبت كثيرا الفقهاء وغيرهم[2] وتتفق معظم التفسيرات الإستشراقية على فرضية الوشاية[3] .

والثابت أن أسباب نكبة المنصور كانت في المنافسة القائمة بين الفلاسفة وعلماء الدين وبلغت أوجها في الأندلس خاصة بعد أن أقصاهم ابن رشد من هيكل الحكمة وجعلهم أهل كل فتنه وكل تمزيق لوحدة الدين[4].

ويُشبِّه بعض الباحثين نكبة ابن رشد "الشنعاء"[5] بنكبة السهروردي تـ 587 هـ/1191م[6] الذي أفتى الفقهاء بهدر دمه[1] لتشابه

1 – المغراوي، الصلحاء، ص: 191 .

2 – حسن علي حسن، المرجع السابق، ص:508.

3 – فرح أنطون، ابن رشد والفلسفة، ص: 15 – ص: 18.

4 – حنا الفاخوري وخليل الجر، **موسوعة فلاسفة العرب**، الطبعة 01، الشركة المصرية العالمية لونجمان، لبنان، 2002م، ص: 890 .

5 – بهذا وصفها ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ج:6، ص: 25.

6 – يحيى بن حَبَش بن أميرك، أبو الفتوح، شهاب الدين، السهروردي (549 – 587 هـ / 1154 – 1191 م)، فيلسوف اختلف المؤرخون في اسمه، ولد في سهرورد (من قرى زنجان في العراق العجمي) ونشأ بمراغة، وسافر إلى حلب، كان رأسا في معرفة علوم الأوائل، بارعا في علم الكلام، مناظرا محجاجا متزهدا، مزدريا للعلماء مستهزئا، رقيق الدّين. قدم حلب واشتهر اسمه، فعقد له الملك الظاهر غازي ولد السلطان صلاح الدّين مجلسا، فبان فضله وبهر علمه، فارتبط عليه الظاهر واختص به، وظهر للعلماء منه زندقة وانحلال، فعملوا محضرا بكفره وسيّروه إلى صلاح الدّين وخوّفوه من أن يفسد عقيدة ولده، فبعث إلى ولده بأن يقتله بلا مراجعة، فخيّره السلطان فاختار أن يموت جوعا، من كتبه "التلويحات" و"المشارع والمطارحات" و"الأسماء الإدريسية" و"الألواح العماديّة" و" مقامات الصوفية ومعاني مصطلحاتهم" و"التنقيحات" و"حكمة الإشراق" و"المعارج" مُعظمها لايزال مخطوطاً. أنظر: ابن العماد، شذرات الذهب، ج:6، ص:

ظروف المحنة التي أودت بحياة السـهروردي فـي المشـرق، حـين اسـتجاب صلاح الدين لفتوى الفقهاء بإراقة دمه إبان فتـرة الحـروب الصـليبية[2]، بينمـا شبَّه الباحث إبراهيم حركات موقف الفقهاء في المغـرب النـاقم علـى الفلسـفة عامة وفلسفة ابـن رشـد خاصـة بالجـدار السـميك الـذي تحـاول الفلسـفة اختراقه[3].

وفي الواقع يجد البعض من البـاحثين فـي تقريـب السـلطة للفقهـاء تفسيراً لأي تحركٍ سياسيٍ إزاء قضية فكرٍ أو ديـن، ومحاولـة تقـديم الفقيـه – بما يحمله من إرث النبوة – على صورة متزلفٍ للسلطة .

كما أننا نستشف من نـصٍ أورده المراكشـي فـي معجبـه أن التهمـة كانت سلطوية[4] وما كان للفقهـاء إلاَّ النظـر فيهـا وتزكيتهـا، فعنـدما يـذكر المراكشي ما كان من سعي بعضهم[5] للنيل من أبي الوليـد، نـراه يبـرز لنـا أن

476، الذهبي، تاريخ الإسـلام، ج:41، ص:75. وابـن تغـري بـردي، النجـوم الزاهـرة، ج:6، ص: 114، والزركلي، الأعلام، ج:8، ص: 140 و141.

1 – أنظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ج: 41، ص: 286.

2 – محمد علي أبو ريان، **تاريخ الفكر الفلسفي فـي الإسـلام** ، بيـروت، لبنـان، دار النهضـة العربيـة للطباعة والنشر، د.ت.ط، ص: 423 .

3 – إبراهيم حركات، **مدخل إلى تـاريخ العلـوم بـالمغرب المسـلم حتـى القـرن 15/9** ، الطبعـة 01، دار الرشاد الحديثة،1421هـ/2000م، ص:391 و392 .

4 – يـُعزز هذا الطرح اختصاص ابـن رشـد بـأخ المنصـور ومـا ذكـره الجـابري أن السـلطة الموحدية نقمت على ابن رشد من خـلال بعـض الإشـارات فـي شـرحه لكتـاب السياسـة لأفلاطـون فاتخذت تهم الفقهاء مطية للإنتقام منه. أنظر: محمد عابـد الجـابري، **المثقفـون فـي الحضـارة العربيـة محنـة ابن حنبل ونكبـة ابن رشد**، الطبعة 02، مركـز دراسـات الوحـدة العربيـة، بيـروت، لبنـان، 2000م، ص: 144، 148 .

5 – يذكر ابن خلدون أن الأمير الموحدى المنصور عندما قفـل إلـى اشـبيلية 593هـــ / 1196م رُفـع إليه في القاضي أبي الوليد ابن رشد مقالات نـُـسب فيهـا إلـى المـرض فـي دينـه وعقلـه"، ابـن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج:6، ص: 330.

هؤلاء من "عِلْيةِ القوم" أي أنَّهم من ذوي النفوذ بقوله : "إن قوما ممن يناوئه من أهل قرطبة ويدّعي معه الكفاءة في البيت وشرف السلف سعوا به عند أبي يوسف"[1]، فالاتهامات الموجهة إلى أبي الوليد وأصحابه إنما جاءت من جهاز السلطة ذاته.

بل إن هناك تفسيرًا آخر يذهب إلى أن المنصور أراد أن يستثمر عداء الفقهاء والشعب للفلسفة، لِما كان يظهره علماء الدين للعامة من انحراف الفلسفة، فلما قرَّب المنصور ابن رشد ورفع شأنه لم يخلُ ذلك من أن يثير الحسد في نفوس خصومه ومنافسيه فأوغروا عليه صدر الخليفة، ودسُّوا له الدسائس وهيَّجوا عليه العامة، وكان الخليفة في حرب مع ألفونسو التاسع ملك قشتالة وكان لذلك بحاجةٍ إلى رضى الشعب ومؤازرته فأوقع النكبة بابن رشد، إرضاءً لغضبة الفقهاء ومن ورائهم العامة الساخطة على مثل هذه العلوم القديمة، لذا أمر المنصور بحضور الفقهاء بجامع المسلمين بهدف " تعريف الملأ بأنه مرق من الدين، واستوجب لعنة الظالمين"[2]، وحجتهم في أن المنصور لم ينقم على ابن رشد إلا إرضاءً للفقهاء والعامة، ودليلهم أن عقوبة المنصور التي أصدرها في حق ابن رشد اقتصرت على النفي دون الإعدام، و أنَّه بعد عودته إلى مراكش وتحرُّره من الظغط الديني عفا عنه واستقدمه إليه وأعاده إلى سالف نعمته.

وبالنظر إلى تاريخ النكبة عام 593 هـ/1194م – أي بعد وقعة الأرك عام 591 هـ/ 1194م بسنتين – فإنه يُستبعد أن يكون المنصور قد قصد بنفي ابن رشد التقرب إلى الفقهاء والعامة قبل الشروع في جهاد النصارى كما زعم أصحاب الرأي السابق.

---

1 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 225.

2 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:6، ص: 26.

التفسير الثالث: إساءة الأدب مع الخليفة في الخطاب

سبب آخر وقف عنده كثير من الباحثين، يتعلق بإساءة ابن رشد للآداب السلطانية، حيث نُسب لابن رشد سوء الخطاب مع المنصور بمخاطبته بعبارة "يا أخي" وبصيغة "ملك البربر".

فقد خاطب ابن رشد الخليفة المنصور في إحدى مجالسه بقوله: " اسمع يا أخي " [1]، وعلى رأي أحد الباحثين فإن ابن رشد قصد بذلك أن يضع العلم والخلافة في رتبة واحدة مما ألب عليه الحساد[2]، وهو إخلال بأخلاقيات المجالس العلمية السلطانية التي كانت شديدة الإنضباط [3].

كما نعت ابن رشد الخليفة المنصور -عند حديثه عن الزرافة في إحدى كتبه- بقوله: " رأيتها عند ملك البربر"[4]، وقد دافع عنه تلميذه وصديقه أبو عبد الله بن إبراهيم وقال للمنصور إنما كتب " ملك البرين "[5].

وكان بنو عبد المؤمن قد اصطنعوا نسباً عربياً شريفاً[6]، وكان عبد المؤمن بن علي الكومي يقول: " لست منهم – أي كومية – إنما نحن

---

1 – نفسه.

2 – فرح أنطون، ابن رشد والفلسفة، ص: 14.

3 – عن النظام الدقيق للمجالس العلمية السلطانية أنظر مثلا :حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، ص: 414 إلى ص: 417.

4 – الذهبي، سير أعلام النبلاء للذهبي، ج:21، ص: 317. والمراكشي، المعجب، ص: 89. والذهبي، تاريخ الإسلام، ج:61، ص: 442.

5 – الغبريني، عنوان الدراية، ص: 185 و208، والمراكشي، المصدر السابق، ص: 305، أحمد بابا نيل الإبتهاج، ص: 228 . ويُقال أنَّ ابن رشد احتجَّ على ذلك بقوله أنَّه كتب " ملك البرين " وأنَّ النساخ حرفوا اللفظة فجعلوها " البربر " ، أنظر: ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج:1، ص: 105. والذهبي، تاريخ الإسلام، ج:42، ص: 224. وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص: 532. وعبد الرحمان بدوي، الفلسفة والفلاسفة في الحضارة العربية، ص: 110.

6 – ذكر ابن حيان في المقتبس نسبه على نحوين ص: 21 و22 .

لقيس بن عيلان ... ولكوميــة علينــا حـــق الـــولادة والمنشــأ فــيهم وهــم الأخــوال"[1].

إن مما يـُــعزز هــذه الفرضــية مــا يـــكشفه لنــا عبــد الواحــد المراكشي من شخصية أبي الوليد، وهــو عــدم حرصــه علــى مــدح الملــوك وإعلاء شأنهم فقد كان " غير ملتفت إلى ما يتعاطــاه خدمــة الملــوك ومتحيلــو الكتاب من الإطراء والتقريظ وما جانس هذه الطــرق"[2] معتبــرا ذلــك نقيصــة من نقائصه و"غفلة" منه وأنه كان عليه الأخــذ بــالرأي القائــل "رحــم الله مــن عــرف زمانه فمانه وميز مكانــه فكانــه" [3].

ورغم تمسك كثير من البــاحثين بهــذا التفسيـــر إلا أنــه يبقــى ضــعيفاً، فكلام وخطأ ابن رشد – على فرض التســليم بــه – أقــل مــن أن يثيــر تلــك الضجَّة السيلسية التاريخيــة .

<u>التفسيــر الرابــع: اختصاصــه بــأخ المنصـــور</u>

إذا عُدنا إلى رواية ابن عبد الملك فإننا نجد فيهــا إشــارة إلــى ســببٍ آخر، يقول عنــه في كتابه الذيل والتكملــة : " ويُــذكر أن مــن أســباب نكبتــه هذه اختصاصه بأبي يحي أخي المنصور والي قرطبــة"[4]، وهــذا يتطلــب منــا العودة إلى الأوضاع السياسية العامة التي أحاطت بمحنته.

ويــُخبرنا المراكشــي أنَّ المنصــور الــذي حــدثت المحنــة إبــان حكمه كان في صراع مع بعض ذوى النفوذ مــن بــين أفــراد عائلتــه، فقــد "

1 – المراكشي، المصدر السابــق، ص: 148 .

2 – نفسه، ص: 224.

3 – نفسه، ص: 224.

4 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:6، ص: 26.

كان له من إخوته وعمومته منافسـون لا يـــرونه أهــلا للإمــارة لِمـا كــانوا يعرفون من سوء صباه، فلقي مــنهم شــدّة "[1] وأن هــذا الصــراع قــد احتــدم وبلــغ أعلــى درجاتــه عنــدما تــآمر هــؤلاء عليــه إبــان مرضــه ســنة 585هـ/1189م وسعوا إلى تولية أخيه أبا يحــي مكانــه، فلمــا عــادت إليــه عافيته فتك بهم وأحضر أخاه وقال له : "إنمــا أقتلــك بقولــه صــلى الله عليــه وسلم :"إذا بويع خليفتان بأرض فــاقتلوا الآخِــر منهمــا " وأمــر بــه فضُــربت عنقه"[2].

فقد ربطت والي الموحدين على قرطبة الأمير أبــي يحــي بــن يوســف صلات متينة مع ابن رشد الذي وقد أهدى ابن رشد كتابــه الحيــوان إلــى أحــد الخلفاء الموحــدين[3]، وأهــدى إليــه شــرحه لسياســة أفلاطــون[4]، كمــا ألــف ابن رشد أيضا شرحا لألفية ابن سينا بنــاء علــى اقتــراح مــن الأميــر الســيد أبي الربيع سليمان بن أبي محمد بن عبد المؤمــن[5].

يقول الجابرى : " نحن لا نشكّ فــي أن ملــف الاتهــام هــذا لــه علاقة بحركة أبى يحي الــذي تمــت تصــفيته، ولا نشــك كــذلك فــي كــون الشخصيات التي نُكبت مع ابــن رشــد بــدعوى اشــتغالهم بـــ"علوم الأوائــل" إنما نُكبت لنفس السبب : علاقة ما بأبي يحي الذي كــان قــد اتصــل برجــالات

1 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 195 .

2 – نفسه، ص: 280 و281.

3 – محمد عابد الجابري، **ابن رشد سيرة وفكر**، مركــز دراســات الوحــدة العربيــة، بيــروت، 1998م، ص: 66. وأنظر أيضاً: ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج:6، ص:26.

4 – الجابري، المثقفون في الحضارة الإسلامية (محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد)، ص: 149 .

5 – المنوني حضارة الموحدين، ص: 183 – 277.

الأندلس وأعيانها يطلب مساندتهم وتأييدهم فـي مسـعاه للخلافـة عنـدما كـان المنصور طريـح الفـراش" [1].

وإذا ثبتت هذه التهمـة، لم يكن للمنصـور لينـتقم بهـذا الشـكل مـن ابن رشد، إذ تتعلّق التهمة بموضـوع الخيانـة الكبـرى، إذ مجـرد النفـي ثـم العفو لا يتناسب مع تلك الخيانة العظمـى في لغة السياسة.

وبعد المحاكمة أبعد ابن رشـد إلـى "اليسـانة" هـو وجماعـة مـن تلامذته وأنصاره، فقد نـُـكبَ مـع ابـن رشـد طائفـة مـن الفقهـاء وذوي المناصب لا يـُستبعد أن يكون الخليفـة ظـنَّ بهـم الظنـون وشـك بهـم فـي ممالأتهم لمنافسيه"[2]، منهم أبو جعفـر الـذهبي[3]، ووجَّـه الاتهـام " الخطيـب أبو علي بن حجاج وعرف الناس بما أمـر بـه مـن أنَّهـم مـرقوا مـن الديـن وخالفـوا عقائد المؤمنيـن" [4] .

كما حُـوكم معـه صـديقه أبـو عبـد الله بـن بـراهيم الفهـري الأصولي البجـائي تـ612هـ / 1215م الـذي كـان متمكنـا مـن علـم الأصول والكلام وعلوم الأوائل وشـغل منصـب القضـاء بعـدة مـدن ونـاب عن القاضي بمراكش، نـُفي هـو الآخـر إلـى أغمـات إثـر المحاكمـة[5]، وأبو الربيع الكفيف والفقيه الحافظ الشاعـر أبـو العبـاس القرافـي والقاضـي

---

1 – محمد عابد الجابري، ابن رشد سيرة، ص: 66. وأنظـر: ابـن عبـد الملـك، المصـدر السـابق، ج:6، ص: 26.

2 – حنا فاخوري وخليل الجر، تاريخ الفلسفة العربية، ص: 285 .

3 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 189. ابـن أبـي صـبيعية، المصـدر السـابق، ج:2 ، ص: 76. ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج:1، ص: 105 .

4 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج: 6، ص: 25 .

5 – نفسه، ج:8، ص: 271. وابن الأبار، التكملة، ج:2، ص:163 .

أبو القاسم محمد بن أحمد التجيبي الذي عُزل عن قضاء شاطبة وغيرهم[1].

وكان المبرر لنفيهم لدى الخليفة المنصور هو زندقتهم وإلحادهم وهو ما يُفهم من كلامه إذ يقول: " فلما وقفنا منهم على ما هو قذى في جفن الدين ونكتة سوداء في صفحة النور المبين، نبذناهم في الله نبذ النواة، وأقصيناهم حيث يقصى السفهاء من الغواة"[2].

وموازة مع المحنة اختفى أصحاب ابن رشد و تلامذته حتى مرت سحابة تلك المحنة مثل أبي محمد عبد الكبير الخزرجي ت617هـ/1220م[3] وأبي جعفر الذهبي الذين أهين عندما أمر الأمير علي بن عمر بن عبد المؤمن والي غرناطة أن يُلعن، واستدعى الأمير المذكور الخاصة ولعنوا أبا جعفر الذهبي وتوارى عن الأنظار ولحق بقرية "قاشرة" مختفياً حتى مرت سحابة تلك الفتنة[4] .

وتذكر لنا الروايات الإخبارية أن ابن رشد حُكم عليه بالنفي إلى قرية "اليسانة" وهي بلدة لا يسكنها إلاّ اليهود، في إيماءةٍ من خصومه إلى أنّ ابن رشد ليس من المسلمين، " فأمر أبو الوليد بسكنى أليسّانه لقول من قال أنه يُنسب في بني إسرائيل، وأنه لا يُعرف له نسب في قبائل

---

1 – أنظر: ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج:2، ص77، رينان، المرجع السابق، ص:340 و341، و المغراوي، الصلحاء، ص : 273 . وعبد الرحمان بدوي، الفلسفة والفلاسفة في الحضارة العربية، ص: 110 .

2 – ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج:6، ص: 28. وأحمد العزاوي، مجموع رسائل موحدية، الرسالة الثالثة والأربعون، ج: 1، ص: 207 .

3 – ابن الأبار، التكملة، ج: 3، ص: 144 ، وابن عبد الملك، المصدر السابق، ج: 4، ص: 232، وابن الزبير، المصدر السابق، ج :4، ص: 46 .

4 – المغراوي، الصلحاء، ص: 274 .

الأندلس" [1]، أي إنّ التشنيع به قد بلغ منتهاه وصولا إلى تصويره في ثوب من لا علاقة له بالملّة، فأصوله اليهودية هي التي جعلته يمرق عن الدين الإسلامي.

يقول ابن أبى أصيبعة : " ثم إن المنصور (الخليفة الموحدى) فيما بعد نقم على أبى الوليد ابن رشد وأمر بأن يقيم في "اليسانة" وهي بلد قريب من قرطبة، وكانت أولا لليهود وأن لا يخرج عنها"[2]، فأمر – المنصور– بإخراجه على حالة سيئة من المهانة واللعن وسوء المصير، ونفيه إلى بادية قرطبة (بيانة قرية اليهود) فارضا عليه الإقامة الجبرية هنالك[3]، وأليسانة " مدينه منيعة، سورها من أعظم الأسوار، انفرد بسكناها اليهود" [4] .

وإن كان المراكشي أخبرنا في روايته أن ابن رشد لُعن وأهين أمام الحاضرين في المجلس الذي عقده الأمير فإن ابن عبد الملك يخبرنا عن أبي الحسن بن قطرال ت 651هـ/ 1253م[5] أنَّ ابن رشد شكا إليه ما كان من أمر عامة الناس معه فقال: " أعظم ما طرأ عليَّ في

1 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:6، ص: 26.

2 – ابن أبى أصيبعة، المصدر السابق، ج:3، ص:124، وابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج:1، ص: 105 .

3 – اليسانة (أو بيانة): من أعمال قرطبة بالأندلس، وصفها الحميري بأنها : طيبة التربة، كثيرة المياه السائحة، ولها حصن منيع، وبها جامع بناه الإمام عبد الرحمن ومنبر .أنظر: الحميري، الروض المعطار، ص:119 .

4 – مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص: 80.

5 – وُلي قضاء سبتة وشاطبة وقرطبة وفاس، وُلِد سنة ثلاثٍ وستّين وخمسمائة، وتُوُفي بمراكِش فِي ربيع الأوّل عام 651هـ/ 1253م بعد ولايته قضاء أغمات.أنظر ترجمته في : الذهبي، تاريخ الإسلام، ج:48، ص: 105. وابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، وسير أعلام النبلاء، ج: 16 ،ص: 453.

النكبة أنّي دخلت أنا وولـــدي عبـــد الله مســـجدا بقرطبـــة وقـــد حانـــت صـــلاة العصر، فثار لنا بعض سفلة العامة فأخرجونا منـــه"[1].

وبعـــد نكبـــة ابـــن رشـــد ســـادَ جـــوٌّ مشـــحونٌ كانـــت سِـــمته العامة إطلاق حملة شاملة لاستئصال الفلسفة " وكـــان المنصـــور قـــد قصـــد أن لا يترك شيئاً من كتب المنطق والحكمة باقيـــاً فـــي بـــلاده وأبـــاد كثيـــراً منهـــا بإحراقها بالنار وشدَّد في أن لا يبقى أحد يشتغل بشيء منهـــا وأنـــه متـــى وجـــد أحد ينظر في هذا العلـــم أو وجـــد عنده شيء من الكتـــب المصـــنفة فيـــه فإنـــه يلحقه ضرر عظيـــم، ولما شرع المنصور في ذلك جعـــل أمـــره مفوضـــا إلـــى الحفيد أبي بكر بن زهر وأنه الـــذي ينظـــر فيـــه، وأراد الخليفـــة أنـــه إن كـــان عند ابن زهر شيئ من كتب المنطق والحكمة لـــم يظهـــر، ولا يقـــال عنـــه أنـــه يشتغل بها ولا يناله مكروه بسببها، امتثل ابن زهر أمـــر المنصـــور فـــي جمـــع الكتب من عند الكتبيين وغيرهم، وألا يبقي شيئا منها " [2] .

وكانـــت تلـــك الحملـــة الســـلطانية بمباركـــة الفقهـــاء والعامـــة، يقـــول ابن طملوس: " وزيـــادة إلـــى هـــذا فأهـــل زماننـــا يُنفّـــرون عنهـــا (الفلســـفة) ويرمون العالم بها بالبـــدع والزندقـــة، وقـــد اشـــترك فـــي هـــذا الأمـــر مـــنهم دهماؤهم وعلماؤهم" [3] فحتى " العلمـــاء " انخرطـــوا فـــي هـــذه الحملـــة حمايـــة لرؤوسهـــم.

ولم يتردَّد الأمير الموحدي بالأندلس أبا العلاء إدريـــس فـــي قتـــل القاضـــي عبد الرحمان بن إسحاق المكولي تـــ632هـــــ/1234م بعـــد أن تبـــيَّن لـــه أنـــه

---

1 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:6، ص: 26.

2 – ابن أبـــي أصـــيبعة، المصـــدر الســـابق، ص: 523، و ابـــن إبـــراهيم، الإعـــلام، ج: 3 ،ص: 53، وإبراهيم حركات، **مدخل إلى تاريخ العلـــوم بـــالمغرب المســـلم حتـــى القـــرن 15/9** ، الطبعـــة 01، دار الرشاد الحديثة ،1421هـــ/ 2000م، ص: 391.

3 – ابن طملوس أبو الحجاج يوسف، المدخل لصناعة المنطق، ص: 8.

يتعاطـــى الفلسفة، وحوكـــم الفيلســـوف ابـــن خمـــيس واضـــطر الآبلـــي إلـــى الفـــرار[1] .

وكان لهذا المناخ المشـــوب بالمحاصـــرة تـــارة والقمـــع تـــارة أخـــرى تأثيره الكبير على مسيرة الفلسفة في الأنـــدلس، حتـــى أن ابـــن طملـــوس تلميـــذ ابن رشد سوف يتغافـــل عـــن ذكـــر أســـتاذه فـــي كتابـــه "المـــدخل لصـــناعة المنطق" الذي يحـــوي معطيات هامة بخصوص مـــا ســـاد مـــن تنكـــر للعقـــل والعلوم المتصلة به وخاصة المنطق، يقول :" لم يبق علـــم لـــم يتداولـــه علمـــاء الإسلام حتى تكثـــر التآليف فيه، والمناظرة بينهم بســـببه فـــي المجـــالس حتـــى يتهذب ويخلص ويبلغ مـــن الغرابـــة إلـــى حيـــث بلغـــت ســـائر العلـــوم التـــي تداولوها إلاّ صناعة المنطق، فـــإني رأيتهـــا مرفوضـــة عنـــدهم (الأندلســـيين)، مطروحة لديهم، لا يحفل بها ولا يلتفت إليها"[2].

ويذكر ابن طملوس أنه بحث فـــي علـــم مـــن العلـــوم يؤلـــف فيـــه فيضيف جديدا فلم يجد إلا المنطـــق، فكـــل العلـــوم صـُـنّف فيهـــا الكثيـــر أمـــا المنطق فهناك جهل مطبق بـــه، ولنـــا أن نســـأل عـــن ســـر ذلـــك والحـــال أن ابن رشد كان قد أتى على المنطـــق الأرســـطي تلخيصـــا وشـــرحا قبـــل ذلـــك بسنوات، فأين ذهبت مؤلفاته؟ لولا أنَّه تعمَّـــد تجاهل كتـــب شـــيخه ابـــن رشـــد خوفاً من بطش السلطـــة وانتقاد الفقهاء وتذمـــُّـــر العامة.

وكان مما خوطب به المنصـــور في ذلك قول بعض العلماء الشعـــراء[3]:

خليفتنـــا جزاك الله خيـــــرا * عن الإسلام والسعـــي الكريـــــم

فحق جهاده جـــاهدت فيـــــه * إلى أن فـــزت بالفتـــح العظـــيم

---

1 – الحميري، الروض المعطـــار، ص: 544، وابـــن ابـــراهيم، المصـــدر السابـــق، ج: 8 ،ص: 83، وأنظر أيضـــًا: عبد السلام بن ميس، المنطق في الفكر الوســـيط، **مجلـــة التـــاريخ العربـــي**، ربيـــع الأول 1417هـ/ 1997م، العدد: 02، ص: 31.

2 – ابن طملوس، المصدر الســـابق ص:8.

3 – أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج:6، ص: 47 .

وصيرت الأنام بحسن هــدي * على نهج الصــراط المستقيـــم

فجاهد في أنــاس قد أضلــوا * طريق الشــرع بالعلــم القديــم

وحرق كتبهــم شرقا وغــربا * ففيهــــا كامنا شــر العلـــوم

يدب إلى العقائــد من أذاهــا * سموم والعــقائد كــالجســـوم

وفــي أمثــالهــا إذ لا دواء * يكون السيــف تــرياق الســوم

وقال أيضاً في ذمِّ الفلســفــة:

يا وحشـــة الإسلام من فرقة * شاغلة أنفسها بالسفـــه

قــد نبذت دين الهدى خلفها * وادعت الحكمة والفلسفه

وقال يضاً في نفس المصــدر:

قد ظهرت في عصرنا فرقة * ظهورها شؤم على العصـــر

لا تقتدي في الدين إلا بــما * سنَّ ابن سينا أو أبو نـــصر

ووردت قصائد أخــرى في المعنــى نفسه، نــورد منها قولهــم :

نفذ القضاء بأخذ كل ممــوه * متفلسف في دينه مــتزنــدق

بالمنطق اشتغلوا فقيل حقيقة * إن البلاء موكل بالمنطـــق[1].

ومنهــــا قولـــهم أيــضاً:

خليفــة اللـــه أنـــت حــقا * فارق من السعد خير مــرقى

تفلسفوا و ادعــوا عــلوما * صاحبها فـــي المعاد يشـــقى

واحتقروا الشرع وازدروه * ســفــاهــة مــنهــا وحمــقا

أوسعتهــم لعنــة وخــزيا * وقــلت لهــم بـُعدا وسحـــقا[2]

---

1 – نسبها الذهبي لأبي الحسن محمد بن أحمــد بــن جبيــر الكنانــب البلنســي تـــ 614هـــ/1217م، أنظر: تاريخ الإسلام، ج:44، ص: 213، وأنظــر أيضــا: فــرح أنطــون، ابــن رشــد و فلســفته، ص: 21.

2 – فرح أنطون، ابن رشد وفلسفته، ص: 21 .

ومنهــا كــذلك :

خليفة الله دم للدين تحرســـه * مـــن العدى تقيه مـــن شـــر فئـــة

فالله يجعل عدلا من خلائفه * مطهـــرا دينه في رأس كل مئـــة[1].

ومنهــا أيضاً قول أحــدهم مــُــخاطبا الخليفة يعقــوب المنصــور :

بلغت أمير المؤمنين مدى المنى * لأنــك قد بلـــغتنـــا ما نؤمـــل

تداركت دين الله في أخذ فرقة * بمنطقـــم كان البـــلاء مـــــوكل

وأوعزت في الأقار بالبث نهم * وعن كتبهم والسعي فـــي ذاك أجمل

وقد كان للسيف اشتياقٌ لهـــم * ولن مقام الخزي للنفـــس أقـــتـــل[2].

ومن تلك القصائد ما ظهر منها تهجـــمٌ على ابـــن رشد بعينـــه:

ألا قد أيقـــن ابن رشد * أن تـــوالفـــه تـــوالـــف

يا ظالما نفسه تأمـــل * هل تجد اليوم من توالف[3].

ومن ذلك أيـــضاً :

لم تلزم الرشد يا ابن رشد * لما علا في الزمان جـــدك

وكنت في الدين ذا ريـــاء * ما هكذا كان فـــيه جـــدك[4].

ومنهــا في ذمِّ ابن رشـــد قـــولهم :

الحمـــد لله علـــى نصـــره * لفرقـــة الحق و أشياعـــه

كان ابن رشد في مدى غيه * قد وضع الدين بأوضاعـــه

فالحـــمد لله علـــى أخـــذه * وأخذ من كان من اتباعـــه[1].

---

1 – نفسه.

2 – نفسه، ص: 22 .

3 – نفسه، ص: 21 .

4 – فرح أنطون، المرجـــع الســـابق، ص: 21.

ومن الزهاد الشعراء الـذين نقمـوا علـى غمـوض فلسـفة ابـن رشـد أبو بكر يحي بن محمد التطيلي الهذلي تـ629هـ/1232م الـذي قـال فـي كتاب تهافت التهافت لابن رشـد:

كلام ابن رشد لايبين رشـاده * هو الليل يغشى الناظرين سواده

ولاسيما نقض التهافـت إنـه * تضمـن برساما يعز اعتقـاده

كما لطرد المحموم في هذيانه * يفوه بما يملـي عليه احتـداده[2].

هـذه إذاً صور من نكبة يعقـوب المنصور الموحـدي للفسفة وأنصـارها بعـد أن حظيت بفتـرة انتعاش فـي خلافته أبيه وجـدِّه.

---

1 – نفســه.

2 – ابن الخطيب، الإحاطة، ج: 4 ص: 416 و417 .

المطلب الثانـــي: علــم الكـــلام والفلسفة نهاية العصـــر الموحـــدي

لم تستمـــرّ الأزمة التي ألمَّت بابن رشد، إذ يـُــــخبرنا ابـــن عبـــد الملـــك المراكشي أن الخليفة المنصـــور" عفـــى عنـــه واســـتدعاه مـــن الأنـــدلس إلـــى مـــراكش"[1] للإحسان إليه والعفو عنه فحضر إليهـــا، ولـــم يبـــق بهـــا طويـــــلا حتى توفـــي بها عام 595هــ/1198م[2]، بـــل إن المنصـــور بعـــد العفـــو علـــى ابن رشد "جنح إلـــى تعلُّـــم الفلسفـــــة"[3] مـــن جديـــد، واســـتدعى ابـــن جـــرح الذهبي وعيَّنه رئيســـاً للطلبـــة والأطبـــاء بمـــراكش العاصـــمة، وأغـــدق عليـــه العطاء وتتلمذ له في بعض فنون الفلسفة ووصله مـــرة صـــلة جزيلـــة بعـــد مـــا فهم مسألة فلسفية ألقاها عليـــه[4].

إلاَّ أنَّ انحراف يعقوب المنصـــور عـــن الفلســـفة وســـجنه لابـــن رشـــد، وقتـــل أبي العلاء المأمو للفيلسوف ابـــن حبيـــب القصـــري[5] أدى إلـــى خمـــول حركة الفلسفة واضطرابها، فتوارى كثيرٌ ممن كانوا يشتغلون بهـــا[6] .

ونجد أن الفلسفة عامـــة والفلســـفة الرشـــدية خاصـــة كانـــت علـــى وشـــك الانقراض والانهيـــار جـــراء هجمـــة المنصـــور الشرســـة، ويـُــــرجع أحـــد المستشرقين الفضل إلى اليهود في إنعاشها من جديد، يقـــول فـــي هـــذا الشـــأن: "أننا ندين بذلك إلى الفلاسفة اليهود فقـــد كانـــت المخطوطـــات العربيـــة نـــادرة

---

1 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:6، ص: 31.

2 – ابن عذاري، المصدر السابق، ص:202. وذُكر أن جماعة مـــن وجهـــاء إشـــبيلية توجَّـــهـــوا إلـــى المنصور للتوسط في سبيل الإفراج عنه. عبد الله علي علام، المرجع السابق، ص:360.

3 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 306 .

4 – ابن سعيد، المغرب فـــي حلـــى المغـــرب، ج: 2 ،ص: 260، وابـــن الأبـــار، التكملـــة ، ج: 1، ص: 95، ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج: 3، ص: 132، وأبو الحســـن علـــى بـــن موســـى بـــن ســـعيد المغربي الأندلسي، **الغصون اليانعة في محاسن شـــعراء المائـــة الســـابعة**، تحقيـــق: إبـــراهيم الأبيـــاري، دار المعارف، مصر، د.ت.ط، ص: 36.

5 – ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج:1، ص: 296.

6 – حسن علي حسن، المرجع السابق، ص: 507 و508 .

جدا، إذ أن تكالب الموحدين على محاربة الفلسفة وأهلهـا كـان مـن شـأنه أن يحُـولَ دون تكاثر هذه المخطوطـات وانتشـارها، مقابـل ذلـك قـام العلمـاء الحاخامون في إسـبانيا المسـيحية وفـي بروفينسـيا بجمـع هـذه المخوطـات فنـقلوها إلى العبرية، بل إنهـم ذهبـوا إلـى نقـل الـنص العربـي بحـروف عبرية"[1].

بينما ظلَّ المنهج العام المغربي يُعـارض هـذا اللـون مـن الفكـر، ولم تذكر المصـادر أن أحـداً مـن أمـراء الموحـدين بعـد المنصـور اهـتمَ بالفلسفة وشجَّـع عليها[2] ما عدا الـذي كـان مـن أمـر الناصـر(595هـ- 610 هــ/ 1198م-1213م) الـذي قـرَّب إليـه الفلاسـفة وأحسـن إلـيهم وعطف عليهم[3]، ولم يظهر فلاسفة في وزن ابـن رشـد أو قريبـا منـه، إلا إذا استثنينا ابن عربي محيي الدين الـذي كـان أميـل إلـى التصـوف الإغراقـي منها إلى الفلسفة العقليـة[4].

فقد عُرف عن المأمون بن المنصور الموحـدي العـداء للفلسـفة معتبـراً إياهم أهل أهـواء، جـاء فـي إحـدى رسـائله : " كُتـب الفلسـفة لعـن الله واضعها فإنهـم بنوها على الكفر والتعطيل، وأخلوهـا مـن البرهـان والـدّليل وعدلوا بها ضلالا وإضلالا عـن سـواء السـبيل، وجعلوهـا تكـأة لعقائـدهم ومقاصدهم المخيّلة ركونا إلى الباطـل وتمسّـكا بالمسـتحيل" [5]، مقتـديا بوالـده الذي عجز عن إبادة المهدوية، لكنه فعـل فعلـه فـي الفلسـفة إذ يقـول نـص الخطاب: " وقد كان سيدنا الإمام المنصـور رضـي الله عنـه قـد جـدّ فيهـا

1 – هنري كوربان، **تاريخ الفلسفة الإسلامية**، ترجمة : نصـيرة مـروة وحسـن قبيسـي، الطبعـة 02، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، 1198م، ص: 363 .

2 – داود سلامة عبيدات، الموحدون في الأندلس، ص: 268 .

3 – الغبريني، عنوان الدراية، ص: 211 .

4 – بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص: 386.

5 – القلقشندي، صبح الأعشى، ج:13، ص:11 .

بالتحريق والتّمزيق، وسدّ بإمضاء عزمه المسدّد ورأيـه المؤيّـد وجـوه طلاّبهـا بكل طريق، فحسبنا أن نقتدي في ذلـك بـأثره الجميـل، ونأخـذ فـي إحراقهـا حيث وجدت وإهانـة كاتبيهـا وطالبيهـا وقاريهـا ومقريهـا، ولا يعـدل عـن السيف في عقاب من انتحلها واستوهبها- وإن السيف في حقّه لقليل" [1].

وهذا الموقف من الفلسـفة انتقـل إلـى ميـدان التطبيـق حيـث يـذكر ابن سعيد المغربي أن الفيلسوف ابن حبيب القصري الـذي " بـرع فـي العلـم القديم ... فلاحظتـه الأعـين وخاضـت فيـه الألسـن ... صـادف اشـتهاره إظهار مأمون بني عبد المؤمن طلب الزنادقـة وتطهيـر الأرض مـنهم، فكـان فيمن ضرب عنقه وصلبه"[2]، ويُفيد الـنص أن الفيلسـوف فـردٌ مـن مجموعـة أخرى ضُربت أعناقهم، وأكّد المقـري في النفح أنَّ سـبب قتلـه هـو اشـتهاره بالفلسفة[3]، وحتى كاتـب المـأمون أبـي زيـد الفـازازي الـذي كـان كاتبـه الشخصي منذ أن كان واليـا علـى مالقـة كـان هـذا الكاتـب كمـا تـذكره المصادر: " مُصمما في دينه يبغض أهـل العلـوم القديمـة "[4] .

وفي الأندلس كان والي الموحدين بها أبو العـلاء إدريـس بـن المنصـور قد قام بتـنظيم حملة ضـد " الزنادقـة " قتـل فيهـا الفيلسـوف ابـن حبيـب القصري[5]، وقتل في نفس الحملة فيمـا يبـدو قاضـي إشـبيلية عبـد الرحمـان بن محمد إسحاق المكولي تـــ 632هـــ/1234م الـذي كـان عالمـا واسـع

---

1 – نفسه.

2 – ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج:1، ص: 296.

3 – المقري، نفح الطيب، ج:3، ص: 186.

4 – أحمد عزاوي، الغرب الإسلامي مـن الوحـدة إلـى الإنقسـام، **مجلـة الآداب و العلـوم الإنسـانية**، العدد:08، عام 2008م، ص: 36 نقلا عـن مخطـوط: فقهـاء مالقـة وأدباؤهـا لابـن عسـاكر ، ص: 132.

5 – ابن سعيد المغربي، المغرب فـي حلـى المغـرب، ج:1، ص:296 ، والمقـري، نفـح الطيـب، ج: 2، ص: 102 .

الإطلاع ملمــا بالفلســفة، وكــان الأميــر إدريــس بــن المنصـــــور يجالســه ويباحثه في بعض الأمور الفلسفية فاطلع عنده على مــا لــم يــرتح إليــه فقــرر قتله، وعندما قُــدِّمَ للقتل قال : " لا أقــال الله عثــرة مــن يباحــث مــن يقــدر على ضره فكيف من يقدر على قتله"[1] .

وبهذا نلاحظ ارتباط علم الكلام والفلســفة بموقــف الخلفــاء منهــا، أي بمدى تقديرهم لها أو محاربتهم لهــا، وقد ظــلَّ الإقبــال علــى الفلســفة ضــيق المجال وذلك نظراً للعقلية التي كانت تســود الثقافــة المغربيــة التــي تعــارض مثل هذا الفكــر.

ويـُــمكن القــول أن اعتنــاء الموحــدين بعلــم الكــلام والفلســفة كــان مُضطرباً في أيامهم بالرغم مما كــان يتَّســمُ بــه بلاطهــم مــن رعايــة العلــم والعلماء[2]، فإن شجَّــع عبد المؤمن الفلســفة وابنــه يوســف مــن بعــده، فــإنَّ المنصور كان مضطربا في شأنها، بينمــا كــان ابنــه المــأمون مناهضــا لهــا على طــول الخط.

وربما عاد الوضع إلى ما كان عليه مــن قبــل حــين " كانــت العامــة في المغرب والأندلس كلما قيــل فــلان يشــتغل بالفلســفة أطلقــت عليــه اســم زنديق فإن زل في شبهة رموه بالحجارة أو حرقوه" [3].

وصار اهتمام عامة النــاس مــن الموحــدين بــالعلوم الأخــرى كعلــم الفلك والعلوم الرياضية ولم يولُوا اهتمامهم الكــافي للفلســفة، ويظهــر موقــف العامة من الفلسفة موقف سلبي وعــدائي منهــا بشــكل عــام، وهــي مواقــف التشكيك والتكفيــر، إذّ كانت هناك فئة عريضة تــرفض الخــوض فــي العلــوم الفلسفية والكلامية جملة وتفصيلا.

---

1 – الحميري، الروض المعطار، ص: 544. وابن ابراهيم، المصدر السابــق، ج: 8، ص: 83 .

2 – عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين، ج:2، ص: 229.

3 – المقري، نفح الطيب، ج01، ص: 201 .

ومما يـُـجلي بوضـوح موقـف العامـة التـي جـدَّدت عـداءها للفلسفة بتوجيهٍ من الفقهاء وتخلٍّ من السلطة مـا رواه ابـن رشـد عـن نفسـه حين قال: " أعظم ما طرأ عليَّ في النكبـة أنِّـي دخلـت أنـا وولـدي عبـد الله مسجداً بقرطبة، وقد حانت صلاة العصـر، فثـار علينـا بعـض سـفلة العلـم وأخرجوه منه"[1].

ونبَّهنا عبد المجيد النجار إلى أن المنهج العقلي الـذي انتهجـه ابـن تـومرت وخلفاؤه من بعده أدى إلى التفتح علـى الفلسـفة والعلـوم الكلاميـة والعقليـة، لكن الجو العام السائد في المغـرب –الـذي يمثلـه الفقهـاء والعامـة– والـذي عُرف عنه المعاداة لهذا النوع من العلوم جعل ثمـار هـذا التفـتح تظهـر فـي شكل فردي كابن طفيل وابن رشـد[2] .

ولعل عامة المغاربة في نهاية العصـر الموحـدي قـد أصـغت إلـى تهديدات الخليفة المنصور التي تضمنها منشـوره الرسـمي فـي شـأن الفلسـفة بعد نكبته لابن رشد، يقول المنشور مخاطباً عمـوم النـاس: " فاحـذروا وقَّقكـم الله هذه الشرذمة على الإيمان حذركم من السموم السـارية فـي الأبـدان"[3]، ثـم ينتقل المنشـور إلى لتهديد الصريـح :" ومـن عثـر لـه علـى كتـاب مـن كتبهم فجـزاؤه النار التي بها يعذب أربابه وإليها يكـون مـآل مؤلفـه وقارئـه ومآبـه"[4].

ويبدو أنَّ الإعراض عن العلـوم الكلاميـة والفلسـفية لـم يقتصـر علـى العامة، بل تجاوزهُ إلى النخبة العالمة، فنجد العلامة ابـن خلـدون بعـد سـقوط

1 – ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ج:6، ص: 26.

2 – عبد المجيد النجار، ابن تومرت، ص: 469 و 470.

3 – ابن عبـد الملـك المراكشـي، المصـدر السابـق، ج:6، ص: 28. وأحمـد العـزاوي، مجمـوع رسائل موحدية، الرسالة الثالثة والأربعون، ج: 1، ص: 207 .

4 – نفسـه.

النظام الموحدي يقف موقف الناقد لهذه العلوم، فيقول: " وذلك أنّ كتب أولئك المتقدّمين لمّا ترجمها الخلفاء من بني العبّاس من اللّسان اليونانيّ إلى اللّسان العربيّ تصفّحها كثير من أهل الملّة وأخذ من مذاهبهم من أضلّه الله من منتحلي العلوم وجادلوا عنها واختلفوا في مسائل من تفاريعها ... واعلم أنّ هذا الرّأي الّذي ذهبوا إليه باطل بجميع وجوهه"[1].

ومع أننا نعثر في كتب التراجم على إشارات كثيرة إلى أن ظهور علماء في العصر الموحدي وما بعده كان لهم اشتغال بالعلوم الكلامية والفلسفية، ولكن لا نجد بعد ابن رشد من بلغ فيها ما بلغه ابن رشد في التقدم فيها[2] .

ولدينا نص لأبي حيان الأندلسي ت745هـ/1344م يصوِّر لنا ما أحدثته نكبة المنصور من انقلابٍ ضيَّع على الفلسفة كثيراً من مكاسبها في الغرب الإسلامي، إذ يقول: " وقد غلب في هذا الزمان وقبله بقليل الاشتغال بجهالات الفلاسفة على أكثر الناس، ويسمونها الحكمة، ويستجهلون من عري عنها، ويعتقدون أنهم الكلمة[3] من الناس، ويعكفون على دراستها، ولا تكاد تلقى أحدا منهم يحفظ قرآنا ولا حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ... "[4] .

---

1 – ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص: 709.

2 – أنظر مثلا : الغبريني ، عنوان الدراية، في ترجمة أبي العباس أحمد بن خالد، وأبي الحسن الحرالي، والأصيلي، وأبو العباس بن شعبان، ص: 100 و145 و184 و187.

3 – وردت بهذا الشكل و لعله يقصد : الكملة من الناس .

4 – أبو حيان الأندلسي، **البحر المحيط في التفسير**، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1420هـ/ 1999م، ج:6، ص: 46 .

وعــادت الفلســفة إلــى عصــر التخفّــي والانــزواء، وأصــبحت تـُـدرّس خـُفيةً[1] وكتبها تـُـتداول سـرًا كمــا يـُــفهم مــن نــص آخــر لأبي حيان الأندلسي الذي زار مصر نهاية خــلال القــرن 8هـــ/ 14م وأبــدى تعجُّبه من دراسة الفلسفة وتداول كتبها علانيــة إذ يقــول: "ولمــا حللــت بــديار مصر ورأيت كثيرا من أهلها يشتغلون بجهــالات الفلاســفة ظــاهرا مــن غيــر أن ينكر ذلك أحد تعجبت من ذلك، إذ كنا نشــأنا فــي جزيــرة الأنــدلس علــى التبرؤ من ذلك والإنكار لــه، وأنه إذا بيــع كتــاب فــي المنطــق إنمــا يبــاع خفية، وأنه لا يتجاسر أن ينطق بلفظ المنطــق، إنمــا يســمونه المفعــل، حتــى أن صاحبنا وزير الملك ابن الأحمر أبــا عبــد الله محمــد بــن عبــد الــرحمن المعروف بابن الحكيــم كتب إلينا كتابــا مــن الأنــدلس يســألني أن أشتــــري أو أستنسخ كتابا لبعض شيوخنا في المنطق، فلــم يتجاســر أن ينطــق بــالمنطق وهو وزير، فسماه في كتابه لي بالمفعــل "[2].

ومرَّ بنا أنَّ يــوسف ابــن طملــوس الحــاج تـــ620هـــ/620م مــن أهل جزيرة شقر كــان من أشهــر تلامذة ابن رشــد، وعلــى الــرغم مــن أنَّ من ترجموا له يقولون بتتلمذه علــى ابــن رشــد إلاّ أن ابــن طملــوس نفســه التزم الصمت في كــتبه حيال شيخـــه، ولــيس إلــى الشــك ســبيل فــي أن دافعه إلى ذلك كان الرغبة في النجاة بنفسه ممــا كــان مــن الممكــن أن يثيــره الفقهاء حوله من شكــوك[1].

ويجب القول أنه إذا كانت الفلسفة قد ازدهرت فــي العصــر الموحــدي بــين جدران القصور وفي رحاب البلاطات السلطانية فإنها لــم تكــن متقبَّـــلة مـــن طرف الجمهــور والعامة.

---

1 – محمد بن أحمد بن شقرون، **مظــاهر الثقافــة المغربيـــة**، دار الثقافــة، الــدار البيضــاء، المغــرب، 1406هـ/ 1985م، ص: 212 و213 و214.

2 – أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج:6، ص: 47 .

وهو ما نفهمه من كلام الرحالة العبدري فـــي إرزائـــه علـــى أهـــل مصـــر لتعاطيهم المنطق : " ومـــن الأمـــر المنكـــر علـــيهم والمنكـــر المـــألوف لـــديهم تدارسهم لعلم الفضول وتشاغلهم بـــالمعقول عـــن المنقـــول فـــي إكبـــابهم علـــى علم المنطق ... فليت شعـــري هـــل قـــرأه الشـــافعي ومالـــك، أو هـــو أضـــاء لأبي حنيفة الحوالك ... والذي دعا بعض الفضـــلاء إلـــى مطالعتـــه هـــو اتقـــاء شره و الحـــذر من غلوائه ومكره"[1].

في نهاية العصر الموحدي لاحظنـــا علـــى المســـتوى الرســـمي العفـــو عن ابن رشد والفلســـفة، وإهمـــال الخلفـــاء لشـــأنها بعـــد المنصـــور، وعلـــى المستوى الفقهـــاء دافـــع تلامذة وأنصار ابن رشد عنـــه فـــي مواجهـــة الفقهـــاء المـــُحذرين من الفلســـفة عامـــة والرشـــدية خاصـــة، وعلـــى مســـتوى العامـــة سجلنا تجدُّد العداء العام لعلـــوم الكـــلام والفلسفة نهاية العصر الموحدي.

1 – بالنثيا ، المرجع السابـــق، ص : 362 .

في نهاية دراستنا للأوضاع العقيدية في الغرب الإسلامية خلال العصر الموحدي، نجد الحركة المذهبية سارت وفق ميولات السلطة الموحدية واختياراتها وإملاءاتها، خِلافاً لما كان عليه الوضع في العصر المرابطي الذي كانت الحركة المذهبية فيه تسير بأعين الفقهاء وتوجيهاتهم، فقد دفع التكوين العلمي للخلفاء الموحدين وحماسهم الديني الشديد إلى استخدام سلطانهم وصلاحياتهم من أجل توجيه الحياة المذهبية في الغرب الإسلامي، وهذا ما نلمسه في تجاوزهم لأصول مذهب أهل الحديث الذي ألِفَهُ المغاربة خلال العصر المرابطي.

وبناءً على ذلك رُسِّمت المهدوية بداية العصر الموحدي، وترسَّخ الاعتقاد في العصمة والإمامة، وتعزَّزت بعض أفكار الخوارج المتطرفة، كما عملت السلطة الموحدية على إقرار المذهب الأشعري وترسيمه، ودعمه سياسيًا وعلميًا.

وخلافا لما كان عليه العصر المرابطي من نبذ الفلسفة والكلام عملت السلطة الموحدية على النهوض بالعلوم الكلامية والفلسفة وتهيئة ظروف نمائها وتطورها، إلاَّ أنَّ المسعى الموحدي لم يكُن له النَفَسْ الطويل في إنجاح ذلك، فَخَفَتَ تأييد السلطة لهذا النوع من العلوم العقلية التي لم تجد لها مُصاغاً عند المغاربة.

1 – العبدري، الرحلة، ص: 130 .

وكخلاصة للوضـع العقيدي فـي الغـرب الإسـلامي خـلال العصـر الموحـدي يـُـمكن القـول أن المـذهب التـومرتـي بتناقضـاته وغرائبـه وسلبياته وإيجابياتـه قد شكـَّل تحولاً عقيـدياً فـي الغـرب الإسـلامي خـلال العصر الموحدي على حسـاب مـذهب أهـل الحـديث السـلفي الـذي تراجـع بتراجع الدولة المرابطية، فانتعشـت فـي بدايـة العصـر الموحـدي نزعـات شيعيـة وباطنيـة وخـارجية وكلاميـة وأشعريـة فـي شـكل عقيـدة واحـدة، كانت تحمـل بذور فنائها، فلفظها الخلفـاء ونبـذها الفقهـاء وتخلَّـت عنها العامة بمرور الـزمن، فلـم تترسَّـخ فـي نهايـة العصـر الموحـدي إلاَّ العقيدة الأشعريـة التي أصبحت مذهباً رسمياً فـي الدولـة الموحديـة والـدول التي أعقبتها، ولم تقـُـم من حينـها لأهـل الحديـث دولـة فـي الغـرب الإسلامـي.

الباب الثاني:

التحولات الفقهية في الغرب الإسلامي وموقف السلطة والفقهاء منها (6هـ – 8 هـ / 12م – 14م).

- **الفصل الأول : تذبذب مكانة المذهب المالكي في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي (6هـ – 8 هـ / 12م – 14م)**
- **المبحث الأول** : مواقف السلطة الموحدية من المذهب المالكي في الغرب الإسلامي.
- المطلب الأول: مظاهر تعايش السلطة الموحدية مع المذهب المالكي.
- المطلب الثاني: مظاهر اضطهاد السلطة الموحدية للمذهب المالكي.
- **المبحث الثاني** : المذهب المالكي في الغرب الإسلامي نهاية العصر الموحدي.
- المطلب الأول: مظاهر انتصار واستمرارية المذهب المالكي.
- المطلب الثاني: أسباب انتصار واستمرارية المذهب المالكي .

الفصـــل الأول :

تذبذب مكانة المذهب المالكي في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحـــدي (6هـــ - 8هـ / 12م - 14م) .

شهدنا من خلال الباب الأول تحولاً ملموساً في الحياة العقيدية في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي، وسنحاول في الباب الثاني من هذه الدراسة تلمُّس الحياة الفقهية (الفروع) لرصد الثوابت والتحولات مُبرزين مواقف السلطة والفقهاء منها.

المبحث الأول: مواقف السلطة الموحدية من المذهب المالكي في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي .

لا شك أن ابن تومرت وخلفاؤه من بعده كانوا يُدركون تمام الإدراك تعلُّق المغاربة بالمذهب المالكي الذي ترسَّخ بين العامة، واحتضنه الأمراء، وتشبث به الفقهاء، وازداد تعلُّقهم به في شكله الفروعي زمن المرابطين، وهو خلاف المنهج التومرتي الكلامي المتحرِّر، فكيف إذاً تعايش الموحدون مع الثقل الفقهي المالكي الذي ورثوه عن الدولة المرابطية؟ .

المطلب الأول : مظاهر تعايش الموحدين مع المذهب المالكي.

سنحاول إبراز مظاهر تعايش الموحدين مع المذهب المالكي، لقياس مدى الولاء والعداء الموحدي للمذهب من خلال عرض ونقد النصوص والآراء التي تجنح إلى إثبات مالكية الموحدين.

إن المعاناة التي وجدناها – كما وجدها غيرنا – في تحليل شخصية ابن تومرت عقدياً سنصدم بها ثانية في تتبع شخصيته الفقهية، فقد قطع بعض الباحثين بمالكية ابن تومرت الذي" نشأ مالكيا وعاش مالكيا

ومات مالكيا"[1]، في الوقت نفسه سلَّم آخرون بعداء ابن تومرت للمذهب المالكي بل بظاهريته التي ترفض كل أشكال المذهبية والتقليد[2].

وبتتبع كتابات ابن تومرت نجده قد انتصر للمذهب المالكي في معرض حديثه عن العلم بالتواتر وحجِّية عمل أهل المدينة، وأورد مناظرة الإمام مالك تـ197هـ/812م مع أبي يوسف أحد أصحاب أبي حنيفة وما تخللها من ظهور حجة الإمام مالك في مسألة مقدار المُد في الزكاة[3] .

كما أسهم ابن تومرت في اختصار موطأ الإمام مالك وذلك بحذف الأسانيد وعرضها في شكلٍ مبسط يُناسب عامة المغاربة، عُرف بموطأ الإمام المهدي (أو محاذي الموطأ في إحدى نسخهِ المخطوطةِ بفاس)، وهو عبارة عن موطأ الإمام مالك برواية أبي زكريا يحي بن عبد الله بن بكير المخزومي تـ231هـ/ 845م، وكل ما قام به ابن تومرت هو أن اختصر فيه السند واكتفى بالراوي الأول لنصِّ الحديث[4] بعد حذف الأسانيد التي لا تُفيد إلا المختصين[5] .

ورغم ما ذهب إليه بعض الباحثين من عداء ابن تومرت للقياس[6] الذي يُعتبر رابع أصول المالكية في التشريع[7] فإننا نجد في كلام ابن تومرت

---

1 – عبد الله علي علام، الدعوة الموحدية، ص: 304 – 305 – 306 .

2 – محمد المنوني، حضارة الموحدين، ص: 37 .

3 – ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص: 76 .

4 – عبد المجيد النجار، ابن تومرت، ص : 154و155. ومحمد المغراوي، تطور علاقة السلطة الموحدية بفقهاء المذهب المالكي، ص: 26 .

5 – محمد المغراوي، الصلحاء والسلطة، ص: 55 .

6 – توفيق الغلبزوري، المدرسة الظاهرية بالمغرب والأندلس، مرجع سابق، ص: 629 .

7 – أنظر مثلا : حسن بن عمر بن عبد الله السيناوني المالكي، **الأصل الجامع لإيضاح الدرر المنظومة في سلك جمع الجوامع**، الطبعة 01 ، مطبعة النهضة، تونس، 1928م، ج: 3، ص: 77.

ما يُفيد اعتماده للقياس وإقراره به مصدراً للتشريع وفق خمسة شروط للقياس حدَّدها ابن تومرت نفسه هي "الجامع، والتعدد، والتخصيص، والطرد، والتساوي"[1]، واعتبرها شروط ضرورية لقيام القياس، ولا يصح إلا بها "ومتى اختلَّ منها واحد لم يصح القياس" [2] .

وبناءً على ذلك يُمكن القول أن ابن تومرت لم يكن رافضا لمذهب الإمام مالك، ولا نتلمس في المشروع التومرتي أي نوع من الرفض للمذهب المالكي الأصلي المعتمد على الحديث النبوي وعمل أهل المدينة[3]، وإنما يُفهم من كلام ابن تومرت التهجم على الفروعيين منهم، فانتقد بشدة ما آل إليه الفقه خلال العصر المرابطي من تشعبٍ في الآراء العارية من أي دليل شرعي[4] .

كما فُسرت خصومة ابن تومرت مع المالكية بأنها خصومة سياسية[5] ناتجة عن موالاتهم لحكام المرابطين وتقلدهم المناصب السياسية والقضائية، إذ اعتبرهم علماء السلاطين ونَسبهم إلى الجهل والضلال و"التكالب على الدنيا ومجاراة الحكام وتسويغ أفعالهم مهما

---

1 – ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص: 158.

2 – نفســـه، ص: 160.

3 – محمد المغراوي، الموحدون والمذهب الظاهري، مقال ضمن كتاب: **الصراع المذهبي ببلاد المغرب**، تنسيق حافظ حكمي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس – أكدال، سلسلة مناظرات وندوات رقم: 157، ص: 196. ونجد من كلام ابن تومرت ما يوافق رأي الباحث، حيث يقول ابن تومرت : "فكل ما نقل عن أهل المدينة وكان عملهم عليه متتابعا فهو صحيح والدليل على ذلك أن الإسلام والشرائع والرسول والصحابة إنما كانوا في المدينة ... فلهذا صار عمل أهل المدينة حجة على غيرهم "، أعز ما يطلب، ص: 70 و71 .

4 – محمد المغراوي، تطور علاقة السلطة الموحدية بفقهاء المذهب المالكي إلى عهد يعقوب المنصور، ص:26.

5 – عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ص: 129. وعبد الحق الطاهري، البنية الفكرية، ص: 57.

خالفت الدين وتضليل الناس"[1]، فكلما " سألوهم عن شيء أفتوهم به على وفق أهوائهم وأغراضهم فضلوا وأضلوا "[2].

كما فُسر عداء ابن تومرت للمذهب المالكي بخصومته مع الفقهاء وليس مع المذهب المالكي نفسه لأنه كان" يسبح في خضم المالكية " على حد تعبير أحد الباحثين[3]، مُعجباً بالمذهب المالكي مفتتناً به، واستدرك بعض الباحثين عليهم ذلك بأن ابن تومرت كان يحمل فقهاً "مالكيا على الطريقة البغدادية"[4]، غير أنه كان يُكنُّ كُرهاً لعلماء المرابطين ويرميهم بالجهل والطغيان والتجسيم والكفر، ولذلك نجده هاجم سلفية الإمام مالك في التوحيد ولم يهاجمها علانية في الفقه[5].

ويُفسر أصحاب هذا الطرح رؤيتهم هذه بأن ابن تومرت جعل الصراع الموحدي المرابطي صراعاً مذهبياً بالدرجة الأولى وعليه يتأسَّس الصراع السياسي، إذ كان هدفه زعزعة البنية الفكرية المرتكزة على العقيدة السلفية والمذهب المالكي على الطريقة المغربية وتقديم بديل لذلك، وبما أنَّ الفقهاء هم حُماة المذهب المالكي، وبأيديهم زمام السلطة الدينيَّة التي تتحكم في توجهات السلطة السياسية، فقد اعتبرهم ابن تومرت في مقدمة خصومه، وتصوَّر أن مشروعه لا يتحقق إلا بالقضاء على فروعيتهم[6].

ولم يكن تهُّجم ابن تومرت على الفروع بِدعاً، بل سبقه إليه غيره في المشرق والمغرب، فنادى بها في المشرق أمثال أحمد بن حنبل

1 – ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص: 262 و263.

2 – نفسه، ص: 245 و246.

3 – عبد الغني أبو العزم، مقدمة تحقيق كتاب: أعز ما يطلب، ص: 29.

4 – عبد الحق الطاهري، ابن تومرت والمذهب المالكي، ص: 99 .

5 – عبد الله علام، المرجع السابق، ص: 304 وما بعدها.

6 – عبد الحق الطاهري، ابن تومرت والمذهب المالكي، ص: 99 .

ت241هـ/ 855م ويحي بن معين ت233هـ/847م الذين دعوا لإحياء الاجتهاد وصرف الناس عن التقليد الأعمى[1]، ومن مالكية الأندلس الذين سبقوا ابن تومرت في الإنكار على الفروعية بقي بن مخلد ت276هـ/889م[2]، ومحمد بن وضاح ت289هـ/901م[3]، والحافظ ابن عبد البر ت 410هـ/1019م[4]، كما أن تعدُّد الأقوال في المسألة الواحدة أثار حفيظة أبو بكر بن العربي ت543هـ/1148م مُعاصر ابن تومرت الذي عاب على فقهاء الأندلس إغراقهم في الاهتمام بالمسائل وجهلهم بالأدلة الشرعية ذلك أنه "حدثت حوادث لم يلقوها في منصوص المالكية، فنظروا فيها بغير علم فتاهوا وجعل الخلف منهم يتبع في ذلك السلف حتى آل الحال ألا ينظر إلى قول مالك وكبراء أصحابه، ويقال: قد قال في هذه المسألة أهل قرطبة، وأهل طلمنكة، وأهل طلبيرة، وأهل طليطلة، فانتقلوا من المدينة وفقهائها إلى طلبيرة وطريقها " [5].

وهذه الوضعية التي آل إليها المذهب المالكي وانتقدها ابن تومرت وغيره هي المرحلة التي يُسمِّيها الأستاذ الجيدي مرحلة التنقيح (ما بعد النصف الثاني من القرن5هـ/ 11م) " التي أصبح فيها المذهب يمتاز بكثرة الأقوال حتى في المسألة الواحدة بحيث يقرر فيها المشهور والراجح والضعيف، وتغيرت عقلية الفقهاء فانتقلت من الروح التأصيلية إلى روح

---

1 – حسين مؤنس، وثائق المرابطين والموحدين، ص: 219 .

2 – ابن يونس المصري، **تاريخ ابن يونس المصري**، الطبعة 01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 14421هـ، ج:2، ص: 46.

3 – ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج:1، ص: 108.

4 – ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج:2، ص: 207 .

5 – أبو بكر بن العربي، العواصم من القواصم، ج: 2 ص: 489 – 494 .

الجدل، وأصبح المتأخرون دائرين في فلك المتقدمين عاكفين على ما انتهى إليهم من أقاويل من تقدمهم وضعفت حاسة النقد لديهم " [1].

ومما يدعم رأي من نفى ظاهرية ابن تومرت وبالتالي نفى عدائه للمذهب المالكي أنه لم تحمل لنا المصادر – في جملة ما حملت لنا من تشنيعات فقهاء المالكية لابن تومرت ودعوته– لم تحمل لنا اتهامهم له بالظاهرية والعداء الفقهي للمذهب المالكي رغم ما شهده التاريخ الفقهي للغرب الإسلامي خلال القرن 5هـ/11م من صراعات ومناظرات بين فقهاء المذهبين[2]، ولو كان الأمر كذلك لما تردد فقهاء المرابطين في التشنيع عليه بذلك ولتسارعوا في اتهامه بالظاهرية[3] كما اتهموه بالخارجية[4] .

لاسيما ونحن نتلمس في كلام ابن تومرت – من خلال أعز ما يطلب– التهجم على فقهاء المالكية هجومًا أعمى تكفيري غير متزن، ومع ذلك لا نجده يتعرض للمذهب المالكي نفسه أو إمام المذهب مالك بن أنس، إلا أننا نجده هاجم سلفية الإمام مالك علنا دون أن يهاجمه علنا في الفروع[5] .

---

1 – الجيدي، مباحث في المذهب المالكي، ص: 48 .

2 – وأشهر من مثل المالكية في هذا الصراع الفقيه أبوبكر بن العربي الذي دخل في صراع طويل مع الفقيه الظاهري ابن حزم، الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج:3، ص: 228، وابن حجر، **لسان الميزان**، تحقيق: دائرة المعرف النظامية بالهند، الطبعة 02، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، 1390هـ /1971م، ج:4، ص: 201. وسمير قدوري، تحقيق بعض نصوص كتاب: التنبيه على شذوذ ابن حزم، للقاضي أبي الأصبغ بن سهل الجياني المالكي ت486هـ/1092م، **مجلة الذخائر**، العددان 15 و16، 1424هـ/2003م، ص: 102 – 106.

3 – عبد الحق الطاهري، ابن تومرت والمذهب المالكي، ص: 92 .

4 – عبد الحق الطاهري، بنية الحكم الموحدي ووسائله، ص: 51 و52 .

5 – الجيلالي سلطاني، الشعر الديني على عهد الموحدين، ص: 93 .

كما أن ظاهرية ابن تومرت تتراجع أمام مجموعة من المعطيات أبرزها ما خالف فيه ابن تومرت إمام الظاهرية ابن حزم في مسألة التأويل والأخذ بالأشعرية وهما مما حاربهما ابن حزم بشدة[1] .

ومن أبرز وجوه الخلاف بين ابن تومرت وإمام الظاهرية بالمغرب أيضا أنَّ ابن تومرت ادَّعى العصمة لنفسه بينما ابن حزم لا يرى بهذه العصمة حتى أنه في نَظَر ابن حزم " يقع من الأنبياء السهو من غير قصد الشيء يريدون به وجه الله تعالى والتقريب به منه فيوافق خلاف مراد الله تعالى إلا أنه لا يقرهم على ذلك"[2] .

وخلال فترة حكم خلفاء ابن تومرت حظي فقهاء المالكية بالحظوة والتكريم، والحرية في التصنيف والتدريس، بالإضافة إلى توليهم المناصب العليا في الدولة، متمثلين قول الإمام مالك في الدخول على السلاطين: "حقٌّ على كل مسلم أو رجل جعل الله في صدره شيئا من العلم والفقه أن يدخل إلى ذي سلطان يأمره بالخير وينهاه عن الشر ... لأن العالم إنما يدخل على السلطان لذلك"[3] .

وتسامح عبد المؤمن الذي عـُرف "بالشدة مع المدن الثائرة"[4] مع شيخ مالكية سبتة القاضي عياض السبتي في ثورته على الموحدين وولائه لبني غانية، بل يـُلاحظ تحفُّظ الموحدين عن الانتقام من بعض الشخصيات المالكية الكبرى التي تحالفت مع ابن غانية ضد الموحدين

---

1 – محمد المغراوي، الموحدون والمذهب الظاهري، ص :195 .

2 – ابن حزم، الملل والنحل، ج: 4، ص: 2 و3 .

3 – عياض، ترتيب المدارك، ج: 1، ص: 207 و208، وابن فرحون، الديباج، ص: 75 .

4 – يوسف أشباخ، المرجع السابق، ص:304 .

كالقاضي عياض وعبد الحق الإشبيلي[1]، وإلى جانب ذلك نجد الخليفة عبد المؤمن " وَقفَ الحفّاظ لحفظ كتاب الموطأ وكتاب أعز ما يطلب" [2] .

كما نسجل مهادنة فقهاء الحاضرتين المالكيتين إشبيلية وقرطبة للموحدين، واعتبر الباحث لخضر بولطيف ذلك " من دلالات التقارب المالكي الموحدي"[3]، بل تجاوز وزنهم الحظوة والوجاهة إلى الوجود والتأثير السياسيين جعلهم يبدون عند بعضهم كـ " دولة داخل دولة"[4] أو خليقين عند آخر بوصف " الديكتاتورية المالكية"[5].

ومن الفقهاء المالكية الذين كانت لهم الحظوة في البلاط الموحدي نذكر : أبو موسى بن عمران التلمساني تـ587هـ/1182م[6] كان ذا حظوة ومكانة[7]، وأشهرُ من حظي بالتقريب من فقهاء المالكية في عصر يوسف بن عبد المؤمن الفقيه أبا بكر بن الجد الإشبيلي تـ586هـ/1190م[8] الذي كان الخليفة " يُكرمه و يبرُّه ويعرف حقَّه ويؤثره على غيره"[9]، وبلغ الاحتفاء به إلى أن كان " ينزل له على فرسه

1 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 198. والذهبي، تاريخ الإسلام، ج:46، ص: 121.

2 – مجهول، الحلل الموشية، ص: 150 .

3 – لخضر بولطيف، المرجع السابق، ص: 211 .

4 – مؤنس حسين، **شيوخ العصر في الأندلس**، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1965 القاهرة، مصر، ص:5.

5 – العبادي أحمد مختار، **دراسات في تاريخ المغرب و الأندلس**، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، د.ت، ص:109 .

6 – أنظر ترجمته: يحي ابن خلدون، بغية الرواد، ج: 1 ،ص:101 و102. وابن عبد الملك، المصدر السابق، ص:254 – 256 .

7 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 205 .

8 – ترجمته في: ابن دحية، المطرب، ص: 190. وابن الأبار، التكملة، ج:2، ص: 542. وابن فرحون، الديباج، ص: 394 و395 .

9 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج: 6، ص: 325 .

إذا خرج للقائه"[1]، وظلّت العلاقة بين الفقيه المالكي والخليفة الموحدي إلى أن توفي هذا الأخير وخلفه ابنه يعقوب " فزادت حظوة الفقيه لديه وإحسانه إليه وإجلاله إياه "[2]، وكان عنده "مسموع القول مقبول الشفاعة "[3] .

وعلى غرار هؤلاء حظي الفقيه أبو العباس بن جرح البلنسي[4] الذي أستدعي إلى مراكش من قِبل المنصور فحظي عنده بمنزلة جليلة، ونال عنده وعند ابنه الناصر بعدهُ جاهاً عريضًا[5]، وكذلك معاصرهُ الفقيه أبو الحسن بن القطان الفاسي تـ 628هـ/1231م فإنه كان معظمًّا عند الخاصة والعامة من آل دولة عبد المؤمن[6] حتى اجتمعت له في بعض الأوقات ثلاثة عشر خطة كلها أو جلها جليل مفيد[7]، فقد كان أكبر دعاة الموحدين وأبرز رجال دولتهم الذين أسندت لهم الدولة أرفع مناصبها الدعائية، إذ وضع ابن القطان قلمه في خدمة الدولة الموحدية وألّف رسالة في "الإمامة الكبرى" ليضفي صبغة دعائية في الدفاع عن أحقية بني عبد المؤمن في الخلافة[8].

وتذكر المصادر نماذج لفقهاء مالكية ترسَّموا في خطة القضاء أيضًا، فقد ورد في إحدى الرسائل الموحدية تعيين قاضٍ مالكي بفاس سنة 579هـ/1183م[9]، كما ذكر المستشرق "هوبكنز" أن " ثلاثة على الأقل

---

1 – ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج:1، ص:343 .

2 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:6، ص: 325 .

3 – نفسه، ص: 326 .

4 – السيوطي، بغية الوعاة، ج:1 ، ص:334. وابن الأبار، التكملة، ص:117. وابن فرحون، الديباج، ص:120 و121 .

5 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:1، ص: 280.

6 – نفسه، ج:8، ص: 169 .

7 – نفسه، ج:8، ص: 175 .

8 – محمود علي مكي، مقدمة محق كتاب نظم الجمان، ص: 20.

9 – أحمد العزاوي، رسائل موحدية، ج:2، ص: 264 .

من الاثني عشر قاضيا من قضاة الجماعة في عهد الموحدين هم مالكيون: أحمد بن مضاء، وأحمد بن يزيد بن بقي بن مخلد، وعبد الحق بن عبد الله ..."[1] .

فقد ورث الموحدون عن أسلافهم المرابطين جهازا قضائيا مالكيا، فسعى الموحدون إلى إلزام القضاة في المغرب بالحكم بالنصوص الثابتة، ولا نجد ما يوحي بتغيُّر فقه القضاء المالكي غير الرواية التي انفرد بها ابن الأحمر بأن القضاة في عهد الموحدين "صاروا لا يحكمون إلا بمحض الظاهرية، وجروا على ذلك السنين بطول أيامهم"[2].

لكن المستشرق " هوبكنز" المتخصص في نُظم الدولة الموحدية وصل به البحث إلى الاعتقاد " أن الانتماء الصريح للمذهب المالكي لم يكن بالضرورة عقبةً تحُول دون نيل الحظوة لدى الموحدين[3] .

بينما حصر أحد الباحثين الاجتهادات القضائية التي وافقت الظاهرية –خلال العصر الموحدي– في مسألتين: الأولى تتعلق باجتهاد للمنصور منع بموجبه الشهادة على الخطوط، والثانية تتعلق بفتوى لقاضي الجماعة أبي القاسم بن بقي الذي كان ظاهري المذهب وكان لا يرى الحكم بالتدمية والعمل بها، ولم تكن هذه الإجتهادات بالقدر الذي يهدد المذهب المالكي في المجال القضائي بل ظلت محدودة في أحكام جزئية واجتهادات فرعية[4].

---

1 – هوبكنز، <u>**النظم الإسلامية في المغرب في العصور الوسطى**</u>، ترجمة: أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1980م، ص: 223 .

2 – ابن الأحمر، بيوتات فاس، ص: 19 . وابن إبراهيم، الإعلام بمن حل بمراكش، ج:8، ص: 396 .

3 – هوبكنز، المرجع السابق، ص: 51 .

4 – محمد مغراوي، السلطة والصلحاء، ص: 182 .

كما كان لفقهاء المالكية حضـور فـي وفـود الولايـات التـي كانـت تصل بلاط الخليفة لأغراض شتى، يمكن أن نستشـفها مـن خـلال مـا تـورده المصادر عن هذه الوفادات[1]، منهـا وفـد أندلسـي هـام انتقـل مـن الأنـدلس والتقى بعبد المؤمن سنة 546هـ/1151م يضـم "الخطبـاء والفقهـاء والقضـاة والأشياخ والقوّاد"[2] يترأسهم فقيه إشبيلية المالكي أبو بكـر بـن الجـد الإشـبيلي المالكي تـ586هـ/1190م وقاضي قرطبة المـالكي أبـو القاسـم بـن الحـاج تـ 737هـ/ 1336م [3]، فما كان مـن عبـد المـؤمن إلا أن " أكـرمهم وأنعـم على وجوههم" [4].

كما اضطلع فقهـاء المالكيـة علـى خطـة الكتابـة الديوانيـة لـدى خلفاء الدولة الموحدية ولا يخفى علينـا مـا لهـذا المنصـب مـن أهميـة فـي السياسية الموحدية التي اعتمدت الرسـائل وسـيلة دعائيـة لتـرويج مـذهبهم[5]، ومن أبرز الفقهاء المالكيـة الـذين أنيطـت بهـم هـذه المهمـة أبـي الفضـل بن محشرة البجائي تـ598هـ/1201م الذي كتب ليوسـف بـن عبـد المـؤمن ومن بعده ليعقوب المنصور ثم لابنه الناصر[6].

وأثبت الباحث لخضر بولطيف عدداً لابـأس بـه مـن فقهـاء المالكيـة انتظموا في طبقة طلبة الحضر[7] كأبي بكر بـن الجـد تـ 586هـ/ 1190م

---

1 – أحصى نماذج كثيرة منها الباحث لخضر بولطيف، المرجع السابق، ص: 192 – 195 .

2 – ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص:192.

3 – ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص:192. وابـن عـذارى، البيـان المغـرب، قسـم الموحـدين، ص: 44.

4 – ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص:192.

5 – أحصى نماذج كثيرة منها الباحث لخضر بولطيف، المرجع السابق، ص: 196 – 200 .

6 – الغبرينـي، عنـوان الدرايـة، ص: 84–85. وابـن عـذارى، المصـدر السـابق، ص:170. والمراكشي، المصدر السابق، ص: 204، وابن أبي زرع، المصدر السابق، ص:207 .

7 – لخضر بولطيف، المرجع السابق، ص: 205 – 210 .

وأبو موسى بن عمران التلمساني تـ578هـ/1182م[1]، وأبو عمر بن عات الشاطبي تـ 609هـ/1212م[2].

كما ظهر في العصر الموحدي للفقهاء المالكية أثـرٌ في الفتيا والحسبة، فكان الفقيه أبو جعفر بن جـُرج البلنسي المالكي "مرجوعا إليه في الفتوى"[3]، كما قـُدم عدد من المالكية للإمامة والخطابة، فأبو الحسن علي بن الحسين اللواتي تـ573هـ/1177م من أهل فاس " كان عالماً بالفرائض ... ممن تدور عليه الفتوى"[4]، وأسندت للفقيه أبي محمد يسكُر تـ598هـ/ 1202م إمامة جامع القرويين بفاس فأقام به إماماً نحو "أربعين سنة"[5] ويظهر في تراجم فقهاء المالكية رفضهم لتلك المناصب السالفة الذكر دون أن تفصل المصادر في سبب الرفض، لكن غالبها الورع والتعفف والإعراض عن أبواب السلاطين[6].

فقد اختلف الإمام سحنون تـ240/ 854م مع قرينه في الفقه المالكي ابن غانم قاضي إفريقية تـ190هـ/ 805م وهما من رواة مالك، فقال ابن فروخ: لا ينبغي لقاضٍ إذا ولاّهُ أمير غير عَدْلْ أن يليَ القضاء، وقال ابن غانم: يجوز أن يليَ وإن كان الأمير غير عَدْلْ، فكتب بها إلى مالك، فقال مالك: أصاب الفارسي (يعني ابن فروخ) واخطأ الذي يزعم أنه عربي (يعني ابن غانم)[7].

---

1 – ابن عذارى، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص: 132.

2 – ابن فرحون، الديباج، ص: 127.

3 – السيوطي، بغية الوعاة، ج:1، ص:334.

4 – ابن الزبير صلة الصلة، ص: 553. وابن حيان، جذوة الاقتباس، ص: 466. والتنبكتي، نيل الابتهاج، ص:200.

5 – ابن القاضي، جذوة الإقتباس، ص: 33.

6 – لخضر بولطيف، المرجع السابق، ص: 289 – 300 .

7 – الونشريسي، المعيار المعرب، ج:2، ص: 134.

ومن مظاهر تعايش الموحدين مع المــذهب المــالكي اســتمرارية المــذهب المالكي دراسة وسنــداً وتصنيــفاً بــوتيرةٍ تقتــرب مما كــان عليــه خــلال العصر المرابطي.

فقد ظلت مجموعة مــن الفقهــاء المالكيــة متماديــة فــي الإخــلاص لفقــه المذهب وأمهات كتبه، فهذا سليمان بــن عبــد الواحــد بــن عيســى الغرنــاطي تــ599هــ/ 1202م "عرض كتاب ابــن أبــي زيــد الكبيــر وكــان يحفظــه، وعرض المدونة على القاضي أبي محمــد بــن ســماك ... وألــف فــي الفقــه كتابا حسنا في تســعة أســفار وســماه بالمســائل المجموعــة علــى التهــذيب للبرادعي"[1].

ومن حفظة الأنــدلس فــي العصــر الموحــدي أبــو عبــد الله محمــد بن عبد الرحيم الأنصاري يُـعرف بابن الفــرس تـــ596هـــ/1199م " كــان في وقته أحد حفَّاظ الأندلس في المسائــل"[2].

أما شيــخ المالكية في وقته محمد بن سعيد بــن زرقــون تــــ586هـــ/ 1190م فقد كان يدرّس المــذهب المــالكي ويـُـــظهر التعصــب لــه، وكــان الناس يرحلون إليه للأخذ عنه والسماع منه لعلو روايته[3].

ومن حفَّاظ المذهب المالكي خلال العصر الموحــدي نــذكر أيضــاً عمــر بن أحمد بن عمر العمري تـــ628هـــ/1230م، فقــد "كــان حافظــاً أشــتهر باستظهار الموطأ والذكر لمسائل الرأي وســرد أقــوال الفقهــاء"[4].

---

1 - ابن فرحون، الديباج، ص: 123 .

2 - نفسه، ص: 289 - 287 .

3 - نفسه، ص: 285 - 286 .

4 - ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج: 5، ص:442 .

ومن القائمين على المدونة عبد الرحمان بن يوسف بن زانيف تـ612هـ/ 1215م، كانت تـُشدُّ إليه الرحال في مذهب مالك، وكان له حظ في علم الحديث وغيره و"كان يقوم على المدونة قياما حسنا "[1].

أما إسحاق بن إبراهيم المجابري السعيدي تـ606هـ/1209م فقد كان من حفاظ المذهب قائما على المدونة يستظهرها، وولي بآخر عمره قضاء بلنسية[2].

ويُتحفنا الغبريني بجملة من الفقهاء القائمين على أمهات الفقه المالكي كالمدونة والتهذيب والجلاب، منهم عبد العزيز بن عمر بن محمد بن مخلوف تـ686هـ/ 1287م كان يُدرس "كتاب الجلاب" لأبي القاسم عبيد الله بن الحسين الجلاب الفقيه المالكي البغدادي تـ378هـ/988م والموطأ، ورغب في التأليف فامتنع منه "ولو ألف لجزى على طريق القرويين"[3].

ومنهم أحمد بن عيسى بن عبد الرحمان الغماري تـ682هـ/ 1283م، كان يـُقرئ "الجلاب" و"التهذيب" أيضا "فيكثر البحث وتحتد القرائح ويجيئ بالمسألة الخلافية فيرتضي أحد وجهيها... ويقع التسليم" [4] .

أما أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن بن إبراهيم الحرالي التجيبي تـ638هـ/1240م كان إذا قرأ "التهذيب" يُبيِّنُ في كثير من مواضعه

---

1 – ابن القاضي، جذوة الإقتباس، ص: 396 .

2 – نفسه، ص: 105 .

3 – الغبريني، عنوان الدراية، ص: 63 و64 .

4 – التنبكتي، نيل الابتهاج، ص:63. والغبريني، المصدر السابق، ص: 94 .

أنه مخالف لأصل المدونة ومُغاير لها، "ويأمر بالأصل فيُقاس فيبيِّنُ المخالفة بينهما ويبين ما وقع لمالك وأصحابه"[1] .

وكان مدرساً للفقه فقيها جليلا فاضلا سنيا وقد توفي بعد امتحان المنصور له سنة 596هـ/1199م على إثر وشاية بلغت المنصور عنه حينما أمر بترك التقليد والعمل بالحديث[2] .

وممَّن حملوا رسالة تدريس الفقه المالكي خلال القرن7هـ/13م أبو الحسن علي المشهور بابن الزيات استوطن بجاية وأقرأ بها وانتفع الناس بعلمه ودينه، وكان يُقرأ عليه "التهذيب والتلقين والجلاب والرسالة ... وغيرهما من الأمهات"[3].

ومنهم أبو سعيد بن تورنات الدكالي أحد المحصلين لمذهب مالك، وكان من المدرسين ببجاية وحافظا للفقه، كان أكثر اشتغاله بالمدونة"[4]، ومثله أبو محمد عبد الكبير تـ617هـ/1220م كان يقرأ الموطأ والتلقين ومختصر ابن أبي زيد[5].

وفي نهاية القرن السابع نجد الاهتمام بالتهذيب أيضا، فهذا أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنجلاتي تـ690هـ/1290م كانت تُقرأ عليه الكتب المذهبية وكان يقوم عليها قياما حسنا وكان نظره في التهذيب نظرا جيدا[6]، وأبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر المنصور القلعي (المتوفى بين

1 – الغبريني، المصدر السابق، ص: 143 – 155 .

2 – المقري، نفح الطيب، ج:2، ص : 75 – 85 .

3 – نيل الابتهاج، ص:63، والغبريني، عنوان الدراية، ص: 197 و198 .

4 – الغبريني، المصدر السابق، ص: 257.

5 – الرعيني، البرنامج، ص: 38 – 40 .

6 – الغبريني، المصدر السابق، ص: 265.

سنتي 660- 670هـ / 1261 م – 1271م) " كان له مجلس يُقرأ عليه التهذيب "[1].

ومن المصنفات المالكية التي استمر أثرها الفقهي ولقيت قبولا في العصر الموحدي، كتاب "الموازية" لِمحمد بن إبراهيم بن زياد الإسكندراني المعروف بابن المواز ت281هـ/894م، قال عنه القاضي عياض"وله كتابه الكبير المشهور، وهو أجل كتاب ألفه قدماء المالكيين وأصحه مسائل وأبسطه كلاما وأوعبه"[2]، وقد اقتبس منه ابن رشد الحفيد في بداية المجتهد، وابن قطان في كتابه إحكام النظر وأكثر عنه[3].

أما أبو بكر الباقلاني المالكي ت403هـ/1012م المتكلم على طريقة أبي الحسن الأشعري الذي انتهت إليه رئاسة المالكية في عصره[4]، وذكر له القاضي في المدارك كتبا كثيرة حملها المغاربة والأندلسيون عن تلميذه الحافظ أبي ذر الهروي من مكة، وكان لها رواج في العهد الموحدي لأنهم اقتفوا طريقته في العقائد الأشعرية، وقد نقل ابن القطان في كتابه أحكام النظر نصوصاً عديدة عنه[5].

وفي عزِّ العصر الموحدي ظهر أحد أمهات الفقه المالكي بالمغرب وهو كتاب "المفيد للحكام فيما يُعرض لهم من نوازل الأحكام"، لأبي الوليد هشام بن عبد الله بن هشام الأزدي المالكي ت 606هـ / 1209م[6]، وهو

---

1 – نفسه، ص: 266 و267 .

2 – انظر : عياض، ترتيب المدارك، ج:4، ص: 167- 169.

3 – انظر: ابن القطان الفاسي، **النظر في أحكام النظر بحاسة البصر**، قراه وعلق عليه: فتحي أبو عيسى، الطبعة 01، دار الصحابة للتراث، طنطا، مصر، 1414هـ/ 1994م، ص:185، 313، 318، 316، 345 .

4 – عياض، ترتيب المدارك، ج: 04، ص: 429 .

5 – انظر: ابن القطان، إحكام النظر، ص: 128، 386، 402، 407.

6 – الزركلي، الأعلام، ج:8، ص:86.

كتاب في فروع المذهب المـالكي، وصـاحبه فقيـه متشـبث بمالكيتـه، وهـو الأمر الذي يدفع إلى الحديث بـتحفظ عـن مسـألة مصـادرة الموحـدين للفقـه المالكي[1]، وابن هشام القرطبي من الناحية السياسـية كـان مـع النظـام الجديـد الذي أقره الحكم الموحدي، أما من الناحية الفكريـة المذهبيـة فإنـه بقـي وفيـا للمذهب المالكي لا يحيد عنه[2] .

وحظي مُصنَّـفهُ هذا بشـهرة كبيـرة[3] فكـان مصـدرا مـن مصـادر التـأليف عنـد الفقهـاء المتقـدمين والمتـأخرين، مـن ذلـك مـثلا أن جعلـه ابن عاصم الغرناطي تـ829هـ/ 1425م أحـد المصـادر الأربعـة التـي اعتمدها في نظمه، فهـو يقـول في مقدمة التحفـة :

آثـرت فيـه الميل للتبييـن * وصنته جهدي من التضمين

وجئت في بعض من المسائل * بالخلف رعيا لاشتهار القائل

فضمنـه المفـيد والمقـرب * والمقصد المحمود والمنتخب[4].

وفي الفترة نفسها ظهر كتاب: الـذخيرة فـي الفقـه المـالكي لشـهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريـس بـن عبـد الرحمـان الصـنهاجي القرافـي المالكي تـ684هـ/1285م[5].

وبهـذا نـدرك أن كتـب الفقـه المـالكي المشـهورة مثـل المدونـة والتهذيب والواضحة والرسالة وغيرها لـم تختـف خـلال العصـر الموحـدي،

---

1 – عبد الخالق أحمدون، أبو الوليد هشام بن عبد الله بـن هشـام القرطبـي و كتابـه " المفيـد للحكـام"، ضمن مجموع: **التـراث المـالكي فـي الغـرب الإسـلامي**، سلسـلة منشـورات كليـة الآداب والعلـوم الإنسانية، جامع عين الشق، الدار البيضاء، المملكة المغربية، ص: 132 .

2 – عبد الخالق أحمدون، المرجع السابق، ص: 132 .

3 – محمد المغراوي، تطور علاقة السـلطة الموحديـة بفقهـاء المـذهب المـالكي إلـى عهـد يعقـوب المنصور، ص: 26 .

4 – عبد الخالق أحمدون، المرجع السابق، ص: 136 .

5 – كشف الظنون عن أسامي الكتـب والفنـون ج:1، ص: 825. والبغـدادي، هديـة العـارفين، ج:1، ص: 99. ورضا كحالة، معجم المؤلفين، ج:1، ص: 158 .

بل " ظهر اهتمام المغاربة بكتب مالكية مشرقية إلى جانب أمهات الكتب التقليدية التي وضعها القيروانيون والأندلسيون "[1].

كما ظهر خلال العصر الموحدي مصنفات في الرد على الظاهرية وابن حزم، كإطلاق الخليفة المنصور الحرية للفقيه المالكي أبي زكريا الزواوي تـ611هـ/1214م لما صنف كتابه في الحط على ابن حزم والظاهرية[2]، وعبد الحق بن عبد الله الأنصاري تـ631هـ/1233م الذي تقلّد منصب القضاء في مراكش وإشبيلية وألف كتابا في ذم الطريقة الحزمية[3].

بل نصادف خلال العصر الموحدي بعض الوقائع والممارسات التي تـُذكرنا بسطوة فقهاء المذهب المالكي في المغرب والأندلس، فهذا ابن القطان المحدث الشهير نسبه بعض الفقهاء إلى البدعة واتهموه بالقول باكتساب النبوءات[4]، أما الفقيه علي بن أحمد التجيبي فقد كان يشعر بالنقص لمّا اعتقد زملاؤه من الفقهاء أنه لا يحفظ مذهب مالك فأسرع إلى حفظ بعض الكتب في الموضوع[5].

وبناءً على مثل هذه المعطيات التي بين أيدينا وجدنا جملةً من الباحثين يستبعدون عداء الموحدين للمالكية، وينفون عنهم الميل إلى الظاهرية، بل يجعلونها تهمة روجتها بعض المصادر المعادية[6].

1 – أنظر: رضوان مبارك، المرجع السابق، ص: 205 .

2 – الغبريني، المصدر السابق، ص: 247 – 248 .

3 – ابن الأبار، التكملة، ج: 3، ص:125.

4 – رضوان مبارك، المرجع السابق، ص: 205 – 206 .

5 – الغبريني، المصدر السابق، ص: 143 – 155 .

6 – محمد مغراوي، خطة القضاء، ص:83 .

فقد أكّدت بعض الدراسات أن الوفاق بين الفقهاء والسلطة شكّل ظاهرة ميَّزت الحضارة الإسلامية في الغرب الإسلامي خلال هذه الفترة[1].

بينما يُرجع أحد الباحثين التقارب الموحدي المالكي إلى عوامل داخلية متمثلة أساسا في رغبة عبد المؤمن في توريث الحكم في عقبه باستمالة الفقهاء إلى صفه لضمان تأييدهم له، وعوامل أخرى خارجية متمثلة أساسا في العداء الصليبي[2]، بالإضافة إلى عامل آخر هو أن الموحدين لم يُقدِّموا نظاماً تشريعياً متكاملاً كبديل عن المذهب المالكي[3] .

---

1 – سليمان ولد خسال، **جهود علماء المغرب العربي في بناء النظام السياسي الإسلامي بين سنتي (633هـ – 922م)**، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه علوم في العلوم الإسلامية، إشراف الأستاذ: علي عزوز، قسم الشريعة، جامعة الجزائر، 1428هـ/ 2008م،ص: 479.

2 – لخضر بولطيف، المرجع السابق، ص: 215 – 233 .

3 – محمد مغراوي، خطة القضاء، ص: 82 .

المطلب الثاني: مظاهر اضطهاد السلطة الموحدية للمذهب المالكي.

لقد مر بنا بعض الشواهد التاريخية التي تعكس تعايش الموحدين مع المالكية، إلا أنها لم تشفع – لدى كثير من الباحثين – في رفع تهمة عداء الموحدين للمذهب المالكي، ومقابل ذلك أوردوا شواهد أخرى تعكس بدورها مواقف الموحدين من المذهب المالكي تتراوح كلُّها بين العداء والمعارضة.

فعناية ابن تومرت بالموطأ لم تكن –عند بعض الباحثين– إلا حيلةً منه لصرف الناس عن الموطأ نفسه وشغلهم بالنصوص الحديثية عن طريق تجريدها من الأسانيد ومن أسماء العلماء واختلافاتهم[1]، وقد لجأ إلى هذا الأسلوب حينما عجز عن شنِّ هجومٍ مباشر على المذهب المالكي الذي أصبح عقيدة ومذهبا لعامة الشعب، والموطأ في كل الأحوال هو من دواوين السنة المـُجمع عليها.

وتذكر بعض الروايات أن هذه العداوة بدأت في عهد عبد المؤمن الذي عقد سنة 550هـ/1155م اجتماعاً مع الفقهاء المالكية أشبه ما يكون بالمناظرة أو المحاكمة، حاول إقناعهم بالرجوع إلى الكتاب والسنة ونبذ كتب الفروع والمالكية بما فيها المدونة، وقد ناب عن الفقهاء المالكية في وجهة نظرهم الفقيه ابن زرقون الذي لم يستجب لرأي الخليفة بل رد عليه بقوله: "يا سيدي جميع ما في هذا الكتاب يعني المدونة مبني

---

1 – عبد الله علام، الدولة الموحدية، ص: 307. وأحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب، ص: 109. والجيلالي سلطاني، الشعر الديني على عهد الموحدين، مرجع سابق، ص: 94 .

على الكتاب والسنة وأقوال السلف والإجماع وإنما اختصره الفقهاء تقريبا لمن ينظر فيه من المتعلمين والطالبين"[1].

وكانت المناظرة حول عدة مسائل فى "مدونة سحنون"، منها مسألة إعادة الصلاة في الوقت التي يُقرِّها المالكية ويرفضها الظاهرية، وانتهى المجلس بإقرار رأى الظاهرية بعد كلام دار بين ابن زرقون المالكى وأحد الظاهرية، وقد عبر ابن زرقون عن عداء عبد المؤمن للمالكية بأن الخليفة كان "مُراده أن يحمل الناس على مذهب ابن حزم"[2].

ومن الجائز الافتراض أنَّ عبد المؤمن رامَ من جمعهم جسّ النبض في قبول خطته الرامية إلى نبذ الفروع، فلما ظهر له إصرارهم على المذهب المالكي وإجماعهم عليه، تراجع عن جمعهم على المذهب الظاهري الحزمي خشية ثورتهم عليه وهو يعلم مكانة المذهب المالكي في نفوس المغاربة، إذا كان هو المذهب الذي شبَّ عليه الصغير وشاب عليه الكبير[3] .

وأورد ابن أبي زرع ما يُفيد بأن عبد المؤمن لم يتوقف عند حد المناظرة بل أمر سنة 555هـ/1159م بتحريق كتب الفروع وردّ الناس إلى الأصول من الكتاب والسنة، "فأمر بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة الحديث، وكتب بذلك إلى جميع طلبة المغرب والعدوة" [4].

---

1 – محمد عليش، أبو عبد الله المالكي، **فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك**، دار المعرفة، د.ت.ط، ج: 1، ص: 103. وسعيد أعراب، موقف الموحدين من كتب الفروع، **مجلة دعوة الحق**، المغرب، العد:249، 1985م، ص:26.

2– محمد عليش، المصدر السابق، ج: 1، ص: 103.

3 – توفيق الغلبزوري، المدرسة الظاهرية بالمغرب والأندلس، مقدمة الكتاب، ص : 669 .

4 – ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص: 195. ومحمد عليش، فتح العلي المالك، ج: 1، ص: 102 و103. والسلاوي، الاستقصا، ج:1، ص: 337.

وحسب هذه الرواية وغيرها فإن ما أورده شهاب الدين النويري ت 733هـ /1332م من كون عبد المؤمن "جمع الناس على مذهب مالك في الفروع والمذهب الأشعري في العقيدة"[1] محل تحفظٍ شديد.

وشكَّك بعض الباحثين في الرواية التي انفرد بها كل من ابن أبي زرع في القرطاس والناصري في الاستقصاء لبُعد الرجلين عن الفترة المذكورة وغياب نصوص في مصادر أخرى تعزز هذا الخبر، وصنفوها ضمن الأسطغرافيا اللاحقة لعصر الموحدين[2]، بينما أثبت آخرون الرواية، وأكَّدوا مع ذلك أنَّ أمر عبد المؤمن لم يُنفَّذ، ولو نُفِّذ حقا لجاء التنصيص على ذلك كما كان في عصر المنصور، لأن عبد المؤمن رأى أن الأمر سابق لأوانه فاكتفى بالأمر وبهذا يزول الإشكال بين هذه الروايات والروايات الأخرى[3].

والمعطيات توحي بعزم ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن شنّ هجوم عنيف على المالكية إلا أنَّ الأمر يتعلق بظروف خارجية ميَّزت الفترة (منتصف القرن السادس الهجري) أملت على عبد المؤمن تلك الليونة، منها انفجار مجموعة من الثورات والاضطرابات في عدد من الجبهات، كحركة الهادي الماسي الذي حارب الموحدين بنفس سلاحهم إذ ادَّعى المهدوية فتبعه عدد كبير من القبائل[4]، وحركة القاضي عياض المالكي

---

1 – النويري، نهاية الأرب، ج:24، ص: 318 .

2 – محمد المغراوي، تطور علاقة السلطة الموحدية بفقهاء المذهب المالكي إلى عهد يعقوب المنصور، ص: 26. وكتابه الآخر أيضا، الصلحاء والسلطة، ص: 158. أما في إحدى دراساته الاخرى فيرى محمد مغراوي أن عبد المؤمن تراجع أمام إصرار الفقهاء المالكية، محمد المغراوي، خطة القضاء، ص: 78. وأنظر أيضاً: رضوان مبارك، المرجع السابق، ص: 163 .

3 – محمد المنوني، المرجع السابق، ص: 38.

4 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج:6، ص: 310.

في سبتة[1]، وثورة بني غانية الذين استمــــرُّوا متمســكين بجــزء مــن ميــراث بني عمومتهم اللمتونيين[2]، هذا فضلا عن كــون جــزء مــن إفريقيــة لا يــزال خارج سيطرة الموحدين، ثم إن عبد المؤمن كان يفكر فــي تجهيــز حملــة إلــى الأندلس ومــن بــين مقتضــيات ذلــك المشــروع تأييــد ومعاضــدة الفقهــاء الأندلسيين، كلها ظروف تفرض على عبــد المــؤمن التخــوف والحيطــة مــن إقدامه على مثل هذا العمل والتحــدي[3].

أما يوسف بن عبد المؤمن فلم يعقد منــاظرة مــع مالكيــة دولتــه كمــا فعل أبوه، إذ أنَّ موقفه كان أشدَّ صرامةً، فبينمــا أنصــت أبــوه عبــد المــؤمن بن علي إلى جواب ومرافعة ابن زرقــون ودفاعــه عــن المدونــة، نلاحــظ أن يوسف قطع ســبل الحــوار والمناقشــة مــع الفروعيــة المــالكيين مقــررا أن لامجال للرجوع إلى غير الكتاب والسنة وليس هناك من بــديل لمــن لــم يقتنــع ســوى السيف[4].

يشهد لذلك رواية المراكشي في المعجب عــن إمــام المالكيــة فــي وقتــه أبو بكر بن الجد إذ يقول: " لما دخلت على أميــر المــؤمنين أبــي يعقــوب أول دَخْلَة دخلتها عليه، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس، فقال لــي: يــا أبــا بكــر، أنا أنظر فــي هــذه الآراء المتشــعبة التــي أُحــدثت فــي ديــن الله، أرأيــت يا أبا بكــر، المسألة فيها أربعة أقــوال أو خمســة أقــوال أو أكثــر مــن هــذا فأي هذه الأقوال هو الحق؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلــد؟ فافتتحــت أبــين لــه ما أشكل عليه من ذلك، فقال لي وقطع كلامــي: يــا أبــا بكــر، لــيس إلا هــذا

1 – ابن الأبار، الحلة السيراء، ج:2، ص: 221. والسلاوي، المصدر السابق، ج:2، ص: 113.

2 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج:4، ص: 212.

3 – أنظــر: رضوان مبارك، المرجــع الســابق، ص: 166. والجيلالــي ســلطاني، المرجــع الســابق، ص:95.

4 – رضوان مبارك، المرجع السابق، ص: 169 .

وأشار إلى المصحف، أو هذا، وأشار إلى كتاب سنن أبي داود، وكان عن يمينه، أو السيف"[1].

إلا أنه لم يُترجم هذا البوح إلى موقف رسمي، وتبقى أسباب تراجعه مجهولة تمامًا، وربما تتعلَّق بالظروف الداخلية والخارجيَّة التي سبق ذكرها، في الوقت الذي لا نجد فيه إشارات إلى مواقف مضادة من طرف الفقهاء تستطيع إقناعه بالعدول عن أفكاره[2] .

ومع ذلك ذكرت المصادر أنه قـُتل اثنين من كبار علماء المالكية في عهده، ويتعلق الأمر بعلي بن صالح العبدري المعروف بابن أعز الناس الذي كان كبير فقهاء شرق الأندلس "ورأس مفتيها ومشاوريها...وقـُتل مظلوما سعاية عند السلطان في رمضان سنة 566هـ/1170م"[3]، أما الثاني فيتعلّق بالقاضي محمد بن إبراهيم بن أحمد بن خزر الحكمي المعروف بابن سعد العشيرة الغرناطي الذي "سُعي به إلى السلطان فقـُتل مظلوماً سنة567هـ/1171م"[4]، والروايتين أوردتهما المصادر بدون تفصيلٍ وتوضيحٍ للأسباب، واكتفت بالإشارة إلى قتلهم ظلماً من طرف الخليفة بالسعي والوشاية لديه .

وسُجن في عهد الخليفة أحد كبار حفاظ المذهب المالكي في المغرب وهو عبد الله بن محمد بن عيسى التادلي597هـ/1200م، وغـُرّب إلى مكناسة وبها توفي سنة 597هـ/ 1200م عن سن عالية وقد أشتهر بأنَّه " كان قيِّماً على المدونة يحفظها وقد كتبت من حفظه بعد

1- المراكشي، المصدر السابق، ص: 204.

2 – محمد مغراوي، خطة القضاء، ص: 78 .

3 – أحمد الشبكي، كفاية المحتاج بمن ليس في الديباج، ج:2، ص: 261 .

4 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج: 6، ص: 205 .

أن أمر الموحدون بحرقها"[1]، وقد جمعه السجن مع عالم آخر هو أبو عبد الله محمد بن عياض تـ575هـ/ 1179م، الذي كان هو الآخر قاضيا بدانية، ولا ندري بالظبط أسباب سجن هذين الفقيهين[2] .

وفي العموم كان موقف الخليفة يوسف بن عبد المؤمن من فقه الفروع محل تفكير عميق مثل موقف أبيه، إلا أن الظروف العامة لم تكن لتساعدهما للإعلان عنه، فقد ازدحمت ولاية يوسف بالثورات هنا وهناك مما يصرفه –أيضا– عن التفكير في اتخاذ موقف من الفروع[3]، فتأجَّل ذلك إلى عهد المنصور.

أما المنصور فتُخبرنا بعض المصادر أنه حاول محو المذهب المالكي من البلاد[4]، وأمر بإحراق كتب الفروع، وأن تكون أحكام العلماء بما يظهر لهم من الكتاب والسنة، فأحرق منها مدونة ابن سحنون وكتاب ابن يونس وغيرها[5]، يقول المراكشي: "وفي أيامه انقطع علم الفروع، وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من

---

1 – ابن ابراهيم، المصدر السابق، ج: 8، ص: 201 . وابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج:2، ص: 421. وابن عبد الملك، المصدر السابق، ج: 2 ،ص: 921 . والتنبكتي، نيل الابتهاج، ص: 137. وابن ابراهيم، الإعلام، ج: 8،ص: 201 .

2 – ابن الأبار، التكملة، ج: 2، ص: 921 . وابن الزبير، صلة الصلة، ج:8، ص:532 . وابن حيان، جذوة الإقتباس، ج: 2 ،ص: 421. وأحمد الشبكي، الإبتهاج بمن ليس في الديباج، ص: 137 و138 .

3 – الجيلالي سلطاني، المرجع السابق، ص: 96 .

4 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 204، والذهبي، تاريخ الإسلام، ج:42، ص: 216.

5 – ابن الأحمر، بيوتات فاس، ص:19. وابن جزي، **قوانين الأحكام الشرعية ومسائل الفروع الفقهية (القوانين الفقهية)**، دار القلم، بيروت، لبنان، د.ت.ط، ص: 402 و418، ومحمد بن مبارك الميلي، المرجع السابق، ص: 399. مقدمة كتاب "النبذ في أصول الفقه الظاهري" لابن حزم، ص: 4 .

حديث رسول الله –صلى الله عليه وسلم– والقرآن، ففعل ذلك"[1]، فأحرق منها جملة في سائر البلاد، كمدوَّنة عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي الملقَّب بـ "سحنون"، وكتاب أبو المظفر عبيد الله بن يونس الأزجي البغدادي تـ 593هـ/1196م، ونوادر أبي زيد تـ 215هـ/ 830م ومختصره، وكتاب التهذيب لابن أبي القاسم بن سليمان الأزدي البرادعي القيرواني، وواضحة عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون السلمي الإلبيري القرطبي تـ238هـ/ 852م، وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها[2]، فكانت عملية الإحراق نتيجة لقناعات يعقوب المنصور وميوله الحديثة وإعجابه الشديد بابن حزم الظاهري، وبالتالي عدائه للمذهب المالكي[3]، واعتبر ابن الأحمر المريني أنَّ إحراقهم (أي الموحدين) للمدونة كان السبب في سقوط دولتهم إذ سلَّط الله عليهم النصارى فهزموهم في العقاب يوم الإثنين 15 صفر 609 هـ/ 16 يوليو 1212م فكانت مشؤومة عليهم وعلى المسلمين[4].

ويبدو أن يعقوب المنصور لم يكتف بإحراق كتب الفروع المتداولة في عصره، بل أيضا كان يقف بالمرصاد أمام كل من أراد أن يؤلف على منوالها، ولدينا إشارة توحي بذلك، فأبو الحسن الرعيني يقول في ترجمة محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد ابن زرقون " وكان قد شرع في تأليف يسميه: أزهار السنن وإيضاح السنن في الفقه ثم تركه حين امتحن فسألته عنه وأسفت لكونه لم يؤلفه فأنشدني :

أن الخليفة قد أبى *** وإذا أبى شيئا أبيته[5] .

---

1 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 202-203.

2 – نفسه، ص: 202 و203. وحسين حافظي، علوي، المرجع السابق، ص: 168.

3 – سعيد أعراب، المرجع السابق، ص: 29.

4 – ابن الأحمر، بيوتات فاس، ص: 53 .

5 – الرعيني، برنامج شيوخ الرعيني، ص: 33 .

وهكذا جمع يعقوب المنصور بين محاصرة كتب الفروع الفقهية بواسطة إحراق ما ألف منها وأيضا بمنع من يحاول تأليف جديد في نفس الموضوع[1].

ولم تتوقف نكبة المنصور عند إحراق المصنفات المالكية، ولكنها طالت أيضا جملة من الفقهاء وعلى رأسهم كبير فقهاء المالكية ابن زرقون صاحب كتاب تهذيب المسالك إلى تحصيل مذهب مالك، والذي ألف في الرد على ابن حزم كتاب المعلى في الرد على المحلى[2]، فأُحرقت مكتبته التي ورثها عن أبيه الفقيه أبو الحسين ابن زرقون، وذُكر أن المكتبة المحروقة كانت " تقاوَمُ مالا جسيما وتساويه في كل صنف تشتمل عليه من الرأي"[3]، وسُجن طويلا بمدينة سبتة، وتعرَّض للتعذيب، لكن أذى المحنة لم يثنه عن العودة لتدريس الفقه المالكي بإشبيلية بعد إطلاق سراحه[4].

وأوذي مع أبي الحسين ابن زرقون نظيره في العلم والدفاع عن المذهب المالكي الفقيه محمد بن علي بن خلف التجيبي الإشبيلي ت 596هـ/ 1199م الذي "وُشي به للمنصور أيام عزمه على ترك التقليد والعمل بالحديث"[5]، ولا نعرف طبيعة ومصدر الوشاية التي تسببت في محنة هذا الفقيه، لكن تأثير النكبة عليه كان أشد إلى حد أنه اعتزل

---

1 – رضوان مبارك، المرجع السابق، ص: 171 .

2 – الرعيني، برنامج الرعيني، ص: 37. وابن فرحون، الديباج، ج:2، ص: 260 .

3 – ابن دحية، المطرب، ص: 222

4 – نفسه، ص: 221 و222. وابن الأبار، التكملة، ج :6 ، ص: 444 .

5 – المقري، نفح الطيب، ج: 2، ص: 57. وابن الأبار، التكملة، ج:2 ، ص: 77. وابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:6، ص: 444 .

الناس ولزم بيته[1]، وقد ندم المنصور على تعريضه للإيذاية فحاول استرضاءه عند حلوله بإشبيلية، فكانت النتيجة عكسية حيث أصيب الفقيه التجيبي بخلل عقلي عندما رأى من نافذة بيته الشرطة قادمين لاستدعائه للقاء الخليفة[2]، ظنا منه أنهم جاؤوا لشر " فاستطير قلبه ذعرا وأصابه شيء كالفالج أقعده حتى أدركته المنية "[3].

نلاحظ من خلال هذا النص درجة الخوف والذعر التي لحقت بالفقهاء المالكية من الموحدين، ومثلها قصة أبي الوليد بن عبد الله القرطبي المالكي الحافظ ت551هـ/ 1156م الذي وصف المقري أحواله بأنه خرج من قرطبة إلى مصر فرارا من طلب الموحدين له، وأقام بالإسكندرية خوفاً من بني عبد المؤمن بن علي، ثم قال كأني والله بمراكبهم قد وصلت إلى الإسكندرية، فسافر إلى مصر، وأقام بها مدة ثم قال فو الله ما مصر والإسكندرية بمتباعدين، ثم سافر إلى الصعيد وحدّث بقوص بالموطأ ثم ترآى له وصول الموحدين إليه، ففر إلى اليمن، فقال: هذه أرض لا يتركها بنو عبد المؤمن فتوجه إلى الهند، حيث أدركته منيته بها سنة 551هـ/1156م وقيل باليمن[4].

وتُوبع مع السابقين أيضا الفقيه أبو محمد عبد الكبير بن محمد بن عيسى الغافقي ت617هـ/1220م الذي اختفى عن الأنظار مدة تلك المحنة فنجا من الأذى[5].

1- الرعيني، برنامج الرعيني، ص:37. وابن الأبار، التكملة، ج:1، ص: 557. والمقري، نفح الطيب،ج:2، ص:57.

2 – ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج : 6، ص: 444 .

3 – المقري، نفح الطيب، ج: 2، ص: 57 و58 .

4 – نفسه، ج:2، ص: 240.وابن فرحون، الديباج، ص: 322. وعلي أحمد، **<u>الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق</u>**، الطبعة 01، دار شمال، سوريا، 1995م، ص:86.

5 – الرعيني، البرنامج، ص: 38. وابن الأبار، التكملة، ج: 2، ص: 654 .

ومن الفقهاء الذين نالهم أذى المنصور الفقيه أبو بكر الجياني الذي توفي بالسجن سنة 596هـ/ 1199م "بعد امتحانٍ من أبي يوسف"[1] نتيجة التعذيب جراء إصراره على التدريس بمذهب مالك[2].

وممَّن تعرض للمحنة والفتنة أيضا محمد بن أحمد المرسي المعروف بابن أبي جمرة تـ599هـ/ 1202م مُسنِد المغرب كان بصيرا بمذهب مالك متخصصا في تدريسه، ألَّف كتاب "إقليد التقليد المؤدي إلى النظر السديد"[3]، ومن تصانيفه أيضا: " نتائج الأفكار ومناهج النظار في معاني الآثار" في فقه الحديث، فلما أوقع السلطان حينئذ بالمالكية أحرقه الخليفة المنصور فيما أحرق من كتب المالكية "[4].

وأغلب الظن أن اقتصار متابعة الموحدين على هؤلاء الفقهاء ربما كان بسبب إصرارهم على استنكار موقف المنصور من فقه الفروع[5]، إلا أن الإمام الشاطبي تـ790هـ/1387م يذكر أن الموحدين "نكلوا بجملة من الفضلاء بسبب أخذهم في الشريعة بمذهب مالك"[6].

وذكرت المصادر أسماءً لفقهاء آخرين تعرضوا للعقوبة على يد المنصور لأسبابٍ بعينها مثل : القاضي أبي الخطاب بن دحية الذي صدرت عنه بعض التجاوزات في عمله ففضَّل الفرار إلى المشرق خوفا

---

1 – رشيد ملين، عصر المنصور الموحدي، ص:255 .

2 – نفسه، ص: 254 و255. ومحمد عبد الهادي الحسيسن، مظاهر النهضة الحديثية، ج: 1، ص: 209.

3 – ابن الأبار، التكملة، ج:2، ص: 81. والذهبي، تاريخ الإسلام، ج: 42 ،ص:411. والزركلي، الإعلام، ج:5، ص:319.

4 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:2، ص: 561. والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج:21، ص: 398. وعبد الله علام، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن، ص: 313 .

5 – محمد المغراوي، السلطة والصلحاء ، ص: 270 .

6 – الشاطبي، الاعتصام، ج:1، ص: 171.

من العقوبة[1]، وقاضي إشبيلية الذي ارتشى في قضية الثائر الجزائري وأطلق سراحه سنة 586 هـ/1190م فقُتل من أجل ذلك[2]، وأحمد بن يحي بن سعود العبدري الذي كان من جلساء المنصور ومعلما لأبنائه وأقام عليه حد الخمر بين يديه عندما تأكد من سكره[3] .

ورجَّح أحد الباحثين أن تكون هجرة الشيخ أبي الحسن علي بن محمد عتيق المكناسي إلى مكة –والذي قُدم لإمامة المالكية بمكة– بسبب الوضعية التي أصبح عليها المذهب المالكي على عهد الموحدين[4] .

ومنهم عبد الحق بن عبد الحق أبو محمد الأنصاري قاضي الجماعة بإشبيلية ومراكش تـ631هـ/1233م كان مالكيًا حقَّاظاً نظاراً مهيباً معظماً، وله كتاب في الرد على ابن حزم، قال عنه ابن الأبار: " اُمتحن من طرف الموحدين فلما فتك المأمون إدريس بن المنصور الموحدي بالموحدين الذين نكثوا بيعته قبض على عبد الحق بن عبد الحق قاضي الجماعة فقيَّده وحبسه حتى افتدى منه بستة آلاف دينار "[5] .

ومن الجليّ أنَّ نكبة هؤلاء الفقهاء أو الطريقة التي أوذي بها هؤلاء تدلُّ على أن الدولة الموحدية أرادت من خلالهم أن تؤكد جدِّيتها في

---

1 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج: 8، ص: 215 .

2 – ابن عذارى، البيان المغرب، ص: 207 و208 .

3 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج : 1، ص: 564 . وابن إبراهيم، الإعلام، ج:2، ص:103.

4 – محمد الشريف، تيار التصوف في العصر الموحدي من خلال قطعة من كتاب " المستفاد في مناقب العباد " لأبي عبد الله محمد التميمي، ضمن كتاب: **ملتقى الدراسات المغربية والأندلسية، تيارات الفكر في المغرب والأندلس، الروافد والمعطيات**، جامعة عبد الملك السعدي ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، المغرب، 26–27–28، إبريل 1993، ص : 449 .

5 – التنبكتي، نيل الابتهاج، ص: 184. وابن إبراهيم، المصدر السابق، ج:8، ص: 39.

مواجهة فقه الفروع وأهله وذلك عندما عزم المنصور على ترك التقليد والعمل بالحديث[1] .

ومن مظاهر رفض اختيارات الفقه المالكي في عصر يعقوب المنصور إصداره الأمر بالجهر بالبسملة[2] ومن المعلوم أن الفقهاء المالكيين يلغون قراءة البسملة في أول الفاتحة في الصلوات[3].

ولاحظنا كما لاحظ غيرنا تراجُع التأليف في الفتاوى والنوازل خلال العصر الموحدي، ولا نستبعد أن فقهاء العصر الموحدي أصبحوا يتحرَّجون من تدوين فتاويهم حتى لا يُثيروا مشاعر السلطة التي ظلت خلال عصر قوتها شديدة الحساسية من فقه الفروع والمسائل[4] بخلاف العصر المرابطي[5] .

والملاحظ –أيضًا– أن جميع الزعماء الموحدين من المهدي إلى يعقوب المنصور عند انتقادهم للأوضاع المذهبية لا يستعملون عبارة المذهب المالكي، فلا نعثر على هذا التعبير لا في مؤلفات المهدي ولا في رسائل خلفائه، وعلى هذا فإذا اعتبرنا أن مضمون المذهب المالكي هو تلك الكتب الفقهية التي وضع لها المراكشي لائحة فإن غرض الموحدين وكما يقول المعجب هو بالتأكيد محو مذهب مالك، وأحجموا عن ذكر المالكية خوفاً من ردٍّ شعبيٍّ عنيف.

---

1 – سعيد أعراب، المرجع نفسه، ص: 29.

2 – ابن العماد، شذرات الذهب، ج: 4، ص: 321 .

3 – ابن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ج:1، ص: 89 و90 .

4 – محمد المغراوي، صمود المذهب المالكي، ص: 110 .

5 - أنظر التمهيد.

ويُعلِّلُ عبد الله علام محاربة المنصور لمذهب مالك بأنه " رغبة صادقة في نشر المذهب الحزمي الظاهري"[1]، وليس عداءً للمذهب المالكي نفسه، ويؤكد الباحث حزمية المنصور وظاهريته بنصوصٍ أودعها في كتابه "الدعوة الموحدية بالمغرب"، لكنَّه في نفس الكتاب يتراجع عن موقفه فيقول: " وقد نسب بعض المحدثين فكرة الرجوع بالفقه المغربي إلى الكتاب والسنة إلى الخليفة المنصور الموحدي وزعموا أنه تأثر برأي الظاهرية والحزمية "[2] .

بينما فسَّرأحد الباحثين حملة المنصور التي استهدفت المالكية برغبة الخليفة في القضاء على الاختلافات المذهبية، فأكثر ما يُضايقه تعصُّب المالكية لمذهبهم[3].

بينما انتهى البحث بالدكتور عبد الهادي الحسيسن إلى أنَّ المنصور " لم يكن ظاهريًا داوديًا، ولا ظاهريًا حزميًا، وإنما كان ظاهريًا في شكلٍ آخر، يعمل بظاهر كتاب الله وسنَّة رسوله عليه السلام، فهو يجتهد لنفسه كباقي المجتهدين"[4].

وبالمقابل كان لفقهاء المالكية مواقفهم المُعبِّرة عن استيائهم من السياسة الموحدية، وأعتبرت ثورة القاضي عياض على الموحدين لاعلاقة لها ببيعة المرابطين الذين تقهقروا وضعفت شوكتهم وإنما هو انتصارٌ

---

1 – عبد الله علام، الدعوة الموحدية، ص: 306 .

2 – نفســـه، ص: 312 .

3 – ليلى أحمد نجار، **المغرب والأندلس في عهد المنصور الموحدي، دراسة تاريخية وحضارية (580هـ– 595هـ/ 1184م – 1198م)**، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، تحت إشراف: أحمد السيد دراج، جامعة أم القرى، السعودية، 1409هـ/ 1989م، ص: 481.

4 – عبد الهادي الحسيسن، موقف يعقوب المنصور من الظاهرية، **مجلة دار الحديث الحسنية**، العدد: 02، مجلة سنوية، 1401هـ/ 1981م، ص: 333.

للمذهب المالكي ضد هجمة الموحدين، فالقاضي عياض هو إمام المالكية حينها وجامع مذهب الإمام مالك وشارح أقواله والمدافع عنه، يدعم هذا التفسير ما يُفهم من تعاطف بعض الفقهاء المالكية مع ثورة ابن غانية[1]، فقد فسَّر الباحث عبد الله العروي صمود بني غانية – والموحدون في أوج قوتهم – بأنها كانت تجد الدعم من قبل الرأي العام في المدن المتأثرة بعلماء المالكية ضد المذهب الموحدي[2] .

من العسير الفصل في معاداة الموحدين للمذهب المالكي، ومن الأصعب الحكم بمالكيتهم، والمؤكد أن المذهب المالكي تقهقرت مكانته بسبب إعراض السلطة عنه، ما أفقده – مؤقتاً – كثيرا من سيادته وسطوته المعهودة في الغرب الإسلامي.

1 – الغبريني، المصدر السابق، ص: 34 و35 و42 و43. والمراكشي، المصدر السابق، ص: 271 و272.

2 – عبد الله العروي، تاريخ المغرب، ص: 190 و191

المبحث الثاني: المذهب المالكي في الغرب الإسلامي نهاية العصر الموحدي.

المطلب الأول : مظاهر انتصار واستمرارية المذهب المالكي.

نجح المذهب المالكي مرة أخرى في الثبات والاستمرارية[1] في الغرب الإسلامي رغم ما شهده من تضييقٍ خلال القرن6هـ/12م.

ويبدو أن انتكاسة المذهب التومرتي طالت الأصول والفروع معًا خلال العهد الثاني للدولة الموحدية (595هـ-688هـ/1198م-1288م)، فلم تسجل لنا المصادر خلال هذه الفترة ذلك الحماس للمنهج الظاهري الذي انتاب خلفاء الدولة الموحدية في عهدها الأول، إذ تراجع المذهب الحزمي "ولم نجد من أتباعه خلال القرن السابع الهجري إلا عددا قليلا، مثل أثير الدين أبي حيان النحوي، وأحمد بن صابر القيسي الشاعر وكان كاتبا للأمير أبي سعيد فرج بن محمد نصر أول سلاطين بني الأحمر،... ولم يبق له أثر يُذكر إلاَّ في بطون الكتب"[2].

فبعد حملة المنصور لا نجد في المصادر أي صدى لاستمرار محاصرة كتب الفروع وأصحابها، ذلك أنه سرعان ما استحوذ على الدولة وخلفائها مشاكل ِجسام تبدأ بمضاعفات كارثة حصن العقاب سنة 609هـ/1212م وتستفحل بتكاثر وتوالي الفتن الداخلية لينتهي الأمر بثورة المأمون العقيدية بلعن للمهدي وتخلصه من أشياخ الموحدين[3].

---

1 - أضطهد المذهب المالكي أيام العبيدين، إلاَّ أنَّه من غير الصواب تشبيه العداء الشيعي العبيدي للمذهب المالكي بعداء الموحدين للمذهب.

2 - أحمد بكير محمود، المرجع السابق، ص:66 و67.

3 - رضوان مبارك، المرجع السابق، ص: 214 .

إلا أن المذهب الظاهري ترك أثراً واضحا وإيجابياً على الفقه المالكي في الفترة الموحدية[1]، إذ أصبح المذهب المالكي أقلَّ انغلاقا وأكثر تفتحاً على النصوص[2]، فشهد ثراءً في مادته كما شهد تحسناً في منهجه، وأخذ في الاقتراب أكثر من النصوص، فلم يبق ذلك الفقه الساذج الذي يقارب أئمة المذاهب بعضها ببعض ويُرجعها في النهاية إلى رواية ابن القاسم عن الإمام مالك، بل صار يعتمد على الأدلة وينظر في الخلاف العالي، وأصبح التعامل بالدليل الشرعي من الحديث النبوي أمرًا مُلحا خاصة في المناظرات مع الفقهاء الظاهريين، كما ازداد إقبال المالكية على علم الأصول والكلام أكثر من ذي قبل، كما انتعش علم الحديث كثيرا وألفت فيه تآليف هامة[3] .

وأصبح مالكية المغرب ينزعون إلى تبنِّي تقاليد المدرسة المالكية العراقية المعروفة بخصائص أهمها الاجتهاد والنظر، فقد كان العراق موطنا لعدة مذاهب، وهذه التعددية المذهبية عامل يبعث على الاجتهاد واستعمال الرأي والقياس ومناقشة المخالفين، مما انعكس على مالكية العراق متأثرين بمنهج الأحناف في إعمال الرأي والقياس، ومتأثرين أيضا بما شهدته العراق من المدارس العقلية[4]، لذا وصفهم ابن خلدون بأن "القوم أهل اجتهاد"[5]، وأهل المغرب والأندلس "لا يأخذون

---

1 – محمد المغراوي، صمود المذهب المالكي، ص: 106.

2 – نجم الدين الهنتاتي، مرجعيات المدرسة المالكية الفاسية في العصر الوسيط وخصائصها العامة، **مجلة التاريخ العربي**، الرباط، العدد: 51، 2010م، ص: 206 .

3 – محمد المغراوي، صمود المذهب المالكي، ص: 106.

4 – يحي سعيدي، المدرسة المالكية العراقية في مرحلة ازدهارها، ضمن ملتقى: **الملتقى الوطني الرابع للمذهب المالكي بعين الدفلى**، (ملامح عن المذهب المالكي بعد مرحلة التأسيس)، 8-9-10-ربيع الثاني1429هـ/14-15- 16- أفريل 2009، ص: 46. ومحمد عيسى، مدرسة العراق المالكية، النشأة والتأسيس، (نفس الملتقى) ص: 20 .

5 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج:2، ص: 584.

برأي العراقيين فيما لا يجدون فيه رواية عن الإمام – مالك – أو أحد من أصحابه"[1]، ويُضيف ابن خلدون أن "طريقة العراقيين كانت مهجورة عند أهل القيروان والأندلس لبعدها وخفاء مدركها وقلة اطلاعهم على مآخذهم فيها"[2].

وصار المالكية يغترفون من علوم الحديث[3]، فهذا إبراهيم بن الكماد المرادي الفاسي تـ663هـ/1235م كان أحفظ أهل زمانه لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان مع مالكيته يميل إلى الظاهر[4].

ومن أهل بلنسية عبد الله بن أحمد بن سعيد بن عبد الرحمان العبدري تـ566هـ / 1170م ويُعرف بابن مجوال درس الفقه والحديث والقراءات، ألف شرحا في صحيح مسلم لكنه توفي قبل إتمامه، وله كذلك شرح لرسالة بن أبي زيد القيرواني[5].

وأبرز مثال عن الفقهاء المالكية الذين كان لهم تأثُّر بانتعاش الفقه الظاهري خلال العصر الموحدي: محمد بن عبد الله بن يحي بن فرج بن الجد وأصله من لبلة وبها ولد سنة 496هـ/1102م، تتلمذ على يد ابن رشد، كان أبرع أهل عصره في التمكن من مذهب مالك، كما انتهت إليه الرياسة في الحفظ والفتوى توفي بإشبيلية سنة 586هـ/ 1190م، كانت له دراية بفن الحديث "عالي الإسناد فيه"[6].

---

1 – نفسه.

2 – نفسه، ج:2، ص: 584. والونشريسي، المعيار المعرب، ج: 12، ص: 23.

3 – نجم الدين الهنتاتي، مرجعيات المدرسة المالكية الفاسية في العصر الوسيط وخصائصها العامة، ص: 206 .

4 – ابن القاضي، جذوة المقتبس، ج: 1، ص: 85 .

5 – ابن الأبار، معجم أصحاب القاضي أبي علي الصدفي، ص: 166 و 226. وابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:5، ص: 642.

6 – الذهبي، سير أعلام، ج:15، ص: 358.

وممن أشتهر بالحديث من جهابذة المالكية في عهد عبد المؤمن القاضي عياض اليحصبي الذي صنف كتاب مشارق الأنوار على صحاح الآثار[1] وله كتاب الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع[2].

أما عبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحي بن عبد الله الأنصاري من أهل مالقة المعروف بابن القرطبي ت611هـ/ 1214م فقد درس الحديث وبرع فيه وأخذ عنه جمهرة من أقطاب عصره مثل أبي بكر بن الجد وابن زرقون وأبي القاسم بن حبيش، قال عنه ابن الأبار: "من أهل المعرفة الكاملة بصناعة الحديث والبصر بها والإتقان لها والحفظ لأسماء الرجال والتقدم في ذلك على الكمال"[3]، ألّف مجموعة في تلخيص أسانيد الموطأ[4] .

ومنهم عبد العزيز بن فيرة المالكي المعروف بالدباغ ت546هـ/ 1151م الذي نبغ في الحديث والرواية وألف في الحديث عدة مؤلفات منها كتاب طبقات المحدثين، وحدَّث بمرسية وغيرها من مدن الأندلس، كان "أعرفهم بطريقة الحديث وأسماء الرجال وأزمانهم وثقافتهم وضعفائهم وأعمارهم وأقادمهم"[5].

ومنهم محمد بن ابراهيم الفهري من أهل بجاية، وأصله من إشبيلية، رحل إلى المشرق، وأخذ عن جمهرة من أقطاب المحدثين، وبرز في علم

---

1 – جمال الدين القفطي، إنباه الرواة، مصدر سابق، ج:2، ص: 364 .

2 – مطبوع بعنون: **الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع**، الطبعة 01، تحقيق: السيد أحمد صقر، القاهرة، مصر، دار التراث، تونس المكتبة العتيقة، 1379هـ/ 1970م.

3 – ابن الأبار، التكملة، ج: 2، ص: 285 و286.

4 – نفسه .

5 – ابن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، ج:1، ص: 645. وأبو جعفر الضبي، **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، دار الكاتب العربي، القاهرة، مصر، 1967م، ص: 476 و477. والذهبي، تذكرة الحفاظ، ج: 4، ص:101.والبغدادي، هدية العارفين، ج: 2، ص: 552 .

الكلام وأصول الفقه حتى أشتهر بالأصولي، وعُني بإصلاح كتاب "المستصفى" لأبي حامد الغزالي، ورحل إلى الأندلس واتصل بابن رشد وكان يدرس معه "علوم الأوائل"، ولما أمتحن ابن رشد سنة 593هـ/ 1196م محنته المشهورة امتحن معه ونُفي مثله من قرطبة إلى بعض الجهات ثم عُفي عنه وكفّ بصره في آخر حياته وتوفي عام 612هـ/ 1215م[1].

ومنهم أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي الحميري الفاسي المعروف بابن القطان ت 628 هـ/1230م الحافظ المحدث المؤرخ، كان مُلماً برجال الحديث ورواياته، نشأ بفاس وأخذ عن شيوخ عصره، انتهت إليه في المغرب صناعة الحديث وروايته وحفظ رجاله، ونال وجاهة عند خلفاء الموحدين فتولى الخطط الرفيعة لهم ... كما اشتغل بالتأليف فكتب المصنفات الكثيرة في الحديث والتاريخ وغيرها[2].

ومنهم عبد الكبير بن محمد بن عيسى الغافقي المرسي ت 617هـ/ 1220م " كان شيخ الفقهاء في وقته وولي القضاء برندة وكان متقدما في صناعة التوثيق والذكر والفروع، مع مشاركة في الطب وله فيه اختصارات وألف في التفسير ... وغيره " [3] .

ومنهم أبو المجد أحمد بن الحسن بن عمر بن محمد الحضرمي المرادي الغرناطي ت 651 هـ/1253م " كان فقيها حافظا ذاكرا للنوازل

---

1 – ابن الأبار، التكملة، ج:2، ص: 163–164.

2 – أنظر: ابن الزبير، صلة الصلة، ص: 131. وابن الأبار، التكملة، ج:2، ص: 686. والذهبي، تذكرة الحفاظ، ج:4،ص: 1704. والسيوطي، طبقات الحفاظ، ص:494. وابن حيان، الجذوة، ج:2، ص:470. والتنبكتي، النيل، ص:200 . والمقري، النفح، ج:3، ص:180. وابن إبراهيم، الإعلام، ج:9، ص:75.

3 – ابن الزبير، المصدر السابق، ج:4، ص: 46.

بصيرا بالفتــوى متقدما في علم الكـــلام وأصــول الفقــه سُــنياً فاضـــلاً متــين الدين ... خطب زماناً بجامع قصبة غرناطــة القديمة " [1] .

فإذا أمعنَّا النظر في مالكية القرن الســابع الهجــري نجــد أن تكــوينهم وثقافتهم وعطاءاتِــهم لم تعــد تقتصــر علــى كتــب الفــروع والــرأي، بــل يجمعون إلى ذلك دراسة علوم أخــرى وعلــى رأســها الحــديث، وهــم بــذلك يسايرون الاتجــاه الموحــدي، فــابن زرقــون تـــ586هـــ/1190م أجــاب عبد المؤمن بن علي قائلا: " كل ما فــي الكتــاب – يعنــي المدونــة – أصــله من الكتاب والسنة"[2].

ففي الوقت الــذي كان فيه الإصلاح الموحــدي يرتكــز أساســا علــى استقلال الحديث عن الفقــه وفــتح بــاب الاجتهــاد، يبــدو أن أولئــك الفقهــاء راحوا يدعمون كتــب الفــروع بربطهــا بالحــديث واعتبارهــا بمثابــة امتــداد مُبسَّط أو شرح لما جاء في الكتاب والســنة، ويمكــن القــول أيضــا أن الفقهــاء المالكية في العصر الموحدي ضمُّوا الحــديث إلــى الفقــه دون أن يعنــي ذلــك في العمق قبولهم فتح باب الإجتهاد[3]، فقد ظل اهتمــام الفقهــاء بالمدونــة قائمــا على مستوى التدريس والتأليف لكن ظهر إلــى جانــب ذلــك اهتمــام ملمــوس بالحديث النبوي وعلومــه[4].

وامتدَّ تــأثير الحركــة الظاهريــة إلــى علــوم اللغــة والآلــة فصــبغتا بصبغتها، وأخضعتا لضوابطها وأصولها، لا سيما النحــو، الــذي تفــرَّدت فيــه المدرسة المغربية دون المشرقية بظــاهرة تســترعي الانتبــاه، وهــي محاولــة

---

1 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:1، ص: 95.

2 – نوازل البرزلي، من خلال سعيد أعراب مقال موقف الموحــدين مــن كتــب الفــروع، **مجلــة دعــوة الحق المغربية**، يونيو 1985، عدد: 249، ص: 26 – 30 .

3 – رضوان مبارك، المذهب المالكي في المغرب على عهد المرابطين والموحدين، ص: 214 .

4 – رشيد ملين، عصر المنصور الموحدي، ص: 162و 163.

تطبيق أصول مذهب الظاهرية عليه، فبرزت إلى الوجود معالم مدرسة مستقلة سُميت بالظاهرية النحوية، لو كُتب لها النجاح المأمول[1].

وهذا التأثير الظاهري جعل الدكتور توفيق الغلبزوري يَعتبر الظاهرية المغربية تتميز بخاصية امتازت بها هي كونها منهجا فكريا له نسقه المتكامل، ومشروعه الشامل، لا مجرد مذهب فقهي فقط[2].

ومع ذلك الانتعاش الذي عرفه المظهر الظاهري إلاَّ أنَّ الغلبة عادت من جديد للوجهة الفقهية القائمة على الفروع والتقليد على حساب منهج الأصول والاجتهاد[3].

ومثَّل عودة المذهب المالكي وانتعاشته نهاية العصر الموحد – وبداية العصر المريني – عدد من الفقهاء الذين برزوا في الفقه المالكي بفتاويهم ومصنفاتهم ودروسهم ومجالسهم، وتعصبهم أحياناً، من أشهرهم: الإمام ابن الحاجب ت646هـ/1248م رجل المختصرات، صاحب كتاب "جامع الأمهات" المشهور "بالمختصر" الذي جمع فيه أكثر من ستين ألف مسألة في ذلك المقدار الوجيز من الكلام، اختصر فيه الفقه المالكي كما اختصر الأصول، واختصر النحو والصرف، حتى قال عنه ابن خلدون إن صاحبه لخص فيه طرق " أهل المذهب في كل باب وتعديد أقوالهم في كل مسألة، فجاء كالبرنامج للمذهب" [4].

---

1 – عبد المجيد النجار، المرجع السابق، ص: 21.

2 – توفيق الغليزوري، المرجع السابق، ص:20.

3 – يقول المقري تـ 1041هـ/ 1631م حاكيا عن أهل قرطبة : " وأهل قرطبة أشد الناس محافظة على العمل بأصح الأقوال المالكية، حتى إنهم كانوا لا يولون حاكماً إلا بشرط أن لا يعدل في الحكم عن مذهب ابن القاسم"، ج:3، ص: 216.

4 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ص: 571. وكتاب جامع الأمهات مطبوع متداول، وظهرت عليه شروح كثيرة.

وتوالت المختصرات والشروح عليها، حتى أصبح الفقه المالكي عبارة عن رموز لا تُفهم، يُحفظ عن ظهر قلب، ويُقرأ أحزابا، ولاتُفكُّ رموزه إلا بالرجوع إلى عشرات المجلدات من الشروح والحواشي والتعليقات دون إدراك لروح التشريع، "وغدا بعض المدرّسين لا يختم مختصر خليل إلا بعد أربعين سنة وبذلك تقرَّر جمود الفقه وتحجره واستمر إلى أيامنا هذه"[1].

ومما يُؤكِّدُ حضور المذهب المالكي بكل ثقافته الفروعية استمرار القضاة المالكية في ممارسة القضاء وِفق اجتهادات المذهب المالكي[2] .

وبنهاية العصر الموحدي وبداية العصر المريني عادت الفروع بأكثر قوة مع المرينيين لينتصر بالمغرب من جديد انتصارًا نهائيا[3]، فبنو مرين لم ينطلقوا في تأسيس دولتهم من مشروع سياسي واضح يقوم على مذهب من المذاهب، فانتبهوا إلى ضرورة حصولهم على الدعم المعنوي الذي وجدوه في المالكية، وبهذا سارعوا إلى تقريب المالكية وإلى دعم جهودهم، فراجت من جديد المدونات المالكية وأقبل الطلبة على الأمهات من تلك المدونات[4].

وبلغ من هيمنة المذهب المالكي عصر المرينيين أنَّ أكبر علماء المالكية حينها الفقيه عبد الرحمان بن عفان الجزولي تـ 747هـ/ 1346م كان يحضر مجلسه العلمي أكثر من ألف فقيه مالكي معظمهم

---

1 – أنظر مقدمة كتاب: **<u>الذخيرة في الفقه المالكي</u>**، لشهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1994م، ج:1، ص:6.

2 – محمد المغراوي، صمود المذهب المالكي، مجلة دعوة الحق، ص: 106 .

3 – التازي عبد الهادي، جامع القرويين، ج: 2، ص: 366 .

4 – عبد السلام شقور، جهود المالكية في مواجهة الفرق المخالفة في الغرب الاسلامي، ص:279 .

يستظهر المدونة[1]، هذا إلى جانب العديد من العلماء الآخرين الذين قاموا بتدريس المذهب المالكي في المدارس المرينية والمساجد، حيث كان المذهب المالكي محوراً لنظام التعليم في العصر المريني[2].

لذا أعتبر الانتصار النهائي للمالكية على سائر الفرق والطوائف في الغرب الإسلامي قد تمَّ في زمن بني مرين وبمساعدتهم خلال القرن 7هـ/13م وهو القرن الذي بسط فيه المرينيون الحكم على بلدان المغرب وعلى قسم من الأندلس[3]، ونقض المرينيون بذلك جهود الموحدين كلها كما يقول الحجوي في تأريخه للمذاهب الفقهية[4] .

وعاد المذهب المالكي بعد العصر الموحدي أقوى من ذي قبل، ففي الوقت الذي تراجع فيه المذهب في موطنه الأصلي بالمدينة المنورة منذ أوائل المئة السادسة[5]، ظهرت مدرسة مالكية بفاس وسبتة نهاية العصر الموحدي وبداية العصر المريني بشخصياتها ومؤلفاتها[6].

حتى قال أحمد بن عمر المزكلدي أحد مالكية العصر المريني وحفَّاظ المدونة بفاس "ما نزل من السماء حكم إلا وهو في المدونة"[7]،

---

1 – الكتاني، سلوة الأنفاس، ج:2، ص: 124. وابن القاضي، جذوة الاقتباس، ص: 258. وألفرد بل، 323.

2 – أنظر: عيسى الحريري، **تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (610هـ/1213م- 869هـ/1465م)**، الطبعة 01، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1405هـ/ 1985م، ص: 340.

3 – عبد السلام شقور، المرجع السابق، ص:279 .

4 – الحجوي، الفكر السامي، ج:4، ص: 12.

5 – الونشريسي، المعيار المعرب، ج: 2 ، ص: 450 .

6 – نجم الدين الهنتاتي، مرجعيات المدرسة المالكية الفاسية في العصر الوسيط وخصائصها العامة، **مجلة التاريخ العربي**، الرباط، ص: 199 و208 و209 .

7 – ابن الأحمر، بيوتات فاس، ص: 20 و 21 .

وكان لذلك مضاعفات بمرور الوقت وصلت بالفقيه ناصر الدين محمد بن الحسن اللقاني أحد مالكية القرن 10هـ/16م إلى القول " نحن ناس خليليون إن ضل ضللنا" [1]، وذهب ذلك ببعض أهل شنقيط إلى القول بعدم جواز تقليد غير مذهب مالك بالمغرب[2] وجاء في هذا المعنى شعرا:

وأهل مغرب عليهم يمنع * غير الإمام مالك أن يتبعوا

لفقد غيره، وكل خارج * عن نهجه فهو من الخوارج[3].

يقول المقري ت756هـ/1354م منتقدا أهل عصره: "فاقتصروا على حفظ ما قل لفظه ونزر حفظه وأفنوا أعمارهم في حل لغزه وفهم رموزه ولم يصلوا إلى رد ما فيه إلى أصوله بالتصحيح فضلا عن معرفة الضعيف من ذلك والصحيح"، وقد أنكر القباب على ابن عرفة على ما ألفه في مختصره الفقهي، فقال له ابن عرفة و لم ؟ فقال له القباب: " ما صنعت شيئاً، لأنه لا يفهمه المبتدئ ولا يحتاج إليه المنتهي"[4].

وبقيت تقاليد المذهب التي أرساها فقهاء المالكية مستمرةً سواء على مستوى التدريس أو التأليف أو الفتوى أو القضاء، الشيء الذي يجعلنا نقول أن مساعي الموحدين لمحو مذهب مالك أو تهميشه كان مفعولها ظرفياً[1] زال بزوالهم .

---

1 – أنظر: المصري مبروك، **المدرسة الفقهية المغاربية المالكية**، مجلة الثقافة الإسلامية، تصدر عن مديرية الثقافة الإسلامية، الجزائر، السنة الأولى، العدد 01، 1426 هـ/ 2005 م، ص: 101 .

2 – نفسه، ص : 98. وأنظر ترجمته: التنبكتي، المرجع السابق، ص: 66.

3 – الخليل النحوي، **بلاد شنقيط المنارة والرباط**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتونس،1987م، ص:23.

4 – المصري مبروك، المرجع السابق، ص: 108 .

المطلب الثاني: عوامل انتصار واستمراريَّة المذهب المالكي في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي.

تظافرت جملة من الأسباب والعوامل أدَّت إلى تراجع المذهب الظاهري وعودة المذهب المالكي إلى الصدارة، ولعل أهمها طبيعة الإصلاح والتغيير الذي اعتمده الموحدون بإلغاء كتب الفروع منذ عهد الخليفة الأول عبد المؤمن، واكتست تلك المحاولة صبغة العنف والقوة لَمّا بلغت الدولة أوجَّ قوتها وازدهارها في عهد الخليفة الثالث يعقوب المنصور.

وهذا أهم ما يُعاب على المنهج التغييري الذي اعتمده الموحدون بشكلٍ عام، إذ أنهم لم يسلكوا في سبيل نجاح مشروعهم التدرج والتمهيد، فاستنباط الأحكام من الأصول يتطلب درجة عالية من التفقه تستلزم – ولاشك– إعدادا تربويا عميقا طويل النفس، قد لا يتم في جيلٍ واحدٍ حتى يؤدي إلى ثمرة ناضجة، فقد تبنى الموحدون المذهب الظاهري بقرار سياسي دون أن يواكب ذلك نهضة علمية، بل استعمال العنف والإجبار والقوة بالإكراه والتنكيل والإحراق، وهو ما تأنفه النفوس وتنفر منه، أما القرار السياسي فلا يكون إلا باعثا أو مساعدا فحسب، على أنه من الجدير أن نلاحظ أن المهدي نفسه شرع في التحويل إلى المنهج الأصولي بحركة علمية تمثلت فيما كتبه من مؤلفات في شرح التأصيل والاستدلال عليه، إلا أن هذه الحركة لم تتطور بعده في اتجاه النضج العلمي بل جنحت إلى القرار السياسي، وما كان من محاولات علمية قام بها

---

1 – وهو ما قرّره أيضًا الباحث محمد المغراوي، أنظر: المغراوي، صمود المذهب المالكي، مرجع سابق، ص: 103 .

المنصور وبعض العلماء الآخـرين، لـم تكـن كافيـة فـي الإقنـاع بـالمنهج التأصيلي وإظهاره بالحجة فآل أمره إلى ما آل إليه[1] .

فقد جاءت إصلاحات الموحدين متـأخرة ومُعاكسـة للتيـار العـام الـذي كان يجتاح العالم الإسلامي غربا وشـرقا، إذا اسـتقر كـل قطـر مـن أقطـار العالم الإسلامي بمذهب يحـتكم إليـه ويتعصـب لـه، وهـو مـا حـذا بأحـد الباحثين إلى القول " لقد حاول الموحدون فـتح بـاب الاجتهـاد بعـد أن قـرر الفقهاء إغلاقـه"[2].

ومـن الأسـباب القويـة التـي أدت إلـى عـودة المـذهب المـالكي بسرعة، تمكُّن المذهب من أهـل المغـرب وتشـبثهم بـه، وبالتـالي لـم يكـن للتغيير الموحدي القاعدة الشعبية المسـاندة، لأن التغيـر يبـدأ بإقنـاع الشـعب، لا عن طريق إصدار قـرار وفرضه بـالقوة، ويسـتدل أحـد البـاحثين علـى ذلك بفشل كل التجارب المماثلة عبر التاريخ والتي فشـلت كلهـا فـي اجتثـاث الثقافة السائدة وإرساء أرضية إيديولوجيـة جديـدة[3] لأن هـذا المجـال بالـذات يتسم بمقاومة أكبر، "فـلا المسـيحية ولا الإسـلام تمكنـا مـن القضـاء علـى مظـاهر الممارسـات السـحرية والأرواحيـة فـي القـارتين الإفريقيـة والأمريكية"[4] حسب تعبيـره.

فقد كان منهج التقليد والفروع عميق الجذور فـي بـلاد المغـرب، إلـى درجة أن المدونة لما أحرقهـا ملـوك الموحـدين نـُقلت مـن صـدر الفقيـه المالكي علي بن عشرين الخزرجي الفاسي ومـن حفظـه بمدينـة فـاس عنـد

---

1 – عبد المجيد النجار، ابن تومرت، ص:500 .

2 – رضوان مبارك، المرجع السابق، ص: 172 .

3 – محمد فتحة، الموحدون والمالكية، مقال ضـمن كتـاب **الصـراع المـذهبي بـبلاد المغـرب**، تنسـيق حافظ حكمي، منشورات كليـة الآداب والعلـوم الإنسـانية جامعـة محمـد الخـامس، سلسـلة منـاظرات وندوات رقم: 157، ص: 165.

4 – محمد فتحة، الموحدون والمالكية، ص: 165 .

أول ظهور ملوك بني مرين فأرسلوا إلى عدوة الأندلس فأتوهم بنسخة منها فقابلوها فوجدوها لا خلاف بينها إلا في فاء أو واو"[1].

ومن أهم أسباب انتصار المذهب المالكي قوّته وأهلّيته وتناسبه مع ذهنية المغاربة وبيئتهم كما يقول ابن خلدون[2]، فتعلُّق المغاربة بالمذهب المالكي كان أقوى من التوجه المعاكس للسلطة حسب رأي الدكتور أحمد الريسوني[3]، ويُنكر الباحث نفسه انتصار المذهب المالكي – في تاريخه- بالسلطة الحاكمة، فيقول: "ولا شك أن شيئاً من هذا صحيح، ولكن الصحيح الأصح هو أن للمذهب المالكي أهليته وقوته الذاتية، وله علماؤه وفقهاؤه الذين استماتوا دفاعا عنه ودفاعا عن حق المغاربة في التمسك به والتوحد حوله، ثم حلقة الأمراء والحكام الذين ساروا مع المذهب تأييدا وتطبيقا، وهذه الحلقة (الأمراء والحكام) خِلافاً لما يُظن هي أضعف الحلقات وأقلها استقرارا، ويكفي التذكير بالمواقف العدائية للعبيديين وبعض الموحدين ضد المذهب المالكي وفقهائه، وقد ذهبوا وبقي المذهب"[4].

واعتبر نفس الباحث أن تظافر هذه الحلقات الثلاث جعل من المذهب المالكي مذهبًا للدولة ومذهبًا للنخبة، ومذهبا لعموم المجتمع، فهو

---

1 – ابن الأحمر، المصدر السابق، ص: 19 .

2 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ص: 568.

3 – أنظر: أحمد الريسوني، المذهب المالكي بالمغرب بين الجد والهزل، مقال من: **<u>مجلة الفرقان</u>**، مجلة إسلامية أسبوعية تصدر عن جمعية إحياء التراث، الكويت، العدد :58، ذوالقعدة / تشرين الثاني 1426هـ/ 2006م، ص: 33.

4 – نفسه.

مذهب المغاربة أفقيا وعموديـا، وقلمـا تحقـق هـذا -إن كـان قـد تحقـق- لمذهب من المذاهب عبر التاريخ[1].

ومن أسباب فشل المسعى الموحدي الرامي إلـى التضـييق علـى المـذهب المالكي الفروعي أنهـم لم يُؤسِّسوا مذهبا فقهيا علميا بـديلاً، لـه أدنـى مقـدرة على منافسة المذهب المالكي، فالذي يبدو أن دعـوة الموحـدين إلـى الظاهريـة ليس نُـصرة مذهب ظهَرَ لهم صوابيته فقط بل انتقامـاً مـن الفقهـاء المالكيـة الذين أدركوا شأوا بعيدا أيام لمتونـة قـبلهم، فـحركة الموحـدين السيـاسية والمذهبية لا تبتعد في أهدافها عـن تخريـب مجـدٍ مـا قبلهـا لتشييـد مجـدٍ جديـد[2].

بالإضافة إلى ذلك أسـهم فـي تراجـع المـذهب الظـاهري بـالغرب الإسلامي طبيعة المذهب نفسـه، الـذي كـان محـلَّ انتقـاد الفقهـاء مشـرقا ومغربا، قال ابن القيم تـ751هـ/1351م: "ودَعْ الظاهريـة البحتـة، فإنهـا تـُقسِّي القلوب، وتحجبها عن رؤية محاسن الشـريعة وبهجتهـا، ومـا أودعتـه من الحكم والمصـالح والعـدل والرحمـة"[3]، ومـن المغـرب أشـتهر الفقيـه المالكي أبو بكر بن العربي بـردوده العنيفـة والقاسـية علـى الظاهريـة، لـذا فسَّـر ابن خلـدون زوال المـذهب بعـاملين أحـدهما زوال أئمتـه، والثـاني إنكار الجمهور على منتحليه[4].

وكانت هزيمة حصـن العقـاب سـنة 609هـ/1212م بدايـة لنهايـة الدولة الموحدية سياسيا وعسكريا، ومذهبيا أيضا، فكـان مـن آثارهـا أن انفـكَّ

1- نفسه.

2 - الحجوي، الفكر السامي، ج:4، ص: 12.

3 - ابن القـيم، **حاشـية ابـن القـيم علـى سـنن أبـي داود**، دار الكتـب العلميـة، بيـروت، لبنـان، 1415هـ، ج:1، ص: 82.

4 - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون ج:1، ص: 564 .

الارتباط العضوي الوثيق بين العدوتين المغرب والأندلس، والمعروف أن الأندلس كانت خزان فقهاء الظاهرية[1].

ومن أهم عوامل نجاح المذهب المالكي مقاومة عدد من فقهاء المالكية وصمودهم أمام المحاولات الموحدية، لرفضهم مضامين المذهب الحزمي الظاهري.

وقد تبنَّى فقهاء المالكية مقاومةً اِصطلح عليها أحد الباحثين "بالمقاومة الصامتة"، وفي اعتقادنا أنها كانت أقوى العوامل التي أسهمت في الحفاظ على استمرارية المذهب المالكي، وتمثلت هذه المقاومة الصامتة في الحفظ والتدريس والتصنيف والإفتاء وفق المذهب المالكي.

ويبدو أن فقهاء المالكية اضطروا إلى تبنِّي "المقاومة الصامتة" أمام إصرار يعقوب المنصور على مطاردة علم الفروع، حيث بقي ثلة من العلماء صامدين أوفياء لمذهبهم منهم الفقيه محمد بن أحمد بن عبد الملك الأندلسي تـ 599 هـ/ 1202م المعروف بابن أبي جمرة، درس الفقه والحديث على أقطاب عصره وعني بالرأي وحفظه، ولي قضاء مرسية وبلنسية وشاطبة وأوريولة في أوقات مختلفة، وكان من الحافظين المتقنين والفقهاء البارعين بصيرا بمذهب مالك متخصصا في تدريسه عدلا في أحكامه[2]، ومن مؤلفاته كتاب "نتائج الأبكار ومناهج النظار في معاني الآثار"[3] ألَّفه بعد سنة 580هـ/1184م حينما قام

---

1 – كان يعقوب المنصور وهو يحتظر يوصي باليتيمة والأيتام، أي الأندلس وأهلها، ابن عذارى، البيان المغرب، (قسم الموحدين)، ص: 231 و232 . وهو ما قد يُفسر بحرص المنصور على الارتباط الوثيق بظاهرية الأندلس.

2 – الزركلي، الأعلام، ج:5، ص:319.

3 – نفسه.

الخليفة المنصور بمطاردة أهل الرأي[1]، وله كتاب آخر ألفه في هذا الإتجاه كتاب " إقليد التقليد المؤدي إلى النظر السديد"[2]، ولتعصبه للمذهب المالكي صُرف عن قضاء مرسيه في آخر حياته[3] .

وممَّن أُشتهر حينها بحفظ الرأي الفقيه الحافظ أبو علي حسن بن علي بن سهل الخشني السبتي تـ 560هـ/ 1164م من أقران القاضي عياض، أُشتهر بالافتاء وتدريس المدونة في سبتة[4]، ومحمد ابن القاضي عياض تـ655هـ/1256م كان " فقيها حافظا للمسائل بصيرا بالفتاوى في النوازل .... واستقضي بغرناطة وبغيرها "[5].

وعُرف بفاس عدد كبير من الفقهاء منهم علي بن الحسين بن علي اللواتي تـ573هـ/1177م من أعيان أهلها " كان عالما بالفرائض والعقود ومن حفَّاظ المسائل ممن تدور عليه الفتوى"[6]، وعبد الله بن محمد بن عيسى التادلي تـ597هـ/1200م من أصحاب القاضي عياض وأحد كبار حفاظ المذهب المالكي في المغرب، ولاَّه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن قضاء مدينة فاس بلده ... سنة 579هـ/1183م لكنه

---

1 – علية الأندلسي، شذرات فقهية من الحقبة الموحدية (2)، **ميثاق الرابطة**، مجلة إلكترونية تصدر عن ميثاق الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب، العدد: 19، بتاريخ 18-06-2010م.

2 – ابن الأبار، التكملة، ج:2، ص: 81.

3 – عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس (عصر المرابين و الموحدين)، ج: 2، ص: 254 و255 .

4 – ابن الأبار، التكملة، ج:1، ص: 259. وابن الأبار، المعجم، ص: 74 . وعياض، المدارك، ج:8، ص:210 .

5 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج: 8، ص:342. وابن الخطيب، الإحاطة، ج:2، ص:226. وابن فرحون، الديباج، ص: 289 .

6 – ابن الزبير، صلة الصلة، ج:4، ص:127. وابن الأبار، التكملة، ص:196. وابن القاضي، جذوة المقتبس، ص: 466 .

توفي بمكناسة مُغَرَّباً عنه سنة 597هـ/1200م عن سـنٍّ عاليـة" و"كـان قيمـاً على المدونة يحفظها" [1] .

وإسحاق بن إبراهيم بن يعمر المجـابري وُلِّـيَ قضـاء سـبتة وفـاس و" كان فقيها مالكيا حافظـا للـرأي قائمـا علـى المدونـة يقـال إنـه كـان يستظهـرها توفي في كائنة العقاب" [2].

أما الفقيه المدرِّس علي بن عشرين فكان مـن حفـاظ مـذهب مالـك محصلا محررا له، وتفقه عليـه عـدد مـن فقهـاء المغـرب، وكـان يحفـظ المدونة ولما "أحرقها ملوك الموحدين بالمغرب من بنـي عبـد المـؤمن كتبهـا الفقهاء من حفظه بمدينة فاس عنـد أول ظهـور ملـوك بنـي مرين...فأرسـلوا إلى الأندلس فأتوهم بنسـخ منها فقابلوهـا فوجـدوها لا خـلاف بينهـا إلا فـي فاء أو واو"[3]، كما كـُـتبت المدونة بعـد حرقهـا بعـدة سـنوات مـن حفـظ الفقيه أبي محمد عبد الله التادلي[4].

وكان الفقيه مروان بـن محمـد بـن علـي بـن مـروان بـن جبـل الهمداني رغم نشأته فـي أكنـاف الخلافـة الموحديـة إلا أنَّـه كـان "حافظـاً للمسائل بصيراً بالفتوى فـي النـوازل"، واُستقضـي سـنة 613 هــ/ 1216م بتلمسان وبغرناطة ومرسية[5]، ومنهم أبو محمـد يشـكر بـن موسـى الجـورائ الغفجومي ثم الفاسي، له حواشي علـى المدونـة[6]، وعبـد الـرحيم بـن عمـر اليزناسي (حي أواخر القرن السادس الهجـري) كـان إماماً فـي فقـه مالـك

---

1 – ابن ابراهيم، المصدر السابق، ج:8 ، ص:201 .

2 – ابـن الأبـار، التكملـة، ج:1، ص:162 . ابـن القاضـي، جـذوة الإقتبـاس، ج:1، ص:165 . والتنبكتي، المصدر السـابق، ص: 99 .

3 – ابن الأحمر، المصدر السابـق، ص: 19 .

4 – محمد المغراوي، صمود المذهب المالكي، مجلة دعوة الحق، ص: 103 .

5 – ابن عبد الملك، الذيل، المصدر السـابـق، ج:8، ص: 373 .

6 – ابن قنفد، الوفيات، ص: 46 .

محصلاً له[1]، وأبو الحسن علي بن سعيد الرجراجي الذي ألّف كتاب "مناهج التحصيل فيما للأئمة على المدونة من التأويل"[2]، والفقيه المالكي إسحاق بن إبراهيم الغماري السعيدي المجابري قاضي فاس وسبتة وشلب تـ 609 هـ/ 1212م، كان حافظاً للرأي، قائماً على المدونة مُستظهراً لها[3]، وأبو زيد عبد الرحمان بن يوسف الفاسي المشهور بابن زانيف تـ 612 هـ/ 1215م كانت تـُشدُّ إليه الرحال في مذهب مالك، وكان يقوم على المدونة قياما تاما[4]، كتب المدونة من حفظه[5].

أما في الأندلس فقد أشتهر الفقيه عبد الصمد بن عيسى الأنصاري بن الحاج تـ566هـ/1170م " كان فقيها حافظا للمسائل وكتب الفروع من أهل الخير والصلاح" [6]، ومنهم أبو الحسن علي بن محمد الأزدي ابن الصقيل من أهل شاطبة " كان ممن يناظر عليه في المدونة ويدرسها"[7]، ومنهم أبو محمد هارون بن أحمد بن جعفر بن عات النفزي الشاطبي تـ582هـ/1186م "كان فقيها حافظا متصرفا...قال ابن سعادة: " قرأت عليه المدونة مرارا جملة بداره بشاطبة في جماعة من الطلبة قراءة تفقه"[8]، ومنهم محمد بن عبد الله بن مالك بن الجائزة الإشبيلي الكلبي " كان فقيها عارفا حافظا للمسائل بصيرا بالفتوى في النوازل

---

1 – ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ص: 266 و 267 .

2 – التنبكتي، المصدر السابق، ص: 200 .

3 – ابن الأبار، التكملة، ص: 517 .

4 – ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ص: 254.

5 – التنبكتي، المصدر السابق، ص: 138 .

6 – ابن الزبير، المصدر السابق، ج:4، ص: 14.

7 – نفسه، ج:4، ص: 93.

8 – ابن الجزري، **غاية النهاية في طبقات القراء**، عُني بنشره ج. برجستراسر لأول مرة عام 1351هـ/ 1932م، مكتبة ابن تيمية، د.ت.ط، ج:2، ص: 345. وابن الزبير، المصدر السابق، ج:4، ص: 231.

استقضي وقتا" [1]، ومنهم منصور بن أحمد بن عبد الملك بن وارث الأنصاري ت577هـ/ 1181م كان " من الحفاظ للمسائل وتفقه وحفظ المدونة"[2]، وسليمان بن عبد الواحد الغرناطي ت599هـ/1212م ألَّف في الفقه كتاب الرسائل المجموعة على التهذيب للبرادعي في تسعة أسفار[3].

وفي منتصف القرن7هـ/ 13م برز الفقيه محمد بن أحمد بن خليل السكوني ت 646هـ/1248م من أهل إشبيلية " كان جيِّدَ القيام على المذهب المالكي ذاكرا لمسائله وجمع بين الرسالة والتفريع والتلقين جمعا محكما " [4]، وعلي بن عبد الله المتيوي ت669هـ/1270م من حوز سبتة، كان حافظ المغرب لمذهب مالك في وقته "يقال إنه عرض المدونة في يوم واحد وشرح الرسالة شرحا نقل فيه أقوال الأئمة الذين تدور عليهم الفتوى في المذهب ولم يتعرض لألفاظها ولم يتم"[5].

ومن أبرز علماء المذهب المالكي الذين ألَّفوا في المذهب خلال العصر الموحدي، حسن بن إبراهيم بن زكون ت553هـ/1138م فقيه تلمساني نزل مدينة فاس، ذُكر أن له تآليف في الرأي[6].

---

1 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج: 8، ص: 310 .

2 – ابن الخطيب، الإحاطة، ص: 32 .

3 – ابن فرحون، المصدر السابق، ص: 123 .

4 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:5، ص:635. وابن ابراهيم، المصدر السابق، ج:4، ص: 236.

5 – الأنصاري، **اختصار الأخبار**، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، الطبعة 02، الرباط، المغرب، 1404 هـ/1983م، ص: 23. والتنبكتي، المصدر السابق، ص: 203 .

6 – أنظر : ابن الأبار، التكملة، ج:1، ص: 269. وابن القاضي، جذوة المقتبس، ج:1، ص: 183.

ومحمد بن جعفر بن أحمد القيسي المعروف بابن الرمامة تـ567هـ/1171م أصله من قلعة بني حماد وسكن مدينة فاس وأستقضي بها زمن المرابطين ثم تفرَّغ منذ سنة 535هـ/1140م لتدريس الفقه بمدينة فاس وكان الطلبة يرحلون إليه من مناطق متعددة، لذلك فإن لائحة الآخذين عنه من الأندلسيين والمغاربة طويلة، ألف كتاب تسهيل المطلب في تحصيل المذهب، وكتاب التبيين في شرح التلقين للقاضي عبد الوهاب في الفقه المالكي، وكتاب التقصي في فوائد التقصي لابن عبد البر في الفقه أيضا[1] .

أما علي بن يحي بن القاسم الحميري الصنهاجي البطوئي المالكي تـ580هـ/1184م أصله من بلاد الريف واستوطن الجزيرة الخضراء كان فقيها زاهدا ألف كتابا في الشروط سماه المقصد المحمود في تلخيص العقود أُعتبر " من أنبل ما ألف في ذلك ... وقد كثر استعمال الناس إياه واعتمدوه وآثروه على غيره " [2] .

وأبو محمد يسكر بن موسى الجراوي ثم الغفجومي الفاسي تـ598هـ/ 1201م "الفقيه الصالح صاحب الحواشي على المدونة"[3] إمام مسجد القرويين بفاس كان عالما في الفقه المالكي آية فيه[4] وكان يؤُم ولايخطب " لأنه كان أعجمي اللسان شديد العجمة فقدم من ينوب عنه

---

1 – ابن الأبار، التكملة، ج:2، ص: 158. وابن عبد الملك، المصدر السابق، ج: 8، ص: 325 .

2 – ابن الأبار، التكملة، ص: 237. وابن عبد الملك، المصدر السابق، ج: 8، ص:213 . والتنبكتي، المصدر السابق، ص: 200 . وابن مخلوف، شجرة النور الزكية، ص: 158 .

3 – ابن قنفد، وفيات ابن قنفد، ص: 300 .

4 – وابن القاضي، جذوة المقتبس، ج:1، ص: 562 .

في الخطابة"[1]، له كتاب: "الإقتداء في فقه مالك"[2]، ومن تلاميذه أبو محمد صالح الهسكوري شارح الرسالة لابن أبي زيد[3].

ومحمد بن عبد الحق الكومي كان قاضيا بتلمسان وكان على معرفة بالحديث ألف كتاب غريب الموطأ[4]، وعلي بن سعيد الرجراجي نزيل جزولة بجبل الكست كان حيا سنة 663هـ/ 1235م ألف كتاب مناهج التحصيل ونتائج لطائف التأويل على كشف أسرار المدونة[5].

ومن مصنفات الفقهاء الأندلسيين ابن خيروج عبد الله تـ562هـ / 1166م له المنوطة على مذهب مالك[6]، وأبو محمد عاشر بن محمد الأنصاري تـ567هـ / 1171م كان فقيها كبيرا حافظًا للمسائل بصيراً بالفتوى، شرح المدونة مسألة مسألة بشرح كبير الموسوم بالجامع البسيط وبغية الطالب النشيط أنجز منه نحو مائة جزء وتوفي قبل إكماله [7].

وألّف إبراهيم بن أحمد بن عبد الرحمان الأنصاري المعروف بحنكالش قاضي ميورقة عدة كتب منها: الوثائق المختصرة، وكتاب التموين مما لا غنى عنه لكل فقيه، وأجوبة الحكام فيما يقع للعوام من نوازل الأحكام[8]، ووضع أبو محمد هارون بن أحمد بن جعفر بن عات

---

1 – الكتاني، سلوة الأنفاس، ج:3، ص: 164 .

2 – ابن الزبير، المصدر السابق، ج:5، ص: 292.

3 – ابن قنفد، أنس الفقير، ص: 23 .

4 – ابن مخلوف، شجرة النور، ص: 170 .

5 – لايزال مخطوط. أنظر: محمد المغراوي، صمود المذهب المالكي، ص:108 .

6 – ابن الزبير، المصدر السابق، ج: 3، ص: 108 .

7 – ابن عميرة الضبي، بغية الملتمس، مصدر سابق، ص: 361. وابن الأبار، معجم أصحاب القاضي أبي علي الصدفي، ص: 299 . وابن عبد الملك، المصدر السابق، ج: 5، ص: 99 و101. وابن فرحون، الديباج، ج: 1، ص: 271 . وعمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج:5، ص: 55.

8 – ابن فرحون، الديباج المذهب، ج: 1 ، ص: 271 .

النفزي حواش لعدد من مصادر فقه الفروع منها تنبيهات على مسائل على مسائل المدونة والعتبية، والوثائق الفتحونية، وأحكام ابن حدير وأحكام ابن سهل[1]، ومحمد بن سعيد بن زرقون الإشبيلي ت586هـ/1190م ألف كتاب : الرد على من يقبض في صلاة الفرض[2] وهو من الفقهاء الذين دافعوا عن المذهب المالكي في مجلس عبد المؤمن، وتأليفه لهذا الكتاب جاء إجابة مباشرة على التطورات الفقهية الجديدة التي شهدها العصر الموحدي[3]، كما ألف مختصرا في الفقه سماه : المنهج السالك في تعريف مذهب مالك " [4].

أما الفقيه الغرناطي سليمان بن عبد الواحد بن عيسى الهمداني ت599هـ/1202م فقد "ألف في الفقه كتابا حسنا في تسعة أسفار سماه بالمسائل المجموعة على كتاب التهذيب للبرادعي"[5]، ومحمد بن عبد الله بن مالك بن الجائزة الكلبي الإشبيلي المالكي له "مصنف في الصلاة حسن تلقاه الناس بالقبول وحملوه عنه ونفع الله به خلقا كثيرا " [6] .

والفقيه الأديب أبو الحسن علي بن أمد بن محمد بن يوسف بن عمر الغساني الأندلسي الوادي آشني من أهل وادي آش ت609هـ/1212م درس على علماء عصره، ألّف في شرح الموطأ تأليفا سماه " نهج السالك للتفقه في مذهب مالك " في عشرة أجزاء، وشرح كتاب التفريع

---

1 – ابن الزبير، المصدر السابق، ج: 4، ص: 231. وابن الأبار، التكملة، ج: 4 ،ص: 141. وابن الأثير، غاية النهاية، ج: 2، ص: 245 .

2 – وهو مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم : 1427، أنظر: محمد المغراوي، صمود المذهب المالكي، ص: 109 .

3 – نفسه .

4 – التنبكتي، الديباج المذهب، ص: 45 .

5 – ابن عبد الملك، الذيل، ج:4 ،ص: 75. وابن الزبير، المصدر السابق، ج:4، ص:203 .

6 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج: 8 ، ص: 310 .

لابن الجلاب في كتاب سماه " الترصيع في تأصيل مسائل التفريع[1]، أما سليمان بن حكم بن محمد الغافقي ت618هـ/1221م من أهل قرطبة نظم رجزاً في الفقه على " مذهب مالك تتبَّع فيه كتاب الخصال الصغير للعبدي وأبوابه " [2]، وأبو محمد عبد الله بن محمد الجذامي المعروف بالشلطيشي كان مُحصلاً للمذهب المالكي تحصيل حفظ وإتقان، وصفه تلميذه الرعيني ت666هـ/1267م بأنه كان "فروعياً قحـًا"[3].

وتعزز المذهب المالكي في الغرب الإسلامي بسيطرة المرينيين على مراكش عاصمة الموحدين، حيث يذكر إسماعيل بن الأحمر أن الأمير: أبو يوسف يعقوب المريني(656هـ-684 هـ/1259م-1286م) "طلب منه أهل المغرب الرجوع في القضاء إلى مذهب مالك عن طيب أنفسهم، أمر قضاة المغرب بذلك وترك مذهب الظاهرية وعدم العمل بالأحاديث الموضوعة "[4] .

ويُمكن القول أن المذهب المالكي وفقهاءه وأنصاره قطعوا محنة العهد الموحدي للوصول إلى شاطئ القرن السابع مطمئنين آمنين[5]، بالتالي عاد المذهب المالكي ليسود الساحة الفقهية في الغرب الإسلامي، فتوًى وتصنيفاً وتدريسا، لتعلُّق المغاربة بالمذهب المالكي من جهة، وطبيعة التغيير الموحدي المتسرِّع من جهة أخرى، بالإضافة إلى الدور الريادي والأساسي الذي لعبه فقهاء المالكية في الحفاظ على مذهبهم.

---

1 – نفسه، ج: 5، ص: 186 و187، وابن الزبير، المصدر السابق، ج: 4، ص:126. وابن فرحون، الديباج، ج:2، ص: 118. وابن الخطيب، الإحاطة، ج: 4 ،ص: 182 .

2 – ابن الأبار، التكملة ، ج:4 ، ص: 99 .

3 – الرعيني، المصدر السابق، ص: 41 .

4 – ابن الأحمر، المصدر السابق، 20 و 21 .

5 – رضوان مبارك، المرجع السابق، ص: 206 .

➢ **الفصـــل الثانـــي :**

➢ **تــعــزز الاتجــاه الظاهري في الغرب الإسلامي خــلال العصــر الموحدي (6هــــ – 8 هــ / 12م – 14م) :**

➢ **المبحث الأول** : مظــاهر تــعـــزز الاتجــاه الظــاهري فـــي الغــرب الإسلامي خلال العصـــر الموحدي .

➢ المطلـــب الأول: مظاهـــــر انتصـــار الســلطة الموحديـــة للمـــذهب الظاهـــري.

➢ المطلب الثاني: نهضـــة المـــذهب الظـــاهري فـــي الغـــرب الإســـــلامي خلال عهـــد المنصور المـــوحدي.

➢ **المبحث الثـــاني** : المـــذهب الظـــاهري فـــي الغـــرب الإســـلامي نهايـــة العصر الموحدي وموقف الفقهاء منـــه .

➢ المطلب الأول: موقف فقهاء المالكية مـــن تطـــور المـــذهب الظـــاهري في الغرب الإســـلامـــي خـــلال العصـــر الموحدي.

➢ المطلب الثاني: تـــــراجع المـــذهب الظـــاهر فـــي الغـــرب الإســـلامي نهايـــة العصـــر المـــوحـــدي وأثـــرهُ في المنطـــقـــة .

الفصـــل الثاني :

تـــعــزز الاتجاه الظاهري في الغــرب الإسلامي خـــلال العصــــر الموحــــدي

(6هـــ – 8 هــ / 12م – 14م):

المبحث الأول : مظاهر تـــعـــزز الاتجـــاه الظـــاهري فـــي الغـــرب الإســـلامي خـــلال العـــصــــر المـــوحـــدي .

ظهرت في العصر الموحدي دعوة جادة إلى نبــذ الفــروع والعــودة إلــى الأصول وفق المنهــج الظاهري، وسنتبين مــن خـــلال هـــذا المبحـــث مظـــاهر ذلك ومواقف فقهاء المالكية منــه.

المطلــب الأول : انتصـــار السلطة الموحـــدية للاتجـــاه الظاهـــري .

لا نستبعد في تكوين ابن تومرت الفسيفســائي وجــود الأثــر الظـــاهري، فقد ثبت مرور ابن تومرت على الأنــدلس فـــي رحلتـــه العلميـــة[1]، ولعلـــه تـــأثر بالمذهب الظاهري هنالك في جملة المـــذاهب التـــي كانـــت رائجـــة[2] خاصـــة وأن بعض الدراسات تذكر إقامته بالأندلس سنة كاملة[3] .

ولاشك أن ميول ابـــن تـــومرت المالكيـــة الحديثيـــة قـــد تكـــون لهـــا علاقة بتأثير مالكية بغداد أثناء إقامته المشـــرقية، إذ مـــن المعـــروف أن المالكيـــة في القرن 6هـــ/ 12م كانـــت تنقســـم إلـــى مدرســـتين كبيـــرتين بعـــد تراجـــع المدرسة الحجازية، وهما: مدرسة بغداد التي كانت أكثـــر تفتحـــا علـــى الحـــديث

---

1 – ذكر ذلك ابن القطان (أقدم الروايات) أنظر: نظم الجمـــان، ص:4، وتابعـــه ابـــن عـــذارى فـــي البيـــان المغرب، ج:1،ص: 453. وابن خلدون في العبر ج:6، ص: 465 .

2 – عبد المجيـــد النجـــار، ابـــن تـــومرت، ص: 67، وعبـــد الله العـــروي، تـــاريخ المغـــرب، ص: 176. والعبادي، المجمل في تاريخ الأندلس، ص: 167.

3 – عبد المجيد النجار، ابن تومرت، ص : 67.

النبوي، وكان لهـا تأثيـرات[1] علـى فقهـاء الغـرب الإسـلامي خاصـة فـي القـرنين 4و5هـ /10و11م، ثـم انحسـر تأثيرهـا لفائـدة تـأثير المدرسـة المصرية التي ازداد ارتباط فقهـاء الغـرب الإسـلامي بهـا[2] والمهتمـة أساسـا بالـرأي والفـروع والمسائـل[3] .

وتبرز ظاهرية ابن تـومرت مـن خـلال جملـة مـن المعطيـات، منهـا انتقاده الشديد للحالة التي آل إليها الفقه في عصر المـرابطين، مـن تشـعب فـي الأقوال والآراء، فكان يريد من هذا الرجـوع إلـى الأصـول الحديثـة للمـذهب الظاهري، مع إعادة الاعتبار لعلم أصـول الفقـه وللعقـل بصـفته أداة للإجتهـاد والتأويل والاستنباط[4].

وفي مشيخة ابن تومرت نجد أنه تتلمذ على يـد الفقيـه أبـي بكرالطرطوشـي تـ520هـ/1125م أحد المهتمين بالفقـه الظـاهرى وكتـب ابـن حـزم، حتـى إنـَّه كان يجتمع بقرطبة مع أبناء ابن حزم وجماعـة مـن الظاهريـة لتصـنيفها ومعرفة محتوياتها[5].

---

1 – عبد القادر بن عـزوز، **<u>ملامـح مـن المدرسـة الفقهيـة المالكيـة المصـرية فـي طـور التوسـع والانتشار</u>**، أعمال الملتقى الوطني الرابع للمذهب المالكي بعـين الـدفلى، (ملامـح عـن المـذهب المـالكي بعد مرحلة التأسيس)، ص: 52 و53 و54.

2 – كانت هناك عدة مدارس منها : مدرسة مصر التـي نشـأت مـع ابـن القاسـم تـ 191 هـ /806م ومدرسة القيـروان التي نشأت مع سحنون بـن سـعيد تـ 240 هـ/854 م، ومدرسـة قرطبـة التـي نشأت مع يحي بن يحـي الليثي تـ 234 هـ/848م. أنظـر: محمـد المغـراوي، السـلطة والصـلحاء، ص: 49 و50 .

3 – عبد القادر بن عزوز، المرجع السابق، ص: 54 و55.

4 – محمد المغراوي، تطور علاقـة السـلطة الموحديـة بفقهـاء المـذهب المـالكي إلـى عهـد يعقـوب المنصور، ص:26.

5 – الكنانى، مؤلفات ابن حزم ورسائله بين أنصاره وخصومه، ص:86.

ولدينا رواية وحيـدة ذكرها شارح كتاب أعـز مـا يطلـب تشـير إلـى أن المهدي أمر بقطع كتب الفـروع الفقهيـة وحرقهـا[1]، وهـو لـيس بالغريـب عن ابن تومرت الـذي أشتهـر عنه أنـه " كـان ينهـى عـن التقليـد وقـراءة كتب الـرأي" [2] .

أما اعتماد ابن تومرت على كتـاب الموطـأ واختصـاره لـه، فالحـقيقة – عند بعض الباحثين– أنَّ موطأ مالك ما هو إلا أحـد كتـب الحـديث المعتمـدة عند سائر المسلمين وليس في اعتماد المهـدي عليـه دليـل علـى مالكيتـه، إذ أن ابن حزم منجنيق المغرب الذي سلط لسـانه وقلمـه علـى المالكيـة لـه شـرح للموطأ مفقود[3]، كما أن يعقوب المنصور مع ظاهريتـه الصـرفة اهـتم بالموطـأ وأمر بجمع الحديث من مصنفات عشرة من بينها الموطأ[4].

فكان اختصاره لكتاب الموطأ في الفقـه المـالكي يهـدف إلـى " تحريـر العقل الفقهي من النزعة الفروعية التي يحكمهـا الجمـود والتقليـد، بـل التقـديس لكل قول أو صاحب قول فـي المـذهب، بغـض النظـرعن طبيعـة مصـادره، والرجوع من ثـَمَّ إلى أصول التشريع الإسـلامي، متمثلـة فـي القـرآن والسـنة والإجماع "[5]، وقد اعتبر بعض الباحثين اختصـار ابـن تـومرت للموطـأ حيلـة من حيله على المغاربة لصرفـهم عن الموطأ عمدة الفقه المالـكي[6].

1– مجهول، **شرح أعز ما يطلب**، مخطوط خزانـة بـن يوسـف بمـراكش، رقـم : ي 401 ، نقـلا عـن كتاب: ابن تومرت للدكتور عبد المجيد النجار ص : 362 .

2 – ابن القطان، نظم الجمان، ص: 38 .

3 – توفيق الغلبزوري، المرجـع السابق، ص : 628 .

4 – عبد الواحد المراكشي، المصدر السـابق، ص: 203.

5 – محمد المغراوي، تطور علاقـة السـلطة الموحديـة بفقهـاء المـذهب المـالكي إلـى عهـد يعقـوب المنصور، ص:28 .

6 – عبـد الله عـلام، الـدعوة الموحديـة، ص: 304. وأحمـد مختـار العبـادي، دراسـات فـي تـاريخ المغرب، ص: 109 .

وقد استفاد ابن تومرت من الفقه الظاهري في الثورة على التقليد والعودة إلى الكتاب والسنة والطعن على أهل البدع والظلم[1] والخروج على الحاكم إذا أوقع شيئاً من الجور وإن قلّ[2].

وظهر إعجاب وتأثُّر ابن تومرت بابن حزم في عدة مسائل عقدية وأصولية فضلا عن الفقهية منها، تُعتبر قِوام مذهبه الديني، مثل قوله بأن الشريعة لا تثبت بالعقل، وانحصار أصولها في القرآن والسنة[3].

وإن المقارنة بين آراء الرجلين لتسفر عن ملاحظة تقارب شديد بين بعض الآراء، يسمح بالحكم بأن هناك علاقة تأثير بينهما، وهو حكم سمح به ما يكاد يكون يقينيا من اطلاع ابن تومرت عى مؤلفات ابن حزم حين مروره بالأندلس أو بعد رجوعه إلى المغرب[4]، وأهم تشابهٍ بين فكر الرجلين يظهر في نبذ التقليد والنزوع إلى التأصيل[5]، وإبطال القياس الذي يُعدُّ أبرز أصول مذهب الظاهرية[6].

---

1 – عبد المجيد النجار، ابن تومرت، ص:105.

2 – أفتى ابن حزم بأنه إن وقع شيء من الجور وإن قل فمن الواجب أن يكلم الإمام في ذلك ويمنع منه ، فإن امتنع وراجع الحق وأذعن للقود من البشرة أو من الأعضاء، ولإقامة حد الزنا والقذف والخمر عليه، فلا سبيل إلى خلعه وهو إمام كما كان لا يحل خلعه. فإن امتنع من إنفاذ شيء من هذه الواجبات ولم يراجع وجب خلعه وإقامة غيره، ممن يقوم بالحق لقول الله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) [سورة المائدة آية 2] . أنظر : ابن حزم، الفصل ، ج:3، ص: 106.

3 –ابن تومرت، أعز ما يطلب، ص: 163 – 174. يقول عبد الله علي علام: " بعد البحث الطويل رأينا أن عقيدة ابن تومرت أقرب إلى مذهب الحزمية "، الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن بن علي، ص: 304

4 – عبد المجيد النجار، ابن تومرت، ص: 360 . وعلي الإدريسي، الإمامة عند ابن تومرت ، ص: 109 .

5 – توفيق الغلبزوري، المدرسة الظاهرية بالمغرب والأندلس، ص: 657 .

6 – نفسه، ص: 636 .

وإن التقى ابن تومرت مع ابن حزم فـــي نفـــي القيـــاس إلا أنـــه يختلـــف معه في حُجِّيـــة عمل أهل المدينـــة بالإضـــافة إلـــى الاعتقـــاد الأشـــعري الـــذي يُعتبـــرُ الأول حامل لوائـــه والثاني من ألدِّ أعدائـــه[1] .

ومع أن المشـــــروع الفكـــري التـــومرتي تأسَّـــس وفـــق مـــؤثرات مختلفـــة إلاَّ أنّه نادراً ما يشير إلى مصـــادره، لـــذا لا نجـــده يحـــتجُّ بـــأقوال ابـــن حـــزم[2] ولا بأقوال غيـــره ممَّـــن كان لهم أثر في فكر ابن تومرت.

ويُـــمكن اعتبار نفي القياس أهم نقطـــة يلتقـــي فيهـــا التوجـــه الفقهـــي لـــدى الموحدين مع المذهب الظاهري، فمن المعلـــوم أن ابـــن تـــومرت أعلـــن رفضـــه للقياس صراحةً كما أعلنته الظاهرية الـــذين "جعلـــوا المـــدارك كلهـــا منحصـــرة في النصوص والإجماع وردوا القياس الجلي والعلـــة المنصوصـــة إلـــى الـــنص، لأن النص على العلة نصٌ على الحكـــم"[3]، وذهـــب ابـــن حـــزم إلـــى أن القيـــاس لايجـــوز إلا داخل أفـــراد النـــوع الواحـــد ولـــيس فقـــط لمجـــرد وجـــود شـــبه بينهما، لذلك اعتبـــر القياس فاســـدًا في الفقه، مؤكدا علـــى بنـــاء الشـــرع علـــى القطع وليـــس على الظـــن[4].

ويقول ابن تومرت أيضـــا: "وذهـــب آخـــرون إلـــى الاســـتنباط مـــن عقولهم وتحسين الأشياء على ما أدتهم إليه، عدولا منهم عـــن الحـــق وذلـــك كلـــه فاسد إذ أصول الشـــريعة وفروعهـــا منحصـــرة"[5]، وقـــال أيضـــا: " لا يصـــح أن يقيسوا بعقولهم في الشرع لما كانوا بسبيله من التوقف والتحري "[6].

---

1 – انظر تـــفصيل المقارنة، لخضر بولطيف، المرجع السابق، ص: 109 و110 .

2 – محمد مغراوي، خطة القضاء، ص: 83 .

3 – ابن خلدون، المقدمة، ص: 564 .

4 – ابن حزم، **ملخص إبطال القياس والرأي والإستحســـان والتقليـــد والتعـــديل**، تحقيـــق ســـعيد الأفغـــاني، الطبعة 02، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1969م، ص: 12 .

5 – ابن تومرت، أعز ما يطلب، رسالة الدليل على أن الشريعة لا تثبت بالعقل، ص: 157 .

6 – نفسه، ص: 167 .

أما قول ابن تومرت بحجية عمل أهل المدينة، فهذا من معالم المذهب التومرتي التلفيقي، فلا يُستغرب أن يوجد أصل من أصول المالكية ضمن المنهج التومرتي إلا أنه ليس بالغالب[1]، وحتى المذاهب الفقهية الأخرى تتأثر ببعضها البعض .

وترك ابن تومرت عدة رسائل تعكس نزعته الظاهرية منها: رسالة في أصول الفقه، وعدة مباحث أصولية في مجموع أعز ما يطلب وأهمها رسالة في الصلاة وكتاب تحريم الخمر إلى جانب رسائل أخرى تضم مجموعة من الأحاديث في مواضيع فقهية، وفي مجال الحديث ترك ابن تومرت ثلاثة مصنفات هي محاذي الموطأ، مختصر صحيح مسلم، ورسالة في بيان طوائف المبطلين من الملثمين والمجسمين تشتمل على مجموعة من الأحاديث في أهل الباطل ووجوب جهادهم مخرجة على أن المقصود بها هم المرابطون وردت في مجموع أعز ما يطلب .

ومع ذلك فإذا قمنا باستقراء مصنفات ابن تومرت لا نجد ظاهرية بالمفهوم الحزمي إلاّ أنَّ الأمر يتعلق بنبذ الفروع والأخذ من الكتاب والسنة أكثر من الانتماء إلى مذهب معين[2].

وكتاب "أعز ما يطلب" لا يتضمن مذهبا فقهيا جديداً ولا حتى واضحًا وإنما هو مجموعة من الأحاديث مختارة من موطأ مالك وغيره من كتب الأصول بعد إسقاط الأسانيد منها دون تبويب واضح أو شرح بيِّن، تنمُّ بوضوح عن " ضعف الرجل في الفقه، وهنا تتضح الحقيقة الراقدة في طبع الرجل وهي حب السلطة والرياسة بقوة المصامدة " [3].

---

1 – توفيق الغلبزوري، المرجع السابق، ص: 629 .

2 – عبد الغني أبو العزم، هل كان ابن تومرت مالكيا، ضمن مجموع: **التراث المالكي في الغرب الإسلامي**، سلسلة منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامع عين الشق، الدار البيضاء، المملكة المغربية. ص: 288.

3 – حسين مؤنس، وثائق المرابطين والموحدين، ص: 216 .

ولعلَّ تحمُّس وانتصار ابن تومرت للمذهب الظاهري – في اعتقادنا– يرجع إلى أن المذهب المالكي كان المذهب الرسمي للدولة المرابطية التي عاني المهدي مع فقهائها ما عانى في مراكش على يد فقهاء المالكية في عهد علي بن يوسف وعزمهم على قتله لولا خروجه إلى تينملل، فعمل الموحدون على محو كل ما يربط الأذهان بالدولة المرابطية، أضف إلى ذلك أن ابن حزم ومدرسته الظاهرية يُعدان رمز التمرد على المذاهب الفقهية وخاصة المذهب المالكي وأعلامه بالمغرب والأندلس فاتخذ المذهب الظاهري شعارا ورمزا لهذه الغاية[1]، وعمل على تغيير المذهب المالكي الذي اعتنقته الدولة المرابطية إلى المذهب الظاهري أكثر المذاهب معارضة له[2].

وهذا ما جعل المؤرخين والباحثين – قديما وحديثاً – يحكمون بظاهرية ابن تومرت من خلال عدائه للفروع والتقليد من جهة، ودعوته للتمسك بالأصول من جهة أخرى، وهي أبرز معالم الظاهرية، مستدلين على هذا بما أثبته ابن الخطيب تـ776هـ/1374م في شرح الحلل بأن ابن تومرت كان "يُنكر كتب الرأي والتقليد"[3]، "حافظا راويا للحديث"[4] على حد وصف ابن أبي زرع الفاسي تـ 728هـ/ 1328م.

وتعود نسبة ابن تومرت للظاهرية كمذهب فقهي مستقل إلى وقت متأخر، ولعل أول من نسبه إلى الظاهرية الإمام الشاطبي تـ790هـ/1387م بقوله عن ابن تومرت "كان مذهبه البدعة الظاهرية"[5]،

---

1 – توفيق الغلبزوري، المرجع اسابق، ص: 623 .

2– أحمد بكير، **المدرسة الظاهرية بالمشرق والمغرب**،الطبعة01، بيروت، دمشق، دار قتيبة، 1990م، ص: 65 و66.

3 – ابن الخطيب، رقم الحلل، ص: 57.

4 – ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص: 173. والسلاوي، المصدر السابق، ج:2، ص: 92.

5 – الشاطبي، المصدر السابق، ص: 237 .

وعنه نقل الونشريسي تــ914هــ/ 1508م فـي المعيـار مـا يشـهد بظاهريـة المهدي إذ حلاه " بالظاهري " في مبحث البدع مـن المعيـار ونصـه : " ومنهـا ما أحدثه المهدي الظاهري محمـد بـن تـومرت ... مـن إعـادة الـدعاء بعـد الصـلاة والـدعاء عليهـا بتصـاليت الإسـلام عنـد كمـال الآذان... "[1]، أمـا ابن الأحمر تــ808هـــ/1405م فقـد ذكـر أن"ملـوك الموحـدين قـد تحلـوا بالمذهب المعروف لهم من إنكار الـرأي فـي الفـروع الفقهيـة والعمـل شـرعا على محض الظاهريـة، وجـروا علـى ذلـك سـنين بطـول إيـالتهم إلـى أن انقرضوا، أولهم في ذلك مهـديهم أول ملـوكهم"[2]، ومعـروف أن ابـن الأحمـر متشيع للمرينيين خصوم الموحدين وألـف كتابـه للسـلطان أبـي سـعيد الثـاني، مما جعل كثير من الباحثين يأخذون كلامه بنوع من التحفظ[3] .

وعلى رأي الونشريسي وابن الأحمر اعتمـد الأسـتاذ محمـد المنـوني فـي تأكيد ظاهرية ابن تـومرت وردَّ روايـة المراكشـي التـي نسـبت ذلـك لعبـد المؤمن ثم يوسف والمنصور فيقول أن " مسألة الظاهرية ليسـت آتيـة مـن عبـد المؤمن ثم يوسف فقط وإنما منشؤها الأصلي من ابـن تـومرت مؤسـس الدولـة الموحدية"[4] .

وتبنَّى هـذا الطـرح مـن المستشـرقين جولدتسـيهر وشـارل أنـدري جوليان وكارل بروكلمان وبالنثيا[5]، حيث يقول هذا الأخيـر: " وقـد مـال محمـد

---

1 – الونشريسي، المعيار، ج: 2، ص: 465 .

2 – ابن الأحمر، المصـدر السابـق، ص: 19 .

3 – عبد الحق الطاهري، ابن تومرت والمذهب المالكي، دعوة الحق المغربية، ص: 92 .

4 – المنوني، المرجع السابق، ص: 37 .

5 – بالنثيا، تاريخ الفكـر الأندلسـي، ص: 238، وكـارل بروكلمـان، تـاريخ الشـعوب الإسـلامية، ص: 325، وجوليان شـارل أنـدري، تـاريخ إفريقيـا الشـمالية، ج: 2 ص: 124، وعـن موقـف جولتسـهير أنظر: الجراري، الموحدون، ص: 109 .

ابن تومرت مهدي الموحدين إلى مذهب ابن حزم إذ وجد فيه ما يؤيد دعوته ووصل نفر من فقهاء الحزمية إلى كبار المناصب "[1].

وعموما وجد أنصار ابن حزم والظاهرية في السلطة الموحدية من يتبنَّى المذهب، أو على الأقل يضمن له الحرية والتأييد بتفاوت بين مُتبنٍ له (ابن تومرت وعبد المؤمن) ومُؤيدٍ (يوسف بن عبد المؤمن) ومُتعصبٍ (يعقوب المنصور).

فبعد وفاة ابن تومرت، التزم خليفته عبد المؤمن بن علي بالانتصار للنهج الظاهري، حيث أنشأ مدرسته بمراكش لتخريج العلماء ورجال الدولة على أساس المذهب الظاهري[2]، وحفظت لنا المصادر معلومة قيمة حول هذه المدرسة إذ كان الطلبة بها قد " أُمروا بكتب التوحيد وحفظه، وكتب موطأ الإمام رضي الله تعالى عنه ومسلم وحفظه، وأقاموا كذلك تحت جراية واسعة وجباية بالغة"[3]، وهو صرفٌ واضح عن موطأ الإمام مالك على رأي بعض الباحثين[4].

ورغم أن عبد المؤمن لم يتمكَّن من التطبيق الكامل والشامل للمذهب الظاهري إلا أنه كان يرمي إلى إضعاف سيطرة مذهب مالك على نفوس الناس، فعمل من أجل القضاء على الفقه المالكي واستعاض عنه بظاهر الكتاب والسنة ونهج الفقه الظاهري، فنشأ الحفاظ من الطلبة على حفظ الأحاديث والاهتمام به، ثم قلَّدهم مناصب الدولة وعزل شيوخ المصامدة[5] .

---

1 – بالنثيا، المرجع السابق، ص: 238 .

2 – توفيق الغلبزوري، المرجع السابق، ص: 662 و663. وسعيد أعراب، "موقف الموحدين من كتب الفروع وحمل الناس على المذهب الحزمي"، ص: 26.

3 – ابن القطان، نظم الجمان، ص: 140 .

4 – محمد المنوني، حضارة الموحدين، ص: 19.

5 – توفيق الغلبزوري، المرجع السابق، ص: 662 .

ومما أقدم عليه عبد المؤمن في المسعى نفسـه مـا ذكـره السـلاوي فـي تأريخه لسنة 550هـــ/1155م حيـث " أمـر أميـر المـؤمنين عبـد المـؤمن بن علي بإصلاح المساجد وبنائها فـي جميـع ممالكـه، وبتغييـر المنكـرات مـا كانت، وأمر مع ذلك بتحريـق كتـب الفـروع، ورد النـاس إلـى قـراءة كتـب الحديث، واستنباط الأحكام منها وكتب بذلك إلى جميـع طلبـة العلـم مـن بـلاد الأندلس والعـدوة "[1].

وعنـد المـؤرخ ابـن الأحمـر أن العمـل بالمـذهب الظـاهري طـال القضاء أيضاً ويذكر أن الموحدين" لما قلدوا القضاء فـي المغـرب إلـى قاضـي القضاة عبد الله بن طاهر الصقلي الحسيني[2] أمـروه أن يـأمر القضـاة بـالمغرب أن يحكمـوا بمحصـل الظاهريـة، فـامتثلوا أمـره، وصـاروا لا يحكمـون إلاّ بمحض الظاهرية، وجـروا على ذلك السـنن بطـول أيـامهم"[3]، والـنص ينطـق بوضوح بأن الموحدين حكّموا المذهب الظاهري في القضاء.

إلا أننا نستبعد هذا التغيير السريع إذ يبـدو أن القضـاء خـلال فتـرة عبـد المؤمن –وابنه يوسف– ظل بيد المالكية، واكبهـا تشـجيع مـن طـرف الخلفـاء

---

1 – انظر : الناصري، المصدر السابـق، ج:2، ص: 126.

2 – محمد بن طاهر من أهل مدينة فاس الشيخ الشريف القاضي المتصـوف المجاهـد كـان قبـل اتصـاله بالموحدين ينتحـل طريقـة الـوعظ ويتصـوف، اتصـل بالمنصـور الموحـدي عـام587 هــ / 1190م وحظي عنده بالمنزلة العظيمة، كان من جهابذة المحدثين، عالما بالأصـلين، تـوفي وهـو لا يـزال قاضـيا على إشبيلية بعـد رجـوعه مـن غـزوة العقـاب، عـام 608 أو609 هــ/1212م، ابـن أبـي زرع الفاسي، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولـة المرينيـة**، دار المنصـورة، الربـاط، المغـرب، ربيـع الثـاني 1392هـ/ ماي 1972م، ص: 48، والمراكشي، المصدر السـابق، ص: 445 .

3 – ابن الأحمر، المصدر السابق، ص: 19. وابن إبراهيم، المصدر السـابق، ج:8، ص: 396 .

للعمل بالكتاب والسنة[1]، فقد ورث الموحدون القضـــاء المـــالكي عـــن المـــرابطين ولم يكن من السهل تغيير هذا الجهاز بتلك الصورة.

وفي هذه الفترة كان لحفـــاظ الحـــديث مرتبـــة رفيعـــة بـــين العلمـــاء[2]، وبلغ علماء المغرب شأوًا كبيرا في الحفظ دراية وروايـــة، وفـــي كتـــب التـــراجم نقف على عدد من الوقائع التي تـــدل علـــى تفـــوقهم كـــذلك فـــي هـــذا الميـــدان، فيذكر المقري في النفح عن أحمد بـــن هـــارون النفـــري المعـــروف بـــأبي عمـــر بن عات المتوفي سنة 609هـ/1212م "حُـكي أنـــه حضـــر فـــي جماعـــة مـــن طلبة العلم لسماع السّـــير علـــى بعـــض شـــيوخهم، فغـــاب الكتـــاب أو القـــارئ بكتابه، فقال أبو عمر: أنا أقرأ لكم، فقـــرأ لهـــم مـــن حفظـــه، وقـــال أبـــو عمـــر عامر بن نذير: لازمته مدة ستة أشهر، فلـــم أر أحفـــظ منـــه، وحضـــرت إســـماع الموطأ وصحيح البخاري منه، فكان يقرأ مـــن كـــل واحـــد مـــن الكتـــابين نحـــو عشر أوراق عرضاً بلفظه كل يوم عقب صـــلاة الصـــبح، لا يتوقـــف فـــي شـــيء من ذلك، وقال بعض المؤرخين: إنه كان آخر الحفـــاظ للحـــديث، يســـرد المتـــون والأسانيد ظاهراً لا يخل بحفظ شـــيء منها، موصوفاً بالدراية والروايـــة"[3].

وقد مرَّ بنا نص صريح يـــكشفُ لنا عـــزم عبـــد المـــؤمن علـــى إحـــلال الظاهريـــة، مـــن خـــلال جمعـــه لفقهـــاء المالكيـــة ومنـــاظرتهم[4]، وقـــد عبَّـــر ابـــن زرقون عن ظاهرية عبد المؤمن بقولـــه "مـــراده أن يحمـــل النـــاس علـــى مذهب ابن حـــزم"[5].

---

1 – محمد العسالي، **المدارس الفقهية في المذهب المالكي**، بحث لنيـــل دبلـــوم الدراســـات العليـــا، إشـــراف الأستاذ زين العابدين بلافريج، جامعة الحســـن الثـــاني، الـــدار البيضـــاء، المغـــرب، 1421 هــــ / 2000م، ص : 277 .

2 – محمد الرشيد ملين، عصر المنصور الموحدي، ص: 250.

3 – المقري، نفح الطيب، ج:2، ص: 602.

4 – اُنظر الفصل السابق.

5– محمد عليش، المصدر السابق، ج: 1،ص: 103.

ومن أهم القرائن التي تشير إلى تحمس عبد المؤمن لفقه الظاهر نجدها ضمن رواية مناظرته لفقهاء المالكية، إذ أنَّ المسألة التي تذرَّع بها للطعن في مذهب مالك هي من صميم فقه ابن حزم، وقد أوردها في كتابه المحلى[1]، وهي مسألة إعادة الصلاة في الوقت والتي يرفضها الظاهرية، وبالغ في الرد على الإمام مالك، فعبد المؤمن – في هذا النص – كان يتكلم بلسان ابن حزم وهو يعتقد أن المالكية لا حجَّة لهم، وانتهى المجلس بإقرار رأي الظاهرية بعد كلام دار بين ابن زرقون المالكي وأحد الظاهرية[2].

وأعقب عبد المؤمن هذه المناظرة بأمرٍ منه يقضي " بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة الحديث، وكتب بذلك إلى جميع طلبة المغرب والعدوة "[3]، إلاَّ أنَّ الإحراق لم يتم، وأهم الأسباب التي حالت دون تنفيذ الإحراق في عهد ابن تومرت وعبد المؤمن أن الدولة لم تكن قد استكملت بناءها واستقرارها، بالإضافة إلى قوة المالكية عددا ونفوذا مما يتعذر إشهار مثل هذا التحدي[4] .

واستمرَّ انتصار السلطة الموحدية الهادئ للمذهب الظاهري خلال عهد يوسف بن عبد المؤمن[5] ذي الشخصية العلمية الهادئة الذي تجنَّب الاصطدام مع الفقهاء الفروعيين رغم أنه كان يحتفظ بمشاعر الإنكار مثل

1 – ابن حزم، المحلى، ج:2، ص: 238.

2 – محمد عليش، المصدر السابق، ج: 1، ص: 103. وسعيد أعراب، موقف الموحدين من كتب الفروع، ص: 26 .

3 – ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص: 195. وعليش، المصدر السابق، ج: 01، ص: 102 و103. والسلاوي، المصدر السابق، ج:1، ص: 337.

4 – حول اضطهاد المالكية أنظر : (الفصل السابق) .

5 – إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ص: 352 .

أبيه[1]، ولسنا هنا نحاكم النوايا، إذ أننا نجد نصاً قوياً الدلالة على ميل يوسف بن عبد المؤمن إلى الظاهرية، وذلك في حواره مع الحافظ أبي بكر بن عبد الله الجد الفهري الإشبيلي تـ589هـ/1192م[2] حيث لمح الخليفة باستخدام السيف في وجه من رأى في المسألة القول والقولان[3].

وفي إحدى رسائله إلى جميع البلاد بالعدوتين يدعو يوسف بن عبد المؤمن إلى الرجوع إلى القرآن الكريم إذ هو " الإمام الهادي والحق الواضح البادي، وسنة رسول الله صلى الله عليه و سلم التي جعل العمل بها كالعمل بكتابه و الوقوف عند حدها كالوقوف عند حده " [4] .

قال ابن خلكان وكان الأمير أبو يوسف يعقوب قد أمر برفض فروع الفقه، وأنَّ العلماء لا يفتون إلا بالكتاب العزيز والسنة النبوية، ولا يقلدون أحداً من الأئمة المجتهدين المتقدمين، بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب والسنة والإجماع والقياس"[5] .

وكان الخليفة يوسف بن عبد المؤمن -كما يصفه الذهبي وغيره- فصيحاً مفوهاً فقيهاً عالماً بالأصول والجدل والحديث، مشاركاً في كثير من العلوم الدينية والدنيوية، ولما تجهَّز لغزو الروم، أمر العلماء أن يجمعوا أحاديثاً في الجهاد تُملى على الجند، وكان هو يُملي بنفسه، وكبار الموحدين يكتبون في ألواحهم، وكان فقيها يتكلم في المذاهب ويقول: قول فلان صواب، ودليله من الكتاب والسنة كذا وكذا[6].

---

1 – حسين حافظي علوي، **الصراع المذهبي ببلاد المغرب في العصر الوسيط**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم: 157، ص: 199.

2 – ابن مخلوف، شجرة النور الزكية، ص: 159 .

3 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 204. وأنظر من أضطهد في عهده من فقهاء المالكية (الفصل السابق).

4 – ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص :226 – 227 .

5 – ابن خلكان، المصدر السابق، ج: 7، ص: 11.

6 – الذهبي، تاريخ الإسلام، ج: 40، ص: 322.

ويبدو أنَّ طريقة المهـدي فـي تجريـد الأحاديـث الفقهيـة مـن الأسـانيد وغيرها قد استهوت عبد المؤمن وابنه يوسـف وحفيـده يعقـوب المنصـور فقـد قام كل واحد من هـؤلاء الثلاثة بمحاولات فـي سـبيل تجديـد الفقـه مسـتنيرين بطريقة ابن تومرت الآنفة الذكر[1]، فقد صنف يوسـف بـن عبـد المـؤمن كتابـاً في الجهاد ذكر المراكشي أنه ألفـه لمـا تجهـز لغـزو الـروم فـي الأنـدلس[2]، والكتاب لايزال مخطوطـاً على حد علمي.

ولعل التطورات السياسية المتسارعة فـي عصـر الخليفتـين عبـد المـؤمن وابنه يوسـف من توسـعاتٍ وثـوراتٍ واضـطراباتٍ بالإضـافة إلـى الحاجـة الماسـة إلى ترسيـخ أسس الدولـة وكسـب تعـاطف الفقهـاء، كلُّهـا عوامـل أجَّلت العنف الموحدي المعهود إلى عهد المنصور[3].

---

1 – عبد الله علام، الدولة الموحدية، ص: 308 .

2 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 369 .

3 – عبد الهادي الحسيسن، الحركة العلمية في العصر الموحـدي، **مجلـة دار الحـديث الحسـينية**، العـدد: 05، السنة: 05، 1406هـ/ 1984م، ص: 419 .

المطلب الثــاني: نهضـــة المــذهب الظــاهري فــي الغـــرب الإســـلامي خـــلال عهــد المنصــور الموحــدي.

كان المنصور ذا "همةٍ عالية، واعتنــاءٍ بــالعلوم"[1]، وصــفه ابــن أبــي زرع بــ" أجل ملوك الموحدين وأكثرهم صــيتا"[2]، وحــلاّه ابــن الخطيــب بــــ" نجــم بني عبد المــؤمن وجــوهرتهم"[3]، أمــا ولايتــه فكانــت "زينــة للــدهر وشــرفا للإســلام وأهلــه"[4].

وبين أيدينا شهادة الرحالة ابن حمويــه السرخســي الدمشــقي الــذي زار المغرب عام 593هــ/1196م قبل عامين مــن وفــاة يعقــوب، وأقــام بمــراكش إلى سنة 600هــ/1203م والذي كــان مُطلعــاً علــى أمــور الدولــة الموحديــة واتـَّــصل بخدمة الخليفة يعقوب المنصــور فيقــول: " علمــت مــن حالــه أنــه كان يجيد حفظ القرآن ويحفظ متون الأحاديث ويتقنها، ويــتكلم فــي الفقــه كلامــا بليغا، وكان فقهاء وقته يرجعون إليه في الفتاوى ولــه فتــاوى مجموعــة حســبما أدى إليه اجتهــاده[5] ... وقــد صنَّف كتاباً جمع فيــه متـــون أحاديــث صــحاح تتعلق بهــا العبــادات ســماه "الترغيــب"[6]، ويواصــل السرخســي فيقول"وكــان

---

1 – ابن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار فــي ممالــك الأمصـــار**، الطبعــة 01، أبــو ظبــي، الإمــارات، المجمع الثقافي، 1423 هــ/ م2002، ج:5، ص: 155.

2 – ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص: 231 .

3 – ابن الخطيب، الإحاطة، ج:4، ص: 355 .

4 – السلاوي، المصدرالسابق، ج:2، ص: 198 .

5 – وهذه الفتاوى في حكم المفقود ولو وُجدت لأفادتنا كثيرا عت الحالة الفقهية خلال تلك الفترة.

6 – المقري، نفح الطيب، ج:3، ص: 102، لا يزال هو الآخر مخطوط على حد علمي.

الفقهاء ينسبونه إلى الظاهر"[1]، وهو دليل علـــى ظاهريــــة المنصـــور ولا دليـــل فيه يفيـــد التجني[2].

وشهادة النباهي تــ792هــ/1389م فـــي قمـــة الصـــراحة، يقـــول فـــي ترجمة أبي القاسم ابن بقي المحدث الظاهري: " وكان يميـــل إلـــى الظـــاهر فـــي أحكامه مدة ولايته، وعلى ذلك كان المنصور في مدته " [3].

ولدينا نص قديم يجســـد لنـــا بوضـــوح ظاهريـــة المنصـــور ومـــا أقـــدم عليه، حيث يقول ابن خليـــل العبـــدري(حي عـــام 614هـــــ/ 1217م) "إن الحـــق فيمن علم الحق وعَنَدَ عن قبولـــه مـــن هـــؤلاء أن يـــــُجالدوا عليـــه بالســـيوف، وتـــُحرق كتبهم المضلة التي ليس فيها لرســـول الله ذكـــر إلا آراء مجـــردة عـــن الإستدلال بالكتاب والسنة – حتى يرجعوا عـــن هـــذه المقاصـــد الرذلـــة ... كمـــا فعل بعض من ولاه الله مـــن أقطـــار الأرض أمـــرا، فجـــزاه الله خيـــر الجـــزاء، فمن لم يقدر على ذلك فغرضه – علـــى رأي أبـــي محمـــد – أن يجاهـــد بلســـانه كما فعل هـــو"[4].

وذكر المقري في النفح أن المنصور في طريـــق عودتـــه مـــن غـــزوه لأراضي البرتغال سنة587هــ/ 1190م شمال مدينة لبلـــة حيـــث توجـــد القريـــة التي دُفن بها ابن حزم، وقـــف علـــى قبـــر ابـــن حـــزم وهـــو يقول"عجبـــا لهـــذا الموضع يخرج مثل هذا العلم " ثم قال" كل العلماء عيال علـــى ابـــن حـــزم " ثـــم

---

1 – نفســـــه، وابن إبراهيم، الإعلام بمن حل بمراكش، ج: 10، ص: 264 .

2 – أنظـــر: عبد الله كنون، النبوغ المغربـــي، ج:1، ص: 125، وتوفيـــق الغلبـــزوري، المرجـــع الســـابق، ص: 691 .

3 – النباهي، قضاة الأندلس، ص: 118 .

4 – أنـــظر مقدمة كتاب : القدح المعلى في إكمال المحلـــى لابـــن خليـــل نشـــرها الأســـتاذ محمـــد إبـــراهيم الكتاني كاملة في مجلة معهد المخطوطات العربية في المجلـــد الرابـــع، وأجـــزاء منهـــا فـــي مجلـــة دعـــوة الحق: أنظر: إبراهيم الكتاني، صفحة مجهولة من تاريخ الفكـــر الإســـلامي، **مجلـــة دعـــوة الحـــق**، الســـنة: 01، العدد 06، ديسمبر1957م، ص: 25.

رفع المنصور رأسه و قال " كما أن الشعراء عيال عليك يا أبا بكر " يخاطب الشاعر ابن مجبر الفهري تـ588هـ/1191م[1] .

وانطلاقاً من هذه النصوص القديمة زمانا والقوية حجة لا نستبعد ما ذكره المؤرخون والباحثون من سعي المنصور إلى ترسيخ المنهج الظاهري ونقله إلى الأجيال اللاحقة عن طريق استخراج الأحكام من النصوص الحديثية مباشرة[2]، وهو قصْدُ أبيه وجده لكن ظروف تأسيس الدولة حالت دون تطبيقهما لذلك.

واعتبر أحد الباحثين المنصور الموحدي العالم المجدِّد على رأس المائة السادسة للهجرة الذي أحيا ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة وأمر بالعمل بمقتضى ظاهرهما ومنع التقليد[3]، وهو ما أقره فؤاد سزكين الباحث في التراث العربي[4].

وعلى ما يبدو أن المنصور مهَّد لهذا الأمر الخطير الذي كان من شأنه أن يُثير الفقهاء والعامة على حد السواء، لذلك نجده منذ أن تمَّت له البيعة وأطاعته الأمة جعل عامة الشعب يلتفون حوله وذلك من خلال توزيع آلاف الدنانير الذهبية على الضعفاء وإطلاق سراح جميع المسجونين في كل البلاد ورد المظالم التي فعلها في أيام أبيه[5].

ومن أجل استقطاب الفقهاء والعلماء فإنه أظهر محبته إليهم وتعظيمه لهم، وصدوره عن رأيهم، وأجرى على أكثرهم الإنفاق من بيت المال وأوصى ولاته وعماله بالرجوع إلى أحكام القضاة والفقهاء، ومقابل ذلك

---

1 – المقري، النفح، ج: 3، ص: 328. وج: 2، ص: 206. ورشيد ملين، عصر المنصور الموحدي، ص: 194

2 – محمد أبو زهرة، __ابن حزم، حياته وعصره آراؤه وفكره__، دار الفكر العربي، 1954م، ص: 521 .

3 – توفيق الغلبزوري، المرجع السابق، ص: 677 .

4 – فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ج:2، ص: 228.

5 – ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص: 217 .

ضبط الثغور وشحنها بالخيل والرجال وفـرق فـي الموحـدين وسـائر الأجنـاد أموالا كثيرة فكان واسطة العقد الذي ضخم الدولة و شرفها[1] .

أما وقد رعى الشعب وأحسـن إلـى العلمـاء والفقهـاء وقـوَّى أركـان الدولة فإنه حقق العظمة التي تـُـخوِّلُ له اتخاذ القرارات الحاسمة[2].

وبعد انتصار الأرك سنة 590هـ/1193م أحـسَّ أبـو يوسـف يعقـوب المنصور أنه يستطيع البدء فـي إحـداث التغييـر المطلـوب، فـرأى أن يتـرك عقيدة المهدي وعصمته كما هي، إذ كانـت راسـخة فـي نفـوس القـوم، ولكنـه رأى أنه من الممكن إهمال كتابات المهـدي والإكتفـاء بدراسـة القـرآن والسـنة وترك رأي مالك دون إصرار شديد على ذلك[3].

فتبنَّـى المنصور نفس موقف أبيه من الفـروع فـي نبـذها والـدعوة إلى العمل بالأصول[4]، وفي هذا يقـول المراكشـي: "وكـان فعـل يعقـوب فـي الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحـدة، وحمـل النـاس علـى الظاهر من القرآن والحديث"[5].

كما أنه اختلف مع أبيه وجده في مواجهة الفـروع، فلـم يتوقـف عنـد حدود الإنكار والتهديد والتضييق، بل أقدمَ فعـلا علـى التنكيـل بكتـب الفـروع وأصحابها، ويذكر صاحب المعجب أنـه شـاهد بنفسـه بفـاس أيـام المنصـور حرق كتب الفروع[6].

وجاء في كتاب القوانين الفقهية أن الخليفة يعقـوب المنصـور كـان "عالمـا محدثا ألف كتاب" الترغيب " في الصلاة وحمل النـاس علـى مـذهب الظاهريـة

---

1 – نفســـه، ص: 216 و217 .

2 – الجيلالي سلطاني، الشعر الديني على عهد الموحدين، مرجع سابق، ص: 97.

3 – حسين مؤنس، وثائق المرابطين والموحدين، ص: 158 .

4 – المقري، نفح الطيب، ج:2، ص: 57 و58.

5 – عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص: 171.

6 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 278 و305. وهو المولـود عـام 581 هـــ/1185م وانتقـل إلـى فاس وهو في سن التاسعة لقـراءة القرآن .

وأحرق كتب المالكية"[1]، فلما تولى الحكم أحرق - تحزباً لأهل الظاهر- مدونة سحنون ونوادر بن أبي زيد وواضحة ابن حبيب وما جانس تلك الكتب، ولم يقع مثل ذلك في المشرق[2].

وتزامن ذلك مع هجمة موازية قام بها المنصور ضدَّ الفلسفة، وكلا الهجمتين كانتا بعد نصر الأرك، وكلا الهجمتين تخدمان اتجاها واحداً هو التحريض على الاهتمام بالقرآن والسنة مباشرة، وليس من المستبعد أن تكون عملية الإحراق شملت كتب الفلسفة والفروع في نفس الوقت، أي الاتجاه نحو الاعتماد على الظاهر من النص القرآني ومن الحديث[3]، فمن جملة ما أمر به الرعايا في إحدى رسائله "معرفة حقيقة دينهم من كتاب الله وسنة رسوله " [4] .

لذا جزم عدد كبير من الباحثين المعاصرين بظاهرية الموحدين وترسيمهم للمذهب في عهد المنصور[5]، يقول الأستاذ سعيد الأفغاني ممن اشتغل بتراث ابن حزم ردحا من الزمان، قال:" ويشاء الله أن يكافئ ابن حزم بعد موته فتقوم دولة الموحدين بالمغرب وينصر بعض أمرائها

---

1 - ابن جزي، القوانين الفقهية، ص: 402 و418 .

2 - أنظر: مقدمة كتاب "النبذ في أصول الفقه الظاهري" لابن حزم، ص: 4 .

3 - أنظر: ابن عذارى، المصدر السابق، ص: 206، والسلاوي، المصدر السابق، ج:2، ص: 200.

4 - أحمد عزاوي، المرجع السابق، الرسالة رقم 44، ص: 209.

5 - أنظر:عنان، عصر المرابطين والموحدين، ج: 2، ص: 24. و انظر أيضا : ج:1، ص:203، وأبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري، ابن حزم خلال ألف عام ، ج:2 ، ص: 82. ومحمد أبوزهرة، ابن حزم، ص: 519 - 522. وأحمد أمين، ظهر الإسلام، ج: 3، ص: 66. وفؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ج:2، ص: 228 . وتوفيق الغلبزوري، المرجع السابق، ص: 703. والحجوي، الفكر السامي، ج4 ، ص 2 - 4 - 213 - 214. ورشيد ملين، عصر المنصور الموحدي، ص: 253 . والمنوني ، العلوم و الآداب على عهد الموحدين، ص: 50 . ويوسف العريني، **الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين**، إصدارات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1416هـ/1995م، ص: 41 .

مذهب أهل الظاهر وتتـداول كتـب ابـن حـزم بعـد أن أحرقـت فـي حياتـه بإشبيلية، والمنصور الموحدي هذا أقـرَّ عيْني ابن حـزم فـي قبـره، فقـد كـان ظاهريا وتظاهر بمذهب الظاهرية وأعـرض عـن مـذهب مالـك فعظـم أمـر الظاهرية في أيامه، وكان بالغرب منهم خلـق كثيـر يقـال لهـم الحزميـة نسـبة إلى ابن حـزم رئيسهم"[1].

ونجد المنصور الموحدي يسـتدعي العلمـاء ورواة الحـديث مـن جميـع جهات المغرب الكبير إلى عاصمته مـراكش ويـأمرهم بتـدريس حـديث النبـي صلى الله عليه وسلم، كما كان يعقوب نفسه يحضر هـذه الـدروس ويختـار لهـا أعظم الشخصيات في معرفة علم الحديث لإلقائها[2].

ومن بين الشخصيات العلمية التـي اختارهـا لهاتـه المهمـة مـن أهـل المغرب ابن القطان الكتامي الفاسي المحدث الكبيـر تـ628هـ/1230م كـان من أبصر الناس بصناعة الحـديث وأحفظهـم لأسـماء رجالـه وأشـدهم عنايـة بالرواية، استبحر في علم الحـديث وبصـر بطرقـه، وميـز بـين سـقيمه مـن صحيحه ونقد رجاله، فكان أول شخصـية مغربيـة ركـزت الدراسـات الحديثيـة على الأساليب والمناهج المتبعة في الشرق، مـع نـوع مـن الأصـالة والجـدة، والذي أُسندت إليه رئاسة علم الحديث بمـراكش[3] ونـال بخدمـة السـلطان دنيـا عريضة[4].

ومن الأندلس نذكر أبا عبد الله محمد بـن إبـراهيم الأنصـاري المـالقي يُعرف بابن الفخار تـ590هـ/1193م، كان إمامًـا معروفًـا بسـرد المتـون

---

1 – ابـن حـزم، ملخـص إبطـال القيـاس والـرأي والاستحسـان والتقليـد والتعليل، مصدر سابق، ص: 10 .

2 – عبد الهادي الحسيسن، الحركة العلمية في العصر الموحـدي، مجلـة دار الحـديث الحسـينية، مرجـع سابق، ص : 421 .

3 – نفسه.

4 – محمد الرشيد ملين، عصر المنصور الموحدي، ص: 249.

والأسانيد عارفًا بالرجال واللغة ورعًا جليل القــدر، طلبــه الســلطان ليســمع منه [1].

كما تقلّد مجموعة من علمــاء الظاهريــة مناصــب كبيــرة فــي الدولــة كقاضي القضاة بمراكش أبو محمد عبــد الله بــن طــاهر الصــقلي[2]، ومــن بعــد ابنه محمد بن عبد الله تــ609هــ/1212م[3]، والفقيه أبــو ســليمان بــن حــوط الله الغرناطي تــ612 هــ/1215م الذي ولــي قضــاء إشــبيلية وقرطبــة ومرســية وسبتة وسلا وميورقة وكان أيضا أســتاذ الناصــر محمــد بــن يعقــوب (595-610هــ/1198م-1213م) وإخوته[4]، وأبــو بكــر بــن خلــف الأنصــاري تــــ 590هــــ/1193م تــولى قضــــاء فــــاس[5]، وأبــــو الخطـــــاب بــــن دحيـــــة تــ633هــ/1235م تــولى قضــاء دانيــة ســنة 595هـــ/ 1198م[6]، والحــافظ أبو بكر بن سيد النــاس تـــ659هـــ/1260م الــذي تــولى الخطابــة بمســجد تونس كمــا تــولى بــإفريقيـــة تــدريس الحــديث فــي المدرســة التوفيقيــة[7]، وعلي بن يوســف بــن عبــد الله بــن يوســف بــن الخطــاب المعــافري تـــ

---

1 - الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج:4، ص: 100.

2 - المنوني، حضارة الموحدين، ص: 28 .

3 - ابن إبراهيم، المصدر السابق، ج:7، ص: 60 .

4 - الســلاوي، المصــدر الســابق، ج:2، ص: 217، والــذهبي، تــذكرة الحفــاظ، ج:4، ص:128. والصفدي، الوافي بالوفيــات، ج:17، ص:106. وابــن فرحــون، الــديباج، ص:124. والســيوطي، بغيــة الوعاة، ج:2، ص:44. وابن إبراهيم، المصدر السابق، ج:4، ص: 207 .

5 - ابن الخطيب، الإحاطة، ج:3، ص: 416 - 417 .

6 - ابن الأبار، التكملة، ج: 1، ص: 221 .

7 - الغبرينــي، المصــدر الســابق، ص: 294. وابــن إبــراهيم، المصــدر الســابق، ج:4 ، ص: 222. والتنبكتي، نيل الابتهاج، ص:229. وعبد المجيد النجــار، ابــن تــومرت، ص: 480. وبالنثيــا، المــرجع الســابق، ص: 238 .

600هـ/1203م الذي تولّى قضاء إشبيلية[1]، ومنهم محمد بن عبد الله بن مروان التلمساني الظاهري ت601هـ/1204م الذي ولاّه المنصور قضاء الجماعة كذلك[2]، ومنهم أبو القاسم بن بقي الحزمي الظاهري ت625هـ/1227م تولى قضاء قرطبة[3].

ومن أشهرهم ابن مضاء القرطبي ت595هـ/1198م[4]، أسند إليه الموحدون قضاء فاس وبجاية[5]، ثم ولي قضاء الجماعة في الدولة كلها بدار الخلافة بمراكش في زمن يوسف بن عبد المؤمن[6]، ثم أقرَّه يعقوب المنصور على قضاء الجماعة[7]، وكان بنو عبد المؤمن كلهم عاملين على إيثاره متنافسين في إعظامه وإكباره[8].

وكان الخليفة يعقوب المنصور يُدرك ما لحركة التأليف من أثر على الأمة وأفكارها فكان يُسيِّر هذه الحركة العلمية ويوجهها الوجهة التي يراها صالحة، ولقد كان يؤسس اللّجان العلمية للتصنيف ويُعيِّنُ لهم الموضوعات التي يجب أن تتطرقها وتتناولها[1]، فأمر جماعة من المحدثين بجمع أحاديث من الموطأ والصحيحين وأبي داوود والنسائي والبزار

---

1 – ابن الأبار، التكملة، ج:3، ص: 436.

2 – ابن سعيد الأندلسي، الغصون اليانعة في شعراء المائة السابعة، ص: 29 – 35 .

3 – النباهي، قضاة الأندلس، ص: 117.

4 – ابن الأبار، التكملة، ج:01، ص: 79. وأبو جعفر الضبي، المصدر السابق، ص:193 . وابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:1، ص:212. وابن فرحون، المصدر السابق، ص:47، وابن ابراهيم، المصدر السابق، ج:1،ص:233 .

5 – ابن فرحون، المصدر السابق، ص: 48.

6 – المراكشي، المصدر السابق، ص:178.

7 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج: 01، ص: 211.

8 – ابن الأبار، التكملة، ص: 219 و 220 و 221. وابن فرحون، الديباج، ص: 48. والمراكشي، المصدر السابق، ص: 187 . وابن أبي زرع، المصدر السابق، ج: 1 ، ص:124 .

وابن أبي شيبة والدارقطني والبيهقي، فجمعوا منهـا أحاديـث فـي الصـلاة ومـا يتعلق بها فكان يملي هذا المجموع بنفسه على النـاس ويأخـذهم بحفظـه، فانتشـر في جميـع المغـرب وحفظه العامة والخاصة، وجعل لمـن حفظـه جعـلا مـن كِـسي وأموال[2].

وكشفت المصادر تحرُّج الفقيه المالكي أبـي جعفـر بـن جـرح الـذهبي الذي كان مقدما في الشورى والفتوى فـي الـبلاط الموحـدي، إذ كـان يتحـرج مسايرة الموقف الشهير ليعقوب المنصـور مـن الـرأي وفقـه الفـروع، فكـان يلتزم في أجوبته الفقهية أصـول المـذهب المـالكي دون أن يـُـعلن ذلـك أو يـُسند كل قولٍ إلى صـاحبه مـن فقهـاء المـذهب، وكانـت إجاباتـه تـُتنقل فتصل إلى أحد المتضـلّعين فـي الفقـه المـالكي وهـو القاضـي أبـو العبـاس بن جوهر الحصار، فيرد كل قولٍ إلى صـاحبه مـن فقهـاء المـذهب المـالكي، في محاولةٍ منـه لكشـف أصـولها والانتصـار للـرأي الـذي حاربـه الخليفـة المنصور بلا هوادةٍ، وكان ابن جـرح الـذهبي ينفـي معرفتـه بأصـحاب تلـك الآراء والاقوال مـُبررا ذلك بقولـه: " ما أعلم مـن قـال بتلـك الأقـوال التـي أفتي بها، ولكني أراعي أصول المذهب فافتي بما تقتضيه وتدلُّ عليه"[3].

وخلال الفترة التي أعقبـت خلافـة المنصـور، نجـد الناصـر لـدين الله ابن المنصور تـ 610هـ/1213م يحذو حذو أبيـه، قـال عـن ابـن الأحمـر: " نحا منحى أبيه في الظاهريـة فصـار لا يعمـل إلاّ علـى محـض الظاهريـة ولا يحكم إلاّ بمقتضاهـا "[4].

---

1 – عبد الهادي الحسيسن، الحركة العلمية في العصر الموحدي، ص : 429 .

2 – محمد بن مبارك الميلي، المرجع السابق،ص: 399

3 – ابن عبد الملك، المصدر السـابق، ج:1، ص: 280. وأنظـر: محمـد المغـراوي، صـمود المـذهب المالكي، ص: 110.

4 – ابن الأحمر، المصدر السابق، ص:19 .

وقد انفرد ابن الأحمر بالحديث عن إحراقٍ آخـر لكتـب الفـروع تـمَّ فـي عهد الخليفة محمد الناصر بن المنصـور بعـد أن نسـبه إلـى الظاهريـة مثـل أبيه، وذكر أن بعض الفقهـاء كـانوا ينكـرون عليـه التوجـه نحـو الظاهريـة " ويقولون الحق هو مذهب المدونة فـأمر بجمـع مـا وُجـد مـن النسـخ منهـا بالمغرب وأحرقها فأُحرقت عن آخـرها"[1]، وربما تـمَّ ذلـك فـي شـكل عمليـة محدودوة في بداية عهد الخليفة لكن الصـعوبات التـي عرفهـا عهـده والإحبـاط الذي حصل له بعد هزيمة العقاب صرفه لاشك عن متابعـة مشـروعه[2].

وقـد حظي فقهاء الظاهريـة بالحظـوة لديه يـدل علـى ذلـك مـا ذكره ابن عبد الملك مـن رعايـة الناصـر للحـافظ أبـي إسـحاق السـتهوري المحدث الظاهري تـ620هـ/1223م، ويقـول ابـن عبـد الملـك: " وكـان قدومه للمغـرب في زمـن الناصر محمد بـن يعقـوب المنصـور وهـو يومئـذٍ يُحاصـر المهدية فاجتمع به ووصله، ثم رحل إلـى مـراكش فأسـرته الـروم ثـم خلَّصـه الناصـر وأحسـن إليـه ورجـع الـى بـلاده سنـة خمـس وستمائــة"[3] .

بل نجد – فـي ولايتـه – أحمـد بـن محمـد بـن أبـي الخليـل الأمـوي تـ637 هـ/1239م يستنسخ كتب ابن حزم وينشـرها بعـد أن كانـت ممنوعـة من ذلك[4] .

أما الأمير إبراهيم بن يعقوب المنصور الـذي كـان وزيـرًا لأبيـه ثـم أصبح واليا على إشبيلية من قِبـلِ أخيـه الناصـر، قطـع المراكشـي بظاهريتـه الصرفة في ترجمته له إذ يقـول : " لم أر في العلمـاء بعلـم الأثـر المتفـرغين

---

1 – نفســـه.

2 – محمد المغراوي، الصلحاء والسلطة، ص 162 .

3 – ابن حجـر، لسان الميـزان، ج:1، ص: 55.

4 – المقري، نفح الطيب، ج: 2، ص: 99 .

لذلك أنقل منه للأثر، كان يذهب مــذهب أبيــه فــي الظاهريــة " [1]، وهــو نــصٌ صريــح في تبنِّــي الموحــدين للظاهــرية.

والمراكشي يُصدر هذه الشهادة عن علم تــام بــالأمير يقــول " ووصــلت إليَّ منه أمولا وخُــلع غير مرة، لــم أعرفــه أيــام وزارتــه لأنــي كنــت إذ ذاك حديث السن جدا كما ناهزت الاحتلام، وإنما كانــت معرفتــي إيــاه حــين ولــوه إشبيلية في سنة 605 هــ/ 1208م ... ثم علت حالي عنــده بعــد ذلــك – نظــر الله وجهه – إلى أن كان يقول لــي فــي أكثــر الأوقــات والله إنــي لأشــتاقك إذا غبت أشد الشوقه وأصدقه، ثم لم تزل حالي معــه علــى هــذا إلــى أن فارقتــه – رحمه الله– وهو والٍ على إشبيلية ولايته الثانيــة "[2].

وعقَّب أبو عبد الرحمان بن عقيــل الظــاهري علــى ترجمــة عبــد الواحــد المراكشي لابن حــزم بأنَّــها " تدلُّ على بُعــد صــيت ابــن حــزم فــي عصــر المراكشي و قيام دولــة الظاهرية في عهــد المــوحدين" [3].

ويبدو أن الخلفاء اســتمرُّوا فــي هــذا الــنهج حتــى أننــا نجــد الخليفــة المرتضي(647–665هــ/1249م–1256م) يقول فــي إحــدى رســائله التقديميــة " وما تعبدنا ربنا إلا بالظاهــر" [4].

ولعــل هــذه الإشــارات هــي التــي دفعــت الحجــوي– مــؤرخ الفقــه الإسلامي– إلى القــول أن " آخــر القــرن الســادس وأول القــرن الســابع كــان عصر ازدهار للمذهب الظاهري، فقد عُمم العمل به فــي شــمال إفريقيــا وبــلاد الأندلس كلها، ويعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بــن علــي الــذي تــولى مــن

1 – المراكشي، المصدر الســابق، ص: 441 .

2 – نفســـه.

3 – ابي عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، ابن حزم خلال ألف عام، ج:2 ، ص: 82.

4 – أحمد العزاوي، رسائل موحدية، التقديم رقم : 06 ، ص: 422. .

سنة 580هـ/ 1184م إلـى سـنة 595 هــ/ 1198م فقـد أعلـن العمـل بـه وسار على ذلك مَنْ بَعدهُ " [1] .

أما الدكتور الغلبزوري فانتهى به البحث إلى أن " الدولـة الموحديـة بـدأت بتأثـرٌ غالب بالظاهرية على عهد ابـن تـومرت ثـم انتهـت ظاهريـة صـرفة على عهد المنصور فمن بعده"[2].

وأشار ابن الأثير تــ630هـــ/1232م إلـى تعـزُّز الحزميـة وكثـرتهم فبعد ترجمة ابن حزم يقـول: " وله خلقٌ كثير ينتسـبون إليـه بالأنـدلس يُـقال لهم الحزمية"[3]، مما يدل علـى تعـزز الحزميـة الظاهريـة بـالغرب الإسـلامي خلال العصـر الموحـدي، وشـهادة القاضـي عيـاض الـذي ذكـر أن النـاس صاروا في عصره في أقطـار الـدنيا إلـى خمسـة مـذاهب: مالكيـة وحنفيـة وشافعية وحنبلية وظاهرية[4]، وقد عـاش القاضـي عيـاض ردحـا مـن الـزمن تحت ظل الدولة الموحدية.

وأنـكر الدكتـور عبد الرحمان أبـو زهـرة علـى مـن ذهـب إلـى القـول بأنَّ الموحدين اقتصروا على مجـرَّد الدعـوة إلـى الكتـاب والسـنة وليس إلى المذهب الظاهـري، فيقـول" وقـد يُـقال إن الموحـدين عملـوا بالكتاب والسنة فأين هذا المذهب الظاهري، فنقـول إنهـم إذا دعـوا إلـى ظـاهر الكتاب والسنة فقد دعوا إلى المذهب الظاهري لأنه المـذهب الـذي يمنـع التقليـد ويدعو إلى ظاهـر الكتاب والسنـة"[5].

1- محمد أبو زهرة، ابن حزم، ص: 519 و 520 .

2 - توفيق الغلبزوري، المرجع السابق، ص: 725 .

3 - ابن الأثير، **اللبـاب فـي تهـذيب الأنسـاب**، دار صـادر، بيـروت، لبنـان، ص:363. ابـن الأثيـر، الكامل، ج: 9 ، ص:595 .

4 - القاضي عياض، المدارك، ج:1، ص: 67.

5 - محمد أبو زهرة، ابن حزم، ص: 522.

أما الفقيه والمؤرخ محمد بن الحسن الحجوي فقد تردد في الحكم على الدعوة الموحدية بين الاجتهاد المطلق والظاهرية، فهو تارة يَنسب يعقوب المنصور إلى الإجتهاد، ومرة أخرى يَنسبه إلى المذهب الظاهري، فيقول "ويعقوب المنصور هو الذي حرق كتب المالكية، وترك الفروع، وألزم العلماء بالاجتهاد، فظهر في وقته حفاظ وعلماء مجتهدون يلحقون الفرع بأصله، أو ظاهرية مثل أبي الخطاب بن دحية، وأخيه أبي عمرو عثمان، ومحي الدين بن عربي الحاتمي وغيرهم"[1]، ولكن أخيرا رجَّح الفقيه الحجوي دعوة يعقوب المنصور إلى المذهب الظاهري على الدعوة للاجتهاد[2] .

ومن الطريف ما لاحظه الشيخ أبو زهرة بأنَّ الأمر الذي كان يعيبه ابن حزم على المذاهب من كونها انتشرت بقوة السلطان قد حصل لمذهبه هو نفسه، قال " وفي الحقيقة أن الأخذ بظاهر الكتاب والسنة كان هو الفكرة التي سيطرت على دولة الموحدين من قبل يعقوب بن يوسف هذا، فقد كانت رأي أبيه وجده، ومنهاجهما الشخصي بل منهاج من دعا إلى دولتهم، وهو محمد بن تومرت ولكن يعقوب هذا أعلن ذلك القول، ونادى به وحمل الناس عليه بقوة السلطان، وكان ابن حزم يقول أنَّ "مذهبين انتشرا بقوة السلطان مذهب مالك بالمغرب ومذهب أبي حنيفة بالمشرق"، و لو أنه عاش إلى أن رأى ما صنع يعقوب بن يوسف لوجد أن مذهبه لم ينشر فقط بنفوذ السلطان بل يحمل الناس عليه قسرا وإحراق كتب ما عداه من المذاهب أو بالأحرى كتب المالكية"[3].

---

1 – مع أن ابن عربي الحاتمي تبرأ من الظاهرية ومما قاله :

نسبوني الى ابن حزم و إني *** لست بمن يقول قال ابن حزم

أنظر: محمود غراب، الفقه عند الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي، ص:9.

2 – الحجوي، الفكر السامي، ج4، ص: 2 ، 4 ، 213 ، 214 .

3 – محمد أبو زهرة، ابن حزم، ص: 521 و522 .

فقد شكَّــل انتشار المــذهب الظــاهري حينهــا ظــاهرةً تســترعي الانتبــاه وهو ما حذا بالمراكشي إلى تسجيل ذلــك بعــد ترجمتــه لابــن حــزم : " وإنمــا أوردت هذه النبذة من أخبار هذا الرجـــل وإن كانــت قاطعــة للنســق، مزيحــة عن بعض الغرض، لأنه أشــهر علمــاء الأنــدلس اليــوم وأكثــرهم ذكــرًا فــي مجالس الرؤساء وعلى ألسنة العلماء، وذلــك لمخالفتــه مــذهب مالــك بــالمغرب واستبداده بعلم الظاهر، ولم يشتهر به قبله عندنا أحــد ممــن علمــت، وقــد كثــر أهل مذهبه وأتباعــه عندنا بالأندلس اليــوم"[1].

ويبدو أن المذهب حظي بتعلُّقُ كثيرٍ مــن المغاربــة فقهــاء وعــوام، فهــذا أبو حيان الغرناطي تــ745هـــــ/1344م إمــام عصــره فــي التفســير والنحــو والحديث وقد سئل هل تخلى عن مــذهب الظاهريــة لمــا دخــل مصــر فقــال: "مُحال أن يرجع عن مذهب الظاهر من علق بذهنه"[2].

وهكذا قـُـدِّر للمذهب الظاهري الانبعاث مــن جديــد فــي أرض المغــرب و" قيض الله للإمام ابن حزم من يخرج مذهبــه مــن الفكــرة إلــى الدولــة ومــن القول إلى العمل"[3] كما يقول الدكتور توفيق الغلبزوري.

---

1 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 73.

2 – ابن حجر، الدرر الكامنة، ج:44، ص: 403.

3 – توفيق الغلبزوري، المرجــع الســابق، ص: 703، بينمــا اعتبــر عابــد الجــابري الدولــة الموحديــة تطبيق عملي للنظرية الحزمية . أنظر: محمد عابد الجابري، مقدمــة كتــاب: **الكشــف عــن منــاهج الأدلــة في عقائد الملة**، لابــن رشد، مركــز دراســات الوحــدة العربيــة، بيــروت، لبنــان، 1998م، ص : 42 – 45 .

المبحث الثاني : المذهب الظاهــري في الغــرب الإسلامي نهايـــة العصر الموحدي ومـــوقف الفقهـــاء منه .

المطلب الأول : موقـــف فقهاء المالكية مـــن تطور الاتجاه الظاهـــري.

توفـــرت فرص التعايش بـــين الســـلطة الموحديـــة وفقهـــاء المالكيـــة، فقـــد جمعتهما الرغبة في تنشيط الحركة العلميـــة والقيـــام بشـــعيرة الجهـــاد، وبالقـــدر نفسه برزت نقاط الخلاف والتباعد، وفـــي مقـــدمتها معارضـــة الفقهـــاء المالكيـــة للمعتقد التومرتي والتوجـــه الظاهري للسلطة الموحدية.

وقد مرت بنا الأساليب الخفية والعلنية التي انتهجهـــا المالكيـــة للـــدفاع عـــن معتقدهم ودحض أصول التومرتية لاســـيما منهـــا الأصـــول الشـــيعية والباطنيـــة، والمساعي نفسها اضطرَّ إليـــه مالكيـــة المغـــرب للـــدفاع عـــن مـــذهبهم الفقهـــي الفروعي، ومن ضـــمن تلـــك الأســـاليب الإقبـــال علـــى التصـــنيف دفاعـــا عـــن مذهبهم وردا على أصول الظاهريـــة وأعلامهـــا، لاســـيما شـــيخ الظاهريـــة فـــي المغرب ابن حـــزم، بتتبع تناقضاته في كتبـــه وإخراجهـــا فـــي تصـــنيف مســـتقل للاستدلال على أنه لا يستحق تسمية "حجة الأيام وقـــدوة الأنـــام"، فقـــام الســـلطان بامتحان جملة من أولئك العلماء بالسجن والنكـــال جـــزاء تجـــرؤهم علـــى الإمـــام ابن حزم[1] .

نذكر من تلك الكتـــب " النبـــراس فـــي الـــرد علـــى منكـــر القيـــاس" لقاضي بجاية حسن بن علي بن محمد المســـيلي 580هـــ/1184م[2]، وقـــد شـــهد له الظاهرية بقوة الحجة كما الغبريـــني فأنشد قائلا :

ومليحة شهدت لها أعداؤها *** والحسن ما شهدت له الأعداء[1].

---

1 – سمير القدوري، المؤلفات المغربيـــة والأندلســـية فـــي الـــرد علـــى ابـــن حـــزم الظـــاهري – دراســـة تاريخية و ببليوغرافية – ، **مجلة الذخائر**، العددان 11 و 12، 1432 – 2002م، ص: 167 .

2 – محمد مغراوي، خطة القضاء، ص: 84 .

وكتاب في الرد على ابن حزم لعبد الحق أبو محمد الأنصاري قاضي الجماعة بإشبيلية ومراكش ت631هـ/ 1233م "دل على حفظه وعلمه وأفاد بوضعه"[2]، وكان القاضي مُعظَماً عند بني عبد المؤمن[3] إلى أن أمتحن من طرف المأمون إدريس بن المنصور الموحدي الذي قبض عليه وقيَّده وسجنه حتى افتدى منه بستة آلاف دينار"[4].

وكتاب حجة الأيام وقدوم الأنام في الرد على ابن حزم، للفقيه البجائي ابن أبي زكريا يحي بن علي الزواوي ت611هـ/1214م، قال عنه أبو العباس الغبريني "ولما كان من أمر الفقيه أبي زكريا الزواوي في شأن ابن حزم ما قد اشتهر وتعصب له ناس ورفعوا القضية للخليفة بمراكش، ولم تهدأ الزوبعة إلا بعد أن أرسل المؤلف الفقيه أبو محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الحسني مدافعا عنه إلى مراكش، قام بتوضيح الآراء، التي عرضت في الكتاب أمام مجلس حضره الخليفة والفقهاء[5]، واطلع الخليفة المنصور ومن حضر من الفقهاء على كلام الفقيه "ما دله على فضله ودينه وعلمه، فكان من قول الخليفة: يُترك هذا الرجل على اختياره فإن شاء لعن وإن شاء سكت، وانقلب أبو محمد عبد الكريم وهو المبرور وسعيه المشكور"[6]، وعفو المنصور عنه دليل على أنَّه ناصر المذهب الظاهري بدون غلو أو تعصب أو ترهيب، رغم أن الكتاب لم يحمل فقط ردا على أفكار ابن حزم بل تجريحا في شخصه أيضا[7] .

---

1 – الغبريني، المصدر السابق، ص: 33 – 36 .

2 – ابن الأبار، التكملة، ج:3، ص: 125 و126 .

3 – ابن عذارى، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ص: 254 .

4 – التنبكتي، نيل الابتهاج، ص: 184. وابن إبراهيم، الإعلام، ج: 8، ص:39. ورضا كحالة، معجم المؤلفين، ج: 5، ص: 92 و93 . ومحمد مغراوي، خطة القضاء، ص: 85 .

5 – محمد مغراوي، خطة القضاء، ص: 85 .

6 – الغبريني، عنوان الدراية، ص: 247 و248 .

7 – محمد مغراوي، السلطة والصلحاء، ص: 180 .

ومنها كتاب "المعالي في الرد على المعلى والمجلى" لابن زرقون المالكي تـ621هـ/ 123م[1]، قال عنه ابن فرحون المالكي " شيخ المالكية ومن كبار المتعصبين للمذهب، أوذي من جهة الموحدين وسُجن، ولما " أبطلوا القياس وألزموا الناس بالأثر والظاهر صنف كتابه المعلى في الرد على المحلى لابن حزم "[2] ، كما ألف عبد الحق الإشبيلي تـ619هـ/1222م كتاب في الرد على ابن حزم أيضا[3].

ومنها كتاب في الرد على نفاة القياس -لا يزال مخطوطاً- لعبد المجيد بن أبي البركات الطرابلسي تـ684هـ/1285م، مما جاء فيه: " فصل في الرد عليهم في عدم اقتدائهم بمالك ... "[4].

ومن فقهاء المالكية الذين تولّوا الرد على المذهب الظاهري في المغرب الفقيه أبو بكر بن خلف الأنصاري المواق من أهل قرطبة سكن مدينة فاس، وقد جمع من كتب المالكية الذين ردوا على ابن حزم قبله تلك المسائل وأدرجها في دفتره الذي دفعه إلى يعقوب المنصور، وبهذا يكون ابن المواق قد عرض على المنصور زبدة ما في الردود الأندلسية والمغربية[5]، يروي ابن عليش تـ1299هـ/1881م المالكي ذلك فيقول: "جاءت أيام الأمير يعقوب المنصور تـ595هـ / 1198م فأراد حمل الناس على كتب ابن حزم فعارضه فقهاء وقته، وفيهم أبو يحي ابن المواق، وكان أعلمهم بالحديث والمسائل فلما سمع ذلك لزم داره وعارض وأكب على جمع المسائل المنتقدة على ابن حزم حتى أتمها، وكان لا يغيب عن يعقوب

1 – حسن حافظ عليوي، مرجع سابق، ص: 201.

2 – ابن فرحون، الديباج المذهب، ص: 286. وابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج: 2، ص: 616 . محمد مغراوي، خطة القضاء، ص: 85 .

3 – التنبكتي، نيل الابتهاج، ص: 184 .

4 – سمير القدوري، المؤلفات الأندلسية والمغربية في الرد على ابن حزم الظاهري، ص: 198 .

5 – نفسه، ص: 324 .

الأمير، فلما أتمها جاء إليه، فسأله عن حالــه وغيبتــه – وكـــان ذا جلالـــة عنـــده – فقال له: يا سيدنا قد كنت في خــدمتكم لمـــا ســمعتكم تــذكرون حمــل النـــاس على كتب ابن حزم وفيها أشياء أعيذكم بـــالله مـــن حمـــل النـــاس عليهـــا وقـــال المواق: وأخرجت له دفترا فلما أخذه الأمير جعــل يقــرؤه ويقــول: أعــوذ بـــالله أن أحمل أمة محمد صلى الله عليه وسلم على هذا وأثنى على ابن المواق"[1].

وكتاب فـــي إثبـــات القيـــاس لعمـــر بـــن الطـــوير الصـــنهاجي السوســـي تـــ622هــ/ 1224م[2]، كما صنف ابـــن القطـــان تـــــ628هــــ/ 1230م رســـالة عنوانها: إنهاء البحث منتهاه عن مغـــزى مـــن أثبـــت القـــول بالقيـــــاس ومـــــن نفـــاه[3]، وكتاب: النزع في القياس، صنَّـــفهُ في إثبات القياس[4].

وكتاب في الرد علـــى منكـــر القيـــاس ألفـــه الحســـن بـــن علـــي المســـيلي تـــ580هــ/1184م قال عنه أبو العباس الغبرينـــي "الإمـــام أبـــو علـــي الحســـن بن محمد المسيلي، جمع بين العلم وهو كتاب مليح على مـــا أخبـــرت عنـــه، ولـــم أراه، وأنا شـــديد الحـــرص عليـــه، ولقـــد أخبرنـــي بعـــض الطلبـــة المتمســـكين بالظاهر – وهو أنبلهم – أنـــه رأى هـــذا الكتـــاب، وأنـــه مـــا رأى فـــي الكتـــب الموضوعة في هذا الشأن مثله ...ولي المســـيلي قضـــاء بجايـــة، وكـــان لـــه – رحمه الله – وللفقيه أبي محمد عبد الحق الإشـــبيلي وللفقيـــه العـــالم أبـــي عبـــدالله محمد بن عمر القرشي مجلس ... سمي بعدهم " مدينة العلم..."[5].

وكان خصم الظاهرية اللـــدود القاضـــي أبـــو بكـــر بـــن العربـــي تـــــ543 هــ/1148م قد ألّف كتاب "المسالك إلى موطأ الإمام مالـــك"، وبـــين فـــي مقدمتـــه

---

1 – محمد علـــيش، فـــتح العلـــي المالـــك فـــي الفتـــوى علـــى مـــذهب مالـــك، ج: 1، ص:103. ومحمـــد مغراوي، خطة القضاء، ص: 84 .

2 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج: 8 ص: 167 – 237 .

3 – نفســـه، ج: 8، ص: 167 ، 169 ، 239 .

4 – عمر حكالة، معجم المؤلفين، ج:7، ص: 213، ومحمد مغراوي، خطة القضاء، ص: 85 .

5 – سمير القدوري، المرجع السابق، ص: 323.

الباعث له على التأليف فقـال: "ذلـك أنـي نـاظرت يومـا جماعـة مـن أهـل الظاهرية الحزمية الجهلة بالعلم وقلة الفهم علـى موطـأ مالـك بـن أنـس فكلٌ عابه وهزأ به..." [1] .

كما ألف كتاب "نواهي الدواهي" أو "النواهي عن الـدواهي" فـي الـرد علـى ابن حزم الظاهـري، وبيَّـن في "العواصم مـن القواصـم" سـبب تأليفـه فقـال: "وقـد جاءني بعض الأصحاب بجزءٍ لابـن حـزم سـماه "نكـت الإسـلام" فيـه دواهي فجردت عليـه نـــواهي"[2]، ومنهـا رسـالة " الغـرة " كتبهـا ردًا علـى رسالة ابن حزم المسماة "رسالة الدرة في ما يلزم المسلم اعتقـاده" [3] .

وبالإضافة إلى هذه الكتب التي أفردها للـرد علـى ابـن حـزم والظاهريـة، فإن سائر تآليف القاضي أبي بكر لا تخلـو مـن التعـرض لهـم والتشـنيع فـإن سائر تآليفه لا تخلو من التعرُّض لهـم بالتشـنيع علـيهم، والحـطّ علـيهم بـنفسٍ ثائرةٍ، نعتهم بأقبح النعـوت وأقـذع الأوصـاف فهـم : أمـة سـخيفة وإخـوان الخـوارج[4] وإخـوان الـروافض[5] وأهـل الخبـال ومعتـدون علـى الشـريعة مستخفون بحرمتها[6] ومبتدعة[7] بل هـم إخـوان اليهـود[8]، وسـبب هـذه اللهجـة العنيفة من ابن العربي هو احتكاكه بالظاهريـة الـذين كثـروا فـي زمانـه كمـا اعترف هو بذلك [9] .

---

1 – توفيق الغلبزوري، مرجع سابق، ص: 846 و 847 نقـلا عـن كتـاب المسـالك إلـى موطـأ الإمـام مالك مخوط بالخزانة العامة بالرباط رقم: 1562، ورقة: 01 .

2 – أبو بكر بن العربي، العواصم من القواصم، ج:2، ص: 388.

3 – نفسه، ج:2، ص: 388، وسمير القدوري، المرجع السابق، ص: 324.

4 – نفسه، ج:2، ص: 366.

5 – نفسه، ج:2، ص: 348.

6 – نفسه، ج:2، ص: 338 و339.

7 – نفسه، ج:2، ص: 339 – 492.

8 – نفسه، ج:2، ص: 348.

9 – نفسه، ج:2، ص: 336 – 337.

وشرع ابن العـربي في الرد على ابـن حـزم والظاهريـة منـذ عودتـه من المشرق إلى الأندلس، فيقـول : " وكـان أول بدعـة لقيـت فـي رحلتـي القول بالباطن، فلما عدت وجدت القول بالظاهر قـد مـلأ بـه المغـرب سـخيف كان من بادية إشبيلية يُعرف بابن حـزم، نشـأ وتعلـق بمـذهب الشـافعي، ثـم انتسب إلى داود، ثم خلع الكـل، واستقل بنفسه، وزعـم أنـه إمـام الأمـة يضـع ويرفع، ويحكم ويشرع، ينسب إلى دين الله ما ليس فيه"[1].

وقال في موضعٍ آخر: " واتفق له أن يكـون بـين أقـوامٍ لا نظـر لهـم إلا المسائل، فإذا طالبهم بالدليل كاعوا، فتضـاحك مـع أصـحابه مـنهم، وعضـدته الرياسة بما كان عنده مـن أدب، وشـُبهٍ كـان يـُوردها علـى الملـوك مـع عامتهـم"[2].

وقال طال انتقـاد ابـن العربـي إمـام الظاهريـة الأول داود بـن علـي الظاهري، فقال عند عرضه لإحدى المسـائل الفقهيـة: "وانعقـد الإجمـاع علـى وجوب الغسل بالتقاء الختـانين وإن لـم ينـزل ومـا خـالف ذلـك إلا داود ولا يُـعبأ به، فإنه لولا الخلاف ما عـُرف"[3].

ومـن ردوده عـلى الظاهريـة شعـراً قولـه :

قالوا الظواهر أصـل لا يجـوز * عنها العدول إلـى رأي ولا نظـر
قلت اخسأوا فمقام الدين ليس لكـم * هذي العظائـم فاستحيوا من الوتـر
تـأخروا فـورود العـذب مهلكـة * لا لمن كان يرجو الفوز فـي الـدر
أن الظـواهـر مـعـدود مواقعها * فكيف تحي بيان الحكم فـي البشـر

4- ابن العربي، العواصـم مـن القواصـم، ج:01، ص: 249. والـذهبي، سـير أعـلام النـبلاء، ج: 18، ص: 188 و189 .

2 – ابن العربي، العواصم من القواصم، ج:1، ص: 249.

3 – أبو بكر بن العربي، عارضة الأحوذي، مصدر سابق، ج:1، ص: 169.

فالظاهريـة فـي بطـلان قولهـم * كالباطنية غير الفرق في الصـور
كـلاهما هـادم للديـن من جهـة * والمقطع العدل موقوف على النظر[1].

وإلى جانب هذه الردود المالكية، وجـدنا فقهـاء المالكيـة يُصـنِّفون أيضـاً في الانتصار لمذهبهم دون التصـريح بـالرد علـى الظاهريـة، فصـنَّف الفقيـه أبو الحسن بن عمر الوادِياشي تـ609هـ/1212م كتـابين فـي الفقـه انتصـارا للمذهب المالكي وتعريضا بالتيـار الظـاهري أحـدهما: " نهـج المسـالك للتفقـه في مذهب مالك " أخرجه في عشرة مجلدات[2]، والثـاني: " الترصـيع فـي شـرح مسائل التفريع "[3]، شرح به تفريع ابن الجلاّب، ومـن جـنس الكتـاب الثـاني مـا ألّفـه معاصـره الفقيـه أبـو الربيـع بـن عبـد الواحـد الغرنـاطي تـ599هـ/1202م، الذي أخرج كتابـه "المسـائل المجموعـة علـى التهـذيب" في تسعة أسـفار[4]، وكتـاب "المفيـد للحكـام فيمـا يُعـرض لهـم مـن نـوازل الأحكـام"، لأبـي الوليـد هشـام بـن عبـد الله بـن هشـام الأزدي المـالكي تـ606هـ/ 1209م[5].

وكـان لفقهاء الظاهرية أيضاً ردودهـم دفاعـاً عـن مـذهبهم، فهـذا أبو عمر أحمد بن محمد بن حـزم الإشـبيلي المـذحجي مـن ذريـة ابـن حـزم الظاهري، انبرى للانتصار لابن حزم و الـرد علـى تـآليف خصـومه لاسـيما أبو بكر بن العربي فألف: "الرسالة الصـؤول علـى البـاغي الجهـول"، وكتابـه

---

1 – أنظر : إبراهيم القادري بوتشيش، حلقـات مفقـودة مـن تـاريخ الحضـارة فـي الغـرب الإسـلامي، مرجع سابق، ص: 96.

2 – ابن عبد الملك، المصدر السابـق، ج:5، ص:177. وابن الخطيـب، الإحاطـة فـي أخبـار غرناطـة، ج:4، ص: 155. وابن فرحون، الديباج المذهب، ص: 211.

3 – ابن الخطيب، الإحاطة في أخبـار غرناطـة، ج:4 ، ص: 155. وابـن فرحـون، الـديباج المـذهب، ص: 211.

4 – عمر رضا كحالة، المرجع السابــق،ح:4، ص:269.

5 – الزركلي، المرجع السابق، ج:8، ص:86.

الذي وسمه : "بالزوائغ والدوامغ"، تابع فيه القاضي أبو بكـر بـن العربـي علـى فصول كتابه المسـمى: " الـدواهي والنـواهي " حـاذاه كلامـا بكـلام، وحـديثا بحديث وفقها بفقه ونظما بنظم ونثرا بنثر وإقذاعا بإقذاع [1] .

ونجد أن المعركة بين المذهبين لم تقـف عنـد حـدود العصـر الموحـدي بل امتدَّت إلى العصر الحفصي حيث ألف القاضي عبد الحميـد بـن أبـي الـدنيا الصدفي كتابا سماه "جلاء الالتباس في الرد على نفاة القياس"[2].

ولاحظ الدكتور الطاهر بونابي أن المذهبية تختفـي عنـدما يميـل رجـال المذاهب إلى التصوف، فلم نجـد نفوراً وصـراعاً بـين الصـوفية الـذين كـانوا على المذهب الظاهري وصوفية المـذهب المـالكي، واسـتدلَّ الباحـث بالعلاقـة المتينة التي كانت تربط بين الصوفي الظاهري أبو محمـد عبـد الحـق الإشـبيلي في بجاية، والذي كان يعملُ على نشر كتب ابـن حـزم، لكـن علاقتـه بنظرائـه من الصوفية المالكية متينة، بدليل أنه كـان يعقـد دومـا اجتماعـا بحـانوت فـي حارة المقدس ببجاية، يجتمع خلالها بأبي علـي الحسـن المسـيلي، وأبـي عبـد الله القريشي، يتدارسون فيه العلم حتـى سُـميت تلـك الحـارة بمدينـة العلـم[3]، فضلاً على علاقته الحميمة بأبي مدين شيخ الصـوفية المالكيـة، إذ كـان يـزوره ويحضر مجالسه ويقول: "هذا وارث علـم الحقيقـة"[4]، ووصـف الغبرينـي هـذه العلاقات بإعجابٍ إذ يقول: "وهذا كمال حصل في الجـانبين وجمـال التقـى مـن الطرفين"[5]، وكذلك ابن عربي الحـاتمي كـان يميـل إلـى الظاهريـة[6]، ولمـا

1 – ابن الزبير، المصدر السابق، ج: 5، ص: 345. والسيوطي، بغية الوعاة، ج:1، ص: 364.

2 – الغبريني، المصدر السابق، ص: 109 .

3 – نفســه، ص: 36 .

4 – نفسه، ص: 42 .

5 – نفسه.

6 – بالنثيا، المرجــع السابــق، ص:371. وتوفيق الغلبزوري، المرجع السابق، ص: 393 – 405.

دخل بجاية سنة 594هـ/1198م، والتقى بـأبي زكريـا يحـي الـزواوي شـيخ المالكية الصوفية بعد وفاة أبي مدين واستفاد من علمه[1].

كما تجلت المقاومـة المالكيـة للاتجـاه الظـاهري (الأسـلوب الثـاني) في تمكنهم من استظهار وكتابة أمهات مصـنفات المـذهب مـن حفظهـم كفعـل الشيخ أبي محمد عبد الله بن محمـد بـن عيسـى التـادلي الفاسـي الـذي كتـب المدونة من حفظه[2] وكذلك فَعَـلَ الفقيـه علـي بـن عشـرين[3]، فعمليـة إحـراق المدونات المالكية لـم تـؤدِّ الغايـة المطلوبـة لشـدة تمسـك الفقهـاء بالمـذهب المالكي وسرعان ما ظهرت نسخ أخـرى كانـت مخبـأة وأقبـل النـاس عليهـا ونسخها وتدوينها من محفوظاتهم أيضا[4].

ويمكن جعـل معركـة العقـاب 609هـ/ 1212م مفصـلاً بـين صمت المالكية تحت سطـوة الموحدين، والـدخول فـي التحـدي بإظهـار كتـب المذهب المالكي وتدريسه، ذلك أن ضُعف الموحدين ابتدأ مـن هـذه السـنة، كمـا تـمَّ إشاعة أنَّ سبب هزيمة الموحدين فـي موقعـة "العقـاب" هـو إحراقـهم للمدونـة[5]، وهو ما يُـذكرنا بإشـاعة الموحـدين أن سـقوط المـرابطين هـلاكٌ لهم وعقاب إلاهيّ لإحـراقهم كتاب الإحيـاء.

فنجد بعـد هـذه السـنة الفاصـلة 609 هـ/ 1212م فقهـاء يقومـون بتدريس المذهب أو شرح كتبه كأبي زيـد عبـد الرحمـان بـن يوسـف الفاسـي الشهير بابن زانيف تـ 612 هـ/1215م كانـت تـُشدُّ إليـه الرحـال فـي

---

1 – الطاهر بونابي، المرجع السابق، ص: 214.

2 – ابن الأبار، التكملة، ج:2، ص : 306 . والتنبكتي، المرجع السـابـق، ص: 138 .

3 – ابن الأحمر، المصـدر السـابـق، ص: 19 .

4– محمد العسالي، المرجع السابق، ص: 282 .

5 – ابن الأحمر، المصـدر السـابق، ص: 19 .

مذهب مالك وكان يقوم على المدونة قياما تاما[1]، وعنه قيَّد أبو محمد صالح الهسكوري الفاسي تـ653هـ/ 1255م شرح للرسالة[2]، وأبي الحسن علي بن أحمد التجيبي الرحالي المراكشي تـ637هـ/ 1239م كان من أعلم الناس بمذهب مالك أقرأ التهذيب وأبدى فيه الغرائب[3]، وجعفر بن عبد الله الخزاعي الأندلسي تـ624هـ/1226م كان يقرأ المدونة[4] أيضا، وعبد الله بن علي الأنصاري الإستيجي تـ646هـ/ 1248م كان يُدرس الأصول ومذهب مالك بإشبيلية وقرطبة[5]، ومحمد بن أحمد بن خليل السكوني الإشبيلي تـ646هـ/1248م ألف كتابا جمع فيه بين الرسالة والتفريع والتلقين[6] .

أما الأسلوب الثالث الذي انتهجه المالكية للتعبير عن رفضهم للاتجاه الظاهري تجلى في الإعراض عن تولية المناصب الحكومية، خاصة منصب القضاء وأصروا على رفضهم، واعتبروا أن تولي الفقيه لمهمة القضاء تجرده من مهمته الأساسية كرجل علم[7]، حتى أنه أصبح من المقرر أن الدخول على السلاطين هو مضنَّة الدنيا ومجلبة للمنقصة، وأن شر العلماء، علماء السلاطين ومما أثر عن الإمام سحنون تـ240هـ/ 854م قوله عن: "العالِم يُؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيه فيسأل عنه، فيقال: هو عند الأمير، هو عند الوزير، هو عند القاضي، فإن هذا وشبهُهُ شر من علماء

1 – ابن حيان، جذوة المقتبس، ص: 254 .

2 – ابن فرحون، الديباج، ج: 2، ص: 129 و 130.

3 – الغبريني، المصدر السابق، ص: 85 .

4 – التنبكتي، المرجع السابق، ص: 103 .

5 – ابن الأبار، المصدر السابق، ص: 1461 .

6 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج: 4، ص: 635 .

7 – لخضر بولطيف، مرجع سابق، ص: 288.

بنـــي إســـرائيل...."[1]، ويُفســـر هـــذا الكـــلام مـــا ذكـــره ابـــن الجـــوزي تـــ597هـــ/1220م، فـــي "تلبـــيس إبلـــيس" أنـــه: " قـــد تحسُـــن النيـــة فـــي أول الدخول ثم تتغير بإكرامهم وإنغماسهم أو بالطمع فيهم"[2].

ولعل الزهد في المناصب من جهة والنقمة على النظـــام القـــائم دفعـــت بـــبعض فقهاء المالكية للامتناع عن مخالطة أولـــي الأمـــر فـــي مجالســـهم والقيـــام علـــى خططهم والإعراض عن هباتهم.

ونستحضر في هذا الصدد إعراض الفقيـــه أبـــي عبـــد الله بـــن الكتـــاني الفاسي تـــ597هـــ/1201م عـــن دعـــوة الخليفـــة يعقـــوب المنصـــور للانخـــراط في طلبة مجلسه[3]، والفقيه أبـــو عبـــد الله بـــن المجاهـــد تـــــ 574هـــــ/1179م عـــُرضت عليه ولاية القضاء بإحدى أعمال إشـــبيلية " فنفـــر مـــن ذلـــك وامتنـــع حتى أُعفي"[4]، ونفس الموقف صدر من الفقيه أبـــي محمـــد عبـــد الحـــق الإشـــبيلي تـــ581هـــ/ 1185م الـــذي امتنـــع عـــن خطتـــي القضـــاء والخطابـــة ببجايـــة[5]، وأســـتعفى عـــن خطـــة الكتابـــة الفقيهـــان أبـــو عبـــد الله بـــن عميـــرة المريـــي تـــــ576هـــــ/1180م[6] وأبـــو الخطـــاب بـــن خليـــل الســـكوني تـــــ652هـــــ/ 1254م[7]، وردَّ الفقيه أبي محمد خليـــل الســـكوني تـــــ580هـــــ/ 1184م "مائـــة دينار" كان والي الموحدين على إشبيلية قد وهبها لـــه[8]، وفـــي بجايـــة أيضًـــا لـــم يقبل الفقيه أبو زيـــد بـــن عمـــر اليزناســـي عطـــاءً جـــزيلاً صـــرفه لـــه والـــي

---

1 – الدباغ القيرواني، **معالم الإيمان في معرفة أهل القيـروان**، الطبعـة 02، المطبعـة العربيـة التونسـية، تونس،1907م، ج:2، ص:62.

2 – ابن الجوزي، **تلبيس إبليس**، الطبعة 02، بيروت، دار القلم، ص: 200.

3 – ابن عبد الملك، المصدر السابـق، ج:8، ص: 332.

4 – نفسه، ج:5، ص: 667.

5 – ابن الزبير، المصدر السابق، ص:5.

6 – ابن عبد الملك، المصدر الســابـق، ج:6، ص: 191.

7 – نفسه، ج:5، ص:633.

8 – ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ص: 274.

الموحدين على بجاية[1]، ولما عـُـرف عــن الفقيــه أبــو الحســن بــن القطــان تــ628هــ/ 1231م " غلوّه في آل عبد المــؤمن، وإفــراط تشــيُّعه فــيهم"[2] كــان بعض من لقيه " لايرضاه ولا يــرى الرواية عنه"[3].

وبهذا نجد لفقهاء المالكية مواقف تـُنبئ عــن إصــرارهم وصــمودهم علــى مــا كلّفــت تلــك المواقــف أصــحابها مــن تضــحية وملاحقــات، وتضــييق ومصادرات، وشكّــلت تلــك المواقــف عــاملاً قويــاً فــي تقهقــر وتراجــع المذهب الظاهــري في الغرب الإسلامي نهاية العصــر الموحدي.

المطلــــب الثــــاني: تــراجـــع المــذهب الظاهـــري نهايـــة العصـــر الموحدي وأثــرهُ في الغــرب الإســلامــي .

لا عجـــب أن نـــرى المـــذهب الظـــاهري – الـــذي احتمـــى بالســـلطة الموحدية – يختفي شيئاً فشــيئاً بــزوال ســلطان الموحــدين، أمــا ابــن خلــدون فيــُـرجع انــدراس هــذا المــذهب" بــدروس أئمتــه وإنكــار الجمهــور علــى منتحليه"[4]، ورأي ابن خلدون قوي الحجــة إلا أننــا نــراهن علــى ربــط الأثــر العامل السياسي بتقدم وتقهقر المذهب الظــاهري فــي الغــرب الإســلامي خــلال العصر الموحدي.

ويُعلل عبد المجيد النجار فشــل الإصــلاحات الموحديــة بــأن "الموحــدين لم يسلكوا في سبيل نجاح هــذا المــنهج مــا يلــزم مــن التمهيــد والتــدرج ...، والحقيقة أن الموحدين دعوا إلى المنهج التأصــيلي بقــرار سياســي لــم تواكبــه

1 – الغبريني، المصدر السابق، ص:223.

2 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:8، ص: 172.

3 – نفسه، ج:8، ص: 171.

4 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون ج:1، ص: 564 .

حركة علمية كافية، ومن المعلوم أن التحـول فـي المجـال الفكـري لا يحصـل إلاّ بالحركة العلمية، أما القرار السياسي فلا يكون إلا باعثا أو مساعدا " [1] .

ومن أسباب إعراض المغاربة عـن المـذهب الظـاهري والتشـكيك فيـه إبطال الظاهرية للقياس الذي هو الأصـل الرابـع عنـد المالكيـة، ومـن جهـة أخرى شدة ابن حزم علـى المـذاهب السـنية الأخـرى ومبالغتـه فـي مناقشـة أئمتها، حتّى صار مثلا، فيقال: " نعوذ بـالله مـن سـيف الحجّـاج ولسـان ابـن حزم "[2] وتداولوا بينهم عبارة: من الحزم أن لا تـُطالع كتب ابن حـزم[3].

وكان للحركة الفقهية الموحدية أثرها في انتعـاش علـوم الحـديث والتفسـير في الغرب الإسلامي[4]، كنتيجـة لسياسـة ابـن تـومرت وخلفائـه مـن بعـده، فبنهاية العصـر الموحدي أصـبحنا نـرى أسـماء الفقهـاء مقرونـة بأوصـاف غير الفقه، فيوصفـون بالمحدثين والحفاظ والمفسـرين والأصوليين[5].

ونـذكر مـن رجـال التفسـير فـي هـذا العصـر الحـافظ المفسـر عبد الحق بن غالب بن عطية المحـاربي تــ542هـــ/1147م الإمـام الكبيـر، "قدوة المفسرين" كما وصفه الذهبي[6]، "كان عارفـاً بـالقراءات وطرقهـا، مجـودا لها، ضابطا لحروفها وله مشـاركةٌ فـي الحـديث وعنايـة بسـماعه وروايتـه، ومعرفة بأسماء رجاله ونقلته"[7]، له كتاب "المحرر الـوجيز فـي تفسـير الكتـاب

1 – عبد المجيد النجار، ابن تومرت، ص: 500 .

2 – ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج:5، ص: 75.

3 – توفيق الغلبزوري، المرجـع السـابـق، مقدمة الكتاب، الصفحتين : ب ، ت .

4 – محمد مغراوي، خطة القضاء، ص: 88 .

5 – ألفرد بل، الفرق الإسلامية، ص: 330 .

6 – الـذهبي، تـاريخ الإسـلام، ج:37، ص:74. تحقيـق: سـليمان بـن صـالح الخـزي، الطبعـة 01، السعودية، **مكتبة العلوم والحكم**،1417هـ– 1997م، ص: 175.

7 – ابن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، ص: 368. والضبي، بغية الملتمس، ص: 389.

العزيــز" فـــي عشـــر مجلـــدات، وبرنـــامج فـــي ذكـــر مروياتـــه وأســـماء شيوخـــــه[1].

ومنهم أبـــو الحسن علي بن أحمـــد التجيبـــي المراكشـــي تـــ 638هــــ / 1240م[2]، صاحب كتاب "مفتاح الباب المقفل لفهـم القـرآن المنـزل"[3]، وتفســيره المفقود "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"[4]، وُصـــف تفســيره بالعجيــب فـــي أسلوبه[5]، سلك فيه سبيل التحرير، وتكلـــم عليـــه لفظـــة لفظـــة، وحرفـــا حرفـــا[6]، وعنده تفلسف وتصوف ونجوم وتخليط[7]، ولـــه تـــأليف حســـن فـــي الفـــرائض[8]، وله أيضًا كتاب "الإيمان التـــام بمحمـــد عليـــه الســـلام"، و"الســـر المكتـــوم فـــي مخاطبة النجوم"[9]، وأخبر عنـــه المقـــري أنَّـــه صـــنَّف فـــي كثيـــر مـــن الفنـــون كالأصول والمنطق والطبيعيات والإلهيات[10].

---

1 – الزركلي، المرجع الســابق، ج:3 ، ص: 282. وعمــر رضـــا كحالـــة، المرجـــع الســـابق، ج:5، ص: 93.

2– الغبريني، المصدر السابق، ص: 144 .

3 – مقدمة محقق كتاب: **تراث أبي الحســن الحرالــي المراكشــي فــي التفســير** لأبــي الحســن التجيبــي المراكشي، المحقق: محمادي بن عبد الســلام الخيــاطي، 1418 هـــ/ 1997م، مطــابع النجــاح الجديــدة، ص: 10.

4 – نفسه، ص: 11.

5 – الذهبي، تاريخ الإسلام، ج:46، ص: 337.

6 – ابن العماد، المصدر السابق، ج:7، ص: 330، وأحمــد بــن محمــد الأدنهــوي، **طبقــات المفســرين**، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، الطبعــة 01، الســعودية، مكتبــة العلــوم والحكــم، 1417هـــ/1997م، ص: 273 .

7 – ابن ماكولا، **الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلــف والمختلــف فــي الأســماء والكنــى والأنســاب**، الطبعة 01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج:3، ص: 58.

8 – ابن قنفذ، الوفيات، ص: 314. وابن المســتوفي، **تــاريخ اربــل**، تحقيــق: ســامي بــن ســيد خمــاس الصقار، العراق، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، 1980م، ج:1، ص: 431.

9 – كحالة، المرجع السابق، ج:7، ص: 13.

10 – الزركلي، المرجع السابق، ج:4، ص: 256 و257.

وعبد الجليل بن موسى الأنصـاري الأوسـي القصـري، صـنف "التفسـير" و"شـرح الأسماء الحسنى" وكتـاب "شـعب الإيمـان" وكلامـه فـي الحقـائق رفيع بديع منوط بالأثر في أكثر أمور[1]، وله تـواليف أخـرى منهـا كتابـه فـي تفسير القرآن وكتاب شعاب الإيمان وكتـاب المسـائل والأجوبـة وكتـاب تنبيـه الأفهام في مشكل حديث النبي صلى الله عليه وسلم[2].

ومن المحدثين نذكر القاضي عيـاض اليحصـبي تـ 544 هـ / 1149م، لـهُ كتاب: مشارق الأنوار على صحاح الآثار[3] وله كتـاب الإلمـاع فـي ضـبط الرواية وتقييد السماع[4] وهي آثـار تقـف شـاهدة علـى تبحـر القاضـي فـي الحديـث .

ومحمد بن عمر بن عبادة القلعـي أبـو عبيـد الله تـ 669هـ/1270م كان حافظا للخلاف العـالي والمـذهب المـالكي حسـن النظـر والتوجيـه ... انتهت إليه الرياسة في علم الحديـث[5].

ومنهم محمد بن عبد الله بن أحمـد بـن مسـعود بـن صـنعون يوسـف بن عبد العزيز فيره المعروف بالدباغ، قـال عنـه ابـن بشـكوال: " مـن أنبـل أصـحابنا وأعـرفهم بطريقـة الحـديث وأسـماء الرجـال وأزمـانهم وثقـافتهم وضعفائهم وأعمارهم وأقادمهم، ومن أهل العنايـة الكاملـة بتقييـد العلـم ولقـاء

---

1 – الذهبي، سيـر أعلام النبلاء، ج: 22، ص: 12 .

2 – ابـن الأبـار، المصـدر السابـق، ج:3، ص: 132. والزركلـي، المرجـع السـابق، ج:3، ص: 276.

3 – جمال الدين أبو الحسن القفطي، إنبـاه الـرواة علـى أنبـاء النحـاة، مـصدر سـابق، ج:2، ص: 364 .

4 – أنـظر: **الإلماع إلى معرفة أصـول الروايـة وتقييـد السـماع**، الطبعـة 01، تحقيـق: السـيد أحمـد صقر، القاهرة، مصر، دار التراث، تونس المكتبة العتيقة، 1379هـ/ 1970م. سبقت الإشـارة إليه.

5 – الغبريني، المصدر السابق، ص: 65 .

الشيـوخ"[1]، من آثـاره: كتاب في مشتبه الأسـماء ومُـشتبه النسـبة، ورشـحة النصيح من الحديث الصحيح[2].

وهـؤلاء ولا شـك أن ظهـورهم كـان فـي العصـر المـرابطين إلاَّ أنَّ نشاطهم بـرز خـلال العصـر الموحـدي لتشـجيع السـلطة علـى مثـل هـذه الدراسات.

كما ذكرت المصادر جملة من الفقهاء الذين اهتمـوا بأصـول الفقـه زمـن الموحدين، نذكر منهم: أبو عبـد الله محمـد بـن إبـراهيم الفهـري الأصـولي تــ 612هــ/1215م من أهل بجاية كـان يحضـر مجـالس يوسـف بـن عبـد المؤمن بمراكش[3]، كان له علـم بالفقـه والأصـلين والخلافيـات والجـدل ولـه تقييـد علـى المستصـفى لأبـي حامـد الغزالـي[4]، ومـنهم الفقيـه الأصـولي أبو العباس أحمد بن خالد المـالقي تـــ660هـــ/1261م الـذي درس بالأنـدلس " الإرشاد " و " المستصفى " والـذي كـان مـتحملا لأصـول الفقـه ولأصـول الدين على طريقة المتقدميـن[5] .

ومنهم الإمام أبـوعبد الله محمد الفندلاوي الفاسـي يُعـرف بـابن الكتـاني تــ 596هــ/1199م ألّف أرجـوزة في علم أصـول الفقـه، وكـان إمامًـا فـي هذا العلم وعلم الكلام، ومنهم أبو الحسن علـي بـن محمـد الخزرجـي الإشـبيلي الفاسي يُعرف بابن الحصار تـــ611هـــ/1214م صـنَّف فـي أصـول الفقـه كتابه : " البيان في تنقيح البرهان، وكتـاب الناسـخ والمنسـوخ وأرجـوزة فـي علم الكلام وشرحها في أربعة أسفـار" [6] .

1 – ابن بشكوال، المصدر السابق، ج:1، ص: 645. والذهبي، تاريخ الإسلام، ج:37، ص: 263.

2 – عمر رضا كحالة، المرجـع السابـق، ج:13، ص: 309.

3 – الغبريني، المصدر السابق، ص: 208. والتنبكتي، نيل الابتهاج، ص: 228 .

4 – الغبريني، المصدر السابق، ص: 210 .

5 – نفسه، ص: 73 .

6 – محمد المنوني، المرجـع السابـق، ص: 42 .

ومنهم علي بن محمد بن خليد الأندلسي المعروف بابن الإشبيلي تـ567 هـ/1171م الذي كان يقرر علم الأصول وعلم الكلام بمدينة فاس[1]، وأبو الحجاج يوسف بن عبد الصمد الفاسي يُعرف بابن نموي تـ614هـ/1217م كان إماماً في علم الأصول وعلم الكلام[2].

كما ظهرت في الفترة ذاتها مؤلفات أصولية عَكسَت بدورها التطور الفقهي في المغرب الموحدي، نورد منها كتاباً لرئيس طلبة الموحدين بالمغرب أو مزوارهم كما يسميه الغبريني[3] الحافظ أبو الحسن بن القطان الكتامي الفاسي الظاهري تـ628هـ/1230م[4] ألَّف رسالة "إنهاء البحث منهاه عن مغزى من أثبت القول بالقياس ومن نفاه"[5]، كما ذكر ابن عبد الملك كتابًا آخر له في نفس الموضوع في الرد على عالم اسمه أبا علي الطوير أثبت القياس بطرق لم يرتضاها ابن القطان سمى كتابه: " النزع في القياس لمناضلة من سلك غير المهيع في إثبات القياس " ورد عليه العالم المذكور بكتاب آخر هو النزع في القياس[6].

أما أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الملك المعروف بابن أبي جمرة الأندلسي المرسي المالكي تـ599هـ/1202م فقد ألف كتاب "نتائج الأبكار ومناهج النظار في معاني الآثار" كما سماه ابن الأبار[7] وسماه الحافظ شمس

---

1 – نفسه، ص: 41 .

2 – نفسه.

3 – الغبريني، المصدر السابق، ص: 43 .

4 – لم أجد نص صريح يقطع بظاهرية الفقيه، ولكن الدكتور توفيق الغلبزوري أثبت ظاهريته بدلائل وقرائن متعددة، توفق الغلبزوري، المرجع السابق، ص: 835 و 836 و 837 .

5 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:8، ص: 168، وكنون، النبوغ المغربي، ج:1، ص: 149.

6 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:8، ص: 329.

7 – ابن الأبار، المصدر السابق، ج: 2، ص: 563 .

الدين الذهبي: نتائج الأفكار في معاني الآثار[1]، قال الـذهبي" ألفـه عنـدما أوقـع السلطان[2] بالمالكية وأمر بإحراق المدونـة"[3].

ومنها كتاب منهـاج الأدلّة فـي علـم الأصـول لابـن رشـد القرطبـي الحفيد تـ 595هـ/ 1198م[4].

أما أبو محمد عبد المنعم بن الفـرس تـ597هـ/1200م الـذي استقضـاه يعقوب المنصور بجزيرة شقر ثم وادي آش ثم جيان ثـم غرناطـة وجعـل إليـه النظر في الحسبة والشرطة والـدماء[5]، وقرَّبـه وجعلـه مـن أجـلِّ الحاضـرين بمجلسه من أهل العلم[6] قال ابن عبد الملك: " مـن أجـلِّ مصـنفاته مصـنفه فـي أحكام القرآن فإنه أجل ما ألف في بابـه"[7].

وممَّن ألف أحاديث الأحكام المنزوعـة الأسـانيد للتسـهيل علـى قارئهـا أبي محمد عبد الحق بـن عبـد الرحمـان الإشـبيلي المعـروف بـابن الخـراط تـ581 هـ/ 1185م في كتابه : " الأحكام الشرعية"، قـال عنـه ابـن القطـان: " شاع الكتاب المذكور وانتشر وتلقي بـالقبول ... "[8]، واسـتدركه عليـه قاضـي الموحدين ابن طاهر الصـقلي الظـاهري تـ608هـ/1211م الـذي رأى أن

---

1 – الذهبي، السير، ج: 21، ص:399.

2 – المقصود هو الخليفة يعقوب المنصور.

3 – الذهبي، السير، ج: 21، ص:399.

4 – الباباني إسماعيل الغدادي، **إيضـاح المكنـون فـي الـذيل علـى كشـف الظنـون**، عنـى بتصـحيحه وطبعه على نسخة المؤلف: محمد شرف الـدين، دار إحيـاء التـراث العربـي، بيـروت، لبنـان، د.ت.ط، ج: 4، ص: 585. والدوسري ترحيب بن ربيعـان، معجـم المؤلفـات الأصـولية المالكيـة المبثوثـة فـي كشف الظنون وإيضاح المكنون وهدية العارفين، مجلـة: **الجامعـة الإسـلامية بالمدينـة المنـورة**، العـدد: 120، السنة: 35، 1423هـ/2003م، ص: 353.

5 – ابن الزبير، المصدر السابق، ج: 4، ص: 19 .

6 – ابن عبد الملك، المصدر السـابق، ج: 5، ص: 62 .

7 – نفسـه، ج: 5، ص: 61 .

8 – ابن القطان، مقدمة كتاب الوهم والإيهام الواقعين، ج: 2، ص: 7 و8.

عبد الحق أغفل أحاديثا كثيرة أولى بالذكر ممـا أورده[1]، وشـرحه أبـو الحجـاج يوسف بن عمران المزدغـي الفاسـي 653هـ/1256م الـذي نَسـبهُ إبـراهيم حركـات إلـى الظاهريـة وسـمَّى الشـرح: " أنـوار الأفهـام فـي شـرح الأحكـام"[2].

وإلى جانب مصنَّـفات الحديث برز التأليف فـي التفسـير وعلـوم القـرآن، فقد كان محمد بن يوسف بـن عمـران المزدغـي تـ 655هـ/1257م أحـد الفقهاء المجتهدين وأئمَّة الحديث والتفسير، ألَّف تفسيراً جلـيلاً لـم يُكملـه وصـل به إلى سورة الملك وهو من أبـدع التفاسـير[3]، وكتـاب: أنـوار الأفهـام فـي شـرح الأحكام[4].

ومنهم القاضي أبو محمد ابـن عطيـة الغرنـاطي تـ546هـ/1151م صاحـب : " المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيـز" [5] قـال عنـه المقـري: " وألف كتابه الوجيـز في التفسـير فأحسـن فيـه وأبـدع وطـار بحسـن نيتـه كل مطـار"[6] .

أمـا عبـد الجليـل بـن مـوسى الأنصـاري الأوسـي القصـري تـ608 هـ/ 1211م فقد ألَّف كتاباً في تفسير القرآن، قـال عنـه ابـن الزبيـر : " وتآليفه كلها جليلة مفيدة فـي بابهـا لـم يسـبق إليهـا، وكلامـه فـي طريـق التصوف، سهل محرر مظبوط بظواهر الكتاب والسنـة "[7].

---

1 – محمد المنوني، حضارة الموحدين، ص: 39 .

2 – ابن حيان، جذوة الاقتباس، ص: 138 .

3 – عبد الله كنون، النبوغ المغربي، ج:1، ص: 148. وجاء فـي معجـم المـؤلفين أنـه انتهـى بـه إلـى سورة الفتح، عمر رضا حكالة، المرجع السابق، ج:12، ص: 133.

4 – نفسـه.

5 – مطبـوع، أنظر: توفيق الغلبـزوري، ص: 802 .

6 – المقري، نفـح الطيب، ج: 2، ص: 526 و527 .

7 – ابن الزبيـر، صلة الصلة، ج: 4، ص: 31 و32 .

واختصرَ أبو عبد الله محمـد بـن علـي بـن العابـد الأنصـاري الفاسـي تـ662 هـ/1263م الكشاف للزمخشري وحذف منه مسائل الاعتزال[1] .

وألّف الفقيه المالكي علي بـن عبـد الله بـن نعمـة الأنصـاري الأندلسـي البلنسي تـ567هـ/1171م تفسيراً في عدَّة مجلَّـدات سـماه: ري الظمـآن فـي تفسير القرآن[2].

وقد سـار جمهـور المفسـرين بـالمغرب – زمـن الموحـدين – علـى طريقة التفسير المـأثور وتجنبـوا الإغـراق فـي التأويـل، وظلَّـت تفاسـيرهم كفقههم ملتزمة بالسنة والأثـر، تهتم بالمذهب الظـاهري فتـورد أقـوال أعلامـه وتكشف عن فقهه وأصوله[3].

وفي العموم استفاد الفقه فـي الغـرب الإسـلامي اسـتفادةً عظمـى بظهـور حفاظ وعلماء كبار وتآليف مهمة في الحديث وغيره[4].

ويظهر ذلك أيضا من خلال تغيُّر برامج العلمـاء فـالتي وضـعت بعـد سـنة 610هـ/ 1213م، كانت فيها أمَّهـات الفقـه المـالكي تحتـل مكانتهـا، ضـمن مقررات الفقهاء ومروياتهم[5].

---

1 – عبد الله كنون، النبـوغ المغربي، ج:1، ص: 159 .

2 – ابن الأبار، التكملة، ج:3، ص: 207. وللمزيد عـن المفسِّـرين وكتـب التفسـير بـالغرب الإسـلامي في هذه الفترة أنظر: الوافي إبراهيم أحمد، **التفسير وعلوم القـرآن بـالغرب الإسـلامي مـن القـرن الثـاني إلى القرن الثامن الهجري**، ضمن: السجل العلمـي لنـدوة : الأنـدلس قـرون مـن التقلبـات والعطـاءات، القسم الخامس: العلوم الشرعية، إشراف وتنسـيق: الزيـدان عبـد الله بـن علـي وآخـرون، الطبعـة 01، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، السعودية، 1417هـ/ 1996م، ص: 33 وما بعدها.

3 – توفيق الغلبزوري، المرجع السابق، ص : 803 .

4 – الحجوي، الفكر السامي، ج: 4، ص: 12 .

5 – محمد لخضر بولطيف، المرجع السابق، ص: 322.

لم يستطع الموحدون محـو مذهب مالك وإزالتـه مـن المغـرب مـرةً واحدة كما يقول عبد الواحد المراكشـي لتجـذُّره فـي النفـوس، إلاّ أنَّ مسـاعي الموحدين أثمرت خلق حركة فقهية تقـوم علـى الاجتهـاد واسـتخراج الأحكـام من ظاهر الكتاب والسنة، والتقليل مـن الانكبـاب علـى الفـروع والانصـراف إلى دراسة الفقه في أصليه العظيمين الكتاب والسـنة[1]، بالإضـافة إلـى ازدهـار الحوار والمناظرة.

ويصفُ عبد الله كنون هذا التحول الفقهي فـي العصـر الموحـدي بأنَّـه انتصارٌ جديد للفقـه المالكي تجاوز هذه المـرة الانتصـار علـى الخصـوم إلـى الاستفادة منه كالتلقيح بمادة الحياة الأصلية للفقـه (الكتـاب والسـنة)، فلـم يعـد الفقه المالكي " ذلك الفقه الساذج الذي يُـقارِنُ أقـوال أئمـة المـذهب بعضـها ببعض، ويُـرجعها في النهاية إلى رواية ابـن القاسـم عـن الإمـام مالـك، بـل صار يعتمد على الأدلة وينظر في الخلاف العالي، وبـذلك أخـذ خيـر مـا فـي الدعوة المعارضة له " [2] .

وانتهت التجربة الفقهية الموحدية بترسيـخ فقهٍ مـالكي قـائم علـى أسـاس القرآن الكريم والحديث الشريف، " فظنَّ الخليفـة يعقـوب المنصـور أنـه بهـذا قضى على الفقه المالكي، ولم يكن فقه الموحدين الجديـد سـوى فقـه مالـك بعـد حذف الأسانيد وآراء الفقهاء "[3] .

وبذلك اجتمع الفقه والحديث من جديـد بعـد أن كانـا – علـى حـدّ تعبيـر الإمام الحجـوي " أخـوين متهاجـرين "[4] خلال القرن الرابـع الهجـري.

---

1 – نفسه، ج:1، ص: 120.

2 – عبد الله كنون، المرجـع السـابـق، ج: 01 ، ص: 133.

3 – عبد الله علي علام، الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن بن علي، ص : 232 .

4 – الحجوي، الفكر السامي، ج: 4، ص: 12 .

وختاماً يُـمكـن القول أن صراع الموحدين مـع المـرابطين لـم يكـن صراعاً سياسياً محضاً ولكنَّه صراع فكري مـذهبي بالدرجـة الأولـى، لـذا رأوا في انتصارهم السياسي إنجـازاً لشـطرٍ فقـط مـن مشـروعهم " الإصــلاحي "، وبقي عليهم إنجـاز الشـطر الآخـــر عــن طريــق زعزعــة البنيــة المذهبيــة والذهنية المرتكزة على القالب الفروعي والعقيـدة السـلفية وطـرح بـديل لكـل ذلك، ولعلهم اتخذوا من شخصية ابن حـزم ومـنهج الظاهريـة شـعاراً ورمـزاً للتمُّرد على المذاهب الفقهية ولاسيما المذهب المالكي الـذي مثَّـل شـعار ورمـز المـرابطـيـن.

وسواءٌ أكان عداء الموحدين للفروعيـة وتشـجيعهم للظاهريـة مُؤسسًـا على اعتقادٍ واقتنــاعٍ أم من منطلق عـداءٍ سياســي للمـرابطين ورغـم فشـلهم في بناء قاعدة فقهية ينطلق منها المذهب الظـاهري – رغـم ذلـك كلـه – فـإنَّ الحركة العلمية الموحدية القائمــة علــى الدعـــوة للاجتهـاد تركـت بصـماتها على الفقه في الغـرب الإسلامي الذي أصبح أكثـر ارتباطـاً بالأصـول، وأخـذ يبتعد شيئاً فشيئاً عن الفروعية المرتبطـة بأقوال فقهاء المالكيـة.

وسـواءٌ استهـدف الموحـدون محـو المـذهب المــالكي بعينــه، أو فقــه الفـــروع، أو إزالـــة مخلَّـــفات العهـــد المرابـــطي، فـإنَّ حركـة الموحدين الفقهيَّـة خلقت صراعـًا بـين واقـعٍ مـالكيّ مـُـتأصِّـل ودعـوة فقهيَّـة تقترب إلى حـدٍ كبيـــر مـن أصـــول الظاهريـة انتهـــت بانتصـارٍ آخر للمـذهب المـالكي وعودتـــه مـذهباً للمغـاربـــة أفقيـًا وعموديـــًا.

الباب الثالث:

التحولات التصوفية في الغرب الإسلامي وموقف السلطة والفقهاء منها (6هـ – 8 هـ/ 12م – 14م) :

- **الفصل الأول : تطور التصوف السني في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي (6هـ – 8 هـ/ 12م – 14م) :**
- **المبحث الأول :** انتعاش التصوف السني في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي.
- المطلب الأول: مظاهر انتشار التصوف السُنِّي.
- المطلب الثاني: خصائص التصوف السني خلال العصر الموحدي.
- **المبحث الثاني :** مواقف السلطة الموحدية من التصوف.
- المطلب الأول: مواقف التعايش.
- المطلب الثاني: مواقف التوتر.

الفصـــل الأول :

تطور التصوف السنـــي في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي

(6هـــ – 8 هـ/ 12م – 14م) :

شكّلت الممارسة الصوفية عنصراً رئيسـياً فـي مكوِّنـات الشخصـية الدينيـة في الغرب الإسلامي، لذا سأتناول في دراسـتي للأوضـاع المذهبيـة فـي الغـرب الإسلامي خلال العصر الموحـدي الجانب السـلوكي الصـوفي الـذي ميَّـز العُبَّـاد والصلحاء والفقهاء والعامة، وإبراز مواقف السلطة والفقهاء منه.

المبحـث الأول: انتـعاش انتشار التصـوف السنـي في الغـرب الإسلامـي خـلال العصـر الموحـدي .

المطلب الأول: مظاهر انتشـار التصـوف السـني فـي الغـرب الإسـلامي خـلال العصر الموحدي:

يـُعتبر الزهد والتقشف أحد الأسس التي أقام عليهـا ابـن تـومرت منهجـه الفكري، بل جعله شرطاً لاتـِّـباعه، ومعيـارًا لتمييـز المخلصـين مـنهم، فقـد ساءه جداً عندما شاهد أصحابه يوماً يتنافسون على مـا كسـبوه مـن غنـائم، فـأمر بجمع الغنائم وإحراقها جميعا، وقال لهم : " من كـان يتبعنـي لأجـل الـدنيا فلـيس له عندي إلا ما رأى، ومن يتبعني للآخرة فجـزاءه عند الله "[1] .

لذا حاولت بعض المصادر تصوير زعـيم الموحـدين ابـن تـومرت بالزاهـد المتبتل المنقطع عن الدنيا في "حالة من التقشف والحصـر والصـبر علـى المكـاره والتقلّل من الدنيا "[2]، ملازماً للمسـاجد حتـى أنـه "كـان يُسـمى أسـافو، ومعنـاه

---

1 – ابن تغري بردي، النجوم الزاهـرة، ج:5، ص:255. واليـافعي، مـرآة الجنـان وعبـرة اليقظـان، ج:3، ص: 184.

2 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج:6، ص: 301.

الضياء لكثرة ما كان يسرج القناديل بالمساجد لملازمتها"[1]، مُتشبهاً بالزهاد المتبتلين، مُتخلقا بأخلاقهم، شديد التقشف والزهد والورع، ولا يُقبل على شيئ من متاع الدنيا[2]، متلبساً بلباس الصوفية "ما لبس قط إلا ثياب الصوف عن قميص وعن سراويل وعن جبة تواضعا لله تعالى وزهدا"[3]، ومال إلى التقشف في مأكله أيضا لا يزيد عما تقدمه له أخته من رغيف بقليل من سمن أو زيت، ولم يتغيَّر عن هذه الحياة حتى عندما أقبلت عليه الدنيا[4]، وبلغ ابن تومرت في تنسُّكه إلى حد أن ظلَّ حصورا لا يأتي النساء[5].

وكان يتمثل دائمًا بهذا البيت الشعري :

تجرد من الدنيا فإنك إنما *** خرجت إلى الدنيا وأنت مجرد[6].

ويتمثَّل قول المتنبي عن الموت وعلوِّ الهمَّة :

إذا غامرت في شرف مروم *** فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت في أمر حقير *** كطعم الموت في أمر عظيم[7].

أما الأستوغرافيا الموحدية فنجدها تُضفي على حركة ابن تومرت طابع الولاية والكرامة عندما تخرج بدعوته من حيِّز العمل المنظم إلى

---

1 – نفسه.

2 – ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج:2، ص: 52.

3 – ابن القطان، نظم الجمان، ص: 170

4 – ابن أبي دينار، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، الطبعة 01، المطبعة التونسية، المحمدية، تونس، 1286هـ/ 1869م، ص: 104.

5 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج:6، ص: 305.

6 – ابن خلكان، المصدر السابق، ج:5، ص: 54. والذهبي، تاريخ الإسلام، ج:36، ص: 121. والبيت في الأصل للإمام أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني النحوي اللغوي المقرى، صاحب المصنفات تـ 255هـ/ 868م. أنظر: اليافعي، مرآة الجنان، ج:2، ص: 116.

7 – ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج:5، ص:255 .

حيز الظواهر الخارقة للعادة[1]، كما يتضح لدى المؤرخيْن الموحديين أبو بكر بن البيذق الصنهاجي[2] وابن القطان المراكشي[3].

وحاول المراكشي التوفيق بين زهد ابن تومرت وسعيه الحثيث للملك والسلطان بأنه جمع بين الزهد والرغبة في تغيير الواقع فكان " يـُظهر التشبه بالصالحين والتشدد في إقامة الحدود جاريا في ذلك على السنة الأولى "[4].

وبعيداً عن المصادر الرسمية (البيذق، ابن القطان، ابن صاحب الصلاة) وشبه الرسمية (عبد الواحد المراكشي، ابن خلدون) والمعادية (ابن أبي زرع، ابن الأحمر) يـُمكن القول أن ابن تومرت كان يقرن أقواله وأفعاله بسمات الصوفية[5]، إلا أنه كان ذا أطماع سلطوية تطغى عليه نرجسية أفسدت عليه تزهده.

وأدرج ابن تومرت التصوف ضمن برنامجه بأن وضع نفسه منذ المنطلق في سياق توجهات الغزالي، باعتباره قد اتصل به وتلقى عنه، وباعتبار ما يُروى عن كون الغزالي قد دعا له بأن تكون نهاية دولة المرابطين على يديه وأنه وسيلة للانتقام من المسؤولين عن إحراق كتاب الإحياء[6] .

---

1 – محمد الشريف، تيار التصوف في العصر الموحدي من خلال قطعة من كتاب " المستفاد في مناقب العباد " لأبي عبد الله محمد التميمي، ضمن كتاب : **ملتقى الدراسات المغربية والاندلسية، تيارات الفكر في المغرب والاندلس، الروافد و المعطيات**، جامعة عبد الملك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، المغرب، 26-27-28، إبريل 1993، ص : 436 .

2 – البيذق، المصدر السابق، ص:17 و18 و19 .

3 – ابن القطان، نظم الجمان، ص: 76 و77 و 170.

4 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 114.

5 – إمام مرعي خلف الله، **العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي**، دار المعارف، 1405هـ/1985م، ص: 344 .

6 – محمد فتحة، النوازل الفقهية والمجتمع، ضمن كتاب: **أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن 6 – 9 هـ / 12 – 15 م)**، منشورات كلية الأداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، 1999م، ص : 160 .

فقد استغلّ ابن تومرت سذاجة سكان المنطقة وبساطتهم وبدائية معارفهم فراح ينتحل لنفسه الكرامات فاختلق حادثة نزول الملائكة، وكلام الأموات الذين نطقوا من قبورهم ليشهدوا له بصدق دعوته[1]، لتزكيته ومباركة دعوته[2]، وحادثة التمييز التي أفنى بها خلقا كثيراً ممن رآهم مشككين في دعوته[3].

فبلغت تعاليم المهدي ابن تومرت بين الموحدين درجة القدسية، واعتقد فيه المصامدة الكرامات الربانيَّة وتعلّقوا بها، حتى كانوا لا يذكرون غيره ولا يتمثلون أمرا إلاّ بأمره، "يستغيثون به في شدائدهم ويتبركون بذكره في موائدهم"[4]، يهرعون إليه في أزماتهم، ويتبركون بأثره، ويشفعون به في أوقات شدائدهم[5]، وذكر ابن قنفد القسنطيني ت810هـ/1407م أن دار ابن تومرت بجبل هنتاتة يـُتبرك بها إلى يومه ولا يمر بها راكب إلا نزل[6].

ويذهب أحد الباحثين إلى أن الموحدين والمتصوفة كانوا حلفاء مرحليين إبَّان صراعهم ضد الخصم المشترك المتمثل في الفقهاء المالكية والسلطة المرابطية[7].

واستمرَّ خلفاء الدولة الموحدية على هدْي ابن تومرت في الجمع بين الزهد والتقشف وتشجيع الممارسات الصوفية الزهدية من جهة، وما عـُرف عنهم من ملوكية وبطش من جهة أخرى، فهذا عبد المؤمن كان "ميمون النقيبة

1 – ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص: 172. والسلاوي، المصدر السابق، ص : 96.

2 – ابن كثير المصدر نفسه، ج:12، ص:186.

3 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج:6، ص:228.

4 – ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص : 77.

5 – مبارك الميلي، تاريخ الجزائر، ص: 301.

6 – نفسه، ص : 301 و302.

7 – محمد الشريف، تيار التصوف في العصر الموحدي من خلال قطعة من كتاب " المستفاد في مناقب العباد "، ص : 437 .

لم يقصد قطّ بَلَدا إِلَّا فَتحه وَلَا جَيْشًا إِلَّا هزمه، مُحبا لأهل الْعلم وَالْأدب مكرما لوفادتهم منفقا لبضاعتهم"[1] رغم انبساط الدنيا له.

أما يوسف بن عبد المؤمن الذي بلغت الدولة الموحدية في عهده ذروة ثرائها إلا أنه كان يحفظ القرآن وصحيح البخاري[2] وكان "أول شَيْء فعله بعد الْبيعَة أن سرَّح الجيوش المجتمعة للْجِهَاد إِلَى بِلَادهمْ وقبائلهم، وَكتب إِلَى الْبِلَاد بتسريح المساجين وتفريق الصَّدقَات"[3]، كما نجد الخليفة يتقرب من الشيخ الزاهد أبي داود مزاحم الذي تسبب في شفائه من مرض عجز عنه الأطباء[4].

وفي عصر المنصور "هبَّت على العاصمة الموحدية ريح من الاقتصار والتواضع والتقشف، واختفى كثير من ضروب الفساد التي كانت ذائعة بها"[5]، فأمر بإراقة المسكرات وقطعها، والتحذير بعقاب الموت على استعمالها، وأنفذ المخاطبات بذلك إلى كافة ولاّته بالأمصار[6].

وانتشر في أيامه للصالحين والمتبتلين وأهل علم الحديث صِيت، وقامت لهم سوق، وعظمت مكانتهم منه ومن الناس، "ولم يزل يستدعي الصالحين من البلاد، ويكتب إليهم يسألهم الدعاء، ويصل من يقبل صلته منهم بالصلات الجزيلة"[7].

---

1 – السلاوي، المرجع السابق، ج:2، ص: 145.

2 – نفسه، ج:2، ص: 156.

3 – نفسه، ج:2، ص: 146.

4 – البادسي عبد الحق بن الغرناطي، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، المطبعة المالكية، المغرب،1402هـ/ 1982م، ص: 53 و54.

5 – عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج:5، ص: 142.

6 – ابن عذارى، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص: 173.

7 – المراكشي، المصدر السابق، ص:361.

ووصف ابن أبي زرع الخليفة المنصور أنه كان " كثير الصدقة محبا للجهاد مواظبا عليه، يشهد جنائز الفقهاء والصلحاء ويزورهم ويتبرك بهم ... أكرم الفقهاء وراع الصلحاء والفضلاء "[1]، وفي أواخر سنة 580هـ/1184م أي في أوليَّات خلافته، نجد المنصور يأمر " بقطع لباس الغالي من الحرير، والاجتراء منه بالرسم الرقيق الصغير، ومنع النساء من الطرز الحفيل، أمر بالاكتفاء منه بالساذج القليل، وأمر بإخراج ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب فبيعت منه ذخائر لا تحصى بأثمان لم توف ولم تستقصى، ثم أمر صاحب الشرطة بقطع الملهين والقبض على من شهر من المغنين، فثقف من وجد منهم بكل مكان، فغبروا هيئاتهم و تفرقوا في الأوطان، وبارت سوق القيان، وزهد كل الزهد في هذا الشأن ... وضمنت الكتب النافذة بذلك فصولا في بسط العدل والتأكيد على العمال والولاة بتأنيس الرعية وتوخي رضاهم في اقتضاء حقوقهم، وكف أيدي الظالمين عنهم" [2] .

وفي العصر الموحدي المتأخِّر حاول الخليفة محمد بن يعقوب الناصر (595–610هـ/1198م–1213م) التقرب من الصوفية أيضا، فأرسل إلى الشيخ الولي الصالح أبي عبد الخالق أمغار برسالة جاء فيها : "... وأبسطوا بالدعاء لنا أيدي إخوانكم وأيديكم فالله تعالى يعلم أن اعتقادنا بالدعاء فوق هذا الاعتقاد بسمر الصفاد، والبيض الحداد، وأن دعوة منكم آثر عندنا من مائة ألف بطل ومائة ألف جواد" [3].

ولم يقف الأمر عند السلطة الحاكمة بل تعدَّاه إلى كبار أفراد العصبية الموحدية الذين اعتقدوا بصدق في تيار التصوف إلى درجة أنهم تابوا عما كانوا فيه من مظالم جرتها عليهم ولاياتهم[4] .

---

1 – ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص: 216–217.

2 – ابن عذارى، البيان المغرب، ص: 172 و 173 و 174 .

3 – دكالة من خلال التشوف، ص: 203 نقلا عن مخطوط بهجة الناظرين.

4 – التادلي، المصدر السابق، ص: 231 ، 434 .

وتسارع انتشار التصوف بعد القرن 5هـ/11م، وأكد صاحب مفاخر البربر ذلك بقوله :"وأما الأولياء والصلحاء والعباد والأتقياء والزهاد والنساك والأصفياء فقد كان في البربر ما يوفي على عدد الحصى والإحصاء"[1]، ويظهر ذلك بوضوح في كتب التشوف والمستفاد والمقصد وغيرها.

ونعتقد أن عدد الزهاد والصوفيين المغاربة كان أكثر مما ذكرته المصادر التي بين أيدينا نظراً لتأخر ظهور أدب المناقب بالمغرب إلى ما بعد القرن 6هـ/12م والذي غيَّب كثيراً من الزهاد من غير الفقهاء والعلماء، وهو ما يُمكن تسميته تجاوزاً "بالتصوف الشعبي"، فكثير من الزهاد ذُكروا في كتب التراجم العلمية باعتبارهم علماء، أما الزهاد غير العلماء فلم يتم الاهتمام بهم طبعا ولم يبدأ ذكرهم إلا ابتداء من القرن 6هـ/12م بظهور أولى كتب المناقب بالمغرب مثل كتاب أخبار صالحي رجراجة وعلمائها لمؤلف مجهول والمستفاد للتميمي تـ604هـ/1207م والتشوف لابن الزيات التادلي تـ 627 هـ/1230م[2].

تميَّز القرن 6هـ/12م بظهور عدد كبير من الصلحاء وشيوخ التصوف السني بأعداد معتبرة كما سنذكره من نماذج، كما تميَّز بظهور نوعية من الشيوخ لهم وزنهم في تاريخ التصوف الإسلامي بصورة عامة وأثروا فيه بعمق وأصبحوا من أبرز أعلامه كأبي مدين الغوث[3] في الجناح المغربي،

---

1 – مجهول، **مفاخر البربر**، ضمن ثلاثة نصوص عن البربر في العصور الوسطى، تحقيق : محمد يعلى، مدريد، المجلس الأعلى للبحوث العلمية، 1996م، ص: 225 .

2 – المغراوي، العلماء والصلحاء، ص: 290.

3 – هو أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي الأصل، ولد بإشبيليا بالأندلس في سنة 509هـ/ 1115م، وتعلم في فاس ببلاد المغرب، واستقر في بجاية مدة معتبرة من حياته، وتوفي بتلمسان. وفي رحلته لطلب العلم زار سبتة وطنجة، وممن لازمهم وآخذ عنهم، الشيخ أبو يعزى يلنور تـ 572هـ/ 1176م، والشيخ أبو الحسن علي بن حرزهم، تـ 559 هـ/ 1163م الذي قرأ عنه "الرعاية للمحاسبي". ومن الشيوخ كذلك الذين أخذ عنهم، الشيخ أبو الحسن بن غالب، فقيه فاس، أخذ عنه كتاب السنن للترمذي، والشيخ أبو عبد الله الدقاق. أنظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج: 06،

وبرز التصوف كتيَّار له حضور قوي داخل المجتمع ويساهم في التأطير الديني لأهل المغرب الإسلامي[1] .

أما القرن 7هـ/13م بَدا وكأن الحركة الصوفية في الغرب الإسلامي بدأت تأخذ صبغة حركة عادية، بل إن المغرب الأقصى قد تشبَّع بشيوخ التصوف فغدا " يُصدِّرهم إلى أقطار أخرى في حركة هجرة صوفية متميزة تركت آثارا عميقة على التصوف الإسلامي بمصر على وجه الخصوص"[2]، وعلى مستوى التوزيع الداخلي لم يعد التصوف منحصرا في المناطق التي ارتبطت بها قديما ولكن توسعت رقعته وانتقل إلى بيئات جديدة في المغرب الأقصى والأوسط والأدنى[3].

وخلال القرن 7هـ/13م أيضا صار التصوف السني يجنح من التصوف الفردي إلى التصوف الجماعي، ويتهيكل في شكل طوائف[4].

كما أصبح التصوف خلال العصر الموحدي قوة جذب اجتماعية مؤثرة وحصل أقطابه وشيوخه على مصداقية روحية وأخلاقية وحضور اجتماعي فعَّال[5].

وعموماً تبيَّنُ أنَّ الحياة الروحية المغربية كان يغلب عليها الطابع العملي الذي يميل أكثر إلى الزهد وتصوف الأخلاق والرقائق، بعيدا في الغالب عن كل نزعة فلسفية باطنية، خلافا لما عرفته تيارات المشرق

ص: 495. والذهبي، السير، ج:15، ص: 380. وابن الملقن، **طبقات الأولياء**، الطبعة:02،تحقيق: نور الدين شريبه، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1415 هـ/ 1994 م، ص: 437.

1 – محمد فتحة، النوازل الفقهية والمجتمع، ص : 159 .

2 – المغراوي، العلماء والصلحاء والسلطة، ص: 292.

3 – نفسه.

4 – نفسه.

5 – عبد العزيز بنعبد الله، **التصوف المغربي خواص ومميزات ضمن سلسلة : معلمة التصوف الإسلامي**، الطبعة 01، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، 2001م، ص: 85.

والأندلس، فهو ليس إلا تتميم إخباري لتعاليم السنة لا أثر فيه "للشطح الصوفي"، اللهم بعض المبالغات في الإيمان وادّعاء الكرامات وخرق العادات واعتبار أن "ما جاز أن يكون مقدورا لله تعالى جاز وقوعه كرامة للأولياء"[1]، واعتدال تصوف المغاربة في نظر المؤرخين له، هو أنه تلقى أصوله الأولى من ذلك الرعيل الأول المشرقي من الصوفية السُنيَّة[2] الذين "اعتنوا بما ظهر لسالف هذه الأمة من الكرامات ومهدوا القواعد التي قامت عليها أصول المقامات، وفسروا ما غمض من إشاراتهم، وكشفوا عن خفي عباراتهم، ونقلوا ما صح من كراماتهم، كالإمام أبي القاسم القشيري وأبي بكر المكي..."[3].

واجتمعت جملة من الأسباب أسهمت في انتعاش التصوف المغربي خلال القرن7هـ/13م وانتعاش مؤسساته المتمثلة خصوصاً في الرباطات[4]، نذكر من تلك الأسباب ما شهده العصر الموحدي من انتشار البذخ والترف الذي من شأنه أن يثير حمية المتدينين، لاسيما وقد طال ذلك الترف طبقة الفقهاء الذين حظيُوا بالمناصب الرفيعة والقربة من السلطان، وضُعف الحكومات وانصرافها إلى الدفاع عن كيانها وإهمالها لمصالح الناس[5]، وفي ظروف الظلم والضياع هذه تنبَّه الناس إلى أهمية التصوف[6]، وقد صوَّر لنا القاضي ابن العربي الحالة المتردية التي يعيشها المجتمع الأندلسي الذي لم يكن إلى إصلاحه سبيل إلا البُعد عنه والزهد في كل شيء بعد أن أصبحت فيه

---

1 – البادسي، المقصد الشريف، ص: 39.

2 – محمد العدلوني الإدريسي، التصوف الأندلسي، ص: 108.

3 – البادسي، المصدر السابق، ص: 13.

4 – أنظر عنها مثلا : الجيلالي كريم، الرابطات والرباطات من خلال كتاب التشوف، ص : 17 – 28.

5 – ألفرد بل، **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي**، ترجمة: عبد الرحمان بدوي، الطبعة 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان ،1987م، ص 378 و 379.

6– حسين مؤنس، **الطرق الصوفية وأثرها في نشر الإسلام في الصحراء الكبرى**، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، بور سعيد ، مصر، 2006م، ص:8.

الحياة شاقة كئيبة بعيدة عن منهاج الشرع وقانون الدين فيقول في كتابه سراج المريدين "وقد عظم الخطب في هذا الزمان حتى لا يدري العبد على أي شيء يبكي، أعلى فوات دنياه أم على فوات دينه، أم على إخوانه في القربان، أم على أعوانه في الصالحات، أم على دروس العلم و طموسه، أم على اتفاق الخلق على إنكار المعروف، وتعريف المنكر، أم على نفسه التي لا تطاوعه على طاعة، أم على عرسه التي تطالبه بما ليس به طاقته، أم على ولده الذي لا يرى فيه للعين قرة،أم على جاره الذي لا يفضي له على عورة، أم على أميره الذي لا يرعى فيه إلا ولا ذمة، أم على فقد صبره الذي يغلبه على الانفراد عن الخلق والاكتفاء بالرب"[1] .

وكان المتصوفة يغتنمون الفرصة لاستقطاب الكثير من الفقراء والمظلومين، كما دفعت هذه الظروف الكثير من المظلومين إلى الارتماء في أحضان الزهد والتصوف[2]، واتجه الناس إلى شيوخ الصوفية لأنهم أناس أصحاب جاه عند السلاطين، ويعتقد الناس أنهم أصحاب جاه عند الله كذلك، وكان أولئك الشيوخ من عامة الناس يعيشون معهم وأبوابهم مفتوحة للمريدين وأصحاب الحاجة[3].

فهذا المتصوف أبو عبد الله محمد بن يبقى "ألزم نفسه المشي في قضاء حوائج الناس، أي حاجة كانت، عند من كانت"[4]، وكان أبو العباس أحمد بن طوال " كثير الإحسان إلى الناس، لا يأتيه أحد يسأله في شيء إلا أعطاه، إن كان محتاجا للسلف أسلفه على حاله، وإن كان فقيرا أسلفه على الفتح"[5].

---

1 – أنظر: عصمت عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، ص:43. نقلاً من مخطوط "سراج المريدين".

2–جمال علال البختي، المرجع السابق، ص50 و51.

3 – ومع ذلك ترددت في كتب المناقب عند ترجمة كثير من الصوفية أنهم كانوا منقبضين عن الناس منعزلين عنهم تورعا، أنظر مثلا : التميمي، المستفاد، ص: 60 ، 82 ، 102.

4 – التميمي، المستفاد، ص: 58.

5 – نفسه، ص: 157.

وتكاثر التصــوف بأقطابــه ومريديــه ومراكــزه باســتطرادٍ طــوال القــرن السابع الهجري[1]، فالناس يلجؤون إلــى الصــوفية للــتخلص مــن حــاكم ظــالم، أو لاستجلاب دعائهم وشفاعتهم وبركـــــاتهم، ووضـــع حــدٍ لموقــفٍ بــائس، وللشــفاء من المرض، وتفريج الكروب ..... ولذلك كــان القــوم يتبــاهون بزيــارة الصــوفية لهم، وكانوا يرحبون بالصوفي كأنه ولي مبجَّــل[2] .

وكان مشايخ الصوفية في هذه الفتــرة هــم الملجــأ والمــلاذ حــين ينــزل بالناس أزمة وشدة حيث صــاروا رمــــزًا للعدالــة يلــوذ بهــم النــاس مــن ظلــم حكامهم[3]، وهذه المكانة التي احتلَّها الصوفية بــين النــاس أثــارت مخــاوف الفقهــاء والخلفاء فاستدعي أبو يعـــزى عنــد الخليفــة عبــد المــؤمن بــن علــي بعــد أن تواترت عليه الأخبار أن هذا الشــيخ تكــاثرت حولــه الجمــوع فاســتدعاه الخليفــة وحبسه في صومعة جامع مراكش ثم خلى سبيله حين تأكــد مــن براءتــه[4]، ونفــس الكلام ينطبق على المتصوف أبــي مــدين شــعيب الــذي أمــر الخليفــة المنصــور بإحضاره إلى العاصمة مراكش إلا أن المنية عاجلته بتلمسان[5].

وشهد العصر الموحــدي متصــوفة التيــار الســني فــي البــوادي والحواضــر، وحتى فــي عاصــمة الموحــدين مــراكش، ولا أدلَّ مــن انتعــاش التصــوف فــي مــراكــش حاضرة الموحدين[6] أنه بلغ عدد المتصوفة الــذين لهــم صــلة بمــراكش

---

1 – ألفرد بل، المرجع السابق، ص: 389 .

2 – نفســـه، ص: 391 .

3 – جمال أحمــد طــه، **<u>مدينــة فــاس فــي عصــري المــرابطين والموحــدين، 448-668هـــ / 1056 – 1229 م</u>**، دار الوفاء للنشر والطباعة، 2001 م، ص: 299 .

4 – العزفي، المصدر الســـابق، ص: 49. والتــادلي، المصــدر الســابق، ص: 215، والتميمـــي، المصــدر السابق، ص: 12.

5 – الغبريني، المصدر السابــق، ص: 68 .

6 – ومما يدل على أن التصوف كان ضعيفا بحاضرة مراكش بداية العصــر الموحــدي ثــم انــتعش فيمــا بعــد – أن أبا مدين القطب لما دخل مراكش قيل له : " إن رأيت أن تتفــرغ لــدينك فعليــك بمدينــة فــاس". (أنظــر: التادلي، المصدر السابق)، ص: 320. والدليل الثاني أن الصوفي أبــي زكريــا يحــي بــن أبــي بكــر الزنــاتي

إما بالانتماء الجغرافي لها أو زيارتها أو الاستقرار بها والذين ترجم لهم ابن الزيات في التشوف حوالي سبعين عَلَماً من مئتين وسبعة وسبعون، ويتبيَّن من خلال تواريخ الوفيات أن ثمانٍ وستين من أصل سبعين تعود وفياتهم إلى النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر ميلادي[1] .

ولشُهرة مراكش الصوفية أُطلق عليها مدينة "السبعة رجال"، تحمل أسماؤهم أحياء مراكش وحوماتها، كلهم فقهاء أولياء صالحون، منهم : يوسف بن علي الصنهاجي : توفي في شهر رجب عام593 هـ/1196 م ودُفن خارج باب اغمات برابطة الغار[2].

ومن أبرز متصوفة التيار السني خلال العصر الموحدي نذكر : أبو يعزى يلنور بن ميمون بن عبد الله الدكالي الهزميري (488- 572 هـ/1095-1176م) أستاذ أبي مدين الغوث عمَّر مئة وثلاثون سنة، وفدَ على فاس فسكنها مدة بحومة البليدة، ثم خرج إلى بلاد مغراوة واستقر بها بقرية تاغيا، وبها توفي[3].

نزيل مراكش والمتوفى بها عام 614هـ/1214م زار مراكش ولقي بها أبا محمد صالح فأبدى تعجبه من صوفي بذلك القدر بمدينة مراكش فقال : " ما ظننت أن بمراكش مثل هذا الرجل " (اُنظر: التادلي، المصدر السابق، ص: 439).

1 – محمد رابطة الدين، أبوالعباس السبتي ومجال مراكش ، ملاحظات و تساؤلات ، ضمن : كتاب : **الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب دراسات تاريخية مهداة إلى الأستاذ إبراهيم حركات**، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات رقم:69، جامعة الدار البيضاء، الطبعة 01، 1997م، ص : 60 .

2 – اُنظر: حسن جلاب، **سبعة رجال**، الطبعة 01، جمعية منتدى ابن تاشفين، مراكش، المغرب، 2006م.ومن الكتب التي ترجمت لهم: « درر الحجال في مناقب سبعة رجال» لمحمد الصغير الإفراني المراكشي، طُبعً بتحقيق: حسن جلاب، و كتاب «بادرة الاستعجال في مناقب السبعة رجال» لمحمد الغالي بن المكي الأندلسي وهو لايزال مخطوطاً و«رسالة في التعريف بسبعة رجال» لعبد الواحد بن محمد بن المواز (تـ 1318هـ / 1900م) لايزال مخطوطاً أيضاً.

3 – انظر ترجمته: الكتاني، سلوة الأنفاس، ج: 1، ص: 172. وابن مخلوف، شجرة النور الزكية، ص: 163. وابن القاضي، المصدر السابق، ص: 563. وابن الزيات، المصدر السابق، ص: 213.

ومن أقطاب هذا التيار بها أيضا : عبد العزيز التونسي الذي وفد إليها من إفريقية ت 476هـ/1083م، ذكر عنه القاضي عياض أنه " كان من أهل العلم الظاهر والباطن، وغلب عليه علم الباطن وطريقة الزهد والتقشف والتخلي عن الدنيا وقلة المبالاة في المطعم والمشرب وكان كثير الصيام ... يلبس الصوف " [1]، وممن مثّلوا التيار الصوفي الأخلاقي السني حسن بن خالد بن إبراهيم الزبيدي الفقيه الشيخ الصالح " غلب عليه الخير والزهد وعلم القرآن والدراية " [2]، ومنهم محمد بن مسعود بن محمد بن مسعود العكي (ابن اللمنو) قال عنه القاضي عياض: " كان من أهل الفقه والخير والزهد والورع والرواية والأدب وغلبت عليه العبادة ... وكان السلطان يحضر مجلسه على انقباضه"[3]، ومنهم أحمد بن محمد الشارقي الواعظ أبو العباس المتوفى حوالي 500هـ/1106م كان " يعظ الناس ويذكرهم، رجلا صالحا متبتلا"[4]، ومنهم : أبو القاسم عبد الرحمان المعروف بابن الخطيب ت502هـ/1108م قال عياض : " كان صوفيا ... صادعا بالحق يحمل آدابا ومعارف وأصول ديانات " [5] .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبود النوخي ابن العطار القاضي" كان ورعًا نزهاً متبعا آثار السلف ... مغلظا على أهل الباطن، غير هيوب للأمراء منقبضا عن الناس"[6]، ومنهم ريحان الأسود ت540هـ/1145م كان يعمل

والشعراني، الطبقات الكبرى، ج:1، ص: 136. والزركلي، الأعلام، ج: 8، ص: 208. وخصصه العلامة أحمد بن أبي القاسم الهروي الصومعي بتأليف سماه : المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى.

1 – القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج:8، ص: 168.

2 – نفسه، ج:8، ص: 172.

3 – نفسه.

4 – القاضي عياض، الغنية، ص: 114 .

5 – القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج:8، ص: 198. والغنية، ص: 165 و ما بعدها .

6 – القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج:8، ص: 203.

بميناء سبتة قال التادلي عنه : " كان ظاهر البركات يُخبر بالعجائب فتخرج كفلق الفجر" [1] .

ومنهم أبي مدين دفين تلمسان تـ595 هـ/1198م أخذ التصوف عن طريق مباشر على الشيخ عبد القادر الجيلالي بالمشرق، وطريق غير مباشر عن الغزالي بواسطة تتلمذه عن الصوفي المغربي علي بن حرزهم تـ560هـ/1164م والذي أخذ طريقته عن عمه صالح بن حرزهم الذي أخذها عن الغزالي نفسه في المشرق كما ذكر ذلك صاحب التشوف[2] .

وتُعتبر شخصية أبي مدين الغوث نقطة التقاء التصوف السني والتصوف الفلسفي معا بالمغرب، فهو من جهة شيخ مباشر لابن عربي الحاتمي[3]، ومن جهة شيخ مباشر للشيخ عبد السلام بن مشيش[4]، يعد الأول قطب التصوف الفلسفي و الثاني قطب للتصوف السني.

واعتبر أحد الباحثين الشيخ أبا الحسن بن حرزهم تـ559هـ/1173م بسنده مشرقي أباً للتصوف المغربي بدون منازع[5]، إذ أخذ الطريقة عن ابن العربي عن الغزالي عن إمام الحرمين عن أبي طالب المكي عن الجنيد[6]، وقد أشاع تعاليم الغزالي وعنه أخذ القطب أبو مدين الغوث

---

1 – التادلي، المصدر السابق، ص: 158 – 159 .

2 – نفسه، ص: 7 – 72 .

3 – ويُسمِّيه محيي الدّين بن عربي بشيخ الشيوخ. ابن العماد، شذرات الذهب، ج:6 ، ص: 495.

4 – عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر (منصور) بن علي (أو إبراهيم) الادريس الحسني، أبو محمد تـ 622 هـ / 1225 م اُشتهر برسالة له تدعى " الصلاة المشيشية " شرحها كثيرون، وأحد شروحها مطبوع، ولد في جبل العلم، بثغر تطوان، وقتل فيه شهيدا، قتله جماعة بعثهم رجل يدعى ابن أبي الطواجين الكتامي (ساحر متنبئ) ودفن بقنة الجبل المذكور، ولأبي محمد عبد الله بن محمد الورَّاق رسالة في مناقب ابن مشيش لا تزال مخطوطة في خزانة الرباط . اُنظر: الزركلي، الأعلام ، ج:4، ص:9.

5 – محمد فتحة، النوازل الفقهية و المجتمع، ص : 161 .

6 – الكتاني: سلوة الأنفاس، ج: 3، ص: 74 .

تـ594هـ/1194م، وكان أبو مدين مُعجباً بكتاب الإحياء للغزالي، كما كان شديد الإعجاب بشيخه أبي يعزى[1] .

ومن صوفية العصر الموحدي الذين نبغوا في المشرق والمغرب أبو الحسن الشاذلي تـ656هـ/1257م[2]، ففي المغرب تكاد جميع الطرق الصوفية التي تلت ظهور الشاذلي تدعي نسبتها إلى تصوفه، إدراكاً منها بالأثر الذي خلّفه الشاذلي في الفكر الصوفي الإسلامي عموما[3]، ونجد أهم الطرق الصوفية السنية بالمشرق بعد عصر الشاذلي ترجع بأصولها إلى صوفية المغرب بطريقة أو أخرى[4] .

وفي المغرب الأوسط برز صوفية اشتغلوا بالتدوين والأشعار والمدائح أمثال : إبراهيم بن أبي بكر الأنصاري تـ609-697هـ/1212-1298م[5] وابراهيم بن عبد الله التلمساني710-768هـ/1310-1366م[6]، وأبو العباس الغبريني 644-714هـ/126-1314م[7].

ومن المغرب الأدنى نذكر أبو الفتوح بن عمر بن فاخر العبدري كان زاهدا متصوفا، وتوفي مُغرباً عن إشبيلية في حدود 640هـ/1242م[8].

---

1 – أنظر: التادلي، المصدر السابق، ص: 322 . والغبريني، المصدر السابق، ص: 23 .

2 – أنظر: السخاوي، **التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة**، الطبعة 01، دار الكتب العلميه، بيروت، لبنان، 1414هـ/1993م، ج: 2، ص:160.

3 – البشير الريسوني، التصوف المغربي وأثره في تجديد التصوف السني بالمشرق (أبو الحسن الشاذلي نموذجا)، ضمن كتاب:**ملتقى الدراسات المغربية والأندلسية، تيارات الفكر في المغرب والأندلس، الروافد والمعطيات**، جامعة عبد الملك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، المغرب، 26-27-28 ، إبريل 1993، ص : 457 .

4 – نفسه، ص: 464 .

5 – عبد المنعم القاسمي الحسني، **أعلام التصوف في الجزائر**، من البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى، دراسة إحصائية تحليلية، الطبعة 01، دار الخليل القاسمي، 1427 هـ/ 2005م، ص: 41 .

6 – نفسـُه، ص: 46 .

7 – نفســه، ص: 66 .

8 – ابن الأبار، المصدر السابق، ج:4، ص: 63.

وقد كان لمتصوفة المغرب مؤلفات غلبت على الكثير منها اللمسة الوعظية والصوفية، منها ما صنَّفه أبو محمد عبد الحق الإشبيلي تـ582هـ/1186م حين عمد إلى جمع شعره في الزهد في كتاب، وعَرفت مؤلفاته رواجاً كبيراً ببلاد المشرق، وأخذ طلبته على عاتقهم الالتزام بقراءتها، منها كتاب: التهجد، وكتاب: العاقبة في علم التذكير[1]، كما صنَّف ابن العريف الطنجي تـ536هـ/1142م كتابه: "النفائس ومحاسن المجالس"، و"شبكة الألباب وملاطفة الأحباب"، ويُختصر بمحاسن المجالس، ضمَّنه طريقته في التصوف، وأفكاره، متبعا طريقة الغزالي[2].

ولأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمان التجيبي تـ610هـ/ 1214م كتاب "أربعون حديثا في المواعظ"، وأخرى في الفقر وفضله وفي الحب في الله تعالى، وكذلك في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وكتاب "الترغيب في الجهاد"[3]، وصنف أبو محمد صالح الماجري تـ631هـ/1234م كتاب "بداية النهاية"، وشَرَحَ في كتاب آخر : المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للغزالي، كما ألف كتابا شرحَ فيه رسالة القشيري[4]، ونذكر منها أيضاً كتاب " الفقراء " الذي ألفه أبو بكر بن العربي ويتعلق بالمتصوفة وقد ذكره في كتابه أحكام القرآن[5]، أما أبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري تـ754هـ/1353م فله كتاب" بُغية السالك في أشرف المسالك" في المراتب الصوفية[6]، ومن فقهاء المالكية الذين ألفوا في في التصوف أيضاً الفقيه

---

1 – الغبريني، المصدر السابق، ص: 41، 42، 44.

2 – بلغيث، الربط، ص: 285 و 286 .

3 – المقري، نفح الطيب، ج:1، ص: 161. وابن الأبار، التكملة، ج:2، ص: 80.

4 – الطاهر بونابي، المرجع السابق، ص: 67 .

5 – أبو بكر بن العربي، **<u>أحكام القرآن</u>**، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا، الطبعة 03، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424 هـ / 2003 م، ج:1، ص:291.

6 – محمد كمال شبانة، **<u>الأندلس، دراسة تاريخية حضارية</u>**، الطبعة 01، دار العالم العربي، القاهرة، 2008م، ص:181.

ابن دراج السبتي الذي دافع عن "السماع الصوفي"[1] في كتابه "الإمتاع والانتفاع بمسألة سماع السماع"[2] .

وأصبحت مؤلفات عبد الحق الإشبيلي ت581هـ/1282م ومؤلفات تلميذه محمد بن عبد الرحمان التجيبي ت610هـ/1214م التي أرست دعائم اتصال صوفي قائم على الوعظ والتذكير تُنافس المصنفات المشرقية التي كان يرجع إليها متصوفة المغرب السُنيين مثل كتب الرعاية للمحاسبي وقوت القلوب لأبي طالب المكي وحلية الأولياء للأصفهاني والإحياء للغزالي والرسالة القشيرية[3].

بينما نجح أبو الحسن علي المسيلي ت506هـ/1112م من خلال كتابه " التفكير" أن يدعم مركز التصوف السني النازع إلى الكشف على طريقة الغزالي[4].

وممن ألَّف بالمغرب في علوم التصوف والتذكير أبو الحسن علي بن خلف بن غالب القرشي الشلبي ت568هـ/1173م من شيوخ التصوف بالأندلس، ألف عدة كتب منها "اليقين" وكتاب "الأيام والحجب" وكتاب "الاعتبار"[5]، وألف

---

1 – عبارة عن أبيات شعرية ملحونة تُصاحبها دفوف(وقد حلت محلها الآن الآلات الموسيقية)، تُسرد بشكلٍ جماعيٍّ، ورقص وغشيان أحيانا. ونقل الونشريسي في المعيار المعرب تحريم الإمام مالك للسماع الصوفي، يقول الإمام مالك: " ما سمعت احدا من اهل الإسلام يفعل هذا ... ولو فعلوه على جهة اللعب كما يفعله الصبي لكان اخف عليهم مع ما فيه من غسقاط الحشمةوإذهاب المروءة ... وذلك من أعظم البدع المحرمات الموقعة في الضلال الموجبة للنار والعياذ بالله". أنظر: الونشريسي، المعيار المعرب، ج:11، ص: 41. وأنظر: ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصايد **الشيطان**، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، د.ت.ط. ج:1، ص: 231.

2 – عبد السلام شقور، فضل المالكية على الثقافة المغربية، مرجع سابق، ص: 34 .

3 – الطاهر بونابي، المرجع السابق، ص:83 .

4 – نفسه.

5 – جمال بامي، سيدي علي بوغالب، **مجلة ميثاق الرابطة المحمدية**، ركن علماء وصلحاء، المغرب، العدد: 56 بتاريخ 16-09-2011 / 22-09-2011، نقلا عن مخطوط: "المنح الصافية" لأبي العباس أحمد بن يوسف الفاسي.

محمد بن عبد الكريم التميمي الفاسي ت604هـ/1207م كتاب " أدب المريد السالك والطريق إلى الواحد المالك"[1]، وألف أبو محمد عبد الجليل القصري الصوفي ت608هـ/1211م كتاب "شعب الإيمان"، وكان كما وصفه الذهبي "صاحب زُهدٍ وتبتل" [2]، ولمحمد بن عبيد بن حسين بن عيسى الكلبي ت519هـ/1125م كتاب في الزهد سماه "المؤنس"[3].

المطلب الثاني: خصائص التصوف السني خلال العصر الموحدي.

تميَّز التصوف السني في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي بما تميَّز به نظيرهُ في المشرق وانفرد عنه بخصائصَ أخرى، فقد جمع التصوف السني المغربي بين الزهد والفقه، فبلغ عدد من أقطاب التصوف المغاربة درجات عليا في العلم، وأدَّت النَّزعة العلمية إلى ربط التصوف المغربي بالشريعة بشكلٍ قوي، جنَّبه الانزلاق في التأثيرات الإشراقية[4]، فقد كان المريدون يقصدون أبا محمد عبد الجليل القصري ت608هـ/1211م لحضور دروسه في التفسير بمسجد قصر كتامة[5]، وكان التميمي صاحب المستفاد يحضر بفاس مجالس الصوفي عمر البطاط، وكان الشيخ " عارفا بطريقة القوم ... واعظا يـُتعظ بكلامه"[6]، أما أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهري ت609هـ/1212م فكان يدرس العلم ويعظ بجامع سبتة[7]، ومما أُثر عن الشيخ

---

1 – التميمي، المستفاد، مقدمة المحقق: محمد الشريف، ج:1، ص: 118.

2 – الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج:21، ص:420.

3 – ابن خميس، أعلام مالقة، ص: 80 .

4 – المغراوي، الصلحاء والسلطة، ص: 356 و357.

5 – البادسي، المصدر السابق، ص: 68. والتميمي، المصدر السابق، ص: 158

6 – نفسه، ص: 101.

7 – ابن القاضي، المصدر السابق، ج:1، ص: 168.

أبـــي مدين الغوث قوله : "إن الله لا يـُــــعبد إلا بـــالعلم"[1]، ولـــم يعــرف التميمـــي "مجلسا أنفع من مجلسه"[2].

ومن فقهاء الصوفية بالمغرب الشيخ حجاج بن يوســف الكنــدري فقــد اعتــرف له أبي مدين ببراعته في الفقه والتصوف، فــلا يــتكلم فـــي حضــرته ويقــول أن الله أعطى أبا حجاج " فوق ما عندنا"[3].

واهتم المتصوفة إلى جانــب الممارســة الصــوفية بالــدعوة إلـــى الإســلام الصحيح والأمر بالمعروف والنهي عــن المنكــر والــوعظ والإرشــاد، "مســاهمين بنصيب كبير في نشر العقيدة الإســلامية بــين القبائــل البدويــة البربريــة"[4]، فهــذا الصوفي أبو ولجوط تونارت بن واجرام الهوميري كــان يعــظ المصــامدة بلســانهم مواعظ بليغة[5]، واُشتهر الصوفي أبــو علـــي الخــراط بمواعظــه البليغــة أيضــا[6]، ومن أهل مــراكش إبــراهيم بــن جــابر بــن عمــر المخزومـــي يُعــرف بالقفــال تــ614هـ/1243م تتلمذ لأبي الحسن بن حرزهم "ومــال إلـــى التصــوف، وغلــب عليه الوعظ والتذكير فقطع في ذلك عمــره"[7].

وهــذا الشيخ الفقيه أبـــو إســحاق إبــراهيم بــن يغمــر كــان يُــدرِّسُ بدكالــة ويجتمــُع الناس إليه وينتفعــون بكلامه ومجلســه[8].

وبلغ الحمـــاس الـــديني للمتصـــوفة أن ابتدعــــوا[1] وســـائل جماعيـــة لتـــدعيم عملهم كالذكر الجماعي والوعظ وإحياء المناسبات الإســـلامية وعقــد المواســم فـــي

---

1 – التميمي، المصدر السابق، ص: 42.

2 – نفســـه.

3 – التميمي، المصدر السابق، الترجمة : ص: 117.

4 – محمد الشريف، تحقيق كتاب المستفاد للتميمي، القسم الأول : الدراسة، ص : 203.

5 – ابن الزيات، المصدر السابق، ص: 401.

6 – التميمي، المصدر السابق، ص:135.

7 – ابـــن الأبـــار، التكملـــة، ج:1، ص: 150. وابـــن القاضـــي، المصـــدر الســـابق، ج:1، ص:90، وابن إبراهيم، المرجـــع السابق، ج:1، ص: 173.

8 – التميمي، المصدر السابــق، ص: 100 و101.

أماكن لها قداسة، ومنهم من أقبل على تشجيع الحج وتسهيل رحلته وهذا ما اضطلع به أبو محمد صالح الماجري وأصحابه[2]، كما أنهم لبوا نداء الجهاد، وشجعوا على ذلك تحت لواء الموحدين، كأبي الحسن الشاذلي[3] وتلميذه أبي العباس المرسي[4].

وقُصارى القول أنَّ التصوف المغربي غلب عليه الاتجاه الزهدي العملي البعيد كل البعد عن المؤثرات الفلسفية، بحيث لا يهتم أصحابه كثيرا بالقضايا النظرية بل ينشغلون أساسًا بأنواع المجاهدات وآداب السلوك.

فمنهم من كان " له مدة أربعين عاما... ما فاتته صلاة الجماعة بالمسجد الجامع و لا يوما وحدا"[5] ، ومنهم من كان "له مدة من أربعين عاما صائما ما أفطر فيها إلا في الأيام المنهي عنها"[6]، وآخر "صار كالشن البالي من العبادة... حفر قبره في بيته ويجلس بإزائه ليتذكر به الموت"[7]، وآخر كان " قد

---

1 – مستدلين بكلام الغزالي وغيره : " إنما البدعة المذمومة ما يصادم السنة القديمة أو يكاد يفضي إلى تغييرها ". الغزالي، إحياء علوم الدين، ج:1، ص:276. بينما اعترض الكثير من الفقهاء على هذا التقسيم، كالسيوطي الذي يقول: " تترك الْبِدْعَة الْحَسَنَة وان كَانَ نورها مثل فلق الصُّبْح فَإِن الْبِدْعَة لَا محَالة رَافِعَة للسّنة. السيوطي، **شرح سنن ابن ماجه**، طبعة كراتشي، ج:1، ص:3.

2 – صالح بن ينصارن بن غفيان الدكالي، أبو محمد الماجري: صوفي اشتهر بيته من بعده بآل (أبي محمد صالح) مولده ووفاته بآسفي (في المغرب الأقصى) كان له فيها رباط مشهور، وتفقه بها ثم أقام 20 سنة في الإسكندرية. وانتشرت في أيامه الشكوى من وعورة الطرق إلى الحج حتى قيل: إن الحج ساقط عن أهل المغرب فتصدى صاحب الترجمة لمحاربة هذه الفكرة الخاطئة، وجعل ديدنه الدعوة إلى الحج وتذليل عقباته. وكثرت زواياه في بلاد إفريقية والمغرب والمشرق حتى بلغت 64 زاوية منتشرة من آسفي إلى الحجاز معمورة بالأشخاص والمريدين، شغلهم تسهيل الحج والسير بالحجاج في الأماكن الموحشة الوعرة، بأمن وأمان. ولحفيده أحمد بن إبراهيم الماجري، كتاب (المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح) مطبوع. أنظر: الزركلي، الأعلام، ج:3، ص: 199.

3 – ابن العماد، شذرات الذهب، ج:5، ص:279.

4– ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج:7، ض: 317.

5 – التميمي، المصدر السابق، ص: 1 .

6 – نفسه، ص: 8 .

7 – نفسه، ص: 33 .

انحنا ظهره من الكبر والاجتهاد في العبادة حتى جعل في محراب مسجده مسمارا في القبلة وعلق فيه حبلا ليعتدل قائما في الصلاة"[1].

ومع ذلك لم يكن التفرغ للعبادة سِمة جميع الصوفيين المغاربة بل كان " التكسُّب غالبا عليهم وما كان التجرد إلاَّ زهداً في المادة حتى يتحقق التفرغ النفسي وكتب المناقب شاهدة على ذلك"[2].

ولاشك أنَّ ارتباط أغلب شيوخ التصوف بالعلم والفقه قد عزَّز أهميتهم العلمية والاجتماعية، وشكَّل عنصر تقارب والتقاء وتواصل مع الفقهاء.

وعليه فإن الصوفية الفقهاء بالخصوص قد ساهموا بقوة في تحديد وِجهة الفكر الصوفي المغربي وأصبحوا هم غالبية شيوخ التصوف، وحسب دراسة محمد الشريف لم تكن الأمية ظاهرة بين كبار المتصوفة[3]، وظلَّ نموذج أبي يعزى الولي الأمي الذي بلغ درجة القطبانية نموذجا فريداً خلال مدة طويلة.

وعلى ضوء هذه المعطيات رأى مُحقق المستفاد محمد الشريف أنَّ التصوف أصبح إلى جانب الفقه – وليس على حسابه – من أهم دعائم بنية المجتمع المغربي الفكرية، واستدلَّ على ذلك بما ورد في التشوف والمستفاد، حتى أن المؤلّفيْن ابن الزيات التادلي وأبو القاسم التميمي ينتميان إلى التيار الفقهي الصوفي[4].

ورغم ما عرفه العصر الموحدي من انتعاشٍ للعلوم الكلامية وامتزاجها بالعلوم الدينية إلاّ أنَّ ما ميز متصوفة التيار السني بالغرب الإسلامي خلال

---

1 – نفسه، ص: 81 .

2 – المغراوي، الصلحاء والسلطة، ص: 357.

3 – محمد الشريف، تحقيق كتاب المستفاد للتميمي، القسم الأول : الدراسة، ص: 201.

4 – نفسه، ص: 203. موافقا لرأي علال الفاسي الذي اعتبر الفقه والتصوف عنصران أساسيان في تكييف المجتمع المغربي وتسييره، علال الفاسي، التصوف الإسلامي في المغرب، **مجلة الثقافة المغربية**، العدد:01، الرباط، 1970م، ص: 35. مع أن كلام علال الفاسي يشير إلى مجتمع المغرب الأقصى.

العصر الموحدي الإعراض عن الجدل الكلامي، حيث كان التوجه العام للتصوف المغربي هو البُعد عن المناقشات العقدية والتنظير الكلامي، إذ لمَّا رغِب عبد المؤمن أن يعرف عقيدة شيخ أزمور أبي شعيب أيوب الصنهاجي عندما استقدمه إلى مراكش سنة 541هـ/1146م أمر أبا محمد وسنار[1] من أصحاب ابن تومرت أن يناظره في العقيدة، فكان وسنار يسأله عن التوحيد قاصداً الأوصاف التجريدية التي تضمنها توحيد ابن تومرت بينما كان أبو شعيب يُجيب بالآيات التي وردت فيها معاني التوحيد متجنِّباً الدخول في علم الكلام، فكان وسنار يُنكر عليه ويقول له ما هذا هو التوحيد، لأنه يعتبر التوحيد علم الكلام على الطريقة التومرتية[2].

ومما ميَّز التصوف السني في الغرب الإسلامي الموحدي عدم الاشتغال بالسياسة، فلم يعبِّر التصوف المغربي عن طموحات سياسية مباشرة حتى يؤدي إلى التنازع على الحكم، وما أثير عن تخوف السلطة الموحدية لم يكن سوى هاجس لتخوف طبيعي من الحركية الاجتماعية ورموزها[3].

وكان تركيزهم على التجربة الروحية والأخلاقية والارتقائية أو المجاهدة بمدلولها الصوفي جعلت المتصوفة يستفرغون طاقاتهم في مجال كان يتناقض مع الاهتمام السياسي اليومي، ورغم ما ظهر من سلوك عدد منهم من

---

1 – رجل دباغ أسود من أهل مدينة أغمات، صحب أبا عبد الله بن تومرت حين مر بها، فاختصه أبو عبد الله بن تومرت لخدمته لما رأى من شدته في دينه وكتمانه لها يرى ويسمع، فكان يتولى وضوءه وسواكه والإذن عليه للناس وحجابته والخروج بين يديه، فلم يزل على ذلك إلى أن توفي ابن تومرت، فكان يتولى خدمة ضريحه وضريح عبد المؤمن حين دفن هناك، توفي واسنار هذا في بداية عهد أبي يعقوب يوسف، وكان من العباد المجتهدين والزهاد المتبتلين، لم يكتسب شيئًا ولا خلف دينارًا ولا درهمًا، مع أنه لو شاء لكان أكثر الناس مالًا، لمكانه من عبد المؤمن ومن المصامدة، لما كانوا يعلمون من قربه من صاحبهم وثنائه عليه في أكثر الأوقات. أنظر: المراكشي، المصدر السابق، ج:1، ص: 244.

2 – العزفي، المصدر السابق، ص: 74.

3 – المغراوي، الصلحاء والسلطة، ص: 359.

انخراط مباشر في المجتمع بل وممارسة احتجاج سياسي تمثل في استنكار ظلم وتجاوز الحكام – كما مرَّ – بنا فإن ذلك لم يدفعهم إلى القطيعة مع الدولة بل شاركوا في الجهاد تحت رايتها كما سبقت الإشارة إليه.

وإلى جانب ما سبق تبرز ميزة أخرى للتصوف السني بالغرب الإسلامي الموحدي ألا وهي البُعد عن النزعة الفردية الانعزالية، إذ كان شيوخه يحرصون على نشر الأخلاق التي تؤسس للتصوف الجماعي، فشجَّعوا بعض المظاهر التي تخدم هذا التوجه، كزيارة وإقامة المواسم والمناسبات التي تُساعد على تمتين العلاقات بين المريدين وتقوية الروح الجماعية بينهم، والتجمع في الرباط والوعظ والدعوة، ومن جهة أخرى الانخراط في هموم المجتمع وتضامنهم مع الناس في ظروف الأزمات العامة كالجفاف والمجاعات والأوبئة والحروب[1].

ومما ميَّز التصوف السني في الغرب الإسلامي الموحدي أيضاً ارتباطه بظاهرة الكرامات التي تعلُّق المغاربة بها وعظُم اعتقادهم فيها، حيث أصبح التصوف والكرامة وجهان لعملة واحدة، لاسيما وقد صارت محلّ اهتمام العاميّ والفقيه والسياسي، ففي القرن السادس الهجري أفتى ابن رشد الجد بضرورة تصديق الكرامات بناءً على التواتر في نقلها وإجماع أهل السنة على صحتها[2].

وقد أثار حفيظة الفقهاء حقيقة هذه الكرامات وصفات المُستحقّ لها[3]، وزاد من مخاوف الفقهاء ما أفرزته المخيلة الشعبية من مبالغات قد تصل إلى

---

1 – أنظر بعض مستجابي الدعوة الذين كانت العامة تلجأ إليهم في أوقات الأزمات : التادلي، المصدر السابق، (رقم الترجمة: 10. 26. 29) .

2 – لؤي علي خليل، الكرامات في التراث العربي الإسلامي (النموذج الأندلسي)، مجلة التراث العربي، ص: 97 .

3 – ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص: 138. وابن خلدون خالف الفقهاء حين ربطوا الولاية بالعبادة فقال: " والولاية لا تحصل إلّا بالعبادة وهو غلط فإنّ فضل الله يؤتيه من يشاء ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها". أنظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج:1، ص: 138.

الانحراف العقيدي، خاصة إذا علمنا أن انتقال الكرامات كان يأخذ طابعاً شفوياً – يتناقله المريدون ثم العامة – خالياً من أي قيود[1]، وفي النظام الصوفي صاحب الكرامة مأمورٌ بكتم الكرامات وعدم إفشائها [2]، ولذلك كانوا يأمرون مريديهم بحفظها عليهم بعد مماتهم[3].

ويرى عبد الله العزفي ت366هـ/976م أن الكرامة " كل بُعد خارق للعادة ظهر على يد عبد ظاهر الصلاح في دينه، متمسك بطاعة الله في أحواله"[4]، بينما فرَّق أبو نصر الطوسي بين المعجزة والكرامة، فالمعجزة تكون لنبي والكرامة لولي، و بين الحالين فروق ثلاثة " فوجهٌ منها أن الأنبياء عليهم السلام مُستعبدون بإظهار ذلك للخلق والاحتجاج بها على من يدعونهم إلى الله تعالى... والأولياء مستعبدون بكتمان ذلك على الخلق... والوجه الآخر... أن الأنبياء يحتجون بمعجزاتهم على المشركين لأن قلويهم قاسية لا يؤمنون بالله عز وجل، والأولياء يحتجون بذلك على نفوسهم حتى تطمئن وتوقن ولا تظطرب.... والوجه الثالث... أن الأنبياء كلما زيدت معجزاتهم وكثرت يكون أتم لمعانيهم وأثبت لقلوبهم... وهؤلاء الذين لهم الكرامات من الأولياء كلما زيدت في كراماتهم يكون وجلهم أكثر وخوفهم أكثر، حذراً من المكر الخفي لهم والاستدراج[5].

---

1 – نفسه.

4– عن ضرورة كتم الكرامات يُنظر : أيمن حمدي، **قاموس المصطلحات الصوفية**، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، 2000م، ص: 969.

3 – لكن يوجد ما يخالف هذه القاعدة، وهو ما نسب الى الشيخ أبي مهدي وين السلامة إذ قال : " لا تكتموا عن إخوانكم ما تشاهدونه من الكرامات وحدثوهم بها فتحببوا لهم طاعة الله تعالى"، أنظر، التادلي، المصدر السابق، ص: 261.

4 – العزفي، المصدر السابق، ص: 90 .

5 – الطوسي أبونصر السراج، **اللُّمع**، تحقيق وتقديم: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة، مصر، و مكتبة المثنى، بغداد، إشراف: لجنة إحياء التراث الصوفي، 1380هـ/ 1960م، ص: 395.

وذهب الباحث عبد القادر بوتشيش إلى أن الكرامة أداة استغلّها التيار الصوفي لتمرير خطابه الإصلاحي، وذلك لِما للكرامة من خصائص وقدرة على التمويه وتمرير الخطاب الإصلاحي إلى المجتمع دون حاجة إلى مقارعة السلطة بالقوة، بالإضافة إلى أنها تضمن وتكفل لهم القبول لدى الخاصة والعامة وتُضفي عليهم مهابة وقداسة [1].

وأهم ما ميَّز التصوف السني في الغرب الإسلامي خلال العصر الموحدي هو "مغربة التصوف" وتمييزه عن التصوف المشرقي، فقد مرَّ التصوف في بلاد المغرب الأقصى بمرحلتين : مرحلة التبعية، حيث تم إدخال التصوف ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي من قِبل حجاج الأماكن المقدسة، ومن الصعب الحديث في هذه الفترة عن تصوف "مغربي"، لكون أهم الصوفية المغاربة – أمثال أبي يعزى يلنور، وابن عربي، وعلي بن حرزهم - كانت صوفيتهم شرقية قلبا وقالبا، ومرحلة "مغربة" التصوف التي دشنها عبد السلام بن مشيش 626هـ/1228م، فبرغم أنه درس على يد أئمة الصوفية التابعين –كأبي مدين الغوث وعلي بن حرزهم– فإنه لم يسلك مسلكهم، بل سعى إلى التميُّز عنهم، وقد أكمل تلميذه أبو الحسن الشاذلي تـ656هـ/ 1257م مرحلة "مغربة" التصوف لتصل ذروتها مع محمد بن سليمان الجزولي السّملالي الحسني تـ 870 هـ/1465م خلال القرن اللاحقة.

يتَّضح مما سبق أن التصوف السني المغربي خلال العصر الموحدي بقي بعيداً عن كل أشكال التجرُّد والتأمُّل التي ميَّزت بعض التيارات الصوفية المشرقية والأندلسية، ذلك أن أصوله العملية والفقهيَّة ظلَّت توجهه وتقوِّمهُ – إلى حدٍ بعيد – وتُحافظ على نزعته الأخلاقية الزهدية.

1 – بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص: 141 .

المبحث الثاني: مواقف السلطة الموحدية من التصوف.

تميَّزت العلاقة بين أهل التصوف والسلطة الموحدية بأشكالٍ من التوتر والتجاذب أحياناً، وبلحظاتٍ من الصفاء والمهادنة أحياناً أخرى.

المطلب الأول: مواقف الود والتعايش (علاقة الاستقطاب والاحتواء):

رغم ما يطفو على المنهج التومرتي من لمسة صوفية فإننا نستبعد أن يكون للسلطة الموحدية دور حاسم في انتشار التصوف خلال الحقبة الموحدية، وإنما لا يعدو أن يكون "سلوك فردي نهجه أصحابه بغرض الابتعاد عن حياة الترف والبذخ التي كانت منتشرة في تلك الفترة"[1] .

لا نجد ما يشير بوضوح إلى تشجيع السلطة الموحدية للتصوف بشكل مباشر، إلا أنها سعت إلى العمل على تجنُّب المواجهة مع التيار الصوفي والاصطدام بزعمائه، بل العمل على استمالتهم إلى جانب الدعوة الموحدية أو على الأقل تحييدهم، فلم يكن يخفى على السلطة الخطر الذي يمكن أن تشكله قوى التصوف على الجهاز الموحدي كبنية دينية وكتلة اجتماعية، فتقرُّب الخلفاء الموحدين من المتصوفة كان نابعا من قناعتهم بحقيقة اكتساح رجال التصوف للنسيج المجتمعي المغربي بمركَّبيه القروي والحضري[2]، وتصدُّرهم للقيادة الدينية والتوجيه في المجتمع المغربي.

ويبدو أن السلطة الموحدية كانت ترى في التيار الصوفي قوة قابلة للاستقطاب والاحتواء ولو فقط في أفق تزكية عملية الجهاد، أو لمساندتها في صراعها ضد تيار المالكية خصمهما المشترك، هذا التحالف المرحلي

---

1 – محمد العمراني، الموحدون في الأندلس، ص: 435 .

2 – محمد الشريف، تيار التصوف في العصر الموحدي من خلال قطعة من كتاب " المستفاد في مناقب العباد " ، ص : 437 .

المصلحي هو ما عبر عنه الباحث المتخصص محمد القبلي بـ " الاحتضان الرزين " المتبادل بينهما والذي نجد له أكثر من إشارة في مصادرنا التاريخية[1].

لذا حاول الموحدون استقطاب التيار الصوفي بأنصاره ومريديه عن طريق ربط الحركة التومرتية بفكر الغزالي، والمزج بين الفكر الصوفي والمهدوية وآمال العامة[2].

ويظهر أن السياسة الموحدية الرامية إلى استقطاب الأولياء ومن ثمَّ احتواء حركتهم وأنصارهم قد نجحت إلى حد كبير في استقطاب المتصوفة أو تحييدهم على الأقل، فكثُر توافدهم على عاصمة الموحدين مراكش[3]، ففي كتاب "التشوف" للتادلي استأثرت مراكش لوحدها بست وخمسين ترجمة من مجموع مئتين وسبع وسبعين ترجمة فيه، بالإضافة إلى مشاركة المتصوفة في المشروعات الجهادية للدولة التي يمكن افتراض أنهم قد جعلوها قضية مشتركة.

ونسوق بعض الأمثلة الدالة على نجاح سياسة الاستقطاب والاحتواء التي انتهجتها سلطة الموحدية اتجاه المتصوفة، وهي أمثلة نستمدها من ترجمة بعض أشهر متصوفة المغرب والأندلس على عهد الموحدين كترجمة أبي الحجاج الشبريلي تـ587هـ/ 1190م الذي يقول عنه ابن عربي " كان إذا دخل عليه عمال السلطان يقول : " يا بني هؤلاء هم أعوان الحق المشغولون

1 – محمد القبلي، قراءة في زمن أبي محمد صالح، ضمن ملتقى: **أبو محمد صالح، المناقب والتاريخ**، آسفي، المغرب،1410هـ/1990م، ص: 101.

2 – أنظر: محمد الشريف، تيار التصوف في العصر الموحدي من خلال قطعة من كتاب " المستفاد في مناقب العباد "، ص : 437. وعصمت عبد اللطيف دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهلّ الموحدين، مرجع سابق، ص: 451.

3 – محمد زنيبر، حفريات عن شخصية يعقوب المنصور، **مجلة كلية الآداب**، الرباط، العدد: 09، سنة 1980م، ص: 46 – 48 .

بأسباب العالم، ينبغي للناس أن يتفرغوا في الدعاء لهم أن يجري الله الحق على أيديهم ويعينهم، وكان يقبل من السلطان "[1] .

ومنهم أبو شعيب الصنهاجي السارية تـ 570هـ/1174م من بلد آزمور من أشياخ أبي يعزى، كان معلما للقرآن لكنه تفرغ للعبادة والزهد وكانت له مواقف خاصة من رجال السلطة، إذ كان الأهالي يحتمون به ضدهم[2]، وكان ذا كرامات تطوى له المراحل، وكان ممن يغيبون عن الوعي في الصلاة[3] .

أما أبو إسحاق إبراهيم بن الحاج البلفيقي دفين مراكش تـ 616 هـ / 1219م يُؤثَر عنه أنه كان يقول : " كل من نال من عرضي ما نال فأنا أحلله من ذلك وأغفر له، ما عدا من رماني بالقيام على السلطان، فإني لا أغفر له حتى أخاصمه بين يدي الله تعالى فيما رماني به من البدعة الشنعاء والمعصية الكبرى والداهية الدهياء، و لو رماني بالزنا ما كان أشد علي مما رماني به"[4].

أما أبو العباس أحمد القنجائري تـ627هـ/ 1229م كان "من جلة العلماء وأكابر الصلحاء ... وكان له من ملوك عصره مكانة جليلة...كان يُقبل عليهم ويَقبل منهم، وكان ملوك بني عبد المؤمن وأمراؤهم ورؤساء دولتهم كثيرًا ما يرغبون منه في تفريق صدقاتهم التطوعية على من يراه من الفقراء والمحاويج وأهل الستر والصون لعلمهم أنه مغشي الجانب من طوائف الناس على اختلاف طبقاتهم"[5] .

---

1 – محمد القبلي، قراءة في زمن أبي محمد صالح، ص: 441 نقلا عن: ابن عربي، رسالة القدس، نشر آمين بلاتيوس، مدريد، ص: 20 .

2 – التادلي، المصدر السابق، ص: 188 .

3 – نفسه، والتليدي عبد الله بن عبد القادر، **المطرب بمشاهير أهل المغرب**، الطبعة 04، دار الأمان، الرباط، المغرب، 1424هـ/2003م، ص: 43 و 44 .

4 – أحمد المقري، **أزهار الرياض في اخبار القاضي عياض**، تحقيق: سعيد أعراب ومحمد تاويت، د.ت.ط، ج:4، ص: 114 .

5 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:1، ص: 48-49 .

واستغلَّ بعض المتصوفة مكانتهم المرموقــة لــدى الســلاطين وحظــوتهم العالية لخدمة الصالح العام، فقد ذكــر طــاهر الصــدفي فــي الســر المصــون أنَّ أبا عبد الله بن ناهض اللخمي " قد وقــف نفســه لقضــاء حــوائج المســلمين عنــد الأمراء والسلاطين ورأى ذلك قربة عند الله سبحانه وزلفى لديــه فيمــا فيــه اتبــاع المعــروف وإغاثــة الملهــوف، وكــف الظــالم عــن المظلــوم، ورزق الســائل والمحروم ... " [1].

وكان هذا الزاهد نفسه يقول: " المرء يُسأل عــن جاهــه كمــا يُســأل عــن ماله، ولا فرق بين ضيعة الجاه وضيعة المال، وربمــا كانــت ضــيعة الجــاه أبلــغ وأقوى وأقــرب للتقوى، إذ هي الموصلة إلى المال، وإلــى مــا ســواه مــن جميــع الأحــوال " [2].

وانعكس هذا التقارب بين الصوفية والسلطة علــى بنــي عبــد المــؤمن، حتــى أنَّ أبناء الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ظهر لديهم ميــولات صــوفية كــأبي محمــد عبد الواحد وأبي عبد الله وأبي ابراهيم الذين اقترحوا علــى أبــي العبــاس العزفــي تأليف كتاب في مناقب أبي يعزى[3].

ومن ملامح ذلك التقــارب والــتلاؤم تمتــُّع بعــض المتصــوفة بصــكوك ســلطانية وإعفــاءات مــن الخــراج كــأبي خــزر يخلــف بــن خــزر الأوربــي تــ572هــ/1177م الذي كان سكان قريته يريدون تقاســم نســبة الخــراج الواجبــة عليه فيما بينهــم، وكان هو يرفض ذلــك " لأنهــم إذا أســقطوه عنــه رجــع علــى الباقين إلا إذا سقطت من الأصل، فوصل ذلك نــاظر الخــراج فأخــذ لــه ظهيــرًا

---

1 - الصدفي، السر المصون، ص: 50 .

2 - نفسه.

3 - العزفي، المصدر الســابــق، ص:48.

ممن له الأمــر بإســقاطه"[1]، وكــان عنــد إخــوة الفقيــه الصــوفي عبــد الغفــور بن يوسف الأيلاني تــ586هــ/1190م صك سلطاني بالحمل على المبرة[2].
وكان الخلفــاء الموحــدون يرســلون الظهــائر مــن حــين لآخــر بإعفــاء بعــض المتصوفة من المغارم و الضرائب[3].

أما يعقوب المنصور فقد كان أكثر الخلفــاء اتّصــافاً بــأخلاق الصــوفية لمــا صدر منه من اجراءات دالة على ذلــك كمحاربتــه مظــاهر التــرف كقطــع لبــاس الغالي من الحرير[4] وكسر آلات اللهو والطــرب ومطــاردة المغنــين، وفــي وصــيَّة موته حذَّر السادات والأشياخ مــن " الطبــل، فإنــه ممــا يخــف الأدمغــة ويحــول العقول"[5]، وقد تأسف الفيلســوف ابــن طفيــل علــى كــون الموحــدين لا يهتمــون بالموسيقى وقــال: " لونفــق عنــدهم علــم الموســيقى لأنفقتــه عنــدهم"[6]، وبــررَّ ابن خلدون ذلك بما كان عليه الموحدون مــن مَنــازع الديانــة التــي لقنوهــا عــن إمامهم محمد بن تومرت المهــدي"[7].

فقد انتقل الصوفي الشهير أبــو العبــاس الســبتي مــن ســبتة إلــى مــراكش برغبةٍ وطلبٍ من المنصور، والرواية التــي ذكــرت ذلــك بــررَّت ذلــك بهــدفين، أولهما : تلبية حاجيات ذاتية للخليفة الموحــدي المنصــور تــتلخص فــي المســاعدة على تجاوز أزمة ضمير ذات جذور سياســية تعــود إلــى قتــلْ المنصــور لأخيــه

1 – التميمي، المصدر السابق، ص: 71-72.

2 – التادلي، المصدر السابق، ص: 252، وابن ابراهيم، المصدر الســابق، ج:8، ص:450.

3 – أنظر: دندش عبد اللطيف، دكالة من خلال التشوف، ص: 203 .

4 – الناصري، المصدر الســابق، ج:2، ص: 193.

5 – ابن عذارى، المصدر الســابق، ص:231.

6 – المراكشي، المصدر الســابق، ص: 350. والمنوني، الآداب والفنون، ص: 238.

7 – ابن خلدون، المقدمة، ص: 472.

أبي يحي سنة 585هـ/1189م لما دعا لنفسه[1]، والثانية : حاجة العاصمة مراكش إلى بركة الشيخ[2] .

ولدينا من الشواهد ما يُؤكد نجاح السلطة الموحدية في استقطاب أبي العباس السبتي الذي انخرط في التعليم الرسمي[3]، وسكن أبو العباس في حومة مخزنية جديدة هي حومة أكادي[4]، والصحبة التي كانت بينه وبين صاحب دار الأشرف بالمدينة بكر بن يوسف الكومي[5]، وأكثر من ذلك كان يُمسك في يده سوطا يمشي به في الأسواق ويذكر الناس ويضربهم على ترك الصلاة في أوقاتها [6].

وأقام أبو العباس مدة بمراكش سنة 540هـ/1146م وبشيوع كراماته حبس عليه المنصور مدرسة للعلم والتدريس ودار للسكنى فأصبحت له مكانة عند الخليفة[7]، ولما خرج الناس يستسقون بعد جفافٍ أصابهم، خرج كل من في المدينة حتى اليهود والنصارى والبهائم والنساء والولدان، وبقوا مدة والقحط واقع بهم[8] فأمر الخليفة المنصور بأبي العباس للمشاركة في الاستسقاء فرأى الشيخ أن استجابة الدعاء للمطر لا تكون إلا بدفع العسر عن المحتاجين،

1 – أنظر: ابن ابراهيم، المرجع السابق، ج:1، ص:281 . وقال المنصور لأخيه أبي يحي: إنما أقتلك بقوله صلى الله عليه وسلم: "إذا بُويع خليفتان بأرض فاقتلوا الآخر منهما"، أنظر: المراكشي، المصدر السابق، ص: 205.

2 – نفسه، ج:1، ص:276 .

3 – التادلي، أخبار أبي العباس السبتي، ص: 455 .

4 – نفسه، ص: 455 .

5 – نفسه، ص: 469 .

6 – نفسه، ص: 455 .

7 – ابن ابراهيم، المصدر السابق، ج:1، ص: 262.

8 – نفسه، ج:1، ص: 271.

فاستجاب المنصور لطلبه وأخرج ما تدَّخره الدولة مـن الطعـام والثيـاب وتوزيعـه على الفقراء والمعوزين، واستمرَّ التوزيـع ثلاثة أيام فعمَّ العطاء في المدينة[1].

ومـن كبـار المتصـوفة الذيـن جمعـتهم علاقـة مـودة مـع الخليفـة المنصور أبو العباس القنجـائري تـ627هـ/1230م مـن شـيوخ أبـي محمـد صالح الماجري، كانت له علاقة بصـوفية المغـرب كـأبي مـدين وأبـي النصـر أيوب الفهري، كان شيخ الطائفة الصـوفية بـالمغرب[2] سـاح وحـجَّ عـدة مـرات وجاور مكة ست سنوات، وتـُرجع المصـادر اتِّصـال المنصـور بـه إلـى ندمـه على مقتل أخيه، وقد دَلّته مريدةٌ على الشـيخ أبـي مـدين ولكنـه تـوفي بتلمسـان فأوصيَ بأن يتصل المنصور بأبي العباس[3]، وأصبحت لـه عنـد المنصـور مكانـة، وكانت مراسلات بينـه وبـين المـأمون، وعـن طريقـه كـان خلفـاء الموحـدين وأمراءهم يبعثون بالهبات إلى الحجاز، فكان يُفرِّقهـا بمكـة والمدينـة وقـد أحـدث أوقافا مغربيـة هناك[4].

فتوافد كبار المتصوفة كـان فـي الغالـب بنـاءً علـى رغبـة سـلطوية وليس اختيارا حرا من المتصوفة، لأن مـراكش لـم تكـن بالبيئـة المرغوبـة مـن لدن كبار أهل الولاية والصلاح، ولم يكن تحـرك الصـوفية بهـا بـالأمر السـهل، بالإضافة إلـى أن الباديـة كانـت لـديهم أفضـل مـن المدينـة الأكثـر مدنيـة ولهـوا[5].

---

1 – نفسه.

2 – ابن عبد الملك، المصدر السـابق، ج:1، ص: 48.

3 – ابن أبي منصور، **الرسالة**، المعهد الفرنسـي للآثـار الشـرقية فـي القـاهرة، مصـر، 1986م، ص: 57 – 59.

4 – الرعينـي، البرنـامج، ص: 122. وابـن عبـد الملـك، المصـدر السـابق، ج:1، ص: 55–57–104. وتقي الدين الفاسي، **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، تحقيـق: محمـد حامـد الفقـي وآخـرون، الطبعـة 02 مؤسسة الرسالة، 406 هـ / 1986م، ج:3، ص:8. ابن أبي منصور، المصدر السابق، ص: 57– 59.

5 – محمد رابطة الدين، أبو العباس السبتي ومجال مراكش، ص : 72 .

والواقع أن شهادة عبد الواحد المراكشي حول علاقة المنصور بالأولياء والمتصوفة غنية عن كل تعليق، إذ يقول : " وانتشر في أيامه للصالحين والمتبتلين وأهل علم الحديث صيت، وقامت لهم سوق، وعظمت مكانتهم منه ومن الناس، ولم يزل يستدعي الصالحين من البلاد، ويكتب إليهم ويسألهم الدعاء، ويصل من يقبل صلته منهم بالصلات الجزيلة" [1] .

كما يشير صاحب المعجب إلى استصحاب يعقوب المنصور للأولياء في مشروعاته الجهادية واعتبارهم جنده الحقيقيين[2]، ويؤكد هذه النصوص الموحدية (نصوص المعجب) نصوص وشهادات مرينية، فابن أبي زرع في القرطاس يقول عن يعقوب المنصور : " كان يشهد جنائز الفقهاء والصلحاء ويزورهم و يتبرك بهم " [3] و " أكرم الفقهاء وراعى الصلحاء والفضلاء وأجرى على أكثرهم الانفاق من بيت المال " [4] .

وممن استقدمهم المنصور إلى عاصمته من المتصوفة الولي أبو موسى الجزولي تـ607هـ/1210م، استقدمه المنصور الموحدي إلى مراكش بعد تكاثر أتباعه وقدَّمه إلى الخطبة في جامعه الأعظم المتصل بقصره وأنعم عليه وتعهد أحواله، ولم يزل المنصور شديد العناية به " راعياً له مفيضاً عوارفه عليه متعهدا أحواله متبركا به ويرؤيته " [5]، ولم يزل أبو موسى بعد وفاة المنصور حظياً عند ابنه الناصر مكرما لديه يستصحبه في أسفاره ويوفده للقيام بعملية التحكيم بين القبائل، ويبدو أن أبا موسى الجزولي قد نال من عرض

---

1 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 278 .

2 – نفسه، ص: 289 .

3 – ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص: 216 .

4 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 217 .

5 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج: 8، ص: 246 – 253 .

الدنيا عن طريق علاقته الوطيدة بالسلطة حتى أنه تعرض للتنكيت من معاصريه[1].

ونُسجت حكاية مفادها أن المنصور نفسه أصبح مريداً لأبي العباس القنجايري واعتزل المُلك وساح في الأرض زاهداً أو مرابطا بالأندلس أو حاجا وتوفي بالشام، قال ابن عذاري: "وكذَّب الكافة من العامة بوفاته وصارت تصرخ حيث سارت بحياته فآونة يجعلونه مرابطا وتارة يثبتونه حاجا تمسكا بحبه واتباعا لهوى النفس في التلذذ بذكره"، بل إن الحكاية تلقاها أهل المشرق، يُضيف ابن عذاري: "أخبرني بعض المشارقة في بلادهم أن قبر المنصور ملك المغرب في بلاد الشام ولا ريب ولا اختلاف أن المنصور رحمه الله كان رجلا صالحا عالما فاضلا وثبت عند قرابته وأهل بيته أن قبره بتينمل"[2].

ويمكن القول في التقارب الذي حدث بين السلطة والمتصوفة في العهد الموحدي وعصر المنصور خاصة بأنَّ السلطة هي من بادرت بالتقرب من أهل التصوف بعدما تبين لها شعبية والتفاف المغاربة حول كبار الصوفية، فعملت على التقرُّب منهم ليس للحصول على رضاها والتبرك بها كما حاولت بعض الروايات أن تقدمه لنا، ولكن بهدف السيطرة على الشعبية التي حظيت بها هذه النخبة خاصة عند عامة الناس، وفي نفس الوقت رغبة السلطة الموحدية في نزع تلك القدسية عنها، وفي تفسيره لهذا التقارب أرجع الباحث محمد العمراني محاولة السلطة الموحدية التقرب إلى التيار الصوفي بأنَّها محاولة تهدف لاقتسام تلك السلطة الرمزية التي كانوا يتمتعون بها على الأقل في ذهنية العامة[3] .

---

1 – " كان أبو العباس القوراني على عادته في التنكيت على الناس والنيل منهم يقول إذا رأى أبا موسى: الصفرة في الوجه كنز من الكنوز" ، أنظر : ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:8، ص: 251.

2 – ابن عذارى، المصدر السابق، ص:235.

3 – محمد العمراني، الموحدون في الأندلس الوجود العسكري وعلاقة السلطة بالمجتمع، ص: 431 . 438.

ويبدو في هذا الإطار أن مواجهة السلطة للمتصوفة تميزت من جهةٍ باعتماد مبدأ الانفتاح والتقرُّب من عالمهم، كمسلك للتسرب إلى هذا المجال، لا نستبعدُ معه الرغبة في الوقوف على آليات عمل ونشاط القوم، بهدف ضبطها والتحكم فيها، وتمرير خطاب يتضمن التعبير عن حسن النية في احترام القوم، وقبول التعايش مع من لا ينظر إلى السلطة نظرة استحسان، لكن في نطاق محدود يُحرَمُ تجاوزه، ومن جهة ثانية خلق إطار صوفي مساند للمخزن، تدعمه أسماء صوفية ذات وزن وإشعاع، وتنتمي إليه عناصر من أفراد السلطة العليا في البلاد[1].

لقد سعت السلطة الموحدية في إطار صراعها مع الفقهاء المالكية من جهة والأعداء الخارجية من جهة، والثورات الداخلية والتمردات الأسرية من جهة أخرى إلى محاولة تطويق المد الصوفي ومحاصرته، وفي الوقت نفسه كسْب الطبقة الشعبية والمراهنة عليها، لذلك نجد تصاعد مؤشر الإصلاحات والمراسيم الإصلاحية بتوالي الخلفاء، ضماناً للقاعدة الشعبية التي كان تعلقها شديدا بالصوفية.

ويمكن تفسير التقارب الذي حدث بين السلطة والمتصوفة في العهد الموحدي بأنَّ الصوفية هي من بادرت بالتقرُّب من السلطة لمَّا تغيَّرت نظرتهم للحكم القائم تدريجياً بفعل الانتصارات التي أحرز عليها الموحدون بالأندلس، إذ نجح خلفاء بني عبد المؤمن بفضل قيامهم بشعيرة الجهاد في استقطاب عامة الناس على اختلاف انتماءاتهم[2] .

ولعل الجهاد كان من أهم النقاط التي تجمع بين الطرفين (السلطة والمتصوفة)، فانتصارات عبد المؤمن جذبت له احترام و تقدير وتأييد مختلف

1 – محمد رابطة الدين، أبوالعباس السبتي ومجال مراكش، ص : 71 .

2 – حليمة فرحات، حميد التريكي، كتب المناقب كمادة تاريخية، ضمن كتاب : **التاريخ وآداب المناقب**، منشورات عكاظ، 1989م، ص: 56.

طبقات المجتمع، أما المنصور فيذكر ابن أبي زرع أنه لما اتجه المنصور إلى الأندلس لجهاد الصليبيين في الأرك اصطحب معه " فقهاء المغرب وصلحاؤه"[1].

بينما يصف لنا ابن عذارى أصداء هذه المعركة في الأوساط الشعبية قائلا : " جاءت هذه الوقعة هنيئة الموقع، عامة المسرة، كأكلة جائع، و شربة عاطش، فأنست كل فتح بالأندلس تقدمها، و بقي بأفواه المسلمين إلى الممات ذكرها " [2]، وهذه الرؤية تتوافق مع شهادات كتب المناقب التي نصَّت على اهتمام الأولياء والمتصوفة بالجهاد في الأندلس والانخراط فيه[3] وتتبع أخباره وابتهاجهم بالنصر والتنبأ به[4] .

المطلب الثاني: مواقف التوتّر بين السلطة الموحدية والمتصوفة.

كان من الطبيعي أن تتبنَّى السلطة الموحدية سياسة الاحتواء والتعايش مع الصوفية المسالمة، إلاَّ أنَّ هذه السياسة لم تكن خطًا ثابتاً التزمته السلطة الموحدية إزاء المتصوفة، فقد شهد العصر الموحدي تحركات موحدية للتضييق على المتصوفة من منطلق الحفاظ على الوحدة السياسة والمذهبية للبلاد.

وازدادت مخاوف السلطة الموحدية بازدياد قوة الحركة الصوفية وتأثيرها وأنصارها مطلع القرن 7هـ/13م إذ تحولت الظاهرة الصوفية من الإطار الفردي إلى الإطار الجماعي المنظَّم، ليتغير معه موقف السلطة إزاء المتصوفة من المهادنة إلى المواجهة.

---

1 – ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص: 222 .

2 – ابن عذارى، المصدر السابق، ص : 218 و221.

3 – التادلي، المصدر السابق، ص: 415 .

4 – نفسه، ص: 218 – 249 – 388 – 395 .

فقد وضع عبد المؤمن التصوف كظاهرة دينية واجتماعية تحت المراقبة لخبرته الجيدة بظروف انطلاق حركة ابن تومرت الذي أبطن الثورة وأظهر الزهد والتقشف ضماناً لنجاح مشروعه السياسي[1]، ويذكر المؤرخ ابن عبد الملك المراكشي أن عبد المؤمن وبنيه من بعده تبنَّوا سياسة التنقير عمن هذه حاله – أي التقشف والورع – والكشف عن باطن أمره متخوفين ثورته[2].

وكانت للتحديات التي واجهت عبد المؤمن ممثلة في توالي الثورات دور في سياسية الحيطة التي ميزت عهده وعهد بنيه من بعده، منها ثورة ابن هود الماسي541هـ/ 1146م الذي اقتدى بابن تومرت فأعلن المهدوية، وسبقه زعيم ثورة المريدين أبو القاسم بن قسي الأندلسي ت 546 هـ/1151م فأعلن المهدوية أيضا.

ففي بداية عهد عبد المؤمن نجد الإشارة إلى حالات التوتر الحاصلة في بداية عهده وتتعلّق بالصوفي عبد الجليل بن ويحلان ت541هـ/1146م[3]

1 – لم يتخذ ابن تومرت لباس الزهد فقط للتلبيس على المرابطين بل كان إذا خاف من البطش وإيقاع الفعل به خلط في كلامه ليظنوه مجنونا و ينسب إلى الجنون أنظر : البيذق، أخبار المهدي بن تومرت، ص : 22. والسبكي، طبقات الشافعية، ج : 06، ص : 110 .

2 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:8، ص: 250.

3 – هو الشيخ الفقيه الزاهد عبد الجليل بن ويحلان، ترجم له صاحب التشوف بقوله :" دكالي الأصل، ونزل بأغمات... كبير الشأن من أهل العلم والعمل، رحل إلى المشرق فلقي به شيخا من الصوفية، فأخذ عنه هذا الشأن شيخا عن شيخ بالسند المتصل إلى أبي ذر الغفاري صاحب النبي صلى الله عليه وسلم"، وذكر- التادلي أيضا- أن الشيخ بن ويحلان درس الفقه بأغمات ثلاثين سنة محتسبا مع شدة فقره وفاقته، وكان إذا انصرف عنه حملة الفقه يقول لخاصة أصحابه، تعالوا نأخذ في نور العلم، فيأخذ معهم في علوم الآخرة وأسرار التصوف، كما أورد التادلي أن الفقيه ابن زرقون المالكي ت 586هـ/1190م جاء إلى قاضي أغمات عبد الحق بن ابراهيم فقال له : أما ترى ما أحدثه عبد الجليل من البدعة من اجتماع الناس عليه من باب الجامع إلى باب داره (وكان عبد الجليل بن ويحلان إذا صلى الجمعة انصرف إلى منزله، فلم يكن يصل إلا في أول وقت العصر من كثرة ما يحبسه الناس للدعاء والتمسح به)، فقال له القاضي : مر أنت وافعل كفعله واجمع الناس عليك، فقال له: لا يتأتى لي ذلك. فقال له: ماذا أصنع أنا في رجل

الذي أستدعي من أغمات لأسباب غامضة لكنَّه رفض الالتحاق بجبل إيجليز عام 540هـ/1145م عندما نزلت به محلَّة عبد المؤمن بن علي لمحاصرة مراكش، وأصرَّ الموحدون على التحاقه ولما تذرع بالمرض قالوا له" ولو حملناك على نعش"[1]، ورغم أن المصادر لم تشر إلى ظروف ونتائج المحادثة فلا يبعد أن يكون الهدف من استقدامه هو وضعه تحت المراقبة خوفا من تأجيجه الناس ضد الحصار الموحدي لمراكش أو لإسباغ الشرعية على حصارهم لمراكش[2].

لم تتجاوز علاقة عبد المؤمن بعبد الجليل بن ويحلان ما سبق، إلاَّ أنَّ علاقته بأبي يعزى قد عرفت فصولاً أخرى اعتبارًا لمكانته الخاصة وموقعه في التصوف المغربي.

فلما دخل الموحدون مراكش سنة541هـ/1146م أُستقدِم الشيخ أبا يعزى إليها في ظروف غامضة أيضا[3]، فلم تقدِّم كتب المناقب إضاءات وافية حول الحادث، لكن إشارات تُؤكِّد أنَّ أبا يعزى كان عنده شبه المحبوس في صومعة المسجد الجامع بمراكش[4]، وتردَّد عليه الصوفية منهم التميمي صاحب المستفاد، ولا ندري أسباب حبسه ولا المدة، ولا يبعد أن يكون إعلان ثورة ابن هود الماسي في نفس الشهر الذي دخل فيه الموحدون مراكش[5]،

وضع له القبول في الأرض، فلولا أن الله يحبه ما أحبه الناس. أنظر: التادلي، المصدر السابق : ص: 146 – 149.

1 – التادلي، المصدر السابق، ص:149.

2 – ابن عذارى، المصدر السابق، ص: 27– 30.

3 – التادلي، المصدر السابق، ص: 215.

4 – العزفي، المصدر السابق، ص: 49. والتميمي، المصدر السابق، ص: 12.

5 – للمزيد عن هذه الثورة يُنظر : العمراني محمد، **الثورات والتمردات بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحدي**، دار نشر المعرفة، الرباط، المغرب. د.ت.ط، ص: 10 – 15 .

هو ما دفع عبد المؤمن للتشكيك في بعض الزعامات الروحية منهم أبا يعزى الشهير[1].

ومن الطبيعي أن تكون أخبار كرامات أبي يعزى تصل إلى النخبة السياسية الموحدية[2]، وقد يكون لبعض الفقهاء من جانبهم دور في تخويف السلطة من الجموع التي تلتفُّ حوله[3]، لذلك فضَّل عبد المؤمن أن يقتحم موضوع أبي يعزى من جانب ما يُحكى عنه من كرامات، فقد فاستنكر ذات مرة ذلك على أبي محمد وسنار الذي كان من أصحاب ابن تومرت ومن علماء الموحدين وفي نفس الوقت أخاً لأبي يعزى من أبيه وقال له: "ما هذا الذي يُذكر به أخوك من مشاركته لله تعالى في علم الغيب؟ فقال: يا أمير المؤمنين أنت أقرب إليه مني وأقدر عليه"[4].

وقد يكون إنكار عبد المؤمن هذا يُدرجُ ضمن المجال العقدي وما يتعلَّق أساساً بمسألة الكرامات التي عرفت مناقشات واسعة ومواقف متناقضة بين الفقهاء والصوفية قديما وحديثا، ولكن حقيقة ما كان يتخوف منه عبد المؤمن وما يزعجه هو شَبَهْ أبي يعزى بالمهدي ابن تومرت[5].

خفَّف وجود أخ لأبي يعزى التوتر بين الطرفين وقد نهض أبا محمد وسنار بدور إيجابي في التقريب بين أخيه والموحدين وتقول الرواية في علاقة أبي يعزى بالخليفة أنه بات عنده تلك الليلة وليلة أخرى في سترٍ من الناس عندما استضافه إلى بيته[6].

1 – محمد المغراوي، الصلحاء والسلطة، ص: 420.

2 – أنظر: ابن قنفذ، الوفيات، ص: 284.

3 – محمد المغراوي، الصلحاء والسلطة، ص: 421 .

4 – العزفي، المصدر السابق، ص: 51.

5 – نفسه.

6 – نفسه.

وفي اعتقادنا أنه لم تكن لأبي يعزى ولا لغيره من شيوخ التصوف في القرن 6هـ/12م تطلُّعات كالتي كان الحكم الموحدي يتخوَّف منها، بل إنَّ أبا يعزى كان يُدرك أهمية السلطة في الحفاظ على الأمن السياسي والاجتماعي، بل كان معروفاً عليه " تسكينه للفتن الثوائر، وإطفاؤه لما شب الشيطان من وقودالنوائر، ودعوته للسمع والطاعة للأئمة والأمراء كل باد وحاضر"[1] .

وعلى كلٍ فإنَّ عدم متابعة ابن ويحلان، وإخلاء سبيل أبي يعزى بعد مدة قليلة من الاعتقال دليلٌ على تهدئة عبد المؤمن لعلاقته مع المتصوفة منذ البداية وحرصه على عدم استعداء أهله[2].

وفي عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن نجد حادثة تتعلَّق بتحرك أحد المتصوفة ضد الدولة الموحدية تزعمه شخص يُدعى عتاب[3] في بداية عهد يوسف بن عبد المؤمن وبالضبط سنة 559هـ/1164م انطلاقاً من مدينة داي[4] التي كانت مركزا صوفيا نشيطا، وترتَّب عن حركة عتاب قيام الدولة الموحدية بمطاردة " أشياخ المريدين بسبب ما نُسب إلى عتاب حين قيل أنه

---

1 – نفسه، ص: 42.

2 – محمد المغراوي، الصلحاء والسلطة، ص: 420.

3 – شخصية مجهولة مثل ثورته، والمصدر الوحيد الذي أشار إليه هو ابن الزيات التادلي في التشوف، ص: 394 – 395. باستثناء السياق الذي وقعت فيه الحادثة فان المصادر لا تسعف بشيء يمكن من إزاحة الغموض عنها ولم ترد لعتاب ترجمة في كتب المناقب مما يؤكد أنه لم يكن من شيوخ التصوف، لكن مطاردة السلطة لبعض المريدين تدل على أنهم قد ساندوه بشكل من الأشكال، وهناك احتمال آخر وهو أن ابن الزيات الذي انفرد بالإشارة إلى عتاب لم يقصد إلى الحديث عنه ولكن ذكره عرضا في حديثه عن الصوفية وذكر اسمه الشخصي فقط دون أية إفادات أخرى وباسمه مجردا من اي نعت مما يعطي الانطباع بأنه كان معروفا بما يكفي كما أن عدم تحليته باي لقب وعدم تكنيته على عادة ابن الزيات في إيراد الأسماء يوحي بموقفٍ سلبي منه.

4 – يقول عنها الحميري: " بينها وبين أغمات أربعة أيام وبين داي وتادلى مرحلة، وبها معدن النحاس الخالص الذي لا يعدله غيره من النحاس في أقطار الأرض، وهي مدينة صغيرة لكنها كثيرة العامر، والقوافل عليها واردة وصادرة، وأهلها أخلاط من البربر، كانت مركزا صوفيا نشيطا " .أنظر عنها: الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص: 231. والتادلي، المصدر السابق، ص: 168.

يطلب الملك فقُتل وطُلب أصحابه"[1] وقُمعت حركته بقسوة أدَّت لخراب المدينة وجلاء أهلها وافتراقهم في البلاد[2] ربما لتضامنهم مع الانتفاضة أو فقط كإجراء تخويفي من إجراءات الموحدين، كما أن الموحدين استغلُّوا ذلك لخنق "رباط شاكر" وتحييده بشكل عنيف، باعتباره كان مركز دعم لحركة عتاب، وبؤرة محتملة لمعارضة السلطة[3]، وفي العموم انتهز الموحدون الانتفاضات ليؤسسوا موقفا أمنيا في تتبع ومراقبة حركة التصوف والتنفير منها ومن شيوخها وإشخاصهم إلى مراكش[4].

ويمكن تلمُّس رقابة السلطة المفروضة على رباط شاكر في ثنايا حوارٍ جرى بين اثنين من كبار متصوفة هذا الرباط، قال الأول للثاني[5] : " سمعت المريدين يتحدثون عنك بالعجائب، فطاطأ رأسه حياءً، فقلت له: أما تخاف من السلطان إذا بلغه ما يُذكر عنك؟ فرفع إلي رأسه وقال لي: ما ينبغي أن يُخاف إلا من الله تعالى، فقمت إليه وقبلت رأسه وانصرفت عنه " [6].

ومن صوفية الرباط الذي تُوبعوا من طرف السلطة الموحدية أبو عبد الله الأزكاني المتوفى بعد 590هـ/1194م يقول : " لما أراد الله تعالى أن أقيم بعد السياحة ... فأتيت صفرو الأعلى، فاجتمع لي جموع كثيرة فتاب على يدي مئون من الرجال، ومرَّ أكثرهم إلى مكة وتسامع الناس بي، فجاؤا من كل مكان وكثروا، فسمع بذلك القائد ابن حسون، وكان والياً على فاس، فخرج إليَّ في جمعٍ كثير من الخيل والرجال، وكنت جالسا خارج

---

1 – التادلي، المصدر السابق، ص: 394-395.

2 – نفسه، ص: 394-395-402، وأخبار أبي العباس السبتي، ص:466.

3 – محمد الشريف، التصوف والسلطة بالمغرب الموحدي، ص: 50.

4 – محمد المغراوي، الصلحاء والسلطة، ص: 425

5 – الأول هو أبو محمد تيليجي بن موسى الدغوغي : " مات عام 605 هـ/ 1208م ... وكان واعظا برباط شاكر " (التشوف، ص: 402). أما المتصوف الثاني فهو أبو مهدي وين السلامة بن جلداس مات في حدود 560 هـ/ 1164م انتهى إلى مقام لا يبلغه إلا آحاد الأولياء .(التشوف، ص: 261).

6 – التادلي، المصدر السابق، ص: 263 .

الرابطة، وأنا أراهم يطلبونني طلبا شديدا، فلما لم يجدوني انصرفوا، فقلت في نفسي أنا رجل أمي لا أقرأ ولا أكتب فما الذي يتقون مني "[1]، ومنهم المتصوف أبو محمد تياجي يقول: " طُلبت في أيام عتاب طلبا شديدا، ولو وجدت لقُتلت"[2].

وتظلُّ هوية عتاب مجهولة بسبب صمت المصادر، لكن الأستاذ محمد المغراوي رجَّح أنَّه زعيم قبلي أعلن ثورة في منطقة داي ضد الموحدين وتضامن معه بعض أهل التصوف[3].

وفي سياسة الخليفة يعقوب المنصور نتلمَّس الجمع بين التغريب والتقدير لأهل الزهد والتصوف، فأشخص الخليفة إلى مراكش أبا حفص عمر بن أبي يعقوب تصولي بن وابوسكط المشنرائي في تاريخ غير محدد ثم عاد إلى دكالة وتوفي بها سنة 595هـ/1199م[4]، والشيخ أبا إسحاق ابراهيم بن عبد الصمد الصنهاجي ت 596هـ/ 1200م تلميذ أبو شعيب أيوب السارية أيضا، أُفرج عنه وعاد إلى بلده[5]، وظلت الأسباب مجهولة.

ومنهم شيخ النحاة أبو موسى عيسى بن يلبخت الجزولي، كان طلبة العلم يجتمعون إليه حتى ضاق بهم المسجد الذي كان يُدرّس فيه فانتقل إلى مكان آخر، فوصل خبره إلى الخليفة المنصور فأرسل إلى وزيره ابن يوجان وشيخ طلبة الحضر أبو القاسم بن أبي محمد المالقي "وأمرهما بالتوجه إليه وإحضاره بين يديه، وأوعز إلى وزيره أنه إن وافقه على الوصول استصحبه مكرما مبرورا، وإن بدا منه تأب أو تلكؤ ضرب عنقه في مجلسه وجاء

1 – نفسه، ص: 366 .

2 – نفسه، ص: 402 .

3 – محمد المغراوي، الصلحاء والسلطة، ص:424.

4 – التادلي، المصدر السابق، ص: 308.

5 – نفسه، ص: 311، وابن إبراهيم، المصدر السابق، ج:1، ص: 152.

برأسه"[1]، ولم يجب المنصور إلا بعد تلكؤ، لكن بعد أن تعرَّف عليه المنصور قرَّبه وأكرمه غاية الإكرام، وكان شديد الاعتقاد فيه، وبناءً على هذه الحادثة جزم الباحث المغراوي بأن خيارات السلطة الموحدية كانت واضحة وهي الترغيب والترهيب لضمان ولاء من يمكن أن يشكلوا خطرا ما على أمنها[2].

أما أبو عمران موسى السدراتي ت586هـ/1190م من صوفية فاس فكان "من أهل السعة في الدنيا فخرج عنها فتح الله عليه"[3] وكان صاحب أحوال غريبة، ووُشي به إلى الخليفة " فأمر بتقييد يده، فقُيِّد بالحديد وسُيِّر به إليه، فلما قرب من فاس ألقى في بعض المنازل في بيت وأقفل عليه مطروحا وما وجدوا أحدا"[4] وتوجه لتوه إلى منزل أبي مدين بفاس.

وأبو محمد يسكر بن موسى الجورائي ت 598هـ/1202م من صلحاء فاس وخطيب القرويين، فقد كتب أحد عمال الموحدين بفاس إلى الخليفة بمراكش يخبره أن أبا محمد يسكر لا يدعو له، ووصل الخبر إلى الخليفة " بذلك في حال حرج، فبعث من حينه لأن يُشخص"[5] ثم تراجع عن أمره بعدما ناصحه أحد الصلحاء من جلسائه.

كما كان زاهد سبتة أبو الحسين بن الصائغ " لا يرضى خطبة الموحدين لما اشتملت عليه من ذكر المهدي"[6].

---

1 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:8، ص: 250.

2 – محمد المغراوي، الصلحاء والسلطة، ص: 427

3 – محمود الغراب، **شرح رسالة روح القدس في محاسبة النفس من كلام الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي**، الطبعة 02، مطبعة نضر، 1406هـ/ 1985م، ص: 113.

4 – نفسه.

5 – ابن عيشون، **الروض العطر الأنفاس في أخبار الصالحين من أهل فاس**، دراسة وتحقيق: زهراء النظام، الطبعة 01، منشورات كلية الآداب، الرباط، المغرب، 1997م، ص: 298.

6 – ابن الزبير، المصدر السابق، ج:3، ص: 122.

وفي حالة أخرى نجهل أسبابها، حُبس الصوفي أبا الربيع بن تازكورت القبايلي في دويرة بمراكش، وظل "محبوسا فيها وهو أعمى مقعد وسِنُّهُ نحو من مئة عام"[1] .

وأشهر من أشخصه المنصور من أهل التصوف أبا مدين " كان شيخ الصوفية في وقته"[2]، واختلفت المصادر في سبب إشخاصه، فابن قنفد يُرجع سبب استدعائه إلى انزعاج السلطة من ذيوع صيته وكثرة اتباعه[3]، وعلّل ذلك بقوله: " ولما اشتهر أمره وشاع في الآفاق ذكره، سعي به عند خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش، فأمر السلطان بطلوعه من بجاية إلى حضرته"[4]، وأورد ابن مريم تفاصيل أكثر فقال: "ولم يزل بها –أي بجاية– يزداد حاله رفعة على مر الليالي وترد عليه الوفود ويخبر بالغيوب الى أن وشي به بعض علماء الظاهر ليعقوب المنصور[5].

ورواية ابن مريم تذهب إلى ضلوع علماء الظاهر في الوشاية بأبي مدين والتي صادفت مخاوف السلطة الموحدية[6]، وقرَّر الشيخ الاستجابة لأنه من الطاعة لولي الأمر مع عدم رغبته في ملاقاة الأمير، وقال: " أما أنا فأتوجه إليه غير أنه لا يراني ولا أراه، فأتتهُ منيَّتهُ بتلمسان"[7]، وأستدعي معه الشيخ أبو زكريا المغيلي الذي رفض الامتثال خوفا على نفسه.

وللحادثة –ولاشك– علاقة بتنامي المد الصوفي في بجاية لحمايتها من بني غانية، ويُرجع السبب أيضا إلى دروس أبي مدين التحريضية، فهو يقول

---

1 – العزفي، المصدر السابق، ص: 49.

2 – الغبريني، المصدر السابق، ص: 145.

3 – ابن قنفد، أنس الفقير، ص: 102.

4 – نفسه، ص: 102.

5 – ابن مريم، البستان، ص: 113.

6 – نفسه

7 – الغبريني، المصدر السابق، ص: 22، والتادلي، المصدر السابق، ص: 319، وابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:4، ص: 127.

"بفساد العامة تظهر ولاة الجور، وبفساد الخاصة تظهر دجاجلة الدين الفتانون"[1]، ولا نستبعد أن يكون قصده بدجاجلة الدين المهدي ابن تومرت، كما أنه يقول في رائيته:

ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا * هم السلاطين والسادات والأمرا[2].

ورواية أخرى ذهبت إلى أنَّ الاستدعاء كان من أجل التوبة على يده من حادث مقتل أخيه وندمه فدُلَّ على الشيخ[3]، أو ربما التوبة على ما عُرف عنه من سوءٍ في صباه[4]، وقد دلَّ أبو مدين المنصور على شيخ آخر هو أبي العباس السبتي وقيل أبي العباس القنجائري[5] للاتصال به وذلك قبل وفاته بتلمسان في طريقه إلى مراكش.

من مقارنة الروايتين يتبين أن الجمع بين عناصرها غير ممتنع إذ علاقة المنصور بالصوفية تطورت في السنوات الأخيرة من حياته مما دفع بعض الصوفية الى حبك رواية تزعم انتماءه إلى الصوفية واعتزاله الملك[6].

وكيفما كان الأمر فإن تأكيد المنصور وكتابته إلى والي بجاية بالوصية عليه وأن " يُحمل خير محمل"[7] دليل على عدم إضمار الشر له، ولكن ما يعزز وجود سبب أخر غير التبرك هو خوف أتباع أبي مدين عليه.

---

1 – ابن مريم، المصدر السابق، ص: 113-114.

2 – عبد الرزاق الميداني الدمشقي، **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**، حققه ونسقه وعلق عليه حفيده: محمد بهجة البيطار– من أعضاء مجمع اللغة العربية، دار صادر، بيروت، الطبعة: 02، 1413 هـ /1993 م، ص: 540.

3 – ابن أبي منصور، المصدر السابق، ص: 57 – 58.

4 – المراكشي، المصدر السابق، ص: 195 .

5 – ابن أبي منصور، المصدر السابق، ص: 57 – 58.

6 – ابن عذارى، البيان المغرب، ص:235. ومحمد المغراوي، الصلحاء والسلطة، ص: 128.

7 – ابن أبي منصور، المصدر السابق، ص: 57 و58. والغبريني، **عنوان الدراية** فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق: رابح بونار، الطبعة 02، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص: 60 .

وخـــلال العهـــد الثـــاني مـــن الدولـــة الموحديـــة اســـتمرت الســـلطة بـــنفس الاستراتيجية القائمة على الحذر ولكن بشـكلٍ أخـف، فقـد أشـخص أبـو الطـاهر اسماعيل بن براهيم التونسـي، كـان عالمـا فـي العقيـدة " علـى سـنن العلمـاء الفضلاء"[1] واكتفى ابن الزيات بالإشارة إلى إشخاصه إلـى حضـرة مـراكش التـي قدَّمها في تاريخ غير محدَّد ونعتقد أنه في زمن ما بعـد المنصـور، ثـم سـمح لـه بمغادرتها فاستقر بتلمسـان يـدرس العلـم إلـى وفاتـه سـنة 608هــ/1211م، ولاشك أن إشخاص هذا الشيـخ قد أثر عليه إلى حـد أنـه " أعـرض عـن الـدنيا وأهلها"[2]، دون أن تـُشير المصادر – مـرة أخـرى – إلـى سـبب اسـتقدام هـذا الشيـخ من تـونس.

والملاحظ فيمـن أشخص من المتصوِّفـة أنَّهـم يُسـرَّحون بعـد فتـرةٍ مـن الإقامة في حضرة العاصـمة مـراكش ممـا يعـزز نظريـة مسـاءلتهم واسـتقراء أفكارهم، مما يجعلنا نطمئن إلى تخميننا القاضي بـأن مواقـف التـوتر التـي بـدت من السلطة ليس دافعها العـداء للمتصـوفة بقـدر مـا هـو التخـوف مـن الثـورة السياسية، فقد كان نفوذ شيوخ التصوف وكثرة أتبـاعهم هـو السـبب المباشـر فـي متابعتهم وإشخاصهم كما جاء في بعض النماذج التي ترجم لها التادلي[3].

كمـا أشـخص شـيخ صـوفية ألمريـة أبـو إسـحاق البلفيقـي المعـروف بابن الحاج تــ 616 هــ/1219م، فقد كان للبلفيقـي وشـيخه أبـي عبـد الله محمـد بن يوسف الغزال[4] الفضل في إحياء التصوف في ألمرية بعد ثورة المريدين.

كان البلفيقي على علاقة طيبة مع والي الموحدين علـى ألمريـة أبـي عبـد الله محمد بن أبي زكريا بن يوسف بن عبد المؤمن الـذي اسـتدعاه مـن حصـن بلفيـق للإقامة الدائمة بألمرية، ولا نـدري هـل كـان اسـتدعاؤه بقصـد التبـرك بـه أو

1 – التادلي، المصدر السـابق، ص: 406.

2 – نفســه.

3 – التادلـي، المصدر السـابق، الترجمات رقم: 18، 34، 40، 77.

4 – أنظر ترجمته : ابن إبراهيم، المرجع السابق، ج:1، ص: 154.

لوضعه تحت المراقبة، لما له من مكانة بين الناس، فقد كان سخياً بماله متنوع الأنشطة الإحسانية[1] .

بقي الشيخ بألمرية مدةً حتى أُمر بإشخاصه من العاصمة، وسبب ذلك حسب بعض المصادر هو إنكارهُ لظلم مشرف ألمرية علي بن أبي بكر "الذي أحدث منكرات"[2] ضد سكانها و"الذين رفعوا أمره إلى الشيخ إبراهيم شاكين إليه بحالهم معه وراغبين في صرف ما حلَّ بهم من قبله"[3]، ولموقفه هذا، والتفاف الناس حوله أتهم الشيخ بالمؤامرة، وأنه يبيِّت النية لتحدٍ وشيك للدولة يُعِدُّ له[4].

ولما وصلت التهمة إلى الخليفة المستنصر الموحدي في العاصمة أمر بتغريب الشيخ من ألمرية إلى مراكش، وتذكر رواية المقري دائماً أن الشيخ امتثل أمر الخليفة رغم أن أهل ألمرية ومريدي الشيخ حاولوا عرقلة مسعى الوالي الموحدي لإلقاء القبض عليه، فإن البلفيقي تجنب أن تتحول الوضعية إلى تمرد شامل حينما حسم الموقف بقوله : "لا يجوز القيام على السلطان"[5]، ولما وصل إليها استقبله الخليفة المستنصر وندم على إشخاصه وطلب منه الدعاء[6].

انزعج الشيخ من التهمة فقال: "كل من نال من عرضي ما نال فإني أحلله من ذلك وأغفر له ماعدا من رماني بالقيام على السلطان فإني لا أغفر له

---

1 – المقري، أزهار الرياض، ج:4، ص: 106، ونفح الطيب، ج:5، ص: 477. وابن ابراهيم، المرجع السابق، ج:1، ص: 155.

2 – ابن ابراهيم، المرجع السابق، ج:1، ص: 162. يذكر ابن القاضي في "الجذوة" أن خصوم الشيخ استغلوا ضعف شخصية المستنصر لإبعاده عن ألمرية، ولعله كان يقصد الفقهاء. أنظر: ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج:2، ص: 547.

3 – وابن ابراهيم، المرجع السابق، ج:1، ص: 162.

4 – المقري، أزهار الرياض، ج:4، ص: 111-112.

5 – ابن الأبار، التكملة،ج1، ص:166. والتنبكتي، نيل الابتهاج، ص: 37-38

6 – نفسه، ج:4، ص: 112-113.

حتى أخاصمه بين يدي الله تعالى فيما رماني بـه من البدعة الشنعاء والمعصية الكبرى والداهية الدهياء، ولو رماني بالزنى ما كان أشد علي مما رماني به"[1].

وفي مراكش التفَّ الصوفية حوله ونشَّط الحركة الصوفية حيث أسَّس رابطة أبي إسحاق[2]، وتوفي الشيخ بعد أشهر، فكانت جنازته حافلة بالأمراء والأكابر[3] بمقبرة الشيوخ وصارت مزاراً للمدينة[4].

ويبدو أن إحدى الإجراءات المتخذة من طرف الموحدين لوقف التأثير المتزايد للجماعات الصوفية بين نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع الهجريين (13/12م)، هو تشجيع ظهور الطوائف الصوفية ذات الطابع الرسمي الخاضع لمراقبة الدولة، وهو ما نستشفهُ من ترجمة الشيخ أبي العباس أحمد بن إبراهيم بن عبد المالك التميمي القنجائري (تـ627هـ/1230م)[5]، فحسب ابن عبد المالك المراكشي، كان القنجائري من "جلة العلماء وأكابر الصلحاء...وكانت له من ملوك عصره مكانة جليلة"، وبالفعل، "كانوا يستدعونه ويستدنونه تبركا به، واغتناما لمشاهدته، فيقبل عليهم ويقبل منهم ... وكان ملوك بني عبد المؤمن وأمراؤهم ورؤساء دولتهم كثيرا ما يرغبون منه في تفريق صدقاتهم التطوعية على من يراه من الفقراء والمحاويج وأهل الستر والصون، لعلمهم بأنه مَغْشِيّ الجانب من طوائف الناس على اختلاف

1- ابن ابراهيم، المرجع السابق، ج:1، ص: 155. والمقري، أزهار الرياض، ج:4، ص:101 و114.

2 - التادلي، المصدر السابق، ص: 305.

3 - المقري، أزهار الرياض، ج:4، ص: 113.

4 - ابن ابراهيم، المرجع السابق، ج:1، ص: 164.

5 - ابن الأبار، التكملة، ج:1، ص: 226، وابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:1، ص: 34، والرعيني، البرنامج، ص: 78.

طبقاتهم[1]"، ووصفَ ابن عبد الملك المراكشي القنجائري بأنَّ "شيخ الطائفة الصوفية قاطبة بالمغرب"[2] على عهد الموحدين.

ومن الجائز افتراض أن الخلفاء الموحدين قد اعتمدوا عليه لخلق طائفة صوفية رسمية منظمة، تراقبها السلطات مباشرة، إذ كان بإمكانه أن يُضفي عليها نصيب من التأييد الشعبي الذي كانت تتمتع به الجماعات الصوفية الأخرى التي لا تدور في فلك السلطات الموحدية.

وعموماً نجد أن السلطة الموحدية مارست الرقابة المشددة على نشاط المتصوفة، وهو ما يُفهم من كلام ابن عبد الملك الذي كشف عن هذه السياسة في سياق تعليقه على اهتمام المنصور الموحدي باستقدام أحد هؤلاء المتصوفة إليه " وكان دأب عبد المؤمن وبنيه التنقير عمن هذه حاله والكشف عن باطن أمره متخوفين من ثورته وخروجه عليهم"[3]، وأما "الأمر بالإشخاص إلى مراكش " لهؤلاء المتصوفة فنبرة متواترة في كتاب التشوف وغيره[4]، أما من لم يتم إشخاصه فقد كان يُطلب منه " أن يشتغل بشأنه ويقتصر على خاص أمره" [5].

ومما يعكس اليد الحديدية التي كانت السلطة الموحدية تضرب بها تنامي التيارات الصوفية هو أن ابن الزيات تـ627هـ/1229م في موسوعته عن المتصوفة في الغرب الإسلامي خلال الفترة التي عايشها لم يذكر رجلين من رجال الصلاح والزهد على شهرتهما، وهما القاضي عياض الذي دخل في صراع سياسي مع الموحدين وخلع طاعتهم واتصل بالمرابطين في الأندلس، كما أنه لم يُترجم لابن هود الذي تزعَّم ثورة طويلة كادت أن تعصف

---

1 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:1، ص: 57–58.

2 – نفسه، ج:1، ص: 48.

3 – نفسه، ج:8، ص: 250.

4 – التادلي، المصدر السابق، ص : 215 – 238 – 308 – 311 – 319 – 406.

5 – الغبريني، المصدر السابق، ص: 68 .

بالدولة الموحدية، رغم أنه ترجم لغيره ممن عاصروه زمانا أو عايشوه مكانا ممن هم أقل شأنا وصيتا منه، والجواب كما أكَّده غير واحدٍ من الباحثين هو الخوف من العقاب الذي قد يصدر من السلطة السياسية[1].

ولقد أثمرت هذه السياسة القائمة على إسراف الحكام في التشدد والمراقبة، إذ نجد أن رمزًا صوفياً من عيار أبي يعزى والذي سُجن على يد عبد المؤمن بن علي، قد أصبح يدعو بالسمع والطاعة للأمراء كما يُفهم من خلال كتاب "دعامة اليقين"[2].

ومع ذلك فقد كان للصوفية مواقفهم الدالة على عدم ارتياحهم واطمئنانهم للسلطة الموحدية، فقد ثبت مجانبتهم لكبراء وأعيان العاصمة مراكش[3]، وامتناع عدد من المتصوفة المرابطين في أطراف مراكش عن دخولها والاستقرار بها رغم قربهم منها[4]، وتفضيل بعضهم العزلة وهو في العاصمة مراكش[5]، ومن مظاهر ذلك تشبث بعض الصوفية بالمذهب المالكي وحرصهم على ترسيخه[6] في الوقت الذي اختار فيه المخزن محو مذهب مالك.

وأيضًا رفضهم لتقلُّد مناصب وخطط حكومية كالقضاء والحسبة[7]، والإعراض عن أموال السلاطين، إذ تمسّك الصوفية بالتوجيهات الغزالية الإحيائية التي اُلتقطت بسرعة داخل الحقل الصوفي المغربي واُعتبرت أداة

---

1 – مصطفى بنسباع، __السلطة بين التسنن والتشيع والتصوف ما بين عصري المرابطين والموحدين__، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، جامعة الملك السعدي، تطوان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ص : 131 .

2 – أنظر: العزفي، المصدر السابق، ص: 91 .

3 – التنادلي، المصدر السابق، ص: 290.

4 – نفسه، ص: 232.

5 – نفسه، ص: 304 و 432.

6 – نفسه، ص: 152 و267.

7 – نفسه، ص: 205 و 238.

توجيه لجل صوفية المغرب، كما أعتبرت تعليمات الغزالي فيه دستوراً جديداً وفتحاً كبيراً جعل من الصوفية يتمثلون تعليماته ويضبطون سلوكهم وفق نصوصه.

فنجد من الصوفية من امتنع عن تولّي أي خطة رسمية رغم العروض المتوالية، منهم عبد الله بن محمد الحجري ت591هـ/1194م[1]، ومنهم من مارسوا وظائف رسمية لدى الدولة ثم تخلّوا عنها وانصرفوا إلى حياة الزهد نذكر : محمد بن جبير الكناني من أهل غرناطة، سكن مالقة فقد " كان من المشتغلين بأشغال السلطة واكتسب مالاً كثيراً ثمَّ نزع عن ذلك كله وتصدَّق بجميع ماله وزهد في الدنيا ولم يزل على ذلك حتى وفاته"[2].

ومن نماذج انقباض المتصوفة أن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن استدعى أثناء وجوده بإشبيلية الشيخ أبا عبد الله بن المجاهد ت574هـ/1178م[3] فأجابه ثم طلب منه إعفاءه من الرجوع إليه بأعذارٍ قدَّمها[4]، وكان أبو المجاهد قد انقطع عن دروس شيخه أبي بكر بن العربي معللاً ذلك بأنَّ شيخه أبا بكر بن العربي كان يُكثر التردد على السلطان وقال عنه في صيغة المُنكر: " كان يدرس وبغلته عند الباب ينتظر الركوب إلى السلطان" [5]، وأُستدعى ابن المجاهد لمجلس أحد الأمراء فرآه الأمير قد قدَّم

1 – ابن خميس، أعلام مالقة، مصدر سابق، ص: 230 – 231 .

2 – نفسه، ص: 138 .

3 – قال عنه ابن عربي :" كان إمام هذه الطريق ببلادنا"، محمود الغراب، شرح روح القدس، ص: 85.

4 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج: 5، ص: 667.

5 – نفسه، ج: 5، ص: 666.

رجله اليسرى (التي تُقدَّم غالباً – وفق الأحكام الفقهية– عند ولوج الأماكن غير الطاهرة) عند دخوله فعرف أنه لا يرغب في التردد عليه[1].

أما الزاهد أبو سليمان داود بن يزيد الغرناطي السعدي تـ573هـ/1177 م[2] فقد فضَّل الانتقال من غرناطة فرارًا من دعوة السلطان له لإقراء أبنائه، وعلَّق على ذلك بقوله: " والله لا أهنت العلم ولا مشيت به إلى الديار" ثم انتقل إلى قرطبة[3].

وكان الزاهد أبو موسى عيسى بن عبد العزيز يلبخت الجزولي يحظى باحترامٍ وافرٍ من المنصور وابنه الناصر، وعَّينه المنصور خطيباً بالجامع المبني بقصره لكنَّه "لم يتلبَّس من الدنيا إلا بما يتظاهر به بين أبنائها تقية منه على نفسه"[4] لِما اتَّسم به من "البُعد عن التعرض لأهل الجاه من الأمراء والولاة"[5]

وتشوَّق يعقوب المنصور لرؤية محمد بن عبد الكريم الفندلاوي الصوفي المعروف بابن الكتاني وسأل عنه فلم يُجبه الفندلاوي[6]، ولما توفي حضر الخليفة جنازته[7].

وصنَّف الفقيه الورع أبو سعيد المتراري كتاباً جمع فيه فنون العلم على تفاريقها حسبما انتهى إليه إدراكه واقتضاه تحصيله، وسماه "منار العلم"، فاقترح عليه أبو علي الماقري الضرير أحد المقرَّبين له أن يرفعه " إلى أمير المؤمنين، وذلك صدر أيام المستنصر من بني عبد المؤمن فإن ذلك أشهر له وأنفق لسوقه ... فقال له: أحسن الله عزائي فيك وأعظم أجري في المُصاب

1 – التنبكتي، المرجع السابق، ص:377.
2 – السيوطي، بغية الوعاة، ج:1، ص: 564.
3 – نفسه.
4 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:8، ص: 252.
5 – نفسه، ج:8، ص: 249.
6 – المصدر السابق، ج:8، ص: 232–233.
7 – ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص: 271.

بك، قد كنتُ أعتقد أنا لم نصطحب إلاّ للّه وللنصيحة فيه ولترشدني إلى ما فيه تحسين عاقبتي والفوز بالنعيم الدائم في آخرتي، فأما الإشارة بالتعرض إلى أبناء الدنيا ولاسيما بالعلم فما كنت أقدّرُ خطورة ذلك ببالك"[1].

وانزعج أبو عبد الله محمد بن شعيب الجذامي ت604هـ/1208م بفاس من منام رآه أنَّه يتصل بالملك، ولما كان السلطان محمد الناصر عائداً من إفريقية إلى مراكش عن طريق فاس، عبر الشيخ من فاس إلى الجزيرة الخضراء ليتحاشى اللقاء به فأدركته منيته هناك بالجزيرة[2].

ونزل أبو محمد عبد الحق بن واليل المغيطي المـُتوفَّى قبل سنة 601هـ/1205م بالقرب من قرية "يمويمن" بدكالة فبعث إليه الشيخ أبو وازغار يقول له: " أما وجدت موضعاً تنزله إلاّ موضعا تجاور فيه العمال فهلاّ ارتحلت عنه"[3].

ومن أهل بلد دادس الصوفي أبو يحي أبو بكر بن ملول الصنهاجي الأسود ت605هـ/1209م قصده بعض الأمراء فقال "اللهم حُل بيني وبينه"[4].

وأرسل والي غرناطة أبو إبراهيم إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن إلى الصوفي يحي بن عبد الرحمن القيسي "راغبًا منه الوصول إليه فأبى من ذلك، بُعدا من التظاهر، وفراراً من ملابسة أهل الدنيا"[5].

وعبَّر المتصوف أبو الحسن نجا بن عبد الله الأموي من مدينة سلا عن تذمُّرِهِ من زيارة قاضي أبي الحسن علي بن الحسين الصديني المدينة له، فأرسل من يقول له للقاضي "أريد أن لا تأتيني ولا نأتيك وادع لي وأنت في

---

1 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:8، ص: 252.

2 – التادلي، المصدر السابق، ص:398.

3 – نفسه، ص:396.

4 – نفسه، ص:413.

5 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:1، ص: 411.

موضعك وأدعو لك وأنا في موضعي فإن مثلنا كرجل حصل في المرحاض، فإن جاء من يـريد أن يُخرجه تلوث معه، وإن تركه وحده كان أحسن له"[1] .

وكان أبو الحسين بن الصائغ السبتي يفتخر بأنه لم يمشي قط في مظلمة ولا إلى باب سلطان[2]، أما أحمد بن منذر بن جهور الأزدي الأندلسي تلميذ أبي عبد الله بن المجاهد فكان صالحا على المذهب المالكي "مجانبا الولاة وأصحابهم لا يقوم لأحد منهم إن رآه، وقلما يتعدى مجلسه أو داره"[3].

فمرجعية الصوفية واضحة في الموضوع، وهو حرصهم على عدم خدش سلوكهم الصوفي بالاقتراب من السلطة، وهذا المستوى من الورع كان موقفاً نقدياً من السلطة حينما يتم الابتعاد عنها على أساس تورطها في بعض المحرمات والشبهات، في حين كانت السلطة تعتقد أن هذه المواقف هي رفض مبدئي لها[4].

ومن مظاهر إعراض المتصوفة عن السلطان الإعراض عن أموالهم، فقد التقى المتصوفة مع الفقهاء في التحفظ من أموال السلطان وأنها مشبوهة، لكنهم تجاوزوا الفقهاء في توخي الحيطة من ذلك معتمدين على كتاب الاحياء إذ يقول الغزالي: " العبادة عشرة أجزاء تسعة أجزاء منها في طلب الحلال"[5]، وكان موقفهم أيضا واضحا من التفرغ لطلب الدنيا ولو كانت من حلال فقد قال أبو مدين: "من اشتغل بطلب الدنيا أبتلي فيها بالذل"[6].

---

1 - التادلي، المصدر السابق، ص:358.

2 - نفسـه، ص:297.

3 - ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:8، ص: 551.

4 - محمد المغراوي، الصلحاء والسلطة. 410 . فقد امتنعَ الزاهد أبو سليمان داود بن يزيد الغرناطي السعدي تـ573هـ/1177م عن أكل اللحم بعد فتنة 539هـ/1145م التي قامت على المرابطين بالأندلس تعبيرا عن موقفه من اختلاط الأموال بسبب النهب والغصب. السيوطي، بغية الوعاة، ج:1، ص: 564.

5 - الغزالي، إحياء علوم الدين، ج:2، ص: 90.

6 - ابن قنفد، أنس الفقير، ص: 18.

وهذا مُحي الدين بن العربي الذي وجَّه له السلطان أبو العلا إدريس المأمون أثناء وجوده بسبتة مائدتين فأكل بعض الفقراء منها وامتنع الشيخ وخواص أصحابه وقال انه حرام وبلغ ذلك إدريس فلم يرد عليه[1].

وعَرض الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أثناء وجوده بإشبيلية على أبي عبد الله محمد بن أحمد بن مجاهد الأنصاري مالاً فأبى أن يأخذه رغم أنَّه كان مقتصدا في معيشته، وكان مقتصرا على ما كان يكسبه من نسخ المصاحف[2]، وكان أحد الأمراء قد أرسل إليه هدية، فلم يمسها ووجدت بعد موته مكتوبا عليها لفلان بن فلان[3].

أما الفقيه المتصوف موسى بن حسين بن موسى بن عمران القيسي المرتلي تـ 604هـ/1207م فقد سدَّ باب القبول أمام الأمراء، ورغم أنَّ المنصور يعقوب الموحدي حاول التقرب منه بمنحه مبلغا ماليا إلا أنه رفضه وأعرض عنه[4]، فقد أرسل المنصور لما حل بإشبيلية إلى الصوفي موسى بن عمران المارتلي مبلغا من المال فقال: "هو أحوج في ماله، قل له هذه مائة من حلال خذها لنفقتك في هذه الغزوة إني أرجو أن لم تطعم إلا الحلال أنْ تنتصر"[5].

وكان الواعظ محمد بن أحمد الحجام تـ614هـ/1217م مكينا لدى بني عبد المؤمن منذ أن استدعاه المنصور للوعظ في مراكش وكانت عطاياهم

1 - أنظر: محمد المغراوي، الصلحاء والسلطة، ص: 411. لم أجد هذه الرواية فيما توفر لدي من مصادر.

2 - ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:5، ص: 667.

3 - التنبكتي، المرجع السابق، ص: 376.

4 - ابن الزبير، المصدر السابق، ج:3، ص: 52 و53 .

5 - الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص: 175.

تتوالى عليه، لكنه لم يدَّخر منها وإنما صــرفها إلـــى الفقــراء والمســاكين وتجهيــز الضعيفات إلى أزواجهن، "هذا كان دأبه إلى غاية عمــره"[1].

غير أن هذا الانقباض والرفض لم يكن محلَّ إجمــاع المتصــوفة، فقــد ذكــر عبد الواحد المراكشي أن المنصور أمر للصالحين بــأموال عظيمــة عنــد رجوعــه من الغزوة الثانية بالأندلس سنة 592هــ/1696م" فقبــــِل مــنهم مــن رأى القبــول وردَّ منهم مــن رأى الــرد كــل حســبما اقتضـــاه نظــره وأداه إليــه اجتهــاده ... فتساوى عنده الفريقان، وقال: لكل مــذهب، ولــم يــزد هــؤلاء ردهــم، ولا نقــص أولئك قبولهم"[2].

ومنهم من تولّى المناصب علــى إكــره كــأبي يعقــوب يوســف بــن علــي المؤذن تــ557هــ/1162م " أكره علــى ولايــة الحســبة ببلــد داي، فــدخل علــى أهله باكيا يقول: " لو أراد الله بي خيراً ما عرفني أحــد، فــامتنع عــن أكــل اللحــم من الســوق إلى أن أعفي من تلك الولايــة"[3].

وبعث قاضي الجماعة بمراكش أبو يوســف حجــاج بــن يوســف التجيبــي إلى الصوفي عبد العزيز الباغــاني مــن أغمــات وريكــة "ليُجبــره علــى قضــاء أغمات، فقدِم مراكش واستعفاه فلم يُعفه منها، فقال لــه: والله لــو نُشــرت بالمنشــار من قرني إلى قدمي ما قبلت هذه الولايــة"[4]، وأرســل نفــس القاضــي إلـــى الفقيــه أبي عبد الملك مروان بــن عبــد الملــك اللمتــوني ليوليــه علــى خطــة الحســبة بمراكش فرفــض ثم انقطع للعبادة في كهف حتــى وفاتــه ســنة 517هــــ/176م[5]، ونفس موقف الرفض نجدهُ عــن أبــي عبــد الله محمــد بــن أحمــد بــن المجاهــد

---

1 – ابن عبد الملك، المصدر الســابــق، ج:8، ص: 266.

2 – المراكشي، المصدر الســابــق، ص: 410.

3 – ابن الزيات، المصدر الســابــق، ص: 168.

4 – نفسه، ص:205.

5 – ابــن الزيــات، المصــدر الســابـــق، ص:238. وابــن القاضـــي الجــذوة، ص:334. وابــن ابــراهيم، المصدر الســابــق، ج:7، ص: 248.

الأنصاري[1]، ووُجد من قَبِلَ بها احتساباً اي بدون مقابل[2]، تورعا عن استلام أموال السلطة.

ومن الظواهر المتكررة في كتب المناقب وقوف المتصوفة في وجه ظلم الحكام، فأصبح النَّاس يشتكون إلى الصلحاء ظلم السلطة للتشفُّع بحرمتهم والاحتماء بهم لاحترام السلطة لهم وكان الاحتجاج على ظلم رجال السلطة يعطيه صبغة احتجاج ديني قوي التأثير.

فقد أرسل عبد المؤمن خلال حملات الاعتراف التي تمت سنة 544هـ/1149م جيشًا لقتل معارضي السلطة في سجلماسة بجريدة تحصر أسماءهم، لكنَّهم شكوا حالهم إلى أحد عبَّاد المدينة وهو ابن بوغلات فلم يتأخر عن التدخل "فبسط يده ودعا لهم فأجاب الله دعاءه وأنزل الله على قائد الجيش الموحدي دُبابة ضربته في عنقه فمات وافترق الناس"[3]، وتدخل أبو شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي ت561هـ/1166م شيخ أزمور مرارا للإفراج عن المعتقلين الذين كان والي المدينة يريد قتلهم فاستجاب الوالي لشفاعته[4].

وكان الناس يشكون جور عمالهم إلى أبي إبراهيم إسماعيل بن وجمان الرجراجي تـ 595هـ/1199م[5] فكان يقوم بانتقاد العمال يوم الجمعة بعد انقضاء الصلاة يضمنها كلاماً محرجا للسلطة بحضور ممثليها، وكان يتعرَّض من أجل ذلك إلى السجن، وقد تعرض مرة للسجن مدة ثلاثة أيام بقرية أجوز برجراجة، واستغلّ وجوده بالسجن ليعظ المسجونين فتابوا على يده[6]، وتكلم

---

1 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:5، ص: 667.

2 – ابن الزبير، المصدر السابق، ج:3، ص: 228.

3 – البيذق، أخبار المهدي، ص: ص:104.

4 – التادلي، المصدر السابق، ص: 187.

5 – نفسه، ص: 354.

6 – نفسه، ص: 355 .

مرة " في حق العامل بكلام خاف منه الناس على أنفسهم، فخرجوا من السجن كلهم وخرج العامل من المسجد"[1]، ثم أودعه السجن وكتب فيه إلى مراكش، ولكن كرامة حصلت له جعلت العامل يتغافل عن أمره " ولم يتعرض له بشيء بعد ذلك"[2].

وشكّل الجور في تحصيل الضرائب أحد أسباب الشكوى إلى الصلحاء فقد أخذ العامل إسحاق بن يعيش دواب جماعة فشكوا إلى أبي الأمان بن مشو الرفروفي تـ 615هـ/1218م من أهل تاجنيت بتادلا فكتب إليه بالشفاعة فيهم فلم يعمل بها فدعا عليه[3].

ومن زهّاد سبتة أبو الحسين بن الصائغ كان مصمما في الحق لا تجري لأحد مظلمة إلا كشفها، ومن جرأته دفاعه عن أهل سبتة لما جمعهم واليها أبو العلاء إدريس في يوم حار وجعلهم ينتظرون لساعات طويلة فانبرى أبو الحسن الصائغ للوالي وخاطبه بقوله: " انصب صراطك وضع موازينك وهو يعرض بكلامه بأنَّه تألَّه على الناس[4]، وكان يرفض طرق أبواب السلطان للشفاعة، ومثله الصوفي أبو علي عمر بن النجار الفاسي تـ620هـ/1223م كان "قامعاً لأهل الشر مقداماً على الملوك والسلاطين غير مبالٍ بأحد في الحق، يُؤثر عنه في ذلك أخباراً وكرامات"[5].

ويبدو أنَّ تحفُّظ المتصوفة قبل أن يكون رد فعل على مواقف السلطة الموحدية هو مجرد سلوك زهدي يُجسد حقيقة الورع والابتعاد عن الدنيا والشبهات فيما يتعلق بالسلطة، فمُستندهم كان فقهيا بالأساس، فطُبعت مواقفهم

---

1 – نفسه، ص: 355-356.

2 – نفسه.

3 – التادلي، المصدر السابق، ص: 442. والصدفي، السر المصون، ص: 52 و53.

4 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج: 8، ص: 415.

5 – ابن الزبير، المصدر السابق، ج:4، ص: 79.

من رجال السلطة بالانقباض والفرار عن الاتصال بهم لاعتقادهم أن لقاء السلطان يُفقد المواهب والأحوال[1].

ويُمكن تفسير مواقف الخلفاء على أوجه مختلفة، إما لامتصاص شعبيتهم ومن ثَمَّ امتصاص حماس مريديهم، أوالتعرُّف على حالهم ومن ثَمَّ احتوائهم، أو التقرب منهم رجاء نيل بركتهم والتماس الدعاء منهم.

كان من الطبيعي جداً أن تقف السلطة الموحدية في وجه التيار الصوفي المتسنن منه والمتفلسف، لأنه تحوَّل بمشروعه من القول بـ " الولاية الصوفية " إلى إعلان " الإمامة السياسية" هذه الإمامة التي استهدفت نظام الحكم وسعت إلى اقتلاعه[2] .

بالإضافة إلى ذلك يُمكن تفسير مواقف السلطة بالتخوف من منافسةٍ رمزيةٍ أصبح يقوم بها المتصوفة أتجاه السلطة بسبب تنامي قوتهم الرمزية وتزايد سلطتهم الاجتماعية بشكل هدَّد السلطة السياسية الموحدية.

وتخوُّف الموحدين من التفاف الناس حول الزعامات الروحية له ما يُبرِّرُهُ لأن الدولة الموحدية ذاتها قامت على يد فقيه أعزل، ولا يُستبعد أنهم كانوا يرون في كل شيخٍ صوفيٍ مشروع مهدي جديد[3]، فتجربة ابن تومرت في هذا الباب مرجع للتخوف واليقظة، ومبعث إضافي لاتخاذ المزيد من الحيطة والحذر[4]، كما لايُستبعد أن يكون هدف السلطة قطع الطريق أمام أية

1 – كان هذا الاعتقاد سائدا بين الصوفية قبل العصر الموحدي، فقد ذُكر أن المتصوف أبو محمد بن يلارزج الهسكوري الأسود كانت له أحوال فقدها من يوم اجتمع بالأمير علي بن يوسف المرابطي رغم صلاح الأمير ومحبته لأهل الخير. أنظر: التادلي، المصدر السابق، ص: 152.

2 – جمال علال البختي، المرجع السابق، ص: 54 .

3 – محمد المغراوي، الصلحاء والسلطة، ص: 420.

4 – محمد رابطة الدين، المرجع السابق، ص : 71 .

مساندة أو تعاطف مع الحركات المناوئة ما دام البعض منها قد ظهر بغطاء المهدوية وتسامت أخرى بمعتقدات وخوارق انتزعت احترام العامة[1] .

وتجسَّد تخوُّف السلطة الموحدية فِعلاً من خلال نماذج لصوفية أبدت مقاطعتها المبدئية للحكم بل ولجأت إلى التطرف وإعلان خروجها عن السلطة الموحدية كما هو الشأن بالنسبة للجزيري على عهد يعقوب المنصور[2]، وابن الفرس على عهد الناصر[3] .

وانطلاقاً من تلك التخوُّفات نكَّل الموحدون بابن هود الثائر سنة 541هـ/ 1146م[4]، وأبي مدين الغوث بعد ما وُشي به بعض الخصوم فقالوا للمنصور " يا أمير المؤمنين إنَّ هذا الرجل نخاف منه على دولتكم فإن له شبهاً بالمهدي، وله أتباعاً كثيرون وأصحابه في كل بلد، فوقع ذلك في قلب الخليفة يعقوب المنصور، وأهمّه شأنه فبعث إليه في القدوم عليه ليختبر أمره..."[5]، كما أمر المنصور بإسكات متصوف بجاية أبو علي المسيلي و" طلب منه أن يشتغل بشأنه ويقتصر على خاصة أمره"[6]، وعموما سار عبد المؤمن وبنوه

---

1 – نفسه، ص : 71 .

2 – ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج: 1، ص: 233. والصفدي، الوافي في الوفيات، ج :3، ص: 351. والمقري، نفح الطيب، ج: 4 ص: 65 و 66. وابن عذارى، البيان المغرب (قسم الموحدين)، ج: 3، ص: 208 .

3 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج:2، ص: 25. وابن الخطيب ، الإحاطة ، ج: 3، ص: 473 .

4 – تولى قتله الشيخ أبو حفص رئيس الجيش الموحدي فلقبه الموحدون سيف الله تشبيها له بخالد بن الوليد رضي الله عنه، أنظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج:6، ص: 216، والسلاوي، المثدر السابق، ج:2، ص: 111.

5 – عبيد بوداود، **قراءة في العلاقة بين صوفية وفقهاء المغرب الأوسط ما بين القرنين 9 و10هـ / 13 و15م**، مجلة عصور الجديدة، مجلة فصلية يصدرها مختبر تاريخ الجزائر بجامعة وهران، العدد: 01، 2011م، ص: 57 و58، نقلا عن: ابن صعد التلمساني، النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب، مخطوط في الخزانة العامة بالرباط.

6 – الغبريني، المثدر السابق، ص:35 .

على نظام التنقيب على أصحاب الحال والكشف عن بواطنهم مخافة ثورتهم وخروجهم عليهم"[1].

وفي المرحلة التي واكبت قيام الدولة الموحدية عرف الغرب الإسلامي انفجار ظاهرة الولاية، وتكاثرت الربط التعبدية في مختلف مناطق المغرب، وخلال هذه المرحلة يُلاحِظ المؤرخون ظهور نوع من التنظيم التلقائي، من شأنه أن يزيد في قلق وتخوفات السلطة[2].

فقد أصبح التصوف خلال العصر الموحدي قوة جذب اجتماعية مؤثرة، وحصل أقطابه وشيوخه على مصداقية روحية وأخلاقية وحضور اجتماعي فعَّال، وكان انخراط ممثليه من شيوخ وصلحاء في الحركية المجتمعية مثار قلق بالنسبة للسلطة السياسية، وذلك راجع لطبيعة تحركهم في صلب المجتمع التي تميزت بقوة ارتباطاهم بالفئات الاجتماعية[3]، وقدرة المتصوفة على الاستقلال عن السلطة السياسية، وبالتالي القدرة علي مواجهتها انطلاقا من قدرتها على تحريك المجتمع.

وأكَّد الباحث المتخصص عبد العزيز بنعبد الله في "معلمة التصوف المغربي أنَّ مقاومة ملوك المغرب لأدعياء التصوف لم تُميِّز بين الصوفية السلفية (السنَّة) وغيرهم من الدجاجلة والملبسين وذلك لسببين: أولهما صعوبة التمييز بين المخلص النزيه والمدلّس الدعي، وثانيهما تضخم نفوذ الصوفية والتفاف الجماهير حولهم وخوف بعض الملوك من مناورات تؤدي إلى قلب الحكم[4].

---

1 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج: 1، ص: 250.

2 – لحمنات عبد الجليل، المرجع السابق، ص: 236.

3 – أشار الدكتور الطاهر بونابي إلى أنَّ متصوفة القرنين 6و7هـ / 12و13م اتَّسموا بالإيجابية في النشاط الاجتماعي والثقافي والسياسي، الطاهر بونابي، المرجع السابق، ص : 11 .

4–عبد العزيز بنعبد الله، **معلمة التصوف الإسلامي**،الطبعة 01، دار المعرفة، الرباط،2001م،ج01، ص: 79.

واستدلَّ الباحث على رأيه باقتصار تلك الامتحانات والمتابعات على الصوفية الخارجين عن حدود المغرب الأقصى (مركز الخلافة)، ويرى الباحث أنَّ هذا يحمل دليلاً على حُسن نية الأمراء الذين لم يكونوا يمتحنون إلاَّ من لم يكونون على بيِّنةٍ من حاله[1] .

فالسلطة الموحدية الفتية كانت حريصة على معرفة وضبط دقائق وجزئيات المجتمع الذي تدير شؤونه، والمخاوف على مقاليد السلطة كانت حاضرة في حساباتها واعتباراتها باستمرار، بما في ذلك تلك المخاوف التي كان مصدرها أشخاصاً لهم وزن واعتبار خاص عند السكان، ويبدو أن المخاوف من هذه العناصر بالذات تجاوزت عدم الاطمئنان إليها إلى انعدام الثقة فيها، بل واتخاذ ردود فعل ضدها وصلت أحيانا إلى إصدار أوامر رسمية باتخاذ إجراءات زجرية قاسية في حق من يُبدي أدنى معارضة لها، وهو مانستشفُّهُ من ترجمة ابن عبد الملك للمتصوف أبي موسى الكزولي بقوله : " كبير النحاة ... وافر الحظ في الفقه بارعا في أصوله ... مع الورع و الزهد والصلاح والانقباض عن مخالطة الناس ومداخلة أبناء الدنيا ... ولما شاع ذكر أبا موسي واشتهر أمره وعرف قدره، تكاثر طلبة العلم عليه وانثالوا من كل حدب إليه، حتى ضاق عنهم ذلك المسجد الذي كان يدرس فيه، فانتقل إلي مسجد ابن الأبكم الأكثر اتساعا، وقد أثارت الشهرة الكبيرة التي لحقت بهذا الشيخ ريبة الخليفة، إذ لما نمي إلي المنصور من بني عبد المؤمن خبره، وقر عنده ما هو عليه من الدين والزهد والورع والتقشف والإعراض عن الدنيا والانقطاع إلي نشر العلم، والبعد عن التعرض لأهل الجاه من الأمراء والولاة – وكان دأب عبد المؤمن و بنيه التنقير عمن هذه حاله والكشف عن باطن أمره متخوفين ثورته و خروجه عليهم – فأمر كبير

1 – نفسه، ج:1، ص: 80 .

وزرائه ... ونقيب طلبة العلم بالتوجه إليه وإحضاره بين يديه وأوعز إلى وزيره أنه إذا وافقه على الوصول معه استصحبه مكرما مبرورا، و إن بدا منه تلكؤ ضرب عنقه في مجلسه وجاء برأسه "[1] .

إلاّ أنّ هذه الإشارات مع وجاهتها، فهي لا تعْدُو أن تكونَ تعبيرًا عن موقف أحادي الجانب، يعكس تصور السلطة لتنامي نفوذ رجال التصوف خلال القرن السادس الهجري، وبما أن مصدر ذلك النفوذ هو السلوك الديني، فمن الجائز الافتراض بأنّ تخوف السلطة ناتج عن المزاحمة التي أصبح يُشكلها الصوفية[2] ولو بدون نية سياسية مسبقة في مجال كان يعتبره حقلا لسيادته.

وانتهجت الدويلات المرينية والزيانية والحفصية أسلوب التعايش المَصلحي مع المتصوفة[3]، فهذه الدويلات ورثت عن العصر الموحدي تيارا صوفيا فرض نفسه بقوة، حتى أنّ علاقتهم بهذه الكيانات وصل إلى درجة المقاطعة ومخاطبتهم بأسلوب هو أقرب إلى الجفاء، وقد تقبّلهُ السلاطين بدون رد[4]، ولعل تفسير ذلك هو رغبة هذه الدويلات في تأكيد سلطتها وشرعيَّة استحقاقها للحكم[5].

اتضح – مما سبق– أن العلاقة بين السلطة الموحدية والمتصوفة اتسمت بالتجاذب والتحفظ الهادئ، وطبعها عموماً السلم والتعامل الحذر، ولم تتبنّ السلطة موقفا رسميا حاسماً في شأنهم كما أنّها لم تلتزم نمطاً سياسياً واحداً في التعامل معهم.

---

1 – ابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:8، ص: 250 .

2 – لحمنات عبد الجليل، المرجع السابق، ص: 236.

3 – أنظر: محمد فتحة، النوازل الفقهية والمجتمع، ص : 179 – 194 و 199 – 202 .

4 – نفسه، ص : 178 .

5 – نفسه.

ورغم حرص الطرفين على عدم الاصطدام إلاَّ أنَّ تنامي التيار في شكله الجماعي وتغلغله الاجتماعي شكَّل سلطة رمزية أزعجت السلطة الموحدية وخلقت لديها هواجس أمنية جعلتها تتبنَّى أساليب المتابعة والمطاردة والتضييق إزاء التيار الصوفي دون تمييزٍ بين الباطني منه والسُنِّي.

➢ الفصـــــل الثاني :

➢ تطــور التصوف الباطني في الغــرب الإســلامي خــلال العصــر الموحــدي (6هـــ – 8 هــ/ 12م – 14م) :

➢ **المبحث الأول :** انتشــــار التصـــــوف البــاطني فـــــي الغـــــرب الإســـلامي خـــلال العصـــر المـــوحـــدي.

➢ المطلـــب الأول: مظاهـــــر انتـــعـــــــاش التصـــــوف الباطنـــــي فـــي الغـــــرب الإســـلامـــي خـــلال العـــصـــر الـــمـــوحـــدي.

➢ المطلب الثاني: أسبـــاب ظهـــور التصـــوف الباطنـــي.

➢ **المبحث الثاني :** مـــواقف الفقهـــاء من التصـــوف فـــي الغــــرب الإســـــلامي خـــلال العـــصـــر المـــوحـــدي.

➢ المطلب الأول: مـــواقف التعايـــش مـــع التـــيار الصـــوفي الســـني.

➢ المطلب الثاني: مواقـــف التـــوتـــر مع تيار التصـــوف الباطـــنـــي.

الفصــل الثــاني :

تــطــور التصوف الباطني في الغــرب الإسلامي خلال العصــر المــوحــدي (6هـــ – 8 هــ/ 12م – 14م).

خــرج التصوف من مفهومــــه الزهــدي المحــــض ليشــمل – كمــا يقــول ابن خلدون في مقدمتــه – أربع مقومـــات هــي: المجاهــدات، والتجليــات الغيبيــة، والكرامات، والشطحات[1].

المبحــث الأول : انتشـــــار التصــــوف البــاطني فـــي الغــرب الإســلامي خـــلال العصر الموحـــدي.

المطلــب الأول: مظاهــر انتعــاش التصــوف البــاطني.

يُمكن أن نعتبر القرن 7هــ/13م الحد الفاصل بــين التصــوف النقــي الخــالي مـــن الشـــعوذة والخرافـــات، والتصـــوف الإشـــراقي الغنوصـــي فـــي المغـــرب الإسلامي[2]، أما الأندلس فقد عــرف التصـــوف الفلســفي منـــذ القــرن 4هـــــ/10م، حيث شكلت المدرسة المسرية[3] البداية الفعليــة للتصـــوف الفلســفي فــي الأنــدلس[4]، ومنها انتقل إلى المغرب الإسلامي خلال القرن 6هـــ/ 12م بعــد هجــرة صــوفية الأندلس إلى مختلف مناطق المغرب الإســلامي إثــر التقلبــات السياســية والثقافيــة التي شهدتها الأندلس خلال هذه الفترة (القرنين 6و7هــ/ 12و13م)[5] .

1 – ابن خلدون، المقدمة، ص: 622 و623.

2 – أنظــر: الطاهر بونابي، التصوف فــي المغــرب الأوســط، ص: 11، والعــدلوني، التصــوف الفلســفي، ص: 15 و16.

3 – تميز فكرها بنزوعه نحو التلفيق الذي يجمع الزهــد الـــى آراء ونظريـــات فلســفية ذات أصـــول غنوصـــية وإشراقية وأفلاطونية محدثة، ثم تبنت بعض آراء الشيعة في الإمامـــة وظهــرت علـــى بعــض أعلامهـــا أفكـــار فلسفية مختلفة. أنظر: العدلوني، ابن مسرة ومدرسته، ص: 69 – 74.

4 – محمد العدلوني، المرجع السابق، مـــرجع سابق، ص:99.

5 – الطاهر بونابي، المرجع السابق، ص : 11 .

لقد تميَّــز التصــوف الأندلســي عــن نظيــره المغربــي بوجــود تجمعــات صوفية ذات هياكل تنظيمية أقرب إلى الطوائــف، وإن لــم تحمــل اســم الطائفــة[1]، ولعل أبلغ تعبير عن هذه الخصوصية هو ثــورة المريــدين التــي تزعمتهــا حركــة صوفية على قدر جيّدٍ من التنظيم والهيكلة، والتي خاضــت تجربــة سياســية فاشــلة عام سنة539هـ/1145م[2].

واتَّضحت هذه الخصوصية أكثــر خــلال القــرن 7هــ/13م الــذي شــهد توالد وتكاثر الطوائف الصــوفية، مــن أشــهرها الطائفــة "الســبعينية" نِسـبة إلــى أبي محمد عبد الحق بن سبعين[3]، تميّز أتباعــه بملابــس وهيئــات خاصــة، وكــان الكثير من مريديه وأتباعــه يقومــون بخدمتــه ويحيطــون بــه أثنــاء ســيره فــي الطرق، ووضع لهم أوراداً ورسائل، وأسَّس لهــم زاويــة تحتضــن لقــاءاتهم، ممــا أثار سخط الفقهاء عليه وسعوا إلى إخراجه من سبتة[4].

وتــُـنسب إلــى الصــوفي المتفلســف أبــي العبــاس بــن العريــف طائفــة ألمرية[5]، وقد قلَّ الحديث عنها في بدايــة العصــر الموحــدي كنتيجــة مــن نتــائج

---

1 – المغراوي، الصلحاء والسلطة، ص: 335.

2 – ابن الأبار، الحلة السيراء، ج:2، ص: 198.

3 – عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن سبعين بن نصر بن فتح بن ســبعين التعتكــي الغــافقي المرســي، ولــد سنة 624هـ/ 1226م، وتوفي بمكة ســنة 667هـــ/ 1268م، كــان تصــوفه كمــا يقــول الــذهبي: " كــان صوفيا على قاعدة زهد الفلاسفة وتصوفهم، وله كلام كثيــر فــي العرفــان علــى طريــق الاتحــاد والزندقــة" : لقد تحجر ابن آمنة واسعاً بقوله لا نبي بعدي، وذكر ابن دقيق العيد أنه جلــس معــه مــن ضــحوة إلــى قريــب الظهر وهو يسرد كلاما يعقل مفرداته ولا يعقل مركباته كــذا حكــاه الــذهبي. أنظــر ترجمتــه: اليــافعي، ذيــل مرآة الزمــان، ج:2، ص:460، وابــن تغــرى بــردى، النجــوم الزاهــرة، ج:2، ص: 196، وابــن العمــاد، شــذرات الــذهب، ج:5، ص: 329 . والــذهبي، تــاريخ الإســلام، ج:49، ص: 284، وابــن قنفــد، فــوات الوفيات، ج:2، ص: 254.

4 – أنظر عنها: البادسي، المقصــد الأســنى، ص: 69. واليــافعي، ذيــل مــرآة الزمــان، ج:2 ، ص: 460. وابن تغرى بردى، النجــوم الزاهــرة ،ج:2، ص: 196. وابــن العمــاد، شــذرات الــذهب، ج:5، ص: 329، والذهبي، تاريخ الإسلام، ج:49، ص: 284.

5 – المغراوي، السلطة والصلحاء، ص: 336.

فشل ثورة المريدين إلى حد أن الشيخ الذي تولى زعامتها بعد ذلك وهو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن الغزال لا نجد له ترجمة في كتب التراجم التاريخية أو المناقب الصوفية سوى إشارات قليلة رغم أن محي الدين بن العربي اعتبره من طبقة كبار الصوفية في وقته[1]، وبعد وفاة أبي عبد الله الغزال تولّى مشيخة طائفة ألمرية تلميذه أبوإسحاق البلفيقي ت616هـ/ 1219م[2] الذي أعاد بناء طائفة ألمرية واسترجعت به الطائفة سُمعتها.

ولعل أشهر من مثّل التصوف الغنوصي "الطائفة الشوذية" التي تُعتبر امتدادًا لمدرسة ابن مسرة في مزج الفلسفة بالتصوف والقول بوحدة الوجود[3].

وتُنسب "الطائفة الشوذية" إلى عبد الله الشوذي الإشبيلي المعروف بالحلوي[4] المتوفى في أوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، كان قاضيًا بإشبيلية في أواخر عهد الموحدين، ثم ترك القضاء وانتقل إلى مدينة تلمسان وتفرَّغ للتصوف حتى توفي بها، وقد اعتبرته بعض المصادر مبتدعًا بسبب ما كان يصدر عنه من آراء تُمثل مذهبه الخاص في التصوف الفلسفي

---

1 – ابن عربي، الوصايا، ص: 285. ومحمود الغراب، شرح رسالة روح القدس، ص: 99.

2 – إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن خلف ينتهي إلى العباس بن مرداس السلمي، الإمام المحدث أبو إسحاق ابن الشيخ أبي عبد الله البلفيقي (بالباء الموحدة واللام المشددة والفاء والياء آخر الحروف والقاف) نسبةً إلى حصن عند المرية، ويُعرف بابن الحاج نزيل دمشق، ولد بالمرية سنة 616هـ/ 1219م وتوفي سنة 661هـ/ 1262م وكان محدثا فاضلا عارفا مفيدا. أنظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج:6، ص: 88. والنباهي، المرقبة العليا، ج:1، ص:164.

3 – عن أفكارها أنظر: ابن الخطيب، روضة التعريف، ص: 602 – 606. ومحمد العدلوني، التصوف الأندلسي، ص: 210 – 214.

4 – ابن الزبير، المصدر السابق، ج:4، ص: 145. ابن مريم التلمساني، المصدر السابق، ص: 68 – 70 .

لكنه لم يترك تراثاً يُعتمد في توضيح مذهبه، وأُعتبر مذهبه من أكثر المذاهب انحرافا فصُنِّفت المؤلّفات في الرد عليه[1].

من أشهر تلاميذه ابن المرأة محمد بن دهاق الأوسي تـ611هـ/1214م من أهل مالقة وسكن مرسية، كان يتحدث في مجالسه بأخبار الصوفية ومناقبهم، فقيهاً حافظاً للرأي مشاوراً يُشارك في الأدب، غلب عليه علم الكلام وألف فيه شرحا لكتاب الإرشاد لأبي المعالي الجويني، وشرحاً للأسماء الحسنى، وألف في الفقه جزءاً في مسائل الإجماع، وفي التصوف شرحاً لكتاب محاسن المجالس لابن العريف[2]، وهذه المؤلّفات كلُّها في حكم الضياع.

وممَّن حمل الأفكار الشوذية أيضا ابن سبعين عبد الحق بن براهيم بن محمد المرسي 614-669هـ/1217م-1270م، من فلاسفة الصوفية صاحب مذهب الوحدة المطلقة، له مجموعة من الكتب منها "بُد العَارف وعقيدة المُحَقق المقرب الكاشف وَطَريق السالك المتبتل العاكف" الذي انتقده الفقهاء[3]، أخذ مبادئ هذه المدرسة عن شيخها ابن أحلى وعكف على دراسة كتب ابن المرأة ويكمن اعتبار كتب ابن سبعين أساسية لدراسة جانب من تراث المدرسة الشوذية.

ونذكر من أقطاب هذه المدرسة علي بن محمد بن مطرف الجذامي الضرير تـ663هـ/1265م من أهل لورقة، لازم شيخه محمد بن علي

---

1 - المغراوي محمد، الصلحاء والسلطة، ص: 339.

2 - أنظر: ابن الأبار، التكملة، ج:1، ص: 164. وابن الخطيب، الإحاطة، ج:1، ص:325. والصفدي، المصدر السابق، ج:6، ص:171. وابن فرحون، المصدر السابق، ج:1، ص: 273. وابن القاضي، جذوة الإقتباس، ج:1، ص: 88. ومحمد مخلوف، المرجع السابق، ج:1، ص:183. وابن إبراهيم، المصدر السابق، ج:1، ص:153.

3 - البغدادي، هدية العارفين، ج:1 ، ص: 503.

بن أحلى تــ645هــ/1247م[1] وأخذ عنــه مذهبــه فــي التصــوف الفلســفي وبــرع فيه، ودرسه ودعا إليه في حياة شيخه ثم رأس فيه، وكــان يجلــس بالجــامع الكبيــر من لورقة للتفسير، ويُقرئ المذهب بداره ثم انتقــل إلــى مرســية وفسَّــر بجامعهــا وخطب به إلى وفاته[2].

كما أدى وجود الصوفيَيْــن أبي محمد عبــد الحــق المعــروف بــابن ســبعين تــ669هــ/1270م وتلميذه أبــي الحســن الشــشــتري تــــ 668هـــ/1269م فــي بجاية عام 624هــ/1227م[3] إلى انتشار مؤلفاتهمــا وأشــعارهما وتواشــيحهما فــي الوحدة المطلقة بين نخبــة مــن طلبــة بجايــة[4]، ناهيــك عــن تدريســهما للرســالة القشيرية وإحياء علوم الدين علنــاً فــي مجــالس درســهم دون مضــايقة أو متابعــة أوضغط[5] .

وكان لكتاب "إحياء علوم الدين" بعد رفــع الحظــر عنــه دورٌ فــي انتعــاش التصوف الفلسفي والمساهمة في انتشاره، فقد أصــبح للإحيــاء شــروحه ودروســه وشيوخه وأتباعــه والمتعصــبين لــه، إذْ قــام الموحــدون بســلوك طريــق مُغــاير لطريق المرابطين في التعامل مــع الإحيــاء، وحتــى يتحقــق لهــم جمــع الســلطة الدينية والسلطة الدنيوية في يد سلطة رجــل الدولــة بــدل تركهــا موزعــة أعطــوا للإحياء الكثير من الاعتبار[6]، وعمدوا إلى مراعاته ولــو شــكلياً ودعائيــاً لإســكات الصوفية من جهة، وتأكيدًا لتتلمذ زعيمهم محمــد بــن تــومرت علــى يــد الغزالــي

---

1 – محمد بن علي بن أحلى تــ645هـــ/1247م مــن علمــاء الكــلام، تأمــَّر فــي "الورقــة" منــتقلا مــن الدراسة إلى الرياسة، ولما احتل الروم مرسية سنة 640 هـــ/1242م قــاومهم ابــن أحلــى، فقصــدوه بالشــر، فسالمهم، له تآليفه، وتوفي في مقر إمارته. أنظر: الزركلي، المرجع السابق، ج:6، ص: 282.

2 – ابن الزبير، المصدر الســابــق، ج:4، ص: 145.

3 – الغبريني، المصدر الســابــق، ص: 209 .

4 – الطاهر بونابي، المرجع السابق، ص: 82 .

5 – التادلي، المصدر الســابــق، ص: 158. والغبريني، المصدر السابق، ص: 56-58-61-321.

6 – جمال علال البختي، المرجع السابق، ص: 61 .

وإضفاء اللمسة الغزالية على الحركـة الموحديـة[1]، وأثنـاء العصـر الموحـدي لـم يعد المغاربة يدعون إلى إحـراق "الإحيـاء" بـل تحـوّل لسـان حـالهم ليقـول : "بـِع اللحيا لتشتري الإحيا"[2].

بعد عـرض هذه النمـاذج التـي مثلـت التصـوف الفلسـفي خـلال العصـر الموحدي، نحاول الآن إجمال خصائصه ومن أبرزها:

1- استخدام الصـوفية المتفلسـفة الرمـز فـي التعبيـر عـن آرائهـم المذهبيـة الصوفية وذلك لإخفاء أذواقهم باستخدام ألفـاظ اصـطلاحية خاصـة بهـم مسـتبهمة عن الأجانب حتى لا تشيع أسـرارهم فـي غيـر أهلهـا، ولهـذا كانـت لعبـاراتهم في أغلب الأحيان معنيان علـى الأقـل، معنـى ظـاهر يوافـق منطـوق الشـرع والآخر باطن رمـزي على اعتبار أن "الرمز باطن مخـزون تحـت كـلام ظـاهر لا يظفر به إلا أهله..."[3]، ومن أهم أسـباب التجـاء الصـوفية المتفلسـفين خاصـة إلى هـذا الأسلوب، هو اتقاء نقد فقهاء العصـر لاسـيما أهـل الظـاهر أو " اتقـاء حاسد أو جاحد لمعانيه أو مبانيه "[4].

ومن الأمثلة على ذلك، قـول محي الدين بن عربي الطائـي:

يا من يراني ولا أراه * كم ذا أراه ولا يراني[5].

---

1 - يقول ابن القطان : " وقد كان إحراق هؤلاء الجهلة (يقصد المرابطين) لهـذا الكتـاب العظـيم، الـذي مـا ألف مثله سببا لزوال ملكهم وانتشار سلكهم واستئصال شأفتهم علـى يـد هـذا الأميـر العزيـز القـائم بـالحق المظهر بالسنة المحيي للعلم نظر الله تعالى لواءه وكبت أعداءه". ابن القطان، نظم الجمان، ص: 72 .

2 - علي الإدريسي، الأشعرية والإستقرار المذهبي بـالمغرب، ضـمن : **المـذاهب الإسـلامية بـبلاد المغـرب من التعدد إلى الوحدة**، تنسيق حـافظ علـوي، منشـورات كليـة الآداب والعلـوم الإنسـانية، سلسـلة نـدوات ومناظرات رقم: 147، جامعة محمد الخامس أكدال، ص: 133 .

3 - السراج الطوسي، اللمع في التصوف، مصـدر سـابق، ص:338. وأنظـر أيضـاً: العـدلوني، التصـوف الأندلسي، ص: 124.

4 - أبو العباس محمد رزوق، **قواعد التصوف**، الطبعة 01، بيروت، دار القاعدة، 1996م، ص: 147.

5 - ابن عربي، **الفتوحات المكية**، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ت.ط، ج:2، ص: 491.

فكان من الطبيعيّ أن يقوم الاعتراض عليه لِما أثاره هذا البيت في ظاهره من معاني عند العامة والخاصة، حتى أن أحد أصدقاء "ابن عربي" احتج عليه قائلا: كيف تقول أن لا يراك وأنت تعلم أنه يراك؟ فأنشد ابن عربي مُظهراً لما أبطنه:

يا من يراني مجرما * ولا أراه آخذا

كم ذا أراه منعما * ولا يراني لائدا[1]

2- عدم التزام الصوفية المتفلسفين بالرمزية، فإذا رمزوا بشيء في موضع، عادوا فرمزوا به هو نفسه إلى شيء آخر، فابن عربي مثلا في "الفصوص" والفتوحات وغيرهما من كتبه يستعمل "آدم" رمزًا للنوع الانساني تارة ثم يستعمل نفس الرمز للتعبير عما تسميه الأديان "أب البشرية"[2]، كما أنه يرمز بمصطلح "الانسان الكامل" إلى جهات مختلفة من المقربين، فتارة يرمز إلى من تحقق فيه الجانب الإنساني الوجودي من الله، وتارة أخرى إلى من كان له صلة الوصل بين الله والعالم، وأخيرا إلى من كان عارفا[3].

3- إن أسلوب التصوف الفلسفي يقوم على كثير من المصطلحات الفلسفية والكلامية على سبيل الترادف أو المجاز، مع ألفاظ أخرى واردة في القرآن والحديث، حيث نجد مثلا ابن عربي وابن سبعين والششتري وغيرهم يُحمِّلون الاصطلاحات من المعاني ما يُخرجها عن أصلها، "فالخير" و"الجوهر" و"الإحاطة" و"الكل" و"الهوهو" و"المنسوب إليه" و"محي الرسم" و"ممد الذات" و "كمية السعادة" و"اكسير الذوات" و"مغناطيس

1 - نفسه. وأنظر: العدلوني، التصوف الأندلسي، ص: 125.

2 - نفسه.

3 - نفسه، ص: 125 و126.

النفوس"... وما إلى ذلك من الاصطلاحات التي يشيرون بها إلى "الله عز وجل" [1].

4- اهتمَّ التصوف الفلسفي في الغرب الموحدي بموضوعات اتَّسمت بسِماتٍ مخالفة لأسلوبه، وذلك لبساطة مبناها ووضوح معناها، وإنما التعبير عنها هو الذي جعل إدراكها غاية في التعقيد والصعوبة، ومن أهم وأبرز تلك الموضوعات والقضايا التي انصبَّ اهتمامهم حولها ذلك الإشكال النظري الذي شغل فكر الفلاسفة شرقا وغربا حول أشكال "العلاقة بين الله والعالم والانسان" وما ترتب عنه من القضايا الوجودية الكونية والمعرفية الإلهامية والقيمية الجمالية والأخلاقية[2].

غير أنَّ ما يُمكن ملاحظته بوضوح هو اعتمادهم بشكل أساسي على رسائل "إخوان الصفا"، التي كانت في هذا العهد أكبر الموسوعات الفلسفية الإسلامية التي اهتموا بها واستمدوا منها العون في بحث قضايا التصوف الفلسفي خاصة تلك القضايا العويصة المركبة المتعلقة بالوجود ومعرفته، المصطبغة بعقيدة وحدة الوجود[3].

5 – ومن خصائص التصوف الفلسفي في الغرب الموحدي التأويل المركب، فقد أجمع كل من تناول هذا التصوف، دارسًا أو ناقدًا أو محللاً على غرابة أسلوبه وغموض مصطلحاته وإبهام ألفاظه، حيث ذكر المقري في نفح الطيب أن الإمام عبد الله بن سعد اليافعي اليمني ت768هـ/1366م[4] في كتابه

---

1 – أنظر: أبو العلاء عفيفي، مقدمة **فصوص الحكم**، لابن عربي الحاتمي الطائي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ت.ط، ص: 18، والعدلوني، التصوف الأندلسي، ص: 125

2 – أنظر مثلا: سارة بن جلوي، **نظرية الإتصال عند الصوفية في ضوء الإسلام**، الطبعة 01، جدة، السعودية، دار المنارة، 1411هـ/ 1991م، ص: 77 وما بعدها.

3 – العدلوني، التصوف الأندلسي، ص: 125 و126.

4 – عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان بن فلاح اليافعي اليمني ثم المكّي، أبو محمد، العالم المؤرخ المتصوف، صاحب "مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان" وغير ذلك من المصنفات

الإرشاد يذكر "أن بعض العارفين كان يقــرأ عليــه كــلام الشــيخ ويشــرحه، فلمــا حضرته الوفاة نهى عن مطالعته وقال: إنكم لا تفهمون معاني كــلامه"[1].

وقد أشار كذلك المستشرق "رينولد ألــين نيكلســون" عنــد وصــفه لأســلوب ابن عربي خاصة فــي كتابــه "فصــوص الحكــم" الــذي لا يختلــف إجمــالا عــن أسلوبه في "الفتوحات المكية"[2] أو غيرهما من كتبه: "أنــه (كــان) يأخــذ نصــا مــن القرآن أو الحديث ويــؤوله بالطريقة التي نعرفهــا فــي كتابــات "فيلــون اليهــودي" و"أورجين الإسكندري" ونظرياته في هذا الكتاب صعبة الفهــم وأصــعب مــن ذلــك شرحها وتفسيرها، لأنها لغة اصطلاحا خاصة مجازية معقــدة فــي معظــم الأحيــان ...ويمثل الكتاب فــي جملتــه نوعــا خاصــا مــن التصــوف المدرســي العميــق الغامض"[3].

وأشار عدد من المستشرقين المهتمين بفكــر ابــن عربــي إلــى مــا يعتــري فكر الرجل من استغلاق لفهم محتوياته، ويُرجعـــون ذلــك إلــى أن القســم الأكبــر من مؤلفاته خيالي حافــل بــالغموض[4]، ممــا دفــع بعــض أتباعــه إلــى شــرحها وتبســيطها واختصــارها، وعلــى رأســهم الفيلســوف المتصــوف قطــب الــدين عبد الكريم بن ابــراهيم الجيلي تــ826هـ/1422م[5].

المختلفة. ولد فــي الــيمن ســنة (698هـــ/ 1298م) وتــوفي ســنة (768هـــ / 1366م). أنظــر ترجمتــه: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج:11 ص: 93. وابن العماد، شذرات الذهب، ج:1، ص: 65.

1 – المقري، نفح الطيب، ج: 2، ص: 183 في ترجمته لابن عربي.

2 – ولابن عربي نحو خمسمائة كتاب ورسالة من أهمهــا " الفتوحــات المكيــة " وهــي أشــهر موســوعة فــي معارف الصوفية. أنظر: أيمن حمدي، **قاموس المصطلحات الصــوفية**، دار قبــاء للنشــر والتوزيــع، القــاهرة، 2000م، ص: 107.

3 – نقل هذا الرأي : أبو العلاء عفيفي في مقدمة كتاب فصوص الحكم، ص: 12.

4 – أنظر كتاب: **تراث الإسلام**، تأليف جمهرة مــن المستشــرقين، بإشــراف: ســير تومــاس أرنولــد، عربــه وعلق عليه: جرجيس فتح الله، الطبعة 03، دار الطليعة، بيروت، 1978م، ص: 328.

5 – يوسف زيدان، **عبد الكريم الجيلي فيلسوف الصــوفية**، الطبعــة 01، الهيئــة المصــرية العامــة للكتــاب، مصر، 1408هـ/ 1988م، ص: 63 و64.

ويرى "أبو العلا عفيفي" مضيفاً إلى ما تقدم، أن أسلوب "ابن عربي" يقوم على طريقة خاصة في تأويل الآيات القرآنية والحيل اللفظية من أجل الوصول إلى المعاني التي يريد بسطها مما يعرِّض أسلوبه إلى الغموض وتأويله للنصوص الدينية إلى التعسف والشطط أحيانا[1]، ويُصبح هذا الأسلوب أشدّ غموضاً والخطاب الصوفي أكثر خصوصية، مع "ابن سبعين" بحيث لا يُدرك مراميه.

وقد حاول العديد من الصوفية ذوي الباع الطويل في علم التصوف أن يستكنهوا أغواره فلم يجنوا إلا القليل، وأكثرهم خرج صفر اليدين، فهذا قاضي القضاة: "تقي الدين بن دقيق العيد" يذكر أنه "جلس مع "ابن سبعين" من ضحوة إلى قريب الظهر، وابن سبعين يسرد كلاما ما تعقل مفرداته ولا تعقل مركباته"[2].

وأشار "المقري" بصدد الكلام على وثيقة مبايعة أهل مكة "للمستنصر بالله" صاحب إفريقية، وهي من إنشاء "ابن سبعين"، إلى أنَّ "فيها من البلاغة والتلاعب بأطراف الكلام ما لا مطمع وراءه"[3].

ويقول "ابن عباد الرندي" أحد أعلام الطريقة الشاذلية تـ792هـ/1389م، بعد أن عانى الكثير من أجل الظفر بشيء من قراءته لكتب ابن سبعين: " ومازال قلبي سبعين في منزل "ابن سبعين"، لا لإنكار عليه ولا لاعتقاد شيء مما نسبه أهل الجهل المركب عليه، ولكني رأيت كلامه كثيرا ما يذهب، وحينئذٍ لا يحصل له من شيء يشفي صدري، ولا يثلج به

---

1 - أبو العلاء عفيفي، مقدمة فصوص الحكم، ص: 18. والعدلوني، التصوف الأندلسي، ص: 122

2 - الغبريني، المصدر السابق، ص: 237.

3 - المقري، نفح الطيب، ج:2، ص: 202.

خاطري وسري"، يضيف كذلك في نفس السياق أنه : لو "قدر أن يقع بيدي (من كتبه) لكنت أتحلل من مطالعتها من غير أن أحرق مزاجي في ذلك"[1].

ويصف أبو العباس الغبريني ت 704هـ/1304 أسلوبه (ابن سبعين) من خلال ما شاع في بجاية من كتبه بأن له فيها ألغازًا وإشارات بحروف أباجد وله تسميات مخصوصات في كتبه وهي نوع من الرموز، وله تسميات ظاهرة هي كالأسامي المعهودة...[2].

في الواقع لم يستطع التصوف الفلسفي أو تصوف أهل الحقائق أن يؤثر كثيرا في التصوف المغربي، رغم مرور كبار أعلامه المشهورين بالمغرب الإسلامي، مثل محمد بن العربي الحاتمي[3]، وعبد الحق بن سبعين المرسي[4]، فلم يتركا أثرا كبير في التصوف المغربي رغم مصَّنفاتهما، ورغم أن ابن سبعين خلّف بعض أتباعه في سبتة كابنه الذي بقي على اتصالٍ به وألّف له بعض رسائله، فإن تياره سرعان ما استوعبته الحركة الصوفية السنية الغالبة على المغرب.

ويُمكن أن نربط المصير الذي لقيه التصوف الفلسفي بالمغرب بفشل الفلسفة وعدم تمكنها من غرس جذورها بالمجتمع المغربي لأسبابٍ سبق ذكرها، فأشهر صوفييْن بالمغرب مثلا الاتجاه الفلسفي هما : أبو الحسن علي المسفر السبتي الذي عاش منعزلاً عن الناس ونُسبت كتبه في حياته إلى الإمام الغزالي وخاصة كتابه المظنون به على غير أهله، ومعاصره أبو الحسن الحرالي المراكشي تـ637هـ/1239م، صاحب التآليف العديدة الذي هاجر

---

1 – العدلوني، التصوف الأندلسي، ص: 123 نقلا عن: ابن عباد الرندي، الرسائل الكبرى، فاس، 1320هـ/ 1902م، ص: 197.

2 – الغبريني، المصدر السابق، ص: 237 و238. والمقري، نفح الطيب، ج:2، ص: 204.

3 – دخل ابن عربي بجاية عن طريق المغرب الأقصى، أنظر: الغبريني، عنوان الدراية، ص: 157.

4 – ابن الخطيب، الإحاطة، ج:4، ص: 20.

إلى المشرق وسكن بالشام وتوفي بها[1]، و قال فــي شــأنه الــذهبي: " كــان شــيخنا ابن تيمية، وغيره يحطُّ على كلامه ويقــول: تصوفه على طريقة الفلاسفــة"[2].

المطلـــــب الثانـــــي: أسبــــاب انتعــــاش التصــــوف البــاطني فــي الغــرب الإسلامي خلال العصــر الموحــدي.

لم يكن ظهور التصـــوف الفلســفي بهــذه الحــدة والوضــوح فــي الغــرب الإسلامي خلال العصر الموحدي وليــد الصــدف، بــل نتيجــة لتراكمــات سياســية وفكرية سابقة، نذكر منها تلك الرحلات التي قــام بهــا زهَّــاد المغــرب والأنــدلس إلى المشرق من أجل لبس الخرق الصوفية والتــزاور، وإن كــان هــذا العامــل قــد عــُرف قبل العصر الموحدي إلاَّ أنَّ أن أثره اتَّـــضح خــلال القــرنين الهجــريين 6و7هــ/12و13م ومــا تلاهــا مــن قــرون إلــى أن انهــار الوجــود الاســلامي بالأنــدلس.

وكان كثـير من هــؤلاء الــذين ارتحلــوا إلــى المشــرق يســعون – فيمــا يسعون إليه – إلى لقاء الزهاد المشارقــة[3].

وهذه الهجرة من الظواهر التي تســتوقف الباحــث فــي تــاريخ التصــوف المغربي والأندلسي في العصر الموحدي، حيث هاجر عــدد كبيــر مــن الصــوفيين المغاربة إلى أقطار المشرق مثل الحجاز والشــام ومصــر، وقــد اســتقطبت مصــر أكثــرهم.

وقد أشارت كتــب التــراجم إلــى عــدد كبيــر مــن المثقفــين الأندلســيين والمغاربة ومن ضمنهم المتصوفة، الذين زاروا بــلاد المشــرق أو هــاجروا إليهــا،

---

1 – محمد المغراوي، التواصل الصوفي بين المغــرب والمشــرق إلــى حــدود القــرن 9 هـــ / 13م، **مجلــة دعوة الحق**، السنة : 52، العدد: 395، ربيع الثاني 1431هــ/إبريل 2010م ، ص : 84 .

2 – الذهبي، تاريخ الإسلام، ج:46، ص: 337.

3 – محمد بركات الميلي، **الزهاد والمتصوفة في بلاد المغــرب والأنــدلس حتــى القــرن الخــامس الهجــري**، الطبعة 01، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، 1996م، ص: 55.

ولازموا كبار المتصوفة بها، ثم عادوا حاملين معهم أفكارهم الإشراقية وآراءهم الغنوصية وأنظارهم الذوقية، منهم أبو جبل يعلى الفاسي ت503هـ/1109م الذي رحل إلى مصر ولقي الشيخ الصوفي أبا الفضل عبد الله بن حسن الجوهري ت480هـ/ 1087م وأخذ عنه طريقته[1]، والصوفي المتفلسف عبد الجليل بن ويحلان ت541هـ/1146م الذي أخذ بالمشرق التصوف بسند متصلٍ إلى الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري[2]، وأبو محمد صالح بن حرزهم الذي أخذ طريقة التصوف عن أبي حامد الغزالي بالشام، كما أخذ طريقة التصوف بسندٍ يصل إلى الشهاب السهروردي ت587هـ/1191م[3]، أحد كبار فلاسفة التصوف و"شيخ الإشراق"[4] الذي مات جوعًا ثم أُحرقت جثته سنه 587هـ/1198م بعد أن نُسب إلى الكفر لغلوِّه في الفلسفة والتصوف[5]، وعن أبي محمد صالح بن حرزهم أخذ ابن أخيه الصوفي أبوالحسن بن حرزهم[6].

ويمكن ربط انتعاش التصوف الفلسفي في المغرب بانتعاش الفلسفة مطلع العصر الموحدي[7] خاصة في عهد الخليفة أبي يعقوب يوسف ت 580هـ/1184م، فكان لذلك الأثر البالغ في ظهور متصوفة أصحاب النزعة الفلسفية كابن عربي والششتري وابن سبعين وغيرهم، يقول عباس

---

1 – التادلي، المصدر السابق، ص: 101.

2 – نفسه، ص: 146.

3 – التادلي، المصدر السابق، ص: 94. وابن القاضي، المصدر السابق، ص: 377. وابن عيشون، المصدر السابق، ص: 56، والكتاني، المصدر السابق، ج:3، ص:63.

4 – آنا ماري شيمل، **الأبعاد الصوفية في الإسلام وتارخ التصوّف**، ترجمة: محمد إسماعيل السيد، ورضا محمد قطب، الطبعة 01، منشورات الجمل، كولونيا (ألمانيا)، بغداد، 2006م، ص: 293.

5 – أنظر: ابن العماد، شذرات الذهب، ج:6، ص: 476، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج:41، ص:75، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج:6، ص: 114، والزركلي، الأعلام، ج:8، ص: 140 و141.

6 – محمد المغراوي، التواصل الصوفي بين المغرب والمشرق، ص : 80 و81 .

7 – كما يمكن ربط فشله بفشلها أيضًا.

محمود العقاد عن أفلاطون: " هو أجدر أن يُحسب من صميم المتصوفة، أو يُقال عنه بغير جدال: إنه إمام التصوف الذي امتزجت آراؤه بالطرق الصوفية، ولا تزال تمتزج إلى هذا الزمان"[1].

وكان لبروز التصوف الفلسفي علاقة بمضمون العقيدة التومرتية، فلم يكن تأثير ابن تومرت في نشأة التصوف في المغرب برصيده الزهدي أو بمظهره المتقشف الورع فقط وإنما بآرائه العقدية ودعوته إلى تأويل نصوص القرآن والأحاديث المتشابهة وإجبارية الأخذ بمذهب الأشعرية في قالب اعتمد فيه على العقل طريقا للوصول إلى التوحيد والعبادة الصحيحة، فقدَّم بذلك عقيدة تجريدية أضفى عليها عملاً تربوياً وأخذ في تعميقها في كافة أنحاء المغرب، ثم أصبحت بعد وفاته مفروضة على العامة من طرف خلفاء الدولة الموحدية[2]، فنتج – كرد فعل– عن إجبارية الأخذ بهذه العقيدة التجريدية ظهور تيار صوفي يُركز على المجاهدات كالصيام والقيام والإخلاص والتواضع مستبعداً العقل والنصوص معًا، وصار لهذا التيار جمهور ويتزعَّمه صوفية كبار مثل أبي مدين وأبي زكريا يحي الزواوي ت611هـ/1204م وغيرهما اعتمدوا في تصوفهم على مصادر صوفية كرعاية المحاسبي والرسالة القشيرية والإحياء وفي مضمونها نصوص صريحة تؤكد أن الشرع يدرك بعين اليقين ونور الإيمان وليس بالعقل[3] .

ولعلَّ تفضيل الموحدين للمذهب الأشعري أسهم في انتعاش التصوف الفلسفي، فالمذهب الأشعري مذهبٌ يقرُّ بالأولياء والصوفية ويرى في

---

1 – أنظر كتاب: عائض بن سعد الدوسري، **الحقيقة المحمدية أم الفلسفة الافلوطينية**، الطبعة 01، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1428هـ/ 2008م، ص: 112.

2 – عبد العزيز فيلالي، **تلمسان في العهد الزياني**، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م، ج:2، ص: 356.

3 – الطاهر بونابي، المرجع السابق، ص: 89 .

كراماتهم تصديقاً لمعجزات الأنبياء وتأكيـدًا لهـا[1]، فوجـد فيـه الصـوفية غطـاءً سياسيًا يُبرِّرُ سلوكاتهم وتصرُّفاتهـم، ويضمن لهم الحرية والحماية[2].

والمُلاحظ ميل أغلب صوفية العصر الموحدي إلـى المـذهب الأشـعري، بـل إن أئمة التصوف كـانوا أئمـة المـذهب كـأبي الحسـن الإشـبيلي وأبـي عمـرو السلالجي وأبي عبد الله الكتاني، وقد ساير المتصـوفة الإتجـاه العـام القـوي نحـو المـذهب الأشـعري خـلال العصـر الموحـدي بمسـتويات مختلفـة، فالشـيخ ابن حرزهم لم يكن يرى بأسـاً مـن دراسـة الإرشـاد، وقـد درس عليـه بفـاس أبو عمرو عثمان السلالجي شيئا منها[3].

وكان أبو العباس أحمـد بـن عبـد الرحمـان بـن الجبـاب الصـنهاجي تـ592هـ/1196م من أهل مراكش كبيـر الشـأن فـي التصـوف و" مـن أهـل المعرفة بعلوم الاعتقادات"[4].

ومن أهل التصـوف والكرامـات أبـو علـي عمـر بـن النجـار الفاسـي تـ 620هـ/1223م " كان عنده معرفة بعلـم الكـلام وأصـول الفقـه وميـل إلـى التصوف"[5]، ومن أهل مالقة إبراهيم بن يوسـف بـن محمـد بـن دهـاق الأوسـي المعروف بابن المرأة، ومن شيوخ الطائفة الشوذية، أخذ عـن ابـن حـرزهم وابـن حنيني الكناني " وغلب عليه الكلام فرأس فيـه واشـتهر بـه، ولـه تواليـف منهـا شرح الإرشاد لأبي المعالي"[6].

والعامل الآخر الذي أسهم في انتعـاش التصـوف الفلسـفي يتعلـق بـالتكوين الشخصي لمتصوفة هذا العصر، إذ أن المتصوف الكامل عنـدهم، حسـب مـا نقلـهُ

---

1 – الشهرستاني، الملل والنحل، ص: 102 .

2 – الطاهر بونابي، المرجع السابق، ص: 89 .

3 – التادلي، المصدر السابـق، ص: 199.

4 – ابن ابراهيم، المصدر السـابـق، ج:1، ص: 234.

5 – ابن الزبير، المصدر السـابـق، ج: 4، ص: 79.

6 – ابن الأبار، المصدر السـابـق، ج:1، ص: 140.

ابن الخطيب: "هو من استوعبت ذاته جميع الآراء، رأي أهل الأنوار من الأقدمين ورأي الحكماء المتمللين ورأي من بعدهم من المتممين بزعمهم المكملين... "[1] أي أن المتصوف الحق هو ذلك الذي يستطيع أن يُلِمَّ بكل العلوم القديمة والحديثة ومن ضمنها الفلسفة ليصير له التمكن والقدرة على تمييز الحق من الباطل[2].

ومن تلك العوامل أيضاً ما ترسب عن نشاط مدرسة ألمرية من آراء وأفكار ومفاهيم وطريقة معالجة القضايا الصوفية التي استلهمت الفكر الصوفي والفلسفي عن ابن مسرة ومدرسته ومن مذاهب فكرية أخرى[3].

ولاشك أن التصوف الفلسفي الباطني كان وليد البيئة الأندلسية في لحظة خمدت فيها روح الإسلام بسبب تأثر المسلمين بالثقافات والفلسفات الأخرى والديانات المختلفة، فالدارس لأفكار التصوف الفلسفي الباطني عند ابن عربي يجدها تحمل مزيجاً من التراث الفارسي والهندي واليوناني والصابئي والشيعي والمسيحي[4].

ومن تلك العوامل التي أسهمت في انتعاش التصوف الفلسفي انتصار التيار السني المضاد للفلسفة الذي أطبق الحصار على كل فكرٍ فلسفي غنُّوصي إشراقي، وأصبح يضطهد كل من يشتغل بها(الفلسفة) أو يمتلك كتبها أو: "من وجد بخطة شيء من المذاهب الفلسفية المخالفة للشريعة"[5].

---

1 – ابن الخطيب، روضة التعريف، ج:2، ص: 554.

2 – العدلوني، التصوف الأندلسي، ص: 119.

3 – ابن الخطيب، روضة التعريف، ص: 602 – 606. ومحمد العدلوني، التصوف الأندلسي، ص: 210 – 214.

4 – أنظر تفصيل ذلك : ابن عربي : نشأته وثقافته وأفكاره، **<u>مجلة الصوفية</u>**، العدد 07، صفر 1429 هـ / فيفري 2008 م، ص: 12 و13، وآسين بلاثيوس، **<u>ابن عربي حياته ومذهبه</u>**، ترجمه عن الإسبانية: عبد الرحمان بدوي، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، مصر، 1965م، ص: 265 و266.

5 – النباهي، المصدر السابق، ص: 201.

لذا تحـول الخطاب الفلسفي إلـى خطـاب صـوفي وبشـكل أعمـق تحـت جناح تيار فلسفي آخر غيـر الـذي ازدهـرت مـن خلالـه الفلسـفة فـي الغـرب الاسلامي مع "ابن الطفيل" و"ابن رشد" و"ابن طملـوس"، فعبـد الحـق ابـن سـبعين متفلسف زمانه[1] لما كثرت الدعاوي على مذهبـه والانتقـادات لطريقتـه بـدأ يجمـع بين الفلسفة والتصوف[2]، إلا أن علم الفلسفة قد غلـب عليـه فـأراد أن يظهـره فـي سـترٍ وخفـاء[3]، فصـار يمارسـه تحـت رداء كثيـف مـن الزهـد والتصـوف[4]، وابن عربي الحاتمي كان "مأخوذاً بالمنطق مُرجحا لكفة النظـر العقلـي علـى كفـة محاسبة النفس"[5].

وقبل ذلك كانت المدرسة الشوذية وطوائـف أخـرى مـن صـوفية الأنـدلس تمزج التصوف بالفلسفة، تمويها وتستـرًا لاشـتغالها بالفلسـفة حتـى يتقـوا هجـوم الفقهاء وردة فعلهم، وهكذا فإن الفلسفة التي فقـدت مجالهـا لـم تختفـي نهائيـا، إذ وجدت نفسها أكثر في مجالات أخرى وعلـى رأسـها العلـوم العقليـة والتصـوف النزعة الفلسفية، الذي لن ينجو هـو الآخـر مـن سـهام اتهامـات الفقهـاء بـالكفر والزندقة، لِـما اتصف به من آراءٍ تـُشكل مـذاهب تشـبه مـا للمـذاهب الفلسـفية من خصائص نظرية وعقلية[6].

ومن أهم الأسباب التي أسهمت في بروز التصـوف الفلسـفي فـي الغـرب الإسلامي خلال هـذه الفتـرة إعـراض بعـض الطوائـف الصـوفية عـن الفقـه واستغنائهم عنـه بعلـم البـاطن، والتصـوف بـدون فقـه طريـق إلـى الزندقـة

---

1 – الغبريني، المصدر السـابـق، ص: 237 .

2 – نفسه.

3 – تقي الدين الفاسـي، **العقد الثمين فـي تـاريخ البلـد الأمـين**، تحقيـق: محمـد حامـد الفقـي وآخـرون، الطبعة 02 مؤسسة الرسالة، 406 هـ/1986م، ج:5، ص: 327.

4 – العدلوني، التصوف الأندلسي، ص: 118.

5 – نفسه.

6 – نفسه.

والباطنيــــة، ففــــي مقارنتــــه بــــين الفقــــه والتصــــوف يقــــول زروق الفاســــي تــــ899هـــ/1493م أنَّ " حكم الفقيه عــام فــي العمــوم، لأن مقصــده إقامــة رســم الدين ورفع مناره وإظهار كلمته، وحكم التصــوف خــاص فــي الخصــوص، لأنــه معاملة بين العبد وربه ... فمن ثمَّ صحَّ إنكــار الفقيــه علــى الصــوفي، ولا يصــحُّ إنكار الصوفي على الفقيه، ولزم الرجوع من التصــوف إلــى الفقــه، والاكتفــاء بــه دونه، ولم يكف التصوف عن الفقه بل لا يصــح دونــه، ولا يجــوز الرجــوع منــه إليه إلا به ..."[1].

وكــان الغزالــي يــرى أن الاشــتغال بالبــاطن وتهذيبــه مــن العيــوب والنقــائص الباطنيــة كــالكبر والحسد والريــاء الــذي هــو موضــوع علــم التصــوف أهــم مــن معرفــة كثيــر مــن الاحكــام النــادرة التــي تمتلــئ بهــا كتــب الفــروع، وقلمــا تقــع وتــدعو الحاجــة إليها ، بينما كل أحد يحتاج الى تطهير نفسه وتزكيتها[2].

وكان من الطبيعي أن تثور ثــائرة الفقهــاء علــى التصــوف وأهلــه الــذين جعلوا علم الشريعة –كما يقول ابن خلــدون– علــى صــنفين : صــنف مخصــوص بالفقهاء وأهل الفتيا وهي الأحكــام العامــة فــي العبــارات والمعــاملات، وصــنف آخر مخصوص بالمتصوفة في القيام بالمجاهــدة ومحاســبة الــنفس عليهــا والكــلام في الأذواق[3].

وبهذا يــُمكن القول أن العــوامل الساســلفة الذكــــر أســهمت بشــكلٍ مباشــرٍ وغير مباشر فــي انتعــاش التصــوف الفلســفي، وتوسُّــع دائــرة انتشــاره فــي الأندلس والمغرب، مــُشكلاً تياراً مــُنافسًا للتيار الزهــدي السنــي.

---

1 – زروق البرنسي الفاســي، **قواعــد التصــوف**، تحقيــق: محمــد زهــري النجــار، الطبعــة 03، المكتبــة الأزهرية للتراث، القاهرة، 1989م، ص: 15.

2 – أنظر : محمد علي بن صديق، إطلالة على التصوف المغربي وتاريخــه، **مجلــة دعــوة الحــق**، الســنة : 33، العدد: 289، ماي، 1989م، ص: 66.

3 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج:1، ص: 613.

المبحث الثانـــي: مـــواقف الفقهاء مـــن التصـــوف فـــي الغـــرب الإســـلامي خـــلال العصر الموحدي.

المطلب الأول: مـــواقف التعـــايش مع التيار الصـــوفـــي السُـــنّي.

انحصرت مواقف الفقهـــاء إزاء التصـــــوف خـــلال العصـــر الموحـــدي فـــي موقفين بارزين، موقف سلمي يشوبه الحذر والتحفظ مـــن متصـــوفة التيـــار الســـني، ومواقـــف أخـــــرى تميَّـــزت بالصـــراع الطويـــل والعـــداء الـــدفين بـــين الفقهـــاء ومتصوفة التيار الفلســـفي.

لم تكن العلاقة بين الفقهاء وتيـــار التصـــوف الســـني مُؤسســـةً علـــى قواعـــدٍ واضحةٍ متفقٍ عليها، وإنما بُـــــنيت علـــى معطيـــات أوليـــةٍ تحكمـــت فـــي توجيـــه العلاقة بين الطائفتين، فقد كـــان المحـــرك الرئيســـي للفقهـــاء –ظاهريـــةً ومالكيـــة– إزاء التصوف السني هو تخوفهم مـــن تشـــويش أصـــحابه علـــى تـــدين المغاربـــة، وباستثناء ذلك لم يوجد ما يـــــحول دون تعـــايش الطـــرفين، لاسـيما وأن الصـــوفية السنية قد تمسكـــوا بالمذهب المالكي فِقهاً وفتوى.

فقد كان متصوفة التيـــار الســـني فـــي الغـــرب الإســـلامي خـــلال العصـــر الموحدي شديدي التمسك بالمـــذهب المـــالكي متقـــدمين فيـــه كـــأبي الحســـن علـــي بـــن حـــرزهم تـــــ 559هــــــــ/1163م المتصـــوف الشـــهير تلميـــذ أبـــي بكـــر بن العربي[1]، كان سالكا لطريق الملامتيـــة[2] "مُعظمـــا للعلـــم يوفيـــه حقـــه ودرجتـــه منقبضا عن السلطان ... فكان أهل البلد يـــــُنكرون عليـــه بعـــض أحوالـــه، ولكـــن لصدقه كانت القلوب مائلة إليـــه"[3].

---

1 – ابن عيشون الشراط، المصـــدر الســـابـــق، ص:70.

2 – التميمي، المصدر السابق، ص: 15.

3 – نفسه، ص: 16.

وأبو عبد الله بن المجاهد الذي كان ملتزماً بأدق أحكام المذهب المالكي، حتى أنه ترك الدعاء بعد الصلاة خلافا لما كان شائعا حينها، لعلمه بأنه مكروه في المذهب المالكي[1]، أما أبو مدين الغوث فقد كانت تَردُ عليه الفتاوي ويجيب عنها في مذهب مالك[2].

ومنهم من شُبِّه بالإمام مالك كأبي وكيل ميمون الوريكي الأسود المتصوف[3]، ومنهم من تعصَّب له كأبي حفص عمر بن هارون المديدي المتوفى حوالي 590هـ/1193م والذي اِعتبر الموطأ أحقُّ كتاب بعد القرآن[4]، وكان أبو محمد عبد الجليل القصري من أئمة التصوف والحديث والتفسير والفقه على مذهب الإمام مالك[5].

وحظيَ المذهب المالكي بتوقير الصوفية في عاصمة الموحدين مراكش، وهو ما يُستفاد من بعض النصوص التي تعكس أوصاف بعض منهم كالمتصوف أبي محمد يرزجان بن محمد الجزولي الذي صحب الإمام أبا بكر بن العربي[6]، جاء في ترجمته: " كان بصيرًا بمذهب مالك بن أنس، وأخذ عنه أبو عبد الله محمد بن ياسين فقيه المصامدة " [7]، ومنهم أبو خزر يخلف

1 – التنبكتي، المرجع السابق ص: 377. ويقول ابن الحاج المالكي ت 737هـ/ 1336م أن الدعاء بعد الصلاة " من السنة أعني دعاء كل إنسان في سره لنفسه ولإخوانه دون جهر اللهم إلا أن يكون إماما ويريد أن يعلم المأمومين... فإذا رأى أنهم قد تعلموا سكت ". ابن الحاج، **المدخل**، دار التراث، د.ت.ط، ج:1، ص: 58 .

2 – المقري، نفح الطيب، ج:7، ص: 136.

3– التادلي، المصدر السابق، ص: 193.

4 – نفسه، ص: 342 و343.

5 – ملتقى: **القصر الكبير : الذاكرة والحاضر** أعمال الندوة 1 – 3 أبريل 1998م، تنسيق محمد المغراوي، ص: 112.

6 – التادلي، المصدر السابق، ص: 115، 267.

7 – نفسه، ص: 267 .

الأوربي كـــان " الغالـــب عليـــه الفقـــه فـــي المســـائل، صـــاحب كرامـــات"[1]، أمـــا المتصوف أبو الحسن علي المكناسي فقد صـــار إمـــام المالكيـــة بعـــد انتقالـــه إلـــى الحرم الشريف إلى وفاته عام573هـ/ 1177م[2].

وبالمقابل عـــُـــنِيَ مالكيـــة فـــاس بالتصـــوف إلـــى حـــد جعـــل المستشـــرق الفرنسي "جاك بارك" يعتبر – فـــي شـــيء مـــن المبالغـــة– مدينـــة فـــاس مركـــزا صوفيا خلال القرن 6هـ/ 12م[3] .

وتبين مـــن تـــراجم بعـــض المتصـــوفة والفقهـــاء، أنَّ مـــن المتصـــوفة مـــن أصبحـــوا حجةً في مـــذهب مالـــك، ولا شـــكً أنَّـــهم أســـهموا فـــي نشـــره بـــين مريديهم، مما يُفيد استمرار تداوله بين أهل الولايـــة والصـــلاح، ولعـــل مـــا يُعطـــي لهذه العناية أبعادها المميزة في هذه الفتـــرة، أنهـــا تمثـــل ســـلوكا معاكســـا للتوجـــه الموحدي في هذه المسألة بالذات، وهو محـــو مـــذهب مالـــك، والنتيجـــة إذاً وجـــود عنصر تعارض بين عدد من متصوفة التيـــار الســـني والاختيـــار المـــذهبي للســـلطة الموحديـــة[4] .

وقد أبرز ابـــن الزيـــات التـــادلي بعـــض ملامـــح التوجـــه الســـني المـــالكي للتصوف المغربي مـــُستشهداً بالأبيات التالية:

بمن اقتديت وفي الصحابة كثرة *** ما منهـــم إلا تقي ناســـك

والتابعـــون الراشـــدون وكلهم *** عما يقود له الهوى متماسك

والشافعي على الطريق وأحمد *** وأبو حنيفة قبل ذلك ومالك[5].

---

1 – التميمي، المصدر السابق، ص: 98.

2 – نفسه، ص: 98.

3 – نجم الدين الهنتاتي، المدرسة المالكية الفاسية، ص: 212 .

4 – محمد رابطة الدين، المرجـــع السابـــق، ص:322 .

5 – التادلي، المصدر الســـابـــق، ص: 39 .

وبالمقابل لم يكن للفقهاء مواقف عِدائية في العصر الموحدي إزاء صوفية التيار السني، وغاية ما يمكن تسجيله أن هناك تحفظات من الفقهاء على بعض تصرفات الصوفية لاعتبارها بدع محدثات[1].

ومع التسليم بوجود اختلاف بين الجانبين إلاّ أننا لا نعدم وجود فقهاء انخرطوا في سلك التصوف حتى كانت شُهرتهم به أكثر من شهرتهم بالعلم كأبي مدين الغوث والشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي بن جعفر المعروف بابن الرمامة الذي عُرف مع تصوفه بالبراعة في الفقه وانتصاره لكتاب الإحياء[2]، ومقدرته في علم الحديث[3]، كما وجدنا في الجهة المقابلة متصوفة بلغوا درجة من العلم والفقه كأبي ميمونة دراس بن إسماعيل الذي قرأ الفقه في المشرق وعاد إلى المغرب يدرِّس الفقه في مسجدٍ له بمدينة فاس[4]، والشيخ الفقيه أبي يحي المكلاتي الذي كان يُدرِّسُ الفقه ولم " تكن له حرفة يشتغل بها غير عبادة مولاه وتعليم العلم"[5]، والشيخ الفقيه أبي عمران الجنياري الذي عدَّه التميمي "فقيه وقته وعارف عصره"[6].

فقد جمعت مجالس العلم المتصوفة السنية والفقهاء كما ذكر التميمي وغيره، تمثل في نموذج أبي علي الخراط المتصوف الذي "كان الفقهاء في وقته والعلماء يعظمونه ويسمعون مواعظه"[7]، ونموذج الفقيه أبي الحسن علي

1 – محمد المغراوي، السلطة والصلحاء، ص: 449.

2– التميمي، المصدر السابق، ص: 171، 172.

3– نفسه، ص: 171 و172.

4 – نفسه، ص: 181.

5 – نفسه، ص: 96.

6 – نفسه، ص: 115.

7 – وكان التميمي يحضر بنفسه دروسه. أنظر: التميمي، المصدر السابق، ص: 165.

بن غالب من مالكية فاس المتوفى في حدود التسعين وخمس مائة الذي أخذ عنه أبو مدين وكان " الأولياء يحضرون مجلسه"[1].

ونقل لنا الغبريني صورًا أخرى عن هذا التعايش والتفتّح بين الطرفين كشاهد عيان للظاهرة في المغرب الأوسط، فيذكر أن مجالس الصوفي أبي الحسن الحرالي التجيبي كان يحضرها الفقهاء والصلحاء والمتعبدون[2].

وذكر أبو العباس الغبريني أيضًا أنَّ بعض الفقهاء صاروا يعتقدون في الصوفية، فأصبحوا يذهبون إليهم للاستئناس بهم واستشارتهم، كما فعل أبو محمد بن عبد العزيز بن كحيلة ت 657هـ/1258م[3]، وأبو محمد عبد المنعم بن عتيق ت 680هـ/1281م[4] لما قصدا أبا الحسن الحرالي ت 638هـ/1231م[5].

ومن المظاهر الدالة أيضاً على تعايش الفريقين تكاتف الصوفية والفقهاء واتّحادهم في مواجهة ظواهر الشعوذة والمشعوذين، ذلك أنه لما نزل أحد أدعياء التصوف، ويُعرف بأبي الحسن الطيار من المغرب إلى بجاية، يصحبه أتباعه، ولما دخلوا مسجد الصوفي أبي الحسن عبيد الله الأزدي ت 691هـ/1292م جلسوا من غير تحية المسجد، فأمرهم الصوفي أبو الحسن بتأديتها، فرفض الطيار وقال لأصحابه: "فلنذكر الله أكبر"، فوقعت لأجل ذلك مناظرة بين الطرفين لم تفض إلى نتيجة، فتدخل والي بجاية إلى جانب

1 – ابن قنفد، أنس الفقير، ص: 26 .

2 – الغبريني، المصدر السابق، ص: 150.

3 – أبو محمد عبد الحق بن ربيع بن أحمد بن عمر الأنصاري، كان يحمل فنوناً من العلم، والفقه وأصول الدين، والمنطق والتصوف، والكتابتان الشرعية والأدبية، والفرائض والحساب، تولى خطة القضاء في بجاية، وكان مرجع القضاة والمشاور عندهم والمعول على ما عنده، الغبريني، المصدر السابق، ص: 57-61 .

4 – أبو محمد عبد المنعم بن محمد بن يوسف ابن عتيق الغساني، كان ذا نزاهة ووجاهة ونباهة وديانة وصيانة، تولى قضاء بجاية، أنظر ترجمته : الغبريني، المصدر السابق، ص: 111 – 113.

5 – نفسه، ص: 151.

أبا الحسن في هذه الحادثة، وتم نفــي الطيــار وأتباعــه إلــى المغــرب، وقــد آزر الصوفي أبا الحسن في هذه الحادثة فقهــاء بجايــة أبــرزهم موقــف أبــي العبــاس أحمد الغبريني تــ 704هـ/1306م الذي طالب بتسليط عقوبــات أشــد مــن النفــي في حق هؤلاء المشعوذين، الذين يفتقرون إلــى العلــم والعمــل والتصــوف، لأنهــم يُضِلُّون العامة عن الطريق المستقيم[1].

ومن القرائن أيضاً أن الفقهاء في بجايــة اتهمــوا الصــوفي أبــا الحســن الحرالي بقصوره في المذهب المالكي، مُدَّعين تفوقهم عليه علــى الــرغم مــن أنــه كان يُقارِنُ بين تهذيب أبي أحمد البرادعــي ومدونــة ســحنون، ويُبــيِّن أن التهــذيب مُخالِف في كثيرٍ من مواضعه للمدونة، كما كان ينبِّــه إلــى التحريــف الــذي شــاب آراء الإمام مالك جراء عملية النقل[2].

وفي تلمسان ظهر تقارب بين الصــوفية الســنية والفقهــاء أيضــاً، حيــث كــان الفقهاء يُراسلون الصوفي أبا اسحاق ابــراهيم التنســي تــــ 638هــــ/1231م فــي تنس ليقرر لهم الفتاوى، بل وكانوا سبباً في استقراره بتلمسان[3].

هذا الانتماء المالكي الذي جمع الفقهــاء بالمتصــوفة قــد خفَّــف –ولاشــك– التوتر بين الطائفتين، وأسهم فــي انتشــار المــذهب المــالكي وانتعــاش التصــوف السني في الحواضر والبوادي.

وفي تقدير الدكتور عبيد بــوداود أن الظهــور المتأخــــِّر للتصــوف فــي بــلاد المغرب الإسلامي مقارنة مع بلاد المشــرق الإســلامي هــو " الــذي هــذَّب هــذه

---

1 – نفســــــه، ص: 107 و108. والتنبكتــي، نيــل الإبتهــاج، ص:121. والطــاهر بونــابي، المرجــع السابق، ص: 216.

2– الغبريني، المصدر السابق، ص: 147.

3 – التنسي، <u>نظم الدر والعقيــان</u>، تحقيــق : نــوري ســودان، الطبعــة 01، بيــروت، لبنــان، 1401هـــ / 1980م، ص: 127. والتنبكتي، نيل الإبتهاج، ص:37. والظاهر بونابي، المرجع السابق، ص: 216.

العلاقة، حيث أصبح التصوف معروفاً، ولا يشكل جديدا، إذ في العادة كل جديد يلقى معارضة كبيرة"[1].

وكان لهذا التقارب بين الصوفية السنية والفقهاء المالكية ما يبرره أحيانا، ويُحتّمه أحياناً أخرى، فلم تظهر لدى الصوفية المغاربة أطروحة أفضلية أهل الباطن على أهل الظاهر، التي يُنادي بها الصوفية ويحتقرون الفقهاء من خلالها[2]، والتي تستفز الفقهاء وكثيرا ما أدَّت إلى التوتر بين الطرفين في المشرق والأندلس[3].

فالخلاف بين الفقهاء والمتصوفة قديم، إذ يسخر الصوفية من التعلم بالورقة والقلم والكتاب، ويعتبرون شرط المعرفة هو صفاء القلب والنفس، لذا رد عليهم ابن الجوزي بكلامٍ قوي جاء فيه : " إنهم جالسون على بساط البطالة قد عدوا التصوف تعطلا وغرقوا في ظلمات هواجس النفس واجتهدوا في ذمِّ أهل العلم، وزعموا أنَّ الاشتغال بالعلم إتلافٌ للوقت، وادَّعوا أن علوم الصوفية تتحقق بلا واسطة، وأنها إفاضة من المنبع الفياض " [4] .

ومن العوامل التي كانت وراء تخفيف التوتر بين الطرفين نجد عوامل أعمق ترتبط أساسا بأصول وتطور التصوف المغربي منذ بدايته، إذ كان تيار التصوف السني أقرب للزهد والتعبد، ولم تَشُبْهُ الطقوس البدعية، لذلك لوحظ إقبال متزايد للفقهاء وأهل العلم على الزهد والانخراط فيه، ويرى

1- بوداود عبيد، المرجع السابق، ص:59.

2- فقد صار عندهم فضل العلم الباطن على الظاهر كفضل الملكوت على الملك، أنظر: محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي، **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد**، تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي، الطبعة 02، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1426 هـ / 2005 م، ج:1، ص: 240- 268 – ج: 2 ص: 85.

3 – محمد المغراوي، السلطة والصلحاء، ص: 450.

4- ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص 101 وما بعدها .

الباحث المغربي محمد المغراوي – ونحن نوافقه الرأي – أنَّ زهد المغاربة كان مُؤسَسًا على نزعةٍ عملية تحكَّم فيها الفقهاء منذ الانطلاقة[1]، وهكذا فانَّ شيوخ التصوف وأهله عامة بقدر ما كانوا حريصين على نسبتهم الصوفية فإنَّهم ظلوا متشبثين بحدود الشرع فحافظوا بذلك على المذهب المالكي.

ومن أبرز المحطات التي جمعت الفقهاء بالمتصوفة قوة الروح الدينية عند الطرفين، والمشاركة في الجهاد خاصة في صد هجومات القوى النصرانية في الأندلس والمغرب[2].

فقد عُرف عن بعض تيارات التصوف السني المرابَطة بالثغور دفاعًا عن المسلمين وطمعًا في الشهادة، مؤثرين الجهاد والمرابطة على الاعتكاف والانقطاع للعبادة، منهم أبو محمد عبد الواحد بن تومرت الهسكوري الأسود الذي جاهد إلى جانب الموحدين بالأندلس في معركة الأرك سنة 591هـ/1195م وأُستشهد فيها[3]، وأبو الصبر أيوب بن عبد الله ت 609هـ/ 1212م الذي أُشتهر بالزهد والتصوف وكان له أتباع يأخذون عنه، أُستشهد بمعركة حصن العقاب[4].

وقد اعتبر العلماء والصلحاء الجهاد من الشعائر الدينية الواجبة على الأمة مما استوجب ثناء السلطة على دعمهم، وسعيا من السلطة إلى استثمار

1 – محمد المغراوي، السلطة والصلحاء، ص: 449.

2 – محمود محمد أبو ندى، **الدور الجهادي للعلماء في الأندلس (422هـ/609هـ/ 1031م-1212م)**، رسالة مجستير، تحت إشراف: خالد يونس الخالدي، قسم التاريخ، الجامعة الإسلامية، غزة، 1426هـ/ 2006م، ص: 153 – 162.

3 – التادلي، المصدر السابق، ص: 362.

4 – ابن الأبار، التكملة، ج:1، ص: 202، والتادلي، المصدر السابق، ص: 362.

هذا الدعم أو التحالف المبدئي حرصت السلطة على التواصل معهم لتحديد الأدوار والوظائف[1].

أما طبيعة مشاركة العلماء والصوفية في الجهاد فتجلت في مظهرين، من خلال المشاركة الحقيقة والفعَّالة لعدد من العلماء والزهاد في الحملات العسكرية ضدَّ النَّصارى تحت إمرة الموحدين، فبمجرد طاعة مدينة سبتة للموحدين شارك قاضيها عياض بن موسى في غزوات بحرية بجانب واليها الحافظ يوسف بن مخلوف التنملي[2].

كما أسهم العلماء والصوفية السنِّية جنباً إلى جنب في إذكاء الحماس وروح الجهاد في المشاركة بالخطب والوعظ، وقد أولى علماء الأندلس وصلحاؤها بالخصوص اهتماما كبيرا للتأليف في أدب الجهاد بهدف إبراز أهميته وفضائله، فشهد العصر الموحدي مجموعة من المُصنَّفات في الموضوع، فألَّف أبو القاسم عبد الرحمن بن حبيش الأنصاري ت 584هـ/1188م كتابا في المغازي سمَّاه " كتاب الغزوات الامنة الكافلة والفتوح الجامعة الحافلة " بأمرٍ من الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أتمَّهُ سنة 583هـ/1187م[3] وألَّف الفقيه محمد بن عيسى الأزدي "الإنجاد في الجهاد"[4] أما كتاب "الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء"[5] فقد

---

1 – محمد المغراوي، السلطة والصلحاء، ص: 457.

2 – ابن عذارى، البيان المغرب، ص: 32. .

3 – المقري، نفح الطيب، ج:2، ص: 761. والسيوطي، طبقات الحفاظ، ج:2، ص: 17.

4 – ابن الأبار، المصدر السابق، ج:2، ص: 120. وابن عبد الملك، المصدر السابق، ج:8، ص: 348.

5 – ابن الخطيب، الإحاطة، ج:4، ص: 256. وابن الأبار، تحفة القادم، ص: 201. والكتاني أبو عبد الله محمد بن أبي الفيض، **الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة**، تحقيق: المنتصر بن محمد الزمزمي، الطبعة: 06، دار البشائر الإسلامية، 1421هـ/2000م، ص: 198.

صنَّـــفهُ أبو الربيع سليمان الكلاعي الـــذي "استشـــهد – رحمـــه الله – مقـــبلاً غيـــر مدبر في وقعة أنيشة على ثلاثة فراسخ من بلنسية" سنة 634هــ/1236م[1].

ومن تلك العوامل التي جمعـــت الفقهـــاء بالمتصـــوفة السُنِّـــية خـــلال العصـــر الموحدي نجاح السلطة في إحداث التوازن بينهما، فهي لـــم تـــُؤيِّد الفقهـــاء مطلقـــاً رغم أنهم يمثلون القضاء والخطط الإدارية والمناصـــب العليـــا فـــي الدولـــة، ولـــم تـــُزعج الصوفية باعتبارهم يمثلون قاعدة شعبية عريضة[2].

ومممـــا سبـــق ذكره تتـــأكَّـــد لنا طبيعة العلاقـــة بـــين متصـــوفة التيـــارات السنية والفقهاء المالكيـــــة والتـــي تميَّـــــزت فـــي عمومهـــا بالتعـــايش والتقـــارب، فتبنَّى الصوفية المذهب المالكي، وغلب على فقهاء المالكية الزهد والتنسُّـــك.

المطلـــب الثـــــاني: مـــواقــــف التـــوتـــّــــر بـــين الفقهـــاء وتيـــار التصـــو ف الباطـــني في الغـــرب الإســـلامي خـــلال العصـــر المـــوحدي.

أثارت الانحرافات التي طالت تيار التصـــوف خـــلال القـــرن 6هـــــ/12م تخوف فقهاء الغرب الإسلامي علـــى اعتبـــار أن التصـــوف أخـــذ يتجسَّـــد بصـــورة واضحة بعيدا عن مفهوم الزهد والتعبد، وانتقد الفقهاء علـــى هـــذا التيـــار الإغـــراق في الكرامات والعجائب، التي وصلت إلى تأليه المشـــايخ، وانتهـــت بـــدعوة الإتحـــاد ووحدة الوجـــود، بالإضـــافة إلـــى البـــدع والمنكـــرات التعبديـــة، وبـــذل الخـــدمات وقضاء الحاجات والدعاء مقابـــل عـــوض مـــادي، واخـــتلاطهم بالنســـاء والغلمـــان المردان، وتناول الحشيشة وشـــراب الـــرب وبعـــض تـــأثيرات فقـــراء المشـــرق[3]، وكذلك اعترض الفقهاء على اشـــتغال بعـــض المتصـــوفة بمـــداواة المرضـــى مـــن

1 – ابن الأبار، تحفة القادم، ص: 201.

2– الطاهر بونابي، المرجع السابق، ص: 217.

3 – محمد فتحة، المرجع الســـابـــق، ص : 215 – 217 .

النساء وعدُّوا ذلك خروجًا عن أحكام الدين[1]، وبذلك أصبح كبار المتصوفة هدفا لحملات بعض الفقهاء والعلماء محاولين التشكيك في أخلاقهم وادعاءاتهم وكراماتهم.

فقد كانت مسألة الكرامات من أهم القضايا التي أثارت النقاش بين المتصوفة والفقهاء، لا سيما وقد شاعت وانتشرت خلال هذه الفترة، فهذا الصوفي أبو يدو يعلى كان يتمثل له الخضر عليه السلام[2]، وكان الصوفي أبو عبد الله محمد بن معبد يزعم أنه يجتمع بالخضر عيانا[3]، وادعى آخرون رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتحدث معه وتزكيته لهم[4]، بل ذكر الصوفي أبو الحسن علي بن السكاك أنه "رأى الحق سبحانه وتعالى في النوم والخلق قد حـُشروا، فناداهم الحق سبحانه: اشهدوا يا عبادي أني غفرت لمحمد المؤدِّب، واشهدوا يا عبادي أني قد غفرت لعلي بن السكاك"[5]، أما علي بن إسماعيل بن حرزهم كان متصوفا سالكا لطريق الملامتية، ولم تكن هذه الطريقة معروفة بالمغرب، فكان أهل البلد يـُنكرون عليه بعض أحواله، فقد حدَّث أنَّ الخضر عليه السلام كان يأتيه عيانا، وروى أنه رأى الله سبحانه وتعالى في المنام وعليه مسوح، وناداه يا فقيه[6]، أما أبو عبد الله الدقاق المتوفى أواخر القرن 6هـ / 12م من أهل سجلماسة ومن كبار أقطاب التصوف وأحد شيوخ أبي مدين الغوث، كان يُصرِّح بأنه وليّ ويتكلم بأشياءٍ تُنكر عليه

---

1 – جمال أحمد طه، <u>مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين: **448-668هـ / 1056 – 1229 م**</u>، دار الوفاء للنشر والطباعة، 2001 م، ص: 300 .

2 – التميمي، المصدر السابق، ص: 46

3 – نفسه، ص: 136

4 – نفسه، ص: 135 .

5 – نفسه، ص: 154.

6 – نفسه، ص: 21.

كالمشي على الهواء[1]، فذكر ذلك بعـض أصـحابه لابـن العريـف، وأبـي الحكـم بن برجان فقالا : "لا تـُنكروا عليه شـيئا مـن أحوالـه"[2]، وإبـراهيم بـن بسـطام كان "يُحدَثُ عنه بالعجائب"[3] فكوشـف لـه أبـو بكـر الصـديق رضـي الله تعـالى عنه، وكانت تأتيه الهواتف تـُخبره ببعض الغيبيـات[4].

وجاء في كتاب التشوف أن المتصوف أبـو يحـي أبـو بكـر بـن عبـد الله أخبر عن أولياء كانوا يُكلّمون الموتي في قبورهم فيجيبـونهم وهـم فـي قبـورهم[5]، فلم يـُـنكر ذلك وأكد أن ذلـك " صـحيح، إن لله تعـالى عبـادا لـو تكلمـوا بمـا استفادوا من مواهب الله تعالى لأفتى هؤلاء الفقهاء برجمهـم"[6].

وفي ترجمته لأبي مدين شـعيب الغـوث لـم يسترسـل التميمـي فـي تعـداد مناقبه وبرر ذلك بقوله: " وشهرة الشيخ وكراماته معروفة، فلهـذا لـم أشـبع القـول في ذلك ولشرطنا المقـدم فـي الاختصـار"[7]، والأكيـد أنَّ مـا دفعـه للاختصـار والإعراض عن ذكر كرامات أبي مدين تخوفه مـن انتقـادات الفقهـاء ولـيس حبـاً في الاختصار والاقتصار كما ذكر.

ففي ترجمته لأبي الحسن الحايك توقَّف التميمي –أيضـا– عـن تعديـد كرامـات الشيخ وصرَّح هذه المرة بتخوفه من أقلام الفقهـاء بقولـه: " وللشـيخ أبـي الحسـن أشياء غير هذا لا يمكن أن تودع في الكتب لكثـرة المنكـرين لـذلك فـأكون عونـا على الوقوع في أولياء الله تعالى أبقى الله علينا بركتهم ونفعنا بحبهم"[8].

1– نفسه، ص: 156.

2 – التادلي، المصدر السـابـق، ص: 56 .

3 – نفسه، ص: 444. وابن إبراهيم، المرجـع السـابـق، ج:1، ص: 166.

4 – التادلي، المصدر السـابـق، ص: 293 .

5 – نفسه، ص: 293 .

6 – نفسه

7– التميمي، المستفاد، ص: 45.

8– نفســـه.

كما انتقد الفقهاء على بعض المتصوفة تكلفهم في العبادة، ومنهم أبو محمد عبد الحميد بن صالح الهسكوري من تادلا، نزل فاس وكان عبداً صالحاً مباركًا من الأولياء، و لكنه كان يسلك طريق مجاهدة غريبة، إذ كان يربط نفسه ويُعذبها واستمرَّ مقيدًا في حديد لا يأكل ولا يشرب شهور"[1] .

وفي قلعة بني حماد اعترض قاضيها أبو عبد الله بن عصمة على شكل الصوفي أبي الفضل بن النحوي في قوله: "صفرت وجهك ورققت ساقيك"[2] أي من شدة التعبُّد.

أما أبو العباس السبتي فقد تعرض له الفقهاء لما أقام في مراكش بجبل ايكليز على إثر شيوع كراماته وشهدوا فيه بالزندقة وقدَّموه للخليفة يوسف بن عبد المؤمن، فاتخذت القضية بُعداً رسميا بالتحقيق في ذلك وثبتت براءته بكرامةٍ كما تذكر المصادر[3].

وممن أنكر عليه الفقهاء المتصوف أبو يعزى يلنور، أخذ الفقهاء يُنكرون عليه بعض الأمور مثل لمسه للنساء بغرض الرقية، ورد عليهم بأنه مثل الطبيب يجوز له مس العاهات من الجسم وعدَّهُ أبو مدين شعيب من الضرورة[4].

كما أنكر الفقهاء بشدة على الطائفة السبعينية بعد أن طُرد شيخها من سبتة على يد واليها ابن خلاص[5] بتحريضٍ من الفقهاء.

فعبد الحق بن سبعين الصوفي ذو النزعة الفلسفية الإشراقية والذي انتسب إلى طائفة الشوذية "أراد أن يجمع بين الفلسفة والتصوف فبان تعسفه

---

1 – التادلي، التشوف، ص: 196 – 198 .

2 – نفسه، ص: 78.

3 – التادلي، أخبار أبي العباس السبتي، ص: 454. وابن إبراهيم، المرجع السابق ، ج:4، ص: 287.

4 – المغراوي، السلطة والصلحاء، ص:452. نقلا عن مخطوط: اليفري، دور الحجال، ص: 148.

5 – البادسي، المصدر السابق، ص: 69.

وكثرت دعاويه وزعم أن التصوف لم يدركه أحد ممن سلف"[1]، ولما كثر أنصاره في بسبتة عُرفوا بالسبعينية وأثاروا الفقهاء بملابسهم وطريقة عيشهم ومذهبهم[2]، خاصة وأنَّ ابن سبعين ومريديه قد أظهروا أحوالاً غريبة، ولم يسلم كتابه "بد العارف" من النقد حتى طُرد – بتحريض من الفقهاء – من سبتة على يد واليها ابن خلاص[3] فتوجه إلى المشرق[4].

كما شنَّ الفقهاء حملة معارضة على أبي محمد صالح، حيث استقرَّ الشيخ بعد عودته من رحلته المشرقية برباط أسفي وأعلن عن طريقته، فعانى من معارضة أغلب الفقهاء، ولقي من شيوخ المنطقة وعلمائها صدوداً ومضايقة، مما دفعه إلى بناء رباط بعيد عن قلب المدينة، وقد نقم عليه الفقهاء أمرين، أحدهما إلزام الشيخ للمريدين بالخروج للحج وهو عند الفقهاء لمن استطاع إليه سبيلا، وأسقط بعض فقهاء الأندلس الحج على أهل العدوتين منذ أواسط القرن 5 هـ/11م اعتباراً للصعوبات التي تعترض الرحلة، فكثرت زواياه في بلاد إفريقية والمغرب والمشرق حتى بلغت أربع وستين زاوية منتشرة من آسفي إلى الحجاز معمورة بالأشخاص والمريدين، شغلهم تسهيل الحج والسير بالحجاج في الأماكن الموحشة الوعرة، بأمن وأمان[5]، ويُعتبر مسلك أبي محمد صالح بمثابة رد صوفي على الفتوى الفقهية، والأمر الثاني الذي أنكرهُ الفقهاء على الشيخ هو تنظيم الطائفة باعتباره بدعة لا أصل لها من الناحية الفقهية والاجتماعية[6].

---

1 – نفسه، ص: 34.

2 – نفسه، ص: 69.

3– نفسه.

4 – نفسه، ص: 33. والمغراوي، السلطة والصلحاء.ص:454.

5 – خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج:3، ص: 199.

6 – القبلي، " قراءة في زمن أبي صالح"، ضمن كتاب: أبو محمد صالح التاريخ والمناقب، ص:8. والمغراوي، السلطة والصلحاء، ص:453.

ورُويَ "أنه لما أنكر عليه الفقهاء زهده، رأى في المنـــام ملكـــا يقـــول لـــه : " أراك مهموما باستنكار الفقهاء لحالك، لا تهتم فكلهم دنيويـــون ولـــيس بيـــنهم أحـــد من أهل الآخـــرة " [1] .

ورجَّح الباحث عبيد بوداود أن تعـــاظم مكانـــة الأوليـــاء لـــدى العامـــة بالتفـــاف الكثير من الطلبة والمريدين حولهم قد أثار حفيظة الفقهـــاء، وكـــأنهم "بهـــذه المكانـــة قد سحبوا البساط من تحت أقدام الفقهاء"[2].

أما المتصوف أبو محمد عبد الجليل القصري فقد حدثت لـــه حـــادث مـــع أهـــل بلده (قصر كتامة) اضطرَّ على إثره إلى مغـــادرة المدينـــة متوجهـــاً إلـــى الأنـــدلس، وبقي بها وعند عودته توفي بسبتة 608هـــ/1211م، ولا تفصـــح المصـــادر عمـــا وقع له بالذات ولا يبعد أن يكون بسبب الفقهاء وتأليب أهل المدينة ضده[3].

وبالمقابل نجد من متصوفة التيار الفلسفي الأندلسيين مـــن أُجبـــر علـــى مغـــادرة الأندلس، حيث نزل من مرســـية إلـــى تلمســـان أوائـــل ق7هـــ/13م أبـــو إســـحاق بن دهاق تـــ 610هــ/1214م الذي استقرَّ فيهـــا مـــدة عـــامين[4]، وكـــان قبلهـــا قـــد تلقى بمرسية كتاب الإرشاد لأبي المعـــالي[5]، وألـــف كتابـــاً شـــرح فيـــه أســـماء الله تعالى الحسنى كما شرح كتـــاب محاســـن المجـــالس لصـــاحبه أبـــي العبـــاس بـــن العريف تـــ 536هــ/1141م [6] ونزل تلمسان ودرَّس بها حولين كاملين[7] .

---

1 – البادسي، المصدر الســـابـــق، ص: 93. وألفرد بل، المرجع السابق، ص: 386.

2– بوداود عبيد، المرجع السابق، ص:58.

3 – ملتقى: <u>**القصـــر الكبيـــر : الـــذاكرة والحاضـــر**</u>، أعمـــال النـــدوة 1 – 3 أبريـــل 1998، تنســـيق محمـــد المغراوي، ص: 112.

4 – يحي بن خلدون، بغية الرواد، ص: 128 .

5 – لسان الدين بن الخطيب، أخبار غرناطة، ص: 344 .

6 – حسب ألفرد بل فإن ابن العريف من أوائـــل المفســـرين للأطروحـــة الغزاليـــة الصـــوفية، أنظـــر: الفـــرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص: 380 .

7 – يحي بن خلدون، بغية الرواد، ص: 128 .

فقد اضطرَّ عدد من كبار التصوف الفلسفي في الأندلس إلى الهجرة من المغرب نحو المشرق بسبب سيطرة الفقهاء الذين قويت شوكتهم باحتلالهم مناصب ومواقع هامة داخل بناء الدولة الموحدية المتداعي، والذين وقفوا في وجه كل فكر فلسفي مبتدع، وجندوا كل طاقاتهم لمحاربة التصوف ذي النزعة الفلسفية خاصة، فوحدوا صفوفهم ونسقوا مواقفهم للحد من نفوذه وانتشاره، بتحريض العامة والخاصة للوقوف ضده، والهجوم العنيف عليه، وقد صدرت في هذا الصدد العشرات من الفتاوى في حقهم، والقاضية بمروقهم عن الدين والجازمة بكفرهم، كما اتخذت منهم مواقف عدة تقدح فيما راموا إليه من مذاهب ذوقية وعرفانية[1].

نذكر منهم: أبو الحسن علي بن محمد المكناسي، كان إمام المالكية بالحرم المكي إلى غاية وفاته سنة 570هـ / 1174م[2]، وأبو الحسن علي بن براهيم الصنهاجي الذي نشر تعاليم ابن محرزهم في الإسكندرية[3]، وأبو محمد عبد الرزاق الجزولي من تلاميذ أبي مدين ت 596هـ/ 1200م الذي أسس رباطاً بالأسكندرية كان يُربي فيه الفقراء[4]، ومنهم أبو محمد صالح الماكري الذي أقام بالإسكندرية عشرين سنة[5]، وممن رحل واستقر في الشام: أبو الحسن علي بن أحمد الحرالي التجيبي ت 637هـ/ 1239م[6]، وأشهرهم

---

1 – أنظر: العدلوني، التصوف الأندلسي، ص: 129.

2 – التميمي، المصدر السابق، ص: 76.

3 – ابن قنفد، أنس الفقير، ص: 31.

4 – التادلي، المصدر السابق، ص: 328. والبادسي، المصدر السابق، ص:67 و68.

5 – نفسه، ص: 327 – 329. والبادسي، المصدر السابق، ص:143 و144. وابن قنفد، أنس الفقير، ص: 35.

6 – ابن الأبار، التكملة، ج:2، ص: 687. والغبريني، عنوان الدراية، ص: 85 و97. وابن العماد، شذرات الذهب، ج:5، ص: 189.

بالمشرق والمغرب على الإطلاق أبو الحسن علي بن عبد الله الشاذلي أكثر شيوخ التصوف المغربي تأثيرا في المشرق[1].

فهذه المدرسة الشوذية أهم وأكبر طائفة صوفية فلسفية بهذا العصر، بعد أن ضاقت ذرعا بمطاردة الفقهاء لها وإصدار الفتاوى ضدها، يُهاجر زعماؤها من الأندلس إلى المغرب ثم المشرق خوفا من الموت المحقق كما وقع بأسلافهم، إلاّ أنه وما أن تطأ أرجلهم بلدا ما أو يحلوا بحاضرة إسلامية حتى يتعرضوا لمطاردة الفقهاء وملاحقتهم الشديدة، حيث كانت شهرتهم تسبقهم، "فابن سبعين" مثلا والذي يعتبر رأس الطائفة الشوذية، قد اشتهر في بلاده الأمّ – الأندلس – بآرائه الميتافيزيقية الذوقية في الوجود، وما إن غادرها سنة 640هـ/ 1242م وانتهى به المطاف بحاضرة "سبتة" وأجاب على الأسئلة الفلسفية التي بعث بها الإمبراطور الصقلي "فريدريك الثاني"، حتى قام له الفقهاء واتهموه بالتفلسف وستره بالتصوف، ما جعل حاكم سبتة "ابن خلاص" يجبره على الرحيل، فيترك زاويته ومريديه وذكره فيهم وينزل بمدينة "بجاية" فيجتمع حوله الكثير من الناس ويأخذون عنه وينتفعون به في فنون العلوم، معقولها ومنقولها ويهتمون بأرائه ويقتدون بها[2]، ثم يحل بعد ذلك بتونس، إلا أن تعصب الفقهاء عليه هو دائما الذي يجعله يفكر في الرحيل، فهذا أبو بكر بن خليل السكوني شيخ الفقهاء في تلك البلاد يُوجه حملة شديدة إليه ويتهمه بالزندقة، "فتنمر له المشيخة من أهل الفتيا وحَمَلَة السنة وخطّؤا حالته وخشي (على نفسه) أن تأسره البينات فلحق بالمشرق"[3].

وقد أرجع ابن الخطيب هجوم الفقهاء على ابن سبعين إلى ما أشيع من أخبار عن عقيدته وزي مريديه وطريقة عيشهم حيث يقول: "ولما توفرت

---

1 – الكتاني، سلوة الأنفاس، ج:1، ص: 5و6. وابن العماد، شذرات الذهب، ج:5، ص: 278. والتليدي، المطرب في مشاهير أولياء المغرب، ص: 458 و459.

2 – عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 237.

3 – ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ص: 416.

دواعي النقد عليه من الفقهاء زيا وانتباذا ونحلة وصحبة واصطلاحا كثر عليه التأويل...ووجهت لألفاظه المعاريض، وفليت موضوعاته، وتعاورته الوحشة"[1]، وما أثار عليه النقد والاتهام استخدامه الشطحات والرموز[2] والتي أثارت عليه فقهاء مدينة سبتة عندما انتقل إليها وأتهم بالزندقة[3]، وثار الفقهاء على أتباعه وانتقدوا الملابس التي كانوا يرتدونها وطريقة عيشهم[4].

وهكذا لم يستقر ويطيب له المقام إلا بمكة تحت حماية حاكمها "أبو نمي محمد الأول" (652-702هـ/1254-1302م) بعد أن مرَّ بمصر ولم يحسن استقباله في الوقت الذي استقبل فيه الكثير من الصوفية المغاربة كأبي الحسن الشاذلي الذي دخل مصر حوالي سنة 642هـ/1244م ومعه جملة من تلامذته ومريديه واستوطنوا الإسكندرية، ورغم ما سبَّبه هجوم الفقهاء على نفسية ابن سبعين من أثرٍ سيئ أثناء هجرته من بلد إلى آخر فإنه لم يُؤثِّر فيما يبدو على نشاطه الفكري والتربوي إذ شاعت مصنفاته وانتشرت طريقته وكثُرَ أتباعه[5].

ومن شيوخ الشوذية الذين شنَّ فقهاء المالكية حملة عليهم ابن المرأة الذي أثارت سلوكياته حفيظة الفقهاء فكانوا يُنافرونه على سلوكه[6] واتَّهموه بادعاء النبوَّة، وسعى القاضي الفقيه أبو بكر بن المرابط في انتقاله إلى مرسية[7].

---

1 – ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج:4، ص: 34 و35.

2– أحمد أمين، المرجع السابق، ج: 3، ص: 80 .

3– تقيي الدين مكي، العقد الثمين، ج:5، ص: 332.

4– بالنثيا، المرجع السابق، ص: 387.

5 – العدلوني، التصوف الأندلسي، ص: 131.

6 – الصفدي، الوافي بالوفيات، ج:6، ص: 171. وابن إبراهيم، المصدر السابق، ج:1، ص: 153.

7 – ابن أبي منصور، المصدر السابق، ص:3. والمغراوي، السلطة والصلحاء، ص:454.

وتعرَّضت الشوذية لهجمات من طرف الفقهاء بسبب تبنِّيها للتصوف الفلسفي وتبنِّي شيوخها لوحدة الوجود، ولِما راج عن شيوخها أنهم يحلون المحرمات[1]، وكان من العلماء الذين تتبعوا أفكارها وأحوال شيوخها المحدث أبو جعفر بن الزبير الغرناطي وألف عنها كتابا أسماه "ردع الجاهل عن اعتساف المجاهل في الرد على الشوذية وإبداء غوائلها الخفية"[2]، وألف أيضا في بيان أفكار الشوذية والرد عليها المحدث السبتي أبو عبد الله محمد بن عمر المعروف بابن رشيد، سمى كتابه "إماطة الأذية الناشئة من سباطة الشوذية"[3]، وبما أن الكتابين فُقدا فيمكننا تكوين تصور عن بعض أفكار هذه الجماعة من خلال تراجم شيوخها خاصة علي بن محمد بن مطرف الجذامي الضرير الذي وصفه ابن الزبير بأنه كان داعية سوء في ذلك المذهب، جاهلاً بكل العلوم سواه، وكان يقول بتحليل الخمر ونكاح المتعة ونكاح أكثر من أربع[4].

ومن الرافضين للتصوف الفلسفي خلال القرن 6هـ/12م الفقيه المالكي أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير البلنسي ت614هـ/1218م الذي عبَّر عن رفضه للتصوف الفلسفي بقوله :

قد ظهرت في عصرنا فرقة * ظهورها شؤم على العصر
لا تقتدي في الدين إلا بما * ابن سينا و أبو النصر
ياوحشة الإسلام من فرقة * شاغلة أنفسها بالسفه
قد نبذت دين الهوى خلفها * وادعت الحكمة والفلسفة

1- نفسه، ص: 340.

2 - ابن حجر، الدرر الكامنة، ج:1، ص: 97. وحاجي، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج:، ص: 840. و الباباني، هدية العارفين، ج:1، ص: 103.

3- ابن عبد الملك، الغبريني، المصدر السابق، ج:1، ص: 44.

4 - الغبريني، المصدر السابق، ج:4، ص: 145.

ليست ترى فاعلا حكيما * يفعل شيئا سوى الطبيعـــــــة [1] .

ومـــوقف آخر خلال القرن 7هــــ/13م يمثلــه الفقيــه أبــو محمــد موســى بن عبد الله القشتالي الذي رفض مصنفات القشــيري والغزالــي فــي قولــه : " لــو وجدت تآليف القشيري لجمعتها وألــقيتها في البحــر، وكــذلك كتــب الغزالــي إنــي أتمنــَّى أن أكــون يوم الحشـــــر مــع أبــي محمــد بــن زيــد القيروانــي لا مــع الغــزالي "[2] .

وموقف مــُماثِــل لأحد فقهاء الأندلس النــازحين إلــى بجايــة فــي النصــف الأول من القرن 7هــ/13م أبدى فيه نقده للإحيــاء بقولــه : " متــى ماتــت العلــوم حتى تُحي علوم الدين، ما زالت حية " [3] .

ونذكر منهم المتصوف أبو محمــد المــاجري تـــ631هــــ/1213م الــذي انتقد الفقهاءُ مجاهدته الكثيرة لنفسه واعتبروها بدعــة فــرأى فــي منامــه أن آمــرًا يأمره بعدم الرجوع إليهم إلاَّ فيما يخــص مســائل الفقــه ونعــتهم بعلمــاء الــدنيا[4]، ونظراً للموقف الذي اتخــذه معظــم الفقهــاء مــن المتصــوفة فضَّــل المتصــوف ابن عربي تفادي صدامه بهم فرحل إلى مكــة[5]، وقــد تعــرض هــو الآخــر للنقــد حتى أنهم رموه بالكفر والزندقة[6].

---

1 – المقري، نفح الطيب، ج:2، ص: 384 و385.

2 – التنبكتي، المرجــع الســابــق، ص: 177 .

3 – الغبريني، المصدر الســابــق، ص: 293 .

4– التليدي، المرجع السابق، ص: 108 و 109 و 110.

5– إبراهيم غاقة، <u>الشيخ محيي الدين بن عربي</u>، دار هومة، بوزريعة، الجزائر، 2001م، ص: 45.

6– الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج: 23، ص: 48. ممن كفره أبو حيــان محمــد بــن يوســف الأندلســي عنــد تفسير قوله تعالى { لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المســيح ابــن مــريم...ا] } المائــة 17] مانصــه: " ومــن بعض اعتقاد النصارى استنبط من أقر بالإسلام ظاهرا وانتمى إلى الصــوفية حلــول الله فــي الصــور الجميلــة ومن ذهب من ملاحدتهم إلى القول بالإتحاد والوحدة كــالحلاج والشــعوذي وابــن أحلــى وابــن عربــي المقــيم بدمشق وابن الفارض وأتباع هؤلاء كابن سبعين... . أنظر: أبــو حيــان، البحــر المحــيط فــي التفســير، ج:4، ص: 210 .

ولعلَّ "ابن عربي" الذي هاجر إلى المشرق قبـل هـذه الفتـرة، هـو الآخـر قد ضيَّق عليه الفقهاء، بالإضافة إلى حياة السـياحة التـي كانـت الحيـاة المفضـلة عنده حيث قضى ما ينـاهز ثلاثـين سـنة مـن عمـره (أي بـين حـوالي 590-620هـ/ 1193م - 1223م) في سـياحة مسـتمرة وقلقـة، طـاف خلالهـا بـلاداً إسلامية كثيـرة مـن الأنـدلس إلـى المغـرب ا لإسـلامي (الأدنـى والأوسـط والأقصى) ثم إلى المشرق ولعدة مـرات[1].

وقد حفظ لنا التاريخ بعض المُصـنَّفات فـي الـرد علـى التصـوف الفلسـفي سواءٌ تلك التي ألفت في الأندلس والمغرب وتـردد صـداها فـي المشـرق أو تلـك التي كانت بالمشرق ثم عُرفت بـالمغرب والأنـدلس، ومـن أهـم تلـك المؤلفـات: كتاب "رد الجاهل عن اعتساف المجاهل في الرد علـى الشـوذية وابتـداء غوائلهـا الخفية " لأبي جعفر أحمد بـن ابـراهيم بـن الزبيـر الغرنـاطي الأندلسـي"(627-708هـ / 1229م - 1308م) كما أن له أرجـوزة يبيِّنُ فيها مذهبهم[2].

---

1 - انطلق من مسقط رأسه "مرسية" وطاف بباقي بلاد الأندلس الشـرقية والجنوبيـة ثـم توجـه إلـى مـراكش وفاس بالمغرب والاسكندرية والقاهرة بمصر ومكة والمدينـة بالحجـاز، وبغـداد بـالعراق، ودمشـق بسـورية، وبعدها إلى بلاد الأناضول وأسيا الصغرى حيث كون جماعـة مـن المريـدين بقونيـة وعلـى راسـهم تلميـذه الممتاز "صدر الدين القونوي" (تـ 673هـ/ 1237م)، كما كون في غيرها من الـبلاد التـي حـل بهـا دوائـر صوفية عديدة ورجالات أفذاذ سيلعبون أدوار طلائعية فـي تـاريخ التصـوف الاسـلامي، مسـتجيبا فـي ذلـك لما يتلاقاه من اشارات ربانية تدعوه إلى استئناف السـياحة، كمـا كـان يعتقـد، فـارا مـن اتهامـات الفقهـاء وتهديداتهم على ما نعتقد. فلآراء التي كان يشـيعها بـين مريديـه، خاصـة تلـك التـي تبشـر لعقيـدة وحـدة الوجود، والتي هام بها وألف فيها ما لم يؤلفـه متصـوف قبلـه أو بعـده، قـد بلغـت مسـامع بعـض الفقهـاء (الغيورين على الدين) فأوعزوا به إلى السلطان ولاحقوه أينمـا حـل وارتحـل، متهمـين ايـاه بنشـر البدعـة واظهار الكفر، وقد كثرت بين فقهاء الأنصار مجـادلات حـول حقيقـة ايمانـه، و لهـذا نجـد أكثـرهم طالـب بحبسه أو طالب برأسه. أنظر: اسين بلاثيوس، **ابن عربي حياتـه ومذهبـه**، ترجمـة: عبـد الرحمـان بـدوي، الطبعـة 01، مكتبـة الأنجلـو سكسـونية، القـاهرة، مصـر، 1979م، ص: 29 ومـا بعـدها، والعـدلوني، التصوف الأندلسي، ص: 129.

2 - ابن عبد الملك، المصدر السـابـق، ج:1، ص: 44.

وقد استمـرَّ الهجوم على التصـوف الفلسفي إلـى عهـد "ابـن خلـدون" في القـرن الثامن هجري، حيث نجـده فـي آخـر كتابـة "شـفاء السـائل" ينقـل[1] فتاوى تقدح في أهل التصوف الفلسفي إلى درجة التكفيـر مثـل فتـوى ابـن عبـاد الرندي 792- 733(هـ/ 1389م – 1332م) جوابًـا علـى سـؤال أبـي اسـحاق الشاطبي تـ790هــ/ 1387م " فـي مسـألة اخـتلاف متصـوفة الأنـدلس فـي الحاجة إلى الشيخ أو عدمها"[2]، وفتوى "أبي العبـاس القبـاب" فـي سـؤال الشـاطبي في نفس المسألة[3]، وفتوى أبو فـارس عبـد العزيـز بـن محمـد القيروانـي تــ 750هــ/ 1349م الذي اعتبرهم أشدَّ ضرراً من مردة الشياطين[4].

هذه الهجمة التي نظَّمها الفقهاء أدَّت بالعامة إلى الاقتنـاع بـرأي الفقهـاء فـي الأندلس فاستهجنوا بدورهم التصوف الفلسـفي واتهمـوا المنشـغلين بـه بالزندقـة، بل ورفضوا كل الطرق الصوفية التي تـُقعِد الصـوفي عـن العمـل وتــُجيز لـه التسول، أو تلك التي تؤثر الخمـول والحيـل والنـوادر لمؤانسـة العامـة والتمثيـل قصد التستر على الجانب الفلسفي الذي تنطوي عليـه، وتعـدى ذلـك إلـى التنكيـل بهم وقتلهم حرقا أو رميا بالحجارة قبل أن تنظر السلطة في أمرهم[5].

وممَّا ضـاعف مخـاوف الفقهـاء وجهـودهم هـو سـرعة انتشـار بـدع التصوف الفلسفي بسبب طغيان الفلاحين والبسـطاء علـى طبقـة المريـدين، ممـا

---

1 – ابن خلدون، **شفاء السائل وتهذيب المسائل**، تحقيق: محمد مطيع الحافظ، الطبعة 01، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 1996م، ص: 167 وما بعدها.

2 – نفسه.

3 – نفسه.

4 – أبو فارس القيرواني، **الفتوى المالكية في أفعال الصوفيَّة**، جمع وتحقيق: أبو علي أحمد الكندري، مؤسسة بينونة للنشر والتوزيع، أبوظبي الإمارات، 1430هـ/ 2009م، ص: 18.

5 – المقري، نفح الطيب، ج: 1، ص: 220 .

سهَّل انزلاقهم إلى بدع منكرة غالية، وبدرجة أقل صوفية المدن (مثل فاس وغرناطة) الذين كانوا أقلَّ غلوًا وتطرفًا من صوفية البوادي[1] .

وعموماً حاول الفقهاء تحمُّل مسؤوليتهم أتجاه الدين والمجتمع بالقيام بمهمة الإشراف على الحياة الدينية بكل فصولها لذا تتَّبعوا الصوفية تعقيبًا وتعليقًا وتحذيرًا.

والملاحظ أنه خلال هذه الفترة التي شهدت انتعاش التصوف الباطني لم ينخرط في هذا التيار الصوفي المتفلسف الفقهاء والمحدثين، وهو ما يُفهم من كلام ابن عربي الذي يتعجَّبُ فيه من أحد الفقهاء المتصوفة فيقول: "وهذه حالة نادرة أن يكون الفقيه زاهدا، إذ هذا لا يُشاهد"[2]، والأكيد أنه كان يقصد التصوف الفلسفي التأملي.

ويُمكن إرجاع أسباب هجوم الفقهاء على متصوفة التيار الفلسفي إلى أسبابٍ صرَّحوا بها وأخرى سكتوا عنها، وأهم ما صرحوا به كأساس لهجومهم هو مخالفة أصحاب هذا التيار أصول الدين والشريعة كالقول بأنَّ الأولياء أفضل من الأنبياء، وأن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء، وإثبات العصمة لمشايخهم، والاستغاثة بهم، وسقوط التكاليف الشرعية على من بلغ درجة العارفين منهم، وادعاء الخوارق والتعامل مع الشياطين والجِنّ وغيرها[3]، والقول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود التي نادى بها شيوخ المدرسة الشوذية.

---

1 – محمد فتحة، المرجع السابق، ص : 218 .

2 – ألفرد بل، الفرق المرجع السابق، ص: 386 .

3 – أنظر: ابن تيمية، **الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**، حققه وخرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، سوريا، 1405 هـ / 1985 م، ص: 62 و89 و94 و111 و112 و198.

أما أسباب هجومهم المسكوت عنها فتتعلَّق بانخراط بعض المتصوفة المتأخرين في سلك التشيع، واعتقادهم في الفاطمي (المهدي) وانتظارهم خروجه[1]، بالإضافة إلى هجوم المتصوفة على الفقهاء ومن يدور في فلكهم من متكلمين أشاعرة وصوفيين معتدلة[2].

وبالمقابل كان للصوفية اصطدامٌ مع الفقهاء، فكما وجدنا بين المتصوفة من جمع بين التصوف والفقه، نجد شريحة عريضة من المتصوفة مثلوا تياراً يـُعرض عن الفقه معتبرًا أن علوم الباطن (التصوف) أجدى وأنفع، فاقتصروا على بعض المصنفات في التصوف للاعتقاد السائد حينها أن الفقه يقود إلى طريق الدنيا[3].

فلم يكن جميع صوفية العصر الموحدي بمنأى عن الصراع مع الفقهاء بل كانت لهم مواقف منتقدة للفقهاء[4] خُصُّوا بها أساساً الفئة الراكنة للسلطة والمُقصِّرة في الواجب تجاه الدين، فابن عربي الحاتمي الذي فضَّل علم الباطن العلم اللدني على علم الظاهر يعتبر أنَّ علماء الرسوم " تعوَّدوا أخذ العلم من الكتب ومن أفواه الرجال الذين من جنسهم ورأوا في زعمهم أنهم من أهل الله بما عملوا وامتازوا به عن العامة، حجبهم ذلك عن أن يعلموا أن لله عبادا تولى تعليمهم في سرائرهم بما أنزله في كتبه وعلى ألسنة رسله"[5]، واعتبر ابن عربي الحاتمي "أنه إذا خرج الإمام المهدي فليس له عدو مبين إلا الفقهاء

1 – يقول شيخ الإسلام بن تيمية أن المتصوفة المتأخرين سلكوا " طريق الملاحدة الإسماعيلية في كثير من أمورهم العلمية والعملية ومزجوه بشيء من كلام الصوفية وحقيقته تعود إلى كلام إخوانهم الإسماعيلية القرامطة الباطنية ... ودينهم دين أصحاب " رسائل إخوان الصفا " وأمثالهم من أئمة منافقي الأمم الذين ليسوا مسلمين ولا يهود ولا نصارى". ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج:11، ص: 571.

2 – محمد العدلوني، المرجع السابق، ص: 136..

3 – محمد فتحة، المرجع السابق، ص : 214 .

4 – نفسه، ص: 93.

5 – ابن العربي الحاتمي، الفتوحات المكية، ج:4، ص:267.

خاصة"[1]، ورغم أنَّ المقولة تنطوي على رفضٍ صارم لمهدية ابن تومرت فإنها تؤكد ما اعتقده ابن تومرت من أنَّ الفقهاء شرّ أعداء دعوة التوحيد[2].

لكنه يبرر – ابن عربي – موقفه العنيف بقوله: " إنَّ شرف الفقه وعلة الشرع لا خفاء به ولكني أذم من الفقهاء الصنف الذي تكالب على الدنيا وللرياء وابتغى الناس ولازم الجدال"[3].

أما ابن سبعين فلا ينفي المنطلقات المشتركة بين الصوفي والفقيه والأشعري لكنه يُركز على وجود فروق بينهم فيقول: "إن الصوفي مع كونه يقول بما يقوله الفقيه والأشعري ويعمل بالذي يعملانه غير أنه يعتقد أن البداية فقهية والنهاية صوفية فمن طلب في البداية نهاية فقد تحول عن الهداية ومن طلب في النهاية البداية فقد ضل وحرم الغاية ولكل زمان مذهب ولكل مقام مطلب"[4].

ومن أهم مواطن الخلاف بين متصوفة التيار الباطني والفقهاء أنَّ المتصوفة يرون الأفضلية والأولوية المطلقة لما يُسمى علم الباطن أي مجاهدة النفس، أما الفقهاء فهم يتقيَّدون بعلم الظاهر أي بالقوانين الشرعية التي اعتمدوا عليها في تنظيم علاقة الفرد نحو خالقه[5]، فكان رجال الفقه والحديث يُحذِّرون من المتصوفة وينهون عن الاتصال بهم وعن قراءة كتبهم، بل ووصفهم بالحمقى والجهلة، وفي ذات الوقت كان للمتصوفة نظرتهم الخاصة إلى الطرف المقابل أي إلى الفقهاء والمحدثين، فرأو فيهم أناسًا بعيدين

---

1 – نفسه، ج:3، ص: 336 – 338.

2 – محمد المغراوي، السلطة والصلحاء، ص: 455.

3 – محمود الغراب، شرح رسالة روح القدس لابن عربي، مرجع سابق، ص: 102.

4– ابن سبعين، **بد العارف وعقيدة المحقق المقرب الكاشف وطريق السالك المتبتل العاكف**، تحقيق: جورج كتورة، بيروت، لبنان، 1978م، ص:95.

5 – بشير رمضان التليسي، **الإتجاهات الثقافية في الغرب الإسلامي**، دار المدار الإسلامي، ص: 461 .

عن الله، لا يرفضون الإقبال على الــدنيا بكــل متاعهــا، يشــتغلون بعلــم الظــاهر ويهملون العلم الباطن، وهو العلم الحقيقي عندهم[1] .

ولعلَّ هؤلاء الصوفية كانوا يرون بــأن الفقهــاء لــم يتحــرَّوا الحــلال فــي مكسبهم، وأنَّهم قصدوا نيل الدنيا بما أُوتوا من علم، وأنهــم " يُحشــرون فــي زمــرة السلاطين" حسب كلام الغزالي في الإحياء[2].

وكخلاصــة للوضــع الصــوفي فــي الغــرب الإســلامي خــلال العصــر الموحدي يُمكن القول بأنـــَّـه شهــِدَ تحولاً ملموســاً مــن ثوبــه الزهــدي البســيط إلى تصوف التأمل والتفلســف البــاطني، ولــم يَعُــدْ التصــوف الفلســفي مرتبطــاً بالعدوة الأندلسية خلال العصر الموحدي، بل شكَّل تيــاراً منافسًــا للتيــار الصــوفي الزهدي الأصيل في المغرب الإسلامــي والأندلس.

تواصل وتعايش فقهاء العصر الموحدي مــع متصــوفة التيــار الســني، فــي الوقت الذي ناصب فيه الفقهاء العــداء للتصوف الفلسفي وأقطابــه.

بينما كان تعامل السلطة الموحديــة مــع التيــارات الصــوفية بشــكل متقــاربٍ بغضِّ النظر عن طبيعة توجُّهاتِـــهِ الســنية أو الباطنيَّـــة، وذلــك مــن منطلقــاتٍ وخلفيَّــاتٍ سياسية وحساباتٍ وهواجس أمنيــة، فتبنَّــت الســلطة سياســة التطويــق والمتابعة والإشخاص مع كل شيـــوخ التصــوف الــذين كثــُـــرَ أتبــاعهم وازداد نفوذهــم وبــرز شأنهــم.

---

1 – نفسه، ص: 463 .

2 – الغزالي، إحياء علوم الدين، ج: 1، ص: 61.

خاتمة البحث

في نهاية هذا العمل الذي حاولت من خلاله تشكيل صورة مقرَّبة عن الأوضاع المذهبية في الغرب الإسلامي الموحدي أصولاً وفروعاً وتصوفاً، من خلال استعراض الأسباب والمظاهر والنتائج، ورصد وتتبُّع مواقف السلطة والفقهاء ودورهم في صنع المشهد المذهبي بالغرب الإسلامي الموحدي، خلصتُ – من خلاله – إلى جملةٍ من النتائج ذُكرت في متن العمل ونوجزها فيما يلي:

من خلال الفصل التمهيدي تبيّن لنا تمسُّك المرابطين بمذهب مالك أصولاً وفروعًا وسلوكاً، فقطعوا الطريق على المذهب الأشعري والعلوم الكلامية والفلسفية، كما تمثلوا فقه الإمام مالك، وسلوكه بعيدًا عن التأملات الفلسفية الغنصوية الإشراقية، ساعد على ترسيخ ذلك تحالف تاريخيٌّ حميميّ جمع السلطة المرابطية بالفقهاء المالكية.

وبدايةً من العصر الموحدي سجّلت المصادر ظهور نزعات شيعية وباطنية وخارجية تضمَّنتها العقيدة التومرتية، جمع فيها ابن تومرت من كل مذهبٍ ما يخدم مشروعه الرامي إلى إسقاط النظام المرابطي وتأسيس إمارة جديدة وفق منظوره وتصوره.

من الصعب الفصل في توجُّه ابن تومرت المذهبي أصولا وفروعا وسلوكا، حيث جمع في تديُّنه بين ما هو شخصي بما هو ظرفي، وما هو مذهبي بما هو واقعي، وما هو ديني بما هو هرطقي، مما يجعلنا نُرجح أنَّ ابن تومرت لم يكن يهمُّه تأسيس فرقة إسلامية جديدة أو إغناء مذهب ما بقدر

ما كان يطمحُ إلى إحداث تغيير جذري في الحياة السياسية والاستيلاء على السلطة، وقد وظَّف من أجل ذلك آراءً متناقضة وأفكاراً غير مُتجانسة.

نجح ابن تومرت في تقويض الدولة المرابطية سياسيا ومذهبيا، مما جعل قوة الدولة الموحدية مرتبطة بهذه البنية الفكرية، فعمل عبد المؤمن بن علي وابنه يوسف على ترسيم العقيدة التومرتية وتقريرها ونشرها حفاظاً على وحدة الدولة وتعزيزًا للتوجه العقيدي الذي قامت عليه الدولة الموحدية وتميَّزت به، في حين أضمر المنصور بن يوسف سخطه على مضمون هذه العقيدة ولم يُظهر ذلك ووجَّه اهتمامه إلى الجانب الفقهي، ليُعلن ابنه الناصر إسقاطها رسميا ويُجاهر بذلك، وفشلت مساعي مَنْ بعده لإعادة إحياء وتجديد العقيدة التومرتية التي قامت على أساسها الدولة الموحدية، مما أحدث اضطرابًا سياسيًا وفكريًا شكَّل مقدمات سقوط الدولة.

وكان من الطبيعي أن يقف الفقهاء مُعادين أو متجاهلين لهذه العقيدة لاحتوائها على عناصر خارجية وشيعية وأخرى باطنية مخالفة لمعتقد أهل السنة، وإن وُجدت طائفة من الفقهاء المُعتقدين لها والمُدافعين عنها ممَّن نشأ في البلاط الموحدي أو تزلَّف للسلطة، ومن رأى فيها عقيدة رشيدة.

كما نُكبت العلوم الفلسفية والكلامية على يد الخليفة الموحدي يعقوب المنصور، ونُكب أبرز أعلامها، وفقدت مكاسبها التي حققتها في خلافة يوسف بن عبد المؤمن، وعادت منبوذة بين الفقهاء والعامة.

والتحول العقيدي الذي اتَّضحت ملامحه خلال العصر الموحدي هو التحول نحو العقيدة الأشعرية، حيث استطاع فقهاء الغرب الإسلامي الابتعاد بالعقيدة الأشعرية عن الفكر التومرتي والرجوع بها للتوافق مع أشعرية المشارقة بعيداً عن الشوائب الشيعيَّة والباطنيَّة، فانتشرت واستقرَّت بسبب خلوِّها من الأثر التومرتي ورعاية السلطة الموحدية لها.

ولم يبق – في نهاية العصـــر الموحـــدي– للعقيـــدة التومرتيـــة أثـــر إلاَّ الأثـــر الأشعـــري، بينما زالت بقيت عناصر العقيدة بفعل تخلّـــي الســـلطة عنهـــا وتجاهـــل الفقهاء لها.

أما على المستوى الفقهي فقد شهد العصـــر الموحـــدي صـــراعاً مالكيـــاً ظاهريًا، إذْ حاول الخلفـــاء الموحـــدون تجســـيد المـــنهج الظـــاهري فـــي الفقـــه ومعاداة الفـــروع وتغييـــر الواقـــع الفقهي الذي كان عليـــه الحـــال فـــي العهـــد المرابطـــي، فأظهـــــرت الســـلطة الموحــــدية العـــداء للفـــروع دون المـــذهب المالكي بعينه، وفي عهد الخليفة يعقـــوب المنصور بلـــغ الصـــراع ذروتـــه بـــين المذهب الظاهري المُدعَّـــم من جانـــب الســـلطة والمـــذهب المـــالكي المُدعَّـــــم من من طرف الفقهاء والعامـــــة، وكـــان هـــذا الصـــراع، عنصـــراً مُنـــــشِّطاً لحركة الحـــوار الذي كان في حقيقة أمره بين مـــنهج الفـــــروع والتقليـــــد مـــن جهة، ومنهـــج التأصيـــل والاجتهـــاد من جهة أخـــرى.

ورغم ما حقّقـــه خلفاء الدولة الموحديـــة مـــن تقـــدُمٍ فـــي إقـــرار المـــنهج الأصولي إلا أنّه فشل وانتهى المطـــاف إلـــى عـــودة الفـــروع والمـــذهب المـــالكي بأكثر قـــوةٍ بسبب تأصُّله بين المغاربـــة، وتبنِّـــي المـــذهب مـــن طـــرف الـــدويلات التي ورثت الحكم الموحدي، و من جهة أخـــرى طبيعـــة التغييـــر الموحـــدي الـــذي افتقـــر إلى التدرج والأسلوب العلمي المبني أساسا على الإقناع والحجـــة.

أما التصوف فقـــد عـــُـــــرف بـــالغرب الإســـلامي خـــلال العصـــر الموحـــدي بشقيْه السنِّي والفلسفي، فقـــد اســـتمرَّ التصـــوف الســـني فـــي العـــدوتين يـــُميِّـــــز الفقهاء والعلماء، والصلحاء والخلفـــاء، والعامـــة والـــدهماء، بينمـــا ســـجَّلنا زحـــف التصوف الفلسفي من العدوة الأندلســـية علـــى المغـــرب الإســـلامي، فكـــان تعامـــل السلطة مع التصوف بشـــقيه الســـنِّي والفلســـفي بحـــذرٍ وتخـــوف حينـــاً، وتطويـــقٍ

ومتابعةٍ أحياناً أخرى، إذْ تعاملت السلطة مــع التيــار الصــوفي – سُــنياً كــان أو فلسفياً – من منطلــقٍ أمنــي يشوبُــه التخــوف والحــذر مــن تحولــه إلــى قــوة سياسية تهدد وحدة الدولة وسلامتها وأمنها.

بينما تعامــل الفقهاء بازدواجيــة مــع التيــار الصــوفي، فسجَّــــلنا تعايشـــهم بحذرٍ مع التيار السنِّي، وكان اصطدامهم مع أهلــه فــي مســائل الكرامــة وإجهــاد النفس في التعبد والانقطاع عن النــاس، بينمــا كــان تعامــل الفقهــاء مــع التيــار الصوفي الفلســفي يطغــى عليــه التهجُّـــم والإنكــار، والتكفيــر أحيانًــا أخــرى لانحــــراف أقطــاب هــذا التيــار عـــن بعــض مُســلَّمات العقيــدة الإســلامية كــقولهــم بوحــدة الــوجــود.

ويُــمكن القــول في الأخير أنَّ الحركــة الفكريــة والعلميــة والمذهبيــة فــي الغرب الإسلامي خــلال العصــر الموحـــدي حركــة تجاذبتهــا ثــلاث تيــاراتٍ هي: العقيدة الموحدية وما يُقابلها من ســلفيةٍ رافضــةٍ لهــا، والمالكيــة فــي مُقابــل الظاهرية الحزمية، والــزهد والتنسُّك في مقابل التصوف الفلسفــي.

والله المــُــستعــان، وهو ولـي التوفيق والسداد .

والصلاة والسلام على رسول الله .

والحمد لله رب العالمين أولا و أخيرا .

<u>جامعــة الشلف فــي: 09 محــرم 1433هــ / الموافق لــ : 04 ديسمبــر 2011م.</u>

الـــمـلاحـــق

1 – مناظرة عبد المؤمن لفقهاء المالكية.

2 – رسالة المنصـــور بعد نكبة ابن رشد.

3 – خطاب المـــأمون الموحـــدي الـــذي أعلـــن فيه نبذ العقيدة التومرتية.

✓ الملحق رقم (01) : مناظرة عبد المؤمن بن علي الموحدي للفقيه ابن زرقون المالكي تعكس حرص عبد المؤمن بن علي على تطبيق المذهب الظاهري .

"... ولَمَّا أَنْ اطْمَأَنَّتْ بِالْأَمِيرِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ الدَّارُ، جَمَعَ الْفُقَهَاءَ إِمَّا لِاخْتِبَارِ مَذْهَبِهِمْ أَوْ حَمْلِهِمْ عَلَى مَذْهَبِ ابْنِ حَزْمٍ، فَحَكَى عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَرْقُونٍ جَامِعَ الِاسْتِذْكَارِ وَالْمُنْتَقَى قَالَ كُنْت فِيمَنْ جَمَعَهُمْ فَقَامَ عَلَى رَأْسِهِ كَاتِبُهُ وَوَزِيرُهُ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ عَطِيَّةَ، فَخَطَبَ خُطْبَةً مُخْتَصَرَةً ثُمَّ رَدَّ رَأْسَهُ إلَى الْفُقَهَاءِ وَقَالَ لَهُمْ بَلَغَ سَيِّدُنَا أَنَّ قَوْمًا مِنْ أُولِي الْعِلْمِ تَرَكُوا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – وَصَارُوا يَحْكُمُونَ بَيْنَ النَّاسِ وَيُفْتُونَ بِهَذِهِ الْفُرُوعِ وَالْمَسَائِلِ الَّتِي لَا أَصْلَ لَهَا فِي الشَّرْعِ أَوْ كَلَامًا هَذَا مَعْنَاهُ وَقَدْ أَمَرَ أَنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ وَنَظَرَ فِي شَيْءٍ مِنْ الْفُرُوعِ وَالْمَسَائِلِ عُوقِبَ الْعِقَابَ الشَّدِيدَ وَفُعِلَ بِهِ كَذَا وَكَذَا وَسَكَتَ وَرَفَعَ الْأَمِيرُ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ رَأْسَهُ إلَيْهِ، وَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالْجُلُوسِ فَجَلَسَ، وَقَالَ سَمِعْتُمْ مَا قَالَ فَقَالَ لَهُ الطَّلَبَةُ نَعَمْ قَالَ وَسَمِعْنَا أَنَّ عِنْدَ الْقَوْمِ تَأْلِيفًا مِنْ هَذِهِ الْفُرُوعِ يُسَمُّونَهُ الْكِتَابَ يَعْنِي الْمُدَوَّنَةَ وَأَنَّهُمْ إذَا قَالَ لَهُمْ قَائِلٌ مَسْأَلَةً مِنْ السُّنَّةِ وَلَمْ تَكُنْ فِيهِ أَوْ مُخَالِفَةً لَهُ قَالُوا مَا هِيَ فِي الْكِتَابِ أَوْ مَا هُوَ مَذْهَبُ الْكِتَابِ وَلَيْسَ ثَمَّ كِتَابٌ يُرْجَعُ إلَيْهِ إلَّا كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةُ رَسُولِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ وَأَرْعَدَ وَأَبْرَقَ فِي التَّخْوِيفِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْ النَّظَرِ فِي هَذِهِ الْكُتُبِ وَالْفُقَهَاءُ سُكُوتٌ ثُمَّ قَالَ، وَمِنْ الْعَجَبِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ أَقْوَالًا بِرَأْيِهِمْ وَلَيْسَتْ مِنْ الشَّرْعِ أَوْ قَالَ مِنْ الدِّينِ فَيَقُولُونَ مَنْ طَرَأَ عَلَيْهِ خَلَلٌ فِي صَلَاتِهِ يُعِيدُ فِي الْوَقْتِ فَيَتَحَكَّمُونَ فِي دِينِ اللَّهِ – تَعَالَى – لِأَنَّهَا إمَّا صَحِيحَةٌ فَلَا إعَادَةَ أَوْ بَاطِلَةٌ فَيُعِيدُ أَبَدًا فَيَا لَيْتَ شِعْرِي مِنْ أَيْنَ أَخَذُوهُ فَصَمَتَ الْقَوْمُ وَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ لِحِدَّةِ الْأَمْرِ وَالْإِنْكَارِ.

قَالَ ابْنُ زَرْقُونٍ فَحَمَلَتْنِي الْغَيْرَةُ عَلَى أَنْ تَكَلَّمْت وَتَلَطَّفْت فِي الْكَلَامِ لَهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحْيَا بِهِمْ الْحَقَّ وَأَهْلَهُ وَأَمَاتَ الْبَاطِلَ وَأَهْلَهُ وَذَكَرَ نَحْوَ هَذَا الْمَنْحَى، وَقُلْت إنْ أُذِنَ لِي فِي الْجَوَابِ تَكَلَّمْتُ وَأَدَّيْتُ نَصِيحَتِي وَهِيَ السُّنَّةُ فَقَالَ كَالْمُنْكِرِ عَلَيَّ وَهِيَ السُّنَّةُ أَيْضًا وَكَرَّرَهَا فَقُلْتُ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ «أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَصَلَّى ثُمَّ جَاءَ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيْهِ وَقَالَ: ارْجِعْ وَصَلِّ فَإِنَّك لَمْ تُصَلِّ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ وَالَّذِي بَعَثَك بِالْحَقِّ مَا أُحْسِنُ غَيْرَ هَذَا فَعَلِّمْنِي، فَقَالَ لَهُ: إذَا افْتَتَحْتَ الصَّلَاةَ» إلَى آخِرِ الْحَدِيثِ فَأَمَرَهُ بِإِعَادَةِ الْوَقْتِيَّةِ وَلَمْ يَأْمُرْهُ بِإِعَادَةِ مَا خَرَجَ وَقْتُهُ مِنْ الصَّلَوَاتِ.

فَعَلَى هَذَا بَنَى الْفُقَهَاءُ أَمْرَهُمْ فِيمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ خَلَلٌ فِـي الصَّـلَاةِ فَلَمَّـا أَصْـغَى إِلَـيَّ اتَّسَـعَ لِـي الْقَوْلُ فَقُلْت لَهُ يَا سَيِّدِي جَمِيعُ مَا فِي هَذَا الْكِتَابِ مَبْنِيٌّ عَلَـى الْكِتَـابِ وَالسُّـنَّةِ وَأَقْـوَالِ السَّـلَفِ وَالْإِجْمَاعِ وَإِنَّمَا اخْتَصَرَهُ الْفُقَهَاءُ تَقْرِيبًا لِمَـنْ يَنْظُـرُ فِيـهِ مِـنْ الْمُتَعَلِّمِـينَ وَالطَّـالِبِينَ فَانْطَلَقَـتْ أَلْسِنَةُ الْفُقَهَاءِ الْحَاضِرِينَ حِينَئِذٍ وَوَافَقُونِي عَلَى مَا قُلْـتُ ثُـمَّ دَعَـا فَقَـالَ اللَّهُـمَّ وَفِّقْنَـا يَـا رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَقَامَ إِلَى مَنْزِلِهِ فَقَالَ الْوَزِيرُ أَقْدِمْت عَلَـى سَـيِّدِنَا الْيَـوْمَ يَـا فَقِيـهُ فَقُلْـتُ لَـوْ سَـكَتُّ لَلَحِقَتْنِي عُقُوبَةُ اللَّهِ تَعَالَى قَالَ فَكُنْت أَدْخُلُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى عَبْدِ الْمُـؤْمِنِ فَـأَرَى مِنْـهُ الْبِـرَّ التَّـامَّ وَالتَّكْرِمَةَ

ثُمَّ سَكَتَ الْحَالُ بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّى جَاءَ أَيَّامُ حَفِيدِهِ الْأَمِيرِ يَعْقُـوبَ فَـأَرَادَ حَمْـلَ النَّـاسِ عَلَـى كُتُـبِ ابْنِ حَزْمٍ فَعَارَضَهُ فُقَهَاءُ وَقْتِهِ وَفِيهِمْ أَبُو يَحْيَى بْنُ الْمَـوَّاقِ وَكَـانَ أَعْلَمَهُـمْ بِالْحَـدِيثِ وَالْمَسَـائِلِ فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ لَزِمَ دَارَهُ وَعَارَضَ وَأَكَبَّ عَلَى جَمْعِ الْمَسَـائِلِ الْمُنْتَقَـدَةِ عَلَـى ابْـنِ حَـزْمٍ حَتَّـى أَتَمَّهَا وَكَانَ لَا يَغِيبُ عَنْهُ فَلَمَّا أَتَمَّهَا جَاءَ إلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَـنْ حَالِـهِ وَغَيْبَتِـهِ وَكَـانَ ذَا جَلَالَـةٍ عِنْـدَهُ وَمُبِرًّا لَهُ فَقَالَ لَهُ: يَا سَيِّدُنَا قَدْ كُنْتُ فِي خِدْمَتِكُمْ لَمَّا سَمِعْتُكُمْ تَـذْكُرُونَ حَمْـلَ النَّـاسِ عَلَـى كُتُـبِ ابْنِ حَزْمٍ وَفِيهَا أَشْيَاءُ أُعِيذُكُمْ بِاَللَّهِ مِنْ حَمْلِ النَّـاسِ عَلَيْهَـا وَأَخْرَجْـتُ لَـهُ دَفْتَـرًا فَلَمَّـا أَخَـذَهُ الْأَمِيرُ جَعَلَ يَقْرَؤُهُ، وَيَقُولُ أَعُوذُ بِاَللَّهِ أَنْ أَحْمِلَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ – صَـلَّى اللَّـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ – عَلَـى هَذَا وَأَثْنَى عَلَى ابْنِ الْمَوَّاقِ وَدَخَلَ مَنْزِلَهُ ثُمَّ سَكَتَ الْحَالُ بَعْـدُ فِـي الْفُـرُوعِ وَظَهَـرَتْ وَقَوِيَـتْ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَهِيَ إذَا أَخَذْت مَسْأَلَةً مَسْأَلَةً وَجَدْت كُلَّهَـا رَاجِعَـةً إلَـى أُصُـولِ الشَّـرِيعَةِ الْكِتَـابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ وَلَا يُوجَدُ شَيْءٌ مِنْهَا خَارِجًـا عَنْهَـا؛ لِـأَنَّ وَاضِـعَهَا وَمُسْـتَنْبِطَهَا مِـنْ خِيَـارِ سَلَفِ الْمُسْلِمِينَ وَعُلَمَائِهِمْ وَعُدُولِهِمْ وَأَهْلِ التَّفَقُّهِ وَالْمَعْرِفَـةِ بِالشَّـرْعِ فَهُـمْ قَـوْمٌ غُـذُّوا بِـالتَّقْوَى وَرُبُّوا بِالْهُدَى فَهُمْ أَنْوَارُ الدُّنْيَا وَرَيَاحِينُهَا وَبَرَكَاتُ الْأُمَّـةِ وَمَيَامِينُهَـا عُـدُولُ كُـلِّ خَلَـفٍ وَأَئِمَّـةُ كُلِّ سَلَفٍ سَادَةٌ أَفْنَوْا أَعْمَارَهُمْ فِي اسْتِنْبَاطِهَا وَتَحْقِيقِهَا بَعْـدَ تَمْيِيـزِ الصَّـحِيحِ مِـنْ السُّـنَنِ مِـنْ السَّقِيمِ وَالنَّاسِخِ مِنْ الْمَنْسُوخِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عُلُومِهَـا وَدَوَّنُوهَـا كُتُبًـا وَجَعَلُوهَـا أَبْوَابًـا مُهَذَّبَـةً مُقَرَّبَةً وَكَفَوْا مَنْ أَتَى بَعْدَهُمْ الْمُؤْنَةَ بِأَنْ تَرَكُوا الْأُصُولَ عَلَـى أَصْـلِهَا وَفَرَّعُـوا عَلَيْهَـا فُرُوعَهَـا مِنْ الْفِقْهِ تَقْتَضِيهَا وَمَسَائِلَ طَلَبًا لِلِاخْتِصَارِ وَتَقْرِيبًا عَلَى النَّـاظِرِ فَجَـزَاهُمْ اللَّـهُ عَـنْ الْمُسْـلِمِينَ أَحْسَنَ جَزَائِهِ كَمَا جَعَلَهُمْ وَرَثَةَ أَنْبِيَائِهِ وَحَفَظَةَ شَرْعِهِ وَجَعَلَنَا مِنْ الْمُتَّبِعِينَ لَهُمْ.

وَذَكَرَ ابْنُ رُشْدٍ فِي أَوَّلِ الْمُقَدِّمَاتِ أَنَّ الْمُدَوَّنَةَ تَدُورُ عَلَـى مَالِـكِ بْـنِ أَنَـسٍ إمَـامِ دَارِ الْهِجْـرَةِ وَابْنُ الْقَاسِمِ الْمِصْرِيِّ الْوَلِيِّ الصَّالِحِ وَسَـحْنُونٌ وَكُلُّهُـمْ مَشْـهُورُونَ بِالْإِمَامَـةِ وَالْعِلْـمِ وَالْفَضْـلِ وَنَحْوِهِ لِابْنِ الرَّقِيقِ وَالْمَدَارِكِ اهـ كَلَامُ الْبُرْزُلِيِّ بِتَقْـدِيمٍ وَتَـأْخِيرٍ وَأَمَّـا قَصْـرُ الرُّبَاعِيَّـةِ فِـي نِصْفِ يَوْمٍ فَهُوَ قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنْ الظَّاهِرِيَّةِ مَرْدُودٌ عَلَيْهِمْ وَفِطْـرُ رَمَضَـانَ فِيـهِ لَـمْ أَرَ مَـنْ قَـالَ

بِهِ وَصَلَاةُ الْجِنَازَةِ بِلَا طَهَارَةٍ مَذْهَبٌ شَاذٌّ مَرْدُودٌ وَسُجُودُ التِّلَاوَةِ وَإِنْ كَانَ فِي الْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ فَقَدْ قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ الْإِجْمَاعُ عَلَى خِلَافِهِ وَعَارَضَهُ الْحُفَّاظُ بِمَا خَرَّجَهُ الْبَيْهَقِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ لَا يَسْجُدُ الرَّجُلُ إلَّا وَهُوَ طَاهِرٌ وَالْجَهْرُ بِالْبَسْمَلَةِ وَالْقَبْضُ وَالْقُنُوتُ جَهْرًا بَعْدَ الرُّكُوعِ مَذْهَبُ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ وَتَأْخِيرُ الصُّبْحِ لِلْإِسْفَارِ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَهَؤُلَاءِ تَرَكُوا تَقْلِيدَ إمَامٍ مُعَيَّنٍ وَاتَّبَعُوا الْأَحَادِيثَ بِزَعْمِهِمْ فَتَارَةً وَافَقُوا بَعْضَ الْمَذَاهِبِ الصَّحِيحَةِ وَتَارَةً بَعْضَ الْمَذَاهِبِ الشَّاذَّةِ وَتَارَةً خَرَقُوا الْإِجْمَاعَ وَهَذَا شُؤْمُ الْخُرُوجِ عَنْ الْمَذَاهِبِ وَالِابْتِدَاعِ قَالَ الْعَارِفُ الشَّعْرَانِيُّ.

فَإِنْ قُلْت فَهَلْ يَجِبُ عَلَى الْمَحْجُوبِ عَنْ الِاطِّلَاعِ عَلَى الْعَيْنِ الْأُولَى التَّقَيُّدُ بِمَذْهَبٍ مُعَيَّنٍ.

فَالْجَوَابُ نَعَمْ يَجِبُ عَلَيْهِ ذَلِكَ لِئَلَّا يَضِلَّ فِي نَفْسِهِ وَيُضِلَّ غَيْرَهُ انْتَهَى.

عليش أبو عبد الله محمد بن أحمد المالكي (ت 1299هـ/ 1881م)، **فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك**، دار المعرفة، د.ت.ط ، ج:1 ، 102، 103، 104.

✓ الملحق رقم (02) : رسالة يعقوب المنصور الموحدي بعد نكبة ابن رشد إلى الولايات يأمر فيها الناس بترك علوم الفلسفة وإحراق كُتبها

" ... وقد كانَ فِي سَالِف الدهر قومٌ خاضوا في بحور الأوهــام وأقَــر لهــم عــوامُّهم بشُــفوف عليهم في الأفهام، حيث لا داعي يدعو إلا الحي القيوم، ولا حاكم يفصــل بــين المشــكوك فيــه والمعلوم، فخلَّدوا في العالم صحفاً مالها مــن خــلاق، مســودة المعــاني والأوراق، بُعــدها مــن الشريعة بُعد المشرقين وتباينها تباين الثقلين، يوهمــون أن العقــل ميزانهــا، والحــق برهانهــا، وهم يتشعبون في القضية الواحدة فرقا ويصيرون فيها شواكل وفرقــا، ذلــك بــأن خلقهــم للنــار وبعمل أهل النار يعملون (ليحملــوا أوزارهــم كاملــة يــوم يــوم القيامــة ومــن أوزار الــذين يظلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون) . ونشأ منهم في هــذه الســمحة البيضــاء شــياطين إنــس (يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون إلا أنفسهم ومــا يشــعرون)، (يــوحي بعضــهم إلــى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك مــا فعلــوه فــذرهم ومــا يفتــرون) فكــانوا عليهــا أضر من أهل الكتاب، وأبعد عن الرجعة إلى الله والمــآب، لأن الكتــابي يجتهــد فــي ضــلال، ويجد في كلال، وهؤلاء جهودهم التعطيل،وقصاراهم التمويه والتخييــل ، دبــت عقــاربهم فــي الآفاق برهة من الزمان، الى أن أطلعنــا الله ســبحانه مــنهم علــى رجــال كــان الــدهر قــد سالمهم على شدق حروبهم وأغفى عــنهم ســنين علــى كثــرة ذنــوبهم ، ومــا أملــي لهــم إلا ليزدادوا إثما، وما أمهلوا إلا ليأخذهم (الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شئ علما).

وما زلنا – وصل الله كرامتكم– نذكرهم على مقــدار ظننــا فــيهم , ونــدعوهم علــى بصــيرة إلى ما يقربهم إلى الله سبحانه ويــدنيهم ، فلمــا أراد الله فضــيحة عمــايتهم وكشــف غــوايتهم، وقف لبعضهم على كتب مسطورة في الظلال موجبة أخذ كتــاب صــاحبها بالشــمال، ظاهرهــا موشح بكتاب الله، وباطنها مصرح بالإعراض عــن الله، لــبس منهــا الايمــان بــالظلم ويجــئ منه بالحرب الزبون في حالة السلم ، مزلة للأقدام، وســمٌّ يــدب فــي بــاطن الإســلام، أســياف أهل الصليب دونها مفلولة، وأيديهم عن ما يناله هــؤلاء مغلولــة، فــإنَّهم يوافقــون الأمــة فــي ظاهرهم وزيهم ولسانهم، ويخالفونهم بباطنهم وغيِّهم وبهتانهم، فلما وقفنــا مــنهم علــى مــا هــو قذى في جفن الدين، ونكتة سوداء في صــحيفة النــور المبــين، نبــذناهم فــي الله نبــذ النــواة وأقصيناهم حيث يقصى السفهاء من الغواة، وأبغضناهم في الله كمــا أنــا نحــب المــؤمنين فــي الله، وقلنا اللهم إن دينك هو الحق اليقين، وعبــادك هــم الموصــوفون بــالمتقين، وهــؤلاء قــد صدفوا عن آياتك، وعميت أبصارهم وبصائرهم عــن بيناتــك، فباعــد أســفارهم، وألحــق بهــم

أشياعهم حيث كانوا وأنصارهم، ولم يكن بينهم إلا قليل وبين الإلحام بالسيف في مجال ألسنتهم، والإيقاظ بحده من غفلتهم ، ولكنهم وقفوا بموقف الخزي والهون، ثم طردوا من رحمة الله (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون).

فاحذروا- وفقكم الله – هذه الشرذمة على على الإيمان، حذركم من السموم السارية في الأبدان ومن عثر له على كتاب من كتبهم فجزاءه النار التي بها يعذب أربابه، وإليها يكون يكون مآل مؤلفه وقارئه ومآبه، ومتى عثر منهم على مجر في غلوائه، عم عن استقامته واهتدائه، فليعاجل فيه بالتثقيف والتعريف (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون)، (أولئك الذين حبطت أعمالهم)، (أولئك الذين ليس لهم في الأخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) والله تعالى يطهر من دنس الملحدين أصقاعكم، ويكتب في صحائف الأبرار تظافركم على الحق واجتماعكم، إنه منعم كريم ... ".

ابن عبد الملك أبي عبد الله محمد بن محمد الانصاري المراكشي (ت 703هـ / 1303م) ، **<u>الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة</u>**، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة 01، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1973م، ج: 6 ، ص: 66 و27 و28. وأيضا : عزاوي أحمد، **<u>رسائل موحدية – مجموعة جديدة</u>**، تحقيق ودراسة، الطبعة 01، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، المغرب، 1416هـ/1995م، ج: 01، ص: 206 و 207، الرسالة رقم: 43.

✓ الملحق رقم (03) : رسالة الخليفة المأمون الموحدي التي خرجت عن نهج الموحدين وعقائدهم)

" من عبد الله إدريس أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين، إلى الطلبة والأشراف والأعيان والكافة، ومن معهم من المؤمنين والمسلمين أوزعهم شُكر أنعمه، ولا أعدمهم طلاقة أوجهِ الأيام الوِسام.

وإنا كتبناه إليكم ــ كتب الله لكم عملا مُنقادا، وسعدا وقَّادا، وخاطرا سليما، لا يزال على الطاعة مُقيما، من حضرة مراكش ــ كلأها الله تعالى ــ وللحق لسان ساطع، وحسام قاطع، وقضاء لا يرد، وباب لا يسد، وظِلالٌ على الآفاق تمحو النفاق وبعد: فالذي نوصيكم به تقوى الله العظيم، والاستعانة به، والتوكل عليه.

ولتعلموا أنا نبذنا الباطل وأظهرنا الحق، وأن لا مهدي إلا عيسى بن مريم، روح الله، وما سمي: مهديا إلا لأنه تكلم في المهد، فتلك بدعة قد أزلناها، والله يعيننا على هذه القلادة التي تقلّدناها. وقد أزلنا لفظ العصمة عمن لا تثبت له عصمة، فلذلك أزلنا عنه رسمه، فيمحى ويسقط ولا يثبت.

وقد كان سيدنا المنصور ــ رضي الله عنه ــ هم أن يصدع بما به الآن صدعنا، وأن يرقع للأمة الخرق الذي رقعنا، فلم يُساعده لذلك أملُه، ولا أجَّله إليه أجلُه، فقدم على رأيه بصدق نية وخالص طِوِّية.

وإذا كانت العصمة لا تثبت عند العلماء للصحابة، فما الظنُّ بمن لم يدرِ بأي يدٍ يأخذ كتابَه. أفٍّ لهم قد ضلُّوا وأضلُّوا، ولذلك وَلُّوا وذُلُّوا، ما تكون لهم الحجة على تلك المَحَجَّة؟!. اللهم اشهد أنا قد تبرأنا منهم تبرؤ أهل الجنة من أهل النار، ونعوذ بك ياجبارُ من فِعْلِهم الرَّثِيثِ، ولأمِرهم الخبيث... إنهم في المعتقد من الكفار، وإنا نقول فيهم كما قال نبيك عليه السلام (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا). والسلام على من اتبع الهدى واستقام".

ابن عذارى أبو عبد الله أحمد ابن محمد المراكشي (ت 695هـ/1295م)، **<u>البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب – قسم الموحدين</u>**،(قسم الموحدين)، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت ومحمد زنيبر وعبد القادر رزمامة، الطبعة 01، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1406هـ/1995م، ص: 286 و287. ومجهول، **<u>الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية</u>**، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الطبعة 01، دار الرشاد الحديثة، 1399هـ/ 1993م، ص: 164 و 165.

الـفـهـارس

❖فهــرس الأعلام .

❖فهــرس الأماكن .

❖فهــرس الفرق والمذاهب .

فهرس الأعلام

أ

ن

فهــرس الأمــاكــن

فـــهرس الفـــرق والمـــذاهـــب

أ

ب

ح

م

و

ي

قائـــمـــة المصـــادر والـــمـــــراجــــع :

أولا: المـــصــــــــادر.

ثانيـــاً: المـــراجـــــع العـــربيـــة.

ثالـــثـــًا: المراجـــع الإستـــشـــراقـــيـــة.

رابـــــعًا: المجلات والدوريـــات والمـــنشـــورات.

خـــامســًا: الدراسات غير المطبـــوعـــة.

قـــائمة المصادر و المـراجـــع

أولاً : المــصـــــادر :

1. ابن أبي أصيبعة أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي (ت 668هـ/1269م)، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، تحقيق: رضا نزار، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.ت.ط.

2. ابن أبى الحديد عبد الحميد بن هيبة الله (ت 656هـ/1258م)، **شرح نهج البلاغة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية.

3. ابن أبي دينار محمد بن أبي القاسم القيرواني (ت 1110هـ/1698 م)، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، الطبعة 01، المطبعة التونسية، المحمدية، تونس، 1286هـ/ 1869م.

4. ابن أبي زرع أبو الحسن بن الحسن الفاسي (ت 728 هـ / 1328 م)، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصورة، الرباط، المغرب، ربيع الثاني 1392هـ/ ماي 1972م.

5. ــــــــــــــــــ ، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، الرباط، المغرب، صور للطباعة والنشر، 1391هـ/ 1972م.

6. ابن أبي منصور صفي الدين الحسين بن علي بن أبي منصور الصوفي المالكي (تـ 628هـ / 1230 م)، **الرسالة**، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة، مصر، 1986م.

7. ابن الأبار محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (تـ 658هـ/ 1259م)، **التكملة لكتاب الصلة**، تحقيق: عبد السلام الهراس، بيروت، لبنان، دار الفكر للطباعة، 1415هـ/1995م.

8. ــــــــــ، **الحلة السيراء**، تحقيق: حسين مؤنس، الطبعة 02، القاهرة، مصر، دار المعارف، 1985م .

9. ــــــــــ ، **تحفة القادم**، تحقيق وتعليق: إحسان عباس، الطبعة01، الغرب الإسلامي، بيروت،1406 هـ / 1986 م.

10. ــــــــــ، **معجم أصحاب القاضي أبي علي الصدفي**، الطبعة 01، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1420 هـ / 2000 م.

11. ابن الأثير ضياء الدين نصر الله بن محمد (تـ 637هـ/ 1237م)، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، الفجالة، مصر، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.ط.

12. ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري (تـ 630هـ/ 1232م)، **اللباب في تهذيب الأنساب**، بيروت، لبنان، دار صادر، د.ت.ط.

13. ابن الأحمر إسماعيل أبو الوليد فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد بن نصر الخزرجي (ت 807هـ/ 1405م)، **بيوتات فاس الكبرى**، دار منصور للطباعة، الرباط، المغرب، 1972م.

14. ابن الأزرق أبو عبد الله محمد بن علي الغرناطي (ت 896هـ/ 1490م)، **بدائع السلك في طبائع الملك**، تحقيق: علي سامي النشار، الطبعة01، وزارة الإعلام، العراق، د.ت.ط.

15. ابن الجزري أبو الخير محمد (ت 833هـ/ 1423م)، **غاية النهاية في طبقات القراء**، عني بنشره لأول مرة ج. برجستراسر، مكتبة ابن تيمية، د.ت.ط.

16. ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج البغدادي (ت597 هـ/1201 م)، **تلبيس إبليس**، الطبعة 02، بيروت، دار القلم، د.ت.ط.

17. ابن الحاج العبدري أبو القاسم الفاسي المالكي (ت 737هـ/ 1336م) **المدخل**، دار التراث، د.ت.ط .

18. ابن الحكم الضبي أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم (ت 405هـ/ 1014م)، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة 01، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ج:2، ص: 150و152.

19. ابن الخطيب لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله (ت 776هـ / 1374م)، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، الطبعة 01، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ/ 2003م.

20. ـــــــــ، **أعمـال الأعـلام فـيمن بويـع قبـل الاحـتلام**، تحقيـق وتعليق : الدكتور أحمد مختار العيـادي والأسـتاذ محمـد إبـراهيم الكتـاني نشر وتوزيع دار الكتاب الدار، البيضاء، المغرب، 1964 م

21. ـــــــــ، **رقم الحلل في نظم الـدول**، تـونس، المطبعـة العموميـة، 1316هـ/ 1898م.

22. ـــــــــ، **روضـة التعريـف بالحـب الشـريف**، تحقيـق: عبـد القادر أحمد عطا، دار الفكر العربي، د.ت.ط.

23. ابـن الزبيـر أبـو جعفـر أحمـد بـن ابـراهيم الثقفـي الجيـاني (تـ708هـ/ 1308م)، **صلة الصلة**، تحقيـق: ليفـي بروفنسـال، الربـاط، المطبعة الإقتصادية، 1938م.

24. ابـن الزيـات أبـو العبـاس التـادلي (تـــ 617هــ / 1220م) ، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العبـاس السـبتي**، تحقيـق: أحمـد التوفيق، الطبعـة 02، الربـاط، المغـرب، منشـورات كليـة الآداب، طبـع مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1997م.

25. ابن العربـي أبـو بكـر محمـد بـن عبـد الله المعـافري الإشـبيلي (تـ543هـ/1148م)، **العواصـم مـن القواصـم**، تحقيـق: عمـار طـالبي، الطبعة 02، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.

26. ـــــــــ، **عارضة الاحـوذي لشـرح صـحيح الترمـذي**، بيـروت، لبنان، دار الكتاب العربي، د.ت.ط.

27. ابن العماد عبد الحي بن أحمد بـن محمـد (تــ1089هــ/ 1678م)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهـب**، تحقيـق: محمـود الأرنـاؤوط، الطبعـة 01، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، ، 1406 هـ / 1986 م.

.28 ابن العمراني محمد بن علي بن محمد المعروف، **الإنباء في تاريخ الخلفاء**، تحقيق: قاسم السامرائي، القاهرة، مصر، دار الآفاق العربية،1421 هـ/ 2001 م.

.29 ابن الفرضي أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي(تـ 403هـ/ 1012م)، **تاريخ علماء الأندلس**، عُنى بنشره وصححه ووقف على طبعه: السيد عزت العطار الحسيني، الطبعة 02، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1408 هـ / 1988 م.

.30 ابن القاسم محمد الأنصاري السبتي، **اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سَنِيِّ الآثار**، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، الطبعة 02، الرباط، المغرب، 1404 هـ/1983م.

.31 ابن القاضي أحمد المكناسي (تـ 1025هـ/ 1615م)، **جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصورة للطباعة والوراقة، الرباط، المغرب، 1973م.

.32 ابن القاضي عياض أبي عبد الله محمد، **التعريف بالقاضي عياض**، تحقيق: مجمد بن شريفة، الطبعة 02، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1982م.

.33 ابن القطان (الأب) علي بن محمد بن عبد الملك الفاسي(تـ 628هـ/ 1231م)، **النظر في أحكام النظر بحاسة البصر**، قراه وعلق عليه: فتحي أبو عيسى، الطبعة 01، دار الصحابة للتراث، طنطا، مصر، 1414هـ/ 1994م.

.34 ابن القطان (الإبن) المراكشي (تـ منتصف القرن7هـ/13م)، **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، تحقيق: محمود علي مكي، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1409هـ/ 1989م.

.35 ابن القيم محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله (ت 751 هـ / 1351 م)، **المنار المنيف في الصحيح والضعيف**، الطبعة 02، الرياض، دار العاصمة، 1419 هـ / 1998 م.

.36 ابن القيم محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله (ت 751 هـ/ 1351م)، **المنار المنيف في الصحيح والضعيف**، تحقيق، عبد الفتاح أبو غدة، الطبعة 01، حلب، سوريا، مكتبة المطبوعات الإسلامية،1390هـ/1970م.

.37 ــــــ، إغاثة اللهفان من مصايد **الشيطان**، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، د.ت.ط.

.38 ــــــ، **حاشية ابن القيم على سنن أبي داود**، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1415هـ/ 1994م.

.39 ابن الكردبوس أبي مروان عبد الملك بن القاسم التوزري، (المتوفى بعد 575هـ/ 1179م)، **الإكتفاء في أخبار الخلفاء**، تحقيق: عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2009م.

.40 ابن المستوفي المبارك بن أحمد بن المبارك بن موهوب اللخمي الإربلي(تـ 637هـ/ 1239م)، **تاريخ إربل**، تحقيق: سامي بن سيد خماس الصقار، العراق، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، 1400هـ/ 1980م.

.41 ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (تـ804هـ/1401م)، **طبقات الأولياء**، الطبعة:02، تحقيق: نور الدين شريبه، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1415 هـ/ 1994م.

42. ابن بشكوال أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت 578 هـ / 1182)، **الصلة في تاريخ أئمة الأندلس**، عني بنشره وصححه وراجع أصله: السيد عزت العطار الحسيني، الطبعة : 02، مكتبة الخانجي، 1374 هـ / 1955 م.

43. ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (ت 449هـ/ 1057م)، **شرح صحيح البخارى لابن بطال**، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، الطبعة: 02، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، 1423هـ / 2003م.

44. ابن تغرى بردى جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي (ت 874 هـ / 1470 م)، **المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي**، حققه ووضع حواشيه: دكتور محمد محمد أمين، تقديم: دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت.ط.

45. ـــــــــــ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، بدون ت.ط .

46. ابن تومرت محمد بن عبد الله الهرغي المصمودي (ت 524 هـ/ 1130م)، **أعز ما يطلب**، تحقيق: عبد الغني أبو العزم، المغرب، مؤسسة الغني للنشر، د.ت.ط.

47. ابن تيمية تقي الدين أبو العباس (ت 728 هـ / 1328م)، **مجموع الفتاوى**، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 416هـ/1995م.

48. ــــــــ، **بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية**، تحقيق مجموعة من المحققين، الطبعة 01، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، 1426هـ/ 2005م.

49. ــــــــ، **الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**، حققه وخرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، سوريا، 1405 هـ / 1985 م.

50. ــــــــ، **بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية**، تحقيق موسى سليمان الدويش، الطبعة 01، مكتبة العلوم والحكم، 1408هـ/ 1987م.

51. ــــــــ، **جامع الرسائل**، تحقيق: محمد رشاد سالم، الطبعة 01، الرياض، السعودية، دار العطاء، 1422هـ / 2001م.

52. ــــــــ، **درء تعارض العقل والنقل**، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، الطبعة 02، الرياض، السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 1411 هـ/ 1991م.

53. ــــــــ، **شرح العقيدة الأصفهانية**، تحقيق : إبراهيم سعيداي، الطبعة 01، الرياض، مكتبة الرشد، 1415هـ/1994م.

54. ــــــــ، **مجموع الفتاوى**، تحقيق : عبد الرحمن محمد قاسم العاصمي النجدي الحنبلي، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، د.ت.ط .

55. ــــــــ، **منهاج السنة النبوية**، تحقيق : محمد رشاد سالم، الطبعة:01، مؤسسة قرطبة، 1406هـ/ 1985م .

56. ابن جزي، أبو القاسم، محمد بن أحمد الكلبي الغرناطي (ت 741هـ / 1340م) **قوانين الأحكام الشرعية ومسائل الفروع الفقهية (القوانين الفقهية)**، دار القلم، بيروت، لبنان، د.ت.ط.

57. ابن حجر أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني الشافعي (ت 852هـ/ 1449م)، **لسان الميزان**، تحقيق: دائرة المعرف النظامية بالهند، الطبعة 02، بيروت، لبنان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان، 1390هـ /1971م.

58. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي القرطبي الظاهري (تـ 456هـ/ 1063م) **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، د.ت.ط.

59. ـــــــ، **المحلى بالآثار**، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ت.ط.

60. ـــــــ، **النبذ في أصول الفقه**، تحقيق: أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، مصر، 1401هـ/1981م.

61. ـــــــ، **ملخص إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعديل**، تحقيق سعيد الأفغاني، الطبعة 02، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1969م.

62. ابن حوقل أبو القاسم محمد بن علي الموصلي البغدادي النَّصيبي (367هـ/977م)، **صورة الأرض**، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة،1412هـ/ 1992م .

63. ابن حيان أبو مروان القرطبي خلف بن حسين بن حيان الأموي بالولاء (تـ 469هـ/ 1076م)، **المقتبس من أنباء الأندلس**، تحقيق: محمود علي مكي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، مصر، 1390هـ/ 1970م.

64. ابن خلدون أبي زكريا يحي (ت 780هـ / 1378م)، **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، مطبعة بيير بونطانا الشرفية، الجزائر، 1320هـ/ 1903م.

.65 ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (تـ 808 هـ/ 1406م)، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق: خليل شحادة، الطبعة 02، دار الفكر، بيروت، 1408 هـ/1988م.

.66 ـــــــــ، **المقدمة**، تحقيق: خليل شحادة، الطبعة 02، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1408 هـ / 1988 م.

.67 ـــــــــ، **شفاء السائل وتهذيب المسائل**، تحقيق: محمد مطيع الحافظ، الطبعة 01، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 1996م.

.68 ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (تـ 681 هـ / 1283 م)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة 01، بيروت، لبنان، دار صادر، 1994م.

.69 ابن دحية أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسي (تـ 633هـ /1235م)، **المطرب في أشعار أهل المغرب**، تحقيق إبراهيم الأبياري وآخرون، بيروت، دار العلم للجميع، 1415م/ 1955م.

.70 ابن رشد أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (تـ 595هـ/ 1198م)، **فصل المقال**، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، الطبعة 02، دار المعارف، مصر، د.ت.ط.

.71 ـــــــــ، **تهافت التهافت**، تحقيق: سليمان دنيا، الطبعة 01، مصر، دار المعارف، 1964م.

.72 ـــــــــ، **الضروري من أصول الفقه**، تقديم وتحقيق: جمال الدين العلوي، الطبعة 01، بيروت، لبنان، 1994م.

.73 ـــــــــ، **الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة**، تقديم : محمد عابد الجابري، الطبعة 01، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1998م.

.74 ـــــــــ، **بداية المجتهد ونهاية المقتصد**، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1425هـ /2004 م.

.75 ابن رشيد أبي عبد الله محمد بن عمر بن محمد (ت 721 هـ/ 1321م)، **إفادة النصيح في التعريف بسند الجامع الصحيح**، تحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة ، تونس ، الدار التونسية للنشر، د.ت.ط.

.76 ابن سبعين أبو محمد عبد الحق المرسي الأندلسي (ت699هـ/1269م)، **رسائل ابن سبعين**، تحقيق: عبد الرحمان بدوي، الطبعة 01، دار ومكتبة بيبليون، جبيل، لبنان، 2005م.

.77 ـــــــــ، **بد العارف وعقيدة المحقق المقرب الكاشف وطريق السالك المتبتل العاكف**، تحقيق: جورج كتورة، بيروت، لبنان، 1978م.

.78 ابن سعد بو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي (ت 230هـ/844م)، **الطبقات الكبرى القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم**، تحقيق: زياد محمد منصور، الطبعة02، المدينة المنورة، السعودية، مكتبة العلوم والحكم، 1408هـ/ 1987م.

.79 ابن سعيد أبو الحسن على بن موسى المغربي الأندلسي (ت 685هـ/ 1286م)، **الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، مصر، دار المعارف، د.ت.ط.

80. ابن سعيد أبو الحسن على بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي (تـ 685هـ/ 1286م)، **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق: شوقي ضيف، الطبعة 03، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1995م.

81. ابن سعيد، **الغصون اليانعة في شعراء المائة السابعة**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ت.ط.

82. ابن صاحب الصلاة عبد الملك محمد بن أحمد (تـ 578هـ/ 1182م) ، **المن بالإمامة**، تحقيق: عبد الهادي التازي، الطبعة 03، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1987م.

83. ابن طباطبا محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي (تـ 709هـ / 1309م)، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، تحقيق: عبد القادر محمد مايو، الطبعة 01، بيروت، لبنان، دار القلم العربي، 1418هـ/1997م.

84. ابن طملوس أبي الحجاج يوسف بن محمد (تـ620هـ / 1223م)، **المدخل إلى صناعة المنطق**، وقف على طبعه: ميكائيل أسين بلاديوس السرقسطي، طُبع بمطبعة الأبيرقة مجرية المسيحية، 1916م.

85. ابن عاشر أبو محمد عبد الواحد بن أحمد بن علي الفاسي (تـ1040هـ / 1989م)، متن ابن عاشر في مذهب مالك ((**المرشد المعين على الضروري من علوم الدين**))، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1343هـ/ 1924م.

86. ابن عبد البر أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (تـ 463هـ / 1070م)، **جامع بيان العلم وفضله**، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الطبعة 01، السعودية، دار ابن الجوزي، 1414هـ/1994م.

87. ابن عبد الملك أبي عبد الله محمد بن محمد الأنصاري المراكشي (ت 703هـ/1303م)، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق: إحسان عباس (بقية السفر الرابع، والسفر الخامس، والسفر السادس)، ومحمد بن شريفة (السفر الأول والسفر الثامن)، الطبعة 01، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1973م.

88. ابن عذارى أحمد ابن محمد، أو أبو عبد الله محمد المراكشي (ت 695هـ/1295م)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب – قسم الموحدين**، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت ومحمد زنيبر وعبد القادر رزمامة، الطبعة 01، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1406هـ/1995م.

89. ابن عربي أبو بكر محمد بن علي الطائي المرسي (ت 638هـ/ 1240م)، **الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية والمُلكية**، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ت.ط.

90. ـــــــ، الوصايا، **الوصايا**، تحقيق: عبد الرحمن مداراتي، دار المعرفة للطباعة والنشر، د.ت.ط.

91. ـــــــ، **فصوص الحكم**، تحقيق: أبو العلا عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ت.ط.

92. ابن عساكر علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي (ت 571 هـ/ 1176م)، **تاريخ دمشق**، دراسة وتحقيق علي شيري ، الطبعة 01، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1419هـ/ 1998م .

.93 ابن عسكر أبو عبد الله الغساني وابن خميس أبو بكر، **أعلام مالقة**، تحقيق : عبد الله المرابط الترغي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1419هـ/ 1999م.

.94 ابن عطية أبو محمد عبد الحق الأندلسي (ت 542هـ/ 1147م)، **فهرس ابن عطية**، تحقيق: محمد أبو الأجفان، محمد الزاهي، الطبعة 02، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1403هـ/ 1983م.

.95 ابن عميرة أبو جعفر الضبي أحمد بن يحيى بن أحمد (ت 599هـ / 1202م)، **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، دار الكاتب العربي، القاهرة، مصر، 1967م.

.96 ابن عيشون الشراط، **الروض العطر الأنفاس في أخبار الصالحين من أهل فاس**، دراسة وتحقيق: زهراء النظام، الطبعة 01، منشورات كلية الآداب، الرباط، المغرب، 1997م.

.97 ابن غازي محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن علي المكناسي (ت 919هـ/ 1513م)، **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون**، الرباط، المغرب،1371هـ/1952م.

.98 ابن فرحون إبراهيم بن علي بن محمد برهان الدين اليعمري (ت799هـ / 1396م)، **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، د.ت.ط.

.99 ابن فضل الله أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي العمري، شهاب الدين (ت 749هـ/ 1348م)، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، الطبعة 01، أبو ظبي، الإمارات، المجمع الثقافي، 1423هـ/ 2002م.

100. ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت 276هـ/ 889م)، **المعارف**، تحقيق: ثروت عكاشة، الطبعة: 02، القاهرة، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992م.

101. ابن قنفد أبي العباس أحمد الخطيب القسنطيني (ت 810هـ/ 1407م)، **أنس الفقير**، تحقيق: محمد الفاسي، أودولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، المغرب، 1965م.

102. ابن كثير أبو الفداء القرشي الدمشقي الحنبلي(ت 774هـ/ 1372م)، **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، بيروت، بدون ت.ط .

103. ابن ماكولا سعد الملك، أبو نصر علي بن هبة الله بن جعفر (ت475هـ/ 1082م)، **الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب**، الطبعة 01، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1411هـ-1990م.

104. ابن مريم أبي عبد الله محمد بن أحمد الشريف التلمساني (ت 792 هـ/ 1389م)، **البستان في ذكر الأولياء بتلمسان**، وقف على طبعه واعتنى بمراجعة أصله الشيخ : محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1326هـ/ 1908م.

105. ابن مفلح أبو عبد الله محمد شمس الدين المقدسي الحنبلي (ت 763هـ / 1361م)، **الآداب الشرعية والمنح المرعية**، بيروت، لبنان، عالم الكتب، د.ت.ط.

106. ابن يونس عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدفي، أبو سعيد المصري (ت 347هـ/ 958م)، **تاريخ ابن يونس المصري**، الطبعة 01، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1421هـ/ 200م.

107. أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري(ت 324 هـ / 936م)، **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، تحقيق: نعيم زرزور، الطبعة 01، المكتبة العصرية، 1426هـ/ 2005م.

108. أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: 450هـ/ 1058م)، **الأحكام السلطانية**، القاهرة، مصر، دار الحديث، د.ت.ط.

109. أبو العباس المقري، **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم، عبد العظيم شلبي، القاهرة، مصر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1358هـ /1939م.

110. أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن شاهنشاه بن أيوب، (تـ 732هـ/ 1331م)، **المختصر في أخبار البشر**، الطبعة: 01، المطبعة الحسينية المصرية، مصر، د.ت.ط.

111. أبو المظفر طاهر بن محمد الأسفراييني، **التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين**، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الطبعة 01، بيروت، لبنان، عالم الكتب،1403هـ/ 1983م.

112. أبو المعالي الجويني عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد، ركن الدين الملقب بإمام الحرمين (تـ 478هـ/ 1085م)، **غياث الأمم في التياث الظلم**، تحقيق: عبد العظيم الديب، عبد العظيم الديب، مكتبة إمام الحرمين، 1401هـ/ 1980م.

113. أبو بكر بن العربي، **أحكام القرآن**، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلّق عليه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، 1424 هـ/2003م.

114. أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشى الفهرى الأندلسي الطرطوشى المالكي (ت 520هـ/ 1125م)، **الحوادث والبدع**، تحقيق: علي بن حسن الحلبي، الطبعة 03، دار ابن الجوزي، 1419 هـ/ 1998م.

115. أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي(ت 745هـ/ 1344م)، **البحر المحيط في التفسير**، تحقيق: صدقي محمد جميل، بيروت، لبنان، دار الفكر، 1420هـ/ 1999م.

116. أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السِّجِسْتاني (ت 275هـ/ 888م)، **سنن أبي داود**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، صيدا، لبنان، المكتبة العصرية.

117. أبو يعلى التميمي، المعروف بابن القلانسي (555هـ / 1159م)، **تاريخ دمشق**، تحقيق: سهيل زكار، الطبعة 01، دمشق، سوريا، دار حسان للطباعة والنشر لصاحبها عبد الهادي حرصوني، 1403هـ /1983م.

118. أبي الحسن التجيبي المراكشي، مقدمة محقق كتاب: **تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير**، تحقيق: محمادي بن عبد السلام الخياطي، مطابع النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1997/1418،

119. أبي عثمان الصابوني، **عقيدة السلف وأصحاب الحديث**، **عقيدة السلف وأصحاب الحديث**،الطبعة01، القاهرة، مصر، 1423هـ/2003م.

.120 الأدنهوي أحمد بن محمد، **طبقات المفسرين**، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، الطبعة 01، السعودية، مكتبة العلوم والحكم، 1417هـ/ 1997م.

.121 البابانى إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم البغدادي (ت 1399هـ / 1978م)، **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول1951م، أعادت طبعه بالأوفست: دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان.

.122 ـــــ، **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون**، عنى بتصحيحه وطبعه على نسخة المؤلف: محمد شرف الدين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت.ط.

.123 البادسي عبد الحق بن إسماعيل بن أحمد بن محمد الغرناطي (كان حيا سنة 722هـ/ 1321م)، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، المطبعة المالكية، المغرب،1402هـ/ 1982م.

.124 البرزلي أبي القاسم بن احمد البلوي التونسي (ت 841هـ/ 1438م)، **جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام**، تقديم وتحقق: محمد الحبيب الهيلة، الطبعة 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2002م.

.125 البغدادي أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله التميمي الأسفراييني، (ت 429هـ/ 1037م)، **الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1977م.

.126 البغدادي عبد الوهاب بن علي بن نصر، **شـــرح عقيـــدة الإمـــام مالـــك الصغير أبي محمد عبد الله بن أبي زيـــد القيروانـــي**، الطبعـــة01، بيـــروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1423هــ/2002م.

.127 البيذق أبي بكر الصـــنهاجي(تـــ أواخـــر القـــرن 6هـــ / 12 م)، **أخبار المهدي بـــن تـــومرت** ، تحقيـــق عبـــد الحميـــد حاجيـــات ، الشـــركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1975م/ 1396 هــ.

.128 ـــــــــ، **المقتبس من كتـــاب الأنســـاب فـــي معرفـــة الأصـــحاب**، دار المنصور للطباعة والورق، الرباط، المغرب، 1971م.

.129 تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكـــي، **العقـــد الثمـــين فـــي تاريخ البلد الأمين**، تحقيـــق: محمـــد حامـــد الفقـــي وآخـــرون، الطبعـــة 02 مؤسسة الرسالة، 406 هــ/ 1986م.

.130 التميمي أبو عبد الله محمد بن عبـــد الكـــريم الفاســـي(تـــ603هـــ / 1202م)، **المستفاد من مناقب العباد بمدينة فاس ومـــا يليهـــا مـــن الـــبلاد**، تحقيق: محمـــد الشـــريف، الطبعـــة 01، منشـــورات كليـــة الآداب والعلـــوم الإنسانية بتطوان، المغرب، 2002م.

.131 التنسي محمّد بن عبد اللّه بـــن عبـــد الجليـــل (ت889هــــ/ 1493م)، **نظم الـــدر والعقيـــان**، تحقيـــق : نـــوري ســـودان ، الطبعـــة 01، بيـــروت، لبنان، 1401هــ / 1980م.

.132 الجزنائي علي، **جني زهرة الآس فـــي أخبـــار مدينـــة فـــاس**، الطبعـــة 02، المطبعة الملكية، الرباط، 1411هــ/ 1991م.

.133 حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله كاتـــب جلبـــي القســـطنطيني (تـــ 1067هــ / 1656م)، **كشف الظنون عن أســـامي الكتـــب والفنـــون**، مكتبـــة المثنى، بغداد ، ودار إحياء التراث العربي، 1941م .

.134 حسن بن عمر بن عبد الله السيناوني المالكي، **الأصل الجامع لإيضاح الدرر المنظومة في سلك جمع الجوامع**، الطبعة 01، تونس، مطبعة النهضة، 1928م.

.135 الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت 626هـ/ 1228م)، **معجم البلدان**، الطبعة 02، دار صادر، بيروت، 1415هـ/ 1995 م.

.136 الحِميرى أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت 900هـ/ 1494م)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة 02، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، 1980م.

.137 الدباغ أبو زيد عبد الرحمان بن محمد الأسيدي القيرواني (ت699هـ/ 1299م)، **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، الطبعة 02، المطبعة العربية التونسية، تونس،1907م.

.138 الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز أبو عبد الله (ت 748 هـ/ 1347 م)، **العبر في خبر من غبر**، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.ط.

.139 ـــــــــ، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، الطبعة 02، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1413 هـ / 1993 م.

.140 الذهبي، **تذكرة الحفاظ**، الطبعة 01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1419هـ/ 1998م .

.141 ـــــــــ، **سير أعلام النــبلاء**، تحقيــق: مجموعــة مــن المحققــين بإشراف الشيخ شــعيب الأرنــاؤوط، الطبعــة 03، الرســالة، 1405 هـــ / 1985 م.

.142 الرعيني ابــن الفخــار (تـــ 666هـــ/ 1267م)، **برنـــامج شــيوخ الرعيني**، عنايـــة: إبــراهيم شــبوح، مجلـــة معهـــد المخطوطـــات العربيـــة، المجلد: الخامس، الجزء الأول، ذو القعدة 1378هــ/ مايو 1959م.

.143 الزركشي، **الروضتين فــي أخبــار الــدولتين الموحديـــة والحفصـــية**، تونس، المكتبة العتيقة، د.ت.ط.

.144 زروق أحمد بن أحمد البرنســي الفاســي (تـــ 899هـــ / 1493م)، **قواعد التصوف**، تحقيــق: محمــد زهــري النجــار، الطبعــة 03، المكتبــة الأزهريـــة للتراث، القاهرة، 1989م.

.145 السبكي أبي نصر عبد الوهاب بــن علــي بــن عبــد الكــافي (تـــ 771 هــ / 1369 م)، **طبقـــات الشـــافعية** ، تحقيــق : عبــد الفتــاح محمــد الحلو و محمود محمد الطنــاحي ، الطبعـــة 02 ، الجيــزة ، مصــر، هجــر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، 1413هــ / 1992 م .

.146 السخاوي شمس الدين أبــو الخيــر محمــد بــن عبــد الــرحمن (تـــ 902هــ/ 1496م)، **التحفة اللطيفة فـــي تـــاريخ المدينـــة الشـــريفة**، الكتــب العلميه، بيروت ، لبنان، 1414هــ/1993م.

.147 السكوني أبو عبد الله محمد بن خليل ، **شــرح مرشــدة بــن تــومرت**، تحقيق يوسف احنانا، دار الغرب الإسلامي، 1414 هــ / 1993 م .

.148 السِّلَفي صدر الدين، أبو طاهر أحمد بن محمد بــن أحمــد بــن محمــد بن ابراهيم سِــلَفَه الأصــبهاني (تـــ 576هـــ/ 1180م)، **معجــم السـفر**،

تحقيق: عبد الله عمر البارودي، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، د.ت.ط.

.149 السيناوني حسن بن عمر بن عبد الله المالكي، **الأصل الجامع لإيضاح الدرر المنظومة في سلك جمع الجوامع**، الطبعة 01، تونس، مطبعة النهضة، 1928م.

.150 السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (ت 911هـ/ 1505م)، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، د.ت.ط.

.151 ـــــــــ، **طبقات المفسرين العشرين**، تحقيق: علي محمد عمر، الطبعة 01، مكتبة وهبة، القاهرة، مصر، 1396هـ/ 1975م.

.152 السيوطي، **ذيل طبقات الحفاظ**، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.ط.

.153 السيوطي، **شرح سنن ابن ماجه**، قديمي كتب خانة، كراتشي، باكستان، د.ت.ط.

.154 الشاطبي إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي (ت 790هـ/ 1387م)، **الإعتصام**، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، الطبعة 01، دار ابن عفان، السعودية، 412هـ / 1992م .

.155 الشريف الإدريسي محمد بن عبد الله (ت 560هـ / 1164م) ، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، الطبعة 01، بيروت، لبنان، عالم الكتب، 1409هـ / 1998م.

.156 الشعراني أبي المواهب عبد الوهب بن أحمد بن علي الأنصاري الشافعي (ت 973 هـ / 1565م)، **الطبقات الكبرى المسماة: لواقح**

الأنوار في طبقات الأخيار، الطبعة 01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1418هـ / 1997 م.

.157 الشهرستاني محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (ت 548 هـ / 1153م)، **الملل والنحل**، سوريا، مؤسسة الحلبي، د.ت.ط.

.158 الشيباني أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد (ت 287هـ/ 899م)، **السنة**، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة 01، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1400هـ/ 1979م.

.159 الصدفي طاهر، **السر المصون في ما أكرم به المخلصون**، تحقيق: حليمة فرحات، الطبعة 01، دار الغرب الإسلامي، 1409هـ/ 1989 م.

.160 الصفدي صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت 764هـ / 1362م)، **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 1420هـ/ 2000م.

.161 الصنعاني محمد بن إسماعيل (ت 1182 هـ / 1850م)، **سبل السلام**، القاهرة، مصر، دار الحديث، د.ت.ط.

.162 الطحاوي صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، **شرح العقيدة الطحاوية**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عبد الله بن المحسن التركي، الطبعة 10، بيروت، لبنان، دار الرسالة، 1417هـ/ 1997م.

.163 الطوسي أبو نصر السراج (ت 378هـ/ 988م)، **اللمّع**، تحقيق وتقديم: عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب

الحديثة، مصر، ومكتبة المثنى، بغداد، إشراف: لجنة إحياء التراث الصوفي، 1380هـ/ 1960م.

.164 عبد الرزاق الميداني الدمشقي، **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**، حققه ونسقه وعلق عليه حفيده: محمد بهجة البيطار – من أعضاء مجمع اللغة العربية، دار صادر، بيروت، الطبعة: 02، 1413 هـ / 1993 م.

.165 العزفي أبي العباس (تـ633هـ/ 1235م)، **دعامة اليقين في زعامة المتقين (مناقب الشيخ أبي يعزى)**، تحقيق: احمد التوفيق، 1408هـ/ 1988م.

.166 عليش أبو عبد الله محمد بن أحمد المالكي (تـ 1299هـ/ 1881م)، **فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك**، دار المعرفة، د.ت.ط، ج: 1،ص: 103.

.167 عياض أبو الفضل القاضي بن موسى اليحصبي (تـ 544هـ/ 1149م)، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك**، الطبعة 01، تحقيق: ابن تاويت الطنجي، وعبد القادر الصحراوي، ومحمد بن شريفة، وسعيد احمد عراب، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، د.ت.ط.

.168 ـــــــــــ، **الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع**، الطبعة 01، تحقيق: السيد أحمد صقر ، القاهرة، مصر، دار التراث، تونس المكتبة العتيقة،1379هـ/ 1970م.

.169 ـــــــــــ، **الغنية (فهرست شيوخ القاضي عياض)**، تحقيق: ماهر زهير جرار، الطبعة 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1402هـ/ 1982م.

.170 الغبريني أبو العباس أحمد بن أحمد (ت 704هـ/ 1304م)، **عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق وتعليق: عادل نو يهض، بيروت، لبنان، منشورات دار الآفاق الجديدة، د.ت.ط.

.171 الغبريني، ــــــــ، تحقيق: رابح بونار، الطبعة 02، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.

.172 الغزالي أبو حامد محمد بن محمد الطوسي (ت 505هـ/ 1111م)، **إحياء علوم الدين**، بيروت، لبنان، دار المعرفة، د.ت.ط.

.173 ــــــــ، **الاقتصاد في الاعتقاد**، تحقيق: عبد الله محمد الخليلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424 هـ/ 2004 م.

.174 ــــــــ، **المستصفى في أصول الدين**، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، الطبعة 01، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1413هـ/1993م.

.175 ــــــــ، **فضائح الباطنية**، تحقيق: عبد الرحمان بدوي، الكويت، مؤسسة دار الكتاب الثقافية، د.ت.ط.

.176 ــــــــ، **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة**، قرأه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمود بيجو، الطبعة 01، دمشق، سوريا، 1413هـ/ 1993م.

.177 الفيروزآبادى أبو طاهر محمد بن يعقوب (ت817هـ/ 1414م)، **البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة**، الطبعة 01، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، 1421هـ/ 2000م.

.178 القرافي أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس (684هـ/ 1285م)، **الذخيرة في الفقه المالكي**، تحقيق: محمد حجي، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1994م.

.179 القرافي محمد بن يحيى بن عمر، **توشيح الديباج وحلية الابتهاج**، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة 01، 1425 هـ/2004 م.

.180 القرطبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن احمد (ت 671هـ / 1272م)، **الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)**، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الطبعة 02، القاهرة، مصر، دار الكتب المصرية، 1384هـ/ 1964م.

.181 ـــــ، **المفهم لما أشكل من كتاب تلخيص مسلم**، تحقيق: محي الدين ديب مستو – أحمد محمد السيد – يوسف علي بديوي – محمود إبراهيم بزال، الطبعة 01، دار ابن كثير – دار الكلم الطيب، 1417هـ/1996م.

.182 القفطي جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت646هـ / 1248م)، **أخبار العلماء بأخبار الحكماء**، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، الطبعة 01، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1426 هـ / 2005م.

.183 **إنباه الرواة على أنباء النحاة**، الطبعة 01، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1424هـ/ 2004م.

.184 القلقشندي أحمد بن علي (ت 821 هـ/ 1418م)، **مآثر الإنافة في معالم الخلافة**، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الطبعة 02، الكويت، 1405هـ/ 1985م.

.185 الكليني أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الرازي (ت 329هـ / 940م)، **الكافي في أصول الدين**، الطبعة 03، دار الكتب الاسلامية مرتضى آخوندى تهران – بازار سلطاني.

.186 مجهول (منسوب في هذه الطبعة لابن الخطيب)، **الحلل الموشية في الأخبار المراكشية**، قدم له السيد البشير الفورتي، تونس، 1329 هـ/1911 م، مطبعة التقدم الإسلامية .

.187 مجهول، **الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية**، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الطبعة 01، دار الرشاد الحديثة، 1399هـ/ 1993م.

.188 مجهول، **الرسالة الوجيزة إلى الحضرة العزيزة**، تقديم: محمد الدرفني، الرباط، المغرب، مطبعة المعارف الجدديدة، 1987م.

.189 مجهول، **مفاخر البربر**، دراسة وتحقيق: عبد القادر بوباية، الطبعة 01، الرباط، المغرب، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 1425هـ/ 2005م.

.190 مجهول، **مفاخر البربر**، ضمن ثلاثة نصوص عن البربر في العصور الوسطى، تحقيق : محمد يعلى، مدريد، المجلس الأعلى للبحوث العلمية، 1996 م.

.191 المراكشي عبد الواحد بن علي التميمي محيي الدين (ت 647هـ / 1249م)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين**، تحقيق: الدكتور صلاح الدين الهواري، الطبعة 01، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1426هـ /2006م.

192. المراكشي عبد الواحد (منسوب إليه)، **وثائق المرابطين والموحدين**، تحقيق حسين مؤنس، الطبعة 01، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1997م .

193. المقري شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت 1041هـ / 1631م) ، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة 01، دار صادر، بيروت، لبنان، 1968م.

194. ـــــــــ **أزهار الرياض في اخبار القاضي عياض**، تحقيق: سعيد أعراب ومحمد تاويت، د.ت.ط.

195. المقريزي أبو العباس (ت 845هـ / 1441 م) **المواعظ والإعتبار في ذكر الخطط والآثار**، مكتبة الثقافة، بور سعيد، القاهرة، الدينية، د. ت، ط .

196. المكلاتي أبي الحجاج يوسف بن محمد (ت 624هـ/ 1228 م)، **لباب العقول في الرد على الفلاسفة في علم الأصول**، تحقيق وتقديم: فوقية حسين محمود، الطبعة 01، القاهرة، مصر، دار الأنصار، 1977م.

197. الملزوزي أبو فارس عبد العزيز (ت 697هـ هـ/ 1298م)، **نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك**، المغرب، المطبعة الملكية، 1963م.

198. النباهي أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن محمد ابن الحسن الجذامي المالقي الأندلسي (المتوفى: نحو 792هـ / 1389م)، **تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)**،

تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، الطبعة: 05، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان،1403هـ / 1983م.

199. النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، (تـ 733هـ / 1332م)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، الطبعة 01، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، مصر، 1423 هـ / 2002م.

200. الوزان الحسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الإفريقي (تـ 873 هـ/ 1468م)، **وصف إفريقيا** ، ترجمة : محمد حجي، ومحمد الأخضر، الجزء 01، الطبعة 02 ، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1403 هـ/ 1983 م.

201. الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحي (تـ 9 هـ / 12 م)، **المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية للملكة المغربية، 1401هـ / 1981م .

202. اليافعي أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان (تـ 768هـ / 1366م)، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان،** وضع حواشيه: خليل المنصور، الطبعة01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1417 هـ / 1997 م.

203. اليوسي الحسن بن مسعود بن محمد أبو علي نور الدين (تـ 1102هـ/1690م)، **المحاضرات في اللغة والأدب**، تحقيق: محمد حجي – أحمد الشرقاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1982م.

.204 اليوسي القادري أبو الحسن، **نشر المثاني**، تحقيق محمد حجي، الرباط، المغرب، مكتبة الطالب، د.ت.ط.

.205 اليونيني قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد (ت 726 هـ / 1325م)، **ذيل مرآة الزمان**، الطبعة 02، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 1413 هـ / 1992 م.

ثانيًا: المراجع العربية.

.206 ابن تاويت محمد، **الوافي بالادب العربي في المغرب الاقصي**، الطبعة 01، المغرب، دار الثقافة، 1982م.

.207 ابن جلوي سارة، **نظرية الاتصال عند الصوفية في ضوء الإسلام**، الطبعة 01، جدة، السعودية، دار المنارة، 1411هـ/ 1991م.

.208 ابن شريفة محمد، **ابن رشد الحفيد سيرة وثائقية**، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1966.

.209 ابن شقرون محمد بن أحمد، **مظاهر الثقافة المغربية**، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1406هـ/ 1985م.

.210 ابن عقيل ابي عبدالرحمن الظاهري، **ابن حزم خلال ألف عام**، الطبعة 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1402هـ / 1982م.

.211 أبو العباس محمد رزوق، **قواعد التصوف**، الطبعة 01، بيروت، دار القاعدة، 1996م.

.212 أحمد إسماعيل المقدم، **المهدي**، الطبعة 08، الإسكندرية، مصر، الدار العالمية للنشر والتوزيع، 1424هـ/2003م.

.213 أحمد بكير محمود، **المدرسة الظاهرية بالمشرق والمغرب**، الطبعة 01، دار ابن قتيبة للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، 1411هـ/ 1990م.

.214 الإدريسي علي، **الإمامة عند ابن تومرت –دراسة مقارنة مع الإماميّة الاثني عشريّة**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعيّة، 1991م.

.215 أشباخ يوسف، **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، ترجمه ووضع حواشيه: محمد عبد الله عنان، الطبعة 02، مؤسسة الخانجي، القاهرة، مصر، 1377هـ / 1957م.

.216 إمام مرعي خلف الله، **العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي**، دار المعارف، 1405هـ/1985م .

.217 بدوي عبد الرحمن، **الفلسفة والفلاسفة في الحضارة العربية** "مطبوع ضمن موسوعة الحضارة العربية الإسلامية"، الطبعة 01، بيروت، لبنان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،1987م.

.218 بلغيث محمد الأمين، **الرُّبُطُ بالمغرب الإسلامي ودورُها في عصري المرابطين والموحدين**، رسالة ماجستير، سبتمبر1987م.

.219 بلغيث محمد الأمين، **دولة المرابطين بالأندلس من مدينة السياسة إلى مدينة العلم**، دار الوعي، الجزائر، 2009م.

.220 بنسباع مصطفى، **السلطة بين التسنُّن والتشيُّع والتصوف ما بين عصري المرابطين والموحدين**، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، جامعة الملك السعدي، تطوان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

.221 بوتشيش إبراهيم القادري، **إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي و تاريخه الاقتصادي والاجتماعي**، دار الطليعة، بيروت، 2002م.

222. ـــــــــــــــ، **حلقات مفقودة مــن تــاريخ و حضــارة الغــرب الإسلامي** ، الطبعة 01، دار الطليعة ، بيروت، جوان 2006م.

223. التازي عبد الهــادي، **جــامع القــرويين المســجد والجامعــة بمدينــة فاس**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1973م.

224. التليدي عبد الله بن عبد القــادر، **المطــرب بمشــاهير أهــل المغــرب**، الطبعة 04، دار الأمان، الرباط، المغرب، 1424هـ / 2003م.

225. التليسي بشير رمضان، **الإتجاهات الثقافيــة فــي الغــرب الإســلامي**، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، 2003م.

226. التنبكتي أحمد بابا المــالكي (تـــ 963 هـــ / 1036 هـــ)، **نيــل الابتهاج بتطريز الديباج**، الطبعة 01، وضــع هوامشــه وفهارســه : طــلاب كلية الدعوة الإسلامية طرابلس إشراف وتقديم : عبــد الحميــد بــن عبــد الله الهرامة، منشورات الكلية،1989م.

227. التهــامي إبــراهيم، **الأشــعرية فــي المغــرب دخولهــا، رجالهــا، تطورها، وموقف النــاس منهــا**، الطبعــة 01، دار قرطبــة، 1427هـــ / 2006م.

228. ـــــــــــــــ، **جهود علماء المغــرب فــي الــدفاع عــن عقيــدة أهل السنة**، دار الرسالة، الجزائر، 1422هـ/ 2002م.

229. توفيق الغلبزوري، **المدرســة الظاهريــة بــالمغرب والأندلس،نشــأتها -أعلامهــا-أصــولها-أثرهــا**، الطبعــة 01، الريــاض، المملكــة العربيــة السعودية، مكتبة ودار ابن حزم للنشر والتوزيع،1427هـ/2006م .

230. الجابري محمد عابد ، **ابــن رشــد ســيرة وفكــر**، بيــروت : مركــز دراسات الوحدة العربية، 1998م.

231. ـــــــــــــــ، **المثقفون في الحضارة العربية محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد**، الطبعة 02، بيروت، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، 2000م.

232. الجراري عباس، **وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ**، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1976م.

233. جلاب حسن، **سبعة رجال**، الطبعة 01، جمعية منتدى ابن تاشفين، مراكش، المغرب، 2006م.

234. جمال أحمد طه، **مدينة فاس في عصري المرابطين و الموحدين، دراسة سياسية وحضارية**، الإسكندرية، مصر، دار الوفاء للطباعة والنشر، 2001م.

235. جمال علال البختي، **الحضور الصوفي في الأندلس والمغرب إلى حدود القرن 5هـ**، الطبعة 01، القاهرة، مصر، مكتبة الثقافية الدينية، 1426هـ/2005م

236. الجوير محمد بن أحمد، **جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري في الرد على الصوفية**، الطبعة 01، مكتبة الرشيد، الرياض، السعودية، 1424هـ/ 2003م.

237. الجيدي عمر، **مباحث في المذهب المالكي**، الطبعة 01، الحقوق محفوظة للمؤلف، 1993م.

238. الحجوي محمد بن الحسن الثعالبي، **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**، الطبعة 01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1416هـ/ 1995م.

239. حركات إبراهيم، **المغرب عبر التاريخ**، دار الرشاد الحديثة، بيروت، لبنان، 2000م.

240. ـــــــــــ، **مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 15/9** ، الطبعة 01، دار الرشاد الحديثة ،1421-2000م.

241. حسن إبراهيم حسن، تاريخ **الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي**، الطبعة: 14، دار الجيل، بيروت، لبنان، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1416هـ/ 1996م.

242. حسن أحمد محمود، **الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا**، الطبعة 03، بيروت، دار الفكر العربي، 1986م.

243. الحسن السايح، **دفاعا عن الثقافة المغربية**، الدار البيضا، المغرب، دار الكتاب،1968.

244. حسن علي حسن، **الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين**، الطبعة 01، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1980م.

245. الحسني عبد المنعم القاسمي، **أعلام التصوف في الجزائر**، من البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى، دراسة إحصائية تحليلية، الطبعة 01، دار الخليل القاسمي، 1427 هـ/ 2005م.

246. الحسيسن عبد الهادي، **مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور الموحدي**، طبع اللجنة المشتركة المغربية الإمارتية، 1982 م.

247. حسين أمين، **تاريخ العراق في العصر السلجوقي**، بغداد، المكتبة الأهلية، 1385هـ / 1965م.

248. حسين حافظي علوي، **الصراع المذهبي ببلاد المغرب في العصر الوسيط**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم: 157.

.249 حمدي أيمـــن، **قـــاموس المصـــطلحات الصـــوفية**، دار قبـــاء للنشـــرو التوزيع، القاهرة، 2000م.

.250 حمود بن عبد الله بن حمود بـــن عبـــد الـــرحمن التـــويجري، **إتحـــاف الجماعة بما جاء فـــي الفـــتن والملاحـــم وأشـــراط الســـاعة**، الطبعـــة 02، الرياض، المملكـــة العربيـــة الســـعودية، دار الصـــميعي للنشـــر والتوزيـــع، 1414 هـــ/ 1993م.

.251 حنا الفاخوري وخليـــل الجـــر، **موســـوعة فلاســـفة العـــرب**، الطبعـــة الأولى الشركة المصرية العالمية لونجمان، لبنان، 2002م.

.252 ـــــــــــــــــ، **تـــاريخ الفلســـفة العربيـــة**، الطبعـــة 03، بيروت، لبنان، دار الجيل، 1993م.

.253 الخليل النحوي، **بـــلاد شـــنقيط المنـــارة والربـــاط**، المنظمـــة العربيـــة للتربية والثقافة والعلوم بتونس،1987م.

.254 داود ســـلامة عبيـــدات، **المغـــرب و الانـــدلس مـــا بـــين ســـنتي (541هـــ/667هـــ - 1146هـــ/1368م)** ، دار الكتـــاب الثقـــافي، عمـــان، الأردن، 2006م.

.255 ـــــــــــــــــ، **الموحـــدون فـــي الأنـــدلس، المغـــرب والأنـــدلس مـــا بـــين ســـنتى (667/541هـــــ - 1268/1146م)**، دار الكتـــاب الثقـــافي، الأردن، 2005م.

.256 الدباغ محمد بن عبد العزيـــز، ملـــوك ورســـائل(2)، **دعـــوة الحـــق**، السنة 08، العدد 04، فبراير 1995م.

.257 دندش عصمت عبد اللطيـــف، دكالـــة مـــن خـــلال كتـــاب التشـــوف، ضمن كتـــاب : **أضـــواء جديـــدة علـــى المـــرابطين**، بيـــروت، لبنـــان، دار الغرب الإسلامي، 1991م.

.258 ـــــــــــــــــ ، **الأنـــدلس فـــي نهايـــة المـــرابطين ومســـتهل الموحدين – عصر الطوائف الثـــاني**، الطبعـــة 01، دار الغـــرب الإســـلامي، بيروت، لبنان، 1408هــ/ 1988م.

.259

.260 الدوســـري عـــائض بـــن ســـعد، **الحقيقـــة المحمديـــة أم الفلســـفة الأفلوطينية**، الطبعة 01، المكتب الإســـلامي، بيـــروت، لبنـــان، 1428هـــــ/ 2008م.

.261 الريسوني البشير، التصوف المغربـــي وأثـــره فـــي تجديـــد التصـــوف السني بالمشرق (أبو الحسن الشـــاذلي نموذجـــا)، ضـــمن كتـــاب : **ملتقـــى الدراسات المغربية والأندلســـية، تيـــارات الفكـــر فـــي المغـــرب والانـــدلس، الروافد و المعطيات**، جامعة عبـــد الملـــك الســـعدي ، كليـــة الآداب والعلـــوم الإنسانية، تطوان، المغرب، 26-27-28، إبريل 1993م.

.262 الزركلي خيـــر الـــدين، **الأعـــلام**، الطبعـــة 15، دار العلـــم للملايـــين، أيار/ مايو 2002م.

.263 زكريا بشير إمام، **الفلسفة النورانية القرآنيـــة عنـــد الغزالـــي**، رؤيـــة نقدية لفكر الغزالي وفلسفته، الطبعة 01، مكتبـــة الفـــلاح للنشـــر والتوزيـــع، الكويت، 1989م.

.264 زيدان يوسف، **عبـــد الكـــريم الجيلـــي فيلســـوف الصـــوفية**، الطبعـــة 01، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1408هــ/ 1988م.

.265 سزكين فـــؤاد، **تـــاريخ التـــراث العربـــي**، ترجمـــة: محمـــود فهمـــي حجازي، طبع إدارة الثقافـــة والنشـــر بجامعـــة الإمـــام محمـــد ابـــن ســـعود الإسلامية بالرياض، 1411هــ / 1991م.

.266 علام عبد الله علي، **الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن بن علي**، صدر الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007م، سحب المطبعة الشعبية للجيش، الجزائر، 2007م.

.267 علام عبد الله علي، **الدعوة الموحدية بالمغرب**، الطبعة 01، القاهرة، دار المعرفة، 1964م.

.268 سعد زغلول عبد الحميد، **تاريخ المغرب العربي**، الإسكندرية، مصر، منشأة المعارف، 1990م.

.269 السلاوي أبو العباس خالد الناصري (ت 1319 هـ/ 1901م)، **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصا**، تحقيق : جعفر الناصري ومحمد الناصري الطبعة 01، الدار البيضاء، دار الكتاب،1418هـ/1997 م .

.270 السملالي العباس ابن إبراهيم (ت 1378هـ / 1958م)، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، راجعه: عبد الوهاب ابن منصور، الطبعة 02، الرباط، المغرب، المطبعة الملكية، 1414هـ/1993م.

.271 السيد محمد ماضي أبو العزم، **الجفر هو علم الغيب الذي يكشف للأنبياء معجزة وللأولياء كرامة**، دار الكتاب الصوفي، الطبعة الثالثة، 1411هـ/1990م.

.272 شاكر محمود، **مفاهيم حول الفكر الإسلامي**، ضمن سلسلته التاريخ الإسلامي، الطبعة 03، بيروت، لبنان، المكتب الإسلامي، 1411هـ/1991م.

.273 شبانة محمد كمال، **الأندلس، دراسة تاريخية حضارية**، الطبعة 01، دار العالم العربي، القاهرة، 2008م.

.274 شرف محمد جلال، **نشأة الفكر السياسي وتطوره في الإسلام**، الطبعة02، بيروت، لبنان، دار النهضة العربية، 1990م.

.275 شوقي ضيف، **من المشرق والمغرب: بحوث في الأدب**، الطبعة 01، الدار المصرية اللبنانية لكتاب، القاهرة، مصر، 1419هـ/ 1998م.

.276 الصلابي محمد علي، **الدولة الموحدية**، الأردن، الطبعة01، دار البيارق، 1419 هـ / 1998م.

.277 الطاهر بونابي، **التصوف في الجزائر خلال القرنين 6و7 الهجريين / 12و13 الميلاديين – نشاته – تياراته– دوره الإجتماعي والثقافي والفكري والسياسي)**، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، 2004م.

.278 عادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر**، الطبعة 02، مؤسسة نويهض الثقافية للنشر والترجمة والتوزيع، بيروت، لبنان، 1400هـ/ 1980م.

.279 العبادي أحمد مختار، **دراسات في تاريخ المغرب**، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية، مصر، 1982م.

.280 العبادي عبدالحميد، **المجمل في تاريخ الأندلس** ، الطبعة 02، دار القلم، 1964 م.

.281 عبد الرحمان الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، المطبعة العربية، الجزائر، 1373هـ/ 1954م.

.282 عبد الرزاق الميداني الدمشقي، **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**، حققه ونسقه وعلق عليه حفيده: محمد بهجة البيطار – من

أعضـــاء مجمـــع اللغـــة العربيـــة، دار صـــادر، بيـــروت، الطبعـــة: 02، 1413هـ/ 1993 م.

283. عبد العزيز بنعبد الله، **التصوف المغربي خواص ومميزات ضمن سلسلة : معلمة التصوف الإسلامي**، الطبعة 01، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، 2001م.

284. عبد الفتاح احمد فؤاد، **فلاسفة الإسلام والصوفية وموقف أهل السنة منهم**، الطبعة 01، الإسكندرية، مصر، دار الوفاء، 2005م.

285. عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، **الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة**، دار طيبة، الرياض، د.ت.ط.

286. عبد المجيد بدوي، **فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية**، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت، بدون ت.ط .

287. العدلوني محمد الإدريسي، **ابن مسرة ومدرسته**، الطبعة 01، دار الثقافة، 1421 هـ/2000 م.

288. ـــــــــ، **التصوف الفلسفي : أسسه النظرية وأهم مدارسه**، الطبعة 01، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 2005م.

289. العروي عبد الله، **مجمل تاريخ المغرب** ، الطبعة 01 ، المركز الثقافي العربي، لبنان، 1999م.

290. العريني يوسف علي، الحياة العلمية في الأندلس عصر الموحدي، الطبعة 01، منشورات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، السعودية، 1416هـ / 1995م.

291. عزالدين عمر موسى، **الموحدون في الغرب الإسلامي**، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي.

.292 عزاوي أحمد، **رسائل موحدية – مجموعة جديدة**، تحقيق ودراسة: ، المغرب، الطبعة 01، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، 1416هـ/1995م.

.293 عصام الدين عبد الرؤوف الفقهي، **تاريخ المغرب والأندلس**، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، مصر، 1990م.

.294 عصام الدين محمد علي، **تاريخ الفلسفة الإسلامية عموما**، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 1415هـ/1994م.

.295 عصام عبد الحفيظ، ابن رشد، عصره، حياته، آثاره، شروحاته، ضمن كتاب : **شذرات فلسفية لفلاسفة من الغرب الإسلامي**، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، 2007م.

.296 عصمت عبد الرؤوف الفقي، **تاريخ المغرب والأندلس**، القاهرة، مصر، مكتبة نهضة الشرق، د.ت.ط.

.297 علال خالد كبير، **مقاومة أهل السنة للفلسفة اليونانية خلال العصر الإسلامي، ق:2-13هـ**، الطبعة 01، الجزائر، دار المحتسب، 2008م.

.298 ــــــــــ، **نقد فكر الفيلسوف ابن رشد الحفيد على ضوء الشرع و العقل و العلم**، الطبعة 01، الجزائر، دار المحتسب، 1429هـ/ 2000م.

.299 علاوة عمارة، **انتشار المذهب المالكي ببلاد المغرب الأوسط ، قراءة سوسيو-تاريخية** ، ضمن كتاب : دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجزائرية، 2008م.

.300 علي أحمد، **الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق**، الطبعة 01، سوريا، دار شمال، 1995م.

.301 علي الإدريسي، الأشعرية و الإستقرار المذهبي بالمغرب، من **مجموع المذاهب الإسلامية ببلاد المغرب**، جمع وتنسيق: حسن حافظ علوي ، جامعة محمد الخامس أكدال ، سلسلة و ندوات.

.302 العمراني محمد، **الثورات والتمردات بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحدي**، دار نشر المعرفة، الرباط، المغرب. د.ت.ط.

.303 عنان عبد الله، **دولة الإسلام في الأندلس**، مكتبة الخانجي، الطبعة 02، القاهرة، مصر،1411هـ/ 1990م .

.304 عويس عبد الحليم، **دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية**، الطبعة 03،دار الوفاء، 1410هـ/1989م.

.305 عيسى الحريري، **تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني (610هـ/1213م- 869هـ/1465م)**، الطبعة 01، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1405هـ/ 1985م.

.306 غاقة إبراهيم، **الشيخ محيي الدين بن عربي**، دار هومة، بوزريعة، الجزائر، 2001م.

.307 الغراب محمود محمود، **الفقه عند الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى**، دار الفكر، دمشق، سوريا، د.ت.ط.

.308 الغراب محمود، **شرح رسالة روح القدس في محاسبة النفس من كلام الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي**، الطبعة 02، مطبعة نضر، 1406هـ/ 1985م.

.309 فتحي زغروت، **الجيوش الإسلامية وحركة التغيير في دولتي المرابطين والموحدين (المغرب والأندلس)**، الطبعة 01، القاهرة، مصر، الدار الإسلامية التوزيع والنشر، 1426هـ/2005م.

.310 فرح أنطون، **ابن رشد و فلسفته**، منشورات جامعة الإسكندرية، يناير 1903م.

.311 فرحات حليمة، وحميد التريكي، كتب المناقب كمادة تاريخية، ضمن كتاب : **التاريخ وآداب المناقب**، منشورات عكاظ، 1989 م.

.312 فرحات يوسف، **الفلسفة الإسلامية وأعلامها**، الطبعة 01، 1986م، الشركة الشرقية للمطبوعات.

.313 فرحات يوسف، **الفلسفة الإسلامية وأعلامها**، الطبعة 01، ، ، الشركة الشرقية للمطبوعات، 1986م.

.314 فيلالي عبد العزيز، **تلمسان في العهد الزياني**، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م.

.315 الفيومي إبراهيم، **تاريخ الفلسفة الإسلامية بالمغرب**، الطبعة 01، القاهرة، دار المعارف، 1412 هـ/ 1992م.

.316 القادري إبراهيم بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين، المجتمع، الذهنيات، الأولياء**، الطبعة 01، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1993م.

.317 كحالة عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني الدمشقي، **معجم المؤلفين**، مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت، دت.ط.

.318 كنون عبد الله الحسني، **النبوغ المغربي**، الطبعة 02، مطبعة تطوان، 1380هـ/1960م .

.319 لخضر محمد بولطيف، **فقهاء المالكية والتجربة السياسية الموحدية في الغرب الإسلامي**، الطبعة 01، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1429هـ/2009م.

.320 مؤنس حسين، **الطرق الصوفية وأثرها في نشر الإسلام في الصحراء الكبرى**، بور سعيد ،مصر، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع.

.321 مؤنس حسين، **تاريخ المغرب وحضارته**، دول المرابطين والموحدين والحفصي، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1992م.

.322 مؤنس حسين، **معالم تاريخ المغرب والأندلس**، مكتبة الأسرة للاعمال الفكرية، القاهرة، مصر، 2004م.

.323 مجمع اللغة العربية بالقاهرة، **المعجم الوسيط**، إشراف: إبراهيم مصطفى أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، القاهرة، مصر، دار الدعوة، د.ت.ط.

.324 محمد أبو زهرة، **ابن حزم، حياته وعصره آراؤه وفكره**، دار الفكر العربي، 1954م.

.325 محمد القبلي، **حول تاريخ المجتمع المغربي في العصر الوسيط**، نشر الفنك، الدار البيضاء، المغرب، 1998م.

.326 ـــــــــ، حول مضمرات "التشوف ضمن :**التاريخ وأدب المناقب**، دار عكاظ، 1987 م.

.327 محمد المنوني، **حضارة الموحدين**، الطبعة 01، الدار البيضاء، المغرب، دار توبقال، 1989م.

.328 محمد بن مفلح الحنبلي، **الآداب الشرعية والمنح المرعية**، بيروت، لبنان، عالم الكتب، د.ت.ط.

.329 محمد جواد مغنية، **الشيعة والتشيع**، مكتبة المدرسة، ودار لكتاب اللبناني، بيروت، د.ت.ط.

.330 محمد رضا المظفر، **عقائد الإمامية**، مؤسسة البعثة، طهران، د.ت.ط.

.331 محمد علي أبو ريان، **تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام** ، بيروت، لبنان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د.ت.ط.

.332 محمد عمارة مصطفى عمارة، **نظرية الخلافة، السلفية، الثورة، الفرق الإسلامية "مطبوع ضمن موسوعة الحضارة العربية والإسلامية"**، الطبعة 01، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1986م.

.333 محمد فتحة، الموحدون والمالكية، مقال ضمن كتاب **الصراع المذهبي ببلاد المغرب**، تنسيق حافظ حكمي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس، سلسلة مناظرات وندوات رقم: 157 .

.334 ــــــــــــ، **النوازل الفقهية والمجتمع** : أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن 6 – 9 هـ / 12 – 15م)، منشورات كلية الأداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، 1999م.

.335 محمد ناصر الدين الألباني، **فقه الواقع**، الطبعة 01، دار الجلالين للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، 1412هـ/ 1992م.

.336 محمود صبحي، **في علم الكلام، دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين، المعتزلة والأشاعرة**، الإسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية، 1406 هـ / 1987م .

.337 مخلوف محمد بن محمد بن عمر بن على ابن سالم التونسي المالكي (تـ 1360 هـ/1941 م)، **شجرة النور الزكية في طبقات**

علماء المالكية، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، مصر، 1349هـ/ 1930م.

338. المغراوي محمد بن عبد الرحمن، **العقيدة السلفية في مسيرتها التاريخية وقدرتها على مواجهة التحديات القسم الخامس : الأسباب الحقيقية لحرق إحياء علوم الدين بأمر خليفة المسلمين ابن تاشفين**، الطبعة 01، دار المنار، الرياض، 1414 هـ/ 1994 م.

339. مغزاوي مصطفى، **البعد السياسي في انتشار المذهب الأشعري في المشرق الإسلامي ومغربه**، دار كنوز للطباعة والنشر، الجزائر، 1432هـ/ 2011م.

340. ملين محمد الرشيد، **عصر المنصور الموحدي**، مطبعة الشمال الإفريقي، د.ت.ط.

341. موجز دائرة المعارف الإسلامية، **مادة أشعرية**، الجزء : 3، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الطبعة 01، 1418هـ / 1998م .

342. الميلي مبارك، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، تقديم وتصحيح: محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ت.ط.

343. الميلي محمد بركات، **الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب والأندلس حتى القرن الخامس الهجري**، الطبعة 01، دار النهضة العربية، القاهرة، مصر، 1996م.

344. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري، **مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة**، الطبعة 03، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1428هـ/ 2006م.

345. النجار عبد المجيد، **المهدي بن تومرت : حياته أراؤه و ثورته الفكرية والإجتماعية وأثره بالمغرب**، دار الغرب الإسلامي، 1403هـ/ 1983م .

346. ــــــــ، **تجربة إصلاح في حركة المهدي بن تومرت**، الطبعة 02، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، 1415هـ/ 1995م.

347. ــــــــ، **فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب**، الطبعة 01، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1413هـ/ 1992م.

348. النشار سامي، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، الطبعة 08، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1987م.

349. هويدي يحي، **تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية**، مكتبة النهضة المصرية، 1965م.

350. الوافي إبراهيم أحمد، **التفسير وعلوم القرآن بالغرب الإسلامي من القرن الثاني إلى القرن الثامن الهجري**، ضمن: السجل العلمي لندوة : الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، القسم الخامس: العلوم الشرعية، إشراف وتنسيق: الزيدان عبد الله بن علي وآخرون، الطبعة 01، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، السعودية، 1417هـ/ 1996م.

351. يفوت سالم، **ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس**، المركز الثقافى العربى للنشر والتوزيع، 1986م.

ثالثًا: المراجع الإستشراقيَّة.

350. آرثور سعد بيف وتوفيق سلوم، **الفلسفة العربية الإسلامية الكلام والمشائية والتصوف**، الطبعة 01، بيروت، لبنان، دار الفارابي، 2000م.

351. إرنست رينان، **ابن رشد و الرشدية**، نقله إلى العربية: عادل زعيتر، القاهرة، مصر، دار إحياء الكتب العربية، 1957م.

352. ألفرد بل، **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي**، ترجمة: عبد الرحمان بدوي، الطبعة 03، دار الغرب الإسلامي،1987م.

353. آنا ماري شيمل، **الأبعاد الصوفية في الإسلام وتارخ التصوّف**، ترجمة: محمد إسماعيل السيد، ورضا محمد قطب، الطبعة 01، منشورات الجمل، كولونيا (ألمانيا)، بغداد(العراق)، 2006م.

354. آنجل جنثالث بالنثيا، **تاريخ الفكر الأندلسي**، ترجمة: حسين مؤنس، الطبعة: 02، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، د.ت.ط.

355. بروفانصال لافي، **الإسلام في المغرب والأندلس**، ترجمة : السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي، الإسكندرية، مصر، مؤسسة شباب الجامعة، 1990م.

356. ــــــــــــــ، **مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية**، المطبعة الإقتصادية لصاحبها مصطفى بن عبد الله، الرباط، المغرب، د.ت.ط.

357. بلاثيوس اسين، **ابن عربي حياته ومذهبه**، ترجمهُ عن الإسبانية: عبد الرحمان بدوي، الطبعة 01، مكتبة الأنجلو سكسونية، القاهرة، مصر، 1979م.

358. دي بور، **تاريخ الفلسفة في الإسلام**، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، الطبعة 05، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، د.ت.ط.

359. روجي لوتورنو، **حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر**، الدار العربية للكتاب، 1982م.

360. سير توماس أرنولد، **تراث الإسلام**، تأليف جمهرة من المستشرقين، بإشراف: سير توماس أرنولد، عرَّبه وعلق عليه: جرجيس فتح الله، الطبعة 03، دار الضليعة، بيروت، 1978م.

361. شارل أندري جوليان، **تاريخ افريقيا الشمالية**، ترجمة محمد مزالي، طبعة تونس 1978 م.

362. فيلتشر بانيستر، الأندلس وشمال إفريقيا في عقيدة الموحدين ضمن كتاب: **الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس** ، تحرير: سلمى الخضراء الجيوسي، الطبعة 01، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1998م.

363. كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، الطبعة 05، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1968م.

364. مجموعة من المستشرقين، **الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس**، جمع وتنسيق: سلمى الخضراء الجبوسي الطبعة 02، بيروت، لبنان، 1999م.

365. هنري كوربان، **تاريخ الفلسفة الإسلامية**، ترجمة :نصيرة مروة وحسن قبيسي، الطبعة 02، بيروت، لبنان، عويدات للنشر والطباعة، 1198م.

366. هوبكنز جون، **النظم الإسلامية في المغرب في العصور الوسطى**، ترجمة: أمين توفيق الطيبي، ليبيا، تونس، الدار العربية للكتاب، 1980م.

رابعًا: المجلاّت والدّوريّات والمنشورات.

367. ابن تاويت محمد، مبادئ التشيع في الأدب الموحدي، **دعوة الحق**، السنة 08، العدد 04، مارس، 1965.

368. أحمدون عبد الخالق، مقال: أبو الوليد هشام بن عبد الله بن هشام القرطبي وكتابه " المفيد للحكام"، ضمن مجموع: **التراث المالكي في الغرب الإسلامي**، سلسلة منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامع عين الشق، الدار البيضاء، المملكة المغربية، د.ت.ط.

369. أعراب سعيد مقال موقف الموحدين من كتب الفروع وحمل الناس على المذهب الحزمي، **مجلة دعوة الحق المغربية**، المجلد: 26، العدد: 249، السنة:1405هـ/ 1985م.

370. أمين توفيق الطيبي، **جوانب من الحياة الإقتصادية في المغرب في القرن السادس الهجري من خلال رسائل جنيزة**، بحث مقدم ضمن : أعمال المؤتمر الثالث حول تاريخ المغرب وحضارته وهران 26 – 28 11 – 1983، ديوان المطبوعات الجامعية، 1987م.

371. بـامي جمـال، سـيدي علـي بوغالـب، **مجلـة ميثـاق الرابطـة المحمدية**، ركن علماء وصـلحاء، المغـرب، العـدد: 56 بتـاريخ 16-09-2011 / 22-09-2011.

372. بخيت محمد حسن، **أثر التأويـل فـي ظهـور الفـرق**، بحـث مقـدم للمؤتمر العلمي الـدولي :"الـنص بـين التحليـل والتأويـل والتلقـي" الـذي تنظمه جامعة الأقصى – غزة – فلسطين،1427هـ/2006م.

373. التهامي إبراهيم، **الأشعرية فـي المغـرب**، مجلـة الموافقـات، مجلـة صادرة عن المعهد الـوطني لأصـول الـدين بالخروبـة، الجزائـر، العـدد الرابع، السنة الرابعة، 1416هـ/جوان1995م.

374. الجـراري عبـاس، الموحـدون ثـورة سياسـية ومذهبيـة، **مجلـة المناهـل**، المملكة المغربية، العـدد 01، السـنة 01، ذو القعـدة 1384هـ/ 1974م.

375. جلاب حسن، الفكـر والأدب فـي عهـد الموحـدين، **مجلـة دعـوة الحق** ، المجلد: 26، العدد: 249، سنة: 1405هـ/ 1985م.

376. الحسيسن عبد الهـادي، **الحركـة العلميـة فـي العصـر الموحـدي**، مجلة دار الحديث، السنة: 05، 1406هـ/ 1984م.

377. ـــــــــــــــ، موقـف يعقـوب المنصـور مـن الظاهريـة، **مجلـة دار الحـديث الحسـنية**، مجلـة سـنوية، العـدد: 02، 1401هـ/ 1981م.

378. الدوسري ترحيب بن ربيعان، معجـم المؤلفـات الأصـولية المالكيـة المبثوثة في كشف الظنـون وإيضـاح المكنـون وهديـة العـارفين، مجلـة: **الجامعـة الإسـلامية بالمدينـة المنـورة**، العـدد: 120، السـنة: 35، 1423هـ/2003.

379. الريسوني أحمد، المذهب المالكي بالمغرب بين الجد والهزل، مقال من **مجلة الفرقان**، مجلة إسلامية أسبوعية تصدر عن جمعية إحياء التراث، الكويت، العدد :58، ذو القعدة - تشرين الثاني 1426هـ/ 2006م.

380. زنيبر محمد، اتجاه عياض الفكري، **مجلة المناهل**، وزارة الثقافة المغربية، العدد:19، 1401هـ/ 1981م.

381. ـــــــــــــ، حفريات عن شخصية يعقوب المنصور، **مجلة كلية الآداب**، الرباط، العدد: 09، سنة 1980م.

382. السحيباني حمد بن صالح، حقيقة دعوة ابن تومرت، **مجلة البيان**، العدد 17، شعبان 1409 / مارس 1989م.

383. سعيدي يحي، المدرسة المالكية العراقية في مرحلة ازدهارها، **أعمال الملتقى الوطني الرابع للمذهب المالكي بعين الدفلى**، (ملامح عن المذهب المالكي بعد مرحلة التأسيس)، 8-9-10-ربيع الثاني1429هـ/14-15- 16- أفريل 2008م.

384. الشريف محمد، تيار التصوف في العصر الموحدي من خلال قطعة من كتاب " المستفاد في مناقب العباد " لأبي عبد الله محمد التميمي، ضمن كتاب : **ملتقى الدراسات المغربية والاندلسية، تيارات الفكر في المغرب والأندلس، الروافد والمعطيات**، جامعة عبد الملك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، المغرب، 26-27-28، إبريل1993م.

385. شقور عبد السلام، **جهود المالكية في مواجهة الفرق المخالفة في الغرب الاسلامي**، مجلة التاريخ العربي، العدد: 41، جوان 2007م.

.386 ضريف محمد، التصوف بين «التربوي» و«السياسي»، **مجلة منار الهدى**، الرباط، المغرب، العدد: 15، سنة 2010م،

.387 الطاهري عبد الحق، ابن تومرت والمذهب المالكي، **مجلة دعوة الحق**، العدد 391، السنة الخمسون، صفر 1430هـ / فيفري 2009م، مجلة تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية.

.388 العافية عبد القادر، لماذا أحرق كتاب الإحياء، **مجلة دعوة الحق**، السنة : 1974، العدد: 7.

.389 عبد السلام بن ميس، المنطق في الفكر الوسيط، **مجلة التاريخ العربي**، العدد:02، ربيع الثاني 1417هـ/1997.

.390 عبد الغني أبو العزم، هل كان ابن تومرت مالكيا، ضمن مجموع: **التراث المالكي في الغرب الإسلامي**، سلسلة منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامع عين الشق، الدار البيضاء، المملكة المغربية، د.ت.ط.

.391 عبد القادر بن عزوز، ملامح من المدرسة الفقهية المالكية المصرية في طور التوسع والانتشار، **أعمال الملتقى الوطني الرابع للمذهب المالكي بعين الدفلى**، (ملامح عن المذهب المالكي بعد مرحلة التأسيس)، 8-9-10-ربيع الثاني1429هـ/14-15- 16- أفريل 2008م.

.392 عبد المحسن بن العباد البدر، عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر، المدينة المنورة، السعودية، **مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة**، السنة 01، العدد 03، ذو القعدة 388هـ/شباط 1969م.

.393 عبيد بوداود، **قراءة في العلاقة بين صوفية وفقهاء المغرب الأوسط ما بين القرنين 9 و10هـ / 13 و15م**، مجلة عصور الجديدة،

مجلة فصلية يصدرها مختبر تاريخ الجزائر بجامعة وهران، العدد: 01، 2011م.

394. عزاوي أحمد، الغرب الإسلامي من الوحدة إلى الإنقسام، **مجلة الآداب و العلوم الإنسانية**، العدد: 08، سنة: 2008 .

395. علال الفاسي، التصوف الإسلامي في المغرب، **مجلة الثقافة المغربية**، العدد 1، الرباط، 1970م.

396. علية الأندلسي، شذرات فقهية من الحقبة الموحدية (2)، **ميثاق الرابطة**، مجلة إلكترونيةن تصدر عن ميثاق الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب، العدد: 19، بتاريخ 18-06-2010م.

397. غراب سعد، مرشدة ابن تومرت وأثرها في التفكير المغربي، **الكراسات التونسية**، عدد 103-1978،104م.

398. فاروق حمادة، المذهبية في فكر أبي الوليد بن رشد، **مجلة التاريخ العربي**، العدد: 6، ربيع 1998م.

399. القبلي محمد، قراءة في زمن أبي محمد صالح، ضمن أعمال ملتقى: **أبو محمد صالح: المناقب والتاريخ**، آسفي، المغرب، 1990م.

400. القدوري سمير، المؤلفات المغربية والأندلسية في الرد على ابن حزم الظاهري –دراسة تاريخية وببليوغرافية – **مجلة الذخائر**، المملكة المغربية، العددان: 11 و 12 ، 1432 – 2002 م .

401. ــــــــــ، تحقيق بعض نصوص كتاب: التنبيه على شذوذ ابن حزم، للقاضي أبي الأصبغ بن سهل الجياني المالكي ت 486هـ، **مجلة الذخائر**، المملكة المغربية، العددان 15 و 16، 1424هـ/2003م.

.402 الكتاني إبراهيم، صفحة مجهولة من تاريخ الفكر الإسلامي، **مجلة دعوة الحق**، السنة 01، العدد 06، ديسمبر1957م.

.403 ـــــــــــــ، مؤلفات ابن حزم ورسائله بين أنصاره وخصومه، **مجلة الثقافة المغربية**، الرباط: العدد: 01، 1970م .

.404 كنون، أبو الحسن بن المسفر فيلسوف سبتي من عهد الموحدين، **مجلة المناهل**، وزارة الثاقفة المغربية، العدد:22، 1402هـ/ 1982م.

.405 لؤي علي خليل، الكرامات في التراث العربي الإسلامي (النموذج الأندلسي)، **مجلة التراث العربي**، العدد: 97، السنة الرابعة والعشرون، مارس 2005 م.

.406 مبروك المصري، **المدرسة الفقهية المغاربية المالكية**، مجلة الثقافة الإسلامية، تصدر عن مديرية الثقافة الإسلامية، الجزائر، السنة الأولى، العدد 01، 1426 هـ/ 2005 م.

.407 مجلة الصوفية (ديباجة المجلة)، ابن عربي : نشأته وثقافته وأفكاره، **مجلة الصوفية**، العدد 07، صفر 1429 هـ / فيفري 2008م.

.408 محمد رابطة الدين، أبو العباس السبتي ومجال مراكش، ملاحظات وتساؤلات، ضمن : كتاب **: الرباطات و الزوايا في تاريخ المغرب دراسات تاريخية مهداة إلى الأستاذ إبراهيم حركات**، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات رقم:69، جامعة الدار البيضاء، الطبعة 01، 1997 م.

.409 محمد رينر، حول بعض الوقائع الموحدية، **مجلة البحث العلمي**، يناير – إبريل 1967م / شوال – محرم 1387هـ.

410. محمد علي بن صديق، إطلالة على التصوف المغربي وتاريخه، **مجلة دعوة الحق**، السنة : 33، العدد: 289، ماي، 1989 م.

411. محي الدين عطية، ابن رشد: قائمة ورقية مما كتبه وكُتب عنه، **مجلة إسلامية المعرفة** ، السنة 05، العدد: 17، 1420هـ/1999م.

412. المغراوي محمد، التواصل الصوفي بين المغرب والمشرق إلى حدود القرن 9 هـ / 13 م، **مجلة دعوة الحق**، السنة الثانية والخمسون، العدد: 395، ربيع الثاني 1431هـ/إبريل 2010م.

413. ـــــــــ، القصر الكبير : الذاكرة والحاضر، أعمال الندوة 1 – 3 أبريل 1998م، تنسيق: محمد المغراوي.

414. ـــــــــ، الموحدون والمذهب الظاهري، مقال ضمن كتاب: **الصراع المذهبي ببلاد المغرب**، تنسيق حافظ حكمي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس – أكدال، سلسلة مناظرات وندوات رقم: 157.

415. ـــــــــ، تطور علاقة السلطة الموحدية بفقهاء المذهب المالكي إلى عهد يعقوب المنصور، **مجلة افاق الثقافة والتراث**، الأردن ،2000، العدد: 31.

416. ـــــــــ، صمود المذهب المالكي في العصر الموحدي، **مجلة دعوة الحق**، العدد 391، السنة الخمسون، صفر 1430هـ / فيفري 2009م، مجلة تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية.

417. نايف بلوزة، ابن رشد بين الإيديولوجيا والعقلانية، **مجلة التراث العربي**، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد: 74، السنة: 19، كانون الثاني "يناير" 1999م / رمضان 1419هـ.

.418 النجار عبد المجيد، الدولة والسياسة في فكر المهدي ابن تومرت، **مجلة الثقافة**، عدد: 81، 1984م.

.419 نويهض وليد، سلسلة صعود الفلسفة في زمن دولة الموحدين(02): ابن طفيل رجل السياسة في عالم الفلسفة، **صحيفة الوسط البحرينية**، العدد: 2548 ، الجمعة 07 رمضان 1430هـ الموافق لـ :28 أغسطس 2009م.

.420 نويوة واعظ، **مدى رسوخ مهدوية ابن تومرت في مختلف طبقات المجتمع الموحدي**، دورية كان التاريخية، العدد 11، مارس 2011م.

.421 الهنتاتي نجم الدين، مرجعيات المدرسة المالكية الفاسية في العصر الوسيط وخصائصها العامة، **مجلة التاريخ العربي**، الرباط، العدد: 51، 2010م.

.422 هويدي يحي، محمد بن تومرت وتوفيقه بين الحكمة والشريعة، **مجلة دراسات ثقافية و أدبية**، العدد 12، جانفي 1973، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، قسنطينة، الجزائر .

خامساً: الدراسات غير المطبوعة.

.423 أبو ندى محمود محمد، **الدور الجهادي للعلماء في الأندلس (422هـ/609هـ/ 1031م- 1212م)**، رسالة مجستير، تحت إشراف: خالد يونس الخالدي، قسم التاريخ، الجامعة الإسلامية، غزة، 1426هـ/ 2006م.

.424 سلطاني الجيلالي، **الشعر الديني خلال العصر الموحدي**، رسالة دكتوراه، 2002 م، كلية الآداب جامعة وهران.

.425 سليمان ولد خسال، **جهود علماء المغرب العربي في بناء النظام السياسي الإسلامي بين سنتي (633هـ - 922م)**، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه علوم في العلوم الإسلامية، إشراف الأستاذ: علي عزوز، قسم الشريعة، جامعة الجزائر، 1428هـ/ 2008م.

.426 الطاهري عبد الحق، **بنية الحكم الموحدي ووسائله**، أطروحة لنيل شهاد الدكتوراه في التاريخ الوسيط، تحت إشراف : أحمد التوفيق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، المملكة المغربية، 1426هـ / 2005م.

.427 العسالي محمد، **المدارس الفقهية في المذهب المالكي**، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا، إشراف الأستاذ زين العابدين بلافريج، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، المغرب، 1421 هـ/ 2000 م.

.428 العمراني محمد، **الموحدون في الأندلس الوجود العسكري وعلاقة السلطة بالمجتمع، 541 - 609 هـ / 1147-1212 م**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ ، تحت اشراف الدكتور محمد حمام، 2002 - 2003 م، جامعة محمد الخامس، أكدال، الرباط.

429. عميروش نعيمة، **نظام الخلافة والتشريفات عند الموحدين من خلال كتاب المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة: دراسة تحليلية نقدية**، رسالة مجستير، إشراف: صالح بن قربة، جامعة الجزائر، 2002م.

430. لحمنات عبد الجليل، **التصوف المغربي في القرن السادس الهجري**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، تحت إشراف الأستاذ محمد زنيبر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب،1989م–1990م.

431. مبارك رضوان، **المذهب المالكي بالمغرب في عهد المرابطين والموحدين**، المغرب، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة ،كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط،1987م.

432. محمد رابطة الدين، **مراكش على عهد الموحدين – جوانب من تاريخ المجال والإنسان –** ، أطروحة دكتوراه ، إشراف حليمة فرحات ، جامعة محمد الخامس، شعبة التاريخ، الرباط، 2002 م.

433. المغراوي محمد، **العلماء والصلحاء والسلطة بالمغرب والأندلس في عصر الموحدين**، رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط، تحت إشراف الأستاذين: عز الدين عمر موسى، وأحمد توفيق، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1423هـ/ 2002م.

434. المغراوي محمد، **خطة القضاء بالمغرب في الدولة الموحدية**، دراسة لنيل شهادة الدراسات المعمقة، إشراف : محمد زنيبر، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1986م/1987م.

435. محمد محمود عبد الله بن بية، **الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين**، رسالة مقدمة لنيل درجة المجستير في التاريخ الإسلامي،

إشراف: محمد أحمد حسب الله، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، السعودية، 1418هـ/ 1997م.

436. نجار ليلى أحمد، **المغرب والأندلس في عهد المنصور الموحدي، دراسة تاريخية وحضارية (580هـ- 595هـ/ 1184م – 1198م)**، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، تحت إشراف: أحمد السيد دراج، جامعة أم القرى، السعودية، 1409هـ/ 1989م.



المـــحتـــوى

